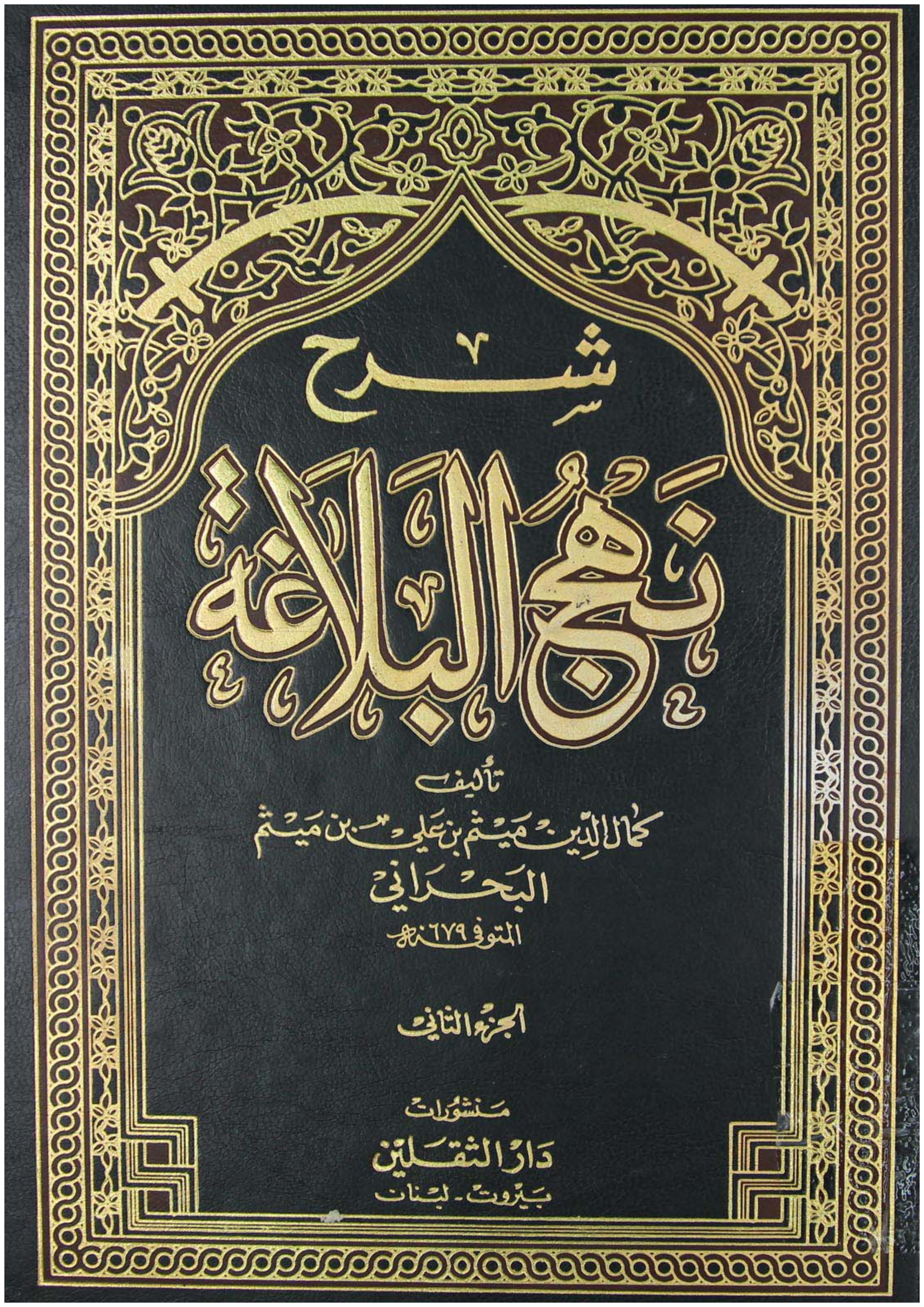
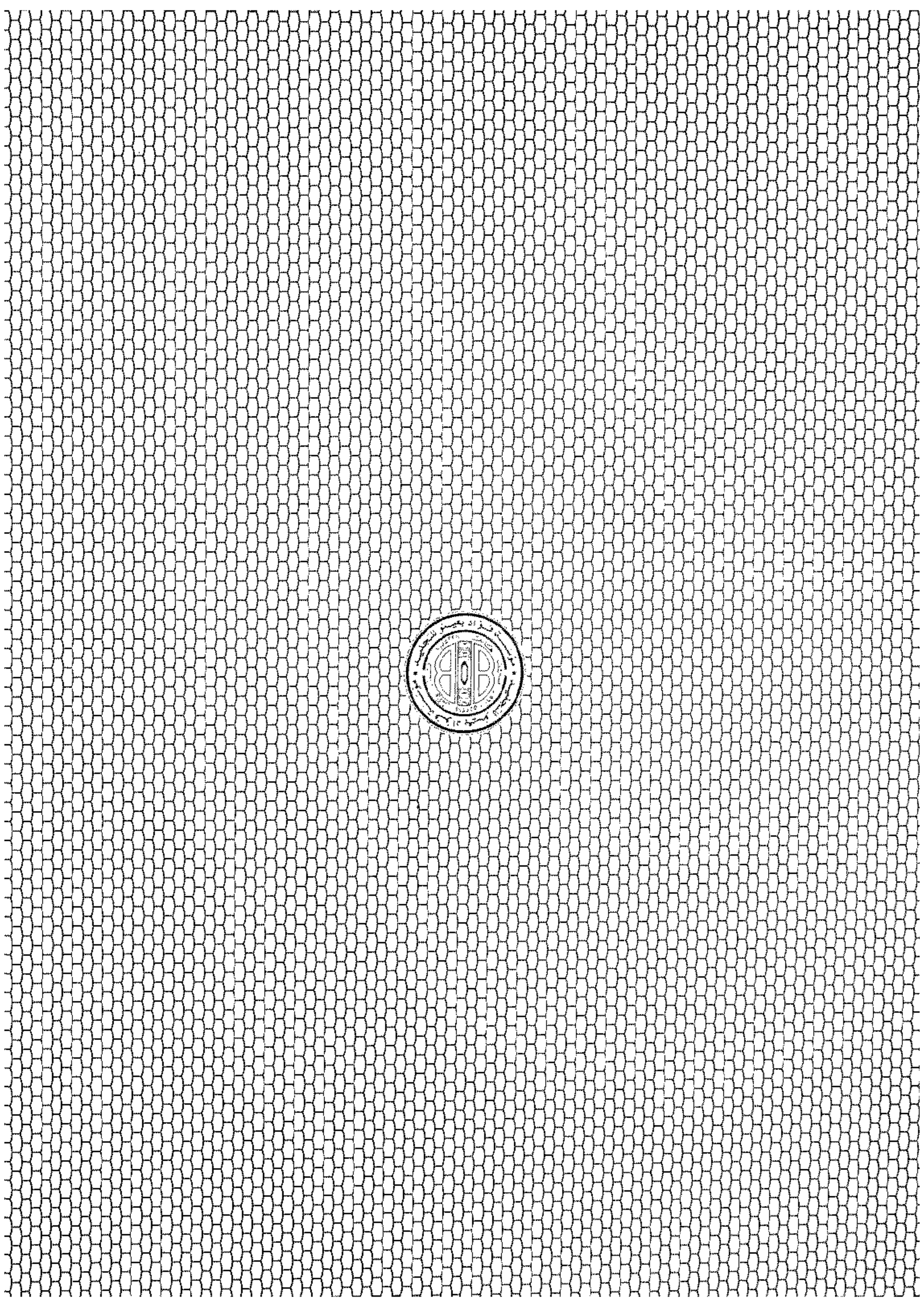
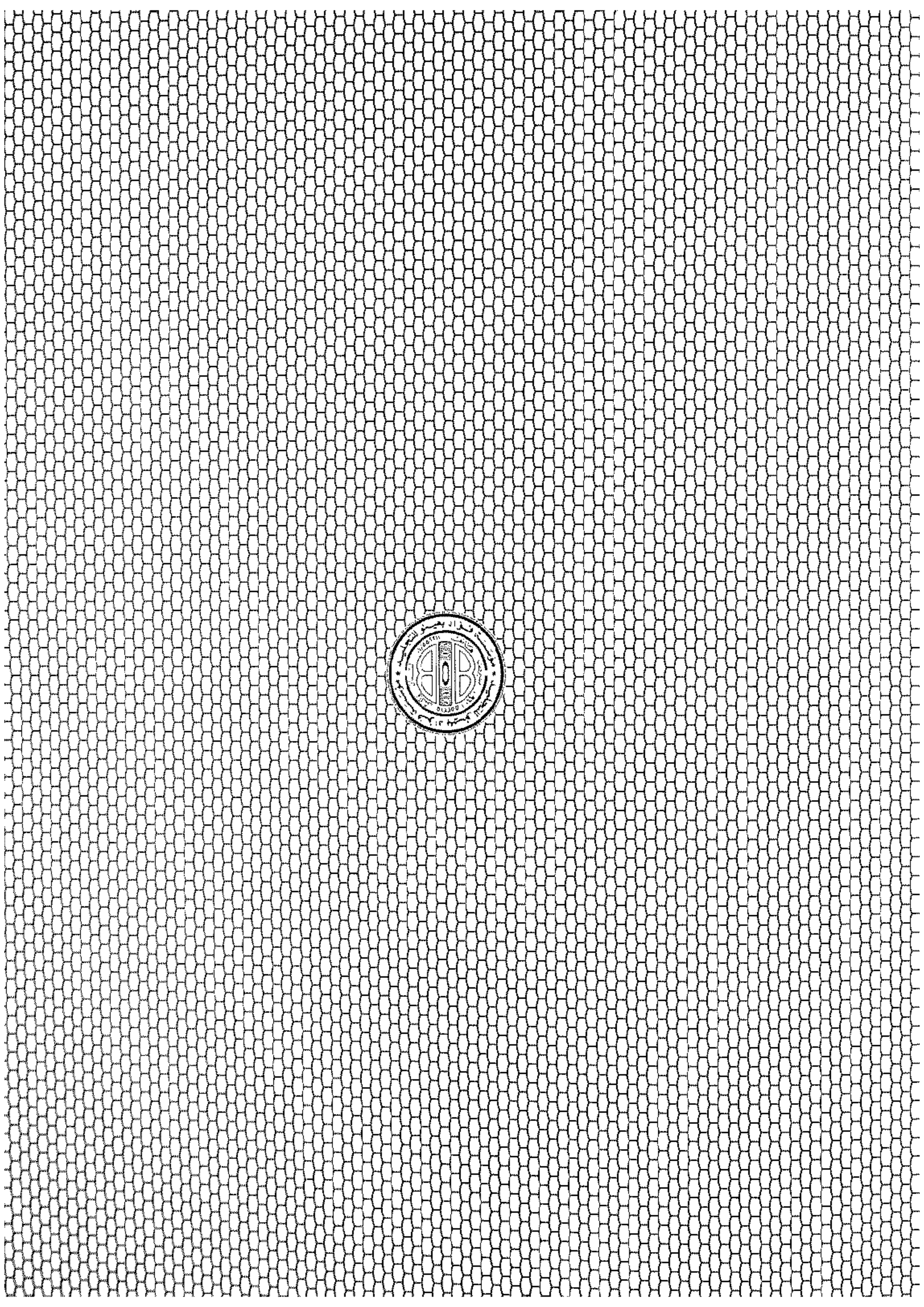

شرح
نهج البلاغة
تأليف
كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم
البحراني
المتوفى ٦٧٩ هـ
الجزء الثاني
منشورات
دار الثقلين
بيروت - لبنان









شرح نهج البلاغة

تأليف

كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم
البحراني
المتوفى ٦٧٩ﻫ

الجزء الثاني

دار الثقلين
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م



دار الثقلين للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان - ص . ب ٢٥/١٧٩ تلفاكس ٢٧١٦٣٠
DAR AL THAKALAIN Printing ,Publishing andDistribution BEIRUT-LEBANON P.O. BOX:179/25 -Telefax :271630

٢٢ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ ٱلأَمْرَ يَنْـزِلُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ إِلَى ٱلأَرْضِ كَقَطَرَاتِ ٱلْمَطَرِ: إِلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا قُسِمَ لَهَا مِنْ زِيَادَةٍ وَنُقْصَانٍ، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ لأَخِيهِ غَفِيرَةً فِي أَهْلٍ أَوْ مَالٍ أَوْ نَفْسٍ، فَلا تَكُونَنَّ لَهُ فِتْنَةً؛ فَإِنَّ الْمَرْءَ الْمُسْلِمَ مَا لَمْ يَغْشَ دَنَاءَةً تَظْهَرُ فَيَخْشَعُ لَهَا ذُكِرَتْ، وَتُغْرَى بِهَا لِئَامُ النَّاسِ؛ كَانَ كَالْفَالِجِ الْيَاسِرِ الَّذِي يَنْتَظِرُ أَوَّلَ فَوْزَةٍ مِنْ قِدَاحِهِ تُوجِبُ لَهُ الْمَغْنَمَ، وَيُرْفَعُ بِهَا عَنْهُ الْمَغْرَمُ، وكذلكَ المَرءُ المسلِمُ البَرِيءُ من الخِيَانةِ يَنْتَظِرُ مِنَ اللهِ إحْدى الحُسْنَيَيْنِ إمَّا دَاعِيَ ٱللهِ فَمَا عِنْدَ ٱللهِ خَيْرٌ لَهُ، وَإِمَّا رِزْقَ ٱللهِ فَإِذَا هُوَ ذُو أَهْلٍ وَمَالٍ، وَمَعَهُ دِينُهُ وَحَسَبُهُ، إِنَّ الْمَالَ وَالْبَنِينَ حَرْثُ الدُّنْيَا، وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ حَرْثُ الآخِرَةِ، وَقَدْ يَجْمَعُهُمَا ٱللهُ لأَقْوَامٍ، فَٱحْذَرُوا مِنَ ٱللهِ مَا حَذَّرَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ، وَٱخْشَوْهُ خَشْيَةً لَيْسَتْ بِتَعْذِيرٍ، وَٱعْمَلُوا فِي غَيْرِ رِيَاءٍ وَلاَ سُمْعَةٍ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يَعْمَلْ لِغَيْرِ ٱللهِ يَكِلْهُ ٱللهُ لِمَنْ عَمِلَ لَهُ نَسْأَلُ ٱللهَ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَمُعَايَشَةَ السُّعَدَاءِ، وَمُرَافَقَةَ ٱلأَنْبِيَاءِ.

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لاَ يَسْتَغْنِي الرَّجُلُ، وَإِنْ كَانَ ذَا مَالٍ، عَنْ عَشِيرَتِهِ، وَدِفَاعِهِمْ عَنْهُ بِأَيْدِيهِمْ وَأَلسِنَتِهِمْ، وَهُمْ أَعْظَمُ النَّاسِ حِيطَةً مِنْ وَرَائِهِ، وَأَلَمُّهُمْ لِشَعَثِهِ، وَأَعْطَفُهُمْ عَلَيْهِ عِنْدَ نَازِلَةٍ إِذَا نَزَلَتْ بِهِ. وَلِسَانُ الصِّدْقِ يَجْعَلُهُ ٱللهُ

لِلْمَرْءِ فِي النَّاسِ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْمَالِ يُوَرِّثُهُ غَيْرَهُ.

أقول: الغفيرة: الكثرة والزيادة. وروي عِفوة بكسر العين؛ وعفوة كلّ شيء صفوته وغرى يغري بالأمر إذا ولع به، وأغريته به: إذا حثثت له الدخول فيه. والفالج: الفائز. والياسر: اللاعب بالميسر. وسنذكر كيفيّته. والقداح سهام الميسر التي يلعب بها، والتعذير اظهار العذر ممّن لا عذر له في الحقيقة، وعشيرة الرجل: قبيلته والمعاشرون له، والحِيطة بالكسر: الحفظ والرعاية، واللّم: الجمع. والشعث: تفرّق الأمر وانتشاره.

واعلم أنَّ مدار هذا الفصل على تأديب الفقراء بترك الحسد ونحوه أوّلاً، وعلى تأديب الأغنياء بالشفقة على الفقراء ومواساتهم بالفضل من المال وتزهيدهم جمعه ثانياً.

فقوله: أمّا بعد فإنّ الأمر ينزل. إلى قوله: أو نقصان. صدر الخطبة. أورده ليبني عليه غرضه، وحاصله الإشارة إلى أنَّ كلّ ما يحدث من زيادة أو نقصان ويتجدّد فيما يكون به صلاح حال الخلق في معاشهم ومعادهم من صحّة أو مال أو علم أو جاه أو أهل فإنّه صادر عن القسمة الربّانيّة المكتوبة بقلم القضاء الإلهي في اللوح المحفوظ الذي هو خزانة كلّ شيء. والمراد بالأمر حكم القدرة الإلٓهيّة على الممكنات بالوجود وهو المعبّر عنه بقوله تعالى: كن: في قوله: **﴿إنّما قولنا لشيء إذا أردناه﴾** وبنزوله نسبة حصوله إلى كلّ نفس بما قسم لها وهي النسبة المسمّاة بالقدر في قوله تعالى: **﴿وإن من شيء إلّا عندنا خزائنه وما ننزّله إلّا بقدر معلوم﴾**[1] والمراد بالسماء سماء الجود الإلهي وبالأرض عالم الكون والفساد على سبيل استعارة هذين اللفظين للمعنيين المعقولين من المحسوسين، ووجه الاستعارة في الموضعين مشاركة المعنيين المذكورين للسماء والأرض في معنيي العلوّ والاستفال كلّ بالنسبة إلى الآخر، وإنّما لم تكن الحقيقة مرادة لأنَّ الأمر النازل ليس له جهة هي مبدأ نزوله وإلّا لكان الأمر في جهته ـ تعالى الله عن ذلك ـ ويحتمل أن يراد

---

(١) ١٥ ـ ٢١.

حقيقة السماء والأرض على معنى أنّ الحركات الفلكية لمّا كانت شرائط معدّة يصدر بواسطتها ما يحدث في الأرض كانت السماء مبادىء على بعض الوجوه لنزول الأمر. فأمّا تشبيهه بقطر المطر فوجه التشبيه أنّ حصول الرزق والأهل ونحوهما لكلّ نفس وقسمها منها مختلف بالزيادة والنقصان كما أنّ قطر المطر بالقياس إلى كلّ واحدة من البقاع كذلك. وهو تشبيه للمعقول بالمحسوس.

وقوله: فإذا رأى أحدكم لأخيه المسلم غفيرة في أهل أو مال أو نفس فلا تكوننّ له فتنة. شروع في تأديب من حصل في حقّه النقصان في أحد الأمور المذكورة بالنهي لهم عن الافتتان بحال من حصلت له الزيادة والنفاسة في أحدها: من المال أو الأهل أو النفس. قال بعض الشارحين: إنّه أراد بالنهي عن الفتنة هاهنا النهي عن الحسد. والتحقيق أن يقال: إنّ الفتنة هي الضلال عن الحقّ بمحبّة أمرٍ ما من الأمور الباطلة، والاشتغال به عمّا هو الواجب من سلوك سبيل الله. ولمّا كان حال الفقراء من أحد الأمور المذكورة بالنسبة إلى من عرضت له الزيادة في أحدها، فمنهم من يؤهّل نفسه لتلك الزيادة فيرى أنّه أحقّ بها ممّن عرضت له فيعرض له أن يحسده، أو يرى أنّه يستحقّ مثلها فيعرض له أن يغبطه، ومنهم من يقصّر نفسه عن ذلك لكن يميل بطبعه إلى خدمة من له تلك الزيادة، وينجذب بكلّيته إلى موالاتهم ككثير من الفقراء الذين يميلون بطباعهم إلى خدمة الأغنياء، ويخلصون السعي لهم ليس لأمر سوى ما حصلوا عليه من مال أو جاه أو نحو ذلك. ولعلّ تلك الغاية يشوبها توهّم الانتفاع بهم ممّا حصلوا عليه. ولمّا كانت هذه الأمور ونحوها أعلى الحسد والغبطة، والميل إليهم لأجل ما حصلوا عليه من الزيادة في أحد الأمور المذكورة رذائل أخلاق مشغلة عن التوجّه إلى الله تعالى ومقبلة عن سواء السبيل كان المنهيّ عنه في الحقيقة هو الضلال بأحد الرذائل المذكورة. وهو المراد بلفظ الفتنة هاهنا.

وقوله: فإنّ المرء المسلم. إلى قوله: ومعه دينه وحسبه.

أقول: إعراب هذا الفصل أنّ ما هاهنا بمعنى المدّة. وكالفالج خبر أنّ. وتظهر صفة لدناءة. وقوله فيخشع إن حملنا الخشوع على المعنى اللغوي هو

غضّ الطرف مثلاً والتطامن. كان عطفا على يظهر، وإن حملناه على المعنى العرفيّ وهو الخضوع لله والخشية منه فالفاء للابتداء. والياسر صفة للفالج. وإذا للمفاجأة. إذا عرفت ذلك.

فاعلم أنّه عليه السلام لمّا نهى عن الفتنة بأحد الأمور المذكورة والشغل بها أراد أن ينبّه على فضيلة الانتهاء عنه فنبّه على كونها دنايا بقوله: ما لم يغش دناءة، ثمّ عقّب بالتنفير عن الدناءة والترغيب في التنزّه عنها بما ذكره. ومعناه أنّ المسلم مهما لم يرتكب أمراً خسيساً يظهر عنه فيكسب نفسه خلقاً رديئاً، ويلزمه بارتكابه الخجل من ذكره بين الخلق إذا ذكروا الحياء من التعيير به، ويغري به لئام الناس وعوامّهم في فعل مثله. وقيل: في هتك ستره. فإنّه يشبه الفالج الياسر. هذا إن حملنا الخشوع على معناه اللغويّ، وإن حملناه على المعنى العرفي الشرعيّ كان المراد أنه ما لم يغش دناءة فيخشع لها: أي بل يخشع لله ويخضع له عند ذكرها ويتضرّع إليه هرباً من الوقوع في مثلها وخوفاً من وعيده على المعاصي فيكون كالفالج الياسر.

فلنشر أوّلاً إلى كيفية اللعب المسمّى ميسراً ليتّضح به وجه التشبيه. فنقول: إنَّ الخشبات المسمّيات قداحاً وهي التي كانت لأيسار الجزور سبعة: أوّلها: الفذّ بالذال المعجمة وفيه فرض واحد. وثانيها: التوأم. وفيه فرضان. وثالثها: الضريب بالضاد المعجمة وفيه ثلاثة فروض. ورابعها: الحلس بكسر الحاء، ونقل أحمد بن فارس في المجمل: الحلس بفتح الحاء وكسر اللام. وفيه أربعة فروض. وخامسها: النافس وفيه خمسة فروض. وسادسها: المسيل. وهي ستّة فروض. وسابعها: المعلّى وله سبعة فروض. وليس بعده قدح فيه شيء من الفروض، إلاّ أنّهم يدخلون مع هذه السبعة أربعة اخرى تسمّى أوغاداً. لا فروض فيها. وإنّما تثقل به القداح. وأسماؤها: المصدر، ثمّ المضعف، ثمّ المنبح، ثمّ الصفيح. فإذا اجتمع أيسار الحيّ أخذ كلّ منهم قدحاً: وكتب عليه اسمه أو علّم بعلامة، ثمّ أتوا بجزور فينحرها صاحبها ويقسمها عشرة أجزاء: على الوركين، والفخذين، والعجز، والكاهل، والزور، والملحاء، والكتفين. ثمّ يعمد إلى الطفاطف وحرز الرقبة

فيقسّمها على تلك الأجزاء بالسويّة. فإذا استوت وبقي منها عظم أو بضعة لحم انتظر به الجازر من أراده ممّن يفوز قدحه فإن أخذه عيّر به وإلّا فهو للجازر، ثمّ يؤتى برجل معروف أنّه لم يأكل لحماً قطّ بثمن إلّا أن يصيبه عند غيره ويسمّى الحرضة. فيجعل على يديه ثوب، وتعصّب رؤوس أصابعه بعصابة كيلا يجد مسّ الفروض، ثمّ يدفع إليه القداح، ويقوم خلفه رجل يقال له الرقيب. فيدفع إليه قدحاً قدحاً منها من غير أن ينظر إليها. فمن خرج قدحه أخذ من أجزاء الجزور بعدد الفروض التي في قدحه، ومن لم يخرج قدحه حتى استوفيت اجزاء الجزور غرم بعدد فروض قدحه كأجزاء تلك الجزور من جزور اخرى لصاحب الجزور الذي نحرها. فإن اتّفق أن خرج المعلّى أوّلا فأخذ صاحبه سبعة أجزاء من الجزور، ثمّ خرج المسبل فلم يجد صاحبه إلّا ثلاثة أجزاء أخذها، وغرم له من لم يفز قدحه ثلاثة أجزاء من جزور أخرى. وأمّا القداح الأربعة الأوغاد فليس في خروج أحدها غنم، ولا في عدم خروجه غرم. والمنقول عن الأيسار أنّهم كانوا يحرّمون ذلك اللحم على أنفسهم، ويعدّونه للضيافة. إذا عرفت ذلك.

فاعلم أنّ وجه الشبه هو ما ذكره عليه السلام وذلك أنّ الفائز الياسر الذي ينتظر قبل فوزه أوّل فوزة من قداحه أوجب له فوزه المغنم ونفى عنه المغرم فكذلك المسلم البريء من الخيانة الضابط لنفسه عن ارتكاب مناهي الله لمّا كان لا بدّ له في انتظاره لرحمة الله وصبره عن معصيته أن يفوز بإحدى الحسنيين: وهي إمّا أن يدعوه الله إليه بالقبض عن الشقاء في هذه الدار. فما عند الله ممّا أعدّه لأوليائه الأبرار خير له. فيفوز إذن بالنعيم المقيم. ولمّا كان فوزه مستلزماً لعدم خسرانه ظهر حسن تشبيهه بالياسر الفالج في فوزه المستلزم لعدم غرمه. ويحتمل أن يريد بداعي الله لا الموت؛ بل الجواذب الإلهيّة، والخواطر الربّانيّة التي تسنح له فتجذبه إلى طرف الزهد الحقيقيّ والالتفات عن خسائس هذه الدار إلى ما وعد به المتّقون، وإمّا أن يفتح الله عليه أبواب رزقه فيصبح وقد جمع الله له بين المال والبنين مع حفظ الحسب والدين. فيفوز

الفوز العظيم ويأمن العقاب الأليم. فالتشبيه أيضاً هاهنا واقع موقعه، وكلا الوصفين أفضل عند العاقل من الفتنة بالغير، والالتفات عن الله تعالى، وتدنيس لوح النفس برذائل الأخلاق من الحسد ونحوه. وكما أنّ الفصل مستلزم للنهي عن الحسد ونحوه من الفتن المضلّة كذلك هو مستلزم للأمر بالصبر على بلاء الله وانتظار رحمته.

قوله: إنّ المال والبنين حرث الدنيا. إلى قوله: لأقوام.

أقول: لمّا بيّن فيما سبق من التشبيه وغيره أنّ تارك الرذائل المذكورة ونحوها المنتظر للحسنى من الله فائز. أردف ذلك بالتنبيه على تحقير المغشيات التي ينشأ منها التنافس، ومنها الرذائل المذكورة. فذكر أعظمها وأهمّها عند الناس وهو المال والبنون. فإنّهما أعظم الأسباب الموجبة لصلاح الحال في الحياة الدنيا وأشرف القينات الحاضرة. كما قال الله تعالى: ﴿**المال والبنون زينة الحياة الدنيا**﴾ ونبّه على تحقيرهما بالنسبة إلى العمل بكونهما من حرث الدنيا. والعمل الصالح حرث الآخرة. والمقدّمة الأولى من هذا الاحتجاج صغرى كبراه ضمير تقديرها وحرث الدنيا حقير عند حرث الآخرة. فينتج أنّ المال والبنين حقيران بالنسبة إلى حرث الآخرة. وقد ثبت في المقدّمة الثانية أنّ حرث الآخرة هو العمل الصالح. فإذن المال والبنون حقيران بالنسبة إلى العمل الصالح.

أمّا المقدّمة الأولى فظاهرة إذ لا حصول للمال والبنين في غير الدنيا.

وأمّا بيان الثانية فمن وجهين: أحدهما: قوله تعالى: ﴿**وما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلّا قليل**﴾ وظاهر أنّه لا يريد قلّة الكميّة، بل المراد حقارته بالنسبة إلى متاع الآخرة ولذّتها. الثاني: أنّ حرث الدنيا من الأمور الفانية، وحرث الآخرة من الامور الباقية الموجبة للسعادة الأبديّة، والفانيات الطالحات ظاهرة الحقارة بالنسبة إلى الباقيات الصالحات كما قال تعالى: ﴿**والباقيات الصالحات خير عند ربّك ثواباً وخير أملاً**﴾ ثمّ نبّه السامعين بقوله: وقد يجمعهما الله لأقوام. على وجوب الالتفات إلى الله تعالى والتوكّل عليه. وذلك أنّ الجمع بين حرث الدنيا والآخرة لمّا كان في طباع كلّ عاقل طلب

تحصيله، وكان حصوله إنّما هو من الله دون غيره لمن يشاء من عباده. ذكر عليه السلام ذلك ليفرغ الطالبون للسعادة إلى جهة تحصيلها وهو التقرّب إلى الله بوجوه الوسائل، والإعراض عمّا لا يجدي طائلاً من الحسد ونحوه، ثم أكد ذلك الجذب بالتحذير ممّا حذّره الله من نفسه. والأمر بالخشية الصادقة البريئة من التعذير المستلزمة لترك محارمه، ولزوم حدوده الجاذبة إلى الزهد الحقيقي، ثمّ أردف ذلك بالأمر بالعمل لله البريء من الرياء والسمعة وهو إشارة إلى العبادة الخالصة لله، والمستلزمة لتطويع النفس الأمّارة بالسوء للنفس المطمئنّة، وقد ثبت في علم السلوك إلى الله تعالى أنّ الزهد والعبادة كيف يوصلان إلى السعادة التامّة الأبديّة.

وقوله: فإنّه من يعمل لغير الله يكله الله لمن عمل له.

تعليل لوجوب ترك الرياء والسمعة في العمل. فإنّ العامل للرياء والسمعة قاصد أن يراه الناس ويسمعوا بحاله ليعود إليه منهم ما يتوقّعه من مال أو جاه ونحوه من الأغراض الباطلة والأعراض الزائلة. وقد علمت أنّ التفات النفس إلى شيء من ذلك شاغل لها عن تلقّي رحمة الله والاستعداد لها، محجوبة به عن قبول فضله. ولمّا كان هو مسبّب الأسباب ومنتهى سلسلة الممكنات لا جرم كانت المطالب منه لا من غيره فجرى منه التحديد بالوكول إلى من سواه ممّن عمل له العاملون لاستلزامه الخيبة والحرمان. وخسر العاملون إلّا له، وخاب المتوكّلون إلّا عليه. وقد سبق منّا بيان معنى كون العامل لغير الله موكولاً إلى نفسه وإلى من عمل له في الفصل الذي ذمّ فيه عليه السلام من يتصدّى للحكم بين الأمّة وليس من أهله.

قوله: نسأل الله منازل الشهداء ومعايشة السعداء ومرافقة الأنبياء.

لمّا كانت همّته عليه السلام مقصورة على طلب السعادة الأخروية طلب هذه المراتب الثلاث. وفي ذلك جذب للسامعين إلى الاقتداء به في طلبها والعمل بها. وبدء عليه السلام بطلب أسهل المراتب الثلاث للإنسان، وختم بأعظمها. فإنّ من حكم له بالشهادة غايته أن يكون سعيداً، والسعيد غايته أن يكون في زمرة

الأنبياء رفيقاً لهم. وهذا هو الترتيب اللائق من المؤدّب الحاذق. فإنّ المرتبة العالية لا تنال دفعة دون نيل ما هو أدون منها.

قوله: أيّها الناس. إلى قوله: يورّثه غيره.

أقول: لمّا أشار إلى تأديب الفقراء عن التعرّض للأغنياء بما يوجب لهم ملكات السوء من الحسد ونحوه أردف ذلك بتأديب الأغنياء واستدراجهم في حقّ الفقراء ذوي الأرحام وأهل القبيلة ونحوهم من الأصحاب بالأمر بالمواساة في المال والمؤونة لهم لينتظم شمل المصلحة من الطرفين. فاستدرجهم بأمرين:

أحدهما: ببيان أنّهم لا يستغنون عنهم وإن كانوا أصحاب ثروة. فإنّ الرجل لا يستغني بماله عن أعوان له يذُبّون عنه بأيديهم صولة قبائل، ويدفعون عنه بألسنتهم مسبّة قائل، بل من المعلوم أنّ أشدّ الناس حاجة إلى الأعوان والأصحاب والمعاضدين هم أكثر الناس ثروة؛ وانظر إلى الملوك والمتشبّهين بهم من أرباب الأموال. وأحقّ الناس بعدم الاستغناء عنهم عشيرة الرجل وأصحابه. فإنّهم أعظم الناس شفقة عليه، وأشدّهم دفاعاً عنه وحفظاً لجانبه، وألمّهم لشعثه أي أشدّهم جمعاً لمتفرّق حاله، وأعطفهم عليه إن نزلت به نازلة من فقر ونحوه. وذلك أنّ قربهم منه باعث لدواعي الشفقة عليه.

الثاني: التنبيه بذكر غايتي إنفاق المال وجمعه، وتفضيل أحدهما على الآخر. وذلك قوله: ولسان الصدق يجعله الله للمرء الخ. فلسان الصدق هو الذكر الجميل بين الناس وهو من غايات البذل والانفاق، وغاية جمع المال هي توريثه للغير. وأمّا أفضليّة البذل على الجمع فظاهرة من تصوّر هاتين الغايتين. وإنّما رغّب عليه السلام في البذل بما يستلزمه من غاية الذكر الجميل بين الناس وإن لم يكن مقصوده من الحثّ على البذل إلاّ مصلحة الفقراء وسداد خلّتهم، وتأديب الأغنياء وتعويدهم بالبذل والنزول عن محبّة المال. لأنّ توقّع الذكر الجميل من الناس أدعى إلى البذل وأكثر فعلا في النفوس من الغايات التي يقصدها عليه السلام. وذلك من الاستدراجات الحسنة. حتى إذا انفتح باب

البذل وتمرّنت النفوس عليه وجدت أنّ أولى المقاصد التي يصرف فيها المال هي المقاصد التي يقصدها الشارع ويحثّ عليها من سدّ خلّة الفقراء التي ينتظم بها شمل المصلحة ويتّحد الناس بعضهم ببعض خصوصاً العشيرة. فإنه من الواجب في السيرة العادلة التي بها صلاح حال الإنسان في الدارين أنّه لمّا كان لا غناء له عن عشيرته وأصحابه، وكان إكرامهم ومواساتهم بالمال هو الذي يؤكّد الانتفاع بهم ويستحقّونه في مقابلة حفظهم لجانبه وحياطتهم له فبالحريّ أن يجب مواساتهم وإكرامهم بما ينتظم أحوالهم من فضل المال، وكفى بذكر غاية جمع المال وهي توريث الغير المستلزمة لذكر هادم اللذّات باعثاً على بذل المال والنزول عن محبّته وجمعه لمن لمح بعين بصيرته عاقبة أمره. وبالله التوفيق.

ومنها: أَلَا لَا يَعْدِلَنَّ عَنِ الْقَرَابَةِ يَرَى بِهَا الْخَصَاصَةَ أَنْ يَسُدَّهَا بِالَّذِي لَا يَزِيدُهُ إِنْ أَمْسَكَهُ، وَلَا يَنْقُصُهُ إِنْ أَهْلَكَهُ، وَمَنْ يَقْبِضْ يَدَهُ عَنْ عَشِيرَتِهِ فَإِنَّمَا تُقْبَضُ مِنْهُ عَنْهُمْ يَدٌ وَاحِدَةٌ، وَتُقْبَضُ منهم عَنْهُ أَيْدٍ كَثِيرَةٌ؛ وَمَنْ تَلِنْ حَاشِيَتُهُ يَسْتَدِمْ مِنْ قَوْمِهِ الْمَوَدَّةَ.

قال الشريف: أقول: الغفيرة هاهنا الزيادة والكثرة، من قولهم للجمع الكثير: الجم الغفير، والجماء الغفير. ويروى «عفوة من أهل أو مال» والعفوة الخيار من الشيء، يقال: أكلت عفوة الطعام، أي: خياره، وما أحسن المعنى الذي أراده عليه السلام بقوله: «ومن يقبض يده عن عشيرته إلى تمام الكلام».

فَإِنَّ الْمُمْسِكَ خَيْرَهُ عَنْ عَشِيرَتِهِ إِنَّمَا يُمْسِكُ نَفْعَ يَدٍ وَاحِدَةٍ فَإِذَا آحْتَاجَ إِلَى نُصْرَتِهِمْ وَآضْطَرَّ إِلَى مُرَافَدَتِهِمْ قَعَدُوا عَنْ نَصْرِهِ، وَتَثَاقَلُوا عَنْ صَوْتِهِ فَمُنِعَ تَرَافُدَ ٱلْأَيْدِي ٱلْكَثِيرَةِ، وَتَنَاهُضَ ٱلْأَقْدَامِ ٱلْجَمَّةِ.

أقول: العدول: الانحراف، والخصاصة: الفقر والحاجة، وحاشية الرجل: جانبه وحاشيته: أيضاً أخدامه وأتباعه الذين هم حشو بيته، وقوله:

يرى. في موضع النصب على الحال، وأن يسدّها. في موضع الجرّ بدلاً من القرابة.

واعلم أنّ المقصود بهذا الفصل هو ما ذكرناه قبله، ولو وصلناه به لصلح تتمّة له. وحاصله إلى قوله: أيد كثيرة. النهي عن العدول عن سدّ خلّة الأقرباء وأولي الأرحام ذوي الحاجة بالفضل من المال، وصرفه في غير وجهه من المصارف الغير المرضيّة لله سبحانه، وكنّى بالسدّ الذي هو حقيقة في منع جسم لجسم عن المنع المعقول وهو منع الاختلال في حال الإنسان كناية بالمستعار. وقوله: لا يزيده إن أمسكه ولا ينقصه إن أهلكه على ظاهره إشكال فإنّه يحتمل أن يقال: كلّ جزء من المال فإنّ بقاءه زيادة فيه وعدمه نقصان منه. وجوابه من وجهين: أحدهما أن يقال إنّه عليه السلام لم يرد هاهنا مطلق الزيادة والنقصان في المال بالنسبة إلى المال. فإنّ الضميرين المنصوبين في يزيده وينقصه عائدان إلى الشخص المعبّر عنه بأحدكم المأمور بالإنفاق، وإنّما أراد الزيادة والنقصان فيه الذين لا يعتبر تأثيرهما في صلاح حال الإنسان وعدم صلاحه، فإنّ الفضل الزائد في مال الإنسان على القدر الذي يدفع ضرورته بحسب الشريعة ليس زيادته معتبرة في صلاح حاله، ولا نقصانه معتبراً في فساد حاله. فلا يزيده إذن إن أمسكه، ولا ينقصه إن أهلكه. وهذا كما يقول الإنسان لمن يريد أن يسهّل عليه أمراً حقيراً يتشدّد في طلبه: إنّ هذا الأمر لا يضرّك إن تركته ولا ينفعك إن أخذته أي بالنسبة إلى صلاح حالك. الثاني أنّه يحتمل أن يريد الزيادة والنقصان في الثواب والأجر في الآجل، والثناء والذكر في العاجل أي لا يزيده صلاح حال عند الله، وعند الناس يكون سبباً لفساد حاله: أمّا عند الله فلأنّ إمساك الفضل من المال عمّن له إليه ضرورة من عباد الله سبب للشقاء العظيم والعذاب الأليم في الآخرة لقوله تعالى: ﴿**والذين يكنزون الذهب والفضّة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشّرهم بعذاب أليم**﴾[1].

وأمّا عند الناس فعليك بمطالعة مقالاتهم في ذمّ البخل والبخلاء.

---

(1) ٩ - ٣٤.

وكذلك لا ينقصه أي لا المعطي ينقص من صلاح حاله: **أمّا عند الله فلما** وعد به أهل الإنفاق في سبيله من الأجر الجميل والثواب الجزيل كقوله تعالى: **﴿الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثمّ لا يتبعون ما أنفقوا منّاً ولا أذى﴾**(١) الآية ونحوها. وأمّا عند الناس فلما اتّفقوا عليه من مدح أهل الكرم والسخاء وملأوا به الصحف من النظم والنثر فيهم. فأمّا قوله: ومن يقبض يده عن عشيرته. إلى آخره. فمعناه ما ذكره السيّد الرضيّ وهو أنَّ الممسك خيره عن عشيرته إنّما يمسك عنهم نفع يد واحدة، فإذا احتاج إلى نصرتهم قعدوا عن نصرته وتثاقلوا عنه. فمنع ترافد الأيدي الكثيرة؛ إلاّ أنّ هذا البيان يحتاج إلى تقرير؛ وهو أنَّ الإنسان لمّا كان انتفاعه بالأيدي الكثيرة أتمّ وأولى بصلاح حاله، وأكثر من النفع الحاصل له بقبض يده عن النفع بها. وجب عليه أن يستجلب بمدّ يده بالنفع مدَّ الأيدي الكثيرة إلى نفعه وإلاّ لكان بسبب طلبه لنفعٍ ما من إمساك يده الواحدة عنهم المستلزم لإمساك أيديهم الكثيرة عنه مضيّعاً على نفسه منافع عظيمة فيكون بحسب قصده لنفعٍ ما مضيّعاً لما هو أعظم منه فيكون مناقضاً لغرضه، وذلك جهل وسفه. وقوله: ومن تلن حاشيته يستدم من قومه المودَّة. من تمام تأديب الأغنياء بما يعود عليهم منافعه وينتظم به شمل المصلحة في العالم من التواضع ولين الجانب للخلق فاستدرجهم إلى التواضع بذكر ثمرته اللازمة عنه التي هي مطلوبة لكلّ عاقل، وهي استدامة مودّة الناس المستلزمة لنفعهم ولعدم نفرتهم المستلزمين لصلاح حال التواضع فيما يقصده، وبمثل ذلك أدّب الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال: **﴿واخفض جناحك لمن اتّبعك من المؤمنين﴾** وقد عرفت أنّ سرّ ذلك استجلاب الألفة لهم والمحبّة بينهم عند سكونهم إليه ليجتمعوا على قبول أقواله، وظهر أنَّ شيئاً من ذلك لا يحصل عند جفاوة الخلق والتكبّر كما قال الله تعالى: **﴿ولو كنت فظّاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر﴾**(٢). وإن حمل لفظ الحاشية على الأتباع والأخدام كان

---

(١) ٢ - ٢٦٤.
(٢) ٣ - ١٥٣.

ذلك تأديباً لهم بالتواضع من جهة أخرى، وذلك أنّ حاشية الرجل وخاصّته هم حرسة عرضه وميزان عقله وعليهم يدور تدبير صلاح حاله فبحسب شدّتهم وغلظتهم ولينتهم وتواضعهم للناس يكون قرب الناس وبعدهم منه، وبغضهم ومحبتهم له، وأنسهم ونفارهم عنه. وقال بعض الحكماء: إنّ سبيل الخدم والقوم من الانسان سبيل الجوارح من الجسد؛ فحاجب الرجل وجهه، وكاتبه قلبه ورسوله لسانه، وخادمه يده ورجله وعينه. لأنّ من كفاه تعاطي كلّ واحد من الأفعال المحتاج إليها فقد قام مقامه فيها، وكما يلحقه الذمّ من العقلاء بترك إصلاح أفعاله الصادرة عن أحد جوارحه كذلك يلحقه الذمّ على ترك إصلاح من يقوم مقامه في تلك الأفعال بتوليته إياها، وكما يستديم مودّة اخوانه ويستجلب مودّة الناس بتواضعه بنفسه ولين جانبه لهم كذلك يستديمها بتأديب حاشيته وخدمه بالآداب المتّفق على حسنها بين الناس. وأهمّها وأنفعها في ذلك لين الجانب وترك الكبر المنفّر فإنّ أوهام الخلق حاكمة بنسبة كلّ خير وشرّ يجري من حاشية الرجل إليه. وإن كان صدق هذا الحكم اكثريّاً، وبالله التوفيق.

٢٣ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

وَلَعَمْرِي مَا عَلَيَّ مِنْ قِتَالِ مَنْ خَالَفَ الْحَقَّ، وَخَابَطَ الْغَيَّ، مِنْ إِدْهَانٍ وَلَا إِيهَانٍ، فَاتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ، وَفِرُّوا إِلَى اللهِ مِنَ اللهِ، وَامْضُوا فِي الَّذِي نَهَجَهُ لَكُمْ، وَقُومُوا بِمَا عَصَبَهُ بِكُمْ. فَعَلِيٌّ ضَامِنٌ لِفَلْجِكُمْ آجِلاً، إِنْ لَمْ تُمْنَحُوهُ عَاجِلاً.

أقول: الإدهان والمداهنة: المصانعة، والإيهان مصدر أوهنه أي أضعفه، وخابط الغيّ بلفظ المفاعلة: يخبط كلّ منهما في الآخر. وقد مرّ أنّ الخبط: هو المشي على غير استقامة، والغيّ: الجهل. ونهجه: أي أوضحه. وعصبه بكم أي علقه بكم وربطه. والفلج الفوز، والمنحة: العطيّة. وفي هذا الفصل ردّ لقول من قال إنّ متابعته عليه السلام لمحاربيه ومخالفيه ومداهنتهم أولى من محاربتهم فردّ ذلك بقوله: لعمري ما عليّ إلى قوله: ولا

إيهان. أي ليس مصانعتهم بواجبة عليّ من طريق المصلحة الدينيّة، وليسوا بمضعفين لي، ولا عليّ في قتالهم عجز. وفي ذكره عليه السلام لهم بصفة مخالفة الحقّ ومخابطة الغيّ والبغي تنبيه للسامعين واستدراج لهم لقيام عذره في قتالهم إذ كانت مقاتلة من هذه صفته واجبة فلا يمكن إنكار وقوعها منه. ثمّ أردف ذلك بأوامر:

أوّلها: الأمر بتقوى الله، وقد علمت أنّ تقوى الله هي خشيته المستلزمة للإعراض عن كلّ مناهيه المبعّدة عنه وهو الزهد الحقيقي كما سبقت الإشارة إليه.

الثاني: الأمر بالفرار إلى الله وهو أمر بالإقبال على الله وتوجيه وجه النفس إلى كعبة وجوب وجوده، واعلم أنّ فرار العبد إلى الله تعالى على مراتب:

فأُوليها: الفرار عن بعض آثاره إلى بعض كما يفرّ من أثر غضبه إلى أثر رحمته كما قال تعالى حكاية عن المؤمنين في التضرّع إليه ﴿**ربّنا لا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به واعف عنّا واغفر لنا وارحمنا**﴾[1] فكأنّهم لم يروا إلّا الله وأفعاله ففرّوا إلى الله من بعضها إلى بعض.

الثانية: أن يفنى العبد عن مشاهدة الأفعال ويترقّى في درجات القرب والمعرفة إلى مصادر الأفعال؛ وهي الصفات فيفرّ من بعضها إلى بعض ما ورد عن زين العابدين عليه السلام: اللّهم اجعلني أسوة من قد أنهضته بتجاوزك من مصارع المجرمين فأصبح طليق عفوك من أسر سخطك، والعفو والسخط صفتان فاستعاذ بإحديهما من الأخرى.

الثالثة: أن يترقّى عن مقام الصفات إلى ملاحظة الذات فيفرّ منها إليها كقوله تعالى: ﴿**لا ملجأ من الله إلّا إليه**﴾[2] وكالوارد في الدعاء في القيام إلى الصلاة: منك وبك ولك وإليك. أي منك بدء الوجود، وبك قيامه،

---

(١) ٢ - ٢٨٦.
(٢) ٩ - ١١٩.

ولك ملكه، وإليك رجوعه . ثمّ أكّد ذلك بقوله لا ملجأ ولا منجا ولا مفرّ منك إلّا إليك . وقد جمع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هذه المراتب حين أمر بالقرب في قوله تعالى : ﴿ واسجد واقترب ﴾[1] وقال في سجوده : أعوذ بعفوك من عقابك . وهو كلام من شاهد فعل الله فاستعاذ ببعض أفعاله من بعض ، والعفو كما يراد به صفة العافي كذلك قد يراد به الأثر الحاصل عن صفة العفو في المعفوّ عنه كالخلق والصنع ، ثمّ لمّا قرب فغنى عن مشاهدة الأفعال وترقّى إلى مصادرها وهي الصفات قال : وأعوذ برضاك من سخطك وهما صفتان ، ثمّ لمّا رأى ذلك نقصاناً في التوحيد اقترب وترقّى عن مقام مشاهدة الصفات إلى ملاحظة الذات فقال : وأعوذ بك منك ، وهذا فرار إليه منه مع قطع النظر عن الأفعال والصفات ، وهو أوّل مقام الوصول إلى ساحل العزّة . ثمّ للسباحة في لجّة الوصول درجات أخر لا تتناهى . ولذلك لمّا ازداد صلى الله عليه وآله وسلم قرباً قال : لا أحصي ثناء عليك . فكان ذلك حذفاً لنفسه عن درجة الاعتبار في ذلك المقام واعترافاً منه بالعجز عن الإحاطة بما له من صفات الجلال ونعوت الكمال ، وكان قوله بعد ذلك : أنت كما أثنيت على نفسك . كمالاً للإخلاص وتجريداً للكمال المطلق الذي به هو ، هو أجلّ من أن يلحقه لغيره حكم وهميّ أو عقلي . إذا عرفت ذلك ظهر أنّ مقصوده عليه السلام قوله : وفرّوا إلى الله من الله . أمر بالترقّي إلى المرتبة الثالثة من المراتب المذكورة .

الثالث: الأمر بالمضيّ فيما نهجه لهم من السبيل الواضح العدل الذي هو واسطة بين طرفي الإفراط والتفريط، والصراط المستقيم المدلول عليه بالأوامر الشرعيّة. وقد علمت أنّ الغرض من سلوك هذا السبيل وامتثال التكاليف التي أُلزم الإنسان بها وعصبت به إنّما هو تطويع النفس الأمّارة بالسوء للنفس المطمئنّة بحيث تصير مؤتمرة لها ومتصرّفة تحت حكمها العقليّ منقادة لها عن الانهماك في ميولها الطبيعيّة ولذّاتها الفانية. وحينئذ تعلم أنّ هذه الأوامر الثلاثة هي التي عليها مدار الرياضة والسلوك إلى الله تعالى، فالأمر الأوّل والثالث أمر بما هو معين على حذف الموانع عن الالتفات إلى

---

(١) ٩٦ - ١٩ .

الله تعالى، وعلى تطويع النفس الأمّارة، والأمر الثاني أمر بتوجيه السير إلى الله. وقد تبيّن فيما مرَّ أنّ هذه الأمور الثلاثة هي الأغراض التي يتوجّه نحوها الرياضة المستلزمة لكمال الاستعداد المستلزم للوصول التامّ. ولذلك قال عليه السلام: فعليّ ضامن لفلجكم آجلاً إن لم تمنحوه عاجلا. أي إذا قمتم بواجب ما أمرتم به من هذه الأوامر كان ذلك مستلزماً لفوزكم في دار القرار بجنّات تجري من تحتها الأنهار التي هي الغايات الحقيقية ولمثلها يعمل العاملون وفيها يتنافس المتنافسون إن لم يتمّ تأهّلكم للفوز في الدار العاجلة فمنحوه فيها، وقد يتمّ الفوز بالسعادتين العاجليّة والآجليّة لمن وفت قوّته بالقيام بهما وكمل استحقاقه لذلك في علم الله. ولمّا كان حصول السعادة والفوز عن لزوم الأوامر المذكورة أمراً واجباً واضح الوجوب في علمه عليه السلام لا جرم كان ضامناً له. فإن قلت: فما وجه اتّصال هذه الأوامر بصدر هذا الفصل قلت: لمّا كان مقتضى صدر الفصل إلى قوله: ولا أيهان. هو الإعذار إلى السامعين في قتال مخالفي الحقّ، وكان مفهوم ذلك هو الحثّ على جهادهم والتنفير عمّا هم عليه من الطريق الجائر كان تعقيب ذلك بذكر الطريق الواضح المأمور بسلوكه ولزوم حدود الله فيه لهو اللائق الواجب. وبالله التوفيق.

٢٤ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

وقد تواترت عليه الأخبار باستيلاء أصحاب معاوية على البلاد وقدم عليه عاملاه على اليمن، وهما عبيد الله بن عباس وسعيد بن نمْرَان لما غلب عليهما بُسْرُ بن أبي أرْطاة، فقام عليه السلام على المنبر ضجراً بتثاقل أصحابه عن الجهاد ومخالفتهم له في الرأي، فقال:

مَاهِيَ إلاَّ الْكُوفَةُ أَقْبِضُهَا وَأَبْسُطُهَا، إنْ لَم تَكُونِي إلاَّ أَنْتِ تَهُبُّ أَعَاصِيرُكِ. فَقَبَّحَكِ آللهُ.

وتمثل بقول الشاعر:

لَعَمْرُ أَبِيكَ ٱلْخَيْرِ يَا عَمْرُو إنَّني عَلَى وَضَرٍ مِنْ ذَا ٱلْإِنَاءِ قَلِيلِ

ثم قال (عليه السلام):

أُنْبِئْتُ بُسْراً قَدِ ٱطَّلَعَ ٱلْيَمَنَ، وَإِنِّي وَٱللهِ لأَظُنُّ أَنَّ هٰؤلاَءِ ٱلْقَوْمَ سَيُدَالُونَ مِنْكُمْ: بِاجْتِمَاعِهِمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ، وَبِمَعْصِيَتِكُمْ إِمَامَكُمْ فِي ٱلْحَقِّ، وَطَاعَتِهِمْ إِمَامَهُمْ فِي ٱلْبَاطِلِ، وَبِأَدَائِهِمُ ٱلأَمَانَةَ إِلَى صَاحِبِهِمْ وَخِيَانَتِكُمْ وَبِصَلاَحِهِمْ فِي بِلاَدِهِمْ وَفَسَادِكُمْ. فَلَوِ ٱئْتَمَنْتُ أَحَدَكُمْ عَلَى قَعْبٍ لَخَشِيتُ أَنْ يَذْهَبَ بِعِلاَقَتِهِ! أَللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ مَلَلْتُهُمْ وَمَلُّونِي، وَسَئِمْتُهُمْ وَسَئِمُونِي، فَأَبْدِلْنِي بِهِمْ خَيْراً مِنْهُمْ وَأَبْدِلْهُمْ بِي شَرّاً مِنِّي، أَللَّهُمَّ مُثْ قُلُوبَهُمْ كَمَا يُمَاثُ ٱلْمِلْحُ فِي ٱلْمَاءِ، أَمَا وَٱللهِ لَوَدِدْتُ أَنَّ لِي بِكُمْ أَلْفَ فَارِسٍ مِنْ بَنِي فِرَاسِ بْنِ غَنْمٍ.

هُنَالِكَ، لَوْ دَعَوْتَ، أَتَاكَ مِنْهُمْ　　　فَوَارِسُ مِثْلُ أَرْمِيَةِ ٱلْحَمِيمِ

ثم نزل عليه السلام من المنبر.

قال الشريف: أقول: الأرمية جمع رمى وهو السحاب، والحميم هاهنا: وقت الصيف، وإنما خص الشاعر سحاب الصيف بالذكر لأنه أشد جفولا وأسرع خفوفاً لأنه لا ماء فيه. وإنما يكون السحاب ثقيل السير لامتلائه بالماء، وذلك لا يكون في الأكثر إلا زمان الشتاء، وإنما أراد الشاعر وصفهم بالسرعة إذا دعوا، والإغاثة إذا استغيثوا، والدليل على ذلك. قوله هنالك لو دعوت أتاك منهم.

أقول: السبب: أنَّ قوماً بصنعاء كانوا من شيعة عثمان يعظّمون قتله فبايعوا علياً عليه السلام على دغل. فلمّا اختلف الناس عليه بالعراق، وكان العامل له يومئذ على صنعاء عبيد الله بن عباس، وعلى الجند بها سعيد بن نمران. ثمّ قتل محمد ابن ابي بكر بمصر وكثرت غارات أهل الشام. تكلّم هؤلاء ودعوا إلى الطلب بدم عثمان فأنكر عليهم عبيد الله بن عباس فتظاهروا بمنابذة عليّ عليه السلام فحبسهم فكتبوا إلى أصحابهم الجند. فعزلوا سعيد ابن نمران عنهم وأظهروا أمرهم فانضمَّ إليهم خلق كثير إرادة منع الصدقة. فكتب عبيد الله وسعيد إلى أمير المؤمنين (ع) يخبرانه الخبر فكتب إلى أهل اليمن والجند كتاباً يهددهم فيه ويذكّرهم الله تعالى فأجابوه بأنّا مطيعون إن عزلت عنّا هذين الرجلين: عبيد الله وسعيداً. ثمّ كتبوا إلى معاوية فأخبروه فوجّه إليهم بسر بن أرطاة وكان فظّاً سفّاكاً للدماء فقتل في طريقه بمكّة داود

وسليمان ابني عبيد الله بن عباس، وبالطائف عبد الله بن المدان وكان صهراً لابن عبّاس ثمّ انتهى إلى صنعاء وقد خرج منها عبيد الله وسعيد، واستخلفا عليها عبد الله بن عمرو بن أراكة الثقفي فقتله بسر، وأخذ صنعاء فلمّا قدم ابن عبّاس وسعيد على عليّ عليه السلام بالكوفة عاتبهما على تركهما قتال بسر فاعتذرا إليه بضعفهما عنه. فقام عليه السلام إلى المنبر ضجراً من مخالفة أصحابه له في الرأي فقال: ما هي إلّا الكوفة. الفصل.

إذا عرفت ذلك فنقول: الإعصار: ريح تهبّ فتثير التراب. والوضَر: بفتح الضاد الدرن الباقي في الإناء بعد الأكل ويستعار لكلّ بقيّة من شيء يقلّ الانتفاع بها. والأناء: بالفتح شجر حسن المنظر مرّ الطعم. واطّلع اليمن: أي غشيها. سيدالون: أي يصير الأمر إليهم والدولة لهم. والقعب: القدح الضخم. وماث الشيء: أذابه. واعلم أنّ الضمير في قوله ما هي إلّا الكوفة وإن لم يجر لها ذكر في اللفظ إلّا أن تضجّره من أهلها قبل ذلك وخوضه في تدبيرها مراراً، وحضورها في ذهنه يجري مجرى الذكر السابق لها، وأقبضها خبر ثان لمبتدإ محذوف تقديره: أنا، ويحتمل أن يكون هي ضمير القصّة وأقبضها خبر عن الكوفة. ونظيره في الاحتمالين قوله تعالى: **﴿كلّا إنّها لظى نزّاعة للشوى﴾**[1] ويفهم من هذا الكلام حصر ما بقي له من البلاد التي يعتمد عليها في الحرب ومقابلة العدوّ في الكوفة. وهو كلام في معرض التحقير لما هو فيه من أمر الدنيا وما بقي له من التصرّف الحقّ بالنسبة إلى ما لغيره من التصرّف الباطل. وأقبضها وأبسطها كنايتان عن وجوه التصرّف فيها أي إنّ الكوفة والتصرّف فيها بوجوه التصرّف حقير بالنسبة إلى سائر البلاد التي عليها الخصم. فما عسى أصنع بتصرّفي فيها، وما الذي أبلغ به من دفع الخصم ومقاومته. وهذا كما يقول الرجل في تحقير ما في يده من المال القليل إذا رام به أمراً كبيراً: إنّما هو هذا الدينار فما عسى أبلغ به من الغرض، وقوله: إن لم تكوني إلّا أنت تهبّ أعاصيرك. عدول من الغيبة إلى الخطاب، والضمير بعد إلّا تأكيد للذي قبلها والجملة الفعليّة بعده في موضع

(١) ٧٠ - ١٥.

الحال، وخبر كان محذوف. ولفظ الأعاصير يحتمل أن يحمل على حقيقته فإنَّ الكوفة معروفة بهبوب الإعصار فيها، ويحتمل أن يكون مستعاراً لما يحدث من آراء أهلها المختلفة التي هي منبع الغدر به، والتثاقل عن ندائه. ووجه المشابهة ما يستلزمه المستعار منه وله من الأذى والإزعاج. وتقدير الكلام فإن لم تكوني إلاّ أنت عدّة لي وجنّة ألقى بها العدوّ، وحظّاً من الملك والخلافة مع ما عليه حالك من المذامّ فقبحاً لك. وهو ذمّ لها بعد ذكر وجه الذمّ. ولأجل استصغاره لأمرها تمثّل بالبيت: لعمر ابيك. الخبر. ومعنى تمثيله به أنّي على بقيّة من هذا الأمر كالوضر القليل في الإناء، وهو تمثيل على وجه الاستعارة فاستعار لفظ الإناء للدنيا ولفظ الوضر القليل فيه للكوفة، ووجه المشابهة ما يشرك فيه الكوفة والوضر من الحقارة بالنسبة إلى ما استولى عليه خصمه من الدنيا وما اشتمل عليه الإناء من الطعام، ومن روى الأناء فإنّما أراد أنّي على بقيّة من هذا الأمر كالقدر الحاصل لناظر الأناء من حسن المنظر مع عدم انتفاعه منه بشيء آخر. ويكون قد استعار لفظ الأناء لسائر بلاد الاسلام، ولفظ الوضر لما في يده هو من حسن المنظر استعارة في الدرجة الثانية، وإنّما خصّص الكوفة دون البصره وغيرها لأنَّ جمهور من كان يعتمد عليه في الحرب إذن هم أهل الكوفة، وقوله: أنبئت بسراً. إلى قوله: منكم. شروع من استنفارهم إلى الجهاد. فأعلمهم أوّلاً بحال بسر وخروج اليمن من أيديهم، ثمّ خوّفهم بما حكم به من الظنّ الصادق أن سيدال القوم منهم، ثمّ أعقب ذلك بذكر أسباب توجب وقوع ما حكم به وهي الأمارات التي عنها حكم، فذكر أربعة أمور من قبلهم هي أسباب الانقهار، وأربعة أمور من قبل الخصم مضادّة لها هي أسباب القهر، ورتّب كلّ أمر عقيب ضدّه ليظهر لهم المناسبة بين أفعالهم وأفعال خصومهم فيدعوهم داعي الدين والمروّة إلى الفرار من سوء الرأي.

فالأول من أفعال الخصم: الاجتماع والتوازر وإن كانوا على الباطل وهو التصرّف الغير الحقّ في البلاد، والأوّل من أفعالهم ما يضادّ ذلك: وهو تفرّقهم عن حقّهم أي تصرفهم المستحقّ لهم بإذن وليّ الأمر.

الثاني من أفعال الخصم: الطاعة للإمام الجائر فيما يأمر به من الباطل، ومن أفعالهم: معصية إمام الحقّ في أمره بالحقّ.

الثالث للخصم: تأديتهم للأمانة إلى صاحبهم وهي لزوم عهده والوفاء ببيعته، ومن أفعالهم: ضدّ ذلك من الغدر والخيانة في العهد بتركهم لمؤازرته في القتال وعصيانهم لأمره حتى صار الغدر مثلاً لأهل الكوفة.

الرابع: صلاح القوم في بلادهم أي انتظام أمورهم فيها الناشيء عن طاعة إمامهم، ومن أفعالهم: ما يضادّ ذلك من فسادهم في بلادهم لخروجهم عن طاعة إمامهم. وظاهر أنَّ الأمور الأربعة المذكورة من أفعال الخصم من أسباب صلاح الحال وانتظام الدولة والغلبة والقهر، وأنَّ الأمور الأربعة المضادَّة لها من أفعالهم من أقوى الأسباب الموجبة للانقلاب والانقهار، وقوله: ولو ائتمنت أحدكم على قعبٍ لخشيت أن يذهب بعلاقته. مبالغة في ذمّهم بالخيانة على سبيل الكناية عن خيانتهم لأمانتهم في عهده على قبول أوامر الله. وقوله: اللهمّ إنّي قد مللتهم وملّوني. شكاية إلى الله سبحانه منهم وعرض لما في ضميره وضمائرهم بحسب ما شهدت به قرائن أحوالهم، والملال والسأم مترادفان. وحقيقته إعراض النفس عن شيء إمّا لفتور القوى البدنيّة وكلالها عن كثرة الأفاعيل. وإمّا لاعتقاد النفس عن دليل وإمارة يتبيّن لها أنَّ ما يطلبه غير ممكن لها. وهذان السببان كانا موجودين: أمّا سأمه عليه السلام من أفعالهم (أفعاله خ) فإنّه لم يشك منهم ولم يدعُ عليهم حتى عجزت قواه عن التطلّع إلى وجوه إصلاحهم وانصرفت نفسه عن معالجة أحوالهم لاعتقاد أنَّ تقويمهم غير ممكن له، وأمّا سأمهم منه فإمّا لاعتقادهم أنَّ مطلوباتهم التي كانوا أرادوه لها غير ممكنة منه، أو لكثرة تكرار أوامره بالجهاد والذبّ عن دين الله والمواظبة على أوامر الله وزيادتها على قواهم الضعيفة التي هي مع ضعفها مشغولة بغير الله. فلذلك تنصرف نفوسهم عن قبول قوله وامتثال أوامره، ثم أردف تلك الشكاية بالتضرّع إلى الله تعالى في الخلاص منهم، ثمَّ الدعاء عليهم فدعا الله لنفسه أوّلاً أن يبدله خيراً منهم أمّا في الدنيا: قوماً صالحين ينظرون بنور الله نعمه عليهم فيخلصوا له الدين، وأمّا

في الآخرة: قوماً غرقوا في مطالعة أنوار كبرياء الله فأعطاهم أعلى منازل جنّته وأسنى مراتب كرامته: قوماً أنعم الله عليهم من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً. وطلبه الخير منهم في الدنيا هو الأرجح في الذهن. لما يتمنّاه بعد من فوارس بني فراس. ثمّ دعا الله عليهم أن يبدلهم شرّاً منه. فإن قلت: إنَّ صدور مثل هذا الدعاء منه عليه السلام مشكل من وجهين: أحدهما: أنّه يقتضي أن يكون هو ذا شرّ. وقد ثبت أنّه كان منزهاً عن الشرور، الثاني: أنّه كيف يجوز منه أن يدعو بوجود الشرور ووجود الأشرار. قلت: الجواب عن الأوّل من وجهين: أحدهما: أنّ صيغة أفعل التفضيل كما ترد لإثبات الأفضلية كذلك قد ترد لإثبات الفضيلة. وحينئذ يحتمل أن يكون مراده من قوله: شراً منّي: أي أبدلهم بمن فيه شرّ غيري، الثاني: أن يكون شرّاً منّي على عقائدهم أنّ فيه شرّاً عليهم. واعتقادهم أنّه ذو شرّ لا يوجب كونه كذلك، وعن الثاني من وجهين: أحدهما: أنّه لمّا كان في دعاء الله أن يبدلهم من هو شرّ منه مصلحة تامّة حسن منه ذلك، وبيان المصلحة من وجهين: أحدهما: أنّ ذلك الدعاء منه عليهم بمشهد منهم ومسمع من أعظم الأسباب المخوّفة الجاذبة لأكثرهم إلى الله تعالى وذلك مصلحة ظاهرة، الثاني أنّ نزول الأمر المدعوّ به عليهم بعده مما ينبّههم على فضله، ويذكّرهم أنّه لم يصبهم ذلك إلّا لتركهم أوامر الله تعالى وخروجهم عن طاعته فيتقهقروا عن مسالك الغيّ والفساد إلى واضح سبيل الرشاد، ويكون ذلك بلاء من الله لهم. الثاني: لعلّه إنّما دعا عليهم لعلمه أنّه لا يرجى صلاحهم فيما خلقوا لأجله ممّا يدعوهم إليه. ومن لا يرجى صلاح حاله مع فساد نظام العالم بوجوده ولزومه لما يضادّ مطلوب الله منه فعدمه أولى من وجوده. فكان دعاءه عليهم إذن مندوباً إليه. وعلى ذلك يحمل أيضاً دعاؤه عليهم: اللهمّ مث قلوبهم كما يماث الملح في الماء. ونحوه. وذلك تأسّ منه عليه السلام بالسابقين من الأنبياء عليهم السلام في التضجّر من قومهم والشكاية منهم إلى الله تعالى ودعائهم عليهم كنوح عليه السلام إذ قال: ربّ إنّي دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يزدهم دعائي إلّا فراراً إلى قوله إنّهم عصوني، ثمّ ختم بالدعاء على من لم يرج له صلاح، فقال: ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً الآية.

وكلوط إذ قال لقومه: إنّي لعملكم من القالين، وغيرهما من الأنبياء والمراد بالميث المدعوّ به يشبه أن يكون مايحصل في القلب من الانفعال عن الغمّ والخوف ونحوهما، وذلك أنّ الغمّ إذا وقع لزمه تكاثف الروح القلبي للبرد الحادث عند انطفاء الحرارة الغريزيّة لشدّة انقباض الروح واختناقه فيحسّ في القلب بانفعال شبيه بالعصر والمرس. وذلك في الحقيقة ألم أو مستلزمة له فيحسن أن يكون مراداً له، ويحتمل أن يكون كناية عن أسبابه من الغمّ والخوف فكأنّه طلب من الله أن يقتص له منهم إذ ماثوا قلبه بفساد أفعالهم، ويروى أنّ اليوم الذي دعا عليهم فيه ولد فيه الحجّاج بن يوسف، وروي أنّه ولد بعد اليوم بأوقات يسيرة. وفعل الحجّاج بأهل الكوفة ظاهر، ودماره لها مشهور.

وقوله: أما والله لوددت أنَّ لي بكم ألف فارس من بني فراس بن غنم.

يصلح تعيينه لمن ذكر بياناً للخير الذي طلبه أوّلاً من الله مجملاً عوضاً بهم. وبنوفراس حي من تغلب أبوهم غنم بفتح الغين وسكون النون، وهو غنم بن تغلب بن وائل، وإنما خصّ هذا البطن لشهرتهم بالشجاعة والحميّة وسرعة إجابة الداعي، وأمّا البيت: هنالك لو دعيت فمعناه ما ذكره السيد الرضي ـ رضوان الله عليه ـ ووجه تمثيله عليه السلام بهذا البيت أنَّ هؤلاء القوم الذين ودّ أنّهم كانوا له عوضاً عن قومه هم بصفة الفوارس الذين أشار إليهم الشاعر في المبادرة إلى إجابة الداعي والاجتماع على دفع الضيم عنهم ونصرة حقّهم فلذلك تمنّاهم عوضاً، ومقصوده في جميع ذلك ذمّهم وتوبيخهم وتحقيرهم بتفضيل غيرهم عليهم تنفيراً لطباعهم عمّا هي عليه من التثاقل عن دعوته للذبّ عن دين الله، وبالله التوفيق والعصمة.

٢٥ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

إنَّ آللهَ بَعَثَ مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ نَذِيراً لِلْعَالَمِينَ، وَأَمِيناً عَلَى التَّنْزِيلِ، وَأَنْتُمْ مَعْشَرَ الْعَرَبِ عَلَى شَرِّ دِينٍ، وَفِي شَرِّ دَارٍ، مُنِيخُونَ بَيْنَ حِجَارَةٍ خُشْنٍ، وَحَيَّاتٍ صُمٍّ تَشْرَبُونَ الْكَدِرَ، وَتَأْكُلُونَ الْجَشِبَ، وَتَسْفِكُونَ

دِمَاءَكُمْ، وَتَقْطَعونَ أَرْحَامَكُمْ، أَلأَصْنَامُ فِيكُمْ مَنْصُوبَةٌ، وَالآثَامُ بِكُمْ مَعْصُوبَةٌ.

أقول: الإناخة: المقام بالمكان. والحيّة الصمّاء: هي التي لا تنزجر بالصوت كأنّها لا تسمع، وربّما يراد بها الصلبة الشديدة. والجشب: هو الطعام الغليظ الخشن، ويقال: هو الذي لا إدام معه، ومعصوبة: مشدودة.

واعلم أنّه عليه السلام اقتص أموراً وقعت ليحسن مدحها وذمّها. فبدأ بذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وذكر بعض أسباب غاية البعثة فإنّه لمّاكانت الغاية منها هو جذب الخلق عن دار الغرور إلى الواحد الحقّ وكان ذلك الجذب تارة بالنذارة وتارة بالبشارة. وذكر هنا النذارة، وخصّها بالذكر لأنّها السبب الأقوى في الردع فإنّ عامّة الخلق وجمهورهم قلّما يلتفتون إلى ما وعدوا به في الآخرة إذا قابلوا ذلك بلذّاتهم الحاضرة فإنّ تلك أمور غير متصوّرة لهم إلّا بحسب الوصف الذي إنّما ينكشف لهم عن أمور محسوسة تشبه ما هم فيه أو أضعف عندهم. ثمّ إنّ نيلها مشروط بشرائط صعبة في الدنيا تكدّر عليهم ما هم فيه من حاضر لذّتهم مع براءتها عن الشروط والتكاليف الشاقّة فلذلك قلّما يلتفتون إلى الوعد عمّا هم فيه. فكان السبب الأقوى في الردع والالتفات إلى الله إنّما هو الإنذار والتخويف فإذا انضمّ إليه الوعد أفاد المجموع الغاية. ولمّا كان مقصوده عليه السلام في هذا الموضع التوبيخ المطلق للعرب وترقيق قلوبهم المشتملة على الفظاظة والقسوة كان الأليق هاهنا ذكر إنذار النبي للعالمين ليتذكّروا بذلك تفصيل الإنذارات الواردة في القرآن والسنّة، ثمّ أردف ذلك بذكر كونه أميناً على التنزيل ليتذكّروا أنّ الإنذارات الواردة هي من عند الله تعالى أتى بها الرسول غير خائن فيها بتبديل أو زيادة أو نقصان فيتأكّد في قلوبهم ما قد علموه من ذلك ليكون أدعى لهم إلى الانفعال عن أقواله، ثمّ شرع بعده في اقتصاص أحوالهم التي كانوا عليها، والواو في قوله: وأنتم. للحال أي حال ما كنتم بهذه الصفات بعث محمّدا، وذكر أحوالهم في معرض الذّم لهم. فذكر أنّهم كانوا على شرّ دين؛ وهو عبادة الأصنام من دون الله. وأعظم بذلك افتضاحاً لمن عقل منهم أسرار الشريعة وعرف الله سبحانه. فلا أحسبه عند سماع هذا التوبيخ إلّا خجلا ممّا فرّط في جنب الله ويقول: يا

ليتني لم أشرك بربّي أحداً، ثمّ أردف ذلك بتذكيرهم ما كانوا فيه من شرّ دار. وأراد نجد أو تهامة وأرض الحجاز، وبيّن كونها شرّاً ببيان فساد أحوالهم، أمّا في مساكنهم فبإناختهم بين الحجارة السود الخشن التي لا نداوة بها ولا نبات، والحيّات الصمّ التي لا علاج لسمومها. ووصفها بالصمّ. لأنّ حيات تلك الأرض على غاية من القوّة وحدّة السموم لاستيلاء الحرارة واليبس عليها، وأمّا في مشربهم فلأنّ الغالب على المياه التي يشربونها أن تكون كدرة لا يكاد غير المعتاد بها أن يقبل عليها مع العطش إلّا عند الضرورة، والسبب الغالب في ذلك عدم إقامتهم بالمكان الواحد بل هم أبدا في الحلّ والارتحال، ولا يحتفرون المياه ويصلحونها إلّا ريثما هم عليها. فربما كان بعضهم يحتفر وبعضهم يشرب. ومشاهدتهم توضح ذلك، وأمّا في مأكلهم فجشوبتها ظاهرة فإنّك تجد عامّتهم يأكل ما دبّ من حيوان، وسئل بعض العرب أي الحيوانات تأكلون في البادية؟ فقال: نأكل كلّ ما دبّ ودرج إلّا أمّ حبين (أمّ جبين خ) فقال السائل: ليت تدري أمّ حبين السلامة. قال صاحب الجمل: وأمّ جبين: دويبة قدر كفّ الإنسان. وبعضهم يخلط الشعر بنوى التمر ويطحنها ويتّخذ منهما خبزاً، وروي أنّهم كانوا في أيّام المجاعة يلوّثون أوبار الإبل بدم القراد ويجفّفونها فإذا يبست دقوها وصنعوها طعاماً، وأمّا في سفكهم الدماء بعضهم لبعض وقطع أرحامهم فظاهر أيضاً فإنّ الولد كان يقتل أباه وبالعكس، وأمّا نصبهم للأصنام وعصب الآثام بهم في جاهليّتهم فغني عن البيان، ولفظ العصب مستعار للزوم الآثام لهم في تلك الحال عن معناه الأصلي وهي استعارة لفظ للنسبة بين محسوسين للنسبة بين معقولين أو بين معقول ومحسوس، وإنّما ذكرهم عليه السلام بهذه الأحوال لينبّههم لنسبة ما كانوا عليه في الجاهليّة إلى ما هم عليه في تلك الحال من أضداد ذلك كلّه. إذ بدّلوا ممّا كانوا فيه من فساد أحوالهم في الدنيا إلى صلاح حالهم فيها ففتحوا المدن وكسروا الجيوش وقتلوا الملوك وغنموا أموالهم كما قال تعالى في المنّة عليهم وتذكيرهم أنواع ما أنعم عليهم به **﴿وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها﴾**(١) وجعل لهم الذكر الباقي والشرف الثابت. كلّ

(١) سورة الأحزاب: آية ٢٧ .

ذلك زيادة على هدايته لهم إلى الاسلام الذي هو طريق دار السلام وسبب السعادة الباقية. وإنّما كان ذلك لسبب مقدم محمد صلى الله عليه وآله وسلم إليهم. واعلم أنّ سياق هذا الكلام يقتضي مدح النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما حذف من الفصل بعده ليبني عليه مقصوداً له، وفيه تنبيه على دوام ملاحظة السامعين لنعماء الله عليهم فيلاحظوا استحقاقه لتمام العبادة عامّة أحوالهم، ويكونون في وجل من خوفه وفي شوق إليه. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

ومنها: فَنَظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي مُعِينٌ إِلاَّ أَهْلُ بَيْتِي فَضَنَنْتُ بِهِمْ عَنِ الْمَوْتِ، وَأَغْضَيْتُ عَنِ الْقَذى، وَشَرِبْتُ عَلَى الشَّجى، وَصَبَرْتُ عَلَى أَخْذِ الْكَظَمِ، وَعَلَى أَمَرَّ مِنْ طَعْمِ الْعَلْقَمِ.

أقول: ضنِنت بكسر النون: أي بخلت، ونقل الفرّاء بالفتح أيضاً. وأغضيت على كذا: أي اطبقت عليه جفني. والقذى: ما يسقط في العين فيؤذيها. والشجى: ما يعرض في الحلق عند الغبن ونحوه لا يكاد يسيغ الإنسان معه الشراب، وقد مرّ تفسيرهما. وأخذ بكظمه: أي بمجرى نفسه، والعلقم: شجر بالغ المرارة، ويصدق بالعرف على كلّ مرّ.

واعلم أنّ هذا الفصل يشمل على اقتصاص صورة حاله بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أمر الخلافة وهو اقتصاص في معرض التظلّم والشكاية ممّن يرى أنّه أحقّ منه بالأمر. فأشار إلى أنّه فكّر في أمر المقاومة والدفاع عن هذا الحقّ الذي يراه أولى فرأى أنّه لا ناصر له إلّا أهل بيته وهم قليلون بالنسبة إلى من لا يعينه ومن يعين عليه. فإنّه لم يكن له معين يغلب على الظنّ إلّا بني هاشم كالعبّاس وبنيه وأبي سفيان بن الحرث بن عبد المطلب ومن يخصّهم، وضعفهم وقلّتهم عن مقاومة جمهور الصحابة ظاهر، فضنّ بهم على الموت لعلمه أنّهم لو قاوم بهم لقتلوا ثمّ لا يحصل على مقصوده، ولمّا ضنّ بهم عن الموت لزمه ما ذكر من الأمور وهي الإغضاء على القذى، وكنّى بالإغضاء على القذى عن صبره عن المقاومة كناية بالمستعار، ووجه المشابهة بينهما استلزامهما للألم البالغ، وبالقذى عمّا يعتقده ظلماً في حقّه وكذلك

قوله: وشربت على الشجى. ملاحظة لوجه الشبه بين ما يجري له من الأمور التي توجب له الغضب والغبن وبين الماء الذي يشرب على الشجى وهو استلزامهما الأذى وعدم التلذّذ والاساغة. ولذلك استعار له لفظة الشرب. وكذلك قوله: وصبرت على أخذ الكظم وعلى أمرّ من طعم العلقم. فيه استعارات حسنة للفظ أخذ الكظم كنّى بها عن أخذ الوجوه عليه وتضييق الأمر فيما يطلبه، ولفظ المرارة التي هي حقيقة في الكيفيّة المخصوصة للأجسام لما يجده من التألم بسبب فوت مطلوبه، ووجه المشابهة في هاتين الاستعارتين لزوم الأذى أيضاً، وأمّا أنّ الذي وجده أمرّ من العلقم فظاهر إذ لا نسبة للألم البدنيّ في الشدّة إلى الألم النفسانيّ. واعلم أنّه قد اختلف الناقلون لكيفيّة حاله بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فروى المحدّثون من الشيعة وغيرهم أخباراً كثيرة ربما خالف بعضها بعضاً بحسب اختلاف الأهواء: منها وهو الذي عليه جمهور الشيعة أنّ عليّاً عليه السلام امتنع من البيعة لأبي بكر بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وامتنع معه جماعة بني هاشم كالزبير وأبي سفيان بن الحرث والعبّاس وبنيه وغيرهم وقالوا: لا نبايع إلّا عليّاً عليه السلام وأنّ الزبير شهر سيفه فجاء عمر في جماعة من الأنصار فأخذ سيفه فضرب به الحجر فكسره وحملت جماعتهم إلى أبي بكر فبايعوه وبايع معهم عليّ إكراهاً، وقيل: إنّ عليّاً عليه السلام اعتصم ببيت فاطمة عليها السلام وعلموا أنّه مفرد فتركوه، وروى نصرابن مزاحم في كتاب صفّين أنّه كان يقول: لو وجدت أربعين ذوي عزم لقاتلت، ومنها وهو الذي عليه جمهور المحدّثين من غير الشيعة أنّه امتنع من البيعة ستّة أشهر حتى ماتت فاطمة. فبايع بعد ذلك طوعاً، وفي صحيحي مسلم والبخاري: كانت وجوه الناس تختلف إليه وفاطمة لم تمت بعد فلمّا ماتت انصرفت وجوه الناس عنه. فخرج وبايع أبا بكر، وعلى الجملة فحال الصحابة في اختلافهم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما جرى في سقيفة بني ساعدة وحال عليّ في طلب هذا الأمر ظاهر، والعاقل إذا طرح العصبيّة والهوى عن نفسه ونظر فيما نقله الناس في هذا المعنى علم ما جرى بين الصحابة من الاختلاف والاتّفاق، وهل بايع عليّ طوعاً أو كرهاً وهل ترك المقاومة عجزاً أو اختياراً. ولمّا لم يكن غرضنا إلّا تفسير كلامه كان الاشتغال

بغير ذلك تطويلاً وفضولاً خارجاً عن المقصود. ومن رام ذلك فعليه بكتب التواريخ.

ومنها: وَلَمْ يُبَايِعْ حَتَّى شَرَطَ أَنْ يُؤْتِيَهُ عَلَى ٱلْبَيْعَةِ ثَمَناً، فَلاَ ظَفِرَتْ يَدُ الْبَائِعِ، وَخَزِيَتْ أَمَانَةُ الْمُبْتَاعِ، فَخُذُوا لِلْحَرْبِ أُهْبَتَهَا، وَأَعِدُّوا لَهَا عُدَّتَهَا، فَقَدْ شُبَّ لَظَاهَا، وَعَلاَ سَنَاهَا، وَٱسْتَشْعِرُوا ٱلصَّبْرَ فَإِنَّهُ أَدْعَى إِلَى ٱلنَّصْرِ.

أقول: خزيت: أي ذلّت وهانت، والأهبة: الاستعداد، وأعدّوا: أي هيّؤوا، وعدّة الحرب: ما يعدّلها من الآلات والسلاح. وشبّ لظاها: أي أوقدت نارها وأثيرت، وروي شبّ بالبناء للفاعل أي ارتفع لهبها. والسنا مقصوراً: الضوء. والشعار: ما يلي الجسد من الثياب، ويلازمه.

اعلم أنّ هذا الفصل من الكلام اقتصاص ذكر عليه السلام فيه حال عمرو ابن العاص مع معاوية. فذكر أنّه لم يبايعه حتى شرط أن يؤتيه على بيعته ثمناً؛ وذلك أنّه لمّا نزل عليه السلام بالكوفة بعد فراغه من أمر البصرة كتب إلى معاوية كتاباً يدعوه فيه إلى البيعة فأهمّه ذلك. فدعا قوماً من أهل الشام إلى الطلب بدم عثمان فأجابوه وأراد الاستظهار في أمره فأشار عليه أخوه عتبة ابن أبي سفيان بالاستعانة بعمرو بن العاص وكان بالمدينة فاستدعاه فلمّا قدم عليه وعرف حاجته إليه تباعد عنه وجعل يمدح عليّا عليه السلام في وجهه ويفضّله ليخدعه عمّا يريد منه. فمن ذلك أنّ معاوية قال له يوماً: يا أبا عبد الله إني أدعوك إلى جهاد هذا الرجل الذي عصى الله وشقّ عصا المسلمين وقتل الخليفة وأظهر الفتنة وفرّق الجماعة وقطع الرحم. فقال عمرو: من هو؟ قال: عليّ. فقال: والله يا معاوية ما أنت وعليّ حملي بعير، ليس لك هجرته ولا سابقته ولا صحبته ولا جهاده ولا علمه والله إنّ له مع ذلك لحظّاً في الحرب ليس لأحد غيره. ولكني قد تعوّدت من الله إحساناً وبلاءً جميلاً. فما تجعل لي إن بايعتك على حربه وأنت تعلم ما فيه من الغرور والخطر؟ قال له: حكمك. قال له: مصر الطعمة. فلم يزل معاوية يتلكّأ عليه ويماطله وهو يمتنع عن مساعدته حتى رضي معاوية أن يعطيه مصر. فعاهده على ذلك وبايع عمرو

معاوية، وكتب له بمصر. كتاباً. فذلك معنى قوله عليه السلام : ولم يبايع معاوية حتى شرط أن يؤتيه على البيعة ثمناً، ثمّ أردف ذلك بالدعاء على البايع لدينه وهو عمرو بعدم الظفر في الحرب أو بالثمن بقوله: فلا ظفرت يد البايع، وألحقه بالتوبيخ والذّم للمبتاع بذكر هوان أمانته عليه وهي بلاد المسلمين وأموالهم التي أفاءها الله عليهم، ويحتمل أن يكون إسناد الخزي إلى الأمانة إسناداً مجازيّاً أو على سبيل إضمار الفاعل يفسّره المبتاع أي والخزي المبتاع في أمانته بخيانته لها، وذهب بعض الشارحين إلى أنّ المراد بالبايع معاوية وبالمبتاع عمرو. وهو ضعيف. لأنّ الثمن إذا كان مصراً فالمبتاع هو معاوية. ثمّ لمّا ظهرت دعوة معاوية لأهل الشام ومبايعة عمرو له كان ذلك من دلائل الحرب فلذلك أمر عليه السلام أصحابه بالتأهّب لها وإعداد عدّتها، وكنّى عمّا ذكرناه من أمارات وقوعها بقوله: وقد شبّ لظاها وعلا سناها. كناية بالمستعار. ووجه المشابهة بين لهب النار وسناها وأمارات الحرب كونها علامات على أمرين هما مظّنة الهلاك ومحلّ الفتنة، ويحتمل أن يكون إطلاق للفظ السنا ترشيحاً للاستعارة، ثمّ أردف ذلك بالأمر بالصبر في الحرب واستشعاره إمّا أن يراد به اتّخاذه شعاراً على وجه استعارته من الثوب لملازمته الجسد، أو يراد اتّخاذه علامة لأنّ شعار القوم علامتهم أيضاً، ويحتمل أن يكون اشتقاقه من الشعور أي ليكن في شعوركم الصبر وإن كان الاشتقاقيّون يردّون الشعار بالمعنى الثاني إلى الشعور.

وقوله: فإنّ ذلك أدعى إلى النصر. بيان لفائدة اتّخاذ الصبر شعاراً أو علامة، أمّا إن كان المقصود أنّ الزموا أنفسكم الصبر فظاهر أنّ لزوم الصبر من أقوى أسباب النصر، وإن كان المقصود اتّخذوه علامة فلأنّ من كان الصبر في الحرب علامة له يعرفه الخصم بها كان الخصم يتصوّرها منه أدعى إلى الانقهار فكان المستشعر لتلك العلامة أدعى إلى القهر والنصر، وإن كان المراد إخطاره بالبال فلأنّه سبب لزومه. وبالله التوفيق.

٢٦ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ ٱلْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ ٱلْجَنَّةِ فَتَحَهُ ٱللهُ لِخَاصَّةِ أَوْلِيَائِهِ،

وَهُوَ لِبَاسُ ٱلتَّقْوَى، وَدِرْعُ ٱللهِ ٱلْحَصِينَةُ، وَجُنَّتُهُ ٱلْوَثِيقَةُ، فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ أَلْبَسَهُ ٱللهُ ثَوْبَ ٱلذُّلِّ، وَشَمِلَهُ ٱلْبَلاَءُ، وَدُيِّثَ بِالصَّغَارِ وَٱلْقَمَاءِ، وَضُرِبَ عَلَى قَلْبِهِ بِٱلأَسْدَادِ، وَأُدِيلَ ٱلْحَقُّ مِنْهُ بِتَضْيِيعِ ٱلْجِهَادِ، وَسِيمَ ٱلْخَسْفَ، وَمُنِعَ ٱلنَّصَفَ، أَلاَ وَإِنِّي قَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى قِتَالِ هٰؤُلاَءِ ٱلْقَوْمِ لَيْلاً وَنَهَاراً، وَسِرّاً وَإِعْلاَناً، وَقُلْتُ لَكُمْ: أُغْزُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَغْزُوكُمْ فَوَٱللهِ مَا غُزِيَ قَوْمٌ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ إِلاَّ ذَلُّوا فَتَوَاكَلْتُمْ، وَتَخَاذَلْتُمْ حَتَّى شُنَّتْ الْغَارَاتُ عَلَيْكُمْ، وَمُلِكَتْ عَلَيْكُمُ ٱلأَوْطَانُ، وَهٰذَا أَخُو غَامِدٍ وَقَدْ وَرَدَتْ خَيْلُهُ ٱلأَنْبَارَ، وَقَدْ قَتَلَ حَسَّانَ بْنَ حَسَّانَ الْبَكْرِيَّ، وَأَزَالَ خَيْلَكُمْ عَنْ مَسَالِحِهَا، وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ يَدْخُلُ عَلَى الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ، وَٱلأُخْرَى الْمُعَاهِدَةِ، فَيَنْتَزِعُ حِجْلَهَا وَقُلْبَهَا وَقَلاَئِدَهَا وَرِعَاثَهَا، مَا تَمْنَعُ مِنْهُ إِلاَّ بِالاِسْتِرْجَاعِ وَٱلاِسْتِرْحَامِ، ثُم ٱنْصَرَفُوا وَافِرِينَ مَا نَالَ رَجُلاً مِنْهُمْ كَلْمٌ، وَلاَ أُرِيقَ لَهُمْ دَمٌ، فَلَوْ أَنَّ ٱمْرَءاً مُسْلِماً مَاتَ مِنْ بَعْدِ هٰذَا أَسَفاً مَا كَانَ بِهِ مَلُوماً، بَلْ كَانَ بِهِ عِنْدِي جَدِيراً؛ فَيَا عَجَباً - وَٱللهِ - يُمِيتُ الْقَلْبَ وَيَجْلِبُ الْهَمَّ ٱجْتِمَاعُ هٰؤُلاَءِ الْقَوْمِ عَلَى بَاطِلِهِمْ وَتَفَرُّقُكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ فَقُبْحاً لَكُمْ وَتَرَحاً، حِينَ صِرْتُمْ غَرَضاً يُرْمَى؛ يُغَارُ عَلَيْكُمْ وَلاَ تُغِيرُونَ، وَتُغْزَوْنَ وَلاَ تَغْزُونَ، وَيُعْصَى ٱللهُ وَتَرْضَوْنَ؛ فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي أَيَّامِ الصَّيْفِ قُلْتُمْ هٰذِهِ حَمَارَّةُ الْقَيْظِ، أَمْهِلْنَا يُسَبَّخْ عَنَّا الْحَرُّ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي الشِّتَاءِ قُلْتُمْ: هٰذِهِ صَبَارَّةُ الْقُرِّ أَمْهِلْنَا يَنْسَلِخْ عَنَّا الْبَرْدُ كُلُّ هٰذَا فِرَاراً مِنَ الْحَرِّ وَالْقُرِّ(١) فَأَنْتُمْ وَٱللهِ مِنَ السَّيْفِ أَفَرُّ، يَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ وَلاَ رِجَالَ! حُلُومُ ٱلأَطْفَالِ، وَعُقُولُ رَبَّاتِ الْحِجَالِ، لَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَرَكُمْ وَلَمْ أَعْرِفْكُمْ! مَعْرِفَةٌ وَٱللهِ جَرَّتْ نَدَماً، وَأَعْقَبَتْ سَدَماً قَاتَلَكُمُ ٱللهُ!! لَقَدْ مَلأْتُمْ قَلْبِي قَيْحاً، وَشَحَنْتُمْ صَدْرِي غَيْظاً، وَجَرَّعْتُمُونِي نُغَبَ التَّهْمَامِ أَنْفَاساً وَأَفْسَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي بِالْعِصْيَانِ وَالْخِذْلاَنِ، حَتَّى قَالَتْ قُرَيْشٌ: إِنَّ ٱبْنَ أَبِي طَالِبٍ رَجُلٌ شُجَاعٌ، وَلٰكِنْ لاَ عِلْمَ لَهُ بِالْحَرْبِ.

---

(١) (فإذا كنتم من الحر والبرد تفرون ن ل)

لله أَبُوهُمْ!! وَهَلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَشَدُّ لَهَا مِرَاساً، وَأَقْدَمُ فِيهَا مَقَاماً مِنِّي؟! لَقَدْ نَهَضْتُ فِيهَا، وَمَا بَلَغْتُ الْعِشْرِينَ، وَهَا أَنَا ذَا قَدْ ذَرَّفْتُ عَلَى السِّتِّينَ، وَلَكِنْ لَا رَأْيَ لِمَنْ لَا يُطَاعُ!!

أقول: هذه الخطبة مشهورة ذكرها أبو العباس المبرّد وغيره، والسبب المشهور لها أنّه ورد عليه علج من أهل الأنبار فأخبره أنّ سفيان بن عوف الغامديّ قد ورد في خيل لمعاوية إلى الأنبار وقتل عامله حسّان بن حسّان البكري. فصعد عليه السلام المنبر وخطب الناس وقال: إنّ أخاكم البكري قد أصيب بالأنبار وهو مغترّ لا يخاف ما كان، واختار ما عند الله على الدنيا. فانتدبوا إليهم حتى تلاقوهم فإن أصبتم منهم طرفاً انكلتموهم عن العراق أبداً ما بقوا. ثمّ سكت رجاء أن يجيبوه بشيء فلم يفه أحد منهم بكلمة. فلمّا رأى صمتهم نزل وخرج يمشي راجلاً حتى أتى النخيلة والناس يمشون خلفه حتى أحاط به قوم من أشرافهم وقالوا: ترجع يا أمير المؤمنين ونحن نكفيك. فقال: ما تكفوني ولا تكفون أنفسكم. فلم يزالوا به حتى ردّوه إلى منزله. فبعث سعيد بن قيس الهمداني في ثمانية آلاف في طلب سفيان بن عوف فخرج حتى انتهى إلى أداني أرض قنّسرين وقد فاتوه. فرجع وكان عليّ عليه السلام في ذلك الوقت عليلاً فلم يقوَ على القيام في الناس بما يريده من القول. فجلس بباب السدّة التي تصل إلى المسجد ومعه الحسن والحسين عليهما السلام وعبد الله بن جعفر، ودعى سعداً مولاه فدفع إليه كتاباً كتب فيه هذه الخطبة وأمره أن يقرأها على الناس بحيث يسمع عليه السلام ويسمعون وفي رواية المبرّد أنّه لمّا انتهى إليه ورود خيل معاوية الأنبار وقتل حسّان بن حسّان خرج مغضباً فجرّ رداءه حتى أتى النخيلة ومعه الناس فرقى رباوة من الأرض فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثمّ قال الخطبة. ورواية المبرّد أليق بصورة الحال وأظهر، وروي أنّه قام إليه رجل في آخر الخطبة ومعه ابن أخ له فقال: يا أمير المؤمنين: إنّي وابن أخي هذا كما قال تعالى: ﴿**رب إنّي لا أملك إلّا نفسي وأخي**﴾[1] فمرنا بأمرك فوالله لننهينّ إليه ولو حال بيننا وبينه

(١) ٥ ـ ٢٨.

جمر الغضا وشوك القتاد فدعا لهما بخير. وقال: وأين أنتما مما أريد.

ولنرجع إلى التفسير فنقول: الجنّة: ما استترت به من سلاح أو غيره، وديّث: أي ذلّل، ومنه الديوث: الذي لا غيرة له. والصغار: الذلّ والضيم، والقماء ممدود مصدر قمأ قمأة فهو قميء: الحقارة والذلّ؛ وروى الراوندي القما بالقصر وهو غير معروف. وأسدل الرجل بالبناء للمفعول إذا ذهب عقله من أذى يلحقه. وأديل الحقّ من فلان أي غلبه عليه عدوّه، وسامه خسفاً بضمّ الخاء وفتحها: أي أولاه ذلّاً وكلّفه المشقّة، والنصف بكسر النون وسكون الصاد: الاسم من الانصاف، وضمّ النون لغة فيه، وعقر الشيء: أصله، والتواكل: أن يكل كلّ واحد منهم الأمر إلى صاحبه ويعتمد عليه فيه. وشنّ الغارة وأشنّها: فرّقها عليهم من كلّ وجه. وغامد: قبيلة من اليمن وهي من الأزد ازد شَنوءة، والمسالح جمع مسلحة وهي الحدود التي ترتّب فيها ذوو الأسلحة مخافة عادية العدوّ كالثغر، والمعاهدة: الذميّة، والحجل بكسر الحاء وفتحها: الخلخال، والقلب السوار المصمت، والرعاث جمع رعثة بفتح الراء وسكون العين وفتحها: وهي القرط، والرعاث أيضاً: ضرب من الخرز والحلي، والاسترجاع قول: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، والاسترحام: مناشدة الرحم، والوافر: التامّ، والكلم: الجرح. والترح: الحزن. والغرض: الهدف، وحمارّة القيظ بتشديد الراء: شدّة حرّه: وسبخ الحرّ: فتر، وخفّ، وصبارّة القرّ بتشديد الراء أيضاً: شدّة البرد، وينسلخ: ينقضي، وربّات الحجال: النساء، والحجال جمع حجلة: وهي بيت العروس ويزيّن بالستور والثياب، والسدم: الحزن عن الندم، والقيح: ما يكون في القرحة من المدّة والصديد، وشحنتم: ملأتم والنغب جمع نغبة بضم النون وهي الجرعة، والتهمام بالفتح التهمّ، والمراس العلاج، وذرّفت على الستّين بتشديد الراء أي زدت.

واعلم أنّ قوله: أما بعد. إلى قوله: ومنع النصف. صدر الخطبة بيّن فيه غرضه إجمالاً وهو الحثّ على الجهاد، فإنّه ممّا ذكر من أمر الجهاد وتعظيمه وخطأ من قصر عنه علم أنّه يريد أن يحثّ السامعين على جهاد

عدوّهم فذكر من ممادح الجهاد أموراً.

أحدها: أنّه باب من أبواب الجنّة. وبيانه أنّ الجهاد تارة يراد به جهاد العدوّ الظاهر كما هو الظاهر هاهنا، وتارة يعنى به جهاد العدوّ الخفيّ وهو النفس الأمارة بالسوء. وكلاهما بابان من أبواب الجنّة، والثاني منهما مراد بواسطة الأوّل إذ هو لازمة له، وذلك أنّك علمت أنّ لقاء الله سبحانه ومشاهدة حضرة الربوبيّة هي ثمرة الخلقة وغاية سعي عباد الله الأبرار، ثمّ قد ثبت بالضرورة من دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنّ الجهاد أحد العبادات الخمس، وثبت أيضاً في علم السلوك إلى الله أنّ العبادات الشرعيّة هي المتمّة والمعينة على تطويع النفس الأمّارة بالسوء للنفس المطمئنّة، وأنّ التطويع كيف يكون وسيلة إلى الجنّة التي وعد المتّقون. فيعلم من هذه المقدّمات أنّ الجهاد الشرعيّ باب من أبواب الجنّة إذ منه يعبر المجاهد السالك إلى الله إلى الباب الأعظم للجنّة وهو الرياضة وقهر الشيطان. ومن وقوفك على هذا السرّ تعلم أنّ الصلاة والصوم وسائر العبادات كلّها أبواب للجنّة إذ كان امتثالها على الوجه المأمور بها مستلزماً للوصول إلى الجنّة. فإنّ باب كلّ شيء هو ما يدخل إليه منه ويتوصّل به إليه. ونحوه قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في الصلاة: إنّها مفتاح الجنّة، وفي الصوم إنّ للجنّة باباً يقال له الريّان لا يدخله إلاّ الصائمون.

الثاني: من أوصاف الجهاد: أنّه باب فتحه الله لخاصّة أوليائه. والمراد بخواص الأولياء المخلصون له في المحبّة والعبادة. وظاهر أنّ المجاهدة لله لا لغرض آخر من خواصّ الأولياء، وذلك أنّ المرء المسلم إذا فارق أهله وولده وماله وأقدم على من يغلب على ظنّه أنّه أقوى منه كما أمر المسلمون بأن يثبت أحدهم لعشرة من الكفّار، ثمّ يعلم أنّه لو قهره لقتله واستباح ذرّيته وهو في كلّ تلك الأحوال صابر شاكر ومعترف بالعبوديّة لله مسلّم أمره إلى الله فذلك هو الوليّ الحقّ الذي قد أعرض عن غير الله رأساً، وقهر شيطانه قهراً، وآيسه أن يطيع له أمراً.

فإن قلت: إذا كان الغرض من العبادات هو جهاد الشيطان والإخلاص لله كان التخصيص بالوصفين المذكورين لاستلزامه ذلك المعنى لم يبق حينئذ

لسائر العبادات مزيّة عليه فما معنى قول الصحابة وقد رجعوا من جهاد المشركين: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر؟.

قلت: يحتمل معنيين:

أحدهما: أنّ الجهاد الظاهر ليس كلّ غرضه الذاتي هو جهاد النفس؛ بل ربّما كان من أعظم أغراضه الذاتيّة هو قهر العدوّ الظاهر ليستقيم الناس على الدين الحقّ، وينتظم أمرهم في سلوكه. ولذلك دخل فيه من أراد منه إلّا ذلك كالمؤلّفة قلوبهم وإن كانوا كفّاراً. وذلك بخلاف سائر العبادات إذ غرضها ليس إلّا جهاد النفس ولا شك أنّه هو الجهاد الأكبر: أمّا أولاً فباعتبار مضّرة العدوّين فإنّ مضرّة العدوّ الظاهر مضرّة دنياويّة فانية، ومضرّة الشيطان مضرّة أخرويّة باقية. ومن كانت مضرّته أعظم كان جهاده أكبر وأهمّ، وأمّا ثانياً فلأنّ مجاهدة الشيطان مجاهدة عدوّ لازم ومع ذلك فلا يزال مخادعاً غرّاراً لا ينال غرضه إلّا بالخروج في زيّ الناصحين الأصدقاء، ولا شك أنّ الاحتراز من مثل هذا العدوّ أصعب، وجهاده أكبر من جهاد عدوّ مظهر لعداوته يقاتله الإنسان في عمره مرّة أو مرّتين. فحسن لذلك تخصيص الجهاد بالأصغر، ومجاهدة النفس بالأكبر.

المعنى الثاني: أنّا وإن قلنا: إنّ الغرض من الجهاد الأصغر هو جهاد النفس إلّا أنّ جهادها في حال جهاد العدوّ الظاهر قد يكون أسهل وذلك أنّ القوى البدنيّة كالغضب والشهوة يثوران عند مناجزة العدوّ طلباً لدفعه، وتصيران مطيعين للنفس الانسانيّة فيما تراه وتأمر به فلا يكون عليها كثير كلفة في تطويع تلك القوى. بخلاف سائر العبادات فإنّ طباع تلك القوى معاكسة فيها لرأي النفس. فلذلك كان جهادها في سائر العبادات أصعب وأكبر من جهادها في حال الحرب. والله أعلم.

الثالث: كونه لباس التقوى، ودرع الله الحصينة، وجنّته الوثيقة. واستعار لفظ اللباس والدرع والجنّة ثمّ رشّح الاستعارتين الأخيرتين بوصفي الحصانة والوثاقة ووجه المشابهة أنّ الإنسان يتّقي شرّ العدوّ أو سوء العذاب يوم القيامة كما يتّقي بثوبه ما يؤذيه من حرّ أو برد وبدرعه وجنّته ما يخشاه من

عدوّه، ثمّ أردف عليه السلام مدائح الجهاد بتوعيد من تركه رغبة عنه من غير عذر يوجب تخلّفه بأمور منفور عنها طبعاً: منها: أنّه يستعدّ بالترك لأن يلبسه الله ثوب الذلّ. واستعار لفظ الثوب للذل ولفظ اللباس لشموله له. ووجه المشابهة إحاطة الذلّ به إحاطة الصفة بالموصوف كإحاطة الثوب بملابسه، وأن يشمله بلاء العدوّ فيذلّله بالصغار والقماء، وأن يضرب على قلبه بالإسهاب أي يذهب وجه عقله العمليّ في تدبير مصالحه: أمّا لحوق الذلّ به فذلك أنّ كثرة غارات العدوّ وتكرّرها منه موجب لتوهّم قهره وقوّته وذلك ممّا ينفعل عنه النفس بالانقهار والذلّ. وحينئذ تذعن لشمول بلائه، وتذهب وجه عقلها في استخراج وجوه المصالح في دفعه ومقاومته إمّا لقلّة اهتمامها بذلك عن عدم طمعها في مقاومته أو لتشويشها لخوفه عن ملاحظة وجه المصلحة. وفي إطلاق لفظ الضرب على قلبه استعارة كقوله تعالى: ﴿**وضربت عليهم الذلّة والمسكنة**﴾(1) ووجه الشبه فيها إحاطة القبّة المضروبة بمن فيها، أو لزوم قلّة العقل له كلزوم الطين المضروب على الحائط. ويحتمل أن يراد بالإسهاب كثرة الكلام من غير فائدة فإنّ الإنسان حال الخوف والذلّ كثيراً ما يخبط في القول ويكثر من غير إصابة فيه. وكذلك لحوق باقي الأمور به كإدالة الحقّ منه، وغلبة العدوّ له، وعدم انتصافه منه أمر ظاهر عن ترك جهاد عدوّه مع التمكن من ذلك. وهي أمور منفور عنها طبعاً ومضرّة بحال من تلحقه في الدارين. وقد ورد في التنزيل الإلهي من فضل الجهاد والحثّ عليه أمور كثيرة كقوله تعالى: ﴿**لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضّل الله المجاهين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة**﴾ إلى قوله: ﴿ **فضّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً درجات منه ومغفرة ورحمة** ﴾(2) وقوله: ﴿ **وجاهدوا في الله حقّ جهاده** ﴾(3) وقوله: ﴿ **ومن جاهد فإنّما يجاهد لنفسه** ﴾(4) ونحو ذلك.

---

(1) ٢ - ٥٨.
(2) ٤ - ٩٧.
(3) ٢٣ - ٧٧.
(4) ٢٩ - ٥.

قـوله : ألا وإنّي قد دعوتكم. الخ . لمّا ذكر صدر الخطبة أردفه بتفصيل غرضه ممّـا أجمله فيه وهـو حثّهم على الجهاد وتـوبيخهم على تركـه. فنبّههم أوّلًا على مـا كان دعـاهم إليه قبـل من قتال معـاوية وأصحـابـه مـراراً كثيـرة، وذكّـرهم نصيحته السـابِقـة لهم في أمـرهم بغـزو عـدوّهم قبـل أن يغـزوهم، ويذكّرهم بما كان أعلمهم أوّلا من القاعدة الكلّيّة المعلومة بالتجربـة والبرهـان وهو أنّه ما غُزيَ قـوم قطّ في عقر دارهم إلاّ ذلّـوا. وقد أشـرناإلى علة ذلـك: وهو أنّ للأوهام أفعالاً عجيبة في الأبدان تارة بزيادة القوّة وتارةً بنقصانهـا حتى أنّ الوهم ربّما كان سبباً لمرض الصحيح لتوهّمه المـرض، وبالعكس. فكـان السبب في ذلّ من غزي في داره وإن كان معروفاً بـالشجاعـة هو الأوهـام: إمّا أوهامهم فلأنّها تحكم بأنّها لم تقدم على غزوهم إلاّ لقوّة غازيهم، واعتقادهم فيهم الضعف بالنسبة إليهم. فتنفعـل إذن نفوسهم عن تلك الأوهـام وتنقهر عن المقاومة وتضعف عن الانبعاث وتزول غيـرتها وحميّتهـا. فتحصل على طـرف رذيلة الذلّ، وإمّا أوهام غيرهم فـلأنّ الغزو الـذي يلحقهم يكون بـاعثاً لكثيـر الأوهام على الحكم بضعفهم ومحرّكاً لطمع كلّ طـامع فيهم. فيثيـر ذلك لهم أحكاماً وهميّة بعجزهم عن المقاومة. ثمّ إنّه أردف ذلك بما قابلوا بـه نصيحته من تواكلهم وتخاذلهم عن العمـل بمقتضى أمره إلى غـاية ظهـور العدوّ عليهم وتفريق الغارات من كلّ جانب على أوطـانهم وحدودهم. ثمّ عقّب ذكـر العدوّ المطلق بذكره في شخص معيّن مشاهـد، ونبّههم عليه ليكـونوا إلى التصـديق بظهور العدوّ عليهم أقبل، وقصّ عليهم ما أحدث من ورود خيله ديارهم وقتله لعاملهم وإزالة خيلهم عن ثغورهم ومسالحهم وهتك المسلمات والمعـاهدات وسلب أموال المسلمين وسائر ما عدّده على الوجه المذكور ممّا هو مستغن عن الايضاح. ثمّ ختم ذلك القصص بمـا الأولى أن يلحق المسلم الحقّ ذا الغيرة والحميّة لله من الأسف والحـزن المميت لـه بسبب مـا يشـاهـد من الأحـوال المنكرة الواقعة بالمسلمين مع تقصيرهم عن مقاومـة عدوهم .كـلّ ذلك التقـرير ليمهّـد قانـوناً يحسن معـه تـوبيخهم وذمّهم على التقصيـر فيمـا ينبغي لهم من امتثال أمره وقبول شوره فيما هو الأولى والأصحّ لهم.

ثم أردف ذلك بالتعجّب من حالهم تأكيداً لذلك التمهيد. فنادى: العجب من حالهم منكراً ليحضر له كأنّه غير متعيّن في حال ندائه، ثمّ تعيّن بندائه وحضر فكرّره ليصفه بالشدّة. ونصبه على المصدر كأنّه لمّا حضر وتعيّن قال عجبت عجباً من شأنه كذا. ونحو هذا المنادى قوله تعالى: يا بشرى في قراءة من قرأ بغير إضافة، ويحتمل أن يكون العجب الأوّل نصباً على المصدر أيضاً والثاني للتأكيد أو لما ذكرناه، ويكون المنادى محذوفاً تقديره يا قوم أو نحوه، وأمّا وصفه له بأنّه يميت القلب ويجلب الهمّ: فاعلم أنّ السبب في التعجّب من الأمور عدم اطّلاع النفس على أسبابه لغموضها مع كونه في نفسه أمراً غريباً. ولذلك وضع أهل اللغة قولهم ما أفعله صيغة للتعجّب كقولك ما أحسن زيداً، وعلمت أن التقدير فيها السؤال عن أسباب حسنه. وكلّما كان الأمر أغرب وأسبابه أخفى كان أعجب. فإذا كان أمراً خطراً مهمّاً وانبعثت النفس في طلب سببه فقد تعجز من تحصيله وتكلّ القوّة المتخيّلة عن تعيينه فيحدث بسبب عدم الاطّلاع على سببه همّ وغمّ لأنّه كالمرض الذي لا يمكن علاجه إلّا بالوقوف على سببه فيسمّى ذلك الهمّ موتاً للقلب تجوّزاً بلفظ الموت في الهمّ والغمّ تسمية للشيء باسم ما يؤول إليه، وإطلاقاً لاسم المسبّب على السبب.

إذا عرفت ذلك فنقول: إنّ حال قومه عليه السلام في تفرّقهم عن حقّهم مع علمهم بحقّيّته، وحال اجتماعهم على باطلهم مع اشتراكهم في الشجاعة وكون قومه واثقين برضاء الله لو امتثلوا أمره من العجب المميت للقلب الذي لا يهتدى بسببه.

وأمّا أنه يجلب الهمّ فظاهر إذ كان حاله عليه السلام معهم كحال طبيب لمرضى أُلزم بعلاجهم مع خطر أمراضهم وعدم لزومهم لما يأمر به من حمية أو شرب دواء. وظاهر أنّ تلك الحال ممّا يجلب همّ الطبيب. ثمّ لمّا أظهر لهم التعجّب ووصفه بالشدّة أعقبه بذكر الأمر المتعجّب منه ليكون في نفوسهم أوقع. ثمّ أردف ذلك المتعجّب بالدعاء عليهم بالبعد عن الخير وبالحزن بسبب تفريطهم، وأعقبه بالتوبيخ لهم والتبكيت بما يأنف منه أهل

المــروّة والحميّـة ويــوجب لهم الخجـل والاستحيــاء من صيرورتهم بسبب تقصيرهم غرضاً للرماة يغار عليهم وقد كان الأولى بهم أن يغزوا، ويغزون وقد كـانوا هم أولى بـأن يغزوا، ويعصى الله مـع رضاهم بـذلك. ثم حكى صـور أعذارهم في التخلّف عن أمره وهي تارة شدّة الحرّ وتارة شدّة القرّ ونحوها من الأعذار التي يذوق العـاقل منهـا طعم الكسل والفتـور، وأنه لم يكن لهم بهـا مقصـود إلّا المدافعـة. ثمَّ تسلّم تلك الأعـذار منهم واستثبتهـا وجعلهـا مهـاداً لـلاحتجـاج عليهم بقـولـه: فـأنتم والله من السيف أفـرّ. وذلـك أن الفـارّ من **الأهون** فارّ من الأشدّ بطريق الأولى إذ لا مناسبة لشدّة الحرّ والبـرد مع القتـل والمجالدة بالسيف. ثمَّ أردف ذلك التبكيت بالذّم لهم بثلاثة أوصاف:

أحدها: أنّه نفى عنهم صفة الرجوليّة. لاستجماعها ما ينبغي من صفات الكمال الانساني كالشجاعـة والأنفة والحميّـة والغيرة. وعـدم هذه الكمـالات فيهم وإن كـانوا بـالصورة المحسـوسة للرجـال الموجبـة لشبههم بهم. وذلـك قوله: يا أشباه الرجال ولا رجال.

وثـانيهـا: أنّــه وصفهم بحلوم الأطفـال. وذلــك أن ملكـة الحلم ليس بحاصل للطفل وإن كانت قوّة الحلم له لكن قد يحصل لهم مـايتصوّر بصـورة الحلم كعـدم التسرّع إلى الغضب عن خيـال يرضيه وأغلب أحوالـه أن يكون ذلك في غير موضعه، وليس تحصـل له ملكـة تكسب نفسه طمـأنينة كمـا في حقّ الكاملين. فهو إذن نقصان. ولمّا كان تاركـو أمره عليه السلام بالجهاد قـد تركـوا المقاومة حلما عن أدنى خيال كتـركهم الحرب بصفّين عن خـدعة أهـل الشام لهم بـالمسالمـة وطلب المحاكمـة إلى كتاب الله ورفـع المصـاحف فقـالـوا: إخواننا في الدين فلا يجوز لنا قتالهم. كان ذلـك حلماً في غيـر موضعـه حتى كان من أمرهم ما كان. فأشبه رضى الصبيان فأطلق اسمه عليه.

وثالثها: إلحـاق عقولهم بعقـول النساء. وذلـك للمشاركـة في النقصان وعدم عقليّتهم لوجوه المصالح المختصّة بتـدبير المـدن والحرب. ثمَّ عـرّفهم محبّته لعدم رؤيتهم وعدم معرفتهم لاستلزامها ندمـه على الدخـول في أمرهم والحزن من تقصيرهم في الذّب عن الدين لأنّ المتـولّي لأمر يغلب على ظنّـه

استقامته حتّى إذا دخل فيه وطلب انتظامه ووجده غير ممكن له لا بدّ وأن يندم على تضييع الوقت به، ويحزن على عدم إمكانه له. وهذه حاله عليه السلام مع أصحابه. ولذلك حزنت الأنبياء عليهم السلام على تقصير أممهم حتى عاتبهم الله تعالى على ذلك كقوله لمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم: **﴿ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق ممّا يمكرون﴾ ﴿لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين﴾** ثمَّ عاد إلى الدعاء عليهم والشكاية منهم؛ وذلك قوله: قاتلكم الله. إلى آخره. وأعظم بما دعا عليهم به فإنَّ المقاتلة لمّا كانت مستلزمة للعداوة، والعداوة مستلزمه لأحكام كاللعن والطرد والبعد من الشفقة والخير من جهة العدوّ، وكان إطلاق المقاتلة والعداوة على الله بحسب حقيقتهما غير ممكن كان إطلاق لفظ المقاتلة والعداوة مقصوداً به لوازمهما كالإبعاد عن الرحمة مجازاً. قال المفسّرون: معنى قول العرب: قاتلكم الله: أي لعنكم. وقال ابن الأنباري: المقاتلة من القتل. فإذا أخبر الله بها كان معناها اللعنة منه أنَّ من لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الهالك.

وقوله: لقد ملأتم قلبي قيحاً إشارة إلى بلوغ الغاية في التألم الحاصل له من شدّة الاهتمام بأمر هم مع تقصيرهم وعدم طاعتهم لأوامره. فعبّر بالقيح عن ألم قلبه مجازاً من باب إطلاق اسم الغاية على ذي الغاية. إذ كان غاية العضو أن يتقيّح. وكذلك إطلاق لفظ الشجن على فعلهم المؤلم لقلبه مجاز لأنّ الشجن حقيقة في نسبة بين جسمين، وكذلك قوله: وجرّعتموني نغب التهمام أنفاساً: أي جلبتم لي الهمّ وقتاً فوقتاً. مجاز لأنَّ التجريع عبارة عن إدخال الماء أو نحوه في الحلق. وطريان الهمّ على نفسه وما يلزم الهمّ من الآلام البدنيّة على بدنه، وتكرار ذلك منهم يشبه طريان المشروب وتجريعه. وقوله: أنفاساً. مجاز في الدرجة الثانية فإنَّ النفس حقيقة لغويّة في الهواء الداخل والخارج في الحيوان من قبل الطبيعة. ثمّ استعمل عرفاً لمقدار ما يشرب في مدّة إدخال الهواء بقدر الحاجة إطلاقاً لاسم المتعلّق على المتعلّق، ثمَّ استعمل هاهنا في كلّ مقدار من الهمّ يرد عليه من قبل أصحابه وقتاً فوقتا وهي درجة ثانية من المجاز.

وقوله: وأفسدتم رأيي بالعصيان. من تمام شكايته منهم. ومعنى إفسادهم له خروجه بسبب عدم التفاتهم إليه عن أن يكون منتفعاً به لغيرهم حتى قالت قريش: إنّه وإن كان رجلاً شجاعاً إلاّ أنّه غير عالم بالحرب. فإنّ الخلق إذا رأوا من قوم سوء تدبير أو مقتضى رأي فاسد كان الغالب أن ينسبوه إلى رئيسهم ومقدّمهم ولا يعلمون أنّه عليه السلام الألمعيّ الذي يرى الرأي كأن قد رأى وقد سمع، وأنَّ التقصير من قومه. ثمَّ أردف ذلك بالردّ على قريش في نسبتها له الى قلّة العلم بالحرب بقوله: لله أبوهم. إلى آخره. وهي كلمة من ممادح العرب. ثمّ سألهم عن وجود من هو أشدّ للحرب معالجة أو أقدم منه فيها مقاماً سؤالاً على سبيل الإنكار عليهم، ونبّه على صدقه بنهوضه في الحرب ومعاناة أحوالها عامّة عمره وهو من قبل بلوغ العشرين إلى آخر عمره. ثم بيّن أنَّ السبب في فساد حال أصحابه ليس ما تخيّله قريش فيه من ضعف الرأي في الحرب كما يزعمون؛ بل عدم طاعتهم له فيما يراه ويشير عليهم به وذلك قوله: ولكن لا رأي لمن لا يطاع. فإنّ الرأي الذي لا يقبل بمنزلة الفاسد وإن كان صواباً. والمثل له عليه السلام .

٢٧ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

أَمَّا بَعْدُ. فَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ أَدْبَرَتْ، وَآذَنَتْ بِوَدَاعٍ ، وَإِنَّ الآخِرَةَ قَدْ أَشْرَفَتْ بِاطِّلَاعٍ ؟ أَلَا وإِنَّ الْيَوْمَ الْمِضْمَارَ، وَغَداً السِّبَاقَ، وَالسَّبَقَةُ الْجَنَّةُ وَالْغَايَةُ النَّارُ؛ أَفَلَا تَائِبٌ من خَطِيئَتِهِ قَبْلَ مَنِيَّتِهِ؟ أَلَا عَامِلٌ لِنَفْسِهِ قَبْلَ يَوْمِ بُؤْسِهِ؟ أَلَا وَإِنَّكُمْ فِي أَيَّامِ أَمَلٍ مِنْ وَرَائِهِ أَجَلٌ، فَمَنْ عَمِلَ فِي أَيَّامِ أَمَلِهِ قَبْلَ حُضُورِ أَجَلِهِ نَفَعَهُ عَمَلُهُ، وَلَمْ يَضْرُرْهُ أَجَلُهُ، وَمَنْ قَصَّرَ فِي أَيَّامِ أَمَلِهِ قَبْلَ حُضُورِ أَجَلِهِ فَقَدْ خَسِرَ عَمَلُهُ وَضَرَّهُ أَجَلُهُ، أَلَا فَاعْمَلُوا فِي الرَّغْبَةِ كَمَا تَعْمَلُونَ فِي الرَّهْبَةِ؟ أَلَا وَإِنِّي لَمْ أَرَ كَالْجَنَّةِ نَامَ طَالِبُهَا، وَلَا كَالنَّارِ نَامَ هَارِبُهَا أَلَا وَإِنَّهُ مَنْ لَا يَنْفَعْهُ الْحَقُّ يَضْرُرْهُ الْبَاطِلُ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَقِمْ بِهِ الْهُدَى يَجُرُّ بِهِ الضَّلَالُ إِلَى الرَّدَى، أَلَا وَإِنَّكُمْ قَدْ أُمِرْتُمْ بِالظَّعْنِ، وَدُلِلْتُمْ عَلَى الزَّادِ، وَإِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ اتِّبَاعُ الْهَوَى وَطُولُ الأَمَلِ ، تَزَوَّدُوا مِنَ الدُّنْيَا مَا تَحْرُزُونَ أَنْفُسَكم بِهِ غَداً.

قال الشريف: أقول: لو كان كلام يأخذ بالأعناق إلى الزهد في الدنيا ويضطر إلى عمل الآخرة لكان هذا الكلام، وكفى به قاطعا لعلائق الآمال، وقادحا زناد الاتعاظ والازدجار، ومن أعجبه قوله عليه السلام: «أَلاَ وَإِنَّ الْيَوْمَ الْمِضْمَارَ وَغَداً السِّبَاقَ وَالسَّبَقَةُ الْجَنَّةُ وَالْغَايَةُ النَّارُ» فإن فيه ـ مع فخامة اللفظ، وعظم قدر المعنى، وصادق التمثيل، وواقع التشبيه ـ سراً عجيباً، ومعنى لطيفاً، وهو قوله عليه السلام: «والسبقة الجنة، والغاية النار» فخالف بين اللفظين لاختلاف المعنيين، ولم يقل «السبقة النار»، كما قال «السبقة الجنة»؛ لأن الاستباق إنما يكون إلى أمر محبوب، وغرض مطلوب، وهذه صفة الجنة وليس هذا المعنى موجوداً في النار نعوذ بالله منها، فلم يجز أن يقول «والسبقة النار» بل قال «والغاية النار»؛ لأن الغاية ينتهي إليها من لا يسره الانتهاء ومن يسره ذلك، فصلح أن يعبر بها عن الأمرين معا، فهي في هذا الموضع كالمصير والمآل، قال الله تعالى: **﴿قل تمتعوا فان مصيركم إلى النار﴾** ولا يجوز في هذا الموضع أن يقال: سبقتكم ـ بسكون الباء ـ إلى النار، فتأمل ذلك فباطنه عجيب وغوره بعيد. وكذلك أكثر كلامه عليه السلام، وفي بعض النسخ، وقد جاء في رواية أخرى «والسبقة الجنة» ـ بضم السين ـ والسبقة عندهم: اسم لما يجعل للسابق إذا سبق من مال أو عرض، والمعنيان متقاربان لأن ذلك لا يكون جزاء على فعل الأمر المذموم، وإنما يكون جزاء على فعل الأمر المحمود.

أقول: هذا الفصل من الخطبة التي في أوّلها الحمد لله غير مقنوط من رحمته. وسيجيء بعد، وإنّما قدّمه الرضيّ عليها لما سبق من اعتذاره في خطبة الكتاب أنّه لا يراعى التتالي والنسق في كلامه عليه السلام. وقوله: قد أدبرت أي ولّى دبره. وآذنت أي أعلمت. وأشرفت أي أطّلعت، والمضمار: المدّة التي يضمر فيها الخيل للمسابقة أي تعلف حتى تسمن ثمّ تردّ إلى القوت والمدّة أربعون يوماً، وقد يطلق على الموضع الذي يضمر فيه أيضاً. والسباق: مصدر مرادف للمسابقة وهو أيضاً جمع سبقة كنطفة ونطاف، أو سبقة كحجلة وحجال، أو سبق كجمل وجمال. والثلاثة اسم لما يجعل للسابق من مال أو

غرض، والمنيّة: الموت، والبؤس: شدّة الحاجة، وتحرزون: تحفظون.

واعلم انّ هذا الفصل يشتمل على أحد عشر تنبيهاً:

الأوّل: على وجوب النفار عن الدنيا وعدم الركون إليها. وذلك بقوله: ألا وإنّ الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع. وأشار بإدبار الدنيا وإعلامها بالوداع إلى تقضّي الأحوال الحاضرة بالنسبة إلى كلّ شخص من الناس من صحّة وشباب وجاه ومال وكلّ ما يكون سبباً لصلاح حال الإنسان، وأنّ كلّ ذلك في هذه الحياة الدنيا لدنوّها من الإنسان. ولمّا كانت هذه الأمور أبداً في التغيّر والتقضّي المقتضي لمفارقة الإنسان لها وبعدها عنه لا جرم حسن إطلاق اسم الإدبار على تقضّيها وبعدها استعارة تشبيهاً لها بالحيوان في إدباره. فقيل لكلّ أمر يكون الإنسان فيه من خير وشرّ إذا كان في أوّله: أقبل، وإذا كان في آخره وبعد تقضّيه: أدبر، وكذلك اسم الوداع فإنّ التقضّي لمّا استلزم المفارقة وكانت مفارقة الدنيا مستلزمة لأسف الإنسان عليها ووجده لها أشبه ذلك ما يفعله الإنسان في حقّ صديقه المرتحل عنه في وداعه له من الأسف على فراقه والحزن والبكاء ونحوه. فاستعير اسم الوداع له، وكنّى بإعلامها بذلك عن الشعور الحاصل بمفارقتها من تقضّيها شيئاً فشيئا، أو هو إعلام بلسان الحال.

الثاني: التنبيه على الإقبال على الآخرة والتيقّظ للاستعداد لها بقوله: ألا وإنّ الآخرة ـ قد أقبلت ـ وأشرفت باطّلاع. ولمّا كانت الآخرة عبارة عن الدار الجامعة للأحوال التي يكون الناس عليها بعد الموت من سعادة وشقاوة وألم ولذّة، وكان تقضّي العمر مقرّباً للوصول إلى تلك الدار والحصول فيما يشمل عليه من خير أو شرّ حسن إطلاق لفظ الإقبال عليها مجازاً. ثمّ نزّلها لشرفها على الدنيا في حال إقبالها منزلة عال عند سافل. فأسند إليها لفظ الإشراف. ولأجل إحصاء الأعمال الدنيويّة فيها منزلة عالم مطّلع. فأطلق عليها لفظ الاطّلاع، ويحتمل أن يكون إسناد الإشراف بكيفيّة الاطّلاع، إلى ربّ الآخرة، وإنّما عبّر بالآخرة عنه تعظيماً لجلاله كما يكنّى عن الرجل الفاضل بمجلسه وحضرته ويكون كيفيّة الاطّلاع قرينة ذلك.

الثالث: التنبيه على وجوب الاستعداد بذكر مايستعدّ لأجله وهو السباق، وذكر ما يستبق إليه وما هو غاية المقصّر المتخلّف عن نداء الله. وذلك قوله: وإنّ اليوم المضمار. إلى قوله: والغاية النار. كنّى باليوم عن عمر الإنسان الباقية له وأخبر بالمضمار عنها. واعلم أنّه قد ورد المضمار والسباق مرفوعين ومنصوبين: فأمّا رفع المضمار فلأنّه خبر إنّ. واليوم اسمها، وإنّما أطلق اسم المضمار على تلك المدّة لما بينهما من المشابهة فإنّ الإنسان في مدّة عمره يستعدّ بالتقوى ويرتاض بالأعمال الصالحة لتكميل قوّته فيكون من السابقين إلى لقاء الله والمقرّبين في حضرته كما يستعدّ الفرس بالتضمير لسبق مثله، وأمّا نصبه ففيه شكّ. إذ يحتمل أن يقال: إنّ المضمار زمان واليوم زمان فلو أخبرنا عنه باليوم لكان ذلك إخباراً بوقوع الزمان في الزمان فيكون الزمان محتاجاً إلى زمان آخر. وذلك محال. وجوابه: لا نسلّم أنّ الإخبار بوقوع الزمان في الزمان محوج للزمان إلى زمان آخر. فإنّ بعض أجزاء الزمان قد يخبر عنها بالزمان بمعنى أنّها أجزاؤه والجزء في الكلّ لا بمعنى أنّها حاصلة في زمان آخر. وإن كان إنّما يحسن الإخبار عنها به إذا قيّدت بوصف واشتملت على أحداث يتخصّص بها كما تقول: إنّ مصطبح القوم اليوم. فكذلك المضمار لمّا كان وقتاً مشتملاً على التضمير وهو حدث صحّ الإخبار عنه باليوم. وأمّا نصب السباق فلأنّه اسم إنّ أي وإنّ غداً السباق وكنّى بغد عمّا بعد الموت، وأمّا رفعه فلا وجه له إلّا أن يكون مبتدءً خبره غداً ويكون اسم إنّ ضمير الشأن. وقال بعض الشارحين: يجوز أن يكون خبر إنّ. وهو ظاهر الفساد لأنّ الحكم بشيء على شيء إمّا بمعنى أنّه هو هو كما يقال: الإنسان هو الضحّاك. وهو ما يسمّيه المنطقيّون حمل المواطاة، أو على أنّ المحكوم عليه ذو المحكوم به كما يقال: الجسم أبيض أي ذو بياض. وهو ما يسمّونه حمل الاشتقاق. ولا واحد من المعنيين بحاصل في الحكم بالسباق على غد. فيمتنع أن يكون خبر إنّ؛ اللّهم إلّا على تقدير حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه: أي وإنّ غداً وقت السباق. لكن لا يكون السباق هو الخبر في الحقيقة. ثمّ إن قلنا: إنّ السباق مصدر. كان التقدير ضمّروا

أنفسكم اليوم فإنّكم غداً تستبقون. وتحقيق ذلك أنّ الإنسان كلّما كان أكمل في قوّتيه النظريّة والعمليّة كان وصوله إلى حضرة القدس قبل وصول من هو أنقص منه. ولمّا كان مبدأ النقصان في هاتين القوّتين إنّما هو محبّة ما عدا الواحد الحقّ، واتّباع الشهوات، والميل إلى أنواع اللذّات الفانية، والإعراض بسبب ذلك عن تولّي القبلة الحقيقيّة. ومبدأ الكمال فيهما هو الإعراض عمّا عدا الواحد الحقّ من الأمور المعدودة، والإقبال عليه بالكلّية. وكان الناس في محبّة الدنيا وفي الإعراض عنها، والاستكمال بطاعة الله على مراتب مختلفة ودرجات متفاوته كان كون اليوم هو المضمار وغدا السباق متصوّراً جليّاً. فإنّ كلّ من كان أكثر استعداداً وأقطع لعلائق الدنيا عن قلبه لم يكن له بعد الموت عائق يعوقه عن الوصول إلى الله وما أعدّ له في الجنّة من الثواب الجزيل؛ بل كان خفيف الظهر ناجياً من ثقل الوزر كما أشار إليه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: نجا المخفّفون. وكما سبق من إشارة عليّ عليه السلام إلى ذلك بقوله: تخفّفوا تلحقوا. فيكون بعد الموت سابقاً ممّن كان أضعف استكمالاً منه، وممّن لسعت عقارب الهيئات البدنيّة والملكات الرديئة قلبه وأثقلت الأوزار ظهره وأوجب له التخلّف عن درجة السابقين الأوّلين. وكذلك يكون سبق هذا بالنسبة إلى من هو أقلّ استعداداً منه وأشدّ علاقة للدنيا بقلبه. فكان معنى المسابقة ظاهراً إن كان استعارة من السباق المتعارف بين العرب. وإن قلنا: إنّ السباق جمع سبقة: اسم لما يستبق إليه ويجعل للسابق. فالمعنى أيضاً ظاهر فإنّ ما يستبق إليه إنّما يكمل الوصول إليه بعد المفارقة، ويكون الاستباق إمّا قبل المفارقة وهو السعي في درجات الرياضات كما أشار إليه سبحانه بقوله: ﴿**سابقوا إلى مغفرة من ربّكم وجنّة عرضها كعرض السماء والأرض أعدّت للذين آمنوا**﴾[1] الآية، وقوله: ﴿**فاستبقوا الخيرات**﴾. أو بعد المفارقة كما أشرنا إليه. ويكون قوله بعد ذلك: والسبقة الجنّة. تعييناً للمستبق إليه بعد التنبيه عليه إجمالاً وأمّا قوله: والغاية النار. فالذي ذكره الرضي ـ رضوان الله عليه ـ في تخصيص الجنّة بالسبقة والنار بالغاية حسن

---

(١) ٥٧ ـ ٢١.

وكاف في بيان مراده عليه السلام إلّا أنّه يبقى هاهنا بحث وهو أنّ هـذه الغايـة من أي الغايات هي؟ وهل هي غاية حقيقيّة أو لازمة لغايـة؟ فنقول: إنّ مـا ينتهى إليه قد يكون بسوق طبيعي، وقد يكون بسوق إرادي. وكلّ واحد منهما قد يكـون ذاتيّـاً، وقد يكـون عرضيّـاً. فالسـوق الذاتيّ منهمـا يقال لـه غايـة.إمّا طبيعيّـة كاستقرار الحجر في حيّزه عن حركته بسوق طبيعته له إليه وإمّا إراديّة كغـايات الإنسـان من حركـاته المنتهى إليهـا بسوق إرادتـه. وأمّا المنتهى إليـه بالسـوق العرضيّ فهو من لوازم إحدى الغايتين وقد يسمّى غـاية عـرضيّة. فـاللازم عن الطبيعية كمنع الحجر غيره أن يحلّ بحيث هو فإنّ ذلك من لوازم استقراره في حيّـزه، وعن الإراديّة كـاستضـاءة الجـار بسـراج جـاره فـإنّ ذلـك من لـواحق استضاءته وكهـلاك الطائـر في حبائـل الصيّاد عن الميـل إلى التقاط حبّـة. إذا عرفت ذلك فنقول: إنّ كون النار غاية بهذا المعنى الرابع. وبيـانه: أن محبّـة الدنيا والميل إليها والانهماك في مشتهياتها سواء كان معها مسكة للإنسان بالله تعالى أولم يكن فـإنّ من لوازمهـا الانتهـاء إلى النـار إلّا أن يشـاء الله كمـا قـال تعـالى: **﴿ ومن كان يـريد حـرث الدنيـا نؤتـه منهـا ومـا لـه في الآخـرة من نصيب ﴾**(١) وكان المقصود الأوّل للإنسان هو تناول اللذّات الحاضرة لكن لمّا كان من لوازم الوصول إلى تلك اللذّات والإقبـال عليها دخـول النار والانتهـاء إليه كانت عرضيّة.

الرابع: التنبيه على التوبة قبل الموت وهو قوله: أفـلا تائب من خـطيئته قبل منيّته. ولا شكّ أنّها يجب أن تكون مقدّمة على الأعمال لأنّـك علمت أنّ التوبة هي انزجار النفس العاقلة عن متابعة النفس الأمّارة بالسوء لجـاذب إلهيّ اطّلعت معه على قبح ما كانت عليـه من اتّباع شيـاطينها وهـو من مقام الـزهد والتخلّي. وقـد علمت في بيان كيفيّـة السلوك إلى الله تعالى أنّ مقـام التخلية مقدّم على مقام التحلية. فكان الأمر بها مقدّماً على الأمر بسائر الطاعات.

الخامس: التنبيه على العمل للنفس قبل يـوم البؤس، والإشارة إلى مـا بعـد الموت من العـذاب الـلازم للنقصـان الـلازم عن التقصيـر في العمـل إذ

---

(١) ٤٢ - ١٩.

الواصل إلى يوم بؤسه على غير عمل أسير في يد شياطينه. وقد علمت ان غاية الاسترسال في يد الشيطان دخول النار والحجب عن لقاء ربّ العالمين. ولمّا كان العمل هو المعين على قهر الشياطين والمخلص من أسره نبّه عليه، ثمّ أردفه بالتنبيه على وجود الزمان الذي يمكنهم فيه العمل وهو أيّام آمالهم للعمل وغيره على أنّ ذلك الزمان منقطع بلحوق الأجل، ثمّ أردفه ببيان فائدة العمل في ذلك الزمان وهي المنفعة بالثواب في الآخرة وما يلزمها من عدم مضرّة الأجل، وبيان ثمرة التقصير في العمل فيه وهي خسران العمل المستلزم لمضرّة الأجل. وأحسن باستعارته عليه لفظ الخسران لفوات العمل فإنّ الخسران في البيع لمّا كان هو النقصان فى رأس المال أو ذهاب جملته، وكان العمل هو رأس مال العامل الذي يكتسب الكمال والسعادة الأخرويّة لا جرم حسنت استعارة لفظ الخسران لعدم العمل، وأمّا استلزام المنفعة لعدم مضرّة الموت واستلزام الخسران لمضرّته فهو أمر ظاهر إذ كان الكامل في قوّتيه المعرض عن متاع الدنيا غير ملتفت إليها بعد المفارقة فلم يحصل لها بسببها تعذيب. فكانت المضرّة منفيّة عنه. وكان المقصّر عن الاستكمال فيهما من ضرورة طباعه الميل إلى اللذّات الحسّية. فإذا قصر عن العمل والتعلّق بطاعة الله الجاذبة إليه فلا بدّ وأن يستضرّ بحضور الأجل إذ كان الأجل قاطعاً لزمان الاستكمال وحائلاً بين الإنسان وبين ما هو معشوق له من حاضر اللذّات.

السادس: التنبيه على وجوب التسوية للعامل بين العمل في الرغبة والعمل في الرهبة. وفيه شميمة التوبيخ للعبد على غفلته عن ذكر الله وإعراضه عن عبادته في حال صفاء اللذّات الحاضرة له، ولجأه إليه وفزعه عند نازلة إن نزلت به. فإنّ ذلك ليس من شأن العبوديّة الصادقة لله. وإلى مثل هذا التوبيخ أشار التنزيل الإلهيّ بقوله: ﴿**وإذا مسّكم الضّر في البحر ضلّ من تدعون إلّا إياه فلمّا نجّيكم إلى البرّ أعرضتم وكان الإنسان كفوراً**﴾[1] وغيره من الآيات؛ بل من شأن العابد لله القاصد له أن تتساوى عبادته في أزمان شدّته ورخائه. فيقابل الشدّة بالصبر، والرخاء بالشكر، وأن يعبده لا لرغبة ولا رهبة،وأن يعبده فيهما من غير فرق.

---

(١) ١٧ - ٦٩.

السابع: قوله: ألا وإنّي لم أرِ كالجنّة نام طالبها ولا كالنار نام هاربها. واعلم أنّ الضمير في طالبها وهاربها يعود إلى المفعول الأوّل لرأيت المحذوف المشبّه في الموضعين والتقدير لم أرَ نعمة كالجنّة نام طالبها ولا نقمة كالنار نام هاربها، ونام في محلّ النصب مفعولاً ثانياً. ومغزى هذا الكلام أنّه نفى علمه بما يشبه الجنّة وما يشبه النار ولم ينف علمه بذات التشبيه بل علمه من جهة الشبه وهي نوم الطالب والهارب. ولذلك استدعت أرى بمعنى أعلم هنا مفعولين أي لم أرَ نعمة كالجنّة بصفة نوم الطالب لها. فنبّه على وجه الشبه بقوله: نام طالبها، ثمّ نفى التشبيه من تلك الجهة. وكذلك قوله: ولا كالنار بصفة نوم هاربها. والمفعول الثاني في الجملتين صفة جارية على غير من هي له. وهي تنبيه للموقنين بالجنّة والنار على كونهم نائمين في مراقد الطبيعة لينتبهوا منها ويتفطّنوا [يتّعظوا خ] للاستعداد بالعمل التامّ لما ورائهم من مرغوب ومرهوب. وفيه شميمة التعجّب من جمع الموقن بالجنّة والنار بين علمه بما في الجنّة من تمام النعمة وتقصيره عن طالبها بما يؤدّي إليها من الأعمال الصالحة، وجمع الموقن بالنار بين علمه بما فيها من عظيم العذاب وبين تقصيره وغفلته عن الهرب إلى ما يخلص منها.

الثامن: قوله ألا وإنّه من لم ينفعه الحقّ يضرّه الباطل. فالضمير في أنّه ضمير الشأن. وأراد بالحقّ الإقبال على الله بلزوم الأعمال الصالحة المطابقة للعقائد المطابقة، وبالباطل الالتفات عنه إلى غير ذلك ممّا لا يجدي نفعا في الآخرة. وهو تنبيه على استلزام عدم منفعة الحق لمضرة الباطل في صورة شرطية متصلة وبيان الملازمة فيها ظاهر فان وجود الحق مستلزم لمنفعته فعدم منفعته اذا مستلزم لعدمه وعدمه مستلزم لوجود الباطل لان اعتقاد المكلّف وعمله إمّا أن يطابقا أوامر الله تعالى، أو ليس. والأوّل هو الحق، والثاني هو الباطل. وظاهر أن عدم الأوّل مستلزم لوجود الثاني. ثمّ إنّ وجود الباطل مستلزم لمضرّته. فيظهر بهذا البيان أنّ عدم منفعة الحقّ مستلزم لوجود مضرّة الباطل. وإذا ثبت ذلك فنقول: مراده عليه السلام بلزوم الحقّ ما هو المستلزم لمنفعته وينفي الباطل ما هو المستلزم لعدم مضرّته. فإنّ لزوم

الطاعة لله بامتثال أوامره والإقبال عليه مستلزم للوصول إلى جواره المقدّس، والالتفات إلى ما عداه المعبّر عنه بالباطل مستلزم للنقصان الموجب للتخلف عن السابقين والهوي في درك الهالكين. وذلك محض المضرّة. فظهر إذن سرّ قوله عليه السلام: من لم ينفعه الحقّ يضرره الباطل. ومن غفلة بعض من يدّعي العلم عن بيان هذه الملازمة ذهب إلى أنّ الوعيدات الواردة في الكتب الإلهية إنما جاءت للتخويف دون أن يكون هناك شقاوةٌ للعصاة. محتجاً على ذلك بتمثيلات خطابيّة عن مشهورات في بادىء الرأء إذا تعقّبها النظر زالت شهرتها.

التاسع: ومن لا يستقم به الهدى يجرّ به الضلال إلى الردى. أراد بالهدى نور العلم والإيمان، وبالضلال الجهل والخروج عن أمر الله والمعنى أنّ من لم يكن الهدى دليله القائد له بزمام عقله في سبيل الله ويستقيم به في سلوك صراطه المستقيم فلا بدّ وأن ينحرف به الضلال عن سواء الصراط إلى أحد جانبي التفريط والإفراط. وملازمة هذه الشرطيّة أيضاً ظاهرة. لأنّ وجود الهدى لمّا استلزم وجود استقامة بالإنسان على سواء السبيل كان عدم استقامة الهدى به مستلزماً لعدم الهدى المستلزم لوجود الضلال المستلزم للجرّ بالإنسان إلى مهاوي الردى، والعدول به عن الصراط المستقيم إلى سواء الجحيم.

العاشر: قوله ألا وإنّكم قد أمرتم بالظعن ودللتم على الزاد. وهو تنبيه على ملاحظة الأوامر الواردة بالظعن كقوله تعالى: **﴿ففرّوا إلى الله إنّي لكم منه نذير مبين﴾**(1) وكقوله تعالى: **﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم﴾**(2) على الأمر باتّخاذ الزاد كقوله تعالى: **﴿وتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى﴾**(3) وأحسن باستعارته الظعن للسفر إلى الله واستعارة الزاد لما يقرّب إليه. ووجه درجه الاستعارة الأولى: أنّ الظعن لمّا كان عبارة عن قطع المراحل المحسوسة بالرجل والجمل ونحوه فكذلك السفر إلى الله عبارة عن قطع المراحل

(1) ٥١ - ٥٠.
(2) ٥٧ - ٢١.
(3) ٢ - ١٩٣.

المعقولة بقدم العقل، ووجه الثانية أنّ الزاد لمّا كان إنما يعدّ لتقوى به الطبيعة على الحركة الحسّية وكانت الأمور المقرّبة إلى الله تعالى ممّا تقوى به النفس على الوصول إلى جنابه المقدّس كان ذلك من أتمّ المشابهة التي يقرّب معها اتّحاد المتشابهين. وبحسب قوّة المشابهة يكون قوّة حسن الاستعارة.

الحادي عشر: التنبيه على أخوف الأمور التي ينبغي أن تخاف لتجتنب وهو الجمع بين اتّباع الهوى وطول الأمل. وسيذكر عليه السلام هذا الكلام في موضع آخر مع ذكر علّة التحذير من هذين الأمرين، وسنوضح معناه هناك. ويكفي هاهنا أن يقال: إنّما حذّر منهما عقيب التنبيه على الظعن والأمر باتّخاذ الزاد لكون الجمع بينهما مستلزماً للإعراض عن الآخرة فيكون مستلزماً لعدم الظعن وعدم اتّخاذ الزاد. فخوّف منهما ليجتنبا. فيحصل مع اجتنابهما الإقبال على اتّخاذ الزاد والأهبة للظعن ولذلك أردف التخويف منهما بالأمر باتّخاذ الزاد. وفي قوله: من الدنيا في الدنيا لطف. فإنّ الزاد الموصل إلى الله تعالى إمّا علم أو عمل وكلاهما يحصلان من الدنيا: أمّا العمل فلا شك أنّه عبارة عن حركات وسكنات تستلزم هيئات مخصوصة إنّما تحصل بواسطة هذا البدن وكلّ ذلك من الدنيا في الدنيا، وأمّا العلم فلأنّ الاستكمال به إنّما يحصل بواسطة هذا البدن أيضاً إمّا بواسطة الحواسّ الظاهرة والباطنة، أو بتفطّن النفس لمشاركات بين المحسوسات ومباينات بينها وظاهر أنّ ذلك من الدنيا في الدنيا وأشار بقوله: ما تحرزون أنفسكم به غداً. إنّ كلّ زاد عدّ به الإنسان نفسه للوصول إلى جوار الله فقد تدرع به من عذابه وحفظ به نفسه يوم لا ينفع مال ولا بنون. وقد اشتمل هذا الفصل على استدراجات لطيفة لانفعالات عن أوامر الله وزواجره، وإذا تأمّلت أسلوب كلامه عليه السلام، وراعيت ما فيه: من فخامة الألفاظ، وجزالة المعاني المطابقة للبراهين العقليّة، وحسن الاستعارات والتشبيهات ومواقعها، وصحّة ترتيب أجزائه. ووضع كلّ مع ما يناسبه. وجدته لا يصدر إلاّ عن علم لدني وفيض ربّانيّ. وأمكنك حينئذ الفرق بين كلامه عليه السلام وكلام غيره والتمييز بينهما بسهولة. وبالله العصمة والتوفيق.

٢٨ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱلْمُجْتَمِعَةُ أَبْدَانُهُمْ، ٱلْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ، كَلاَمُكُمْ يُوهِي ٱلصُّمَّ ٱلصِّلاَبَ، وَفِعْلُكُمْ يُطْمِعُ فِيكُمُ ٱلأَعْدَاءَ! تَقُولُونَ فِي ٱلْمَجَالِسِ: كَيْتَ وَكَيْتَ، فَإِذَا جَاءَ ٱلْقِتَالُ قُلْتُمْ: حِيدِي حَيَادِ! مَا عَزَّتْ دَعْوَةُ مَنْ دَعَاكُمْ وَلاَ ٱسْتَرَاحَ قَلْبُ مَنْ قَاسَاكُمْ أَعَالِيلُ بِأَضَالِيلَ[1] دِفَاعَ ذِي الدَّيْنِ ٱلْمَطُولِ لاَ يَمْنَعُ ٱلضَّيْمَ ٱلذَّلِيلُ. وَلاَ يُدْرَكُ ٱلْحَقُّ إِلاَّ بِالْجِدِّ، أَيَّ دَارٍ بَعْدَ دَارِكُمْ تَمْنَعُونَ وَمَعَ أَيِّ إِمَامٍ بَعْدِي تُقَاتِلُونَ؟ أَلْمَغْرُورُ وَٱللهِ مَنْ غَرَرْتُمُوهُ، وَمَنْ فَازَ بِكُمْ فَقَدْ فَازَ وَٱللهِ بِالسَّهْمِ ٱلأَخْيَبِ، وَمَنْ رَمَى بِكُمْ، فَقَدْ رَمَى بِأَفْوَقَ نَاصِلٍ أَصْبَحْتُ وَٱللهِ لاَ أُصَدِّقُ قَوْلَكُمْ، وَلاَ أَطْمَعُ فِي نَصْرِكُمْ، وَلاَ أُوعِدُ ٱلْعَدُوَّ بِكُمْ مَا بَالُكُمْ! مَا دَوَاؤُكُمْ! مَا طِبُّكُمْ! أَلْقَوْمُ رِجَالٌ أَمْثَالُكُمْ! أَقَوْلاً بِغَيْرِ عِلْمٍ؟ وَغَفْلَةً مِنْ غَيْرِ وَرَعٍ؟ وَطَمَعاً فِي غَيْرِ حَقٍّ؟!

أقول: روي أنّ السبب في هذه الخطبة هو غارة الضحّاك بن قيس بعد قصّة الحكمين وعزمه على المسير إلى الشام. وذلك أنّ معاوية لمّا سمع باختلاف الناس على علي عليه السلام، وتفرّقهم عنه، وقتله من قتل من الخوارج بعث الضحّاك بن قيس في نحو من أربعة آلاف فارس وأوعز إليه بالنهب والغارة، فأقبل الضحّاك يقتل وينهب حتى مرّ بالثعلبيّة. فأغار على الحاجّ فأخذ أمتعتهم. وقتل عمرو بن عميس بن مسعود ابن أخي عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقتل معه ناساً من أصحابه. فلمّا بلغ عليّاً عليه السلام ذلك استصرخ أصحابه على أطراف أعماله واستشارهم إلى لقاء العدوّ فتلكّؤوا. ورأى منهم تعاجزا وفشلا. فخطبهم هذه الخطبة. ولنرجع إلى المتن.

فالأهواء: الآراء، والوهي: الضعف. وكيت وكيت: كناية عن الحديث. وحاد عن الأمر: عدل عنه. قال الجوهري: قولهم حيدي حياد كقولهم: فيحي فياح، ونقل أنّ فياح اسم للغارة كقطام. فحياد أيضاً اسم لها. والمعنى: إعزلي عنّا [عنها خ] أيّتها الحرب، ويحتمل أن يكون حياد من

(١) الأضاليل: جمع أضلولة والأضاليل متعلقة بالأعاليل أي أنكم تتعللون بالأباطيل التي لا جدوى لها.

أسماء الأفعال كنزال. فيكون قد أمر بالتنحّي مرّتين بلفظين مختلفين. وأعاليل وأضاليل: جمع أعلال وأضلال وهما جمع علّة: اسم لما يتعلّل بـه من مرض وغيره، وضلّة: اسم من الضلال بمعنى الباطل، والمطول: كثير المطال وهو تطويل الوعد وتسويفه، والجدّ: الاجتهاد، والأخيب: أشدّ خيبة وهي الحرمان، والأفوق: السهم المكسور الفوق وهو موضع الوتر منه، والناصل: الذي لا نصل فيه. والمقصود أنّه عليه السلام نبّههم على ما يستقبح في الدين، ومراعاة حسن السيرة من أحوالهم وأقوالهم وأفعالهم: أمّا أحوالهم فاجتماع أبدانهم مع تفرّق آرائهم الموجب لتخاذلهم عن الذبّ عن الدين والمفرّق لشمل مصالحهم. وأمّا أقوالهم فكلامهم الذي يضعف عند سماعه القلوب الصلبة الثابتة ويظنّ سامعه أن تحته نجدة وثباتاً وهو قولهم مثلاً في مجالسهم: إنّه لا محلّ لخصومنا، وإنّا سنفعل بهم كذا، وسيكون منّا كذا، وأمثاله. واستعار لفظي الصمّ الصلاب من أوصاف الحجارة للقلوب التي تضعف من سماع كلامهم كما شبّه القرآن الكريم بها: فهي كالحجارة أو أشدّ قسوة. وأمّا أفعالهم فهو تعقيب هذه الأقوال عند حضور القتال ودعوتهم إلى الحرب بالتخاذل وعدم التناصر والتقاعد عن إجابة داعي الله وكراهيّة الحرب والفرار عن مقاتلة العدوّ، وكنّى بقوله: قلتم حيدي حياد. عن ذلك، وهي كلمة كانت تستعملها العرب عند الفرار. ثمّ أردف ذلك بما العادة أن يأنف منه من يطلب الانتصار به على وجه التضجّر منهم عن كثرة تقاعدهم عن صوته. وذلك قوله: ما عزّت دعوة من دعاكم. المستلزم للحكم بذلّة داعيهم، ولا استراح قلب من قاساكم. المستلزم للحكم بتعبه، وقوله: أعاليل بأضاليل. خبر مبتدأ محذوف أي وإذا دعوتكم إلى القتال تعلّلتم بأعاليل هي باطلة ضلالاً عن سبيل الله وسألتموني التأخير وتطويل المدّة دفاعاً، وقوله: دفاع ذي الدين المطول. يحتمل أن يكون تشبيهاً لدفاعهم له بدفاع ذي الدين فيكون منصوباً محذوف الجار، ويحتمل أن يكون قد استعار دفاع ذي الدين المطول لدفاعهم فيكون مرفوعاً، ووجه الاستعارة أنّ المدين المطول أبداً مشتهي لعدم المطالبة وتودّ نفسه أن لا يراه غريمه فكذلك فهم عليه السلام منهم أنّهم كانوا يحبّون أن لا يعرض لهم بذكر القتال ولا يطالبهم به. فاستعار لدفاعهم الدفاع

المذكور لمكان المشابهة، ثمّ نبّههم على قبح الذلّ ليفيؤوا إلى فضيلة الشجاعة بذكر بعض لوازمه المنفرة وهو أنّ صاحبه لا يتمكّن من رفع الضيم عن نفسه، وعلى قبح التواني والتخاذل بأنّه لا يدرك الإنسان حقّه إلّا بضدّ ذلك وهو الجدّ والتشمير في طلبه، ثمّ أعقب ذلك بالسؤال على جهة الإنكار والتقريع عن تعيين الدار التي ينبغي لهم حمايتها بعد دار الإسلام التي لا نسبة لغيرها إليها في العزّ والكرامة عند الله ووجوب الدفع عنها والتي هي موطنهم ومحلّ دولتهم. كذلك قوله: ومع أي إمام بعدي تقاتلون. وفيه تنبيه لهم على أفضليّته وما وثق به من إخلاص نفسه لله في جميع حركاته، وتثبيت لهم على طاعته إذ كان عليه السلام يتوهّم في بعضهم الميل إلى معاوية والرغبة فيما عنده من الدنيا. ثمّ أردف ذلك بذمّ من اغترّ بكلامهم ونسبه إلى الغرور والغفلة. ثمّ بالإخبار عن سوء حال من كانوا حزبه ومن يقاتل بهم:

أمّا الأوّل: فهو قوله: المغرور والله من غررتموه. والمقصود بالحقيقة ذمّهم وتوبيخهم على خلف المواعيد والمماطلة بالنفار إلى الحرب لأنّه إنّما ينسب من وثق بهم إلى الغرور بعد خلفهم في وعدهم له بالنهوض معه. وجعل المغرور مبتدأً ومن خبره أبلغ في إثبات الغرّة لمن اغترّ بهم من العكس لاقتضاء الكلام إذن انحصار المغرور في من اغترّ بهم. ولا كذلك لو كان من مبتدأً.

وأمّا الثاني: فهو قوله: ومن فاز بكم فقد فاز بالسهم الأخيب ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل. وقد شبّه نفسه وخصومه باللاعبين بالميسر، ولاحظ شبه حصولهم في حقّه بخروج أحد السهام الخائبة التي لا غنم لها أو الأوغاد التي فيها غرم كالتي لم يخرج حتى استوفيت أجزاء الجزور فحصل لصاحبها غرم وخيبة. فلأجل ملاحظة هذا الشبه استعار لهم لفظ السهم بصفة الأخيب، وإطلاق الفوز هنا مجاز في حصولهم له من باب إطلاق اسم أحد الضدّين على الآخر كتسمية السيّئة جزاء. كذلك لاحظ المشابهة بين رجال الحرب وبين السهام في كون كلّ منهما عدّة للحرب ودفع العدوّ ولاحظها أيضاً بين إرسالهم في الحرب وبين الرمي بالسهام. فلأجل ذلك استعار

أوصاف السهم من الأفوق والناصل، واستعار لفظ الرمي لمقاتلته بهم ثمّ خصّصهم بأردأ أوصاف السهم التي يبطل معها فائدته لمشابهتهم ذلك السهم في عدم الانتفاع بهم في الحرب. وكأنّه أيضاً خصّص بعثه لهم إلى الحرب باستعارة الرمي بالسهم الموصوف لزيادة الشبه وهي عدم انبعاثهم عن أمره. وتجاوزهم أوطانهم كالرمي بالسهم الذي لا فوق له ولا نصل فإنّه لا يكاد يتجاوز عن القوس مسافة. وهي من لطائف ملاحظات المشابهة والاستعارة عنها. والمعنى أنّ من حصلتم في حربه فالخيبة حاصلة له فيما يطلب بكم، ومن قاتل بكم عدوّه فلا نفع له فيكم. ثمّ أردفه بالإخبار عن نفسه بأمور نشأت عن إساءة ظنّه بهم وعدم وثوقه بأقوالهم بكثرة خلفهم ومواعيدهم الباطلة بالنهوض معه وهي أنّه لا يصدّقهم لأنّه من أكثر من شيء عرف به. ومن أمثالهم: إنّ الكذوب لا يصدّق وأنّه لا يطمع في نصرهم وأنّه لا يوعد بهم عدوّهم إذ كان وعيده بهم مع طول تخلّفهم وشعور العدوّ بذلك ممّا يوجب جرأته وتسلّطه وأمانه من المقاومة. ثمّ أردفه بالاستفهام على سبيل الاستنكار والتقريع عن حالهم التي توجب لهم التخاذل والتصامم عن ندائه وهو قوله: ما بالكم. ثمّ عن دوائهم الصالح للمرض الذي هم فيه. ثمّ عن كيفيّة علاجهم منه بقوله: ما دواؤكم ما طبّكم. وقيل أراد بقوله ما طبّكم أي ما عادتكم والأوّل أظهر وأليق. ثمّ نبّههم على ما عساهم يتوهّمونه من قوّة خصومهم وبأسهم بأنّهم رجال أمثالكم في الرجوليّة التي هي مظنّة الشجاعة والبأس فلا مزيّة لهم عليكم فلا معنى للخوف منهم. ثمّ عاد إلى سؤالهم على جهة التقريع ونبّههم به على أمور لا ينبغي، منفور عنها، مستقبحة في الشريعة والعادة.

فأوّلاً: عن قولهم ما لا يفعلون وهو إشارة إلى ما يعدون به من النهوض إلى الحرب ثمّ لا يفعلون وذلك بقوله: أقولاً بغير عمل؟ تذكيراً لهم بما يستلزم ذلك من المقت عند الله كما أشير إليه في القرآن الكريم: **﴿يا أيّها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾**(1) وعلى الرواية الثانية وهي أقولاً بغير علم؟ أي أتقولون بألسنتكم

(1) ٦١ - ٣.

ما ليس في قلوبكم ولا تعتقدونه وتجزمون به من أنّا سنفعل كذا. ويحتمل أن يكون معناه أتقولون إنّا مخلصون لله وإنّا مسلمون ولا تعلمون شرائط الإسلام والإيمان.

وثانياً: عن غفلتهم التي ليست عن ورع وهي عدم تعقّلهم للمصالح التي ينبغي أن يكونوا عليها وهي طرف التفريط من فضيلة الفطانة. وهذه بخلاف الغفلة مع الورع. فإنّ تلك نافعة في المعاد إن كان الورع عبارة عن لزوم الأعمال الجميلة المستعدّة في الآخرة فالغفلة معه عن الأمور الدنيويّة والمصالح المتعلقة بجزئيّاتها ليست بضارّة؛ بل ربما كانت سبباً للخلاص من عذاب ما في الآخرة.

وثالثاً: عن طمعهم في غير حقّ أي في أن يمنحهم ما لا يستحقّونه لينهضوا معه ويجيبوا دعوته، وكأنّه عليه السلام عقل من بعضهم أنّ أحد أسباب تخلّفهم من ندائه إنّما هو طمعهم في أن يوفر عطيّاتهم ويمنحهم زيادة على ما يستحقّون كما فعل غيره مع غيرهم فأشار إلى ذلك ونبّههم على قبحه من حيث إنّه طمع في غير حقّ. والله أعلم.

٢٩ ـ ومن كلام له (عليه السلام) في معنى قتل عثمان

لَوْ أَمَرْتُ بِهِ لَكُنْتُ قَاتِلاً، أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ لَكُنْتُ نَاصِراً غَيْرَ أَنَّ مَنْ نَصَرَهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ: خَذَلَهُ مَنْ أَنَا خيرٌ مِنْهُ، وَمَنْ خَذَلَهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ: نَصَرَهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي، وَأَنَا جَامِعٌ لَكُمْ أَمْرَهُ: آسْتَأْثَرَ فَأَسَاءَ الْأَثَرَةَ وَجَزِعْتُمْ فَأَسَأْتُمُ الْجَزَعَ، وَللهِ حُكْمٌ وَاقِعٌ فِي الْمُسْتَأْثِرِ وَالْجَازِعِ.

أقول: المستأثر بالشيء: المستبدّ به. ومقتضى هذا الفصل تبرّؤه عليه السلام من الدخول في دم عثمان بأمر أو نهي كما نسبه إليه معاوية وغيره.

وقوله: لو أمرت به لكنت قاتلاً. قضيّة شرطيّة بيّن فيها لزوم كونه قاتلاً لكونه آمراً. وهذا اللزوم عرفي. إذ يقال في العرف للآمر بالقتل قاتل. والآمر

شريك الفاعل وإن كان القاتل في اللغة هو المباشر للفعل والذي صدر عنه. وكذلك بيّن في قوله: أو نهيت عنه لكنت ناصراً لزوم كونه ناصراً لكونه ناهياً. وهو ظاهر، وقد عرفت أنّ استثناء نقيض اللازم يستلزم نقيض الملزوم، واللازمان في هاتين القضيّتين هما القتل والنصرة، ومعلوم أنّ القتل لم يوجد منه عليه السلام بالاتّفاق فإنّ غاية ما يقول الخصم أنّ قعوده عن نصرته دليل على إرادته لقتله. وذلك باطل. لأنّ القعود عن النصرة قد يكون لأسباب أخرى كما سنبيّنه. ثمّ لو سلّمنا أنّ القعود عن النصرة دليل إرادة القتل لكن إرادة القتل ليس بقتل. فإنّ كلّ أحد يحبّ قتل خصمه لكن لا يكون بذلك قاتلاً. وكذلك ظاهر كلامه يقتضي أنّ النصرة لم توجد منه، وإذا انتفى اللازمان استلزم نفي أمره بقتله ونهيه عنه. ويحتمل أن يريد في القضيّة الثانية استثناء عين مقدّمها لينتج تاليها: أي لكنّي نهيت عنه فكنت ناصراً. لا يقال: لا يخلو إمّا أن يكون مرتكب المنكر هو عثمان أو قاتليه وعلى التقديرين فيجب على عليّ عليه السلام القيام والإنكار إمّا على عثمان بالمساعدة عليه إن كان هو مرتكب المنكر، أو على قاتليه بالإنكار عليهم ونصرته. فقعوده عن أحد الأمرين يستلزم الخطأ؛ لكنه لم يخطأ فلم يكن تاركاً لأحد الأمرين. فلا يثبت التبرّؤ. والجواب البريء من العصبيّة في هذا الموضع: أنّ عثمان أحدث أموراً نقمها جمهور الصحابة عليه، وقاتلوه أحدثوا حدثاً يجب إنكاره: أمّا أحداث عثمان فلم تنته في نظر علي عليه السلام إلى حدّ يستحقّ بها القتل وإنّما استحقّ في نظره أن ينبّهه عليها. فلذلك ورد في النقل أنّه أنكرها عليه وحذّره من الناس غير مرّة كما سيجيء في كلامه عليه السلام . فإن صحّ ذلك النقل ثبت أنّه انكر عليه ما أحدثه لكنه لا يكون بذلك داخلاً في دمه لاحتمال أنّه لمّا حذّره الناس ولم ينته اعتزله. وإن لم يثبت ذلك النقل فالإنكار ليس من فروض الأعيان بل هو من فروض الكفايات إذا قام به البعض سقط عن الباقين، وقد ثبت أنّ جمهور الصحابة أنكروا تلك الأحداث من عثمان فلا يتعيّن وجوب الإنكار على عليّ عليه السلام ، وأمّا حدث قاتليه فهو قتله. فإن ثبت أنّه عليه السلام ما أنكر عليهم. قلنا: إنّ من جملة شروط إنكار المنكرات أن يعلم المنكر أو يغلب على ظنّه قبول قوله، أو تمكّنه من الدفع بيده فلعلّه عليه السلام علم من

حالهم أنّه لا يفيد إنكاره معهم. وظاهر أنّ الأمر كان كذلك: أمّا عدم فائدة إنكاره بالقول معهم فلأنّه نقل عنه عليه السلام أنّه كان يعد الناس بإصلاح الحال بينهم وبين عثمان وإزالته عمّا نقموه عليه وتكرّر منه وعده لهم بذلك ولم يتمكن منه.

وظاهر أنّهم بعد تلك المواعيد لا يلتفتون إلى قوله، وأمّا إنكاره بيده فمعلوم بالضرورة أنّ الإنسان الواحد أو العشرة لا يمكنهم دفع الجمع العظيم من عوامّ العرب ودعاتهم خصوصاً عن طباع ثارت وتألّفت وجمعها أشدّ جامع وهو ما نسبوه إليه حقّاً وباطلاً. ثمّ من المحتمل من تفرّقه مال المسلمين الذي هو قوام حياتهم سواء كان ما نسبوه إليه حقّاً أم لا أن يكون قد غلب على ظنّه أنّه لو قام في نصرته لقتل معه ولا يجوز للإنسان أن يعرض نفسه للأذى والقتل في دفع بعض المنكرات الجزئيّة. وأمّا إن ثبت أنّه أنكر عليهم كما نقلنا حملنا ذلك النهي على نهيه لهم حال اجتماعهم لقتله قبل حال قتله، وقوله: ولو نهيت عنه لكنت ناصراً على عدم المنع من قتله حال قتله لعدم تمكّنه من ذلك وعدم إفادة قوله. قال بعض الشارحين: هذا الكلام بظاهره يقتضي أنّه ما أمر بقتله ولا نهى عنه. فيكون دمه عنده في حكم الأمور المباحة التي لا يؤمر بها ولا ينهى عنها. قلت: هذا سهو لأنّ التبرّؤ من الأمر بالشيء والنهي عنه غاية ما يفهم منه عدم الدخول فيه والسكوت عنه ولا يلزم من ذلك الحكم بأنّه من الأمور المباحة لاحتمال أنّ اعتزاله هذا الأمر كان لأحد ما ذكرناه. وبالجملة فإنّ أهل التحقيق متّفقون على أنّ السكوت على الأمر لا يدلّ على حال الساكت بمجرّده وإن دلّ بقرينة أخرى. وممّا يدلّ على أنّه كان متبرّئاً من الدخول في دم عثمان بأمر أو نهي ما نقل عنه لمّا سئل: أساءك قتل عثمان أم سرّك؟ فقال: ما ساءني ولا سرّني. وقيل: أرضيت بقتله؟ فقال: لم أرض. فقيل: أسخطت قتله. فقال: لم أسخط. وهذا كلّه كلام حقّ يستلزم عدم التعرّض بأمره فإنّ من أعرض عن شيء ولم يدخل فيه يصدق أن يقول: إنّي لم أسخط به ولم أرض ولم أسأ به ولم أسرّ، فإنّ السخط والرضا والإساءة والسرور حالات تتوارد على النفس بأسباب تتعلّق بها

فخالع تلك الأسباب عن نفسه في أمر من الأمور كيف يعرض له أحد هذه الحالات فيه. فإن قلت: إن كان قتل عثمان منكراً كان مستلزماً لسخطه عليه السلام ومساءته منه وقد نقل عنه أنّه لم يسخط له وذلك يقتضي أحد الأمرين: أحدهما أنّه عليه السلام لا يسخط للمنكر وهو باطل بالاتّفاق، والثاني أن قتل عثمان لم يكن عنده منكراً، والتقدير أنّه منكر. قلت: ان قتل عثمان يستلزم سخطه لكن لا من حيث انه قتل عثمان بل من جهة كونه منكراً، والمنقول أنّه لم يسخط لقتل عثمان ولا ساءه ذلك أي من جهة كونه قتل عثمان وذلك لا ينافي أن يسوءه ويسخطه من جهة كونه منكراً. وفي الجواب غموض. فليتفطّن. ولأجل اشتباه الحال خبط الجهّال. وفيها يقول شاعر أهل الشام:

وما في عليّ لمستعتبٍ	مقالٌ سوى صحبة المحدثينا
وايثاره اليوم أهل الذنوب	ورفع القصاص عن القاتلينا
إذا سئل عنه حدا شبهةً	وعمّى الجواب على السائلينا
وليس براض ولا ساخط	ولا في النهاة ولا الآمرينا
ولا هو ساءه ولا [هو] سرّه	ولا بدّ من بعض ذا أن يكونا

فأمّا تفصيل الاعتراضات والأجوبة في معنى قتل عثمان وما نسب إلى عليّ عليه السلام من ذلك فمبسوط في كتب المتكلّمين كالقاضي عبد الجبّار وأبي الحسين البصريّ والسيّد المرتضى وغيرهم فلا نطول بذكرها، وربّما أشرنا إلى شيء من ذلك فيما بعد.

وقوله: غير أنّ من نصره لا يستطيع. إلى قوله: خير منّي. فاعلم أنّ هذا الفصل ذكره عليه السلام جواباً لبعض من أنكر بحضرته قعود من قعد عن نصرة عثمان وجعلهم منشأ الفتنة، وقال: إنّهم لو نصروه وهم أكابر الصحابة لما اجترأ عليه طغام الأمّة وجهّالها، وإن كانوا رأوا أنّ قتله وقتاله هو الحقّ فقد كان يتعيّن عليهم أن يعرّفوا الناس ذلك حتى ترتفع عنهم الشبهة، وفهم عليه السلام أنّ القائل يعنيه بذلك. فأجابه بهذا الكلام تلويحاً لا تصريحاً. إذ كان في محلّ يلزمه التوقّي. فقرّر أوّلاً أنّه ما أمر في ذلك بأمر ولا نهى ثمّ عاد

إلى الاستثناء فقرّرها في هاتين القضيّتين: إن الذين خذلوه كانوا أفضل من الناصرين له إذ لا يستطيع ناصروه كمروان وأشباهه أن يفضّلوا أنفسهم على خاذليه كعليّ عليه السلام بزعم المنكر وكطلحة وسائر أكابر الصحابة إذ العقل والعرف يشهد بأفضليّتهم، وكذلك لا يستطيع الخاذلون أن يفضّلوا الناصرين على أنفسهم اللّهم إلّا على سبيل التواضع. وليس الكلام فيه. فكأنّه عليه السلام سلّم تسليم جدل أنّه دخل في أمر عثمان وكان من الخاذلين له. ثمّ أخذ في الردّ على المنكر بوجه آخر فقال: غير أنّي لو سلّمت أنّي ممّن خذله لكنّ الخاذلون له أفضل من الناصرين وأثبت المقدّمة بهاتين القضيّتين وحذف التالية للعلم بها، وتقديرها: والأفضل يجب على من عداه اتّباعه والاقتداء به، فينتج هذا القياس أنّه كان يتعيّن على من نصره أن يتبع من خذله. وهذا عكس اعتقاد المنكر. وقال بعض النقّاد: إنّ هذه كلمة قرشيّة، وأراد بذلك أنّه عمّى على الناس في كلامه. قال: ولم يرد التبرّؤ من أمره. وإنّما أراد أنّ الخاذلين لا يلحقهم المفضوليّة بكونهم خاذلين له، وإنّ الناصرين له لا يلحقهم الأفضلية بنصرته. والذي ذكره بعيد الفهم من هذا الكلام. ويمكن أن يحمل على وجه آخر وذلك أنّه إنّما قرّر أفضليّة الخاذلين على الناصرين ليسلم هو من التخصيص باللائمة في القعود عن النصرة فكأنّه قال: وإذا كان الخاذلون له أفضل ممّن نصره. تعيّن عليهم السؤال عن التخلّف، وأن يستشهد عليهم بحال الناصرين له مع كونهم مفضولين. فلم خصّصت باللائمة من بينهم والمطالبة بدمه؟ لولا الأغراض الفاسدة.

وقوله: وأنا جامع لكم أمره. إلى قوله: الأثرة.

أشار عليه السلام في هذا اللفظ الوجيز إجمالاً إلى أنّ كلّ واحد من عثمان وقاتليه كانا على طرف الإفراط من فضيلة العدالة: أمّا عثمان فاستيثاره واستبداده برأيه فيما الأمّة شركاء فيه والخروج في ذلك إلى حدّ الإفراط الذي فسد معه نظام الخلافة عليه وأدّى إلى قتله، وأمّا قاتلوه فلخروجهم في الجزع من فعله إلى طرف التفريط عمّا كان ينبغي لهم من التثبّت وانتظار صلاح الحال بينهم وبينه بدون القتل؛ حتى استلزم ذلك الجزع ارتكابهم لرذيلة

الجور في قتله. فلذلك كان فعله إساءةً للاستيثار، وفعلهم إساءة للجزع، وقيل: أراد إنّكم أسأتم الجزع عليه بعد القتل. وقد كان ينبغي منكم ذلك الجزع له قبل قتله.

وقوله: ولله حكم واقع في المستأثر والجازع.

المفهوم من ذلك أنّه يريد بالحكم الواقع لله في المستأثر هو الحكم المقدّر اللاحق لعثمان بالقتل المكتوب بقلم القضاء الإلهي في اللوح المحفوظ، وفي الجازع هو الحكم اللاحق لقاتليه من كونهم قاتلين، أو قالين وجازعين. وفي نسبة هذه الأحكام إلى الله تنبيه على تبرّئه من الدخول في أمر عثمان وقاتليه بعد الإشارة إلى السبب المعدّ لوقوعها في حقّهم وهو الاساءة في الاستيثار والجزع، ويحتمل أن يريد الحكم في الآخرة اللاحق للكلّ: من ثواب أو عقاب عمّا ارتكبه. وبالله التوفيق والعصمة.

٣٠ ـ ومن كلام له (عليه السلام)
لابن عباس لما أرسله إلى الزبير يستفيئه إلى طاعته قبل حرب الجمل

لَا تَلْقَيَنَّ طَلْحَةَ فإنَّك إنْ تَلْقَهُ تَجِدْهُ كَالثَّوْرِ عَاقِصاً قَرْنَهُ يَرْكَبُ الصَّعْبَ وَيَقُولُ: هُوَ الذَّلُولُ. وَلٰكِنِ ٱلْقَ الزُّبَيْرَ فَإِنَّهُ أَلْيَنُ عَرِيكَةً فَقُلْ لَهُ: يَقُولُ لَكَ ٱبْنُ خَالِكَ: عَرَفْتَنِي بِالْحِجَازِ وَأَنْكَرْتَنِي بِالْعِرَاقِ، فَمَا عَدَا مِمَّا بَدَا.

قال الشريف: أقول: هو أول من سمعت منه هذه الكلمة، أعني «فما عدا مما بدا».

أقول: يستفيئه: أي يسترجعه من فاء إذا رجع. وفي رواية إن تلقه تلقه من الفيته على كذا إذا وجدته عليه. والعقص: الاعوجاج، وعقص الثور قرنيه: بالفتح متعدّ، وعقص قرنه: بالكسر لازم. والصعب: الدابّة الجموح السغبة. والذلول: السهلة الساكنة. والعريكة: فعيلة بمعنى مفعول والتاء لنقل الاسم من الوصفية الى الاسمية الصرفة وأصل العرك دلك الجلد بالدباغ

وغيره. وعدا: جاوز. وبدا: ظهر.

وأعلم أنّه عليه السلام لمّا نهى ابن عباس عن لقاء طلحة بحسب ما رأى في ذلك من المصلحة نبّهه على علّة وجه نهيه عنه بقوله: **فإنّك إن تلقه تجده كذا**. وقد شبّهه بالثور، وأشار إلى وجه الشبه بعقص القرن. استعار لفظ القرن وكنّى به عن شجاعته، ولفظ العقص لما يتبع تعاطيه بالقوّة والشجاعة من منع الجانب وعدم الانقياد تحت طاعة الغير اللازم عن الكبر والعجب بالنفس الذي قد تعرض للشجاع. ووجه الاستعارة الأولى أنّ القرن آلة للثور بها يمنع ما يراد به عن نفسه. وكذلك الشجاعة يلزمها الغلبة والقوّة ومنع الجانب، ووجه الاستعارة الثانية أنّ الثور عند إرادة الخصام يعقص قرنيه أي يرخي رأسه ويعطف قرنيه ليصوّبهما إلى جهة خصمه. ويقارن ذلك منه نفح صادر عن توهّم غلبته لمقاومه وشدّته عليه وأنّه لا قدر له عنده كذلك المشبّه هاهنا علم منه عليه السلام أنّه عند لقاء ابن عباس له يكون مانعاً جانبه، متهيّئاً للقتال، مقابلاً للخشونة وعدم الانقياد له الصادر عن عجبه بنفسه وغروره لشجاعته. فذلك حسن التشبيه، ويحتمل أن يكون وجه الشبه التواء طلحة في آرائه وانحرافه عنه عليه السلام الشبيه بالتواء القرن. وهو تشبيه للمعقول بالمحسوس. ويقال: إنّ الكبر الذي تداخل طلحة لم يكن فيه قبل يوم أحد. وإنّما حدث به في ذلك اليوم وذلك أنّه أبلى فيه بلاءً حسناً. ثم أشار إلى ابن عباس بلقاء الزبير، وأشار إلى وجه الرأي في ذلك، وهو كونه ألين عريكة، ويكنّى بالعريكة عن الطبع والخلق كناية بالمستعار. فيقال: فلان لين العريكة إذا كان سهل الجانب لا يحتاج فيما يراد منه إلى تكلّف ومجاذبة قويّة كالجلد الليّن الذي يسهل عركه. وفلان شديد العريكة: إذا كان بالضدّ بذلك. وظاهر أنّ الزبير كان سهل الجانب. فلأجل ذلك أمره بلقائه لما عهد من طبيعته أنّها أقبل للاستدراج، وأقرب إلى الانفعال عن الموعظة، وتذكّر الرحم. وأحسن بهذه الاستمالة له بذكر النسب المستلزم تصوّره للميل والانعطاف من الطبائع السليمة: ونحوه قوله تعالى حكاية قول هارون لموسى عليه السلام: ﴿ **يا ابن أمّ لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي** ﴾ ﴿ **قال: يا ابن أمّ إنّ**

القوم استضعفوني﴾ فإن فيه من الاستمالة والاسترقاق بتذكيره حقّ الأخوّة ممّا يدعو إلى عطفه عليه ممّا لم يوجد في كلام آخر. وأمّا كون عليّ عليه السلام ابن خال الزبير فإنّ أبا طالب وصفيّة أمّ الزبير من أولاد عبد المطلب بن هاشم.

وقوله: فما عدا ممّا بدا.

قال ابن أبي الحديد. عدا بمعنى صرف. ومن: هاهنا بمعنى عن. ومعنى الكلام فما صرفك عمّا كان بدا منك أي ظهر: أي ما الذي صدّك عن طاعتي بعد إظهارك لها، وحذف الضمير المفعول كثير كقوله تعالى: ﴿**واسئل من أرسلنا قبلك**﴾ أي أرسلناه.

وقال القطب الراوندي: له معنيان: أحدهما: ما الذي منعك ممّا كان قد بدا منك من البيعة قبل هذه الحالة، الثاني: ما الذي عاقك من البداء الذي يبدو للإنسان، ويكون المفعول الثاني لعدا محذوفاً يدلّ عليه الكلام أي ما عداك يريد ما شغلك وما منعك عمّا كان بدا لك من نصرتي.

قال ابن أبي الحديد: ليس في الوجه الثاني ممّا ذكره القطب زيادة على الوجه الأوّل إلّا زيادة فاسدة. أمّا أنّه لا زيادة. فلأنّه فسّر عدا في الوجهين بمعنى منع، وفسّر قوله ممّا كان بدا منك في الوجهين أيضاً بتفسير واحد. فلم يبق بينهما تفاوت، وأمّا الزيادة الفاسدة فظنّه أنّ عدا يتعدّى إلى مفعولين وهو باطل باجماع النحاة.

وأقول: الوجه الذي ذكره ابن أبي الحديد هو الوجه الأوّل من الوجهين اللذين ذكرهما الراوندي لأنّ الصرف والمنع لا كثير تفاوت بينهما وإن كان قد يفهم أنّ المنع أعمّ. وأمّا اعتراضه عليه بأنّه لا فرق بين الوجهين اللذين ذكرهما فهو سهو. لأنّ معنى بدا في الوجه الأوّل ماظهر للناس منك من البيعة لي. ومراده به في الثاني ما ظهر لك في الرأي من نصرتي وطاعتي. وفرق بين ما يظهر من الإنسان لغيره، وبين ما يظهر له من نفسه أو من غيره، وأمّا ما ذكره من أنّه زيادة فاسدة فالأظهر أنّ لفظه الثاني في قوله المفعول الثاني زيادة من قلمه أو قلم الناسخ سهواً، ويؤيّده إظهاره للمفعول الأوّل تفسيراً لقوله ويكون المفعول لعدا محذوفاً.

ثمّ أقول: وهذه الوجوه وإن احتملت أن يكون تفسيراً إلّا أنّ في كلّ واحد عدولاً عن الظاهر من وجه: أمّا الوجه الذي ذكره المدائني فلأنّه لمّا حمل عدا على حقيقتها وهي المجاوزة، وحمل ما بدا على الطاعة السابقة. احتاج أن يجعل من بمعنى عن. وهو خلاف الظاهر. وأمّا الراوندي فإنّه فسّر عدا بمعنى منع أو عاق وشغل، وحمل ما بدا على الطاعة السابقة أو على البيعة. ولا يتمّ ذلك إلّا أن يكون من بمعنى عن. والحقّ أن يقال: إنّ عدا بمعنى جاوز. ومن لبيان الجنس. والمراد ما الذي جاوز بك عن بيعتي ممّا بدا لك بعدها من الأمور التي ظهرت لك. وحينئذ تبقى الألفاظ على أوضاعها الأصليّة مع استقامة المعنى وحسنه. وروي عن الصادق جعفر ابن محمد عليه السلام عن أبيه عن جدّه قال: سألت ابن عباس ـ رضوان الله عليه ـ عن تلك الرسالة فقال: بعثني فأتيت الزبير فقلت له. فقال: إنّي أريد ما يريد. كأنّه يقول: الملك. ولم يزدني على ذلك. فرجعت إلى أمير المؤمنين عليه السلام فأخبرته. وعن ابن عباس أيضاً أنّه قال: قلت الكلمة لزبير فلم يزدني على أن قال: أنا مع الخوف الشديد لنطمع. وسئل ابن عباس عمّا يعني الزبير بقوله هذا. فقال: يقول: أنا على الخوف لنطمع أن نلي من الأمر ما ولّيتم، وقد فسّر غيره ذلك بتفسير آخر. فقال: أراد أنا مع الخوف الشديد من الله نطمع أن يغفر لنا هذا الذنب.

٣١ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّا قَدْ أَصْبَحْنَا فِي دَهْرٍ وَزَمَنٍ كَنُودٍ يُعَدُّ فِيهِ الْمُحْسِنُ مُسِيئاً، وَيَزْدَادُ الظَّالِمُ عُتُوّاً، لَا نَنْتَفِعُ بِمَا عَلِمْنَا، وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا جَهِلْنَا، وَلَا نَتَخَوَّفُ قَارِعَةً حَتَّى تُحِلَّ بِنَا فَالنَّاسُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَصْنَافٍ: مِنْهُمْ مَنْ لَا يَمْنَعُهُمْ الْفَسَادَ إِلَّا مَهَانَةُ نَفْسِهِ، وَكَلَالَةُ حَدِّهِ، وَنَضِيضُ وَفْرِهِ؛ وَمِنْهُمْ الْمُصْلِتُ لِسَيْفِهِ، وَالْمُعْلِنُ بِشَرِّهِ، وَالْمُجْلِبُ بِخَيْلِهِ وَرَجْلِهِ، قَدْ أَشْرَطَ نَفْسَهُ، وَأَوْبَقَ دِينَهُ، لِحُطَامٍ يَنْتَهِزُهُ، أَوْ مِقْنَبٍ يَقُودُهُ، أَوْ مِنْبَرٍ يَفْرَعُهُ. وَلَبِئْسَ الْمَتْجَرُ أَنْ ترى الدُّنْيَا لِنَفْسِكَ ثَمَناً، ومما لك عِنْدَ اللهِ عِوَضاً؛ وَمِنْهُمْ مَنْ يَطْلب الدُّنْيَا بِعَمَلِ

الآخِرَةِ، وَلاَ يَطْلبُ الآخِرَةَ بِعَمَلِ الدُّنْيَا: قَدْ طَامَنَ مِنْ شَخْصِهِ، وَقَارَبَ مِنْ خَطْوِهِ، وَشَمَّرَ مِنْ ثَوْبِهِ، وَزَخْرَفَ مِنْ نَفْسِهِ لِلأَمَانَةِ، وَاتَّخَذَ سَتْرَ اللهِ ذَرِيعَةً إِلَى الْمَعْصِيةِ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ أَبْعَدَهُ عَنْ طَلَبِ الْمُلْكِ ضُؤُولَةُ نَفْسِهِ، وَانْقِطَاعُ سَبَبِهِ. فَقَصَرَتْهُ الْحَالُ عَلَى حَالِهِ، فَتَحَلَّى بِاسْمِ الْقَنَاعَةِ، وَتَزَيَّنَ بِلِبَاسِ أَهْلِ الزَّهَادَةِ، وَلَيْسَ مِنْ ذٰلِكَ فِي مَرَاحٍ وَلاَ مَغْدىً. وَبقِيَ رِجَالٌ غَضَّ أَبْصَارَهُمْ ذِكْرُ الْمَرْجِعِ، وَأَرَاقَ دُمُوعَهُمْ خَوْفُ الْمَحْشَرِ، فَهُمْ بَيْنَ شَرِيدٍ نَادٍّ؛ وَخَائِفٍ مَقْمُوعٍ، وَسَاكِتٍ مَكْعُومٍ، وَدَاعٍ مُخْلِصٍ، وَثَكْلاَنَ مُوجَعٍ. قَدْ أَخْمَلَتْهُمُ التَّقِيَّةُ، وَشَمَلَتْهُمُ الذِّلَّةُ، فَهُمْ فِي بَحْرٍ أُجَاجٍ، أَفْوَاهُهُمْ ضَامِزَةٌ، وَقُلُوبُهُمْ قَرِحَةٌ، وَقَدْ وَعظُوا حَتَّى مَلُّوا وَقُهِرُوا حَتى ذَلُّوا، وَقُتِلُوا حَتى قَلُّوا. فَلْتَكُنِ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِكُمْ أَصْغَرَ مِنْ حُثَالَةِ الْقَرَظِ وَقُرَاضَةِ الْجَلَمِ، وَاتَّعِظُوا بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، قَبْلَ أَنْ يَتَّعِظَ بِكُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَارْفُضُوهَا ذَمِيمَةً فَإِنَّهَا رَفَضَتْ مَنْ كَانَ أَشْغَفَ بِهَا مِنْكُمْ.

قال الشريف: أقول: هذه الخطبة ربما نسبها من لا علم له إلى معاوية، وهي من كلام أمير المؤمنين عليه السلام الذي لا يشك فيه، وأين الذهب من الرغام، والعذب من الأجاج؟ وقد دل على ذلك الدليل الخرِّيت، ونقده الناقد البصير عمرو بن بحر الجاحظ؛ فإنه ذكر هذه الخطبة في كتاب البيان والتبيين، وذكر من نسبها إلى معاوية، ثم قال: هي بكلام علي عليه السلام أشبه وبمذهبه في تصنيف الناس. وبالإخبار عماهم عليه من القهر والإذلال، ومن التقية والخوف ـ أليقُ قال: ومتى وجدنا معاوية في حال من الأحوال يسلك في كلامه مسلك الزهاد، ومذاهب العباد؟؟!!

أقول: عنود: جائر. وكنود: كفور: والعتوّ: الكبر. والقارعة: الخطب العظيم. ومهانة النفس: حقارتها. وكلّ حدّ السيف وغيره: إذا وقف عن القطع. ونضيض وفره: قلّة ماله. والمصلت بسيفه: الماضي في الأمور بقوّته. والمجلب: المستعين على الأمر بالجمع. والرجل: جمع راجل. وأشرط نفسه لكذا: أي أعلمها وأعدّها له. وأوبق دينا: أي أهلكه. والحطام: متاع الدنيا، وأصله ما تكسر من اليبس. والانتهاز: الاختلاس

والاستلاب بقدر الامكان. والمقنب بكسر الميم وفتح النون: الجمع من الخيل مابين الثلاثين إلى الأربعين. وفرع المنبر يفرعه: أي علاه. وطامن من شخصه: أي خفض، والاسم الطمأنينة. وشمّر من ذيله: إذا رفعه. وزخرف: أي زيّن ونمّق. وضؤولة نفسه: حقارتها. المراح: المكان الذي تأوي إليه الماشية بالليل. والمغدى: هو الذي يأوى إليه بالغداة. والشريد. المشرّد: وهو المطرود. والنادّ: الذاهب على وجهه. والقمع: الإذلال. والمعكوم: الذي لا يمكنه الكلام كأنّه سدّ فوه بالكعام؛ وهوشيء يجعل في فم البعير عند الهياج. والثكل: الحزن على فقد بعض المحابّ. واخملتهم: أي اسقطتهم وأرذلتهم بين الناس. والتقيّة والتقوى: الخوف. والأجاج: الملح. والضامز: بالزاء: الساكتة. والحثالة الثفل. والقرظ، ورق السلم يدبغ به. والجلم: المقراض تجزّ به أوبار الإبل، وقراضته ما تساقط من قرضه.

واعلم أن نسبة الخير إلى بعض الأزمنة والشرّ إلى بعض آخر، وتفضيل بعض الأزمنة على بعض نسبة صحيحة لما أنّ الزمان من الأسباب المعدّة لحصول ما يحصل في هذا العالم من الامتزاجات وما يتبعها ممّا يعدّ خيراً أو شرّاً. وقد يتفاوت الأزمنة في الإعداد لقبول الخير والشرّ ففي بعضها يكون بحسب الاستقراء ما يعدّ شراً كثيراً فيقال: زمان صعب وزمان جائر. وخصوصاً زمان ضعف الدين والنواميس الشرعيّة التي هي سبب نظام العالم وبقائه وسبب الحياة الأبديّة في الدار الآخرة، وفي بعضها يكون ما يعدّ خيراً كثيراً فيقال: زمان حسن وزمان عادل، وهو الزمان الذي يكون أحوال الخلق فيه منتظمةً صالحة خصوصاً زمان قوّة الدين وظهوره وبقاء ستر ناموس الشريعة مسدولاً. هذا. وإن كنّا إذا اعتبرنا أجزاء الخير وأجزاء الشرّ الواقعة في كلّ العالم بحسب كلّ زمان لم يكن هناك كثير تفاوت بين الأزمنة فيما يعدّ خيراً فيها وشرّاً. ولذلك قال أفلاطون: الناس يتوهّمون بكلّ زمان أنّه آخر الأزمنة ويثبتون تقصيراً عمّا تقدّمه وليس يوفون الزمان الماضي والمقيم حقّيهما من التأمّل. وذلك أنّهم يقيسون الأحداث في الزمان المقيم إلى من تناهت سنّه وتجاربه في الزمان الماضي، وينظرون إلى قصور المروّات في الزمان المقيم

واتّساعها في الماضي من غير أن ينظروا إلى الأغراض في الزمانين وما يوجبه كلّ واحد منهما. وإذا تتبّع هذا بعدل واستقصي تصريف الزمانين من القوى والجدات، والأمن والخوف، والأسباب والأحوال كانا متقاربين. إذا عرفت هذا فنقول

قوله عليه السلام إنّا قد أصبحنا. إلى قوله: حتى تحلّ بنا.

ذمّ للزمان بوصفي الجور والشدّة لمّا أعدله ممّا عدّد فيه من الأوصاف المعدودة شرّاً بالقياس إلى نظام العالم وبقائه. وذكر من تلك الأوصاف خمسة:

أوّلها: أنه يعدّ فيه المحسن مسيئاً. وذلك من حساب المسيئين الكسالى عن القيام بطاعة الله فيعدّون إنفاق المحسن لماله رياءً وسمعةً أو خوفاً أو رغبة في مجازاة، وكذلك سائر فضائله رذائل. كلّ ذلك طعناً في فضيلته وحسداً أن ينال رتبة أعلى. فيلحقونه بدرجاتهم في الإساءة.

وثانيها: أنّه يزداد الظالم فيه عتوّا. وذلك أنّ منشأ الظلم هو النفس الأمّارة بالسوء وهي في زمان العدل تكون مقهورة دائما أو في أكثر الأحوال. وثورانها في ذلك الوقت طالبة للظلم يكون فلتةً وانتهاز فرصة. فالظالم في زمان العدل إن ظلم أو تجاوز حدّه فكالسارق الذي لا يأمن في كلّ لحظة أن يقع به المكروه فكذلك الظالم في زمن العدل مقموع بحرسة الشريعة مرصود بعيون طلائعها. أمّا في زمان ضعف الشريعة فالظالم فيه كالناهب معطٍ لقوّته سؤلها، غير ملتفت إلى وازع الدين فلا جرم كان عتوّه فيه أزيد. وقد كان في زمانه بالنسبة إلى عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كذلك.

وثالثها: أنّه لا ينتفع أهله فيه بما علموا. وهو توبيخ للمقصّرين في أعمال الآخرة على وفق ما علموا من الشريعة ممّا ينبغي أن يعمل لها إذ الانتفاع بالعلم إنّما يكون إذا وافقه العمل، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام في موضع آخر: العلم مقرون بالعمل، والعلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلاّ ارتحل. فإنّ المراد بارتحال العلم هو عدم الانتفاع به وبهتفه بالعمل اقتضاؤه ما ينبغي من

مقارنة العمل له .

ورابعها: أنّهم لا يسألون عمّا جهلوا. وهو توبيخ للمقصّرين في طلب العلم بعدم السؤال عمّا جهلوا منه، وقلّة الالتفات لقصور أفهامهم عن فضيلته، واشتغالهم بحاضر اللذّات الحسيّة.

وخامسها: كونهم لا يتخوّفون قارعة حتى تحلّ بهم. وذلك لعدم فكرهم في عواقب أمورهم واشتغالهم بحاضرها عن الالتفات إلى مصالحهم وتدبيرها وهو توبيخ للمقصّرين في أمر الجهاد وتنبيه لهم بذكر القارعة وحلولها بهم. وكلّ هذه أمور مضادّة لمصلحة العالم. فلذلك عدّ الزمان الواقعة فيه عنوداً وشديدا.

قوله : فالناس على أربعة أصناف. إلى قوله: قلّوا.

أقول: وجه هذه القسمة أنَّ الناس إمّا مريدون للدنيا أو لله. والمريدون لها فإمّا قادرون عليها أو غير قادرين. وغير القادرين إمّا غير محتالين لها، أو محتالون. والمحتالون إمّا أن يؤهّلوا نفوسهم للإمرة والملك، أو لما هو دون ذلك. فهذه أقسام خمسة مطابقة لما ذكره عليه السلام من الأوصاف الأربعة الذين عرضهم للذّم مع الصنف الخامس الذين أفردهم بالمدح.

فالصنف الأوّل: فهم المريدون للدنيا القادرون عليها المشار إليه في القسم الثاني من قسمته بقوله: ومنهم المصلت لسيفه والمعلن بشرّه. إلى قوله: يفرعه. والمقصود بهذا الصنف القادرون على الدنيا المطلقون لعنان الشهوة والغضب في تحصيل ما يتخيّل كمالاً من القينات الدنيويّة. فإصلات السيف كناية عن التغلّب وتناول ما أمكن تناوله بالغلبة والقهر وإعلان الشرّ والمجاهرة بالظلم وغيره من رذائل الأخلاق. والإجلاب بالخيل والرجل كناية عن جمع أسباب الظلم والغلبة والاستعلاء على الغير. وإشراط نفسه: تأهيلها وإعدادها للفساد في الأرض. وظاهر أنّ من كان كذلك فقد أوبق دينه وأفسده.

وقوله: لحطام ينتهزه أو مقنب يقوده أو منبر يفرعه.

إشارة إلى بعض العلل الغائيّة للصنف المذكور من كونهم بالأوصاف المذكورة. واستعار لفظ الحطام للمال. ووجه المشابهة أنّ اليبس من النبات كما أنّه لا نفع له بالقياس إلى ما يبقى خضرته ونضارته أو يكون ذا ثمرة كذلك المال بالنسبة إلى الأعمال الصالحة الباقي نفعها في الآخرة، وإنّما خصّ هذه الأمور الثلاثة لأنّها الأغلب فيما يسعى أهل الدنيا لأجله إذ الغالب أنّ السعي فيها إمّا لجمع المال أو لرئاسة دنيويّة باقتناء الخيل والنعم، أو دينيّة كافتراع المنابر والترأس بناموس الدين مع قصد الدنيا.

وقوله: ولبئس المتجر. إلى آخره

تنبيه لهذا الصنف من الناس على خسرانهم في أفعالهم الشبيهة بالتجارة الخاسرة فإنّ طالب الدنيا المحصّل لها كيف ما اتّفق هالك في الآخرة. فهو كالبائع لها بما حصل له من دنياه، والمعتاض بما له عند الله من الأجر الجزيل لو أطاعه حطاماً تفنى عينه وتبقى تبعته. ولذلك استعار لفظ التجارة لها.

الصنف الثاني: وهم المريدون لها غير القادرين عليها وغير المحتالين لها وهو المشار إليه بقوله: منهم من لا يمنعه من الفساد [في الأرض] إلّا مهانة نفسه وكلالة حدّه ونضيض وفره. وكنّى بقوله: كلالة حدّه. عن عدم صراحته في الأمور وضعفه عنها. وظاهر أنّ المريد للدنياالمعرض عن الله لو خلّي عن الموانع المذكورة ووجد الدنيا لم يكن سعيه فيها إلّا فساداً.

الصنف الثالث: الغير القادرين على الدنيا مع احتيالهم لها وإعداد أنفسهم لأمور دون الملك وهو المشار إليه بقوله: ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا. إلى آخره.

وقوله: يطلب الدنيا بعمل الآخرة إشارة إلى الحيلة للدنيا كالرياء والسمعة.

وقوله: ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا إشارة إلى أنّه مريد للدنيا فقط.

قوله: قد طامن من شخصه. إلى آخره.

تفصيل لكيفيّة الحيلة فإنّ خضوع الإنسان وتطامن شخصه والمقاربة بين خطوه وتشمير ثوبه وزخرفته لنفسه بما هـو شعار الصـالحين من عباد الله وستـر الله الذي حمى به أهل التقوى أن يردوا موارد الهلكة يقع من صنف من الناس التماساً لدخولهم في عيون أهل الدنيا وأرباب أهل القينـات ليسكنوا إليهم في الأمـانات ونحـوها ويجعلون ذلـك ذريعة لهم إلى مـا أمّلوه من الدنيـا الفانيـة فيكونون قد اتّخذوا ستر الله وظاهر دينه وسيلة إلى معصيته.

الصنف الرابع: الغير القادرين عليهـا المحتالـون لها المؤهّلون أنفسهم للملك والإمرة، وهو المشار إليهم بقوله:

ومنهم من أقعدهم عن طلب الملك ضؤولة نفسه. إلى آخره. وذكر من مـوانع هـذا الصنف عمّا رامـه مانعين: أحـدهما ضؤولـة نفسه وقصـورها عن المنـاواة وتخيّلها العجـز عن طلب الملك وإن كان مـطلوباً لـه، الثـاني سبب ذلـك الضعف وهو انقـطاع سببـه من قلّة المـال وعـدم الأعـوان والأنصـار في الطلب. فلذلك وقفت به حال القـدر على حالتـه التي لم يبلغ معها مـا أراد، وقصّـرته عليهـا. فعدل لـذلك إلى الحيلة الجـاذبـة لـرغبـات الخلق إليـه من التحلّي بالقناعة والتزيّن بلباس أهل الزهادة من المواظبة على العبـادات ولزوم ظواهر أوامر الله وإن لم يكن ذلك عن أصل واعتقاد قاده إليه.

وقوله: وليس [هو] من ذلك في مراح ولا مغدىً. كناية عن أنه ليس من القنـاعة والـزهـد في شيء أصـلا، ويحتمـل أن يكـون هـذا الصنف من غيـر القادرين وغير المحتالين.

الصنف الخـامس: وهم المـريـدون لله تعـالى وهم المشـار إليـهم بقوله عليه السلام: وبقي رجال. إلى آخره. وذكر لهم أوصافا:

الأوّل: كـونهم قد غضّ أبصـارهم ذكر المـرجـع. وذلـك أنّ المـريـد لله إذا التفت إلى جنابه المقدّس واستحضر أنه راجع إليه بل مايل بين يديه. فلا بدّ أن يعرض عن غيره حياء منه وابتهاجاً بمطالعة أنواره وخوفاً أن يحمّج به بصره عن صعود مراتب الأمـلاك إلى مهاوي الهـلاك، ولأنّ الحسّ تابـع للقلب فإذا

كان بصر القلب مشغولاً غريقاً في جلال الله كـان مستتبعاً للحسّ فلم يكن لـه التفات من طريقه إلى أمر آخر وهو المراد بالغضّ.

الثاني: كونهم قد أراق دموعهم خوف المحشر.

واعلم أنّ خوف الخائفين قد يكون لأمـور مكروهـة لذاتهـا، وقد يكـون لأمـور مكروهـة لأدائها إلى مـا هو مكـروه لذاتـه، وأقسام القسم الثـاني كثيرة كخـوف الموت قبـل التوبـة، أو خوف نقض القـربة، أو خـوف الانحـراف عن القصد في عبادة الله، أو خوف استيلاء القوى الشهوانيّة بحسب مجرى العـادة في استعمال الشهوات المألوفة، أو خوف تبعات الناس عنـده، أو خوف سـوء الخاتمة، أو خوف سبق الشقاوة في علم الله تعالى. وكلّ هذه ونحوهـا مخاوف عباد الله الصالحين. وأغلبها على قلوب المتّقين خوف الخاتمة فـإنّ الأمر فيـه خطر، وأعلى الأقسام وأدّلها على كمال المعرفة خوف السابقـة لكون الخـاتمة تبعاً لها ومظهرة لما سبق في اللوح المحفوظ. وقد مثّل من لـه خوف السـابقة ومن له خوف الخاتمة برجلين وقع لهما ملك بتوقيع يحتمل أن يكون لهما فيـه غناء أو هلاك فتعلّق قلب أحدهما بحال نشر التوقيع وما يظهـر فيه من خيـر أو شـرّ، وتعلّق قلب الآخر بمـا خطر للملك حـالة التـوقيع من رحمـة أو غضب. وهذا التفات إلى السبب. فكان أعلى. فكذلـك الالتفات إلى القضـاء الأزليّ الذي جرى بتـوقيعه القلم الإلهيّ في اللوح المحفـوظ أعلى من الالفتات إلى الأبد. وإلى ذلك أشار الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حيث كان على المنبر فقبض كفّه اليمنى ثمّ قال: هذا كتاب الله كتب فيه أهل الجنّة بأسمائهم وأسمـاء آبائهم لا يـزاد فيه ولا ينقص. وليعمل أهـل السعادة بعمـل أهل الشقـاوة حتى يقال: كـأنّهم منهم بل هم هم ثمّ يستخرجهم (يستنقذهم خ) الله قبل الموت ولـو بفواق ناقـة، وليعمل أهل الشقاوة بعمل أهـل السعادة حتى يقـال: كأنّهم منهم بـل هم هم ثمّ يستخرجهم الله قبل الموت ولو بفواق ناقـة. السعيد من سعـد بقضاء الله، والشقيّ من شقي بقضـاء الله، والأعمال بـالخواتيم. وأمّـا أقسام القسم الأوّل فمثل أن يتمثّل في نفوسهم ما هو المكروه لذاته كسكرات الموت وشـدّته، أو سؤال منكـر ونكير، أو عـذاب القبـر، أو هـول المـوقف بين يـدي الله تعـالى

والحياء من كشف السرّ والسؤال عن النقير والقطمير، أو الخوف من الصراط وحدَّته وكيفيّة العبور عليه، أو من النار وأغلالها وأحوالها، أو من حرمان الجنّة، أو من نقصان الدرجات فيها، أو خوف الحجاب من الله تعالى. وكلّ هذه الأسباب مكروهة في نفسها ومختلف حال السالكين إلى الله فيها، وأعلاها رتبةً خوف الفراق والحجاب عن الله تعالى وهو خوف العارفين، وما قبل ذلك وهو خوف العابدين والصالحين والزاهدين ومن لم تكمل معرفته بعد.

إذا عرفت ذلك فنقول: الخوف الذي أشار إليه عليه السلام من هذا القسم إذ خوف المحشر يشمل ما ذكرناه من أقسامه.

الثالث: كونهم بين شريد نادّ: أي مشردّ في البلاد مطرود إمّا لكثرة إنكاره المنكر أو لقلّة صبره على مشاهدة المنكر، وخائف مقموع وساكت مكعوم: أي كأنّ التقيّة سدّت فاه عن الكلام. وهو من باب الاستعارة، وداع مخلص لله وثكلان موجع إمّا لمصابه في الدين أو من كثرة أذى الظالمين. وهذا تفصيل حال آحاد المتّقين، ويحتمل أن يكون ذلك تفصيلاً لحالهم بالنسبة إلى خوف المحشر أي أنَّ خوف المحشر أراق دموعهم وفعل بكلّ واحد منهم ما ذكر عنه من الحالة التي هو عليها.

الرابع: كونهم قد أخملتهم التقيّة: أي تقيّة الظالمين وهو تأكيد لما سبق.

الخامس: كونهم قد شملتهم الذلّة: أي بسبب التقيّة.

السادس: كونهم في بحر أجاج، واستعار لفظ البحر بوصف الأجاج لما فيه من أحوال الدنيا الباطلة. ووجه المشابهة أنَّ الدنيا كما لا تصلح للاقتناء والاستمتاع بها بل تكون سبباً للعذاب في الآخرة كذلك البحر لا يمكن سابحه وإن بلغ به جهد العطش مبلغه شربه والتروّي به.

وقوله: أفواههم ضامرة وقلوبهم قرحة.

أي إنّهم لمّا فطموا أنفسهم عن لذّاتها ومخالطة أهلها فيما هم فيه من

الانهماك فيها لا جرم كانت أفواههم ضامرة لكثرة صيامهم بعيدة العهد بالمضغ، وقلوبهم قرحةً جوعاً أو خوفاً من الله أو عطشاً إلى رحمته ورضوانه أو لما يشاهدونه من كثرة المنكرات وعدم تمكّنهم من إنكارها. ومن روى ضامزة بالزاى المعجمة أراد سكوتهم وقلّة كلامهم.

السابع: كونهم قد وعظوا حتى ملّوا:

أي ملّوا وعظ الخلق لعدم نفعه فيهم.

الثامن: كونهم قد قهروا حتى ذلّوا.

التاسع: كونهم قد قتلوا حتى قلّوا: أي قتلهم الظالمون لعدم سلكهم في انتظامهم فإن قلت: كيف يقال قتلوا مع بقائهم. قلت: إسناد الفعل إلى الكلّ لوجود القتل في البعض مجازاً من باب إسناد حكم الجزء إلى الكلّ، ولأنّ الكلّ لمّا كان مقصوداً بالقتل كان كونهم مقتولين علّة غائيّة فجاز إسناد القتل إليهم وإن كان المقتول بعضهم.

وقوله: فلتكن الدنيا في أعينكم. إلى آخره.

أمر للسامعين باستصغار الدنيا واحتقارها إلى حدّ لا يكون في أعينهم ما هو أحقر منها فإنّ حثالة القرظ وقراضة الجلم في غاية الحقارة، والمراد من هذا الأمر. وغايته الترك لها فإنّ استحقار الشيء واستصغاره يستتبع تركه والإعراض عنه، ثمّ أمرهم بالاتّعاظ بالأمم السابقة فإنّ في الماضين عبرة لأولي الأبصار، ومحلّ الاعتبار ما كانوا فيه من نعيم الدنيا ولذّاتها والمباهاة بكثرة قيناتها ثمّ مفارقتهم لذلك كلّه بالموت وبقاء الحسرة والندامة للمستكثرين منها حجباً حائلة بينهم وبين الوصول إلى حضرة جلال الله، ونبّههم بقوله: قبل أن يتّعظ بكم من بعدكم. على أنّهم مضطرّون إلى مفارقة ما هم فيه وسيصيرون عبرة لغيرهم. وفائدة الأمر بالاتّعاظ أيضاً الإعراض عنها والاقلاع وعدم الاغترار بها، ثمّ لمّا أمرهم بهذه الأوامر التي ليست صريحة في الترك أردف ذلك بالأمر الصريح بالترك فقال: وارفضوها ذميمة: أي أتركوا ما حاله الحقارة والذمامة، ثمّ نبّه بعده على ما يصلح علّة لتركها وهو عدم دوام

صحبتها وثباتها لمن كان أحبّ منهم لها: أي ولو دام سرورها ونعيمها لأحد لدام لأحبّ الخلق لها وأحرصهم على المحافظة عليها فلمّا لم تدم لمن هو أشدّ حبّاً لها منكم فبالأولى أن لا تدوم لكم، وإذا كان طباعها رفض كلّ محبّ فالأحرى بذي المروّة اللبيب الترفّع والإعراض عمّن لا تدوم صحبته ولا تصفو محبّته. وبالله التوفيق.

٣٢ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)
عند خروجه لقتال أهل البصرة

قال عبد الله بن العباس: دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام بذي قار وهو يخصف نعله فقال لي: ما قيمة هذه النعل؟ فقلت: لا قيمة لها. فقال عليه السلام: والله لهي أحب إلي من إمْرَتِكُمْ إلا أن أقيم حقا، أو أدفع باطلا، ثم خرج فخطب الناس فقال:

إنَّ آللهَ بَعَثَ مُحَمَّداً صَلَّى آللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَاباً وَلَا يَدَّعِي نُبُوَّةً، فَسَاقَ النَّاسَ حتى بَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ، وَبَلَّغَهُمْ مَنْجَاتَهُمْ فَاسْتَقَامَتْ قَنَاتُهُمْ، وَاطْمَأَنَّتْ صَفَاتُهُمْ. أَمَا وَآللهِ إنْ كُنْتُ لَفِي سَاقَتِهَا حَتَّى تَوَلَّتْ بِحَذَافِيرِهَا: مَا ضَعُفْتُ وَلَا جَبُنْتُ وَإنَّ مَسِيري هذَا لِمِثْلِهَا فَلأَنْقُبَنَّ الْبَاطِلَ حَتَّى يَخْرُجَ الْحَقُّ مِنْ جَنْبِهِ مَالِي وَلِقُرَيْشٍ! وَآللهِ لَقَدْ قَاتَلْتُهُمْ كَافِرِينَ ولأُقَاتِلَنَّهُمْ مَفْتُونِينَ، وَإنِّي لَصَاحِبُهُمْ بِالأَمْسِ؛ كَمَا أَنَا صَاحِبُهُمْ الْيَوْم!

أقول: ذوقار: موضع قريب من البصرة، وهو الموضع الذي نصرت فيه العرب على الفرس قبل الإسلام. ويخصف نعله: أي يخرزها. وبوّأهم: أسكنهم. والمحلّة: المنزلة. والنجاة: موضع النجاة. والقناة: الرمح، وعمود الظهر المنتظم للفقار. والصفاة: الحجر الأملس المنبسط. والساقة: جمع سائق وتولّت بحذافيرها: أي بأسرها. والبقر: الشقّ.

واعلم أنّه عليه السلام قدّم لنفسه مقدّمة من الكلام أشار فيها إلى فضيلة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في مبعثه وهو سوقه للخلق إلى الدين والحقّ ليبني عليها فضيلة

نفسه. وكانت غايته من ذلك توبيخ من خرج عليه من قريش والاستعداد عليهم.

فقوله: إنَّ الله بعث محمداً. إلى قوله: صفاتهم.

صدر الكلام. أشار فيه إلى فضيلة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. والواوان الداخلتان على حرفي النفي للحال. فإن قلت: كيف يجوز أن يقال إنّه لم يكن أحد من العرب في ذلك الوقت يقرأ كتاباً وكانت اليهود يقرؤون التوراة والنصارى الإنجيل. قلت: إنَّ الكتاب الذي تدّعيه اليهود وتسمّيه في ذلك الوقت التوراة ليس هو الكتاب الذي أنزل على موسى عليه السلام فإنهم كانوا حرّفوه وبدّلوه فصار كتاباً آخر بدليل قوله تعالى: ﴿قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا﴾[1] وظاهر أنّه من حيث هو مبدّل ومحرّف ليس هو المنزّل على موسى عليه السلام، وأمّا الكتاب الذي تدّعي النصارى بقاءه في أيديهم فغير معتمد على نقلهم فيه لكونهم كفّاراً بسبب القول بالتثليث، وأمّا النافون للتثليث فهم في غاية القلّة فلا يفيد قولهم: إنّ ما في أيديهم هو إنجيل عيسى. علماً. فإذن لا يكون المقروّ لهم حال مبعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم كتاباً هو من عند الله. سلّمناه لكن يحتمل أن يريد بالعرب جمهورهم فإنّ أكثرهم لم يكن له دين ولا كتاب وإنّما كان بعضهم يتمسّك بآثار من شريعة آسماعيل وبعضهم برسوم لهم.

وقوله: فساق الناس حتى بوّأهم محلّتهم.

الإشارة بسوقه لهم إلى سوقه العقليّ لأذهانهم بحسب المعجزات إلى تصديقه فيما جاء به بحسب ما جاءهم من القرآن الكريم والسنّة النبويّة وإلى معرفة سبيل الله، ثمّ بحسب الترغيب لبعضهم والترهيب للبعض إلى سلوك تلك السبيل. فأصبحوا وقد تبوّؤوا محلّتهم: أي منزلتهم ومرتبتهم التي خلقوا لأجلها، وكانت هي مطلوب العناية الأزليّة بوجودهم في هذا الدار وهي لزوم القصد في سبيل الله المسمّى إسلاماً وديناً وإيماناً وهو في الحقيقة المنجاة

---

(١) ٦ - ٩١.

التي لا خوف على سالكها ولا سلامة للمنحرف عنها، وذلك معنى قوله: وبلّغهم منجاتهم.

وقوله: واستقامت قناتهم.

والمراد بالقناة: القوّة والغلبة والدولة التي حصلت لهم مجازاً وهو من باب إطلاق اسم السبب على المسبّب فإنّ الرمح أو الظهر سبب للقوّة والشدّة، ومعنى إسناد الاستقامة إليها انتظام قهرهم ودولتهم.

وقوله: واطمأنّت صفاتهم.

استعارة للفظ الصفاة لحالهم التي كانوا عليها، ووجه المشابهة أنّهم كانوا قبل الاسلام في مواطنهم وعلى أحوالهم متزلزلين لا يقرّ بعضهم بعضاً في موطن ولا على حال بل كانوا أبداً في الغارة والنهب والجلاء. فكانوا كالواقف على حجر أملس متزلزل مضطرب. فاطمأنّت أحوالهم وسكنوا في مواطنهم. كلّ ذلك بسبب مقدم محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وقوله: أمَا والله إن كنت لفي ساقتها. إلى قوله: ولا جبنت.

تقرير لفضيلته. فأثبت لنفسه أنّه كان من ساقتها إلى أن تولّت بأسرها من غير عجز اعتراه ولا جبن، والضمير في ساقتها لكتائب الحرب وإن لم يجر لها ذكر صريح بل ما يحصل منه معنى الذكر وهو الناس فكأنّه قال: فساق الناس وهم يومئذ كتائب عليه فكنت في ساقتها حتى تولّت تلك الكتائب بأسرها لم يبق منها من يغالبه، وقد علمت أنّ السوق قد يكون سوق طرد وهزيمة، والأوّل هو غايته عليه السلام من السوق الثاني إذ لم يكن مقصوده من حروبه إلّا السوق إلى الدين، ولمّا لم يمكن حصول الهداية للخلق إلّا بوجود النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وإيضاح سبيل الحقّ كان ذبّه وطرده الكتائب حتى تولّت بحذافيرها حماية عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وعن حوزة الدين أمراً واجباً لا لذاته لكن لغرض تمام الهدى الذي هو غاية وجود النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

وقوله: ما عجزت [ما ضعفت خ] ولا جبنت.

تمام لإثبات الفضيلة المذكورة له، وتقرير لما علم من شجاعته، وتأكيد

لعدم العجز والجبن الذي هو طرف التفريط من فضيلة الشجاعة.

وقوله: وإنّ مسيري هذا لمثلها.

أي لمثل تلك الحال التي كنت عليها معهم زمان كفرهم من سوق كتائبهم وطردها من غير جبن ولا ضعف. وهو في معنى التهديد الذي عساه أن يبلغ خصومه وتقوى به نفوس أوليائه، وكذلك قوله: ولأبقرنّ الباطل حتى أخرج الحقّ من خاصرته. أيضاً في معنى التهديد، وتنبيه على ما عليه خصومه من الباطل. واستعار هنا لفظ الخاصرة للباطل والبقر لتفريق الباطل وتمييز الحقّ منه تشبيهاً له في استتار الحقّ فيه وعدم تمييزه منه بحيوان ابتلع جوهراً ثميناً أعزّ منه قيمة وأتمّ فائدة فاجتمع إلى شقّ بطنه في استخلاص ما ابتلع.

وقوله: مالي ولقريش.

استفهام على سبيل الإنكار لمابينه وبينهم ممّا يوجب الاختلاف وجحد فضيلته، وحسم لاعذارهم في حربه.

وقوله: والله لقد قاتلتهم كافرين.

إظهار للمنّة عليهم بسوقه لهم إلى الدين أوّلا وتعيير لهم بما كانوا عليه من الكفر ليعترفوا بفضيلته ونعمة الله عليهم به وليخجلوا من مقابلته بالباطل وهو إظهار الإنكار عليه إذ كانوا أولى بإتيان المنكر منه وهو أولى بردّهم عنه آخراً كما كان أوّلا. وكذلك قوله: وقاتلتهم مفتونين. على أحد الروايتين، وأمّا على رواية ولأقاتلنّهم مفتونين فهو تهديد بأن يوقع بهم القتال على فتنتهم وضلالتهم على الدين. وكافرين ومفتونين نصبا على الحال، وفي ذكر هذين الحالين تنبيه على علّة قتاله لهم في الحالتين وهو طلبه لاستقامتهم على الدين ورجوعهم إلى الحقّ عن الضلال وإغراء السامعين بهم.

وقوله: وإنّي لصاحبهم بالأمس كما أنا صاحبهم اليوم.

إشارة إلى أنّه لم تتغيّر حالته التي بها قاتلهم كافرين، وفائدته تذكير الخصم الآن بابتلاء الكفّار به في ذلك الوقت ليتقهقروا عن محاربته إذ في

تذكّر وقائعه في بدو الإسلام وشدّة بأسه ما تطير منه القلوب وتقشعرّ منه الجلود. وقد نقلت في تمام هذه الخطبة في بعض النسخ :

لتضجّ قريش ضجيجها إن تكن فينا النبوّة والخلافة، والله ما أتينا إليهم إلّا أنّا اجترأنا عليهم.

وذلك إشارة إلى السبب الأصليّ لخروج طلحة والزبير وغيرهما من قريش عليه. وهو الحسد والمنافسة إن تكن الخلافة والنبوّة في بني هاشم دونهم. والضجيج: الصراخ القويّ. وهو كناية عن أشدّ مخاصماتهم ومنافراتهم معه على هذا الأمر.

وقوله: والله ما أتينا. إلى آخره.

تأكيد لما نسبه إليهم من سبب الخروج بالقسم البارّ على أنّه لم يكن الباعث لهم على قتاله أو على حسده والبغي عليه أمراً من قبله سوى الاجتراء عليهم أي الشجاعة والإقدام عليهم في منعهم عمّا يريدون من قول أو فعل لا تسوّغه الشريعة فإنّه لمّا لم يكن ذلك في الحقيقة إساءة في حقّهم يستحقّ بها المكافأة منهم بل إحسان وردع عن سلوك طرق الضلال تعيّن أنّ السبب في الخروج عليه ونكث بيعته هو الحسد والمنافسة وبالله التوفيق.

٣٣ ـ ومن خطبة له (عليه السلام) في استنفار الناس إلى أهل الشام

أُفٍّ لكُمْ ، لَقَدْ سَئِمْتُ عِتَابَكُمْ !! أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ عِوَضاً ؟ وَبِالذُّلِّ مِنَ الْعِزِّ خَلَفاً ؟ إِذَا دَعَوْتُكُمْ إِلَى جِهَادِ عَدُوِّكُمْ دَارَتْ أَعْيُنُكُمْ كَأَنَّكُمْ مِنَ الْمَوْتِ فِي غَمْرَةٍ ، وَمِنَ الذُّهُولِ فِي سَكْرَةٍ ، يُرْتَجُ عَلَيْكُمْ حَوَارِي فَتَعْمَهُونَ . فَكَأَنَّ قُلُوبَكُمْ مَأْلُوسَةٌ فَأَنْتُمْ لَا تَعْقِلُونَ ، مَا أَنْتُمْ لِي بِثِقَةٍ سَجِيسَ اللَّيَالِي ، وَمَا أَنْتُمْ بِرُكْنٍ يُمَالُ بِكُمْ ، وَلَا زَوَافِرُ عِزٍّ يُفْتَقَرُ إِلَيْكُمْ مَا أَنْتُمْ إِلَّا كَإِبِلٍ ضَلَّ رُعَاتُهَا ، فَكُلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ انْتَشَرَتْ مِنْ آخَرَ ، لَبِئْسَ ـ لَعَمْرُ اللهِ ـ سَعْرُ نَارِ الْحَرْبِ أَنْتُمْ تُكَادُونَ وَلَا تَكِيدُونَ ، وَتَنْقُصُ أَطْرَافُكُمْ فَلَا تَمْتَعِضُونَ لَا يُنَامُ عَنْكُمْ وَأَنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ سَاهُونَ ، غُلِبَ وَاللهِ الْمُتَخَاذِلُونَ ، وَايْمُ اللهِ

إنِّي لأظُنُّ بِكُمْ ، أنْ لَوْ حَمِسَ ٱلْوَغَى وَٱسْتَحَرَّ ٱلْمَوْتُ قَدِ ٱنْفَرَجْتُمْ عَنِ ٱبْنِ أَبِي طَالِبِ ٱنْفِرَاجَ ٱلرَّأْسِ . والله إنَّ ٱمْرَأً يُمَكِّنُ عَدُوَّهُ مِنْ نَفْسِهِ يَعْرُقُ لَحْمَهُ ، وَيَهْشِمُ عَظْمَهُ ، وَيَفْرِي جِلْدَهُ ؛ لَعَظِيمٌ عَجْزُهُ ، ضَعِيفٌ مَا ضُمَّتْ عَلَيْهِ جَوَانِحُ صَدْرِهِ فَكُنْ ذَا إنْ شِئْتَ ، فَأَمَّا أَنَا فَوَالله دُونَ أَنْ أُعْطِيَ ذٰلِكَ ضَرْبٌ بِالْمَشْرَفِيَّةِ تَطِيرُ مِنْهُ فَرَاشُ ٱلْهَامِ ، وَتَطِيحُ ٱلسَّوَاعِدُ وَٱلاَقْدَامُ ، وَيَفْعَلُ ٱلله بَعْدَ ذٰلِكَ مَا يَشَاءُ .

أَيُّهَا النَّاسُ ، إنَّ لِي عَلَيْكُمْ حقاً ، وَلَكُمْ عَلَيَّ حَقٌ : فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَيَّ فَالنَّصِيحَةُ لَكُمْ، وَتَوْفِيرُ فَيْئِكُمْ عَلَيْكُمْ، وَتَعْلِيمُكُمْ كَيْلَا تَجْهَلُوا، وَتَأْدِيبُكُمْ كَيْمَا تُعَلَّمُوا ، وَأَمَّا حَقِّي عَلَيْكُمْ فَالْوَفَاءُ بِالْبَيْعَةِ، وَالنَّصِيحَةُ فِي الْمَشْهَدِ وَٱلمغِيبِ، وَٱلإجَابَةُ حِينَ أَدْعُوكُمْ، وَالطَّاعَةُ حِينَ آمُرُكُمْ.

أقول: روي أنّه عليه السلام خطب بهذه الخطبة بعد فراغه من أمر الخوارج وقد كان قام بالنهروان فحمد الله وأثنى عليه وقال: أمّا بعد فإنّ الله تعالى قد أحسن بناصرتكم فتوجّهوا من فوركم هذا إلى عدوّكم من أهل الشام. فقالوا له: قد نفدت نبالنا وكلّت سيوفنا ارجع بنا إلى مصرنا لنصلح عدّتنا، ولعلّ أمير المؤمنين يزيد في عددنا مثل من هلك منّا لنستعين به. فأجابهم: **﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدّسة التي كتب الله لكم ولا ترتدّوا على أدباركم﴾**[1] الآية فتلكّؤوا عليه وقالوا: إنّ البرد شديد. فقال: إنّهم يجدون البرد كما تجدون أفّ لكم ثمّ تلا قوله تعالى: **﴿قالوا يا موسى إنّ فيها قوماً جبّارين﴾**[2] الآية. فقام منهم ناس واعتذروا بكثرة الجراح في الناس وطلبوا أن يرجع بهم إلى الكوفة أيّاماً. ثمّ يخرج بهم. فرجع بهم غير راض وأنزلهم نخيلة. وأمرهم أن يزمّلوا معسكرهم ويوطّنوا على الجهاد أنفسهم ويقلّوا زيارة أهلهم. فلم يقبلوا وجعلوا يتسلّلون ويدخلون الكوفة حتى لم يبق معه إلاّ القليل منهم. فلمّا رأى ذلك دخل الكوفة فخطب الناس. فقال: أيّها الناس استعدّوا لقتال

---

(١) ٥ـ٢١.

(٢) ٥ـ٢٢.

عدوّ في جهادهم القربة إلى الله ودرك الوسيلة عنده قوم حيارى عن الحقّ لا ينصرونه، موزعين بالجور والظلم لا يعدلون به. جفاة عن الكتاب نكب عن الدين يعمهون في الطغيان، ويتسكّعون في غمرة الضلال: ﴿فأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل وتوكّلوا على الله وكفى بالله وكيلا﴾ قال: فلم ينفروا. فتركهم أيّاماً ثمّ خطبهم هذه الخطبة فقال: أفّ لكم. الفصل.

أفّ: كلمة تضجّر من الشيء. وغمرات الموت: سكراته التي يغمر فيها العقل. والذهول: النسيان والسهو. ويرتج عليكم: أي يغلق. والحوار: المخاطبة. وتعمهون: تتحيّرون وتترددون. والمألوس: المجنون والمختلط العقل. وسجيس الليالي وسجيس الأوجس: أي أبدا مدى الليالي. والزوافر: جمع زافرة. وزافرة الرجل أنصاره وعشيرته. وسعر: جمع ساعر، وإسعار النار تهييجها وإلهابها. والامتعاض: الغضب. وحمس الوغى: اشتداد الحرب وجلبة الأصوات. وعرقت اللحم أعرقه: إذا لم أبق على العظم منه شيئاً. والمشرفية: سيوف منسوبة إلى مشارف: قرى من أرض العرب تدنو من الريف. وفراش الهام: العظام الرقيقة تلي القحف.

واعلم أنّه عليه السلام لمّا أراد استنفارهم إلى الحرب. وكانوا كثيراً ما يتثاقلون عن دعوته استقبلهم بالتأنيف والتضجّر بما لا يرتضيه من أفعالهم.

وقوله: لقد سئمت عتابكم.
تفسير لبعض ما تأنف منه.

وقوله: أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضاً، وبالذلّ من العزّ خلفا.

استفهام على سبيل الإنكار عليهم يستلزم الحثّ على الجهاد فإنّ الجهاد لمّا كان مستلزماً لثواب الآخرة ولعزّة الجانب، وخوف الأعداء، والقعود عنه يستلزم في الأغلب السلامة في الدنيا والبقاء فيها لكن مع طمع العدوّ فيهم وذلّتهم له كانوا بقعودهم عنه كمن اعتاض الدنيا من الآخرة، واستخلف الذلّ من العزّة. وذلك ممّا لا يرضى به ذو عقل سليم. وعوضاً وخلفاً منصوبان على التمييز.

قوله: إذا دعوتكم إلى جهاد عدوّكم. إلى قوله: لا تعقلون.

تبكيت لهم وتوبيخ برذائل تعرض لهم عند دعائه لهم إلى الجهاد.

الأولى: بأنّه تدور أعينهم حيرة وتردّداً وخوفاً من أحد أمرين: إمّا مخالفة دعوته، أو الإقدام على الموت. وفي كلا الأمرين خطر. ثمّ شبّه حالتهم تلك في دوران أعينهم وحيرتهم بحال المغمور في سكرات الموت، الساهي فيها عن حاضر أحواله، المشغول بما يجده من الألم. ونحوه قوله تعالى: ﴿**ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت**﴾[1].

الثانية: أنّه يرتج عليهم حواره، ويرتج في موضع الحال وتعمهون عطف عليه أي يرتج عليكم فيتحيّرون. ثمّ شبّه حالهم عند دعائه إلى الجهاد تشبيهاً ثانياً بحال من اختلط عقله أي أنّهم في حيرتهم وتردّدهم في جوابه كمختلط العقل ما يفقه ما يقول.

الثالثة: أنّهم ليسوا له بثقة أبداً. وهو وصف لهم برذيلة الخلف والكذب المستلزم لعدم ثقته بأقوالهم.

الرابعة: كونهم ليسوا بركن يميل به المستند إليه في خصمه. يقال: فلان ركن شديد. استعارة له من ركن الجبل وهو جانبه لما بينهما من المشاركة في الشدّة وامتناع المعتصم به. ونحوه قوله تعالى: ﴿**لو أنّ لي بكم قوّة أو آوى إلى ركن شديد**﴾[2] أي قويّ يمنعني منكم وهو وصف بالتخاذل والعجز.

الخامسة: ولا زوافر عزّ يفتقر إليهم. وهو وصف لهم برذيلة الذلّ والحقارة.

السادسة: تشبيههم بإبل ضلّ رعاتها، والإيماء إلى وجه الشبه وهو أنّها كلّما جمعت من جانب انتشرت من جانب. إشارة إلى أنّهم ضعيفوا العزوم متشتّتوا الآراء لا يجتمعون على مصلحة بها يكون نظام أحوالهم في الدارين. وقد علمت أنّ ذلك من نقصان القوّة العلميّة فكانوا منها على رذيلة البله.

---

(١) ٣٣ - ١٩.

(٢) ١١ - ٢٨.

السابعة: كونهم ليسوا بسعر نار الحرب: أي ليسوا من رجالها. وذلك أنّ مدار الحرب على الشجاعة والرأي. وقد سبقت منه الإشارة إلى ذمّهم بالفشل وضعف الرأي. فإذن ليسوا من رجال الحرب، ولمّا استعار لهيجان الحرب لفظ النار لما يستلزمانه من الأذى الشديد رشّح تلك الاستعارة بذكر الإسعار ووصف رجالها به.

الثامنة: كونهم يكادون ولا يكيدون: أي يخدعون ويمكر بهم عدّوهم في إيقاع الحيلة، وليس لهم قوّة المكر والحيلة به. وذلك أيضاً من رذيلة ضعف الرأي.

التاسعة: كونهم تنقص أطرافهم فلا يمتعضون: أي يغار العدوّ في كلّ وقت على بعض بلادهم فيحوزها فلا يشقّ ذلك عليكم ولا يدرككم منه أنفة ولا حميّة، وهو وصف لهم برذيلة المهانة.

العاشرة: كونهم في غفلة ساهون مع انتباه عدوّهم. وهو وصف لهم برذيلة الغفلة أيضاً عمّا يراد بهم، وقلّة عقليّتهم لمصالح أنفسهم، وكلّ هذا التوبيخ تثقيف لهم وتنبيه لنفوسهم الراقدة في مراقد طبائعها على ما ينبغي لهم من المصالح التي يكون بها نظام أحوالهم على قانون الدين.

وقوله: غلب والله المتخاذلون.

تنبيه على أنّهم بتخاذلهم سيغلبون. وأورد الغلب المطلق بعلّة التخاذل لأنّهم للحكم العامّ أشدّ قبولاً منهم له على أنفسهم إذلو خصّصهم به فقال غلبتم والله أو تخاذلتم لم يكن وقعه في الذوق كوقعه عامّاً.

وقوله: وأيم الله. إلى قوله: انفراج الرأس.

أقسم أنّه ليظنّ بهم أنّهم عند اشتداد الحرب وحرارة الموت ينفرجون عنه انفراج الرأس: أي يتفرّقون أشدّ تفريق. وانفراج الرأس مثل. قيل: أوّل من تكلّم به أكثم بن صيفي في وصيّة له: يا بني لا تنفرجوا عند الشدائد انفراج الرأس فإنّكم بعد ذلك لا تجتمعون على عزّ. وفي معناه أقوال.

أحدها: قال ابن دريد: معناه أنّ الرأس إذا انفرج عن البدن لا يعود

إليه ولا يكون بعده اتّصال وذلك أشدّ انفراج.

الثاني: قال المفضّل: الرأس اسم رجل ينسب إليه قرية من قرى الشام يقال لها بيت الرأس وفيها يباع الخمر. قال حسّان: كان سبيه من بيت رأس يكون مزاجها عسلاً وماء.

وهذا الرجل قد انفرج عن قومه ومكانه فلم يعد إليه فضرب به المثل في المباينة والمفارقة.

الثالث: قال بعضهم: معناه أنّ الرأس إذا انفرج بعض عظامه عن بعض كان ذلك بعيد الالتيام والعود إلى الصحّة.

الرابع: قال بعضهم: معناه انفرجتم عنّي رأساً أي بالكلّيّة.

الخامس: قيل معناه: انفراج من يريد أن ينجو برأسه.

السادس: قيل معناه: انفراج المرأة عن رأس ولدها حالة الوضع فإنّه يكون في غاية من الشدّة وتفرّق الاتّصال والانفراج. ونحوه قوله عليه السلام في موضع آخر: انفراج المرأة عن قبلها، وعلى كلّ تقدير فمقصوده شدّة انفصالهم وتفرّقهم عنه لهم أحوج ما يكون إليهم، واستحرار الموت يحتمل أن يراد به شدّته الشبيهة بالحرارة مجازا كما سبق، ويحتمل أن يراد به خلوصه وحضوره فيكون اشتقاقه من الحريّة، والجملة الشرطية خبر أن المخفّفة من المثقّلة. واسمها الضمير الشأن وهي مع اسمها وخبرها قائمة مقام مفعولي ظنّ، وفيه توبيخ لهم على التقصير البالغ في حقّه إلى حدّ أن يظنّ بهم الظنّ المذكور.

وقوله: والله إنّ امرءاً. إلى قوله: إن شئت.

من لطيف الحيلة في الخطاب الموجب للانفعال عنه؛ وذلك أنّه صوّر لهم أفعالهم من التخاذل على العدوّ والضعف وسائر أفعالهم المذمومة التي الفوا التوبيخ والتعنيف بعبارة تريهم إيّاها في أقبح صورة وأشدّها كراهة إليهم وأبلغها نكاية فيهم وهو تمكينهم للعدوّ من أنفسهم فإنّ أفعالهم من التخاذل ونحوه. وهي بعينها تمكين للعدوّ فيما يريد بهم وإعداد له وتقوية لحاله، ولمّا

كان من عادة ظفر العدوّ احتياج المال والقتل وتفريق الحال كنّى عن الأوّل بقوله: يعرق لحمه، ووجه استعارة عرق اللحم لسلب المال بكلّيّته ظاهر، وكذلك كنّى عن القتل وسائر أسباب الهلاك من فعل العدوّ بهشم العظم، وعن تمزيق الحال المنتظم بفري الجلد. ثمّ لمّا كان من البيّن أنّ تخاذلهم تمكين لعدوّهم منهم وكان تمكين الإنسان لعدوّ من نفسه يفعل به الأفعال المنكرة لا يكون إلّا عن عجز عظيم وضعف في القلب عن مقاومته لا جرم أثبت العجز وضعف القلب لامرىء مكن عدوّه من نفسه وأكّد ذلك بأنّ. وبالقسم البارّ، وكنّى بضعف القلب عن الجبن وأتى بذلك الإثبات على وجه عامّ لكلّ امرىء فعل ذلك ولم يخصّهم بالخطاب ولا نسب تمكين العدوّ إليهم صريحاً وإن كانوا هم المقصودين بذلك رجاء لنفارهم عن الدخول تحت هذا العموم بالانقياد لأمره والجهاد. ثمّ أردفه بالأمر أن يكونوا ذلك المرء الذي وصفه بما وصفه أمراً على سبيل التهديد والتنفير، وذلك قوله: أنت فكن ذاك إن شئت. أي ذاك المرء الموصوف بالعجز والضعف. خطاب للشخص المطلق الصادق على أي واحد منهم كان وأمر له أن يكون بصفة المرء الموصوف أو لا تنفيراً له عمّا ذكره ممّا يلزم الإنسان من الأحوال الرديئة عند تمكينه عدوّه من نفسه وروي: أنّه خاطب بقوله: أنت فكن ذاك. الأشعث ابن قيس. فإنّه روي: أنّه قال وهو يخطب ويلوم الناس عن تقاعدهم عن الحرب: هلّا فعلت فعل ابن عفان فقال عليه‌السلام له: إنّ فعل ابن عفان مخزاة على من لا دين له ولا وثيقة معه، وإنّ امرءً أمكن عدوّه من نفسه يهشم عظمه ويفري جلده لضعيف رأيه ما فوق عقله أنت فكن ذاك إن شئت. الفصل.

وقوله: فأمّا أنا. إلى قوله: ما يشاء.

لما خيّرهم أن يكونوا ذلك المرء على سبيل التهديد أردف ذلك بالتبرّء من حال المرء المذكور ليكون لهم به عليه‌السلام أسوة في النفار عن تمكين العدوّ من أنفسهم إلّا بعد بذل النفس في الجهاد أي على تقدير اختيار المخاطب تلك الحال فإنّه هو لا يختار ذلك الحال بل دون أن يعطي عدوّه من نفسه ذلك التمكين ضرب بالمشرفيّة يطير منه الهام وتطيح منه السواعد والأقدام،

وكلّ ذلك كناية عن أشدّ المجاهدة، ويفعل الله بعد ذلك الجهاد والمناجزة ما يشاء من تمكين العدوّ أو عدم تمكينه فإنّ إليه مصير الأمور وعواقبها.

وقوله: أيّها النّاس. إلى آخره.

ذكر ما لهم عليه من الحقّ وما له عليهم منه ليعرفهم أنّه أدّى ما عليه من الواجب لهم فينبغي لهم أن يخرجوا إليه من واجب حقّه الذي فرض الله عليهم فبدأ ببيان حقّهم عليه أدباً واستدراجاً لطباعهم فإنّ البداءة بحقّ الغير قبل حقّ النفس أليق بالأدب وهم لسماعه أقبل. فذكر منها أربعة أمور بها يكون صلاح حالهم في الدارين.

أحدها: النصيحة لهم وهي حثّهم على مكارم الأخلاق وجذبهم إلى ما هو الأليق بهم في معاشهم ومعادهم.

الثاني: توفير فيئهم عليهم بترك ظلمهم فيه وتفريقه في غير وجوهه ممّا ليس بمصلحة لهم كما نسبوه إلى من كان قبله.

الثالث: تعليمهم كيلا يجهلوا. وإنّما لم يقل كيما يعلموا لأنّ ظهور المنّة عليهم بذكر نفي الجهل عنهم أشدّ من ظهورها في ذكر عرض إيجاد العلم لهم ولذلك كان تأذّي الرجل وأنفته من أن يقال له: يا جاهل. أشدّ بكثير من نفار من يقال له: لست بعالم.

الرابع: تأديبهم كيما يعلموا. فهذه الأمور الأربعة هي الواجبة على الإمام للرعيّة واحد منها يرجع إلى صلاح أبدانهم وقوامها: وهو توفير فيئهم عليهم بضبطه، وعدم التصرف فيه لغير وجوه مصالحهم. وإثنان يرجعان إلى صلاح حال نفوسهم إمّا من جهة إصلاح القوّة النظريّة: وهو التعليم لغرض العلم أو من جهة إصلاح القوّة العمليّة وهو التأديب لغرض العمل. وواحد مشترك بين مصلحتي البدن والنفس ونظام أحوالهما وهو النصيحة لهم. ثمّ أردف ذلك ببيان حقّه عليه السلام وذكر أيضاً أربعة.

الأوّل: الوفاء بالبيعة وهي أهمّ الأمور إذ بها النظام الكلّي الجامع لهم معه.

الثاني: النصيحة له في غيبته وحضوره والذبّ عنه إذ بذلك نظم شمل المصلحة بينهم وبينه أيضاً.

الثالث: إجابته حين يدعوهم من غير تثاقل عن ندائه فإنّ للتثاقل عن دعوته ما علمت من قهر العدوّ. وغلبته عليهم وفوات مصالح عظيمة.

الرابع: طاعتهم له حين يأمرهم، وظاهر أنّ شمل المصلحة لا ينتظم بدون ذلك. وأنت تعلم بأدنى تأمّل أنّ هذه الأمور الأربعة وإن كانت حقوقاً له عليهم إلاّ أنّه إنّما يطلبها منهم لما يعود عليهم به من النفع في الدنيا والآخرة فإنّ الوفاء ملكة تحت العفّة والنصيحة له سبب لانتظام أمورهم به وإجابة دعوته إجابة لداعي الله الجاذب إلى الخير والمصلحة ، وكذلك طاعة أمره طاعة لأمر الله إذ هو الناطق به ، وقد علمت ما تستلزمه إطاعة الله من الكرامة عنده . وبالله التوفيق والعصمة .

٣٤ - ومن خطبة له (عليه السلام)
بعد التحكيم

أَلْحَمْدُ للهِ وَإنْ أَتَى الدَّهْرُ بِالْخَطْبِ الْفَادِحِ ، وَالْحَدَثِ الْجَلِيلِ . وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا ٱللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَيْسَ مَعَهُ إِلٰهٌ غَيْرُهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَإنَّ مَعْصِيَةَ النَّاصِحِ الشَّفِيقِ الْعَالِمِ الْمُجَرِّبِ تُورِثُ الْحَيْرَةَ، وَتُعْقِبُ النَّدَامَةَ. وَقَدْ كُنْتُ أَمَرْتُكُمْ فِي هٰذِهِ الْحُكُومَةِ أَمْرِي وَنَخَلْتُ لَكُمْ مَخْزُونَ رَأْيِي، لَوْ كَانَ يُطَاعُ لِقَصِيرٍ أَمْرٌ؛ فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ الْمُخَالِفِينَ الْجُنَاةِ، وَالْمُنَابِذِينَ الْعُصَاةِ، حَتَّى ٱرْتَابَ النَّاصِحُ بِنُصْحِهِ، وَضَنَّ الزَّنْدُ بِقَدْحِهِ، فَكُنْتُ وَإِيَّاكُمْ كَمَا قَالَ أَخُو هَوَازِنَ :

أَمَرْتُكُمُ أَمْرِي بِمُنْعَرَجِ اللَّوَى فَلَمْ تَسْتَبِينُوا النُّصْحَ إلَّا ضُحَى الْغَدِ

أقول: روي أنّ عمرو بن العاص وأبا موسى الأشعري لمّا التقيا بدومة

الجندل وقد حكما في أمر النـاس كان عليّ يـومئذ قـد دخل الكـوفة ينتـظر ما يحكمان به. فلمّا تمّت خدعة عمرو لأبي موسى وبلغه ذلك عليه السلام اغتمّ له غمّاً شديداً ووجم منه وقام فخطب الناس. فقـال: الحمد لله. الفصـل. وزاد بعد الاستشهـاد ببيت دريـد في بعض الـروايات: ألا إنّ هـذين الـرجلين اللذين اخترتموهما قد نبذا حكم الكتاب وأحييا ما أمات واتّبع كـلّ واحدٍ منهمـا هواه وحكم بغير حجّة ولا بيّنة ماضية واختلفا فيما حكما فكـلاهما لم يرشـدا الله. فاستعدّوا للجهاد وتأهّبوا للمسير وأصبحوا في معسكركم يـوم كذا. وأمّـا قصّة التحكيم وسببها فمذكور في التواريخ.

والخطب: الأمر العـظيم. وفدحـه الأمر: إذا عـاله وأبهـظه. والجافي: خشن الطباع الذي ينبو طبعه عن المؤانسة فيقاطع ويباين.

فقوله: الحمد لله. إلى قوله: الجليل.

قـد عرفت نسبـة الخير والشـرّ إلى الدهـر على أيّ وجـه هي، ومـراده أحمد الله على كلّ حال من السرّاء والضرّاء. وإن هنا للغاية. ويفهم من هـذا الصدر وقوع الخطب الفادح وهو ما وقع من أمر الحكمين. وحمد الله عليه.

وقوله: ليس معه إله غيره.

تأكيد لمعنى كلمة التوحيد وتقريرٌ لمقتضاها.

وقوله: أمّا بعد. إلى قوله: الندامة.

القيـود الأربعة التي ذكـرها من صفـات المشير معتبـرة في حسن الـرأي ووجوب قبوله: أمّا كـونه نـاصحاً فـلأنّ الناصـح يصدق الفكر ويمحض الرأي وغير الناصح ربّما يشير بفطير الرأي فيوقع في المضرّة، وأمّا كونه شفيقـاً فلأنّ الشفقة تحمل على النصح فتحمل على حسن التروّي في الأمر وإيقـاع الرأي فيه من تثبّت واجتهاد. والباعث على هذين أعني النصح والشفقة إمّا الدين أو محبّة المستشير، وأمّا كونه عالماً ففائدته إصابته لعلمه وجه المصلحة في الأمر فـإنّ الجاهـل أعمى ولا يبصر وجـه المصلحـة فيـه. قـال رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم: استرشدوا العاقل ترشدوا ولا تعصـوه فتندمـوا، وقال عبـد الله بن الحسن لابنه

محمد: احذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحا كما تحذر عداوة العدوّ العاقل فإنّه كما يوشك أن يقع بك مكر العاقل كذلك يوشك أن يورّطك شور الجاهل، وأمّا كونه مجرّباً فلأنّه لا يتمّ رأي العالم ما لم ينضمّ إليه التجربة. وذلك أنّ العالم وإن علم وجه المصلحة في الأمر إلاّ أنّ ذلك الأمر قد يشتمل على بعض وجوه المفاسد لا يطّلع عليه إلاّ بالتجربة مرّة ومرّة فالمشورة من دون تجربة مظنّة الخطإ، وقيل في منثور الحكم: كلّ شيء محتاج إلى العقل والعقل محتاج إلى التجارب. وإذا عرفت أنّ طاعة المشير الموصوف بالصفات المذكورة مستلزمة في أغلب الأحوال للسرور بحسن ثمرة رأيه والفوز بها لا جرم كان معصيته ومخالفة رأيه مستلزمة للحسرة مستعقبة للندامة.

وقوله: وقد كنت أمرتكم في هذه الحكومة أمري.

لمّا قدّم أنّ معصية المشير المذكور تعقب الحسرة والندامة أردف ذلك ببيان أنّه هو المشير وأنّه أشار عليهم فخالفوه ليتّضح لهم أنّهم عصوا مشيرا قد استكمل شرائط الرأي فيتوقّعوا الندم على معصيته.

وقوله: ونخلت لكم مخزون رأيي.

استعارة للفظ النخل لاستخلاص أسدّ آرائه وأجودها لهم بحسب اجتهاده، ووجه المشابهة أنّ أجود ما ينتفع به ممّا ينخل من دقيق ونحوه هو المنخول كذلك الرأي أجوده وأنفعه ما استخلص وصفي من كدورات الشهوة والغضب.

وقوله: لو كان يطاع لقصيرٍ أمر.

مثلٌ. وقصير هذا هو قصير بن سعد اللخميّ مولى جذيمة الأبرش بعض ملوك العرب. وأصل المثل أنّ جذيمة كان قتل أبا الزباء ملكة الجزيرة فبعثت إليه عن حين ليتزوَّج بها خدعة وسألته القدوم فأجابها إلى ذلك، وخرج في ألف فارس وخلّف باقي جنوده مع ابن أخته عمرو بن عديّ، وكان قصير أشار إلى جذيمة أن لا يتوجّه إليها فلم يقبل رأيه فلمّا قرب جذيمة من الجزيرة

استقبله جنود الزباء بالعدّة ولم ير منهم إكراماً لـه فأشار عليه قصير بالرجوع عنها، وقال: إنّها امرأة ومن شأن النساء الغدر. فلم يقبل. فلمّا دخل إليها غدرت به وقتلته. فعندها قال قصير: **لا يطاع لقصير أمر. فذهبت مثلاً لكلّ** ناصح عصي وهو مصيب في رأيه. وقد يتوهّم أنّ جواب لو هاهنا متقدّم، والحقّ أنّ جوابها محذوف والمعنى يتّضح بترتيب الكلام، والتقدير إنّي كنت أمرتكم أمري في هذه الحكومة ونصحت لكم فلو اطعتموني لفعلتم ما أمرتكم به ومحضت لكم النصيحة فيه، فقولنا: لفعلتم هو تقدير الجواب، وممّا ينبّه عليه أنّ قوله: فأبيتم عليّ إباء المخالفين الجفاة والمنابذين العصاة. وهو في تقدير استثناء نقيض ذلك التالي، وتقديره لكنّكم أبيتم عليّ إباء من خالف الأمر وجفا المشير وعصاه حتى شكّ في نصحه هل كان صواباً أو خطأ.
وهذا الحكم حقّ فإنّ المشير بالرأي الصواب إذاكثر مخالفوه فيه قد يتّهم نفسه في صحّة ذلك الرأي وصوابه لأنّ استخراج وجه المصلحة في الأمر أمر اجتهاديّ يغلب على الظنّ بكثرة الأمارات اللائحة للمشير فإذا جوّز المشير أن يكون خلاف ما رآه هو. المصلحة فلا مانع إذن أن يعرض لغيره. أمارات أخرى يغلب على ظنّه أنّ ما رآه هو ليس بمصلحة فيعارض بها ما رآه الأوّل حقّاً ويخالفه في رأيه فإذا كثرت تلك المخالفة من جمع عظيم جاز أن يتشكّك الإنسان فيما ظنّه من المصلحة أنّه ليس بمصلحة وأنّ الأمارات التي اقتضت ذلك الظنّ غير صحيحة فلذلك قال عليه‌السلام: حتى ارتاب الناصح بنصحه. وعنى بالناصح نفسه أو من رأى رأيه لإطباق أكثر أصحابه على مخالفتهم، وقال بعض الشارحين: يحمل ذلك على المبالغة لأنّه عليه‌السلام منزّه عن أن يشكّ فيما يراه صواباً بعد شوره به.

وقوله: وضنّ الزند بقدحه.

وقيل: هو مثل يضرب لمن يبخل بفوائده إذا لم يجد لها قابلاً عارفاً بحقّها أو لم يتمكّن من إفادتها فإنّ المشير إذا اتّهم واستغشّ أو خطىء في رأيه ربما لا ينقدح له بعد ذلك رأي صالح لحكم الغضب عليه من جهة مخالفته وعدم قبول رأيه. ولمّا كان غرضه أن يقرّر عليهم الندامة في مخالفة

رأيه ويريهم ثمرة عصيان أمره الصادر عن معاينة وجه المصلحة كما هو قال: فكنت وإيّاكم كما قال اخو هوازن: أمرتهم أمري. البيت، وهو لدريد ابن الصمة من قصيدة له في الحماسة أوّلها:

نصحت لعارض وأصحاب عارض ورهط بني السوداء والقوم سهّد

وقصّته في هذه القصيدة أنَّ أخاه عبد الله بن الصمة غزا بني بكر ابن هوازن بن غطفان فغنم منهم واستاق إبلهم فلمّا كان بمنعرج اللوى قال: لا والله لا أبرح حتى أنحر البقيعة وهي ما ينحر من النهب قبل القسمة، وأحيل السهام. فقال له أخوه دريد: لا تفعل. فإنّ القوم في طلبك. فأبى عليه وأقام ونحر البقيعة وبات فلمّا أصبح هجم القوم عليه وطعن عبد الله بن صمة فاستغاث بأخيه دريد فنهنه عنه القوم حتى طعن هو أيضاً وصرع وقتل عبد الله وحال الليل بين القوم فنجا دريد بعد طعنات وجراح حصل له فقال القصيدة، وإنّما قال عليه السلام: أخو هوازن. لنسبته إليهم فإنّ دريداً ابن الصمة ابن بني جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن. ونحوه قوله تعالى: ﴿ **واذكر أخا عادٍ** ﴾ لنسبته فيهم وكذلك قال لهم أخوهم لوط ويكفي في إطلاق لفظ الأخوّة مجازاً مجرّد الاتّصال بهم والملابسة لهم وقد عرفت ذلك، ووجه تمثّله عليه السلام بالبيت: إنّي كنت وإيّاكم في نصيحتي ونهيي من الحكومة ومخالفتكم أمري المستلزمة لندامتكم على التفريط كهذا القائل مع قومه حيث نصح لهم فعصوه فلحقهم من الندامة الهلاك.

واعلم أنَّ الذي كان أشار به على أصحابه: هو ترك الحكومة والصبر على قتال أهل الشام. ومجمل السبب أنّ أمارات الغلبة ليلة الهرير كانت لائحة على أهل الشام فلمّا عاينوا الهلاك استشار معاوية بعمرو بن العاص في كيفيّة الخلاص فقال عمرو: إنَّ رجالك لا تقوم لرجاله، ولست مثله إنّه يقاتلك على أمر وأنت تقاتله على غيره وأنت تريد البقاء وهو يريد الفناء، وأهل العراق يخافون منك إن ظفرت بهم وأهل الشام لا يخافون عليّاً إن ظفر بهم؛ ولكن ألق إلى القوم أمراً إن قبلوه اختلفوا وإن ردّوه اختلفوا: ادعهم إلى

كتاب الله حكماً فيما بينك وبينهم فإنّك بالغ به حاجتك فإنّي لم أزل أدّخر هذا الأمر لوقت حاجتك إليه فعرف معاوية ذلك فلمّا أصبحوا رفعوا المصاحف على أطراف الرماح وكان عددها خمس مائة مصحف ورفعوا مصحف المسجد الأعظم على ثلاثة رماح مشدودة يمسكها عشرة رهط ونادوا بأجمعهم: الله الله معشر العرب في النساء والبنات الله الله دينكم هذا كتاب الله بيننا وبينكم. فقال عليه السلام : اللّهم إنّك تعلم أنّهم ما الكتاب يريدون فاحكم بيننا وبينهم إنّك أنت الحكم الحقّ المبين، وحينئذ اختلف أصحابه فقالت طائفة: القتال القتال، وقال أكثرهم: المحاكمة إلى الكتاب ولا يحلّ لنا الحرب وقد دعينا إلى حكم الكتاب وتنادوا من كلّ جانب الموادعة فقال عليه السلام في جوابهم: أيّها الناس إنّي أحقّ من أجاب إلى كتاب الله ولكن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن إنّي أعرف بهم منكم صحبتهم صغاراً ورجالاً فكانوا شرّ صغار وشرّ رجال ويحكم إنّها كلمة حقّ يراد بها الباطل إنّهم ما رفعوها إنّهم يعرفونها ولا يعملون بها ولكنّها الخديعة والمكيدة والوهن أعيروني سواعدكم وجماجمكم ساعةً واحدة فقد بلغ الحقّ مقطعه ولم يبق إلاّ أن يقطع دابر القوم الظالمين، فجاءه عشرون ألفاً من أصحابه ونادوه باسمه دون إمرة المؤمنين: أجب اليوم إلى كتاب الله إذا دعيت وإلاّ قتلناك كما قتلنا عثمان. فقال عليه السلام : ويحكم أنا أوّل من أجاب إلى كتاب الله، وأوّل من دعا إليه فكيف لا أقبله وإنّما قاتلتهم ليدينوا بحكم القرآن ولكني قد أعلمتكم أنّهم قد كادوكم وليس العمل بالقرآن يريدون. فقالوا: ابعث إلى الأشتر يأتيك. وقد كان الأشتر صبيحة ليلة الهرير قد أشرف على عسكر معاوية ليدخله ولاح له الظفر فبعث إليه فرجع على كره منه ووقع بينه وبين من أجاب إلى الحكومة من أصحاب عليّ عليه السلام مسابّ ومجادلات على ما اختاروا من ترك الحرب وتنادوا من كلّ جانب رضي أمير المؤمنين بالتحكيم وكتبوا عهداً على الرضا به، وسنذكر كيفيته إجمالاً إنشاء الله تعالى. وبالله التوفيق.

٣٥ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

(في تخويف أهل النهروان)

فَأَنَا نَذِيرُكُمْ أَنْ تُصْبِحُوا صَرْعَى بِأَثْنَاءِ هٰذَا النَّهْرِ، وَبِأَهْضَامِ هٰذَا الْغَائِطِ

عَلَى غَيْرِ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُم، وَلاَ سُلْطَانٍ مُبِينٍ مَعَكُمْ: قَدْ طَوَّحَتْ بِكُمُ الدَّارُ وَاحْتَبَلَكُمُ الْمِقْدَارُ، وَقَدْ كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ هٰذِهِ الْحُكُومَةِ فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ الْمُخَالِفِينَ الْمُنَابِذِينَ، حَتَّى صَرَفْتُ رَأْيِي إِلَى هَوَاكُمْ، وَأَنْتُمْ مَعَاشِرُ أَخِفَّاءُ الْهَامِ، سُفَهَاءُ الْأَحْلاَمِ، وَلَمْ آتِ ـ لاَ أَبَالَكُمْ ـ بُجْراً وَلاَ أَرَدْتُ لَكُمْ ضُرّاً.

أقول: الخطاب للخوارج الذين قتلهم عليه‌السلام بالنهروان، وقد كان القضاء الإلٓهي سبق فيهم بما كان منهم من الخروج. روي في صحيح الأخبار أنّ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بينا هو يقسم قسماً جاءه رجل من بني تميم يقال له ذو الخويصرة فقال: اعدل يا محمد فقال صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم: قد عدلت. فقال له ثانية: اعدل يا محمد فإنّك لم تعدل. فقال صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم: ويلك من يعدل إذا لم أعدل. فقام عمر وقال: يا رسول الله ائذن لي في ضرب عنقه. فقال: دعه فسيخرج من ضئضىء هذا قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية يخرجون على خير فرقة من الناس تحتقر صلاتكم عند صلاتهم وصومكم عند صومهم يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم فيهم رجل أسود مخدج اليد إحدى يديه كأنّها ثدي امرأة أو بضعة يقتله أولى الفريقين بالحقّ. وفي مسند أحمد عنه عن مسروق قال: قالت لي عائشة: إنّك من ولدي وأحبّهم إلي فهل عندك علم من المخدج. فقلت: نعم قتله علي بن أبي طالب على نهر يقال لأعلاه تامر ولأسفله النهروان بين لخاقيق وطرفاء. فقالت: ايتني على ذلك بيّنة. فأقمت على ذلك رجالاً شهدوا عندها بذلك ثمّ قلت لها: سألتك بصاحب القبر ما الذي سمعت منه فيهم. فقالت: سمعته يقول: إنّهم شرّ الخلق والخليقة يقتلهم خير الخلق والخليقة. وأقربهم عند الله وسيلة. فأمّا سبب خروج هؤلاء القوم فهو أنّه عليه‌السلام لمّا قهره أصحابه على التحكيم وأظهروا عنه الرضى به بعد أنّ حذّرهم ووعظهم فلم يلتفتوا كتبوا كتاب التحكيم وأخذه الأشعث بن قيس فطاف به على أصحاب معاوية فرضوا به، وطاف به على أصحاب علي فرضوا به حتى مرّ برايات عنزة وكان مع علي عليه‌السلام منهم بصفّين أربعة آلاف فارس فلمّا قرأ الكتاب عليهم قال فتيان منهم: لا حكم إلّا لله ثمّ حملا على أصحاب معاوية فقتلا فهما أوّل من حكم، ثمّ مرّ على مراد، ثمّ على رايات

بني راسب، ثمّ على بني تميم فكلّ فرقة قرأه عليهم قالوا: لا حكم إلاّ لله لا نرضى ولا نحكّم الرجال في دين الله فرجع الأشعث فأخبر عليّا عليه السلام بذلك فاستصغر أمرهم وظنّ أنّهم قليلون، فلمّا بلغهم أمر الحكمين ما راعه إلاّ والناس يتنادون من كلّ جانب لا حكم إلاّ لله الحكم لله يا علي لا لك وقد كنّا أخطأنا حين رضينا بالحكمين فرجعنا إلى الله وتبنا فارجع أنت وتب إلى الله كما تبنا وإلاّ برئنا منك. فأبى عليه السلام الرجوع، وقال: ويحكم أبعد العهد نرجع فما نصنع بقوله تعالى: ﴿**أوفوا بعهد الله إذا عاهدتم**﴾[1] الآية وأبت الخوارج إلاّ تضليل التحكيم والطعن فيه فبرئوا من علي وبرىء منهم ثمّ كان اجتماعهم بحرور فسمّاهم عليه السلام لذلك الحروريّة فناظرهم بها فرجع منهم ألفان ثمّ مضوا إلى النهروان وكان أميرهم يومئذ عبد الله بن الكوّا، وحين القتال عبد الله ابن وهب الراسبي فسار إليهم فخطبهم وقال: نحن أهل بيت النبوّة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة وعنصر الرحمة ومعدن العلم والحكمة أيّها القوم إنّي نذير لكم. الفصل، وروي أنّه عليه السلام لمّا قتلهم طلب ذو الثدية فيهم طلباً شديدا فلم يجده فجعل يقول: والله ما كذبت ولاكذبت اطلبوا الرجل وإنّه لفي القوم. فلم يزل يطلبه حتى وجده في وهدة من الأرض تحت القتلى وهو رجل مخدج اليد كأنّها ثدي في صدره وعليها شعرات كسبال الهرّة فكبّر علي عليه السلام وكبّر الناس معه وسرّوا بذلك.

الأهضام: جمع هضم وهو المطمئنّ من الوادي. والغائط: ما سفل من الأرض. وطوّحت بكم: أي توّهتكم في أموركم ورمت بكم المرامي. واحتبلكم: أوقعكم في الحبالة. والنكر: المنكر، ويروى بحراً. والبحر: الأمر العظيم والداهية، ويروى هجرا: وهو الساقط من القول، ويروى عرّا. والعرّ والمعرّة: الإثم. والعرّ أيضاً: داء يأخذ الإبل في مشافرها ويستعار للداهية.

واعلم أن حاصل هذا الفصل تحذير للقوم من الهلاك وهم على غير

(١) ١٦ - ٩٣.

بيّنة من ربّهم ولا حجّة واضحة يحتجّون بها على ما يدّعونه حقا ويقاتلون عليه وذلك ممّا يجب الحذر منه إذ فيه حرمان سعادة الدارين، وإنّما سمّيت الحجّة نفسها سلطاناً لأنّ بها الغلبة والتسلّط وهو من باب الاستعارة.

وقوله: قد طوّحت بكم الدار.

كنّى بالدار عن الدنيا وإنّما نسب هلاكهم أو إبعادهم ورميهم إليها لأنّ المهلك لهم والموجب لتيههم إنّما هو اتّباع أهوائهم الباطلة التي منشأها إنّما هو تحصيل أمر دنيويّ من مال أو جاهٍ ونحوه فكانت الدنيا هي التي رمت بهم المرامي عن رحمة الله وأخرجتهم عن طاعته.

وقوله: واحتبلكم المقدار.

استعارة حسنة لإحاطة القدر النازل عن قضاء الله بهم فهو كحبالة الصائد التي لا يخرج الطائر منها إذا نزلت به.

وقوله: كنت نهيتكم عن هذه الحكومة. إلى قوله: إلى هواكم.

تقرير للحجّة عليهم وكأنّه يقول لهم: إن كان الحقّ هو عدم الحكومة فلم طلبتموها وأبيتم عليّ إباء المخالفين المنابذين لمّا نهيتكم عنها حتى صرت إلى أهوائكم فيها، وإن كان الحقّ هو إيقاعها فلم شاققتموني الآن لمّا أوقعتها وجعلت لله عليّ بها عهداً. وعلى التقديرين يلزمهم الخطأ.

وقوله: وأنتم معاشر أخفّاء الهام سفهاء الأحلام.

الواو للحال والعامل صرفت، والإضافة في أخفّاء وسفهاء غير محضة ولذلك صحّ كونهما وصفين لمعاشر، وخفّة الهامة كناية عن رذيلة الطيش المقابلة لفضيلة الثبات، والسفه رذيلة مقابلة للحلم، والثبات والحلم فضيلتان تحت ملكة الشجاعة، ولمّا كانت لهاتين الرذيلتين نسبة إلى الفضيلتين صحّ إضافتها إليهما.

وقوله: ولم آت ـ لا أبا لكم ـ نكراً ولا أردت بكم ضرّاً.

خرج مخرج الاعتذار إليهم واستدراجهم ببيان تحسين فعله ونفي المنكر

عنه وعدم قصد الإساءة إليهم ليرجعوا عمّا شبّه إليهم، وقوله: لا أباً لكم كلمة اعتيدت في ألسنة العرب. قال الجوهري: يراد بها المدح، وقال غيره: يراد بها الذمّ فإنَّ عدم اللحوق بأب يستلزم العار والسبّة، وقيل: هي دعاء على المرء أن لا يكون له أب يعزّه ويشدّ ظهره ونفي الأب يستلزم نفي العشيرة له فكأنّه دعاء بالذل وعدم الناصر . والله أعلم .

٣٦ـ ومن كلام له (عليه السلام)
يجري مجرى الخطبة

فَقُمْتُ بِالأَمْرِ حِينَ فَشِلُوا، وَتَطَلَّعْتُ حِينَ تَقَبَّعُوا، وَنَطَقْتُ حِينَ تَمَنَّعُوا وَمَضَيْتُ بِنُورِ آللهِ حِينَ وَقَفُوا. وَكُنْتُ أَخْفَضَهُمْ صَوْتاً، وَأَعْلاَهُمْ فَوْتاً فَطِرْتُ بعنانها ، وَآسْتَبْدَدْتُ بِرِهَانِهَا، كَالْجَبَلِ لاَ تُحَرِّكُهُ ٱلْقَوَاصِفُ، وَلاَ تُزِيلُهُ ٱلْعَوَاصِفُ: لَمْ يَكُنْ لأَحَدٍ فِيَّ مَهْمَزٌ، وَلاَ لِقَائِلٍ فِيَّ مَغْمَزٌ، اَلذَّلِيلُ عِنْدِي عَزِيزٌ حَتَّى آخُذَ ٱلْحَقَّ لَهُ، والقَوِيُّ عِنْدِي ضَعِيفٌ حَتَّى آخُذَ ٱلْحَقَّ مِنْهُ، رَضِينَا عَنِ آللهِ قَضَاءَهُ، وَسَلَّمْنَا للهِ أَمْرَهُ، أَتُرَانِي أَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ آللهِ صَلَّى آللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ؟ وَآللهِ لأَنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَهُ فَلاَ أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ كَذَبَ عَلَيْهِ. فَنَظَرْتُ فِي أَمْرِي فَإِذَا طَاعَتِي قَدْ سَبَقَتْ بَيْعَتِي، وَإِذَا ٱلْمِيثَاقُ فِي عُنُقِي لِغَيْرِي.

أقول: التعتعة: الاضطراب في الكلام عند الحصر. وتطلّع الأمر: اختباره وتعرّفه والتقبّع: التقبّض. يقال: قبع القنفذ إذا قبض رأسه بين كتفيه. والاستبداد: الانفراد. والرهان: ما يرهن ويستبق عليه. والهمز: الغيبة بالعيب، وكذلك الغمز.

قال بعض الشارحين: هذا الفصل فيه فصول أربعة التقطها الرضي رحمه الله من كلام طويل له عليه السلام قاله بعد وقعة النهروان ذكر فيه حاله منذ توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى آخر وقته.

الفصل الأوّل: فقمت بالأمر حين فشلوا. إلى قوله: برهانها.

هذا الكلام ورد في معرض افتخاره وإثبات فضيلته على سائر الصحابة

لغاية قبول رأيه. فقيامه بالأمر حين فشلهم إشارة إلى فضيلة شجاعته: أي فقمت بأمر الله بين يدي رسوله وبعده في الحروب والمقامات الصعبة التي ضعفوا عنها والأوقات التي فشلوا فيها وأمره في ذلك ظاهر.

وقوله: ونطقت حين تعتعوا [تمنّعوا خ].

إشارة إلى ملكة الفصاحة المستتبعة لملكة العلم: أي نطقت في القضايا المهمّة والأحكام المشكلة والمقاول التي حصرت فيها بلغاؤهم، فكنّى بنطقه وتعتعتهم عن فصاحتهم وعيّهم.

وقوله: تطلّعت حين تقبّعوا.

إشارة إلى كبر الهمّة في تحصيل ما ينبغي للإنسان أن يحصّله من تعرّف الأمور واختبارها والنظر في مصادرها ومواردها؛ وهي ملكة تحت الشجاعة، ولمّا كان التطّلع على الأمر يحتاج الإنسان فيه إلى نحو من التطاول ومدّ العنق وتحديق العين ونحوه، وكان تعرّف الأمور واختبارها لا بدّ فيه من بعث رائد الفكر الذي هو عين النفس التي بها يبصر وتحديقه نحو الأمور المعقولة وإرسال المتخيّلة لتفتيش خزائن المحسوسات أشبه ذلك التطلّع فاستعار له لفظ التطلّع وكنّى به عنه، وقوله: حين تقبّعوا. أي كان تعرّفي للأمور حين قصورهم عن ذلك، ولمّا كان التقبّع يقابل مدّ العين والتطاول إلى رؤية الأشياء المسمّى تطلّعا، وكان قصور أفكارهم وعدم اعتبارهم للأشياء يقابل مدّ الفكر وتطاول الذهن إلى معرفة الأمور وكان قصور الفكر أيضاً والعجز عن المعرفة يشبه التقبّع استعار لفظ التقبّع وكنّى به عنه.

وقوله: ومضيت بنور الله حين وقفوا.

إشارة إلى فضيلة العلم أي كان سلوكي لسبيل الحقّ على وفق العلم وهو نور الله الذي لا يضلّ من اهتدى به. وذلك حين وقفوا حائرين متردّدين جاهلين بالقصد وكيفيّة سلوك الطريق. وإنّما أثبت لنفسه هذه الفضائل وقرن كلّ فضيلة له برذيلة فيهم يقابلها لتبيّن فضله بالنسبة إليهم إذ كان الغرض ذلك.

وقوله: وكنت أخفضهم صوتاً وأعلاهم صوتاً.

كنّى بخفض الصوت عن ربط الجأش في الأمور والثبات فيها والتصميم على فعل ما ينبغي من غير التفات إلى الحوادث [الجواذب خ] والموانع على فعل ما هو خير ومصلحة فإنّ كثرة الأصوات وعلّوها في الأفعال التي هي مظنّة الخوف دليل الفشل، ولا شكّ أنّ من كان أشدّ في ذلك كان أعلى صوتاً وأشدّ سبقا إلى مراتب الكمال ودرجات السعادة ممّن كان أضعف فيه.

وقوله: فطرت بعنانها واستبددت برهانها.

الضميران يعودان إلى الفضيلة وإن لم يجر لها ذكر لفظي فاستعار هاهنا لفظ الطيران للسبق العقليّ لما يشتركان فيه من معنى السرعة، استعار لفظي العنان والرهان اللذين هما من متعلّقات الخيل للفضيلة التي استكملتها نفسه تشبيهاً لها مع فضائل نفوسهم بخيل الحلبة، ووجه المشابهة أنّ الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ لمّا كانوا يقتنون الفضائل ويستبقون بها إلى رضوان الله وسعادات الآخرة كانت فضائلهم التي عليها يستبقون كخيل الرهان، ولمّا كانت فضيلته عليه السلام أكمل فضائلهم وأتمّها كانت بالنسبة إلى فضائلهم كالفرس الذي لا يشقّ غباره. فحسن منه أن يستعير لسبقه بها لفظ الطيران، ويجري عليها لفظ العنان والرهان.

الفصل الثاني: قوله: لا تحرّكه القواصف. إلى قوله: آخذ الحقّ منه.

وهذا الفصل يحكي فيه قيامه بأعباء الخلافة حين انتهائها إليه وجريه فيها على القانون العدل والأوامر الإلهيّة. فقوله: كالجبل. تشبيه له في الثبات على الحقّ بالجبل فكما لا تحرّكه قواصف الرياح وعواصفها كذلك هو لا تحرّكه عن سواء السبيل مراعاة هوى لأحد أو اتّباع طبع يخالف ما يقتضيه سنّة الله وشرعه بل هو ثابت على القانون العدل وموافقة الأمر الإلهي.

وقوله: لم يكن لأحد فيّ مهمز ولا لقائل فيّ مغمز.

أي لم يكن فيّ عيب أعاب به. وقد راعى في هذه القرائن الأربع مع الأربع الأخيرة من الفصل الأوّل السجع المتوازي.

وقوله: الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحقّ له.

إعزازه للذليل اعتناؤه بحاله واهتمامه بأمر ظلامته، ومن اعتنى بحال إنسان فقد أعزّه ثمّ جعل لإعزازه غاية هي أخذ الحقّ له، وكذلك قوله: والقويّ عندي ضعيف حتى آخذ الحقّ منه، فإنّ ضعف القوي هو قهره تحت حكمه إلى غاية يستوفي منه حقّ المظلوم.

فإن قلت: يفهم من هاتين الغايتين أنّ نظره إلى الذليل بعد استيفاء حقّه وإلى القويّ بعد أخذ الحقّ منه لا يكون على السواء بل يكون التفاته إلى القويّ أكثر وذلك ليس من العدل.

قلت: إنّه لمّا لم يكن الغرض من الأمر بمساواة النظر بين الخلق إلاّ أخذ حقّ الضعيف من القويّ وعدم التظالم بينهم لم تجب مساواة النظر بين الضعيف والقويّ إلاّ من تلك الجهة. ولم يكن إعزازه وإكرامه في غير وجه الظلم قبيحاً لجواز انفراده بفضيلةيوجب إعزازه من جهة الدين أيضاً.

الفصل الثاني: قوله: رضينا عن الله قضاءه وسلّمنا له أمره. إلى قوله: من كذب عليه.

قيل: ذكر ذلك عليه السلام لما تفرّس في طائفة من قومه أنّهم يتّهمونه فيما يخبرهم به عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من أخبار الملاحم في الأمور المستقبلة، وقد كان منهم من يواجهه بذلك كما روي أنّه لمّا قال: سلوني قبل أن تفقدوني فوالله لا تسألوني عن فئة تضلّ مائة وتهدي مائة إلاّ أنبأتكم بناعقها وسائقها. قام إليه أنس النخعيّ فقال: أخبرني كم في رأسي ولحيتي طاقة شعر. فقال عليه السلام: والله لقد حدّثني حبيبي أنّ على كلّ طاقة شعر من رأسك ملكاً يلعنك، وأنّ على كلّ طاقة شعر من لحيتك شيطاناً يغويك، وأن في بيتك سخلاً يقتل ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكان ابنه سنان بن أنس قاتل الحسين عليه السلام يومئذ طفلا يحبو، وسيأتي بعض تلك الأخبار.

فقوله: رضينا عن الله قضاءه وسلّمنا له أمره.

قد عرفت أن الرضا بقضاء الله والتسليم لأمره باب من أبواب الجنّة

يفتحه الله لخواصّ أوليائه، ولمّا كان عليه السلام سيّد العارفين بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكان قلم القضاء الإلهي قد جرى على قوم بالتكذيب له والتهمة فيما يقول لا جرم هو كان عليه السلام أولى الناس بلزوم باب الرضا.

وقوله: أتراني أكذب. إلى قوله: عليه.

استنكار لما صدر منهم في حقّه من التكذيب، وإيراد حجّة لبطلان أوهامهم في حقّه بصورة قياس الضمير مع نتيجته، وتقديره والله لأنا أوّل من صدّقه وكلّ من كان أوّل مصدّق له فلن يكون أوّل مكذّب له ينتج أنّي لا أكون أوّل مكذّب له.

الفصل الرابع: قوله: فنظرت في أمري. إلى آخره.

فيه احتمالان: أحدهما قال بعض الشارحين: إنّه مقطوع من كلام يذكر فيه حاله بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأنّه كان معهوداً إليه أن لا ينازع في أمر الخلافة بل إن حصل له بالرفق وإلّا فليمسك. فقوله: فنظرت فإذا طاعتي قد سبقت بيعتي: أي طاعتي لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما أمرني به من ترك القتال قد سبقت بيعتي للقوم فلا سبيل إلى الامتناع منها.

وقوله: وإذا الميثاق في عنقي لغيري.

أي ميثاق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعهده إليّ بعد المشاقّة، وقيل: الميثاق ما لزمه من بيعة أبي بكر بعد ايقاعها: أي فإذا ميثاق القوم قد لزمني فلم يمكنني المخالفة بعده.

الإحتمال الثاني: أن يكون ذلك في تضجّره وتبرّئه من ثقل أعباء الخلافة، وتكلّف مداراة الناس على اختلاف أهوائهم. ويكون المعنى إنّي نظرت فإذا طاعة الخلق لي واتّفاقهم عليّ قد سبقت بيعتهم لي، وإذا ميثاقهم قد صار في عنقي فلم أجد بدّاً من القيام بأمرهم ولم يسعني عند الله إلّا النهوض بأمرهم ولو لم يكن كذلك لتركت كما قال من قبل: أما والله لولا حضور الحاضر وقيام الحجّة بوجود الناصر وما أخذ الله على العلماء أن لا يقارّوا على كظّة ظالم ولا سغب مظلوم لألقيت حبلها على غاربها، ولسقيت

آخرها بكأس أوّلها. والأوّل أشهر بين الشارحين. والله أعلم بالصواب.

٣٧ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

وَإِنَّمَا سُمِّيَتِ ٱلشُّبْهَةُ شُبْهَةً لِأَنَّهَا تُشْبِهُ ٱلْحَقَّ: فَأَمَّا أَوْلِيَاءُ ٱللهِ فَضِيَاؤُهُمْ فِيهَا ٱلْيَقِينُ، وَدَلِيلُهُمْ سَمْتُ ٱلْهُدَى، وَأَمَّا أَعْدَاءُ ٱللهِ فَدُعَاؤُهُمْ فِيهَا ٱلضَّلَالُ، وَدَلِيلُهُمُ ٱلْعَمَى، فَمَا يَنْجُو مِنَ ٱلْمَوْتِ مَنْ خَافَهُ، وَلَا يُعْطَى ٱلْبَقَاءَ مَنْ أَحَبَّهُ.

أقول: يحتمل أن يكون هذا الكلام فصلين:

أحدهما: قوله: وإنّما سمّيت الشبهة. إلى قوله: ودليلهم العمى، والثاني: الباقي. فالفصل الأول إشارة إلى علّة تسمية الشبهة شبهة، ثمّ إلى بيان حال الناس فيها.

أمّا الأوّل: فالشبهة عبارة عمّا يشبه الحقّ ممّا يحتجّ به إمّا في صورته أو في مادّته أو فيهما معاً، وظاهر أنّ علّة تسميتها شبهة هو ذلك الشبه. فلذلك حصرها فيه.

وأمّا الثاني: فلأنّ الناس إمّا أولياء الله أو أعداء له. أمّا أولياؤه فلمّا كانت نفوسهم مشرقة بنور اليقين مستضيئة بمصباح النبوّة في سلوك الصراط المستقيم كان بتلك الأنوار هدى أذهانهم في ظلمات الشبهات وحرزهم عن الهوي في مهاوي الجهالات كما قال تعالى: ﴿**يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشريكم اليوم جنّات تجري من تحتها الأنهار**﴾[1] الآية. وهو الهدى المأمور بلزوم سمته والسلوك إلى المطالب الحقّة، وهو المراد بقوله: فضياؤهم فيها اليقين، ودليلهم سمت الهدى، وأمّا أعداؤه فليس دعاؤهم إلى ما يدعون إليه إلّا ضلالاً عن القصد القويم، وإضلالاً للخلق عن الطريق الحقّ وليس ما يعتمدونه دليلاً يزعمون أنّهم يهدون به السبيل إلّا شبهة هي في نفسها عمى لأبصارهم [لبصائرهم خ] عن مطالعة نور الحقّ وطمس لأذهان من استجاب لهم عند اهتداء سلوك سبيل الله ومن لم يجعل الله له

(١) ٥٧ ـ ١٢.

نوراً فما له من نور.

وأمّا الفصل الثاني: وهو قوله: فما ينجو. إلى آخره.

فصدق القضيّة الأولى قوله تعالى: **﴿قل إنّ الموت الذي تفرّون منه فإنّه ملاقيكم﴾**(١) وقوله: **﴿أينما تكونوا يدرككم الموت﴾**(٢) الآية. وحاصله التذكير بهادم اللذّات، والتخويف بذكره، والتنفير عن محبّة ما لا بدّ من زواله ليفرغ السامعون إلى العمل لما بعده إن أخذ التوفيق بأزمّة عقولهم فإنّ خوفه ومحبّة ضدّه وهو البقاء لا ينفعان في الخلاص منه لكونه ضروريّاً في الطبيعة، ويحتمل أن يكون الكلام متّصلاً ويكون الفصل الثاني قد سبق له قبل الأوّل كلام يحسن تعلّقه به، وبالله التوفيق.

٣٨ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

مُنِيتُ بِمَنْ لاَ يُطِيعُ إذَا أَمَرْتُ، وَلاَ يُجِيبُ إذَا دَعَوْتُ، لاَ أَبَالَكُمْ مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ رَبَّكُمْ؟ أَمَادِينٌ يَجْمَعُكُمْ، وَلاَ حَمِيَّةٌ تُحْمِشُكُمْ، أَقُومُ فِيكُمْ مُسْتَصْرِخاً، وَأُنَادِيكُمْ مُتَغَوِّثاً، فَلاَ تَسْمَعُونَ لِي قَوْلاً، وَلاَ تُطِيعُونَ لِي أَمْراً، حَتَّى تَكَشَّفَ ٱلْأُمُورُ عَنْ عَوَاقِبِ ٱلْمَسَاءَةِ، فَمَا يُدْرَكُ بِكُمْ ثَارٌ، وَلاَ يُبْلَغُ بِكُمْ مَرَامٌ؛ دَعَوْتُكُمْ إِلَى نَصْرِ إِخْوَانِكُمْ فَجَرْجَرْتُمْ جَرْجَرَةَ ٱلْجَمَلِ ٱلْأَسَرِّ وَتَثَاقَلْتُمْ تَثَاقُلَ ٱلنِّضْوِ ٱلْأَدْبَرِ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَيَّ مِنْكُمْ جُنَيْدٌ مُتَذَائِبٌ ضَعِيفٌ (كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ).

أقول: يروى أنّ هذه الخطبة خطب بها عليه السلام في غارة النعمان بن بشير بعين التمر. والسبب أنّ معاوية بعث النعمان بن بشير في ألفي فارس لإرهاب أهل العراق فأقبل حتى دنا من عين التمر، وكان عاملها يومئذ من قبل عليّ عليه السلام مالك بن كعب الأرجيّ ولم يكن معه إذ ذاك سوى مائة رجل ونحوها فكتب مالك إليه عليه السلام يعلمه الخبر. فصعد المنبر فحمد الله وأثنى

---

(١) ٦٣ ـ ٨

(٢) ٤ ـ ٨٠.

عليه ثمّ قال: اخرجوا هداكم الله إلى مالك بن كعب أخيكم فإنّ نعمان ابن بشير قد نزل به في جمع من أهل الشام ليس بالكثير فانهضوا إلى إخوانكم لعلّ الله يقطع بكم طرفاً من الكافرين. ثمّ نزل فتثاقلوا فأرسل إلى وجوههم فأمرهم بالنهوض فتثاقلوا ولم يجتمع منهم إلّا نفر يسير نحو ثلاث مائة رجل فقام عليه السلام وقال : [ألا إنّي منيت . الفصل ، ويروى أن الدائرة كانت لمالك بمن معه على النعمان وجمعه .

منيت: أي ابتليت. ويحمشكم: أي يغضبكم. والمستصرخ: المستجلب بصوته من ينصره. والغوث: الصوت يستصرخ به، وقيل: هو قول الرجل: واغوثاه. والثار: الذحل .

والجرجرة : ترديد صوت البعير في ضجرته عن عسفه . والسرّ : داء يأخذ البعير في سرّته يقال منه جمل أسرّ. والنضو من الإبل : البالي من تعب السير . والأدبر : الذي به دبر وهي القروح في ظهره . وفي الفصل مطالب :

الأوّل: قوله: منيت بمن لا يطيع. إلى قوله: دعوت.

وهو إظهار لعذر نفسه على أصحابه لينسب إليهم التقصير دونه ويقع عليهم لائمة غيرهم.

الثاني: قوله: لا أبالكم. إلى قوله: مرام.

وهو استنهاض لهم إلى نصرة الله بسؤالهم عن سبب تثاقلهم عن نصرته والذبّ عن دينه سؤالاً على سبيل الإنكار للسبب، وتنبيه لهم على الأسباب التي توجب اجتماعهم لنصرة الله والغضب له بسؤالهم عنها هل هي موجودة لهم أم لا سؤالاً على سبيل الإنكار أيضاً إذ هم يدّعون وجودها لهم وهي الدين الّذي أمروا بلزومه والاتّحاد فيه كما قال تعالى: **﴿وما أمروا إلّا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾**[1] الآية. ثمّ الحميّة وهي ملكة تحت الشجاعة، وكذلك قوله: أقوم فيكم. إلى قوله: أمراً. من الأسباب الباعثة

---

(1) ٩٨ - ٤.

لهم أيضاً على الاجتماع فإنّ ذكر حاله من استصراخه لهم واستغاثته بهم مع ذكر حالهم في مقابلة ذلك من تثاقلهم عن ندائه وعدم طاعتهم له ممّا ينبّئهم على خطأهم وتقصيرهم.

وقوله: حتى تكشّف الأمور عن عواقب المساءة.

ذكر لغاية تثاقلهم عن دعوته وتنبيه بذكر استعقابه للمساءة على خطأهم فيه، وكذلك قوله: فما يدرك بكم ثار ولا يبلغ بكم مرام. عتاب وتوبيخ يبعث طباع العرب على التآلف في النصرة إذ من شأنهم ثوران الطباع بمثل هذه الأقوال.

وقوله: دعوتكم. إلى قوله: الأدبر.

استعار لفظ الجرجرة لكثرة تملّلهم وقوّة تضجّرهم من ثقل ما يدعوهم إليه، ولمّا كانت جرجرة الجمل الأسرّ أشدّ من جرجرة غيره لاحظ شبه ما نسبه إليهم من التضجّر بها. وكذلك تشبيهه تثاقلهم بتثاقل النضو الأدبروذكرهم ما دعاهم إليه من نصرة إخوانهم أعني أصحاب مالك بن كعب المذكور وجوابهم له بالتبرّم من ذلك والتثاقل ثمّ أردف ذلك بتصغير من خرج منهم من الجند ووصفه بالاضطراب والضعف. وتشبيههم بمن يساق إلى الموت وهو ينظر في تثاقله واضطرابه وضعفه عن الحركة إلى ما يساق إليه لشدّة خوفه. كلّ ذلك ذمّ وتوبيخ يستثير به طباعهم عمّا هي عليه من التثاقل عن ندائه والتقصير في إجابة دعائه. وبالله التوفيق.

٣٩ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

في الخوارج لماسمع قولهم : لا حكم إلا لله ؛ قال عليه السلام: كَلِمَةُ حَقٍّ يُراد بِهَا الْبَاطِلُ!! نَعَمْ إِنَّهُ لَا حُكْمَ إِلَّا للهِ، وَلٰكِنْ هٰؤُلاءِ يَقُولُونَ: لَا إِمْرَةَ إِلَّا للهِ، وَإِنَّهُ لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِيرٍ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ، يَعْمَلُ فِي إِمْرَتِهِ الْمُؤْمِنُ، وَيَسْتَمْتِعُ فِيهَا الْكَافِرُ، وَيُبَلِّغُ اللهُ فِيهَا الْأَجَلَ، وَيُجْمَعُ بِهِ الْفَيْءُ، وَيُقَاتَلُ بِهِ الْعَدُوُّ، وَتَأْمَنُ بِهِ السُّبُلُ، وَيُؤْخَذُ بِهِ لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ حَتَّى يَسْتَرِيحَ بَرٌّ وَيُسْتَرَاحَ مِنْ فَاجِرٍ.

وفي رواية أخرى أنه عليه السلام لما سمع مع تحكيمهم قال : حُكْمَ ٱللهِ أَنْتَظِرُ فِيكُمْ . وقال : أَمَّا ٱلإِمْرَةُ الْبَرَّةُ فَيَعْملُ فِيهَا التَّقِيُّ ؛ وأَمَّا الإِمْرَةُ الْفَاجِرَةُ فَيَتَمَتَّعُ فِيهَا الشَّقِيُّ ، إِلَى أن تَنْقَطِعَ مُدَّتُهُ ، وَتُدْرِكَهُ مَنِيَّتُهُ .

أقول: قوله: كلمة حقّ يراد بها الباطل. هذه كلمة ردّ لما انغرس في أذهان الخوارج من حقيّة دعاء أصحاب معاوية إلى كتاب الله: أي أنّ دعاءهم لكم إلى كتاب الله كلمة حقّ لكن ليس مقصودهم بها كتاب الله بل غرض آخر باطل وهو فتور الحرب عنهم وتفرّق أهوائكم ونحوه ممّا لا يجوز أن يفعل .

قوله: لا حكم إلاّ لله .

تصديق لقولهم لكن لما عليه الكلمة في نفس الأمر لا لما رأوه حقّاً من ظاهرها فإنّ حصر الحكم ليس بحقّ على معنى أنّه ليس للعبد أن يحكم بغير ما نصّ كتاب الله عليه فإنّ أكثر الأحكام الفروعيّة غير منصوص عليها مع أنّها أحكام الله بل تكون منتزعة بحسب الاجتهاد وسائر طرقها لمن كان أهلاً لذلك، ويجب على من ليس له أهليّة الاجتهاد امتثالها ، ولمّا تصوّر الخوارج تلك الكلمة بمعنى أنّه لا يصحّ حكم لم يوجد في كتاب الله ولا يجوز امتثاله والعمل به لا جرم قال: نعم لا حكم إلاّ لله لكن هؤلاء القوم يقولون: لا إمرة: أي لمّا نفوا أن يكون لغير الله حكم لم ينصّ عليه فقد نفوا الإمرة لأنّ استنباط الأحكام والنظر في وجوه المصالح من لوازم الإمرة التي هي حال الأمير في رعيّته، ونفي اللازم يستلزم نفي الملزوم، ولمّا كانوا قد نفوا الإمرة كذّبهم عليه السلام بقوله: ولا بدّ للناس من أمير برّ أو فاجر. فكان جملة الكلام في معنى شرطيّة متّصلة هكذا: إذا قالوا لا حكم إلاّ لله كما تصوّروه فقد قالوا بنفي الإمرة لكنّ القول بنفي الإمرة باطل فالقول بنفي الحكم إلاّ لله كما تصوّروه باطل. فقوله: ولا بدّ للناس من أمير. في معنى استثناء نقيض تالي المتّصلة، وتقريره: أنّ الإنسان خلق ممنوّا بمقارنة النفس الأمّارة بالسوء محتاجاً إلى مجموع قوى في بدنه هي منابع الشرّ. فأهواء الخلق لذلك مختلفة، وقلوبهم متفرّقة فكانت طبيعة نظام أحوالهم في معاشهم وبقائهم محوجة إلى سلطان قاهر تأتلف برهبته الأهواء، وتجتمع بهيبته القلوب،

وتنكفّ بسطوته الأيدي العادية إذ في طباع الخلق من حبّ المغالبة على ما آثروه، والقهر لمن عاندوه ما لا ينكفوّن عنه إلّا بمانع قوي ورادع مليّ. وقد أفصح المتنبّي عن ذلك حيث يقول:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتّى يراق على جوانبه الدم
والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلّة لا يظلم

وهذه العلّة المانعة من الظلم عند الاستقراء ترجع إلى أمور أربعة: إمّا عقل زاجر، أو دين حاجز، أو عجز مانع، أو سلطان رادع. والسلطان القاهر أبلغها نفعاً لأنّ العقل والدين ربّما كانا مغلوبين بدواعي الهوى فيكون رهبة السلطان أقوى ردعا وأعمّ نفعاً وإن كان جائرا فإنّه روي عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: إنّ الله ليؤيّد هذا الدين بقوم لا خلاق لهم في الآخرة، وروي: بالرجل الفاسق، وروي عنه أنه قال: الإمام الجائر خير من الفتنة فكلّ لا خير فيه وبعض الشرّ خيار: أي وأنّ وجود الإمام وإن كان جائرا خير من عدمه المستلزم لوجود الفتنة ووقوع الهرج والمرج بين الخلق إذ كان بوجوده صلاح بعض الأمور على أنه وإن كان لا خير فيه أيضاً من جهة ما هو جائر كما قال: وكلّ لا خير فيه إلّا أنّ هيبته ووجوده بين الخلق ممّا يوجب الانزجار عن إثارة الفتن ويكون ذلك خيراً وقع في الوجود بوجوده لا يحصل مع عدمه فوجوده مطلقا واجب وذلك معنى قوله عليه السلام: لا بدّ للناس من أمير برّ أو فاجر.

وقوله: يعمل في إمرته المؤمن ويستمتع فيها الكافر.

الضمير في إمرته لمّا عاد إلى الأمير، وكان لفظ الأمير محتملاً للبرّ والفاجر كان المراد بالإمرة التي يعمل فيها المؤمن إمرة الأمير من حيث هو برّ، وبالتي يستمتع فيها الكافر إمرته من حيث هو فاجر، وهذا أولى من قول بعض الشارحين: إنّ الضمير يعود إلى الفاجر فإنّ إمرة الفاجر ليست مظنّة تمكن المؤمن من عمله، والمراد يعمل المؤمن في إمرة البرّ عمله على وفق أوامر الله ونواهيه إذ ذلك وقت تمكّنه منه، والمراد باستمتاع الكافر في إمرة الفاجر انهماكه في اللذّات الحاضرة التي يخالف فيها أوامر الله وذلك في وقت تمكّنه من مخالفة الدين.

وقوله: يبلّغ الله فيها الأجل.

أي في إمرة الأمير سواء كان برّاً أو فاجر، وفائدة هذه الكلمة تذكير العصاة ببلوغ الأجل وتخويفهم به.

وقوله: ويجمع به الفيء. إلى قوله: القويّ.

الضمائر المجرورة كلّها راجعة إلى الأمير المطلق إذ قد تحصل الأمور المذكورة كلّها من وجوده كيف كان برّاً أو فاجراً. ومما يؤيد ذلك أن أكثر الخلق متّفقون على أنّ أمراء بني أميّة كانوا فجّاراً عدا رجلين أو ثلاثة: كعثمان وعمر بن عبد العزيز وكان الفيء يجمع بهم، والبلاد تفتح في أيّامهم، والثغور الإسلاميّة محروسة، والسبل آمنة، والقويّ مأخوذ بالضعيف، ولم يضرّ جورهم شيئاً في تلك الأمور.

وقوله: حتى يستريح برّ ويستراح من فاجر.

غاية من الأمور المذكورة: أي غاية صدور هذه الأمور أن يستريح برّ بوجودها ويستراح من تعدّي الفاجر وبغيه، وقيل: أراد أنّ هذه الأمور لا تزال تحصل بوجود الأمير برّاً كان أو فاجراً إلى أن يستريح برّ بموته، ويستراح من فاجر بموته أو بعزله، وأمّا الرواية الأخرى فمعنى الكلام فيها ظاهر، وبالله التوفيق.

٤٠ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

إِنَّ الْوَفَاءَ تَوْأَمُ الصِّدْقِ، وَلَا أَعْلَمُ جُنَّةً أَوْقَى مِنْهُ. وَلَا يَغْدِرُ مَنْ عَلِمَ كَيْفَ الْمَرْجِعُ. وَلَقَدْ أَصْبَحْنَا فِي زَمَانٍ، قَدِ اتَّخَذَ أَكْثَرُ أَهْلِهِ الْغَدْرَ كَيْساً وَنَسَبَهُمْ أَهْلُ الْجَهْلِ فِيهِ إِلَى حُسْنِ الْحِيلَةِ، مَا لَهُمْ؟ قَاتَلَهُمُ اللهُ! قَدْ يَرَى الْحُوَّلُ الْقُلَّبُ وَجْهَ الْحِيلَةِ وَدُونَهُ مَانِعٌ مِنْ أَمْرِ اللهِ وَنَهْيِهِ فَيَدَعُهَا رَأْيَ عَيْنٍ بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهَا وَيَنْتَهِزُ فُرْصَتَهَا مَنْ لَا حَرِيجَةَ لَهُ فِي الدِّينِ.

أقول: الجنّة: ما استترت به من سلاح ونحوه. والقلّب الحوّل: الذي يكثر تحوّله وتقلّبه في اختيار الأمور، وتعرّف وجوهها. والانتهاز: المبادرة إلى

الأمر والفرصة: وقت الإمكان. والحريجة: التحرّج وهو التحرّز من الحرج والإثم.

واعلم أنّ الوفاء ملكة نفسانيّة ينشأ من لزوم العهد كما ينبغي، والبقاء عليه، والصدق ملكة تحصل من لزوم الأقوال المطابقة؛ وهما فضيلتان داخلتان تحت فضيلة العفّة متلازمتان ولمّا كان التوأم هو الولد المقارن لولد آخر في بطن واحد أشبهه الوفاء لمقارنته الصدق تحت العفّة، فاستعار لفظه له. ثمّ لمّا كانت فضيلة الوفاء مقابلة برذيلة الغدر وفضيلة الصدق مقابلة برذيلة الكذب ورذيلتا الغدر والكذب أيضاً توأمين تحت رذيلة الفجور المقابلة لفضيلة العفّة.

قوله: ولا أعلم جنّة أوقى منه.

حكم ظاهرفإنّ الوفاء وقاية تامّة للمرء أمّا في آخرته فلاستتاره به من عذاب الله الذي هو أعظم محذور، وأمّا في دنياه فلاستتاره به من السبّ والعار ومايلزمه عدم الوفاء من الغدر والكذب الملطخين لوجه النفس. وإذا علمت أنّه لا نسبة لشيء ممّا يجتنّ منه بالأسلحةوغيرها إلى ما يتوقّى بالوفاء علمت أنه لا جنّة أوقى من الوفاء، وممادح الوفاء ومذامّ الغدر كثيرة قال الله تعالى: ﴿**الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق**﴾[1] ﴿**والذين يوفون بعهدهم إذا عاهدوا**﴾ الآية وقال في تمدّحه بالوفاء ﴿**ومن أوفى بعهده من الله**﴾قال: ﴿**ومن نكث فإنّما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً**﴾[2] ومن الخبر في ذمّ الغدر: لكلّ غادر لواء يعرف به يوم القيامة.

وقوله: ولا يغدر من علم كيف المرجع.

أقول: العلم بكيفيّة المرجع إلى الله تعالى والاطّلاع على منازل السفر إليه وعلى أحوال الآخرة التي هي المستقرّ صارف قويّ عن ارتكاب الرذائل

(١) ١٣ ـ ٢٠.
(٢) ٤٨ ـ ١٠.

التي من جملتها الغدر وإنّما خصّ الغدر بنسبة أهله إلى الجهل بأمر المعاد لكونه في معرض مدح الوفاء والترغيب فيه.

قوله: ولقد أصبحنا في زمان. إلى قوله: الحيلة

أقول: إنّما اتّخذ أهل الزمان الغدر كيسا ونسبهم كثير إلى حسن الحيلة لجهل الفريقين بثمرة الغدر ولعدم تمييزهم بين الغدر والكيس فإنّه لمّا كان الغدر كثيراً ما يستلزم الذكاء والفطنة لوجه الحيلة وايقاعها بالمغدور به وكان الكيس أيضاً عبارة عن الفطانة والذكاء وجودة الرأي في استخراج وجوه المصالح التي تنبغي كانت بينهما مشاركة في استلزام مفهومهما للتفطّن والذكاء في استخراج وجه الحيلة وايقاع الآراء إلّا أنّ تفطن الغادر يستعمله في استنباط الحيلة وإن خالفت القوانين الشرعيّة وفاتت المصالح الكليّة في جنب مصلحة جزئيّة تخصّه، وتفطّن الكيّس إنّما يستعمله في ايقاع رأي أو حيلة تنتظم مصلحة العالم وتوافق القوانين الشرعيّة، ولدقّة الفرق بينهما استعمل الغادرون غدرهم في موضع الكيس، ونسبهم أيضاً الجاهلون في غدرهم إلى حسن حيلتهم كما نسب ذلك إلى عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبه ونحوهما، ولم يعلموا أنّ حيلة الغادر تخرجه إلى رذيلة الفجور، وأنّه لا حسن في حيلة جرّت إلى رذيلة.

وقوله: ما لهم قاتلهم الله قد يرى. إلى آخره.

دعاء عليهم بقتال الله لهم بعد استفهامه عن خوضهم في أمره استفهاماً على سبيل الإنكار، وقد علمت أن قتال الله كناية عن عداوته والبعد عن رحمته، وظاهر أنّ أهل الغدر بعداء عن رحمة الله، ثمّ أردف ذلك الدعاء بالإشارة إلى أنّه لا فضيلة لهم فيما يفتخرون به من الذكاء في استنباط وجوه الحيلة إذ كانت غايتهم الغدر والخيانة فإنّ الحوّل القلّب في الأمور قد يرى وجه الحيلة عياناً إلّا أنّه يلاحظ في العمل بها مانع من الله ونهيه عن ارتكابها لما يؤدّي إليه من ارتكاب الرذائل الموبقة فيتركها رأي عينه: أي حال ما هي مرئيّة له وبعد القدرة عليها خوفاً من الله تعالى. ثمّ يراها من لا يعتقد إثماً في خرم قواعد الدين فيبادر إليها حال إمكانها وليس ذلك لفضيلة بل الفضل

في الحقيقة لتاركها عنْ وازع الدين، والإشارة بالحوّل القلّب إلى نفسه فإن شيمه الكريمة كانت كذلك.

٤١ - ومن كلام له (عليه السلام)

أَيُّهَا النَّاسُ، إنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ اثْنَانِ: إتّبَاعَ الْهَوَى، وَطُولُ الأَمَلِ، فَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، وَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الآخِرَةَ. ألا، وإِنَّ الدنيا قَد ولّت حذّاء، فَلَمْ يَبق منها إلاَّ صُبابةٌ كصُبابةِ الإناء اصطبّها صَابُّهَا، أَلاَ وَإِنَّ الآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ وَلِكُلٍّ مِنْهُمَا بَنُونَ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ، وَلَا تَكُونُوا أَبْنَاءَ الدُّنيَا فَإنَّ كُلَّ وَلَدٍ سَيُلْحَقُ بِأُمِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابٌ، وَغَداً حِسَابٌ وَلَا عَمَلٌ.

أقول: حذّاء: خفيفة مسرعة لايتعلّق أحد منهما بشيء. والصبابة: بقيّة الماء في الإناء.

والمقصود بهذا الفصل النهي عن الهوى وطول الأمل في الدنيا فإنّهما من أشدّ أسباب الهلاك فكان الجلاء عنهما من أشدّ أسباب النجاة كما قال تعالى: ﴿ **فأمّا من طغى وآثر الحياة الدنيا فإنّ الجحيم هي المأوى وأمّا من خاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوى فإنّ الجنّة هي المأوى**﴾[1] ثمّ التذكير بأمور الآخرة.

فاعلم أنّ الهوى هو ميل النفس الأمّارة بالسوء إلى مقتضى طباعها من اللذّات الدنيويّة إلى حدّ الخروج عن حدود الشريعة، وأمّا الأمل فقد سبق بيانه، ولمّا كانت السعادة التامّة إنّما هي في مشاهدة حضرة الربوبيّة ومجاورة الملإ الأعلى في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وكان اتّباع النفس الأمّارة بالسوء في ميولها الطبيعيّة والانهماك في ملذّاتها الفانية أشدّ مهلك جاذب للإنسان عن قصد الحقّ، وصادّ له عن سلوك سبيله وعن الترقيّ في ملكوت السماوات إلى حضيض جهنّم كما قال سيّد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم: ثلاث

(١) ٧٩ - ٣٧.

مهلكات: شحّ مطاع، وهوى متّبع، وإعجاب المرء بنفسه، وكما قال: حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة، وقال: الدنيا والآخرة ضرّتان بقدر ما يقرب من إحديهما يبعد من الأخرى. لا جرم كان أخوف ما ينبغي أن يخاف من الأمور المهلكة اتبّاع الهوى، وأما الأمل فمراده به أيضاً الأمل لما لا ينبغي أن يمدّ الأمل فيه من المقتنيات الفانية وظاهر أنّ طول الأمل فيها يكون مطابقاً لاتّباع الهوى وبه ويكون نسيان الآخرة لأنَّ طول توقّع الأمور المحبوبة الدنيويّة يوجب دوام ملاحظتها، ودوام ملاحظتها مستلزم لدوام إعراض النفس عن ملاحظة أحوال الآخرة وهو مستعقب لانمحاء ما تصوّر في الذهن منها وذلك معنى النسيان لها وبذلك يكون الهلاك الأبديّ والشقاء الأشقى، ولمّا كان عليه‌السلام هو المتولّي لإصلاح حال الخلق في أمور معاشهم ومعادهم كان الاهتمام بصلاحهم منوطاً بهمّته العلِيّة فلا جرم نسب الخوف عليهم إلى نفسه.

قوله: ألا وإنَّ الدنيا قد ولّت. إلى قوله: صابّها.

أقول: الدنيا بالنسبة إلى كلّ شخص مفارقة له وخفيفة سريعة الإجفال لم يبق منها بالقياس إليه إلاّ اليسير، وإطلاق الصبابة هاهنا استعارة لبقيّتها القليلة، والقلّة هي وجه تشبيهها بصبابة الإناء أيضاً.

وقوله: ألا وإنَّ الآخرة قد أقبلت.

لمّا نبّه على أنَّ الدنيا سريعة الإجفال أردف ذلك بالتنبيه على سرعة لحوق الآخرة وإقبالها، وكلّ ذلك قطع للآمال الفانية وردع عن اتّباع الهوى. ومن آثار الصالحين: إذا كان العمر في إدبار والموت في إقبال فما أسرع الملتقى. والموت هو دهليز الآخرة.

وقوله: ولكلّ منهما بنون. إلى قوله: يوم القيامة.

من لطائف كلامه. فاستعار لفظ الأبناء للخلق بالنسبة إلى الدنيا والآخرة، ولفظ الأب لهما، ووجه الاستعارة أنّ الإبن لمّا كان من شأنه الميل إلى والده إمّا ميلاً طبيعيّاً أو بحسب تصوّر المنفعة منه. وكان الخلق منهم من يريد الدنيا. ومنهم من يريد الآخرة، ويميل كلّ منهما إلى مراده مع ما يحصل

من طرف الدنيا للراغبين فيها ممّا يتوهّمونه لذّة وخيراً، وما يحصل من طرف الآخرة للراغبين فيها من اللذّات والسعادة أشبه كلّ بالنسبة إلى ما رغب فيه واستفاد منه الخيرالابن بالنسبة إلى الأب. فاستعير لفظه لتلك المشابهة، ولمّا كان غرضه حثّ الخلق على السعي للآخرة والميل إليها والإعراض عن الدنيا ، قال عليه السلام : فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا ثمّ ذكر فائدة رأيه عليهم بأن يكونوا كذلك . وهي أنّ كلّ ولد سيلحق بأمّه يوم القيامة ، وأشار : إلى أنّ أبناء الآخرة والطالبين لها والعاملين لأجلها مقرّبون في الآخرة لا حقوق لمراداتهم فيها ، ولهم فيها ما تشتهي أنفسهم ولهم ما يدّعون نزلا من غفور رحيم ، وأمّا أبناء الدنيا فإنّ نفوسهم لمّا كانت مستغرقة في محبتها وناسية لطرف الآخرة ومعرضة عنها لا جرم كانت يوم القيامة مغمورة في محبّة الباطل مغلولة بسلاسل السيئات البدنيّة والملكات الرديئة المتمكّنة من جواهرها فهي لتعلّقها بمحبّة الدنيا حيث لا يتمكّن من محبوبها بمنزلة ولد لا تعلّق له ولا مسكة إلاّ بوالده ولا إلف له إلاّ هو ولا أنس إلاّ معه ، ثمّ حيل بينه وبينه مع شدّة تعلّقه به وشوقه إليه وأخذ إلى أضيق الأسجان ، وبدّل بالعزّ الهوان فهو في أشدّ ولهٍ ويتم وأعظم حسرة وغمّ ، وأمّا أبناء الآخرة ففي حضانة أبيهم ونعيمه قد زال عنهم بؤس الغربة وشقاء اليتم وسوء الحضن . فمن الواجب إذن تعرّف أحوال الوالدين واتّباع أبرّهما وأدومهما شفقة وأعظمهما بركة وما هي إلاّ الآخرة فليكن ذو العقل من أبناء الآخرة وليكن برّاً بوالده متوصّلاً إليه بأقوى الأسباب وأمتنها .

وقوله: وإنّ اليوم عمل. إلى آخره.

كنّى باليوم عن مدّة الحياة وبغد عمّا بعد الموت، وراعى المقابلة فقابل اليوم بالغد، والعمل بلا عمل، ولا حساب بالحساب. واليوم: اسم إنّ ، وعمل: قام مقام الخبر استعمالا للمضاف إليه مقام المضاف: أي واليوم يوم العمل، ويحتمل أن يكون اسم إنَّ ضمير الشأن، واليوم عمل جملة من مبتدإ وخبر هي خبرها، وكذلك قوله: وغداً حساب ولا عمل، وصدق هذين الحكمين ظاهر وفائدتهما التنبيه على وقتي العمل وعدمه ليبادروا إلى العمل الذي به

يكـونون من أبنـاء الآخرة في وقت إمكـانـه قبـل مجيء الغـد الـذي هـو وقت الحساب دون العمل، وبالله التوفيق.

٤٢ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

وقد أشار عليه أصحابه بالاستعداد للحرب بعد إرساله جرير بن عبد الله البجلي إلى معاوية.

إِنَّ آسْتِعْـدَادِي لِحَرْبِ أَهْـلِ الشَّامِ وَجَـرِيـرٌ عِنْـدَهُمْ إِغْـلَاقٌ لِلشَّـامِ ، وَصَرْفٌ لأَهْلِهِ عَنْ خَيْرٍ إِنْ أَرَادُوهُ . وَلٰكِنْ قَدْ وَقَّتُّ لِجَرِيرٍ وَقْتاً لَا يُقِيمُ بَعْـدَهُ إِلَّا مَخْدُوعاً أَوْ عَاصِياً . وَالرَّأْيُ عِنْدِي مَـعَ الأَنَاةِ فَـأَرْوِدُوا ، وَلَا أَكْرَهُ لَكُمُ الإِعْـدَادَ وَلَقَـدْ ضَرَبْتُ أَنْفَ هٰـذَا الأَمْرِ وَعَيْنَـهُ ، وَقَلَّبْتُ ظَهْرَهُ ، وَبَـطْنَهُ ، فَلَمْ أَرَ لِي إِلَّا الْقِتَـالَ أَوِ الْكُفْرَ ، إِنَّـهُ قَدْ كَـانَ عَلَى النَّـاسِ وَالٍ أَحْـدَثَ أَحْـدَاثـاً ، وَأَوْجَـدَ لِلنَّاسِ مَقَالاً ، فَقَالُوا ، ثُمَّ نَقَمُوا فَغَيَّرُوا .

أقـول: وقد كـان في ظنّ كثير من الصحـابة بعـد ولاية عليّ عليه السلام أنّ معاوية لا يطيع له بأمارات كثيرة، ولذلك أشار عليه أصحابه وبعد إرسال جرير إليه بالاستعداد لحربه، وروي أنّ جريرا لمّا أراد بعثه قال: والله يا أمير المؤمنين ما أدّخرك من نصرتي شيئاً، وما أطمع لك في معاوية فقال عليه السلام: قـصـدي حـجّـة أقمتها. ثمّ كتب معه: أمّا بعد فإنّ بيعتي بالمـدينة لـزمتك وأنت بـالشام لأنّـه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليـه فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يردّ، وإنّما الشـورى للمهاجـرين والأنصار إذا اجتمعوا على رجل فسمّوه إمامـاً كان ذلـك رضا فـإن خرج من أمـرهم خارج بـطعن أو رغبة ردّوه إلى مـا خرج منه فـإن أبى قـاتلوه على اتّباع غيـر سبيـل المؤمنين وولّاه الله ما تولّى ويصليه جهنّم وساءت مصيـراً، وإنّ طلحة والـزبير بايعاني ثمّ نقضا بيعتي فكان نقضهما كردّتهما فجاهدتهما على ذلك حتى جاء الحقّ وظهر أمر الله وهم كارهون. فادخل فيما دخل فيه المسلمون فـإنّ أحبّ الأمور إليّ فيك العافية إلّا أن تتعرّض للبلاء فإن تعرّضت له قاتلتـك واستعنت بـالله عليك. وقـد أكثرت في قتلة عثمـان فادخـل فيمـا دخـل فيـه النـاس ثمّ حاكموا القوم إليّ أحملك وإيّاهم على كتاب الله فأمّا تلك التي تريدها فخدعة

الصبيّ عن اللبن، ولعمري وإن نظرت بعقلك دون هواك لتجدني أبرأ قريش من دم عثمان، واعلم أنّك من الطلقاء الذين لا يتحلّى لهم الخلافة ولا يتعرّض فيهم الشورى، وقد أرسلت إليك جرير بن عبد الله وهو من أهل الايمان والهجرة فبايع ولا قوّة إلّا بالله. وربّما جاء شيء من هذا الكتاب في كتبه عليه‌السلام إلى معاوية. فأجابه معاوية أمّا بعد فلعمري لو بايعك القوم الذين بايعوك وأنت بريء من دم عثمان كنت كأبي بكر وعمر وعثمان ولكنّك أغريت بعثمان وخذلت عنه الأنصار فأطاعك الجاهل وقوي بك الضعيف، وقد أبى أهل الشام إلّا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين. ولعمري ما حجّتك عليّ كحجّتك على طلحة والزبير لأنّهما بايعاك ولم أبايعك، وما حجّتك على أهل الشام كحجّتك على أهل البصرة لأنّهم أطاعوك ولم يطعك أهل الشام. فأمّا شرفك في الإسلام وقرابتك من النبيّ (ص) وموضعك من قريش فلست أدفعه، وكتب في آخر الكتاب قصيدة كعب بن جميل:

أرى الشام تكره أهل العراق وأهل العراق لها كارهونا

وقد ذكرنا بعضها قبل، ويروى أنّ الكتاب الذي كتبه عليه‌السلام مع جرير كانت صورته: إنّي قد عزلتك ففوّض الأمر إلى جرير والسلام. وقال لجرير: صن نفسك عن خداعه فإن سلّم إليك الأمر وتوجّه إليّ فأقم أنت بالشام، وإن تعلّل بشيء فارجع. فلما عرض جرير الكتاب على معاوية تعلّل بمشاورة أهل الشام وغير ذلك فرجع جرير فكتب معاوية في أثره على ظهر كتاب علي(ع): من ولّاك حتى تعزلني والسلام.

وأقول: الاستعداد: التهيّؤ للأمر. والخداع: الأخذ بالحيلة. والأناة: الاسم من التأني والرفق. وأرودوا: أمهلوا. ونقمت الأمر بفتح القاف: أنكرته.

فقوله: إنّ استعدادي. إلى قوله: إن أرادوه.

المراد أنّ أهل الشام في زمان كون جرير عندهم في مقام التروّي والتفكّر في أي الأمرين يتبعون. وإن لم يكن كلّهم فبعضهم كذلك فلو اعتدّ هو للحرب في تلك الحال لبلغهم ذلك فاحتاجوا إلى الاستعداد أيضاً والتأهّب

للقائه فكان ذلك الاستعداد سبباً لغلق الشام بالكليّة، وصرفاً لمن يكون في ذهنه تردّد في هذا الأمر أو في قلبه اللحوق به عمّا يريد وذلك مناف للحزم.

وقوله: قد وقّت. إلى قوله: عاصياً.

أي قد وقّت له وقتاً يصل إلينا فيه لا يتخلّف عنه إلاّ لأحد مانعين إمّا خداع فيهم له ومواعيد مخلّفة بالجواب ليهيّؤوا أمورهم في تلك المدّة، وإمّا عصيان منه ومخالفة.

فإن قلت: حصر تخلّف جرير في هذين المانعين غير صحيح لجواز أن يتخلّف لمرض أو موت أو غرض آخر.

قلت: إنّه عليه السلام لم يقصد الحصر اليقيني وإنّما أراد الحصر بحسب غلبة الظنّ الناشىء من الأمارات والقرائن الحاليّة ثمّ كلامه عليه السلام ليس في الأسباب الاضطراريّة التي من قبل الله تعالى فإنّ ذلك أمر مفروغ منه لا يحسن ذكره، وأمّا الموانع الاختياريّة فإمّا منهم وغالب الظنّ هو الخداع، وإمّا منه وغالب الظنّ أنّه العصيان إذ لا يتصوّر من مثل جرير وقد أرسل في مثل هذا الأمر المهمّ أن يعدل عنه إلى شغل اختياري لنفسه أو لغيره إلاّ أن يكون عاصياً.

وقوله: والرأي مع الأناة.

رأي حقّ أجمع الحكماء على صوابه فإنّ إصابة المطالب والظفر بها في الغالب إنّما هو مع التثبّت والتأنّي في الطلب، وذلك أنّ أناة الطالب هي مظنّة فكره في الاهتداء إلى تلخيص الوجه الأليق والأقيس والأشمل للمصلحة في تحصيل مطلوبه، ولذلك أكّد بعض الحكماء الأمر بالتأنّي بقوله: من لم يتثبّت في الأمور لم يعد مصيباً وإن أصاب. فالغرض وإن كان هو الإصابة إلاّ أنّها وإن حصلت من غير التأنّي كان مفرطاً وثمرة التفريط غالباً الندامة وعدم الإصابة، والإصابة منه نادرة والنادر غير منتفع به ولا ملتفت إليه.

وقوله: فأرودوا ولا أكره لكم الإعداد.

لمّا نبّههم على فضيلة الأناة أمرهم بها وإن لم يأمرهم مطلقاً بل نبّههم بقوله ولا أكره لكم الإعداد على أمور ثلاثة:

أحدها : أنّه ينبغي لهم أن يكونوا على يقظة من هذا الأمر حتّى يكونوا حال إشارته إليهم قريبين من الاستعداد .

الثاني: أن لا يتوهّم أحد منهم فيه مداخلة ضعف عن مفارقة أهل الشام فيداخلهم بسبب ذلك فشل وضعف عزيمة .

الثالث: ذكر شارح ابن أبي الحديد هو أنّه عليه‌السلام وإن كان كره الاستعداد الظاهر إلّا أنّ قوله: ولا أكره لكم الإعداد. تنبيه لهم على الاستعداد الباطن والتهيّؤ في السرّ وربما كان فرار الشارح بهذا الوجه ممّا يتوهّم تناقضاً وهو كونه قد أشار بترك الاستعداد، ثمّ قال لأصحابه: ولا أكره لكم الإعداد، وقد علمت أنّ تركه للاستعداد في ذلك الوقت واختياره تركه لا ينافي تنبيههم على عدم كراهيّته له ليكونوا منه على يقظة كما أومأنا إليه .

وقوله: ولقد ضربت. إلى قوله: أو الكفر.

أقول: استعار لفظ العين والأنف والظهر والبطن التي هي حقائق في الحيوان لحاله مع معاوية في أمر الخلافة وخلاف أهل الشام له استعارة على سبيل الكناية. فكنّى بالعين والأنف عن المهمّ من هذا الأمر وخالصه فإنّ العين والأنف من أعزّ ما في الوجه، وكنّى بالضرب بهما عن قصده للمهمّ منه على سبيل الاستعارة أيضاً، وكنّى بلفظ الظهر والبطن لظاهر هذا الأمر وباطنه ووجوه الرأي فيه، ولفظ التقليب لتصفّح تلك الوجوه وعرضها على العقل واحداً واحداً.

قوله: فلم أر لي إلّا القتال أو الكفر.

تعيين لما اختاره بعد التقليب والتصفّح لوجوه المصلحة في أمر مخالفيه وهو قتالهم، ونبّه على وجه اختياره له بقوله: أو الكفر: أي أنّ أحد الأمرين لازم إمّا القتال أو الكفر؛ وذلك أنّه إن لم يختر القتال لزم تركه وتركه مستلزم للكفر لكن التزام الكفر منه محال فتعيّن اختياره للقتال، ومراده بالكفر الكفر الحقيقيّ فإنّه صرّح بمثله فيما قبل حيث يقول: وقد قلّبت هذا الأمر بطنه

وظهره حتى منعني القوم فما وجدتني يسعني إلاّ قتالهم أو الجحود بما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

فإن قلت: ما وجه الحصر في القتال والجحود مع أنّ ترك القتال بدون الجحد ممكن.

قلت: بيانه من وجهين.

أحدهما: قال الشارحون: إنّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان قد أمره بقتال من خالفه، لقوله: أمرت أن أقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين. فلو ترك قتالهم مع ما عليه أمر الإسلام من الخطر لكان قد خالف أمر الرسول وظاهر أنّ مخالفة مثله عليه السلام لأوامر الرسول لا يتصوّر إلا عن عدم اعتقاد صحّتها وذلك جحد به وكفر.

الثاني: يحتمل أن يكون قد تجوّز بلفظ الجحود في التهاون بهذا الأمر تعظيماً له في نفوس السامعين وهو من المجازات الشائعة.

وقوله: إنّه قد كان. إلى آخره.

تنبيه على وجه عذره عمّا نسبه إليه معاوية وجعله سبباً لعصيانه له وهو الطلب بدم عثمان وتهمته له بذلك، وأراد بالوالي عثمان. والأحداث التي أحدثها هو ما نسب إليه من الأمور التي أنكروها عليه كما سنذكرها. وأوجد الناس مقالاً: أي جعل لهم بتلك الأحداث طريقاً إلى القول عليه فقالوا، ثمّ أنكروا ما فعل فغيّروه وأزالوه. فأمّا الأحداث المنقولة عنه فالمشهور منها بين **أهل السير عشرة: الأولى: توليته أمور المسلمين من ليس أهلاً من الفسّاق مراعاةً للقرابة دون حرمة الإسلام كالوليد بن عقبة حتّى ظهر منه شرب الخمر، وسعيد بن العاص حتى ظهرت عنه الأمور التي أخرجه أهل الكوفة منها بسببها، وعبد الله ابن أبي سرح مع قوّة ظلمه وتظلّم المصريّين منه وهو الذي اتّهمه المسلمون بمكاتبته بقتل محمد ابن أبي بكر، ونقل أنّهم ظفروا بالكتاب ولأجله عظم التظلّم وكثر الجمع واشتدّ الحصار عليه .**

الثانيـة: ردّه للحكم ابن أبي العاص إلى المدينة بعد طرد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وبعد امتناع أبي بكر وعمر من ردّه. فخالف في ذلك سنّة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وسيرة الشيخين، وعمل بدعواه مجرّدة من البيّنة.

الثالثة: أنّه كان يؤثر أهله بالأموال العظيمة من بيت المال من غير استحقاق وذلك في صور: منها أنّه دفع إلى أربعة نفر من قريش زوّجهم ببناته أربع مائة ألف دينار، ومنها أنّه أعطى مروان مائة ألف دينار، وروي خمس إفريقيّة وذلك مخالف لسنّة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومن بعده من الخلفاء.

الرابعة: أنّه حمى الحمى عن المسلمين بعد تسوية الرسول بينهم في الماء والكلاء.

الخامسة: أنّه أعطى من بيت مال الصدقة المقاتلة وغيرها وذلك ممّا لا يجوز في الدين.

السادسة: أنّه ضرب عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ وهو من أكبر الصحابة، وعلمائها حتى كسر بعض أضلاعه وذلك ظلم ظاهر.

السابعة: أنّه جمع الناس على قراءة زيد بن ثابت خاصة وأحرق المصاحف وأبطل ما لا شكّ أنّه من القرآن المنزل وذلك مخالفة لله وللرسول ولمن بعده.

الثامنة: أنّه أقدم على عمّار بن ياسر ـ رحمه الله ـ بالضرب مع أنّه من أشرف الصحابة، ومع علمه بما قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: عمّار جلدة ما بين عينيّ تقتله الفئة الباغية لا أنالها الله شفاعتي. حتى أصابه الفتق، ولذلك صار عمّار مظاهراً لبعض المتظلّمين منه على قتله، وروي أنّه كان يقول: قتلناه كافراً.

التاسعة: إقدامه على أبي ذر مع ثناء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وصحبته له، وقوله فيه: ما أقلّت الغبراء ولا أظلّت الخضراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذر. حتى نفاه إلى الربذة.

العاشرة: تعطيله الحدّ الواجب على عبيد الله بن عمر بن الخطاب فإنّه

قتل الهرمزان مسلماً بمجرّد تهمته أنّه أمر أبا لؤلؤة بقتل أبيه ثمَّ لم يقده به وقد كان عليّ عليه السلام يطلبه بذلك. فهذه هي المطاعن المشهورة فيه. وقد أجاب الناصرون لعثمان عن هذه الأحداث بأجوبة مستحسنة وهي مذكورة في المطوّلات من مظانّها وإنّما ذكرنا هذه الأحداث وأوردناها مختصرة لتعلّق المتن بذكرها.

٤٣ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

لما هرب مصقلة بن هبيرة الشيباني إلى معاوية، وكان قد ابتاع سبي بني ناجية من عامل أمير المؤمنين عليه السلام وأعتقه، فلما طالبه بالمال خاس به وهرب إلى الشام:

قَبَّحَ اللهُ مَصْقَلَةَ فَعَلَ فِعْلَ السَّادَاتِ، وَفَرَّ فِرَارَ الْعَبِيدِ، فَمَا أَنْطَقَ مَادِحَهُ حَتَّى أَسْكَتَهُ، وَلاَ صَدَّقَ وَاصِفَهُ حَتَّى بَكَّتَهُ، وَلَوْ أَقَامَ لأَخَذْنَا مَيْسُورَهُ وَانْتَظَرْنَا بِمَالِهِ وُفُورَهُ.

أقول: مصقلة هذا كان عاملاً لعليّ عليه السلام على أردشير خرّه. وبنو ناجية: قبيلة نسبوا أنفسهم إلى سامة بن لؤيّ بن غالب فدفعتهم قريش عن هذا النسب وسمّتهم بني ناجية وهي أمّهم امرأة سامة، وأمّا سبب هربه إلى الشام فهو أنّ الحريث أحد بني ناجية كان قد شهد مع عليّ عليه السلام صفّين ثمَّ استهواه الشيطان فصار من الخوارج بسبب التحكيم، وخرج هو وأصحابه إلى المدائن مفارقاً لعلي عليه السلام فوجّه إليهم معقل بن قيس في ألفي فارس من أهل البصرة ولم يزل يتبعهم بالعسكر بعد العسكر حتى ألحقوهم بساحل فارس، وكان به جماعة كثيرة من قوم الحريث وكان فيهم من أسلم عن النصرانيّة فلمّا رأوا ذلك الاختلاف ارتدّوا واجتمعوا عليه فزحف إليهم معقل بمن معه فقتل الحريث وجماعة منهم وسبا من كان أدرك فيهم من الرجال والنساء، ونظر فيهم فمن كان مسلماً أخذ بيعته وخلّى سبيله واحتمل الباقين من النصارى وعيالهم معه وكانوا خمسمائة نفر حتى مرّوا بمصقلة فاستغاث إليه الرجال

والنساء ومجّدوه وطلبوا منه أن يعتقهم فأقسم ليتصدّقن عليهم بذلك ثمّ بحث إلى معقل بن قيس، فابتاعهم منه بخمسمائة ألف درهم ثمّ وعده أن يحمل المال في أوقات مخصوصة فلمّا قدم معقل على عليّ عليه السلام وأخبره القصّة شكر سعيه وانتظر المال من يد مصقلة فابطأ به فكتب إليه باستعجاله أو بقدومه عليه فلمّا قرأ كتابه قدم عليه وهو بالكوفة فأقراه أياماً ثمّ طالبه بالمال فأدّى منه مائتي ألف درهم وعجز عن الباقي وخاف فلحق بمعاوية فبلغ عليّاً عليه السلام فقال الفصل . ولنرجع إلى المتن .

قبحّه الله: أي نحّاه عن الخير. والتبكيت: كالتقريع واللائمة. والوفور: مصدر وفر المال أي نما وزاد، ويروى موفورة.

ومقصوده عليه السلام بعد أن قدّم الدعاء على مصقلة بيان خطأه فإنّه اشار إلى جهة الخطأ وهي جمعه بين أمرين متنافيين في العرف: وهما فعل السادة وذي المروّة والحميّة حيث اشترى القوم واعتقهم، مع الفرار الذي هو شيمة العبيد. ثمّ أكد عليه السلام ذلك بمثلين:

أحدهما: ما أنطق مادحه حتى أسكته، ويفهم منه معنيان.

أحدهما: أن يكون حتى بمعنى اللام: أي أنّه لم ينطق مادحه حتى يقصد إسكاته بهربه فإنّ إسكات المادح لا يتصوّر قصده إلّا بعد إنطاقه وهو لم يتمّم فعله الذي يطلب به إنطاق مادحه بمدحه من الكرم والحميّة والرقّة ونحوها، فكأنّه قصد إسكات مادحه بهروبه فأزوى عليه ذلك، وقال: إنّه لم ينطقه بمدحه فكيف يقصد إسكاته بهروبه، وإن كان العاقل لا يتصوّر منه قصد إسكات مادحه عن مدحه إلّا أنّه لاختياره الهروب المستلزم لإسكات المادح صار كالقاصد له فنسب إليه.

الثاني: أن يكون المراد أنّه قد جمع بين غايتين متنافيتين: إنطاقه لمادحه بفداء للأسرى، مع إسكاته بهربه قبل تمام إنطاقه. وهو وصف له بسرعة إلحاقه لفضيلته برذيلته حتى كأنّه قصد الجمع بينهما، وهذا كما تقول في وصف سرعة تفرّق الأحباب عن اجتماعهم: ما اجتمعوا حتى افترقوا: أي

لسرعة افتراقهم كأنّ الدهر قد جمع لهم بين الاجتماع والافتراق.

الثاني: قوله: ولا صدّق واصفه حتى بكّته.

والمفهوم منه كالمفهوم من الذي قبله.

قوله: ولو أقام. إلى آخره.

لمّا أشار إلى خطأه أردفه بما يصلح جواباً لما عساه يكون عذراً له لو اعتذر وهو توهّمه التشديد عليه في أمر الباقي من المال حتى كان ذلك الوهم سبب هزيمته، وفي بعض الروايات: لو أقام لأخذنا منه ما قدر عليه فإنّ أعسر أنظرناه فإن عجز لم نأخذ بشيء. والأوّل هو المشهور. وبالله التوفيق.

٤٤ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

الْحَمْدُ لله غَيْرَ مَقْنُوطٍ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَلاَ مَخْلُوٍّ مِنْ نِعْمَتِهِ، وَلاَ مَأْيُوسٍ مِنْ مَغْفِرَتِهِ، وَلاَ مُسْتَنْكَفٍ مِنْ عِبَادَتِهِ، الَّذِي لاَ تَبْرَحُ مِنْهُ رَحْمَةٌ، وَلاَ تُفْقَدُ لَهُ نِعمَةٌ. وَالدُّنْيَا دَارٌ مُنِيَ لَهَا الْفَنَاءُ، وَلأَهْلِهَا مِنْهَا الْجَلاَءُ، وَهِيَ حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَقَدْ عَجِلَتْ لِلطَّالِبِ، وَالْتَبَسَتْ بِقَلْبِ النَّاظِرِ، فَارْتَحِلُوا عَنْهَا بِأَحْسَنِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ مِنَ الزَّادِ، وَلاَ تَسْأَلُوا فِيهَا فَوْقَ الْكَفَافِ، وَلاَ تَطْلُبُوا مِنْهَا أَكْثَرَ مِنَ الْبَلاَغِ.

أقول: هذا الفصل ملتقط من خطبة طويلة له عليه السلام خطب بها يوم الفطر. وهو غير متّسق بل بين قوله: نعمة، وقوله: والدنيا. فصل طويل. وهذه الخطبة تنتظم الفصل المتقدّم، وهو قوله: أمّا بعد فإنّ الدنيا قد أدبرت وهو فيها بعد هذا الفصل ولم نذكرها كراهة التطويل، ولنعد إلى الشرح فنقول:

القنوط. اليأس. والاستنكاف: الاستكبار. ومني لها: أي قدر. والجلاء بالفتح والمدّ: الخروج عن الوطن. والتبست: امتزجت. والكفاف: ما كفّ عن الناس أي أغنى عنهم من المال. والبلاغ: ما بلغ مدّة الحياة منه وكفى.

واعلم أنّه نبّه على استحقاق الله تعالى للحمد ودوامه باعتبار ملاحظة ستّة أحوال:

فأشار إلى الحالة الأولى بقوله: غير مقنوط من رحمته مقرّراً لقوله تعالى: ﴿**ورحمتي وسعت كلّ شيء**﴾[1] ولقوله: ﴿**لا تيأسوا من روح الله إنّه لا ييأس من روح الله إلاّ القوم الكافرون**﴾[2] وهذه الحال ممّا يشهد بإثباتها العقل إذ كان العبد عند أخذ العناية الإلهيّة بضبعيه يعلم استناد جميع الموجودات كلّيها وجزئيّها إلى مدبّر حكيم، وأنّه ليس شيء منها خالياً عن حكمة فيستليح من ذلك أنّ ايجاده له وأخذ العهد إليه بالعبادة ليس إلاّ لينجذب إلى موطنه الأصليّ ومبدئه الأوّلي بالتوحيد المحقّق والحمد المطلق عن نار أجّجت وجحيم سعّرت، وما خلقت الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون، فلا ييأس من روح الله عند نزول أمر واجب النزول به ممّا يعدّه شرّاً بل يكون برجائه أوثق وقلبه بشموله الغناية له أعلق فإنّه لا ييأس من روح الله إلاّ الذين عميت أبصاربصائرهمعن أسرار الله، فهم في طغيانهم يعمهون وأولئك هم الخاسرون.

وأشار إلى الحالة الثانية بقوله: ولا مخلوٍ من نعمته. تقريراً لقوله تعالى: ﴿**وما بكم من نعمة**﴾ فسبوغ نعمته دائم لآثار قدرته التي استلزمت طبائعها الحاجة إليه فوجب لها فيض جوده فاستلزم ذلك وجوب تصريحها بلسان حالها ومقالها بالثناء المطلق عليه ودوام الشكر له وإن من شيء إلاّ يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم.

وأشار إلى الحالة الثالثة بقوله: ولا مأيوس من مغفرته. تقريراً لقوله تعالى: ﴿**يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله**﴾[1] الآية وهي شهادة بشمول ستره وجميل عفوه وغفره لمن جذبت بعقله أيدي

---

(١) ٧ - ٥٥.
(٢) ١٢ - ٨٧.
(١) ٣٩ - ٥٤.

شياطينه لتحطّه إلى مهاوي الهلاك فعجز عن مقاومتها بعد أن كانت له مسكة بجناب الله فضعفت تلك المسكة عن أن تكون منجاة له حال مجاذبته لهواه وإن كان ذلك الغفران متفاوتاً بحسب قوّة تلك المسكة وضعفها، والعقل ممّا يؤيّد ذلك ويحكم بصحّة هذه الشهادة فإنّ كلّ ذي علاقة بجناب الله سيخلص من العقاب وإن بعد خلاصه على ما نطق به البرهان في موضعه، وذلك يستلزم الاعتراف بالإحسان ودوام الثناء والحمد.

ثمّ أشار إلى الرابعة بقوله: ولا مستنكف عن عبادته تقريراً لقوله تعالى: **﴿لا يستنكفون عن عبادته ولا يستكبرون﴾** وقوله: **﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقرّبون﴾**الآية. وكونه تعالى غير مستنكف عن عبادته شاهد عظيم على كمال عظمته وأنّه المستحقّ للعبادة دون ما عداه إذ هو المجتمع للكمال المطلق فلا جهة نقصان فيه إليها يشار فيكون سبباً للاستنكاف والاستكبار. وغير، مع محالّ السلوب الثلاثة بعدها منصوبات على الحال.

وقوله: الذي لا تبرح فيه رحمة ولا تفقد له نعمة.

اعتباران آخران يستلزمان في ملاحظتهما وجوب شكره تعالى. ونبّه بقوله: لا تبرح على دوام رحمة الله لعباده، وقوله: لا تفقد له نعمة كقوله: ولا مخلوّ من نعمته، ثمّ أعقب ذلك بالتنبيه على معائب الدنيا للتنفير عنهافذكر وجوب الفناء لها ثمّ حذّر بذكر العيب الأكبر لها الذي ترغب مع ذكره وملاحظته من له أدنى بصيرة عن الركون إليها ومحبّة قيناتها وهو مفارقتها الواجبة والجلاء عنها، **ثمّ أردف ذلك بذكر جهتين من جهات الميل إليها**:

إحديهما: منسوبة إلى القوّة الذائقة وهي حلاوتها، والأخرى إلى القوّة الباصرة وهي خضرتها. وإطلاق لفظيهما مجاز كنّى به عن جهات الميل إليها من باب إطلاق لفظ الجزء على الكلّ. وإيراده لهذين الوصفين اللذين هما وصفا مدح في معرض ذمّها كتقدير اعتراض على ذمّها لغرض أن يجيب عنه، ولهذا عقّب ذكرهما بما يصلح جواباً وبيّنة على ما يصرف عن الميل إليها من

هاتين الجهتين وهو كونها معجّلة للطالب. إذ كان من شأن المعجّل أن ينتفع به في حال تعجيله دون ما بعده خصوصاً في حقّ من أحبّ ذلك المعجّل ولم يلتفت إلى ما سواه. والدنيا كذلك كما أشار إليه بقوله: والتبست بقلب الناظر، وإنّما خصّ الناظر لتقدّم ذكر الخضرة التي هي من حظّ النظر فمن عجّلت له منحة والتبست بقلبه وكان لا بدّ من مفارقتها لم ينتفع بما بعدها بل بقي في عذاب الفراق منكوساً وفي ظلمة الوحشة محبوساً، وإليه أشار التنزيل الإلهيّ: **﴿من كان يريد العاجلة عجّلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثمّ جعلنا له جهنّم يصليها مذموماً مدحوراً﴾**[1] ثمّ لمّا نبّه على معائبها أمر بالارتحال عنها ولم يأمر به مطلقا بل لا بدّ معه من استصحاب أحسن الأزواد إذ كانت الطريق المأمور بسلوكها في غاية الوعارة مع طولها وقصر المدّة التي يتّخذ فيها الزاد فلا ينفع إذن إلّا التقوى الأبقى الذي لا يتطرّق إليه فناء. ولا تفهمنّ ـ أعدّك الله لافاضة رحمته ـ من هذا الارتحال الحسيّ الحاصل لك من بعضها إلى بعض، ولا من الزاد المأكول الحيوانيّ فإنّ أحسن ما يحضرنا منه ربّما كان منهيّاً عنه؛ بل المأمور به ارتحال آخر يتبيّنه من تصوّر سلوك طريق الآخرة. فإنّك لمّا علمت أنّ الغاية من التكاليف البشريّة هي الوصول إلى حضرة الله ومشاهدة جلال كبريائه علمت من ذلك أنّ الطريق إلى هذا المطلوب هي آثار جوده وشواهد آلائه وأنّ القاطع لمراحل تلك الطريق ومنازلها هو قدم عقلك مقتدياً بأعلامها الواضحة كلّما نزل منها منزلاً أعدّته المعرفة به لاستلاحة أعلام منزل آخر أعلى وأكرم منه كما قال تعالى: **﴿لتركبنّ طبقاً عن طبق﴾** إلى أن يستقرّ في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وإذا تصوّرت معنى الارتحال وقد علمت أنّ لكلّ ارتحال وسفر زاداً علمت أنّ أكرم الزاد وأحسنه في هذا الطريق ليس إلّا التقوى والأعمال الصالحة التي هي غذاء للعقول ومادّة حياتها، وإليه الإشارة بقوله: **﴿وتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوى﴾** وأشار بقوله: ما بحضرتكم إلى ما يمكننا أن نأتي به من الأعمال الصالحة في حياتنا الدنيا، ثمّ عقّب الأمر

---

(١) ١٧ ـ ١٩.

باتّخاذ الزاد بالنهي عن طلب الزيادة على ما يقوّم به صورة البدن من متاع الدنيا إذ كان البدن بمنزلة مركوب تقطع به النفس مراحل طريقها فالزيادة على المحتاج إليه ممّا يحوج الراكب إلى الاهتمام به والعناية بحفظه المستلزم لمحبّته. وكلّ ذلك مثقل للظهر ومشغل عن الجهة المقصودة. وذلك معنى قوله: ولا تسألوا منها فوق الكفاف، ولا تطلبوا منها أكثر من البلاغ، ولا تمدّن أعينكم فيها إلى ما متّع المترفون فتقصروا في الرحيل وتشغلوا بطلب مثل ما شاهدتم، وبالله التوفيق.

٤٥ ـ ومن كلام له (عليه السلام) عند عزمه على المسير إلى الشام

أَللّهُمَّ إنّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ، وَسُوءِ الْمَنْظَرِ فِي الأَهْلِ وَالْمَالِ. أَللّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَأَنْتَ الْخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ وَلَا يَجْمَعُهُمَا غَيْرُكَ؛ لِأَنَّ الْمُسْتَخْلَفَ لَا يَكُونُ مُسْتَصْحَباً، وَالْمُسْتَصْحَبَ لَا يَكُونُ مُسْتَخْلَفاً.

أقول: روي: أنّه عليه السلام دعا هذا الدعاء عند وضعه رجله في الركاب متوجهًا إلى حرب معاوية.

ووعثاء السفر مشقّته، وأصله المكان المتعب لكثرة رمله، وغوص الأرجل فيه. والكآبة: الحزن.

يشتمل هذا الفصل على اللجأ إلى الله في خلاص طريقه المتوجّه فيها بدءاً وعوداً من الموانع الصارفة عن تمام المقصود، وفي سلامة الأحوال المهمّة التي تتعلّق النفس بها عن المشتغلات البدنيّة المعوّقة عن عبادة الله. وأعظمها أحوال النفس، ثمّ ما يصحبها من أهل ومال وولد. ثمّ ما عقّب ذلك بالإقرار بشمول عنايته وجميل رعايته وصحبته تقريراً لقوله تعالى: ﴿**وهو معكم أينما كنتم**﴾ إذ شأن الصاحب العناية بأمور صاحبه، وشأن الخليفة على الشيء العناية بذلك وحفظه ممّا يوجب له ضرراً، واستلزم جمعه له بين هذين الحكمين وهما الخلافة والاستصحاب بقوله: ولا يجمعهما غيرك. كونه تعالى

بريئاً عن الجهة والجسميّة إذ كان اجتماعهما ممتنعاً للأجسام. إذ لا يكون جسم مستصحباً مستخلفاً في حال واحد، وأكّد ذلك وبيّنه بقوله: لأنّ المستخلف لا يكون مستصحباً، والمستصحب لا يكون مستخلفاً.

فإن قلت: هذا الحصر إنّما يتمّ لو قلنا: إنّ كلّ ما ليس بذي جهة هو واجب الوجود. وهذا مذهب خاصّ. فما وجه صحّته مطلقا؟.

قلت: الحصر صادق على كلّ تقدير فإنّه على تقدير ثبوت أمور مجرّدة عن الجسميّة والجهة سوى الحقّ سبحانه فالمستحقّ للجمع بين هذين الأمرين بالذات والأولى هو الله تعالى، وما سواه فبالعرض. فيحمل على ذلك الاستحقاق.

ولنبحث عن فائدة الدعاء وسبب إجابته فإنّه ربما تعرض لبعض الأذهان شبهة فيقول: إما أن يكون المطلوب بالدعاء معلوم الوقوع لله أو معلوم اللاوقوع .

وعلى التقديرين لا فائدة في الدعاء لأنّ ما علم الله وقوعه وجب وما علم عدمه امتنع. فنقول في الجواب عن هذا الوهم: إنّ كلّ كائن فاسد موقوف في كونه وفساده على شرائط توجد وأسباب تعدّ لأحدهما لا يمكن بدونها كما علمت ذلك في مظانّه. وإذا جاز ذلك فلعلّ الدعاء من شرائط ما يطلب به. وهما وإن كانا معلومي الوقوع لله وهو سببهما وعلّتهما الأولى إلّا أنّه هو الذي ربط أحدهما بالآخر فجعل سبب وجود ذلك الشيء الدعاء كما جعل سبب صحّة المريض شرب الدواء وما لم يشرب الدواء لم يصحّ. وأمّا سبب إجابته فقال العلماء: هو توافي الأسباب. وهو أن يتوافى سبب دعاء رجل مثلاً فيما يدعو فيه وسائر أسباب وجود ذلك الشيء معا عن الباري تعالى، لحكمة إلهيّة على ما قدّر وقضى. ثمّ الدعاء واجب، وتوقّع الإجابة واجب. فإنّ انبعاثنا للدعاء سببه من هناك ويصير دعاؤنا سبباً للإجابة. وموافاة الدعاء لحدوث الأمر المدعوّ لأجله هما معلولا علّة واحدة، وقد يكون أحدهما بواسطة الآخر، وقد يتوهّم أنّ السماويّات تنفعل عن الأرضيّة وذلك أنّا ندعو فيستجاب لنا. وذلك باطل لأنّ المعلول لا يفعل في علّته البتّة. وإذا لم يستجب الدعاء لداع

وإن كان يرى أنّ الغاية التي يدعو لإجابتها نافعة فالسبب في عدم الإجابة أنّ الغاية النافعة ربّما لا تكون نافعة بحسب مراده بل بحسب نظام الكلّ فلذلك تتأخّر إجابة دعائه أو لا يستجاب له ، وبالجملة يكون عدم الإجابة لفوات شرط من شروط ذلك المطلوب حال الدعاء .

واعلم أنّ النفس الزكيّة عند الدعاء قد يفيض عليها من الأوّل قوّة تصير بها مؤثّرة في العناصر فتطاوعها متصرّفة على إرادتها فيكون ذلك إجابة للدعاء فإنّ العناصر موضوعة لفعل النفس فيها. واعتبار ذلك في أبداننا فإنّا ربّما تخيّلنا شيئاً فتتغيّر أبداننا بحسب ما يقتضيه أحوال نفوسنا وتخيّلاتها، وقد يمكن أن تؤثّر النفس في غير بدنها كما تؤثّر في بدنها، وقد تؤثّر في نفس غيرها، وقد أشرنا إلى ذلك في المقدّمات وقد يستجيب الله لتلك النفس إذا دعت فيما تدعو فيه إذا كانت الغاية التي تطلبها بالدعاء نافعة بحسب نظام الكلّ، وبالله التوفيق.

٤٦ ـ ومن كلام له (عليه السلام) في ذكر الكوفة

كَأَنِّي بِكِ يَا كُوفَةُ تُمَدِّينَ مَدَّ ٱلأَدِيمِ الْعُكَاظِيِّ ، تُعْرَكِين بِالنَّوَازِلِ ، وَتُرْكَبِينَ بِالزَّلَازِلِ ، وَإِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّهُ مَا أَرَادَ بِكِ جَبَّارٌ سُوءاً إِلَّا ٱبْتَلَاهُ ٱللهُ بِشَاغِلٍ ، وَرَمَاهُ بِقَاتِلٍ .

أقول : عكاظ بالضمّ : اسم موضع بناحية مكّة كانت العرب تجتمع به في كلّ سنة ويقيمون به سوقاً مدّة شهر ، ويتبايعون ويتناشدون الأشعار ، ويتفاخرون وفي ذلك قول أبي ذويب :

إذا بني القباب على عكاظ   وقام البيع واجتمع الألوف

فلمّا جاء الإسلام رفع ذلك، وأديم عكاظيّ منسوب إليها لكثرة ما كان يباع منه بها. والأديم: واحد وجمعه أدم، وربّما جمع على آدمة كرغيف وأرغفة. والعرك. الدلك. والنوازال: المصائب. والخطاب هنا لشاهدحال المدينة التي هي الكوفة. وبك هو خبر كأنّ، وتمدّين وتعركين وتركبين في

موضع النصب على الحال، وتقدير الخطاب كأني حاضر بك ومشاهد لحالك المستقبلة حال تجاذب أيدي الظالمين لأهلك بأنواع الظلم، وهو المكنّى عنه بمدّها. وشبّه ذلك بمدّ الأديم، ووجه الشبه شدّة ما يقع بهم من الظلم والبلاء كما أنّ الأديم مستحكم الدباغ يكون شديد المدّ. واستعار العرك ملاحظةً لذلك الشبه، ولفظ الركوب ملاحظة لشبهها بشقي المطايا وكذلك لفظ الزلازل ملاحظة لشبهها فيما يقع لهم من الظلم الموجب لاضطراب الحال بالأرض ذات الزلازل. ثمّ أشار إلى مشاهدة ثانية لما يقع لمن أراد بهم سوءً وأوقع بهم ما أوقع من البلاء فأشار إلى كونهم جبابرة ثمّ إلى ابتلاء الله بعضهم بشاغل في نفسه عمّا يريد من سوء أو يهمّ به من حادث خراب ورمى بعضهم بقاتل. فأمّا المصائب التي ابتلي بها أهل الكوفة والنوازل التي عركوا بها فكثيرة مشهورة في كتب التواريخ، وأمّا الجبابرة التي أرادوا بها سوءاً وطغوا فيها فأكثروا فيها الفساد فصبّ عليهم ربّك سوط عذاب وأخذهم بذنوبهم وما كان لهم من الله واق فجماعة فممّن ابتلي بشاغل فيها زياد. روي أنه كان قد جمع الناس في المسجد ليأمرهم بسبّ عليّ عليه السلام والبراءة منه ويبتليهم بذلك فيقتل من يعصيه فيه فبيناهم مجتمعين إذ خرج حاجبه فأمرهم بالانصراف، وقال: إن الأمير مشغول عنكم وكان في تلك الساعة قد رمي (أصاب خ) بالفالج، ومنهم ابنه عبد الله وقد أصابه الجذام، ومنهم الحجّاج. وقد تولّدت في بطنه الحيّات واحترق دبره حتى هلك، ومنهم عمرو بن هبيرة وابنه يوسف وقد أصابهما البرص، ومنهم خالد القسريّ وقد ضرب وحبس حتى مات جوعاً، وأمّا الذين رماهم الله بقاتل فعبيد الله بن زياد، ومصعب ابن الزبير، والمختار ابن أبي عبيدة الثقفيّ، ويزيد بن المهلّب. وأحوالهم مشهورة من رامها طالع التاريخ.

٤٧ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

عند المسير إلى الشام

أَلْحَمْدُ لله كُلَّمَا وَقَبَ لَيْلٌ وَغَسَقَ، وَالْحَمْدُ لله كُلَّمَا لاَحَ نَجْمٌ وَخَفَقَ،

وَٱلْحَمْدُ للهِ غَيْرَ مَفْقُودِ ٱلْإِنْعَامِ وَلَا مُكَافِىءِ ٱلْإِفْضَالِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَعَثْتُ مُقَدِّمَتِي، وَأَمَرْتُهُمْ بِلُزُومِ هٰذَا ٱلْمِلْطَاطِ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرِي، وَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ أَقْطَعَ هٰذِهِ ٱلنُّطْفَةَ إِلَى شِرْذِمَةٍ مِنْكُمْ مُوطِنِينَ أَكْنَافَ دَجْلَةَ، فَأُنْهِضَهُمْ مَعَكُمْ إِلَى عَدُوِّكُمْ، وَأَجْعَلَهُمْ مِنْ أَمْدَادِ ٱلْقُوَّةِ لَكُمْ.

قال الشريف: أقول: يعني عليه السلام بالملطاط السمت الذي أمرهم بنزوله وهو شاطىء الفرات، ويقال ذلك لشاطىء البحر، وأصله ما استوى من الأرض. ويعني بالنطفة ماء الفرات. وهو من غريب العبارات وأعجبها

أقول: روي أنّ هذه الخطبة خطب بها عليه السلام وهو بالنخيلة خارجاً من الكوفة متوجّهاً إلى صفّين لخمس بقين من شوال سنة سبع وثلاثين.

وقب الليل: دخل. وغسق: أظلم. وخفق النجم: غاب. ومقدّمة الجيش: أوّله. والشرذمة: النفر اليسير. والأكناف: النواحي. وطن البقعة واستوطنها: اتّخذها وطنا. والأمداد: جمع مدد، وهو ما يمدّ به الجيش من الجند.

واعلم أنّه قيّد حمد الله باعتبار تكرّر وقتين ودوام حالين. والمقصود وإن كان دوام الحمد لله إلّا أنّ في التقييد بالقيود المذكورة فوائد:

الأوّل: قوله: كلّما وقب ليل وغسق. فيه تنبيه على كمال قدرة الله تعالى في تعاقب الليل والنهار واستحقاقه دوام الحمد بما يلزم ذلك من ضروب الامتنان.

الثاني: قوله : كلّما لاح نجم وخفق. فيه تنبيه على ما يلزم طلوع الكواكب وغروبها من الحكمة وكمال النعمة كما سبقت الإشارة إليه .

الثالث: الحمد له حال كونه غير مفقود الإنعام. وقد تكرّرت الإشارة إلى فائدة هذا القيد.

الرابع: كونه غير مكافىء الإفضال. وفائدته التنبيه على أنّ إفضاله لا يمكن أن يقابل بجزاء. إذ كانت القدرة على الحمد والثناء نعمة ثانية. وقد

سبق بيان ذلك أيضاً.

فأمّا قوله: أمّا بعد. إلى آخره.

فخلاصته أنّه عليه السلام لمّا أراد التوجّه إلى صفّين بعث زياد بن النصر وشريح بن هاني في اثني عشر ألف فارس مقدّمة له وأمرهم أن يلزموا شاطىء الفرات فأخذوا شاطئها من قبل البرّ ممّا يلي الكوفة حتى بلغوا عانات. فذلك معنى أمره لهم بلزوم الملطاط وهو سمت شاطىء الفرات، وأمّا هو عليه السلام فلمّا خرج من الكوفة انتهى إلى المدائن فحذّرهم ووعظهم ثمّ سار عنهم وخلّف عليهم عديّ بن حاتم فاستخلص منهم ثمان مائة رجل فسار بهم وخلّف معهم ابنه زيدا فلحقه في أربعمائة رجل منهم فذلك قوله: وقد رأيت [أردت خ] أن أقطع هذه النطفة: أي الفرات إلى شرذمة منكم موطنين أكناف دجلة وهم أهل المدائن. فأمّا المقدّمة فإنّه لمّا بلغهم أنّه عليه السلام ساق على طريق الجزيرة وأنّ معاوية خرج في جموعه لاستقباله كرهوا أن يلقوهم وبينهم وبين عليّ عليه السلام الفرات مع قلّة عددهم فرجعوا حتى عبروا الفرات من هيت ولحقوا به فصوّب آراءهم في الرجوع إليه. وباقي الكلام ظاهر.

٤٨ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

أَلْحَمْدُ للهِ ٱلَّذِي بَطَنَ خَفِيَّاتِ ٱلْأُمُورِ، وَدَلَّتْ عَلَيْهِ أَعْلَامُ ٱلظُّهُورِ، وَٱمْتَنَعَ عَلَى عَيْنِ ٱلْبَصِيرِ؛ فَلَا عَيْنَ مَنْ لَمْ يَرَهُ تُنْكِرُهُ، وَلَا قَلْبَ مَنْ أَثْبَتَهُ يُبْصِرُهُ: سَبَقَ فِي ٱلْعُلُوِّ فَلَا شَيْءَ أَعْلَى مِنْهُ. وَقَرُبَ فِي ٱلدُّنُوِّ فَلَا شَيْءَ أَقْرَبُ مِنْهُ. فَلَا ٱسْتِعْلَاؤُهُ بَاعَدَهُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ، وَلَا قُرْبُهُ سَاوَاهُمْ فِي ٱلْمَكَانِ بِهِ: لَمْ يُطْلِعِ ٱلْعُقُولَ عَلَى تَحْدِيدِ صِفَتِهِ، وَلَمْ يَحْجُبْهَا عَنْ وَاجِبِ مَعْرِفَتِهِ، فَهُوَ ٱلَّذِي تَشْهَدُ لَهُ أَعْلَامُ ٱلْوُجُودِ، عَلَى إِقْرَارِ قَلْبِ ذِي ٱلْجُحُودِ ـ تَعَالَى ٱللهُ عَمَّا يَقُولُ ٱلْمُشَبِّهُونَ بِهِ، وَٱلْجَاحِدُونَ لَهُ ـ عُلُوّاً كَبِيراً.

أقول: يقال بطنت الوادي: دخلته. وبطنت الأمر: علمت باطنه. وفي هذا الفصل مباحث جليلة من العلم الإلهيّ وجملة من صفات الربوبيّة:

وإن كان يرى أنّ الغاية التي يدعو لإجابتها نافعة فالسبب في عدم الإجابة أنّ الغاية النافعة ربّما لا تكون نافعة بحسب مراده بل بحسب نظام الكلّ فلذلك تتأخّر إجابة دعائه أو لا يستجاب له ، وبالجملة يكون عدم الإجابة لفوات شرط من شروط ذلك المطلوب حال الدعاء .

واعلم أنّ النفس الزكيّة عند الدعاء قد يفيض عليها من الأوّل قوّة تصير بها مؤثّرة في العناصر فتطاوعها متصرّفة على إرادتها فيكون ذلك إجابة للدعاء فإنّ العناصر موضوعة لفعل النفس فيها. واعتبار ذلك في أبداننا فإنّا ربّما تخيّلنا شيئاً فتتغيّر أبداننا بحسب ما يقتضيه أحوال نفوسنا وتخيّلاتها، وقد يمكن أن تؤثّر النفس في غير بدنها كما تؤثّر في بدنها، وقد تؤثّر في نفس غيرها، وقد أشرنا إلى ذلك في المقدّمات وقد يستجيب الله لتلك النفس إذا دعت فيما تدعو فيه إذا كانت الغاية التي تطلبها بالدعاء نافعة بحسب نظام الكلّ، وبالله التوفيق.

٤٦ ـ ومن كلام له (عليه السلام) في ذكر الكوفة

كَأَنِّي بِكِ يَا كُوفَةُ تُمَدِّينَ مَدَّ ٱلأَدِيمِ الْعُكَاظِيِّ ، تُعْرَكِين بِالنَّوَازِلِ ، وَتُرْكَبِينَ بِالزَّلَازِلِ ، وَإِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّهُ مَا أَرَادَ بِكِ جَبَّارٌ سُوءاً إِلاَّ ٱبْتَلاهُ ٱللهُ بِشَاغِلٍ ، وَرَمَاهُ بِقَاتِلٍ .

أقول : عكاظ بالضمّ : اسم موضع بناحية مكّة كانت العرب تجتمع به في كلّ سنة ويقيمون به سوقاً مدّة شهر ، ويتبايعون ويتناشدون الأشعار ، ويتفاخرون وفي ذلك قول أبي ذويب :

إذا بني القباب على عكاظ   وقام البيع واجتمع الألوف

فلمّا جاء الإسلام رفع ذلك، وأديم عكاظيّ منسوب إليها لكثرة ما كان يباع منه بها. والأديم: واحد وجمعه أدم، وربّما جمع على آدمة كرغيف وأرغفة. والعرك. الدلك. والنوازال: المصائب. والخطاب هنا لشاهدحال المدينة التي هي الكوفة. وبك هو خبر كأنّ، وتمدّين وتعركين وتركبين في

موضع النصب على الحال، وتقدير الخطاب كأني حاضر بك ومشاهد لحالك المستقبلة حال تجاذب أيدي الظالمين لأهلك بأنواع الظلم، وهو المكنّى عنه بمدّها. وشبّه ذلك بمدّ الأديم، ووجه الشبه شدّة ما يقع بهم من الظلم والبلاء كما أنّ الأديم مستحكم الدباغ يكون شديد المدّ. واستعار العرك ملاحظةً لذلك الشبه، ولفظ الركوب ملاحظة لشبهها بشقي المطايا وكذلك لفظ الزلازل ملاحظة لشبهها فيما يقع لهم من الظلم الموجب لاضطراب الحال بالأرض ذات الزلازل. ثمّ أشار إلى مشاهدة ثانية لما يقع لمن أراد بهم سوءً وأوقع بهم ما أوقع من البلاء فأشار إلى كونهم جبابرة ثمّ إلى ابتلاء الله بعضهم بشاغل في نفسه عمّا يريد من سوء أو يهمّ به من حادث خراب ورمى بعضهم بقاتل. فأمّا المصائب التي ابتلي بها أهل الكوفة والنوازل التي عركوا بها فكثيرة مشهورة في كتب التواريخ، وأمّا الجبابرة التي أرادوا بها سوءاً وطغوا فيها فأكثروا فيها الفساد فصبّ عليهم ربّك سوط عذاب وأخذهم بذنوبهم وما كان لهم من الله واق فجماعة فممّن ابتلي بشاغل فيها زياد. روي أنّه كان قد جمع الناس في المسجد ليأمرهم بسبّ عليّ عليه‌السلام والبراءة منه ويبتليهم بذلك فيقتل من يعصيه فيه فبيناهم مجتمعين إذ خرج حاجبه فأمرهم بالانصراف، وقال: إن الأمير مشغول عنكم وكان في تلك الساعة قد رمي (أصاب خ) بالفالج، ومنهم ابنه عبد الله وقد أصابه الجذام، ومنهم الحجّاج. وقد تولّدت في بطنه الحيّات واحترق دبره حتى هلك، ومنهم عمرو بن هبيرة وابنه يوسف وقد أصابهما البرص، ومنهم خالد القسريّ وقد ضرب وحبس حتى مات جوعاً، وأمّا الذين رماهم الله بقاتل فعبيد الله بن زياد، ومصعب ابن الزبير، والمختار ابن أبي عبيدة الثقفيّ، ويزيد بن المهلّب. وأحوالهم مشهورة من رامها طالع التاريخ.

٤٧ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

عند المسير إلى الشام

أَلْحَمْدُ للهِ كُلَّمَا وَقَبَ لَيْلٌ وَغَسَقَ، وَٱلْحَمْدُ للهِ كُلَّمَا لاَحَ نَجْمٌ وَخَفَقَ،

وَٱلْحَمْدُ للهِ غَيْرِ مَفْقُودِ ٱلْإنْعَامِ وَلَا مُكَافِىءِ ٱلْإفْضَالِ .

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَعَثْتُ مُقَدِّمَتِي، وَأَمَرْتُهُمْ بِلُزُومِ هٰذَا ٱلْمِلْطَاطِ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرِي، وَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ أَقْطَعَ هٰذِهِ ٱلنُّطْفَةَ إِلَى شِرْذِمَةٍ مِنْكُمْ مُوطِنِينَ أَكْنَافَ دَجْلَةَ، فَأُنْهِضَهُمْ مَعَكُمْ إِلَى عَدُوِّكُمْ، وَأَجْعَلَهُمْ مِنْ أَمْدَادِ ٱلْقُوَّةِ لَكُمْ.

قال الشريف: أقول: يعني عليه السلام بالملطاط السمت الذي أمرهم بنزوله وهو شاطىء الفرات، ويقال ذلك لشاطىء البحر، وأصله ما استوى من الأرض. ويعني بالنطفة ماء الفرات. وهو من غريب العبارات وأعجبها

أقول: روي أنّ هذه الخطبة خطب بها عليه السلام وهو بالنخيلة خارجاً من الكوفة متوجّهاً إلى صفّين لخمس بقين من شوال سنة سبع وثلاثين.

وقب الليل: دخل. وغسق: أظلم. وخفق النجم: غاب. ومقدّمة الجيش: أوّله. والشرذمة: النفر اليسير. والأكناف: النواحي. وطن البقعة واستوطنها: اتّخذها وطنا. والأمداد: جمع مدد، وهو ما يمدّ به الجيش من الجند.

واعلم أنّه قيّد حمد الله باعتبار تكرّر وقتين ودوام حالين. والمقصود وإن كان دوام الحمد لله إلّا أنّ في التقييد بالقيود المذكورة فوائد:

الأوّل: قوله: كلّما وقب ليل وغسق. فيه تنبيه على كمال قدرة الله تعالى في تعاقب الليل والنهار واستحقاقه دوام الحمد بما يلزم ذلك من ضروب الامتنان.

الثاني: قوله : كلّما لاح نجم وخفق. فيه تنبيه على ما يلزم طلوع الكواكب وغروبها من الحكمة وكمال النعمة كما سبقت الإشارة إليه .

الثالث: الحمد له حال كونه غير مفقود الإنعام. وقد تكرّرت الإشارة إلى فائدة هذا القيد.

الرابع: كونه غير مكافىء الإفضال. وفائدته التنبيه على أنّ إفضاله لا يمكن أن يقابل بجزاء. إذ كانت القدرة على الحمد والثناء نعمة ثانية. وقد

سبق بيان ذلك أيضاً.

فأمّا قوله: أمّا بعد. إلى آخره.

فخلاصته أنّه عليه السلام لمّا أراد التوجّه إلى صفّين بعث زياد بن النصر وشريح بن هاني في اثني عشر ألف فارس مقدّمة له وأمرهم أن يلزموا شاطىء الفرات فأخذوا شاطئها من قبل البرّ ممّا يلي الكوفة حتى بلغوا عانات. فذلك معنى أمره لهم بلزوم الملطاط وهو سمت شاطىء الفرات، وأمّا هو عليه السلام فلمّا خرج من الكوفة انتهى إلى المدائن فحذّرهم ووعظهم ثمّ سار عنهم وخلّف عليهم عديّ بن حاتم فاستخلص منهم ثمان مائة رجل فسار بهم وخلّف معهم ابنه زيدا فلحقه في أربعمائة رجل منهم فذلك قوله: وقد رأيت [أردت خ] أن أقطع هذه النطفة: أي الفرات إلى شرذمة منكم موطنين أكناف دجلة وهم أهل المدائن. فأمّا المقدّمة فإنّه لمّا بلغهم أنّه عليه السلام ساق على طريق الجزيرة وأنّ معاوية خرج في جموعه لاستقباله كرهوا أن يلقوهم وبينهم وبين عليّ عليه السلام الفرات مع قلّة عددهم فرجعوا حتى عبروا الفرات من هيت ولحقوا به فصوّب آراءهم في الرجوع إليه. وباقي الكلام ظاهر.

٤٨ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

أَلْحَمْدُ للهِ ٱلَّذِي بَطَنَ خَفِيَّاتِ ٱلْأُمُورِ، وَدَلَّتْ عَلَيْهِ أَعْلَامُ ٱلظُّهُورِ، وَٱمْتَنَعَ عَلَى عَيْنِ ٱلْبَصِيرِ؛ فَلَا عَيْنَ مَنْ لَمْ يَرَهُ تُنْكِرُهُ، وَلَا قَلْبَ مَنْ أَثْبَتَهُ يُبْصِرُهُ: سَبَقَ فِي ٱلْعُلُوِّ فَلَا شَيْءَ أَعْلَى مِنْهُ. وَقَرُبَ فِي ٱلدُّنُوِّ فَلَا شَيْءَ أَقْرَبُ مِنْهُ. فَلَا ٱسْتِعْلَاؤُهُ بَاعَدَهُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ، وَلَا قُرْبُهُ سَاوَاهُمْ فِي ٱلْمَكَانِ بِهِ: لَمْ يُطْلِعِ ٱلْعُقُولَ عَلَى تَحْدِيدِ صِفَتِهِ، وَلَمْ يَحْجُبْهَا عَنْ وَاجِبِ مَعْرِفَتِهِ، فَهُوَ ٱلَّذِي تَشْهَدُ لَهُ أَعْلَامُ ٱلْوُجُودِ، عَلَى إِقْرَارِ قَلْبِ ذِي ٱلْجُحُودِ ـ تَعَالَى ٱللهُ عَمَّا يَقُولُ ٱلْمُشَبِّهُونَ بِهِ، وَٱلْجَاحِدُونَ لَهُ ـ عُلُوّاً كَبِيراً.

أقول: يقال بطنت الوادي: دخلته. وبطنت الأمر: علمت باطنه. وفي هذا الفصل مباحث جليلة من العلم الإلهيّ وجملة من صفات الربوبيّة:

أوّلها: كونه تعالى بطن خفيّات الأمور ويفهم منه معنيان:

أحدهما: كونه داخلاً في جملة الأمور الخفيّة، ولمّا كان بواطن الأمور الخفيّة أخفى من ظواهرها كان المفهوم من كونها بطنها أنّه أخفى منها عند العقول.

الثاني: أن يكون المعنى أنّه نفذ علمه في بواطن خفيّات الأمور.

أمّا المعنى الأول فبرهانه أنك علمت أنّ الإدراك إمّا حسيّ أو عقليّ، ولمّا كان الباري تعالى مقدّساً عن الجسميّة منزّها عن الوضع والجهة استحال أن يدركه شيء من الحواسّ الظاهرة والباطنة، ولمّا كانت ذاته بريئة عن أنحاء التركيب استحال أن يكون للعقل اطّلاع عليها بالكنه فخفاؤه إذن على جميع الإدراكات ظاهر، وكونه أخفى الأمور الخفية واضح.

وأمّا الثاني: فقد سبق منّا بيان أنّه عالم الخفيّات والسرائر.

وثانيها: كونه تعالى قد دلّت عليه أعلام الظهور، وكنّى بأعلام الظهور عن آياته وآثاره في العالم الدالّة على وجوده الظاهر في كلّ صورة منها كما قال:

وفي كلّ شيء له آية تدلّ على أنّه واحد

وهي كناية بالمستعار، ووجه المشابهة ما بينهما من الاشتراك في الهداية. وإلى هذا الأعلام الإشارة بقوله تعالى: **﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتّى يتبيّن لهم أنّه الحقّ﴾**[1].

واعلم أنّ هذا الطريق من الاستدلال هي طريق المليّين وسائر فرق المتكلّمين فإنّهم يستدلّون أوّلاً على حدوث الأجسام والأعراض، ثمّ يستدلّون بحدوثها وتغيّراتها على وجود الخالق، ثمّ بالنظر في أحوال المخلوقات على صفاته واحدة واحدة. مثلاً بإحكامها وإتقانها على كون فاعلها عالماً حكيما.

---

(١) ٤١ - ٥٣.

وبتخصيص بعضها بأمر ليس للآخر على كونه مريداً. ونحو ذلك، وكذلك الحكماء الطّبيعيّون يستدلّون أيضاً بوجود الحركة على محرّك، وبامتناع اتّصال المتحرّكات لا إلى أوّل على وجود محرّك أوّل غير متحرّك، ثمّ يستدلّون من ذلك على وجود مبدأ أوّل، وأمّا الإلهيّون فلهم في الاستدلال طريق آخر وهو أنّهم ينظرون أوّلا في مطلق الوجود أهو واجب أو ممكن، ويستدلّون من ذلك على إثبات واجب، ثمَّ بالنظر في لوازم الوجوب من الوحدة الحقيقيّة على نفي الكثرة بوجهٍ ما المستلزمة لعدم الجسميّة والعرضيّة والجهة وغيرها، ثمّ يستدلّون بصفاته على كيفيّة صدور أفعاله عنه واحداً بعد آخر، وظاهر أنّ هذا الطريق أجلّ وأشرف من الطريق الأولى، وذلك لأنّ الاستدلال بالعلّة على المعلول أولى البراهين بإعطاء اليقين لكون العلم بالعلّة مستلزماً للعلم بالمعلول المعيّن من غير عكس. ولمّا كان صدر الآية المذكورة إشارة إلى الطريقة الأولى فتمامها إشارة إلى هذه الطريقة وهو قوله تعالى: ﴿**أولم يكف بربك أنّه على كلّ شيء شهيد**﴾ قال بعض العلماء: وإنّه طريق الصدّيقين الذين يستشهدون به لا عليه: أي يستدلّون بوجوده على وجود كلّ شيء إذ هو منه، ولا يستدلّون عليه بوجود شيء؛ بل هو أظهر وجوداً من كلّ شيء فإن خفي مع ظهوره فلشدّة ظهوره، وظهوره سبب بطونه، ونوره هو حجاب نوره إذ كلّ ذرّة من ذرّات مبدعاته ومكوّناته فلها عدّة السنة تشهد بوجوده وبالحاجة إلى تدبيره وقدرته. لا يخالف شيء من الموجودات شيئاً في تلك الشهادات ولا يتخصّص أحدها بعدم الحاجات، وقد ضرب العلماء الشمس مثلاً لنوره في شدّة ظهوره فقالوا: إنّ أظهر الإدراكات التي يساعد عليها الوهم إدراكات الحواسّ، وأظهرها إدراك البصر وأظهر مدرك للبصر نور الشمس المشرق على الأجسام، وقد أشكل ذلك على جماعة حتى قالوا: الأشياء الملوّنة ليس فيها إلا ألوانها فقط من سواد ونحوه فأما أن فيها مع ذلك ضوء يقارن اللون فلا. فإذن أريد تنبيه هؤلاء على سهوهم. فطريقة التنبيه بالتفرقة التي يجدونها بين غيبة الشمس بالليل واحتجابها عن الملوّنات، وبين حضورها بالنهار وإشراقها عليها مع بقاء الألوان في الحالين. فإنّ التفرقة بين المستضيء بها وبين المظلم

المحجوب عنها جليّة ظاهرة فيعرف وجود النور إذن بعدمه. ولو فرضت الشمس دائمة الإشراق على الجسم الملوّن لا تغيب عنه لتعذّر على هؤلاء معرفة كون النور شيئاً موجوداً زايداً على الألوان مع أنّه أظهر الأشياء وبه ظهورها، ولو تصوّر الله تعالى وتقدّس عدم أو غيبة لانهدمت السماوات والأرض، وكل ما انقطع نوره عنه لأدركت التفرقة بين الحالين وعلم وجوده قطعاً؛ ولكن لمّا كانت الأشياء كلها في الشهادة به متّفقة، والأحوال كلها على نسق واحد مطّردة متّسقة كان ذلك سبباً لخفائه، فسبحان من احتجب عن الخلق بنوره وخفي عليهم بشدة ظهوره.

ثالثها: إشارة إلى سلوب توجب ملاحظة تركيبها تعظيمه تعالى.

أحدها: كونه ممتنعاً على عين البصير: أي لا يصحّ أن يدرك بحاسّة البصر. وصدق هذا السلب ظاهر بدليل هكذا: الباري تعالى هو غير جسم وغير ذي وضع، وكلّ ما كان كذلك فيمتنع رؤيته بحاسّة البصر فينتج أنّه تعالى ممتنع الرؤية بحاسّة البصر. والمقدّمة الأولى استدلاليّة، والثانية ضروريّة، وربّما استدلّ عليها. والمسألة مستقصاة في الكلام. وإلى ذلك أشار القرآن الكريم: ﴿**لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار**﴾[1].

وثانيها: قوله: فلا عين من لم يره تنكره: أي إنّه سبحانه مع كون البصر لا يدركه بحاسّة بصره لا ينكره من جهة أنّه لا يبصره. إذ كانت فطرته شاهدة بظهور وجوده في جميع آثاره ومع ذلك ليس له سبيل إلى إنكاره من جهة عدم إبصاره إذ كان حظّ العين أن يدرك بها ما صحّ إدراكه. فأمّا أن ينفي بها ما لا يدرك من جهتها فلا.

وثالثها: قوله: ولا قلب من أثبته يبصره: أي من أثبته مع كونه مثبتاً له بقلب لا يبصره، وإنّما أكّد عليه السلام بهذين السلبين الأخيرين لأنّهما يشتملان عند الوهم في مبدإ سماعها على منافاة وكذب إلى أن يقهره العقل على التصديق بهما فكأنّ الوهم يقول في جواب قوله: فلا عين من لم يره تنكره:

---

(1) ٤-١٠٣.

كيف لا تنكر العين شيئا لا تراه، وفي جواب السلب الثاني: كيف يثبت بالقلب مالم يبصر. فلمّا كان في صدق هذين السلبين إزعاج لأوهام السامعين مفرغ لهم إلى ملاحظة جلال الله وتنزيهه وعظمته عمّا لا يجوز عليه كان ذكرهما من أحسن الذكر، ويحتمل أن يريد بقوله: ولا قلب من أثبته يبصره: أي إنّه وإن أثبته من جهة وجوده فيستحيل أن يحيط به علماً.

ورابعها: كونه تعالى قد سبق في العلوّ فلا شيء أعلى منه، وتقريره أنّ العلوّ يقال بالاشتراك على معان ثلاثة:

الأوّل: العلوّ الحسّي المكاني كارتفاع بعض الأجسام على بعض.

الثاني: العلوّ التخيّلي كما يقال للملك الإنساني: إنّه أعلى الناس: أي أعلاهم في الرتبة المتخيّلة كمالاً.

الثالث: العلوّ العقليّ كما يقال في بعض الكمالات العقليّة التي بعضها أعلى من بعض، وكما يقال: السبب أعلى من المسبّب.

إذا عرفت ذلك فنقول: يستحيل أن يكون علوّه تعالى بالمعنى الأول لاستحالة كونه في المكان، ويستحيل أن يكون بالمعنى الثاني لتنزّهه سبحانه عن الكمالات الخياليّة التي يصدق بها العلوّ الخياليّ إذ هي كمالات إضافيّة تتغيّر وتتبدّل بحسب الأشخاص والأوقات، وقد يكون كمالات عند بعض الناس ونقصانات عند آخرين كدول الدنيا بالنسبة إلى العالم الزاهد، ويتطرّق إليه الزيادةوالنقصان ولا شيء من كمال الأوّل الواجب سبحانه كذلك لتنزّهه عن النقصان والتغيّر بوجهٍ ما. فبقي أن يكون علوّه علوّاً عقليّاً مطلقا بمعنى أنّه لا رتبة فوق رتبته بل جميع المراتب العقليّة منحطّة عنه. وبيان ذلك أنّ أعلى مراتب الكمال العقليّ هو مرتبة العلّيّة، ولمّا كانت ذاته المقدّسة هي مبدأ كلّ موجود حسّي وعقليّ وعلّته التامّة المطلقة لا يتصوّر النقصان فيها بوجهٍ ما لا جرم كانت مرتبته أعلى المراتب العقليّة مطلقاً، وله الفوق المطلق في الوجود العاري عن الإضافة إلى شيء وعن إمكان أن يكون فوقه ما هو أعلى منه. وذلك معنى قوله: سبق في العلوّ فلا شيء أعلى منه، فسبقه في علوّه تفرّده في

العلوّ المطلق وفواته لغيره أن يلحقه فيه.

وخامسها: قربه في الدنوّ فلا شيء أدنى منه. وقد أورد عليه السلام القرب هاهنا مقابلاً للبعد اللازم عن السبق في العلوّ فإنّه مستلزم للبعد عن الغير فيه، وأورد الدنوّ مقابلاً للعلوّ، وكما علمت أنَّ العلوّ يقال على المعاني الثلاثة المذكورة بحسب الاشتراك فكذلك الدنوّ يقال على معان ثلاثة مقابلة لها. فيقال مكان فلان أدنى من مكان فلان إذا كان أسفل منه. وإن كان يقال بمعنى القرب أيضاً، ويقال رتبة الملك الفلانيّ أدنى من رتبة السلطان الفلاني إذا كان في مرتبته أقلّ منه، ويقال رتبة المعلول أدنى من رتبة علّته. ويقال على معنى رابع فيقال فلان أدنى إلى فلان وأقرب إليه إذا كان خصّيصاً به مطّلعاً على أحواله أكثر من غيره، والباري تعالى منزّه عن أن يراد بدنوّه أحد المفهومات الثلاثة الأول بل المراد هو المفهوم الرابع فقربه في دنوّه إذن بحسب علمه الذي لا يعزب عنه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء ولا اصغر من ذلك ولا أكبر، وبهذا الاعتبار هو أقرب كلّ قريب وأدنى كلّ داني كما قال تعالى: ﴿**ونحن أقرب إليه من حبل الوريد**﴾ وهو أدنى إلى العبد من نفسه إذ نفس كلّ إنسان لا تعرف نفسها، وهو سبحانه العالم بها الموجد لها فهو إذن القريب في دنوّه الذي لا شيء أقرب منه، وإنّما أورده بلفظ الدنوّ لتحصل المقابلة فتنزعج النفوس السليمة عند إنكار الوهم لاجتماع القرب والبعد والعلوّ والدنوّ في شيء واحد إلى توهّم [تفهّم خ]، المقاصد بها وتطّلع على عظمة الحقّ سبحانه منها.

وقوله: فلا استعلاؤه باعده من شيء من خلقه، ولا قربه ساواهم في المكان به.

تأكيد لردّ الأحكام الوهميّة بالأحكام العقليّة فإنَّ الوهم يحكم بأنّ ما استعلى على الأشياء كان بعده عنها بقدر علوّه عليها. وما قرب منها فقد ساواها في أمكنتها، وذلك لكونه مقصور الحكم على المحسوسات، ونحن لمّا بيّنا أنّ علوّه على خلقه وقربه منهم ليس علوّاً وقرباً مكانيّين بل بمعان

أخرى لا جرم لم يكن استعلاؤه بذلك المعنى على مخلوقاته مباعداً له عن شيء منها ولم يكن منافياً لقربه بالمعنى الذي ذكرناه بل كان الاستعلاء والقرب مجتمعين له، ولم يكن قربه منها أيضاً موجباً لمساواته لها في المكان عناداً للوهم وردّاً لأحكامه الفاسدة في صفات الجلال ونعوت الكمال.

وسادسها: كونه لم تطّلع العقول على تحديد صفته ولم يحجبها عن واجب معرفته. ويفهم من صفته معنيان: أحدهما شرح حقيقة ذاته، والثاني شرح ما لها من صفات الكمال المطلق. وظاهر أنّ العقول لم تطّلع على حصر صفته وتحديدها بالمعنى الأوّل إذ لا حدّ لحقيقته، ولا بالمعنى الثاني أيضاً إذ ليس لما تعتبره العقول من كماله سبحانه نهاية يقف عندها فتكون حدّاً له، وأمّا أنّه سبحانه مع ذلك لم يحجبها عن واجب معرفته فلأنّه تعالى وهب لكلّ نفس قسطاً من معرفته هو الواجب لها بحسب استعدادها لقبوله حتى نفوس الجاحدين له فإنّها أيضاً معترفة بوجوده لشهادة أعلام الوجود وآيات الصنع له على نفس كل جاحد بصدورها عنه بحيث يحكم صريح عقلها وبديهتها بالحاجة لما يشاهده من تلك الآيات إلى صانع حكيم فهو الذي تشهد له أعلام الوجود على إقرار قلب كلّ من جحده بأنّ جحده له إنّما هو رأي اتّبع فيه وهمه مع إقرار قلبه بالتصديق به وشهادة آيات الصنع وشواهد الآثار على صحّة ذلك الإقرار.

واعلم أنّ الجحود على نوعين: أحدهما جحود تشبيه إذ المشبّهون لله بخلقه وإن اختلفوا في كيفيّة التشبيه بأسرهم جاحدون له في الحقيقة. وذلك أنّ المعنى الذي يتصوّرونه ويثبتونه إلهاً ليس هو نفس الإله مع أنّهم ينفون ما سوى ذلك فكانوا نافين للإله الحقّ في المعنى الذي يتصوّرونه، والثاني جحود من لم يثبت صانعاً. وكلا الفريقين جاحد له من وجه، مثبت له من وجه. أمّا المشبّهون فمثبتون له صريحاً جاحدون له لزوماً، وأمّا الآخرون فبالعكس إذ كانوا جاحدين له صريحاً من الجهة التي تثبته العقلاء بها ومقرّون به التزاماً واضطراراً، ولذلك نزّهه عليه السلام على أحوال الفريقين فقال عليه السلام: تعالى الله عمّا

يقول المشبّهون به والجاحدون له علوّاً كبيراً، وحكي أنّ زنديقاً دخل على **الصادق جعفر بن محمد (عليهما السلام)** فسأله عن دليل إثبات الصانع فأعرض عليه‌السلام عنه، ثمّ التفت إليه، وسأله من أين أقبلت وما قصّتك. فقال الزنديق: إنّي كنت مسافراً في البحر فعصفت علينا الريح ذات يوم وتلعّبت بنا الأمواج من كلّ جانب فانكسرت سفينتنا فتعلّقت بخشبةٍ منها ولم تزل الأمواج تقلّبها حتى قذفت بها إلى الساحل وسلمت عليها. فقال له عليه‌السلام: أرأيت الذي كان قلبك إذ تكسّرت السفينة وتلاطمت عليكم أمواج البحر فزعاً إليه مخلصاً في التضرّع له طالباً للنجاة منه فهو إلهك، فاعترف الزنديق بذلك وحسن اعتقاده. وبالجملة فاتّفاق العقول على الشهادة بوجود الصانع سبحانه أمر ظاهر وإن خالطها غواشي الأوهام وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿**وإذا مسّكم الضرّ في البحر ضلّ من تدعون إلاّ إيّاه فلمّا نجّاكم إلى البرّ أعرضتم وكان الإنسان كفوراً**﴾[1] وقوله تعالى: ﴿**حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيّبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجائهم الموج من كلّ مكان وظنّوا أنّهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكوننّ من الشاكرين فلمّا أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحقّ**﴾[2] وبالله التوفيق.

٤٩ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

إِنَّمَا بَدْءُ وُقُوعِ ٱلْفِتَنِ أَهْوَاءٌ تُتَّبَعُ، وَأَحْكَامٌ تُبْتَدَعُ، يُخَالَفُ فِيهَا كِتَابُ ٱللهِ، وَيَتَوَلَّى عَلَيْهَا رِجَالٌ رِجَالاً عَلَى غَيْرِ دِينِ ٱللهِ، فَلَوْ أَنَّ ٱلْبَاطِلَ خَلَصَ مِنْ مِزَاجِ ٱلْحَقِّ لَمْ يَخْفَ عَلَى ٱلْمُرْتَادِينَ، وَلَوْ أَنَّ ٱلْحَقَّ خَلَصَ مِنَ ٱلْبَاطِلِ ٱنْقَطَعَتْ عَنْهُ أَلْسُنُ الْمُعَانِدِينَ، وَلٰكِنْ يُؤْخَذُ مِنْ هذَا ضِغْثٌ، وَمِنْ هٰذَا ضِغْثٌ فَيُخْرَجَانِ! فَهُنَالِكَ يَسْتَوْلِي الشَّيْطَانُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ، وَيَنْجُو ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ ٱللهِ ٱلْحُسْنَى.

---

(١) ١٧ ـ ٦٩.

(٢) ١٠ ـ ٢٢.

أقول: المرتاد: الطالب. والضغث: القبضة من الحشيش.

واعلم أنّ مبدأ وقوع الفتن المؤدّية إلى خراب العالم وفساده إنّما هو اتّباع الهوى والآراء الباطلة والأحكام المبتدعة الخارجة عن أوامر الله، وذلك أنّ المقصود من بعثة الرسل ووضع الشريعة إنّما هو نظام أحوال الخلق في أمر معاشهم ومعادهم فكان كلّ رأي ابتدع أو هوى اتّبع خارجاً عن كتاب الله وسنّة رسوله سبباً لوقوع الفتنة وتبدّد نظام الموجود في هذا العالم .وذلك كأهواء البغاة وآراء الخوارج ونحوها.

وقوله: فلو أنَّ الباطل خلَص من مزاج الحقّ. إلى آخره.

إشارة إلى أسباب تلك الآراء الفاسدة. ومدار تلك الأسباب على امتزاج المقدمات الحقّة بالباطلة في الحجج التي يستعملها المبطلون في استعلام المجهولات فبيّن أنَّ السبب هو ذلك الامتزاج بشرطيّتين متّصلتين.

إحديهما: قوله: فلو أنّ الباطل خلَص من مزاج الحقّ لم يخف على المرتادين. ووجه الملازمة في هذه المتّصلة ظاهر فإنّ مقدّمات الشبهة إذا كانت كلّها باطلة أدرك طالب الحقّ وجه فسادها بأدنى سعي ولم يخف عليه بطلانها، وأمّا استثناء نقيض تاليها فلأنّه لمّا خفي وجه البطلان فيها على طالب الحقّ لم يكن الباطل فيها خالصاً من مزاج الحقّ فكان ذلك هو سبب الغلط واتّباع الباطل لأنّ النتيجة تتبع أخسّ المقدّمتين.

والثانية: قوله: ولو أنّ الحقّ خلَص من [لبس خ] الباطل انقطعت عنه ألسن المعاندين، ووجه الملازمة أيضاً كما مرَّ: أي إنّ مقدّمات الحجّة التي استعملها المبطلون لو كانت كلّها حقّة مرتّبة ترتيباً حقّاً لكانت النتيجة حقّا تنقطع ألسنتهم عن العناد فيه والمخالفة له. وقد حذف عليه السلام كبرى هذين القياسين لأنّهما قياسا ضمير كما سبق، ثمّ أتى بالنتيجة أو ما في معناها وهو قوله: ولكن يؤخذ من هذا ضغث، ومن هذا ضغث: أي من الحقّ والباطل فيمزجان، ولفظ الضغث مستعار، ومقصوده بذلك التصريح بلزوم الآراء الباطلة والأهواء المبتدعة لمزج الحقّ بالباطل. ولذلك قال: وهنالك يستولي

الشيطان على أوليائه: أي إنّه يزيّن لهم اتّباع الأهواء والأحكام الخارجة عن كتاب الله بسبب إغوائهم عن تمييز الحقّ من الباطل فيما سلكوه من الشبهة وينجو الذين سبقت لهم منّا الحسنى: أي من أخذت عناية الله بأيديهم في ظلمات الشبهات فقادتهم فيها بإضافة نور الهداية عليهم إلى تميّز الحقّ من الباطل ﴿**أولئك هم عن النار مبعدون**﴾.

٥٠ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

لما غلب أصحاب معاوية أصحابه عليه السلام على شريعة الفرات بصفين ومنعوهم الماء.

قَدِ آسْتَطْعَمُوكُمُ الْقِتَالَ فَأَقِرُّوا عَلَى مَذَلَّةٍ، وَتَأْخِيرِ مَحَلَّةٍ؛ أَوْ رَوُّوا السُّيُوفَ مِنَ الدِّمَاءِ تُرْوَوْا مِنَ الْمَاءِ؛ فَالْمَوْتُ فِي حَيَاتِكُمْ مَقْهُورِينَ وَالْحَيَاةُ فِي مَوْتِكُمْ قَاهِرِينَ. أَلَا وَإِنَّ مُعَاوِيَةَ قَادَ لُمَّةً مِنَ الْغُوَاةِ. وَعَمسَ عَلَيْهِمُ الْخَبَرَ، حَتَّى جَعَلُوا نُحُورَهُمْ أَغْرَاضَ الْمَنِيَّةِ.

أقول: اللمة بالتخفيف: الجماعة القليلة. وعمس بالتخفيف والتشديد: عمّى وأبهم، ومنه عمس الليل أظلم. والمحلّة: المنزلة. وفي الفصل لطائف.

الأولى: قوله: قد استطعموكم القتال.

استعار لفظ الاستطعام لتحرّشهم بالقتال في منعهم للماء. ووجه الاستعارة استسهالهم للقتال وطلبهم له بمنع الماء الذي هو في الحقيقة أقوى جذباً للقتال من طلب المأكول بالأقوال. ولأنّهم لمّا حازوا الماء أشبهوا في ذلك من طلب الطعام له، ولمّا استلزم ذلك المنع طلبهم للقتال تعيّن أن يشبه ما طلبوا إطعامه.

الثانية: قوله: فأقرّوا على مذلّة، وتأخير محلّة. إلى قوله: الماء.

أمر لهم بأحد لازمين عن منعهم الماء واستطعامهم القتال: إمّا ترك

القتال، أو إيقاعه. وإنّما أورد الكلام بصورة التخيير بين هذين اللازمين وإن لم يكن مراده إلّا القتال لعلمه بأنّهم لا يختارون ترك القتال مع ما يلزم من الإقرار بالعجز والمذلّة والاستسلام للعدوّ وتأخير المنزلة عن رتبة أهل الشرف والشجاعة، وإنّما أورد الوصفين اللازمين لترك القتال. وهما الإقرار على المذلّة وعلى تأخير المحلّة لينفّر بهما عنه ويظهره لهم في صورة كريهة، وإنّما جعل الريّ من الماء الذي هو مشتهى أصحابه في ذلك الوقت لازماً لترويتهم السيوف من الدماء الّتي يلزمها القتال ليريهم القتال في صورة محبوبة تميل طباعهم إليها. ونسبة التروّي إلى السيوف نسبة مجازيّة.

الثالثة: قوله: فالموت في حياتكم مقهورين، والحياة في موتكم قاهرين.

من لطائف الكلام ومحاسنه وهو جذب إلى القتال بأبلغ ما يكن من البلاغة فجذبهم إليه بتصويره لهم أنّ الغاية التي عساهم يفرّون من القتال خوفاً منها وهي الموت موجودة في الغاية التي عساهم يطلبونها من ترك القتال وهي الحياة البدنيّة حال كونهم مقهورين. وتجوّز بلفظ الموت في الشدائد والأهواء التي تلحقهم من عدوّهم لو قهرهم وهي عند العاقل أشدّ بكثير من موت البدن وأقوى مقاساة فإنّ المذلّة وسقوط المنزلة والهضم والاستنقاص عند ذي اللبّ موتات متعاقبة، ويحتمل أن يكون مجازاً في ترك عبادة الله بالجهاد فإنّه موت للنفس وعدم لحياتها برضوان الله، وكذلك جذبه لهم أنّ الغاية التي تفرّون إليها بترك القتال وهي الحياة موجودة في الغاية التي تفرّون منها وهي الموت البدنيّ حال كونهم قاهرين أمّا في الدنيا فمن وجهين: أحدهما: الذكر الباقي الجميل الذي لا يموت ولا يفنى. الثاني أنّ طيب حياتهم الدنيا إنّما يكون بنظام أحوالهم بوجود الإمام العادل وبقاء الشريعة كما هي، وذلك إنّما يكون بإلقاء أنفسهم في غمرات الحرب محافظة على الدين وموت بعضهم فيها. ولفظ الموت مهمل تصدق نسبته إلى الكلّ وإن وجد في البعض، وأمّا في الآخرة فالبقاء الأبدي بالمحافظة على وظائف الله والحياة التامّة في جنّات عدن كما قال تعالى: **﴿ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء**

عند ربّهم يرزقون﴾[1] وفي القرينتين الأوليين السجع المتوازي وفي اللتين بعدهما السجع المطرف، وفي اللتين بعدهما المقابلة.

الرابعة: قوله: ألا وإنّ معاوية.

ذكر للعدوّ برذيلتين، ولأصحابه برذيلتين أمّا الأوليان فكونه قائد غواة، وكونه قد لبّس عليهم الحقّ بالباطل وأراهم الباطل في صورة الحقّ، وأمّا الأخريان لكونهم غواتاً عن الحقّ، وكونهم قد انقادوا للباطل عن شبهة حتى صار جهلهم مركّبة، والغرض من ذلك التنفير عنهم، وقوله: حتى جعلوا نحورهم أغراض المنيّة غاية لأصحاب معاوية من تلبيسه الحقّ عليهم. وكنّى بذلك عن تصدّيهم للموت، ولفظ الغرض مستعار لنحورهم، ووجه المشابهة جعلهم لنحورهم بصدد أن تصيبها سهام المنيّة من الطعن والضرب والذبح ووجوه القتل فأشبهت ما ينصبه الرامي هدفا. وهي استعارة بالكنايه كأنّه حاول أن يستعير للمنيّة لفظ الرامي. وبالله التوفيق.

٥١ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ تَصَرَّمَتْ، وَآذَنَتْ بِوَدَاعٍ، وَتَنَكَّرَ مَعْرُوفُهَا، وَأَدْبَرَتْ حَذَّاءَ فَهِيَ تَحْفِزُ بِالْفَنَاءِ سُكَّانَهَا، وَتَحْدُو بِالْمَوْتِ جِيرَانَهَا، وَقَدْ أَمَرَّ مِنْهَا مَا كَانَ حُلْواً، وَكَدِرَ مِنْهَا مَا كَانَ صَفْواً، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا سَمَلَةٌ كَسَمَلَةِ الإِدَاوَةِ، أَوْ جُرْعَةٌ كَجُرْعَةِ الْمَقْلَةِ، لَوْ تَمَزَّزَهَا الصَّدْيَانُ لَمْ يَنْقَعْ، فَأَزْمِعُوا عِبَادَ ٱللهِ الرَّحِيلَ عَنْ هٰذِهِ الدَّارِ الْمَقْدُورِ عَلَى أَهْلِهَا الزَّوَالُ، وَلَا يَغْلِبَنَّكُمْ فِيهَا ٱلْأَمَلُ وَلَا يَطُولَنَّ عَلَيْكُمُ ٱلْأَمَدُ، فَوَٱللهِ لَوْ حَنَنْتُمْ حَنِينَ الْوُلَّهِ الْعِجَالِ، وَدَعَوْتُمْ بِهَدِيلِ الْحَمَامِ، وَجَأَرْتُمْ جُؤَارَ مُتَبَتِّلِ الرُّهْبَانِ، وَخَرَجْتُمْ إِلَى ٱللهِ مِنَ ٱلْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، الْتِمَاسَ الْقُرْبَةِ إِلَيْهِ فِي ٱرْتِفَاعِ دَرَجَةٍ عِنْدَهُ، أَوْ غُفْرَانِ سَيِّئَةٍ أَحْصَتْهَا كُتُبُهُ، وَحَفِظَهَا رُسُلُهُ، لَكَانَ قَلِيلاً فِيمَا أَرْجُو لَكُمْ مِنْ ثَوَابِهِ، وَأَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ

---

(١) ٣ - ١٦٣.

عِقَابِهِ. وَٱللهِ لَـوِ ٱنْمَاثَتْ قُلُوبُكُمُ ٱنْمِيَـاثاً، وَسَالَتْ عُيُونُكُمْ، مِنْ رَغْبَـةٍ إِلَيْهِ أَوْ رَهْبَةٍ مِنْهُ، دَماً، ثُمَّ عُمِّرْتُمْ فِي الدُّنْيَا مَا الدُّنْيَا بَاقِيَـةٌ، مَا جَزَتْ أَعْمَالُكُمْ، وَلَوْ لَمْ تُبْقُوا شَيْئاً مِنْ جُهْدِكُمْ، أَنْعُمَهُ عَلَيْكُمُ الْعِظَامَ وَهُدَاهُ إِيَّاكُمْ لِلْإِيمَانِ.

أقول: آذنت: أعلمت. وتنكّر معروفها: جهل. وحذّاء: سريعة خفيفة، ويروى بالجيم: أي مقطوعة الخبر والعلاقة. والحفز: السوق الحثيث. والحفز أيضاً الطعن، والسملة بفتح الميم: البقيّة من الماء في الإناء. والمقلة بفتح الميم وسكون القاف: حصاة يقسم بها الماء عند قلّته يعرف بها مقدار ما يسقى كلّ شخص. والتمزّز: تمصّص الشراب قليلا قليلا. والصديان: العطشان. ونقع ينقع: أي سكن عطشه. وأزمعت الأمر وأزمعت عليه: أي ثبت عزمي على فعله. والمقدور: المقدّر الذي لا بدّ من كونه. والأمد: الغاية. والولّه العجال: جمع واله وعجول، وهما من الإبل النوق تفقد أولادها. وهديل الحمامة: نوحها. والجؤار: الصوت المرتفع. والتبتّل: الانقطاع إلى الله بإخلاص النيّة. وانماث الشيء: تحلّل وذاب.

واعلم أنّ مدار هذا الفصل على أمور ثلاثة:

أحدها: التنفير عن الدنيا والتحذير منها والنهي عن تأملها والأمر بالرحيل عنها.

الثاني: التنبيه على عظيم ثواب الله وما ينبغي أن يرجى منه ويلتفت إليه ويقصد بالرحيل بالنسبة إلى ما الناس فيه ممّا يتوهّم خيراً في الدنيا ثمّ على عظيم عقابه وما ينبغي أن يخاف منه.

الثالث: التنبيه على عظمة نعمة الله على الخلق، وأنّه لا يمكن جزاؤها بأبلغ المساعي وأكثر الاجتهاد.

أمّا الأوّل: فأشار بقوله: ألا وإنّ الدنيا قد تصرّمت. إلى قوله: فيها الأمد.

وقد علمت أن تصرّمها هو تقضّي أحوالها الحاضرة شيئاً فشيئاً بالنسبة

إلى من وجد فيها في كلّ حين، وأنّ إذنها بالانقضاء هو إعلامها بلسان حالها لأذهان المعتبرين أنّها لا تبقى لأحد، فأمّاتنكر معروفها: فمعناه تغيّره وتبدّله، ومثاله أنّ الإنسان إذا أصاب لذّة من لذّات الدنيا كصحّة أو أمن أو جاه ونحوه أنس إليه وتوهّم بقاءه له وكان ذلك معروفها الذي أسدته إليه وعرفه وألفه منها، ثمّ إنّه عن قليل يزول ويتبدّل بضدّه فيصير بعد أن كان معروفاً مجهولاً. وتكون الدنيا كصديق تنكّر في صداقته ومزجها بعدواته.

وقوله: وأدبرت حذّاء.

أي ولّت حال ما لا تعلّق لأحد بشيء منها مسرعة، واستعار لفظ الإدبار لانتقال خيراتها عمّن انتقلت عنه بموته أو غير ذلك من وجوه زوالها ملاحظة لشبهها بملك أعرض عن بعض رعيّته برفده وماله وبرّه.

قوله: فهي تحفز بالفناء سكّانها وتحدو بالموت جيرانها.

استعار لها وصفي السائق والحادي استعارة بالكناية. ووجه المشابهة كونهم قاطعين لمدّة العمر بالفناء والموت فهي مصاحبته لهم بذلك كما يصحب السائق والحادي للإبل بالسوق والحداء، وإن أريد بالحفز الطعن فيكون قد تجوّز بنسبته إلى البلاء ملاحظة لشبه مصائب الدنيا بالرماح، وكذلك استعار لفظ الفناء والموت لآلة السوق والحداء ونزّلهما منزلة الحقيقة. ووجه المشابهة كون الموت هو السبب في انتقال الإنسان إلى دار الآخرة كما أنّ الصوت والسوط مثلاً للذين هما آلتا الحداء والسوق هما اللذان بهما يحصل انتقال الإبل من موضع إلى موضع.

وقوله: وقد أمرّ منها ما كان حلواً، وكدر منها ما كان صفواً.

كقوله: وتنكّر معروفها: أي إنّ الأمور التي تقع لذيذة فيها ويجدها الإنسان في بعض أوقاته صافيةً حلوةً خاليةً عن كدورات الأمراض ومرارة التنغيص بالعوارض الكريهة هي في معرض التغيّر والتبدّل بالمرارة والكدر فما من شخص يخاطبه بما ذكر إلاّ ويصدق عليه أنّه قد عرضت له من تلك اللذّات ما استعقب صفوها كدراً وحلاوتها مرارة إمّا من شباب يتبدّل بكبر، أو غنى

بفقر، أوعزّبذلّ، أوصحةبسقم.

وقوله: فلم يبق منها إلا سملة. إلى قوله: لم ينقع.

تقليل وتحقير لما بقي منها لكلّ شخص شخص من الناس فإنّ بقاءها له على حسب بقائه فيها، وبقاء كلّ شخص فيها يسير ووقته قصير. واستعار لفظ السملة لبقيّتها، وشبّهها ببقية الماء في الإداوة، وبجرعة المقلة، ووجه الشبه ما أشار بقوله لو تمزّزها الصديان لم ينقع: أي كما أنّ العطشان الواجد لبقيّة الإداوة والجرعة لو تمصّصها لم ينقع عطشه كذلك طالب الدنيا المتعطّش إليها الواجد لبقيّة عمره ولليسير من الاستمتاع فيه بلذات الدنيا لا يشفى ذلك غليله ولا يسكن عطشه منها، فالأولى إذن تعويد النفس بالفطام عن شهواتها.

وقوله: فأزمعوا عباد الله الرحيل عن هذه الدار.

أمر لهم بعد تحقيرها والتنفير عنها بالإزماع، وتصميم العزم على الرحيل عنها بالالتفات إلى الله والإقبال على قطع عقبات الطريق إليه وهو الرحيل عن الدنيا.

وقوله: المقدور على أهلها الزوال.

تذكير بما لا بدّ من مفارقتها لتخفّ الرغبة فيها ثمّ أعقب ذلك بالنهي عن متابعة الأمل في لذّاتهافإنّه ينسى الآخرة كما سبقت الإشارة إليه، وذكر لفظ المغالبة تذكير بالأنفة واستثارة للحميّة من نفوسهم ثمّ بالنهي عن توهّم طول مدّة الحياة واستبعاد الغاية التي هي الموت فإنّ ذلك يقسي القلب فيورث الغفلة عن ذكر الله كما قال تعالى ﴿**فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون**﴾[1].

وأمّا الثاني: فهو التنبيه على عظيم ثواب الله وعقابه.

فاعلم أنّه لمّا حقّر الدنيا، وحذّر منها، وأمر بالارتحال عنها. أشار بعد

---

(1) ٥٧ ـ ١٥.

ذلك إلى ما ينبغي أن يعظَّم ويلتفت إليه ويرجى ويخشى؛وهو ثواب الله وعقابه، فأشار إلى تعظيمها بتحقير الأسباب والوسائل التي يعتمد عليها العباد وهي غايات جهدهم بالنسبة إلى ما ينبغي أن يرجى من ثوابه ويخشى من عقابه وتلك الأسباب من شدّة الحنين والوله إلى الله والدعاء المستمرّ والتضرّع المشبه بتبتّل الرهبان. هذا في طرف العبادة.

وإنما خصّ التشبيه بمتبتّلي الرهبان لشهرتهم بشدّة التضرّع، وكذلك الخروج إلى الله من الأموال والأولاد هو أشدّ الزهد، ورتّب ذلك في صورة متصّلة مقدّمها قوله: ولو حننتم. إلى قوله: رسله، وتاليها قوله: لكان ذلك قليلاً. إلى قوله: من عقابه. والتماس: مفعول له. وخلاصة هذا المقصود بوجيز الكلام إنّكم لو أتيتم بجميع أسباب التقرّب إلى الله الممكنة لكم من عبادة وزهد ملتمسين بذلك التقرّب إليه في أن يرفع لكم عنده درجة أو يغفر لكم سيّئة أحصتها كتبه وألواحه المحفوظة لكان الذي أرجوه من ثوابه للمتقرّب إليه في أن يرفع منزلته من حضرة قدسه أكثر ممّا يتصوّر المتقرّب أنّه يصل إليه بتقرّبه، ولكان الذي أخافه من عقابه على المتقرّب في غفران سيّئة عنده أكثر من العقاب الذي يتوهّم أنّه يدفعه عن نفسه بتقرّبه. فينبغي لطالب الزيادة في المنزلة عند الله أن يخلص بكلّيته في التقرّب إليه ليصل هو إلى ما هو أعظم ممّا يتوهّم أنّه يصل إليه من المنزلة عنده، وينبغي للهارب من ذنبه إلى الله أن يخلص بكلّيته في الفرار إليه ليخلص من هول ما هو أعظم ممّا يتوهّم أنّه يدفع عن نفسه بوسيلته إليه فإنّ الأمر في معرفة ما أعدّ الله لعباده الصالحين من الثواب العظيم، وما أعدّه لأعدائه الظالمين من العقاب الأليم أَجلّ ممّا يتصوّره عقول البشر ما دامت في عالم الغربة وإن كان عقولهم في ذلك الإدراك متفاوتة، ولمّا كانت نفسه القدسيّة أشرف نفوس الخلق في ذلك الوقت لا جرم نسب الثواب المرجوّ لهم والعقاب المخوف عليهم إلى رجائه هو وخوفه. فقال: ما أرجو لكم من ثوابه وأخاف عليكم من عقابه. وذلك لقوّة اطّلاعه من ذلك على ما لم يطّلعوا عليه.

وأمّا الثالث: وهو التنبيه على عظيم نعمة الله تعالى على العباد فنبّه

عليه أنّ كلّ ما أتوا به من الأعمال التي بذلوا جهدهم فيها في طاعة الله وما عساه يمكنهم أن يأتوا به منها فهو قاصر عن مجازاته نعمه العظام. وقد سبق بيان ذلك. ورتّب المطلوب في صورة شرطيّة متّصلة أيضاً مقدّمها مركّب من أمور:

أحدها: قوله: لو انماثت قلوبكم. أي ذابت خوفاً منه ووجداً منه، وكنّى بذلك عن أقصى حال الخائف الراجي لربّه في عبادته.

الثاني قوله: وسالت عيونكم دماً، وهو كالأوّل.

الثالث قوله: ثمّ عمّرتم في الدنيا ما الدنيا باقية أي مدّة بقاء الدنيا. وتاليها قوله: وما جزت أعمالكم. إلى آخره. وأنعمه منصوب مفعول جزت. وهداه في محلّ النصب عطفاً عليه، وإنّما أفرد الهدى بالذكر وإن كان من الأنعم لشرفه إذ هو الغاية المطلوبة من العبد بكلّ نعمة أفيضت عليه فإنّه لم يخلق ولم يفض عليه أنواع النعم. الإلهيّة إلّا لتأهّل [ليستأهل خ] قلبه، وتستعدّ نفسه لقبول صورة الهدى من واهبها فيمشي بها في ظلمات الجهل إلى ربّه ويجوز بها عقبات صراطه المستقيم، وأكّد ملازمة هذه المتّصلة بالقسم البارّ، وكذلك المتّصلة السابقة، وفائدة هذا التنبيه بعث الخلق على الشكر وتوفير الدواعي على الاجتهاد في الإخلاص لله حياءً من مقابلة عظيم إنعامه بالتقصير في شكره والتشاغل بغيره وبالله التوفيق.

٥٢ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

في ذكر يوم النحر

وَمِنْ كَمَالِ ٱلْأُضْحِيَةِ ٱسْتِشْرَافُ أُذُنِهَا، وَسَلَامَةُ عَيْنِهَا، فَإِذَا سَلِمَتِ ٱلْأُذُنُ وَٱلْعَيْنُ سَلِمَتِ ٱلْأُضْحِيَةُ وَتَمَّتْ، وَلَوْ كَانَتْ عَضْبَاءَ ٱلْقَرْنِ تَجُرُّ رِجْلَهَا إِلَى ٱلْمَنْسَكِ.

أقول: الأضحية: منصوبة إلى الأضحى إذ كان ذبحها في ضحى ذلك اليوم، وقيل إنّه مشتقّ منها. واستشراف أذنها: طولها، وكنى بذلك عن سلامتها من القطع أو نقصان الخلقة. والعضباء: مكسورة القرن، وقيل القرن

الداخل. وكنّى بجرّ رجلها إلى المنسك عن عرجها. والمنسك: موضع النسك، وهو العبادة والتقرّب بذبحها.

واعلم أنَّ المعتبر في الأضحيّة سلامتها عمّا ينقّص قيمتها، وظاهر أنَّ العمى والعور والهزال وقطع الأذن تشويه في خلقتها ونقصان في قيمتها دون العرج وكسر القرن.

وفي فضل الأضحيّة أخبار كثيرة روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: ما من عمل يوم النحر أحبّ إلى الله عزّ وجلّ من إراقة دم، وإنّها لتأتي يوم القيامة بقرونها وأظلافها وإنّ الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع على الأرض فطيبوا بها نفساً.

وروي عنه أيضاً أنّ لكم بكلّ صوفة من جلدها حسنة، وبكلّ قطرة من دمها حسنة، وإنّها لتوضع في الميزان فابشروا، وقد كانت الصحابة يبالغون في أثمان الهدي والأضاحي، ويكرهون المماكسة فيها فإنَّ أفضل ذلك أغلاه ثمناً وأنفسه عند أهله. روي أن عمر أهدى نجيبة فطلبت منه بثلاث مائة فسأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يبيعها ويشتري بثمنها بدناً فنهاه عن ذلك، وقال: بل اهدها. وسرٌّ ذلك أنّ الجيّد القليل خير من الكثير الدون. فثلاث مائة دينار وإن كان قيمة ثلاثين بدنة وفيها تكثير اللحم ولكن ليس المقصود اللحم. بل المقصود تزكية النفس وتطهيرها عن صفة البخل وتزيينها بجمال التعظيم لله فلن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم. وذلك بمراعاة النفاسة في القيمة كثر العدد أم قلّ.

وأعلم أنّه ربما لاح من أسرار وضع الأضحيّة سنّة باقية هو أن يدوم بها التذكّر لقصّة إبراهيم عليه السلام وابتلائه بذبح ولده وقوّة صبره على تلك المحنة والبلاء المبين ثمَّ يلاحظ من ذلك حلاوة ثمرة الصبر على المصائب والمكاره فيتأسّى الناس به في ذلك مع ما في نحر الأضحيّة من تطهير النفس عن رذيلة البخل واستعداد النفس بها للتقرّب إلى الله تعالى. وبالله التوفيق.

٥٣ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

فَتَدَاكُّوا عَلَيَّ تَدَاكَّ الإِبِلِ الْهِيمِ يَوْمَ وِرْدِهَا، قَدْ أَرْسَلَهَا رَاعِيهَا، وَخُلِعَتْ مَثَانِيهَا، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُمْ قَاتِلِيَّ، أَوْ بَعْضَهُمْ قَاتِلُ بَعْضٍ لَدَيَّ، وَقَدْ قَلَّبْتُ هٰذَا الْأَمْرَ، بَطْنَهُ وَظَهْرَهُ، فَمَا وَجَدْتُنِي يَسَعُنِي إِلَّا قِتَالُهُمْ أَوِ الْجُحُودُ بِمَا جَاءَنِي بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَكَانَتْ مُعَالَجَةُ الْقِتَالِ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ مُعَالَجَةِ الْعِقَابِ، وَمَوْتَاتُ الدُّنْيَا أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ مَوْتَاتِ الآخِرَةِ.

أقول: تداكّوا: دكّ بعضهم بعضاً: أي دقّه بالضرب والدفع. والهيم: الإبل العطاش. والمثاني: جمع مثناة وهي الحبل يثنّى ويعقل به البعير.

واعلم أنّ قوله: فتداكّوا. إلى قوله: لديّ.

إشارة إلى صفة أصحابه بصفّين لمّا طال منعه لهم من قتال أهل الشام، وكان عليه السلام يمنعهم من قتالهم لأمرين: أحدهما أنّه كانت عادته في الحرب ذلك ليكون خصمه البادي فتركبه الحجّة، والثاني أنّه كان يستلخص وجه المصلحة في كيفيّة قتالهم لا على سبيل شكّه في وجوب قتال من خالفه فإنّه عليه السلام كان مأموراً بذلك بل على وجه استخلاص الرأي الأصلح أو انتظاراً لانجذابهم إلى الحقّ ورجوعهم إلى طاعته لحقن دماء المسلمين كما سيصرّح به في الفصل الذي يأتي، ثمّ أكد وصفهم بالزحام عليه بأمرين: أحدهما تشبيهه بزحام الإبل العطاش حين يطلقها رعاتها من مثانيها يوم توردها الماء. ووجه الشبه ما لهما من شدّة الزحام، الثاني غاية ذلك الزحام وهو ظنّه عليه السلام أن يقتلوه أو يقتل بعضهم بعضاً.

وقوله: وقد قلّبت هذا الأمر. إلى آخره.

إشارة إلى بعض علل منعه لهم من القتال؛ وهو تقليبه لوجوه الآراء في قتالهم حتى تبيّن له ما يلزم في ترك القتال من الخطر وهو الكفر. على أنّ في الأمرين خطراً أمّا القتال ففيه بذل نفسه للقتل وهلاك جملة من المسلمين،

وأمّا تركه ففيه مخالفة أمر الله ورسوله المستلزمة للعقاب الأليم؛ لكن قد علمت أنّ الدنيا لا قيمة لسعادتها ولا نسبة لشقاوتها إلى سعادة الآخرة وشقاوتها عند ذوي البصائر خصوصاً مثله عليه السلام فلذلك قال: فكانت معالجة القتال أهون عليّ من معالجة العقاب، وموتات الدنيا أهون عليّ من موتات الآخرة. واستعار لفظ الموتات للأهوال والشدائد في الدنيا والآخرة لما بين الموت وبينها من المناسبة في الشدّة.

٥٤ ـ ومن كلام له (عليه السلام) وقد استبطأ أصحابه إذنه لهم في القتال بصفين

أمّا قولكم: كلُّ ذلك كراهيةُ الموت؟ فوالله ما أبالي أدَخلتُ إلى الموت أو خرَجَ الموتُ إليّ. وأما قولكم شكاً في أهل الشام! فوالله ما دَفعتُ الحربَ يوماً إلا وأنا أطمعُ أن تَلحقَ بي طائفةٌ فتهتدي بي وتعشو إلى ضوئي، وذلك أحبُّ إليَّ من أن أقتلها على ضلالها؛ وإن كانت تبوءُ بآثامها.

أقول: عشا إلى النار: استدل عليها ببصر ضعيف. وباء بإثمه: أي رجع به.

وهذا الفصل مناسب للذي قبله. والسبب فيه أنّ أصحابه لمّا طال منعه لهم عن قتال أهل الشام ألحّوا عليه في طلبه حتى نسبه بعضهم إلى العجز وكراهيّة الموت، ونسبه بعضهم إلى الشكّ في وجوب قتال هؤلاء. فأورد عليه السلام شبهة الأوّلين وهي قوله: أكلّ ذلك كراهيّة الموت، وروي كراهيّة بالنصب على المفعول وسدّ مسدّ الخبر. وأجاب عنها بقوله: فوالله ما أبالي. إلى قوله: إليّ، وصدق هذا الدعوى المؤكدة بالقسم البارّ ظاهر منه فإن العارف بمعزل عن تقية الموت خصوصاً نفسه القدسية كما سبق ونسبة الدخول على الموت والخروج إليه نسبة مجازية تستلزم ملاحظة تشبيه بحيوان مخوف. ثمّ أورد الشبهة الثانية وهي قوله: وأمّا قولكم شكّاً في أهل الشام. وأجاب عنها بقوله: فوالله ما دفعت الحرب. إلى آخره، وتقريره أنّ المطلوب الأوّل من الأنبياء والأولياء إنّما هو اهتداء الخلق بهم من ظلمة الجهل، واستقامة

أمورهم في معاشهم ومعادهم بوجودهم، وإذا كان هذا هو المطلوب الذاتي له عليه السلام من طلب هذا الأمر والقتال عليه وكان تحصيل المطالب كلّما كان ألطف وأسهل من القتل والقتال كان أولى لا جرم كان انتظاره بالحرب ومدافعتها يوماً فيوماً إنّما هو انتظار وطمع أن يلحق به منهم من تجذب العناية الإلهيّة بذهنه إلى الحقّ فيهتدي به في طريق الله ويعشو إلى ضوء عمله وكماله، وكان ذلك أحبّ إليه من قتلهم على ضلالتهم وإن كان كلّ ضالّ إنّما يرجع بإثمه إلى ربّه ويكون رهين عمله كما قال تعالى: ﴿**كلّ نفس بما كسبت رهينة. ولا تكسب كلّ نفس إلّا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى**﴾.

٥٥ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

وَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وآله نَقْتُلُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا وَإِخْوَانَنَا وَأَعْمَامَنَا: مَا يَزِيدُنَا ذٰلِكَ إِلَّا إيماناً وتَسليماً وَمُضِيّاً عَلَى اللَّقَمِ، وَصَبْراً عَلَى مَضَضِ ٱلْأَلَمِ، وَجِدّاً فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ. وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا وَالآخَرُ مِنْ عَدُوِّنَا يَتَصَاوَلَانِ تَصَاوُلَ الْفَحْلَيْنِ، يَتَخَالَسَانِ أَنْفُسَهُمَا، أَيُّهُمَا يَسْقِي صَاحِبَهُ كَأْسَ الْمَنُونِ: فَمَرَّةً لنا مِنْ عَدُوِّنَا، وَمَرّةً لِعَدُوِّنَا مِنَّا. فَلَما رَأَى ٱللهُ صِدْقَنَا أَنْزَلَ بِعَدُوِّنَا الْكَبْتَ، وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا النَّصْرَ، حَتَّى ٱسْتَقَرَّ ٱلإِسْلَامُ مُلْقِياً جِرَانَهُ، وَمُتَبَوِّئاً أَوْطَانَهُ. وَلَعَمْرِي لَوْ كُنَّا نَأْتِي مَا أَتَيْتُمْ مَا قَامَ لِلدِّينِ عَمُودٌ، وَلَا ٱخْضَرَّ لِلإِيمَانِ عُودٌ، وَأَيْمُ ٱللهِ لَتَحتَلِبُنَّها دَماً ولَتُتبِعُنَّها نَدماً.

أقول: المنقول أنّ هذا الكلام صدر عنه يوم صفّين حين أقرّ الناس بالصلح. وأوّله:

إنَّ هؤلاء القوم لم يكونوا ليفيئوا إلى الحقّ، ولا ليجيبوا إلى كلمة سواء حتى يرموا بالمناشر تتبعها العساكر، وحتى يرجموا بالكتائب تقفوها الجلائب، وحتى يجرّ ببلادهم الخميس يتلوه الخميس، وحتى تدعق الخيول في نواحي أراضيهم وبأعناء مشاربهم ومسارحهم، وحتى تشنّ عليهم الغارات من كلّ فجّ عميق، وحتى يلقاهم قوم صدق صبر لا يزيدهم هلاك من هلك من قتلاهم

وموتاهم في سبيل الله إلاّ جدّاً في طاعة الله وحرصاً على لقاء الله. ولقد كنّا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الفصل.

كلمة سواء: أي عادلة. والمنشر: خيل من المائة إلى مأتين، ويقال بل الجيش ما يمرّ بشيء إلاّ اقتلعه، والخميس: الجيش. وتدعق: تغير على أرضهم فتؤثّر فيها حوافرها. وشنّ الغارة: أثارها. واللقم: منهج الطريق. والمضض: حرقة الألم. ويتصاولان: يتحاملان ويتطاولان. ويتخالسان: ينتهز كلّ منهما فرصة صاحبه، والمنون: المنيّة. والكبت: الصرف والإذلال. وجران البعير: مقدّم عنقه من مذبحه إلى منخره. وتبوّأ وطنه: سكن فيه.

ومقصوده في هذا الفصل توبيخ أصحابه على ترك الحرب والتقصير فيه.

فقوله: ولقد كنّا. إلى قوله: أوطانه.

بيان لفضله وكيفيّة صنيعه هو وسائر الصحابة في الجهاد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لغرض قيام الإسلام وظهور أمر الله ليتبيّن للسامعين تقصيرهم بالنسبة إلى ما كان أولئك عليه في جهادهم يومئذ. فبدأ بذكر ما كانوا يكافحونه من الشدائد، وأنَّ أحدهم كان يقتل أباه وولده طلباً لرضا الله وذبّاً عن دينه ثمَّ لا يزيده ذلك إلاّ إيمانا وتسليما لقضائه، ومضيّا على واضح سبيله، وصبراً في طاعته على مضض الآلام المتواترة، وأنَّ أحدهم كان يصاول عدوّه ليختطف كلّ روح صاحبه. وتجوّز بلفظ الكأس فيما يتجرّعه الإنسان من مضض الألم حال القتل، ونبّه بقوله: مرّة لنا ومرّة لعدّونا. على أنَّ إقدامهم على القتال يومئذ لم يكن عن قوّة منهم على العدوّ ويقين بغلبة بل مع غلب العدوّ لهم وقهره. ومرّة منصوب على الظرف وتقديره فمرّة الإدالة تكون لنا من عدونا ومرّة تكون له منّا.

وقوله: فلمّا رأى الله صدقنا. إلى قوله: النصر.

وفيه تنبيه على أنَّ الجود الإلهيّ لا بخل فيه ولا منع من جهته وإنّما هو عامّ الفيض على كلّ قابل استعدّ لرحمته، وأشار برؤية الله صدقهم إلى

علمه باستحقاقهم واستعداهم بالصبر الذي أعدّهم به، وبإنزال النصر عليهم والكبت لعدوّهم إلى إفاضته على كلّ منهم ما استعد له.

وقوله: حتى استقرّ الإسلام. إلى قوله: أوطانه.

إشارة إلى حصول غايتهم التي قصدوها بجهاد العدوّ (الله خ) وهي استقرار الإسلام في قلوب عباد الله. واستعار لفظ الجران، ورشّح تلك الاستعارة بالإلقاء ملاحظة لشبهه بالبعير الذي أخذ مكانه، وكذلك استعار لفظ التبوّء ونسبه إلى الأوطان تشبيهاً له بمن كان من الناس خائفاً متزلزلاً لا مستقرّ له ثمّ اطمأنّ واستقرّ في وطنه. واستعار لفظ الأوطان لقلوب المؤمنين، وكنّى بتبوّء أوطانه عن استقراره فيها.

وقوله: ولعمري لو كنّا نأتي. إلى قوله: عود.

رجوع إلى مقصوده الأصلي وهو تنبيه أصحابه على تقصيرهم. والمعنى لو قصّرنا يومئذ كتقصيركم الآن وتخاذلكم لما حصل ما حصل من استقامة الدين، وكنّى بالعمود للدين عن قوّته ومعظمه كناية بالمستعار، وكذلك باخضرار العود للايمان عن نضارته في النفوس، ولاحظ في الأولى تشبيه الإسلام بالبيت ذي العمود، وفي الثانية تشبيهه الايمان بالشجرة ذات الأغصان.

وقوله: وأيم الله لتحتلبنّها دما.

استعار لفظ حلب الدم لثمرة تقصيرهم وتخاذلهم عمّا يدعوهم إليه من الجهاد، ولاحظ في تلك الاستعارة تشبيههم لتقصيرهم في أفعالهم بالناقة التي أصيب ضرعها بآفة من تفريط صاحبها فيها، والضمير المؤنث مبهم يرجع في المعنى إلى أفعالهم، وكذلك الضمير في قوله: ولتتبعنّها ندماً فإنّ ثمرة التفريط الندامة. ودماً وندماً منصوبان على التميز. وقد اتّفق في هذا الفصل نوعان من السجع فللقم والألم سجع متوازي، وجرانه وأوطانه مطرّف، وكذلك عمود وعود ودماً وندماً. وبالله التوفيق.

٥٦ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

لأصحابه: أَمَّا إِنَّهُ سَيَظْهَرُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي رَجُلٌ رَحْبُ الْبُلْعُوم، مُنْدَحِقُ الْبَطْنِ، يَأْكُلُ مَا لاَ يَجِدُ، فَاقْتُلُوهُ؛ وَلَنْ تَقْتُلُوهُ أَلاَ وَإِنَّهُ سَيَأْمُرُكُمْ بِسَبِّي وَالْبَرَاءَةِ مِنِّي: أَمَّا السَّبُّ فَسُبُّونِي؛ فَإِنَّهُ لِي زَكَاةٌ، وَلَكُمْ نَجَاةٌ؛ وَأَمَّا الْبَرَاءَةُ فَلاَ تَتَبَرَّؤُا مِنِّي؛ فَإِنِّي وُلِدْتُ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَسَبَقْتُ إِلَى الإِيمَانِ وَالْهِجْرَةِ.

أقول: رحب البلعوم: واسع مجرى الحلق. وبطن مندحق ناتىء بارز.

وفي هذا الفصل إخبار بما سيكون لأصحابه من الابتلاء بسبّه. والخطاب لأهل الكوفة.

فقوله: أمّا.

يحتمل أن يكون المشدّدة. والتقدير أمّا بعد أنّه كذا، ويحتمل أن يكون مخفّفة وهي ما النافية دخلت عليها همزة الاستفهام، والتقدير أما أنّه سيظهر، واختلف في مراده بالرجل. فقال أكثر الشارحون: المراد معاوية لأنه كان بطينا كثير الأكل. روي أنّه كان يأكل فيملّ فيقول: ارفعوا فوالله ما شبعت ولكن مللت وتعبت، وكان ذلك داء أصابه بدعاء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. روي: أنه بعث إليه مرّة فوجده يأكل فبعث إليه ثانية فوجده كذلك. فقال: اللهم لا تشبع بطنه. ولبعضهم في وصف آخر:

وصاحب لي بطنه كالهاوية　　　كأنّ في أمعائه معاوية

وقيل: هو زياد ابن أبي سفيان؛ وهو زياد ابن أبيه، وقيل: هو الحجّاج، وقيل: المغيرة بن شعبة. وظهوره عليهم بعده. استعلاؤه وتأمّره عليهم. وأكله ما يجد مع طلبه لما لا يجد كناية عن كثرة أكله، وجعل ذلك علامة له.

وقوله: فاقتلوه.

أي لما هو عليه من الفساد في الأرض، ولن تقتلوه. حكم لدنيّ اطّلع عليه.

وقوله: ألا وإنّه سيأمركم بسبيّ. إلى آخره.

إشارة إلى ما سيأمرهم به في حقّه من السبّ والبراءة، ووصيّة لهم بما هو المصلحة إذن. وفرّق عليه السلام بين سبّه والبراءة منه بأن رخّص في سبّه عند الإكراه عليه ولم يرخّص في التبرّي منه، وفي الفرق بينهما لطف، وذلك أنّ السبّ من صفات القول اللسانيّ وهو أمر يمكن إيقاعه من غير اعتقاده مع احتماله التعريض ومع ما يشتمل عليه من حقن دماء المأمورين ونجاتهم بامتثال الأمر به. وأمّا التبرء فليس بصفة قوليّة فقط بل يعود إلى المجانبة القلبيّة والمعاداة والبغض وهو المنهيّ عنه هاهنا فإنّه أمر باطن يمكنهم الانتهاء عنه ولا يلحقهم بسبب تركه وعدم امتثال الأمر به ضررٌ. وكأنّه لحظ فيها قوله تعالى: **﴿إلّا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب﴾**[1] الآية وقوله: في السبّ: فإنّه لي زكاة ولكم نجاةٌ. إشارة إلى أسباب ترخيصه في سبّه أمّا نجاتهم بسبّه فظاهرة وأمّا كونه زكاة له فلوجهين:

أحدهما: ما روي في الحديث أنّ ذكر المؤمن بسوء هو زكاة له، وذمّه بما ليس فيه زيادة في جاهه وشرفه.

الثاني: أنّ الطباع تحرص على ما تمنع منه وتلحّ فيه. فالناس لمّا منعوا من ذكر فضائله والموالاة له وألزموا سبّه وبغضه ازدادوا بذلك محبّة له وإظهاراً لشرفه، ولذلك إنّه عليه السلام سبّه بنو أميّة ألف شهر على المنابر فما زاد ذكره على ذلك إلّا علوّاً ولا ازداد الناس في محبّته إلّا غلوّاً. والمنقول أنّ الذي أمر بقطع سبّه عمر بن عبد العزيز، ووضع مكان سبّه من الخطبة «إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان» الآية، ولذلك قال كثير بن عبد الرحمن يمدحه:

وليت فلم تشتم عليّا ولم تخف ... بريّا ولم تقبل إساءة مجرم

وفيه يقول الرضيّ الموسوي:

---

(١) ١٦ ـ ١٠٨.

يا ابن عبد العزيز لو بكت العيـ ن فتى من أميّة لبكيتك
أنت نزّهتنا عن الشتم والسـ بّ ولو كنت مجزياً لجزيتك
غير أنّي أقول إنّك قد طبت وإن لم يطب ولم يزك بيتك

وقوله: فإنّي ولدت على الفطرة. إلى آخره.

تعليل لحسن الانتهاء عن البراءة منه ووجوبه. وأراد بالفطرة فطرة الله التي فطر الناس عليها وهي بعثهم إلى عالم الأجسام مأخوذاً عليهم ميثاق العبوديّة والاستقامة على سنن العدل في سلوك صراطه المستقيم، وأراد بسبقه إلى الإسلام والهجرة سبقه إلى طاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما جاء به من الدين وصحبته له ومهاجرته معه مستقيماً في كلّ ذلك على فطرة الله لم يدنّس نفسه بشيء من الملكات الرديئة مدّة وقته. أمّا زمان صغره فللخبر المشهور: كلّ مولود يولد على الفطرة، وأمّا بعده فلأنّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هو المتولّي لتربيته وتزكية نفسه بالعلوم والإخلاص من أوّل وقته إلى أن توفّي صلى الله عليه وآله وسلم كما أشرنا إليه قبل، وكما سيذكر هو بعد كيفيّته، وكان قبوله واستعداده لأنوار الله أمراً فطرت عليه نفسه، وجبلت عليه طبيعته حتى لم يلحقه في ذلك أحد من الصحابة، وظاهر أنَّ من كان بهذه الصفة من خلفاء الله وأوليائه كان التبرّء منه تبرّءً من الله ورسوله. فوجب الانتهاء عنه. وبالله التوفيق.

٥٧ ومن كلام له (عليه السلام)
كلم به الخوارج

أَصَابَكُمْ حَاصِبٌ، وَلَا بَقِيَ مِنْكُمْ آبِرٌ أَبَعْدَ إِيمَانِي بِاللهِ وَجِهَادِي مَعَ رَسُولِ اللهِ أَشْهَدُ عَلَى نَفْسِي بِالْكُفْرِ؟ لَقَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ! فَأُوبُوا شَرَّ مَآبٍ وَارْجِعُوا عَلَى أَثَرِ الْأَعْقَابِ، أَمَا إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي ذُلّاً شَامِلاً وَسَيْفاً قَاطِعاً وَأَثَرَةً يَتَّخِذُهَا الظَّالِمُونَ فِيكُمْ سُنَّةً.

قال الشريف: قوله عليه السلام «ولا بقي منكم آبر» يروى بالباء والراء من قولهم للذي يأبر النخل ـ أي: يصلحه ـ ويروى «آثر»وهو الذي يأثر الحديث، أي: يرويه ويحكيه، وهو أصح الوجوه عندي، كأنه عليه السلام قال: لا بقي منكم مخبر.

ويروى «آبز» بالزاي المعجمة ـ وهو الواثب. والهالك أيضا يقال له آبز.

أقـول: المرويّ في السبب أنّـه لمّا كتب عهـد التـراضي بين الحكمين بين عليّ ومعـاوية اعتـزلت الخوارج وتنـادوا من كلّ نـاحيـة لا حكم إلاّ لله ، الحكم لله يـا علي لا لك، إنَّ الله قـد أمضى حكمه في معـاوية وأصحـابه أن يدخلوا تحت حكمنا وقد كنّا زللنا وأخطأنا حين رضينا بالتحكيم وقد بـان زللنا وخطأنا ورجعنا إلى الله وتبنا فارجع أنت كمـا رجعنا وتب إليـه كما تبنـا. وقال بعضهم: إنّك أخطأت فاشهد على نفسـك بالكفـر ثمَّ تب منه حتى نـطيعك. فأجابهم بهذا الكلام.

والحاصب: ريح شديدة ترمي بالحصبـاء وهي صغار الحصى. والأثـرة بالتحريك: الاستبداد.

فدعا عليهم أوّلاً بريح تحصبهم ، ثم بالفناء غضباً من مقالتهم ثمَّ أخذ في تقريعهم وإنكار مقالتهم وطلبهم شهادته على نفسه في صورة سؤال أعقبه تنبيههم على خطأهم في حقّه ببيان غلطه على نفسه لو أجابهم إلى ما سألوا فإنّ شهادة الإنسان على نفسه بالكفر ضلال عن الحقّ وعدم اهتداء في سبيل الله .

ثمَّ أردف ذلك بأمرين:

أحـدهما: جـذبهم بالغضب والقهـر وأمرهم بـالرجـوع إلى الحقّ على أعقابهم: أي من حيث خرجوا من الحقّ وفارقوه.

الثاني: إخبارهم بما سيلقون بعده من الذل الشامل والسيف القاطع. وهو كنـايـة عمّـن يقتلهـم بعـده كـالمهلّـب بـن أبي صفـرة وغيره. وهـذا الإخبـار لغـرض استفاءتهم إليه وجذب لهم برذيلة غيـره. والأثرة التي يتّخـذها الـظالمون فيهم سنّـة. إشـارة إلى مـا يستـأثـر بـه الملوك والعمّـال عليهم من الفيء والغنـائم وإهانتهم، وقد كانت دعوته عليه السلام استجيبت فيهم فإنّهم لم يزالوا بعـده في ذلّ شامل وقتل ذريع حتى أفنـاهم الله تعالى. وأحـوالهم في كيفيّة قتـالهم وقتلهم من قتلهم مستوفى في كتاب الخوارج. وبالله التوفيق.

٥٨ ـ وقال (عليه السلام)
لما عزم على حرب الخوارج وقيل له : إنهم قد عبروا جسر النهروان :

مَصَارِعُهُمْ دُونَ النُّطْفَةِ، وَٱللهِ لاَ يُفْلِتُ مِنْهُمْ عَشَرَةٌ، وَلاَ يَهْلِكُ مِنْكُمْ عَشَرَةٌ.

قال الشريف: يعني بالنطفة ماء النهر، وهو أفصح كناية وإن كان كثيرا جما.

أقول : خلاصة هذا الخبر أنّه (ع) لمّا خرج إلى أصحاب النهر جاءه رجل من أصحابه فقال : البشرى يا أمير المؤمنين إنَّ القوم عبروا النهر لمّا بلغهم وصولك فابشر فقد منحك الله اكتافهم. فقال: الله أنت رأيتهم قد عبروا. فقال: نعم. فقال عليه السلام: والله ما عبروه ولن يعبروه وإنّ مصارعهم دون النطفة والذي فلق الحبّة وبرأ النسمة لم يبلغوا إلاّ ثلاث ولا قصر توران حتى يقتلهم الله وقد خاب من افترى. قال: ثمَّ جاءه جماعة من أصحابه واحداً بعد آخر كلّهم يخبره بما أخبره الأوّل فركب عليه السلام وسار حتى انتهى إلى النهر فوجد القوم بأسرهم قد كسروا جفون سيوفهم وعرقبوا خيولهم وجثوا على الركب وحكموا تحكيمة واحدة بصوت عظيم له زجلٌ، وروي أنّ شابّاً من أصحابه قال في نفسه حين حكم عليه السلام بما حكم من أمرهم وسار إلى النهر لبيان صدق حكمه: والله لأكوننّ قريباً منه فإن كانوا عبروا النهر لأجعلنّ سنان رمحي في عينه أيّدعي علم الغيب، فلمّا وجدهم لم يعبروا نزل عن فرسه وأخبره بما ورّى في نفسه، وطلب منه أن يغفر له. فقال عليه السلام : إنّ الله هو الذي يغفر الذنوب جميعاً فاستغفره. فأمّا حكمه بأنّه لا يفلت منهم عشرة ولا يقتل من أصحابه عشرة. فروي أنّه قال لأبي أيّوب الأنصاري وكان على ميمنته: لما بدأت الخوارج بالقتال احملوا عليهم فوالله لا يفلت منهم عشرة ولا يهلك منكم عشرة فلمّا قتلهم وجد المفلت منهم تسعة والمقتول من أصحابه ثمانية. وهذان الحكمان من كراماته عليه السلام.

وقال (عليه السلام)

لما قتل الخوارج قيل له: يا أمير المؤمنين، هلك القوم بأجمعهم!

كَلَّا وَٱللهِ إِنَّهُمْ نُطَفٌ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ وَقَرَارَاتِ النِّسَاءِ، كُلَّمَا نَجَمَ مِنْهُمْ قَرْنٌ قُطِعَ، حَتَّى يَكُونَ آخِرُهُمْ لُصُوصاً سَلَّابِينَ.

أقول: نجم: طلع. والسلّاب: المختلس. وكلّا: ردٌّ لمقالة من حكم بهلاكهم جميعاً.

وأشار بكونهم نطفا في أصلاب الرجال وقرارات النساء إلى أنّه لا بدّ من وجود قوم منهم يقولون بمثل مقالتهم وأنّهم الآن موجودون في الأصلاب والأرحام بالقوّة. فمنهم نطف برزت إلى الأرحام، وكنّى بالقرارات عنها. ومنهم نطف بعد في الأصلاب، ثمّ ألحقهم أحكاما أخر تقريراً لبقائهم. منها: أنّه سيقوم منهم رؤساء ذوو أتباع، وعبّر عمنّ يظهر منهم بالقرن استعارة مرشّحا لتلك الاستعارة بقوله: نجم وقطع. لكونهما حقيقتين في النبات وجعل لتراذلهم غاية هي كون أواخرهم لصوصاً سلّابين: أي قطّاعاً للطريق، وأمّا الذين ظهروا بعده من رؤسائهم فجماعة كثيرة وذلك أنّ التسعة الذين سلموا يوم النهر تفرّقوا في البلاد فانهزم اثنان منهم إلى عمّان، واثنان منهم إلى كرمان، واثنان إلى سجستان، واثنان إلى الجزيرة وواحد إلى تلّ موزون، وقد كان منهم جماعة لم يظفر عليه‌السلام بهم فظهرت بدعتهم في أطراف البلاد بعده فكانوا نحواً من عشرين فرقة وكبارها ستّ:

إحديها: الأزارقة أصحاب نافع بن الأزرق، وكان أكبر الفرق. خرجوا من البصرة إلى الأهواز وغلبوا عليها وعلى كورها وما وراءها من بلدان فارس وكرمان في أيّام عبد الله بن الزبير، وكان مع نافع من أمراء الخوارج عشرة: عطيّة بن الأسود الحنفيّ، وعبدالله بن ماخول، وأخواه: عثمان بن الزبير، وعمرابن عمير العميري، وقطرى بن فجاءة المازنيّ، وعبدة بن الهلال الشيباني، وصخر التميميّ، وصالح العبديّ، وعبد ربّه الكبير، وعبد ربّه الصغير في ثلاثين

ونيّف ألف فارس منهم فأنفذ إليهم المهلّب ابن أبي صفرة، ولم يزل في حربهم هو وأولاده تسع عشرة سنة إلى أن فرغ من أمرهم في أيّام الحجّاج، ومات نافع قبل وقائع المهلّب وبايعوا قطريًا وسمّوه أمير المؤمنين.

الثانية: النجدات رئيسهم نجدة بن عامر الحنفيّ، وكان معه أميران يقال لأحدهما عطيّة، والآخر أبو فديك. ففارقاه بشبهة ثمَّ قتله أبو فديك وصار لكلّ واحد منهما جمع عظيم وقتلا في زمن عبد الملك بن مروان.

الثالثة: البيهسيّة أصحاب أبي بيهس الهيصم بن جابر، وكان بالحجاز وقتله عثمان بن حيّان المزنيّ بعد أن قطع يديه ورجليه. وذلك في زمن الوليد بإشارة منه.

الرابعة: العجاردة أصحاب عبد الكريم بن عجرد، وتحت هذه الفرقة فرق كثيرة لكلّ منهم رئيس منهم مشهور.

الخامسة: الأباضيّة أصحاب عبد الله بن أباض في أيّام مروان بن محمد فوجّه إليه عبد الله بن محمد بن عطيّة فقاتله فقتله.

السادسة: الثعالبة أصحاب ثعلبة بن عامر، وتحت هذه الفرقة أيضاً فرق كثيرة، ولكلّ منها رئيس مشهور. وتفصيل رؤسائهم وفرقهم وأحوالهم ومن قتلهم مذكور في كتب التواريخ. وأمّا كون آخرهم لصوصاً سلّابين فإشارة إلى ما كانوا يفعلونه في أطراف البلاد بإصبهان والأهواز وسواد العراق يعيشون فيها بنهب أموال الخراج وقتل من لم يدن بدينهم جهراً وغيلةً وذلك بعد ضعفهم وتفرّقهم بوقائع المهلّب وغيرها كما هو مذكور في مظانّه.

وقال (عليه السلام)

لَا تَقْتُلُوا الْخَوَارِجَ بَعْدِي، فَلَيْسَ مَنْ طَلَبَ الْحَقَّ فَأَخْطَأَهُ كَمَنْ طَلَبَ الْبَاطِلَ فَأَدْرَكَهُ (يعني معاوية وأصحابه).

أقول: نهى عن قتل الخوارج بعده، وأومى إلى علّة استحقاق القتل

بأنّها طلب الباطل لأنّه باطل ليتبيّن أنّها منفيّة في حقّهم فينتفي لازمها وهو استحقاق القتل، وأشار إلى أنّ الخوارج لم يطلبوا الباطل مع العلم بكونه باطلاً بل طلبوا الحقّ بالذات فوقعوا بالباطل بالعرض. ومن لم يكن غرضه إلّا الحقّ لم يجز قتله، وحسن الكلام يظهر في تقدير متّصلة هكذا: لو استحقّوا القتل بسبب طلبهم لاستحقّوه بسبب طلبهم للباطل من حيث هو باطل لكنّهم لا يستحقّونه من تلك الجهة لأنّهم ليسوا بطالبين للباطل من حيث هو باطل فلا يستحقّون القتل، وفرق بين من يطلب الحقّ لذاته فيظهر عنه في صورة باطل، وبين من يطلب الباطل لذاته فيظهره في صورة الحقّ حتى يدركه، فإنّ الثاني هو المستحقّ للقتل دون الأوّل، وأومى بمن طلب الباطل فأدركه إلى معاوية.

واعلم: أنّ هذا نصّ منه عليه السلام بأنّهم كانوا طالبين للحقّ، وبيانه أنّ معظم رؤسائهم كانوا على غاية من المحافظة على العبادات كما نقل عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حيث وصفهم فقال: حتى أنّ صلاة أحدكم لتحتقر في جنب صلاتهم. وكانوا مشهورين بالصلاح والمواظبة على حفظ القرآن ودرسه إلّا أنّهم بالغوا في التجرّي وشدّة الطلب للحقّ حتى عبروا عن فضيلة العدل فيه إلى رذيلة الإفراط فوقعوا في الفسق ومرقوا من الدين.

فإن قلت: كيف نهى عن قتلهم.

قلت: جوابه من وجهين:

أحدهما: أنّه عليه السلام إنّما نهى عن قتلهم بعده على تقدير أن يلزم كلّ منهم نفسه ويشتغل بها ولا يعيث في الأرض فساداً وهو إنّما قتلهم حيث أفسدوا في زمانه وقتلوا جماعة من الصالحين كعبد الله بن خبّاب، وشقّوا بطن امرأته وكانت حاملا ودعوا الناس إلى بدعتهم ومع ذلك كان يقول لأصحابه حين سار إليهم: لا تبدؤوهم بالقتال حتى يبدؤوكم به ولم يشرع في قتلهم حتى بدؤوه بقتل جماعة من أصحابه.

الثاني: أنّه يحتمل أن يقال: إنّه إنّما قتلهم لأنّه إمام عادل رأى الحقّ

في ذلك، وإنّما نهى عن قتلهم بعده لأنه علم أنّـه لا يلي هذا الأمـر بعده من له بحكم الشريعة أن يقتل ويتولّى أمر الحدود، ومن لا يعرف مواضعها. وبالله التوفيق.

٥٩ ـ ومن كلام له (عليه السلام) لما خوف من الغيلة :

وَإِنَّ عَلَيَّ مِنَ ٱللهِ جُنَّةً حَصِينَةً ، فَـإِذَا جَاءَ يَوْمِي ٱنْفَرَجَتْ عَنِّي وَأَسْلَمَتْنِي فَحِينَئِذٍ لاٰ يَطِيشُ السَّهْمُ، وَلاَ يَبْرَأُ الْكَلْمِ.

أقـول: قـد كـان عليه السلام خـوّف من غيلة ابن ملجم ـ لعنــه الله ـ مـراراً. روي: أنّ الأشعث لقيه متقلّداً سيفه فقـال له: مـا يقلّدك السيف وليس بأوان حرب؟ فقال: أردت أنحر به جـزور القريـة. فأتى الأشعث عليّاً عليه السلام فأخبره وقـال: قد عـرفت ابن ملجم وفتكه فقـال عليه السلام : مـا قتلني بعـد، وروي: أنّ عليّاً عليه السلام كان يخطب مرّة ويذكر أصحابه وابن ملجم تلقـاء المنبر فسمـع وهو يقول: والله لأريحنّهم منك. فلمّا انصرف عليّ أتوا به ملبّباً. فأشـرف عليهم وقال: ما تريدون. فأخبروه بما سمعوا منه. فقال: فما قتلني بعد، خلّوا عنه، وإنّ عليّ من الله جنّة. الفصل.

والغيلة: القتـل على غفلة. والجنّة: مـا تستـر بـه من سـلاح. وطـاش السهم: انحرف عن الغرض. والكلم: الجرح.

وكنّى بالجنّة عن عناية الله بحفظ أسباب حياته في المدّة الممكنـة له في القضاء الإلهيّ كنايـة بالمستعـار. ووجه الاستعـارة أنّ مع بقـاء أسباب الحيـاة محفوظة لا يؤثر في الإنسان شيء من سهـام المنيّة أبداً كما أنّ لابس الجنّـة محفوظ بها من آثار السهام ونحوها. ووصفها بالحصينـة ترشيحـاً للاستعـارة، وكنّى بهـا أيضاً عن قـوّة ذلك الحفظ. وكنّى بيـومه عن وقت ضـرورة مـوتـه، وبانفراج الجنـة عنـه عـن عـدم بعـض أسبـاب الحيـاة المستلـزم لعـدم الحيـاة ولحـوق سهام الأمراض وهو ترشيح للاستعارة أيضاً، ونسب إليها إسلامهـا له مـلاحظة لتشبيهها بمن يحفظه ثمّ يسلّمه للقتل.

وقوله: وحينئذ لا يطيش السهم.

استعار لفظ السهم للأمراض التي هي أسباب الموت، وكنّى بعدم طيشه عن إنكائه وحصول الموت عنه، ولفظ الكلم للأثر الحاصل عن تلك الأسباب، ووجه الشبه في الأولى كونهما سببين للهلاك، وفي الثانية ما يستلزمانه من التألّم، ورشّح الأولى بذكر الطيش والثانية بذكر البرء. ومن الشعر المنسوب إليه في ذلك:

أيّ يوميّ من الموت أفرّ يوم لم يقدر أم يوم قدر

يوم لم يقدر فلا أرهبه يوم قد قدّر لا يغني الحذر

وهو في ذلك ملاحظ لقوله تعالى: **﴿وما كان لنفس أن تموت إلّا بإذن الله كتاباً مؤجّلا﴾**[1] **﴿ولكلّ أمّة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾**[2] وبالله التوفيق.

٦٠ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

أَلاَ وَإنَّ الدُّنْيَا دَارٌ لاَ يُسْلَمُ مِنْهَا إلاَّ فِيهَا، وَلاَ يُنْجى بِشَيْءٍ كَانَ لَهَا: ٱبْتُلِيَ النَّاسُ فِيهَا فِتْنَةً فَمَا أَخَذُوهُ مِنْهَا لَهَا أُخْرِجُوا مِنْهُ، وَحُوسِبُوا عَلَيْهِ وَمَا أَخَذُوهُ مِنْهَا لِغَيْرِهَا قَدِمُوا عَلَيْهِ وَأَقَامُوا فِيهِ، فَإنَّها عِنْدَ ذَوِي ٱلْعُقُولِ كَفَيْءِ الظِّلِّ: بَيْنَا تَرَاهُ سَابِغاً حَتَّى قَلَصَ، وَزَائِداً حَتَّى نَقَصَ.

أقول: بينا: أصله بين بمعنى التوسّط فأشبعت الفتحة فحدثت ألف، وقد تزاد ما فيقال بينما والمعنى واحد، وتحقيق الظرفيّة هنا أنّ الظلّ دائر بين السبوغ والتقلّص والزيادة والنقصان. وقلص الظلّ نقص.

والغرض من هذا الفصل التحذير من الدنيا والتنبيه على وجوب لزوم أوامر الله فيها. وأشار إلى ذلك في أوصاف لها:

---

(١) ٣ ـ ١٤٥.

(٢) ٧ ـ ٣٢.

الأوّل: كونه لا يسلم منها إلّا فيها. وتحقيق ذلك أنّه لا دار إلّا الدنيا والآخرة ، وقد علمت أنّ أسباب السلامة هي الزهد والعبادة وسائر أجزاء الرياضة وشيء منها لا يمكن في الآخرة بل كلّها أعمال متعلّقة بالبدن فإذن لا يتحقّق ما يلزمها من السلامة من الدنيا إلّا في الدنيا.

الثاني: كونها لا ينجي بشيء كان لها. وفيه إيماء إلى ذمّ الرياء في الأقوال والأفعال وتحذير من كلّ عمل وقول قصد به الدنيا فإنّ شيئاً من ذلك لا حظّ له في استلزام النجاة في الآخرة بل ربّما كان سببا للهلاك فيها لما أنّ الاشتغال بمهمّات الدنيا منس للآخرة.

الثالث: كونها قد ابتلي الناس بها فتنة. وفتنة منصوب بالمفعول له، ويحتمل أن يكون مصدراً سدّ مسدّ الحال. ونحوه قوله تعالى: ﴿**ونبلوكم بالخير والشرّ فتنة وإلينا ترجعون**﴾[1] ولنبحث عن معنى الابتلاء بالدنيا وكونها فتنة.

واعلم أنّه ليس المراد أنّ الله تعالى لا يعلم ما يؤول إليه أحوال العباد وما يكون منهم بعد خلقهم وابتلائهم بالدنيا فإنّه تعالى هو العالم بما كان وما يكون قبل كونه كما قال تعالى: ﴿**وما من غائبة في السماء والأرض إلّا في كتاب مبين**﴾[2] وقوله تعالى: ﴿**ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في السماء ولا في أنفسكم إلّا في كتاب من قبل أن نبرأها إنّ ذلك على الله يسير**﴾[3] بل الكشف عن حقيقة الابتلاء أنه لما كان الانسان إنما يكون إنساناً بما خلق فيه من القوى الشهوية والغضبية وما يتبعها، وكان لهذه القوى ميول طبيعيّة إلى حاضر اللذّات الدنيويّة فهي مشتهياتها ولا ابتهاج لها إلّا بها ولا حظّ لها من غيرها، وكانت النفوس الإنسانيّة مخالطة لهذه القوى وهي آلاتها، ولا وجه لها في تصرّفاتها غالب الأحوال إلّا هي، وكانت تلك القوى في أكثر الخلق جاذبة لنفوسها إلى مشتهياتها الطبيعيّة بالطبع، وكانت تلك النفوس

---

(١) ٢١ - ٣٦.
(٢) ٢٧ - ٧٧.
(٣) ٥٧ - ٢٢.

في أكثر الناس منقادة لقواها معرضة عن الآخرة مشغولة بحاضر ما وجدتـه من لذّات الدنيا عن تصوّر مـا وراءها. ثمّ مـع ذلك كـان المطلوب منهـا ما يضـادّ ذلك وهو ترك حاضر الدنيا، ومنازعة هذه القوى في مشتهياتها، وجذبها عن التوجّه بكليّتها إليها لمتابعة النفس في التفاتها عن ذلك إلى أمر لا يتصـوّر في الدنيا إلّا بالأوصاف الخياليّة كما هو وظيفة الأنبياء عليهم السلام مع الخلق كانت إرادته تعالى لذلك الالتفات مع ما هم فيه من منازعة الهوى فإن أطاعوه هلكوا وإن عصوه نجوا صورة امتحان. فأشبه ذلك ما يعتمده أحدنا عند عبده إذا أراد مثـلاً اختبار صبـره ومحنته لـه فوهب لـه جميع مـايشتهيـه ثمّ كلّفـه مـع ذلـك بتكاليف شاقّة لا يتمكّن من فعلها إلّا بالتفاتـه عن مشتهاه وتنغيصـه عليه. فـلا جرم صدقت صورة الابتلاء والاختبار من الله في الوجـود، وكذلـك ظهر معنى كـونها فتنـة. فإنّ الفتنـة الامتحان والاختبـار. وإن قدّرنـاها حـالاً فهي بمعنى الضلال ويعود إلى جذبها للنفوس إلى حاضر لذّاتها عن سنن الحقّ.

الرابع: كونهم ما أخذوه منها أخرجوا منه وحوسبوا عليه. وهو تنبيه على وجـوب قصد الآخـرة بما يؤخـذ من الدنيـا ويتصـرّف فيـه، وتنفيـر أن يجعـل المـأخوذ منهـا لمجرّد التمتّـع بها بـذكر وصفين: أحـدهمـا: وجـوب مفـارقـة المأخوذ منها والإخراج منه، والثاني: الحساب عليه في الآخرة.

واعلم أن الحساب على رأي الملّيين ظاهر، قالـوا: إنّ الله تعالى قـادر على حساب الخلق دفعة واحدة ولا يشغله كلام من كلام كما قال: وهو سريع الحساب. أمّا الحكماء فقالوا: إنّ للحساب معنى، وتقريره بتقديم مقدّمات.

الأولى: أنّ كثرة الأفعال وتكرّرها يوجب حدوث الملكات في النفوس، والاستقراء التامّ يكشف عن ذلـك، ومن كان مـواظبته على عمـل من الأعمال أكثر كان رسوخ تلك الملكة الصادرة عن ذلك الفعل في نفسه أقوى.

الثانية: أنّه لمّا كان تكرّر العمل يوجب حصول الملكة وجب أن يكـون لكلّ عمل يفعله الإنسان أثر في حصول تلك الملكة بـل يجب أن يكون لكـلّ جزء من أجزاء العمل الواحد أثر في حصول لها بوجهٍ مـا وضربـوا لذلـك مثالاً

فقالوا: لو فرضنا سفينة عظيمة بحيث لو ألقي فيها مائة ألف منّ فإنها تغوص في الماء قدر شبر واحد ولو لم يكن فيها إلا حبّة واحدة من الحنطة فذلك القدر من الجسم الخفيف فيها يوجب غوصها في الماء. بمقدار ماله من الثقل وإن بلغ في القلّة إلى حيث لا يدركه الحسّ. إذا عرفت ذلك فنقول: ما من فعل من الخير والشر قليل ولا كثير إلاّ ويفيد حصول أثر في النفس إمّا سعادة أو شقاوة. وعند هذا ينكشف سرّ قوله تعالى: ﴿**فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرّة شرّاً يره**﴾ وكذلك لمّا ثبت أنَّ الأفعال إنّما تصدر بواسطة الجوارح من اليد والرجل وغيرهما لا جرم كانت الأيدي والأرجل شاهدة على الإنسان يوم القيامة بلسان حالها على معنى أنّ تلك الآثار النفسانيّة إنّما حصلت في جواهر النفوس بواسطة الأفعال الصادرة عنها فكان صدور تلك الأفعال من تلك الجوارح جارياً مجرى الشهادة على النفس بما اكتسبه بها.

إذا عرفت ذلك فنقول: لمّا كانت حقيقة المحاسبة تعود إلى تعريف الإنسان ما له وما عليه من مال ونحوه. وكان ما يحصل من النفوس من الملكات الخيريّة والشرّيّة أموراً مضبوطة في جوهرها محصاة عليها وإنّما تنكشف لها كثرة تلك الهيئات وتمكّنها من ذواتها وتضرّرها بها في الآن الذي تنقطع فيه علاقة النفس مع البدن أشبه ذلك ما تبيّن للإنسان عند المحاسبة ممّا أحصي عليه وله. فأطلق عليه لفظ الحساب. وذلك اليقين والاطلاع هو المشار إليه بقوله عليه السلام: وقدموا عليه، وليس المقصود أنَّ ما يقدم عليه في الآخرة هو عين ما أخذ من الدنيا بل ثمرته في النفوس من خير أو شرّ فالذي يتناوله الجاهلون منها لمجرّد التنعم بها فهو الذي يتمكن عنه هيئات السوء في جواهر نفوسهم فيقدمون عليها ويقيمون بها في عذاب جهنّم خالدون لا يفتّر عنهم وهم فيه مبلسون.

الخامس: كونها عند ذوي العقول كفيء الظلّ، ونبّه بهذا الوصف على سرعة زوالها، وإنّما خصّص ذوي العقول بذلك لأمرين: أحدهما: أنَّ المعتبر لزوالها عامل بمجرد عقله دون هواه فلذلك نسب إلى العقل. الثاني: أنَّ حال

ذوي العقول مرغوب فيه لمن سمعه. ولمّا كان مقصوده تحذير السامعين من سرعة زوالها ليعملوا فيها لما بعدها نسب ذلك إلى ذوي العقول ليقتفي السامعون أثرهم. ثمّ أشار إلى وجه شبهها للظلّ بقوله: بينا تراه. إلى آخره: أي أنّها يسرع زوالها كما يسرع زواله، وهو من التشبيهات السائرة، ومثله قول الشاعر:

ألا إنّما الدنيا كظلّ غمامة أظلّت يسيراً ثمّ خفّت فولّت

٦١ - ومن خطبة له (عليه السلام)

وَٱتَقُوا ٱللهَ عِبَادَ ٱللهِ، وَبَادِرُوا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ، وَٱبْتَاعُوا مَا يَبْقَى لَكُمْ بِمَا يَزُولُ عَنْكُمْ، وَتَرحَّلُوا فَقَدْ جُدَّ بِكُمْ، وَٱسْتَعِدُّوا لِلْمَوْتِ فَقَدْ أَظَلَّكُمْ وَكُونُوا قَوْماً صِيحَ بِهِمْ فَٱنْتَبَهُوا، وَعَلِمُوا أَنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ لَهُمْ بِدَارٍ فَٱسْتَبْدَلُوا فَإِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً، وَلَمْ يَتْرُكْكُمْ سُدىً، وَمَا بَيْنَ أَحَدِكُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ أَوِ النَّارِ إِلَّا الْمَوْتُ أَنْ يَنْزِلَ بِهِ، وَإِنَّ غَايَةً تَنْقُصُهَا اللَّحْظَةُ وَتَهْدِمُهَا السَّاعَةُ لَجَدِيرَةٌ بِقِصَرِ الْمُدَّةِ، وَإِنَّ غَائِباً يَحْدُوهُ الْجَدِيدَانِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ لَحَرِيٌّ بِسُرْعَةِ الْأَوْبَةِ، وَإِنَّ قَادِماً يَقْدُمُ بِالْفَوزِ وَالشِّقْوَةِ، لَمُسْتَحِقٌّ لِأَفْضَلِ الْعُدَّةِ فَتَزَوَّدُوا فِي الدُّنْيَا، مِنَ الدُّنْيَا، مَا تُحْرِزُونَ بِهِ أَنْفُسَكُمْ غَداً فَٱتَّقَى عَبْدٌ رَبَّهُ نَصَحَ نَفْسَهُ، وَقَدَّمَ تَوْبَتَهُ، وَغَلَبَ شَهْوَتَهُ فَإِنَّ أَجَلَهُ مَسْتُورٌ عَنْهُ، وَأَمَلَهُ خَادِعٌ لَهُ، وَالشَّيْطَانَ مُوَكَّلٌ بِهِ: يُزَيِّنُ لَهُ الْمَعْصِيَةَ لِيَرْكَبَهَا وَيُمَنِّيهِ التَّوْبَةَ لِيُسَوِّفَهَا حَتَّى تَهْجُمَ مَنِيَّتُهُ عَلَيْهِ أَغْفَلَ مَا يَكُونُ عَنْهَا، فَيَالَهَا حَسْرَةً عَلَى ذِي غَفْلَةٍ أَنْ يَكُونَ عُمُرُهُ عَلَيْهِ حُجَّةً، وَأَنْ تُؤَدِّيَهُ أَيَّامُهُ إِلَى شِقْوَةٍ، نَسْأَلُ ٱللهَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَجْعَلَنَا وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ لَا تُبْطِرُهُ نِعْمَةٌ، وَلَا تُقَصِّرُ بِهِ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِ غَايَةٌ، وَلَا تَحِلُّ بِهِ بَعْدَ الْمَوْتِ نَدَامَةٌ وَلَا كَآبَةٌ.

أقول: المبادرة: المسارعة. والسدى: المهمل. وجدير بكذا: أي أولى به، وحريّ: حقيق. والتسويف: قول الإنسان سوف أفعل، وهو كناية عن التمادي في الأمر. والبطر: تجاوز الحدّ في الفرح. والكآبة: الحزن.

وحاصل هذه الموعظة التنفير من الدنيا والترغيب في الآخرة وما يكون

وسيلة إلى نعيمها والترهيب ممّا يكون سببا للشقاء فيها.

فقوله: فاتّقوا الله. إلى قوله: بأعمالكم.

فيه تنبيه على وجوب لزوم الأعمال الصالحة ، وحثّ عليها بالأمر بمسابقة الآجال وعلى توقّع سرعة الأجل وإخطاره بالبال، وهو من الجواذب القويّة إلى الله تعالى. ونسب المسابقة إلى الآجال ملاحظة لشبهها بالمراهن إذ كان لحوقها حائلاً بينهم وبين الأعمال الصالحة الشبيهة بما يسبق عليه من رهن.

فقوله: وابتاعوا ما بقي. إلى قوله: عنكم.

إشارة إلى لزوم الزهد في الدنيا، والتخلّي عن متاعها الفاني، وأن يشتري به ما يبقى من متاع الآخرة. وقد عرفت غير مرّة إطلاق لفظ البيع هنا. وقيّد المشتري بما يبقى، والثمن بما يزول ليكون المشتري أحبّ إلى النفوس لبقائه.

وقوله: فترحّلوا فقد جدّبكم.

أمر بالترحّل ، وهو قطع منزل منزل من منازل السفر إلى الله تعالى في مراتب السلوك لطريقه ونبّه على وجوب الترحّل بقوله : فقد جدّبكم : أي في السير إلى آجالكم بقوة وذلك الجدّ يعود إلى سرعة توارد الأسباب التي تعدّ المزاج للفساد وتقرّبه إلى الآخرة ملاحظة لشبهها بسائق الإبل ونحوها .

وقوله: واستعدّوا للموت فقد أظلّكم.

الاستعداد له هو باستكمال النفوس كما لها الذي ينبغي حتى لا يبقى للموت عندها كثير وقع بل يكون محبوباً لكونه وسيلة إلى المحبوب وهو لقاء الله والسعادة الباقية في حضرة الملأ الأعلى، ونبّه بقوله: فقد أظلّكم. على قربه. واستلزم ذلك تشبيهه بالسحاب والطير فاستعير له وصف الإظلال.

وقوله: وكونوا قوماً صيح بهم فانتبهوا.

تنبيه لهم على الالتفات إلى منادي الله، وهو لسان الشريعة والانتباه

بنذائه من مراقد الطبيعة.

وقوله: وعلموا. إلى قوله: سدى.

تنبيه لهم على أنّ الدنيا ليست بدار لهم ليلتفتوا عن الركون إليها ويتوقّعوا الإخراج منها. ثمّ أمرهم بالاستبدال بها ليذكّروا أنّ هناك عوضاً منها يجب أن يلتفت إليه وهو الدار الآخرة، ونبّه بقوله: فإنّ الله لم يخلقكم عبثاً. إلى آخره على وجوب العمل لذلك البدل فإنّهم لم يخلقوا إلاّ لأمر وراء ما هم فيه.

وقوله: ما بين أحدكم. إلى قوله: ينزل به.

تعيين لما خلقوا له ووعدوا بالوصول إليه وأنّه لا حائل بينهم وبينه إلاّ الموت. وقال بعض الشارحين: وهذا الكلام ممّا يصلح متمسّكاً للحكماء في تفسيرهم للجنّة والنار فإنّهم لمّا قالوا: إنّ الجنّة تعود إلى المعارف الإلهيّة ولوازمها، والنار تعود إلى حبّ الدنيا والميل إلى مشتهياتها. وتمكّن الهيئات الرديئة في جوهر النفس وعشقها بعد المفارقة لما لا يتمكّن من العود إليه كمن نقل عن مجاورة معشوقه والالتذاذ به إلى موضع ظلمانيّ شديد الظلمة مع عدم تمكّنه من العود إليه كما قال تعالى: **﴿قال ربّ ارجعون لعلّي أعمل صالحا فيما تركت كلاّ﴾**(1) الآية. وكان إدراك لذّة المعارفة التامّة، وإدراك ألم النار بالمعنى أمراً يتحقّق حال مفارقة هذا البدن. إذ كان الإنسان في عالم الشهادة في إدراكه لما حصل في نفسه وتمكّن من الهيئات كعضو مفلوج غطّى خدره على ألمه فإذا أزال الخدر أحسّ بالألم فكذلك النفس بعد الموت تدرك مالها من لذّة أو ألم كما هو لزوال الشواغل البدنيّة عنها.

قلت: وهذا الكلام أيضاً ظاهر على مذهب المتكلّمين إذ جاء في الخبر أنّ العبد يكشف له الموت عمّا يستحقّه من جنّة أو نار ثمّ يؤجّل ذلك إلى قيام القيامة الكبرى.

---

(1) ٢٣ - ١٠١.

وقوله: وإنّ غاية. إلى قوله: المدّة.

كنّى بالغاية عن الأجل المعلوم للإنسان ثمّ نبّه على قصره وحقارته بأمرين:

أحدهما: كونه تنقصه اللحظة: أي النظرة. وهو ظاهر فإنّ كلّ جزء من الزمان فرصة قد مضى من مدّة الإنسان منقص لها.

الثاني: كونه تهدمها الساعة. كنّى بالساعة عن وقت الموت، ولا شكّ أنّ الآن الذي تنقطع فيه علاقة النفس مع البدن غاية لأجل الإنسان. وغاية الشيء هي ما يتعلّق عندها الشيء فكنّى بالهدم عن ذلك الانقطاع والانتهاء كناية بالمستعار. وظاهر أنّ مدّة هذا شأنها في غاية القصر.

وقوله: وإنّ غائبا. إلى قوله: الأوبة.

أشار بالغائب إلى الإنسان إذ كانت الدنيا عالم غربته ومحلّ سفره، ومنزله الحقيقيّ إنّما هو منشأه وما إليه مرجعه، وإنّما سمّي الليل والنهار جديدان لتعاقبهما فليس أحدهما مختلقاً للآخر. واستعار لفظ الحدو لما يستلزمانه من إعداد الإنسان لقرب أجله المشبه لصوت الحادي الذي يحدو الإبل لسرعة سيرها وقربها من المنزل المقصود لها. وظاهر أنّ من كان الليل والنهار حادييه فهو في غاية سرعة الرجوع إلى مبدئه ووطنه الأصلي. وقال بعض الشارحين: أراد بالغائب الموت. وهو وإن كان محتملاً إلا أنّه لا يطابقه لفظ الأوبة لأنّ الموت لم يكن جائيا أو ذاهبا حتى يرجع.

وقوله: وإنّ قادماً. إلى قوله: العدّة.

أشار بالقادم بالفوز أو الشقوة إلى الانسان حين قدومه على ربّه بعد المفارقة فإنّه إمّا الفوز بالسعادة الباقية، أو الحصول على الخيبة والشقوة. ونبّه بذكر القدوم على أنّ من هذا شأنه فالواجب عليه أن يستعدّ بأفضل عدّة ليصل بها إلى أحبهما لديه. ويتباعد بها عن أكرههما عنده.

وقوله: فتزوّدوا. إلى قوله: غدا.

فصّل نوع تفصيل أفضل العدّة وهو الزاد الذي يحرز الإنسان به نفسه يوم القيامة من السقب في نار جهنّم وغليل حرّها، وأشار بذلك الزاد إلى تقوى الله وخشيته. وقد علمت حقيقة الخشية والخوف وأنّه إنّما يحصل في الدنيا. وأمّا كونه من الدنيا فلأنّ الآثار الحاصلة للنفس من الحالات والملكات كالخشبة والخوف وسائر ما يتزوّده ويستصحبه بعد المفارقة أمور إنّما حصلت عن هذا البدن واستفيدت من الدنيا بواسطته. والمشابهة التي لأجلها استعار لفظ الزاد هنا هو مايشترك فيه الزاد المحسوس والتقوى من سلامة المتزوّد بهما كلّ في طريقه فذاك في المنازل المحسوسة من عذاب الجوع والعطش المحسوسين، وهذا في المنازل المعقولة ومراتب السلوك ومراحل السفر إلى الله تعالى من عذاب الجوع المعقول.

وقوله: فاتّقى عبد ربّه. إلى قوله: شهوته.

أوامر وردت بلفظ الماضي خالية عن العطف وهي بلاغة تريك المعنى في أحسن صورة. فالأمر بالتقوى تفسير للأمر بالزاد كما قال تعالى: ﴿وتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوى﴾[1] والأمر بنصيحة النفس أمر بالنظر في مصالحها، والشعور عليها أن تعمل ما هو الأولى بها من التمسّك بحدود الله والوقوف عندها، والأمر بتقديم التوبة وغلب الشهوة هو من جملة الأمر بالنصيحة كالتفسير له ومن لوازم التقوى أردفه بهما، وأراد تقديم التوبة على الموت أو بالنسبة إلى كلّ وقت سيحضر.

وقوله: فإنّ أجله. إلى قوله: شقوة.

حثّ على امتثال أوامره السائقة إلى التوبة وغيرها، وتحذير من هجوم المنيّة على غفلة لما يستلزمه ذلك من شدّة الحسرة وطول الندم على التفريط، وذلك أنّ ستر الأجل عن الإنسان موجب للغفلة عنه فإذا انضاف إلى ذلك خداع الأمل الناشىء عن وساوس الشيطان في تزيينه المعصية وتسويفه

---

(١) ٢ - ١٩٣.

التوبة مع كونه موكلاً به وقريناً له كما قال سيّد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم : ما من مولود إلّا ويولد معه قرين من الشيطان. كانت الغفلة أشدّ والنسيان آكد، واستعار لفظ الخداع لصورته من النفس الأمّارة بالسوء وهو قولها للإنسان مثلاً: تمتّع من شبابك واغتنم لذّة العيش ما دمت في مهلة ومستقبل من عمرك وستلحق للتوبة، ونحو ذلك من الأضاليل فإنّ هذه الصورة خداع من الشيطان، وأمّا نسبة ذلك إلى الأمل فلأنّ الأمل هو عزم النفس على فعل تلك الأمور وأمثالها في مستقبل الأوقات عن توهّم مدّة الحياة واتّساعها لما تفعله فيها من معصية وتوبة، وذلك العزم من أسباب الانخداع للشيطان وغروره فلذلك نسب الخداع إلى الأمل مجازاً، وجعل غاية ذلك الخداع هو أن تهجم على المخدوع منيّته حال ما هو في أشدّ غفلة عنها واشتغال بما يؤمّله فيكون ذلك مستلزماً لأعظم حسرة وأكبر ندامة على أن يكون عمره عليه حجّة شاهداً بلسان حاله على ما اكتسب فيه من الآثام فصار بعد أن كان وسيلة لسعادته سبباً لشقاوته. وأغفل نصب على الحال. وحسرةً على التميز للمتعجّب منه المدعوّ. واللام في لها قيل: للاستغاثة. كأنّه قال: يا للحسرة على الغافلين ما أكثرك، وقيل: بل لام الجرّ فتحت لدخولها على الضمير والمنادى محذوف وتقديره يا قوم أدعوكم لها حسرة، وأن في موضع النصب بحذف الجارّ كأنّه قيل: فعلام يقع عليهم الحسرة؟ فقال: على كون أعمارهم حجّة عليهم يوم القيامة.

وقوله: نسأل الله تعالى. إلى قوله: كآبة.

خاتمة الخطبة، وسأل الله الخلاص عن أمور ثلاثة:

الأوّل: أن يخلّصه من شدّة الفرح بنعمة الدنيا فإنّ ذلك من لوازم محبّتها المستلزمة للهلاك الأبديّ.

الثاني: أن لا تقصر به غاية عن طاعة ربّه: أي لايقصر عن غاية من غايات الطاعة يقال قصرت هذه الغاية بفلان إذا لم يبلغها.

الثالث: أن لا تحلّ به بعد الموت ندامة ولا حزن وذلك سؤال لحسم

أسبابهما وهو اتّباع الهوى في الدنيا والعدول عن طاعة الله. وبالله العصمة.

٦٢ - ومن خطبة له (عليه السلام)

أَلْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَسْبِقْ لَهُ حَالٌ حَالاً، فَيَكُونَ أَوَّلاً قَبْلَ أَنْ يَكُونَ آخِراً، وَيَكُونَ ظَاهِراً قَبْلَ أَنْ يَكُو بَاطِناً، كُلُّ مُسَمّىً بِالْوَحْدَةِ غَيْرُهُ قَلِيلٌ، وَكُلُّ عَزِيزٍ غَيْرُهُ ذَلِيلٌ، وَكُلُّ قَوِيٍّ غَيْرُهُ ضَعِيفٌ، وَكُلُّ مَالِكٍ غَيْرُهُ مَمْلُوكٌ، وَكُلُّ عَالِمٍ غَيْرُهُ مُتَعَلِّمٌ، وَكُلُّ قَادِرٍ غَيْرُهُ يَقْدِرُ وَيَعْجِزُ، وَكُلُّ سَمِيعٍ غَيْرُهُ يَصَمُّ عَنْ لَطِيفِ ٱلْأَصْوَاتِ، وَيُصِمُّهُ كَبِيرُهَا، وَيَذْهَبُ عَنْهُ مَا بَعُدَ مِنْهَا، وَكُلُّ بَصِيرٍ غَيْرُهُ يَعْمَى عَنْ خَفِيِّ ٱلْأَلْوَانِ وَلَطِيفِ ٱلْأَجْسَامِ، وَكُلُّ ظَاهِرٍ غَيْرُهُ بَاطِنٌ، وَكُلُّ بَاطِنٍ غَيْرُهُ غير ظَاهِرٍ، لَمْ يَخْلُق ما خَلَقَهُ لتشديدِ سُلطانٍ، وَلا تَخوّفٍ مِن عَواقِبِ زَمانٍ، وَلا استِعانةٍ على نِدٍّ مُثاوِرٍ، وَلا شَرِيكٍ مُكابِرٍ، وَلا ضِدٍّ مُنافِرٍ؛ ولكِنْ خَلائِقُ مَرْبُوبُونَ، وَعِبَادٌ دَاخِرُونَ، لَمْ يَحْلُلْ فِي ٱلْأَشْيَاءِ فَيُقَالَ هُوَ فِيهَا كَائِنٌ، وَلَمْ يَنْأَ عَنْهَا فَيُقَالَ هُوَ مِنْهَا بَائِنٌ لَمْ يَؤُدْهُ مَا ٱبْتَدَأَ وَلَا تَدْبِيرُ مَا ذَرَأَ، وَلَا وَقَفَ بِهِ عَجْزٌ عَمَّا خَلَقَ، وَلَا وَلَجَتْ عَلَيْهِ شُبْهَةٌ فِيمَا قَضَى وَقَدَّرَ. بَلْ قَضَاءٌ مُتْقَنٌ، وَعِلْمٌ مُحْكَمٌ، وَأَمْرٌ مُبْرَمٌ: الْمَأْمُولُ مَعَ النِّقَمِ، وَالْمَرْجُوُّ مِنَ النِّعَمِ.

أقول: المثاور: المواثب. والداخر: الذليل، وآده الأمر: أثقله. وذرأ: خلق. والمبرم: المحكم.

وقد اشتملت هذه الخطبة على مباحث لطيفة من العلم الإلهيّ أيضاً لا يطلّع عليها إلّا المتبحّرون فيه.

الأوّل: الذي لم يسبق. إلى قوله: باطناً.

أقول: إنه لما ثبت أنّ السبق والمقارنة والقبليّة والبعديّة أمور تلحق الزمان لذاته وتلحق الزمانيّات به، وثبت أنّه تعالى منزّه عن الزمان إذ كان من لواحق الحركة المتأخّرة عن وجود الجسم المتأخّر عن وجود الله سبحانه كما علم ذلك في موضعه لا جرم لم تلحق ذاته المقدّسة وما لها من صفات الكمال

ونعوت الجلال شيء من لواحق الزمان. فلم يجز إذن أن يقال مثلاً كونه عالماً قبل كونه قادراً وسابقاً عليه، وكونه قادراً قبل كونه عالماً، ولا كونه أوّلا للعالم قبل كونه آخراً لـه قبليّة وسبقاً زمانيّاً. بقي أن يقال: إنّ القبليّة والبعديّة قد تطلق بمعان أخر كالقبليّة بالشرف والفضيلة والذات والعليّة، وقد بيّنا في الخطبة الأولى أنّ كلّ ما يلحق ذاته المقدّسة من الصفات فاعتبارات ذهنيّة تحدثها العقول عند مقايسته إلى مخلوقاته، وشيء من تلك الاعتبارات لا تتفاوت أيضاً بالقبليّة والبعديّة بأحد المعاني المذكورة بالنظر إلى ذاته المقدّسة فلا يقال مثلاً هو المستحقّ لهذا الاعتبار قبل هذا الاعتبار أو بعده وإلّا لكان كمال ذاته قابلاً للزيادة والنقصان؛ بل استحقاقه بالنظر إلى ذاته لمّا يصحّ أن يعبرّ لها استحقاق واحد لجميعها دائماً فلا حال يفرض إلّا وهو يستحقّ فيه أن يعتبر له الأوّليّة والآخريّة معا استحقاقاً أوّلياً ذاتيّاً لا على وجه الترتّب وإن تفاوتت الاعتبارات بالنظر إلى اعتبارنا، وهذا بخلاف غيره من الأمور الزمانيّة فإنّ الجوهر مثلاً يصدق عليه كونه أوّلاً من العرض ولا يصدق عليه مع ذلك أنّه آخر له حتى لو فرضنا عدم جميع الأعراض وبقاء الجوهر بعدها لم يكن استحقاقه للاعتبارين معاً بل استحقاقه لاعتبار الأوّليّة متقدّم إذ كانت بعض أحواله سابقة على بعض، ولا استحقاقه لهما لذاته بل بحسب بقاء أسبابه. ولا العرض لما صدق عليه أنه بعد الجوهر يصدق عليه أنه قبله باعتبار ما، وخلاف المختلفين في أيّ الصفات أقدم مبنيّ على سوء تصوّرهم لصانعهم سبحانه وتعالى عمّا يقولون علوّاً كبيراً.

إذا عرفت ذلك فنقول: أوّليّته هو اعتبار كونه مبدءاً لكلّ موجود، وآخريّته هو كونه غاية لكلّ ممكن، وقد سبق معنى كونه ظاهراً وباطناً في الخطبة التي **أوّلها**: الحمد لله الذي بطن خفيّات الامور.

الثاني: كلّ مسمّى بالوحدة غيره قليل.

مقصود هذه الكلمة أنّه تعالى لا يوصف بالقلّة وإن كان واحداً؛ وتقرير ذلك أنّ الواحد يقال بمعان والمشهور منها المتعارف بين الخلق كون الشيء

مبدءاً لكثرة يكون عادّاً لها ومكيالا وهو الذي تلحقه القلة والكثرة الإضافيّتان فإنّ كلّ واحد بهذا هو قليل بالنسبة إلى الكثرة التي يصلح أن يكون مبدءاً لها والمتصوّر لأكثر أهل العالم صدق هذا الاعتبار على الله بل ربّما لا يتصوّر بعضهم كونه تعالى واحداً إلّا بهذا الوجه، ولمّا كان تعالى منزّها عن الوصف بالقلّة والكثرة لما يستلزمانه من الحاجة والنقصان اللازمين لطبيعة الإمكان أثبت القلّة لكلّ ما سواه فاستلزم إثباتها لغيره في معرض المدح له ونفيها عنه. واستلزم ذلك تنزيهه تعالى عن الواحديّة بالمعنى المذكور. إذ سلب اللازم يستلزم سلب ملزومه، وليس إذا بطل كونه واحداً بهذا المعنى بطل كونه واحداً. فإنّا بيّنا صدق الواحد عليه بمعان أخر في الخطبة الأولى، وقد يفهم من هذا أنّه لمّا نفى عنه القلّة استلزم ذلك أن يثبت له الكثرة، وهو من سوء الفهم وقلّة العلم فإنّ عدم القلّة إنّما يستلزم ثبوت الكثرة عند تعاقبها على محلّ من شأنه قبولهما. وربّما قيل: إنّ المراد بالقليل هنا الحقير، وهو غير مناسب لذكر الوحدة وإنّما قال عليه‌السلام: كلّ مسمّى بالوحدة، ولم يقل كلّ واحد ليشعر بأنّ قول الوحدة على واحديّته تعالى وعلى واحديّة غيره قول بحسب اشتراك الاسم.

الثالث: وكلّ عزيز غيره ذليل.

أقول: رسم العزيز بأنّه الخطير الذي يقلّ وجود مثله وتشتدّ الحاجة إليه ويصعب الوصول إليه. ثمّ في كلّ واحد من هذه القيود الثلاثة كمال ونقصان فالكمال في قلّة الوجود أن يرجع إلى واحد ويستحيل أن يوجد مثله وليس ذلك إلّا الله سبحانه، والكمال في النفاسة وشدّة الحاجة أن يحتاج كلّ شيء في كلّ شيء، وليس ذلك على الكمال إلّا الله تعالى، والكمال في صعوبة المنال أن لا يوصل إلى حقيقته على معنى الإحاطة بها، وليس ذلك على كمال إلّا الله تعالى فهو إذن العزيز المطلق الذي كلّ موجود سواه ففي ذلّ الحاجة إليه وحقارة العبوديّة بالنسبة إلى كمال عزّه. فأمّا العزيز من الخلق فهو الذي توجد له تلك الاعتبارات لكن لا مطلقا بل بقياسه إلى من هو دونه في

الاعتبارات المذكورة فهو إذن وإن صدق عليه أنّه عزيز بذلك الاعتبار إلّا أنّه في ذلّ الحاجة إلى من هو أعلى رتبة منه وأكمل في تلك الاعتبارات، وكذلك من هو أعلى منه إلى أن ينتهي إلى العزيز المطلق الذي لا يلحقه ذلّ باعتبارٍ ما. فلذلك أثبت عليه السلام الذّل لكلّ عزيز سواه.

الرابع: وكلّ قويّ غيره ضعيف.

القوّة تعود إلى تمام القدرة، ويقابلها الضعف، ولمّا كان استناد جميع الموجودات إلى تمام قدرته علمت أنه لا أتمّ من قدرته فكلّ قوّة وصف بها غيره فبالنسبة إلى ضعف يقابلها لمن هو دونه وإذا قيس بالنسبة إلى من هو فوقه كان ضعيفاً بالنسبة إليه، وكذلك من هو فوقه إلى أن ينتهي إلى تمام قدرة الله فهو القويّ الذي لا يلحقه ضعف بالقياس إلى أحد غيره كذلك قوله: وكلّ مالك غيره مملوك. فإنّ معنى المالك يعود إلى القادر على الشيء الذي تنفذ مشيّته فيه باستحقاق دون غيره، وغيره بإذنه. ولمّا ثبت أنّ كلّ موجود سواه فهو في تصريف قدرته ومشيئته إذ هما مستند وجوده ثبت أنّه هو المالك المطلق الذي لست له مملوكيّة بالقياس إلى شيء آخر وأنّ كلّ ما سواه فهو مملوك له وإن صدق عليه بالعرف أنّه مالك بالقياس إلى من هو دونه. ثمّ لا يخفى عليك ممّا سلف أنّ قول القويّ والمالك عليه وعلى غيره قول بحسب اشتراك الاسم أيضاً.

الخامس: وكلّ عالم غيره متعلّم.

لمّا ثبت أنّ علمه تعالى بالأشياء على ما مرّ من التفصيل إنّما هو لذاته، ولم يكن شيء منه بمستفاد من أمر آخر، وكان علم من سواه إنّما هو مستفاد بالتعلّم من الغير ثمّ الغير من الغير إلى أن ينتهي إلى علمه تعالى الفائض بالخيرات لا جرم كان كلّ عالم سواه متعلّما وإن سمّي عالما بحصول العلم له، وكان هو العالم المطلق الذي لا حاجة به في تحصيل العلم إلى أمر آخر.

السادس: وكلّ قادر غيره يقدر ويعجز.

أقول: قدرة الله تعالى تعود إلى اعتبار كونه مصدراً لآثاره. فأمّا قدرة الغير فقد يراد بها قوّة جسمانيّة منبّثة في الأعضاء محرّكة نحو الأفاعيل الاختياريّة. والعجز ما يقابل القدرة بهذا المعنى وهو عدمها عمّا من شأنه أن يقدر كما في حقّ الواحد منّا، وقد يراد بهما اعتباران آخران يتقابلان. إذا عرفت ذلك فنقول: القادر المطلق على كلّ تقدير هو مستند كلّ مخترع وموجود اختراعا ينفرد به ويستغني فيه عن معاونة غيره وذلك إنّما يتحقّق في حقّ الله سبحانه فأمّا كلّ منسوب إلى القدرة سواه فهو وإن كان بالجملة ذا قدرة إلّا أنّها ناقصة لتناولها بعض الممكنات فقط وقصورها عن البعض الآخر وعدم تناولها له إذا كانت لا تصلح للمخترعات وإن نسب إليه إيجاد شيء فلأنّه فاعل أقرب وواسطة بين القادر الأوّل سبحانه وبين ذلك الأثر لا لذاته استقلالاً وتفرّداً به على ما علم في مظانّه. فكلّ قادر سواه فلذاته يستحقّ العجز وعدم القدرة بالنسبة إلى ما يمكن تعلّق قدرته به من سائر المخترعات والممكنات وإنّما يستحقّ القدرة من وجوده. فهو إذن الفاعل المطلق الذي لا يعجزه شيء عن شيء ولا يستعصي على قدرته شيء.

السابع: وكلّ سميع غيره يصمّ عن لطيف الأصوات، ويصمّه كبيرها، ويذهب عنه ما بعد منها.

أقول: حسُّ السمع في الحيوان عبارة عن قوّة تنفذ من الدماغ إلى الأذن في عصبته ثابتة منه إلى الصماخ مبسوطة عليه كجلد الطبل، وهذه العصبة آلة هذه القوّة. والصوت هيئة تحصل في الهواء عن تموّجه بحركة شديدة إمّا من قرع يحصل من اصطكاك جسمين صلبين فيضغط الهواء بينهما وينفلت بشدّة، وإمّا من قلع شديد فيلج الهواء بين الجسمين المنفصلين الصلبين ويحصل عن السببين تموّج الهواء على هيئة مستديرة كما يفعل وقوع الحجر في الماء فإذا انتهى ذلك التموّج إلى الهواء الذي في الأذن تحرّك ذلك الهواء الراكد حركة مخصوصة بهيئة مخصوصة فتنفعل العصبة المفروشة على الصماخ عن تلك الحركة وتدركها القوّة السامعة هناك فهذا الإدراك يسمّى

سماعاً. إذا عرفت ذلك فاعلم أنّ إدراك هذه القوّة للصوت يكون على قرب وبعد وحدّ من القوّة والضعف مخصوص فإنّه إن كان الصوت ضعيفاً أو بعيداً جدّاً لم يحصل بسببه تموّج الهواء فلم يصل إلى الصماخ فلم يحصل السماع وذلك معنى قوله: يصمّ عن لطيف الأصوات، ويذهب عليه ما بعد منها.

فإن قلت: لم خصّص اللطيف بالصمّ عنه والبعيد بالذهاب عليه.

قلت: يشبه أن يكون لأنّ البعيد في مظنّة أن يسمع وإنّما يفوته بسبب عدم وصول الهواء الحامل له إليه، وأمّا الخفيّ فلمّا لم يكن من شأنه أن تدركه القوّة السامعة أشبه عجزها عن إدراكه الصمّ فاستعير لفظه له، وأمّا إن كان الصوت في غاية القوّة والقرب فربّما أحدث الصمّ وذلك لشدّة قرعه للصماخ وتفرّق اتّصال الروح الحامل لقوّة السمع عنه بحيث يبطل استعدادها لتأدية القوّة إلى الصماخ وكلّ ذلك من نقصان الحيوان وضعفه، ولمّا كان الباري تعالى منزّها عن الجسميّة وتوابعها لا جرم كانت هذه اللواحق من الصمم عن لطيف الأصوات، وذهاب بعيدها، والصمّ من كبيرها مخصوصة بمن له تلك القوّة المذكورة والسمع المخصوص فكلّ سامع غيره فهو كذلك. واستلزم ذلك في معرض مدحه بتنزيهه سبحانه عنها. وإذ ليس سمعياً بالمعنى المذكور وقد نطق القرآن بإثبات هذه الصفة له فهو سميع بمعنى أنه لا يعزب عن إدراكه مسموع وإن خفي فيسمع السرّ والنجوى بل ما يسمع هو أدّق وأخفى حمد الحامدين ودعاء الداعين، وذلك هو السميع الذي لا يتطرّق إليه الحدثان إذ لم يكن بآلة وآذان .

الثامن: وكل بصير غيره يعمى عن خفيّ الألوان ولطيف الأجسام.

أقول: خفيّ الألوان مثلاً كاللون في الظلم، واللطيف قد يكون بمعنى عديم اللون كما في الهواء، وقد يكون بمعنى رقيق القوام كالجوهر الفرد عند المتكلّمين، وكالذّرة، واللطيف بالمعنيين غير مدرك للحيوان، وأطلق لفظ العمى مجازاً إذ كان عبارة إمّا عن عدم البصر مطلقاً أو عن عدمه عمّا من شأنه أن يبصر ولا واحد من هذين الاعتبارين بموجود للبصير غير الله فلم يكن عدم

إدركها عمى حقيقيًا بل لكون العمى من أسباب عدم الرؤية أطلق لفظه عليه إطلاقاً لاسم السبب على المسبّب، وهذا الحكم في معرض مدحه إن يستلزم تنزيه بصره عن لاحق العمى ومظنّته إذ كان سبحانه منزّها عن معروض العمى والبصر ومتعالياً عن أن يكون إدراكه بحدقة وأجفان وانطباع الصور والألوان وإن كان يشاهد ويرى حتى لا يعزب عنه ما تحت الثرى. وإذ ليس بصيراً بالمعنى المذكور فهو البصير باعتبار أنه مدرك لكمال صفات المبصرات، وذلك الاعتبار أوضح وأجلى ممّا يفهم من إدراك البصر القاصر على ظواهر المرئيّات.

التاسع: وكلّ ظاهر غيره باطن.

أقول: ظهور الأشياء هو انكشافها للحسّ أو للعقل انكشافاً بيّنا، ويقابله بطونها وهو خفاؤها عن أحدهما، ولمّا ثبت أنّه تعالى منزّه عن الجسميّة ولواحقها علم كونه منزّها عن إدراك الحواسّ، ولمّا قام البرهان على أنه تعالى بريء عن أنحاء التراكيب الخارجية والعقليّة وجب تنزّه ذاته المقدّسة عن اطّلاع العقول عليها فعلم من هذا الترتيب أنّه لا يشارك الأشياء في معنى ظهورها وقد وصف نفسه بالظهور فيجب أن يكون ظهوره عبارة عن انكشاف وجوده في جزئيّات آثاره كما قال تعالى: ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنّه الحقّ**﴾[1] وإن كانت مشاهدة الحقّ له على مراتب متفاوتة ودرجات متصاعدة كما أشار إليه بعض مجرّدي السالكين. ما رأينا الله بعده. فلمّا ترقّوا عن تلك المرتبة درجة من المشاهدة والحضور قالوا: ما رأينا شيئاً إلاّ ورأينا الله فيه. فلمّا ترقّوا قالوا: ما رأينا شيئاً إلاّ ورأينا الله قبله. فلمّا ترقوا قالوا: ما رأينا شيئاً سوى الله. والأولى مرتبة الفكر والاستدلال عليه، والثانية مرتبة الحدس، والثالثة مرتبة المستدلّين به لا عليه، والرابعة مرتبة الفناء في ساحل عزّته واعتبار الوحدة المطلقة محذوفاً عنها كلّ لاحق. وإذا عرفت معنى ظهوره علمت أنّ شيئاً من الممكنات لا يكون له الظهور المذكور فإنّه وإن كان لبعض الأشياء في عقل أو حسّ إلاّ أنّه ليس في كلّ عقل وفي كل حسّ

(١) ٣١ ـ ٥٣.

إذ كلّ مطّلع على شيء فالذي خفي عنه أكثر ممّا اطّلع عليه فكلّ ظاهر غيره فهو باطن بالقياس إليه وهو تعالى الظاهر لكلّ شيء وفي كلّ شيء لكونه مبدأ كلّ شيء ومرجع كلّ شيء.

العاشر: وكلّ باطن غيره فهو ظاهر [فهو غير ظاهر خ].

وقد علمت معنى البطون للمكنات وظهورها، وعلمت أيضاً ممّا سبق أنّ كونه باطناً يقال بمعنيين: أحدهما: أنّه الذي خفي قدس ذاته عن اطّلاع العقول عليه. والثاني: أنّه الذي بطن جميع الأشياء خبره ونفذ فيها علمه. ثمّ علمت الظهور المقابل للمعنى الأوّل، وأمّا المقابل للثاني فهو الذي لم يطّلع إلّا على ظواهر الأشياء لم يكن له اطّلاع على بواطنها يقال فلان ظاهر وظاهري.

إذا عرفت ذلك فنقول: إنّ كلّ باطن غيره سواء كان المراد بالبطون خفاء المتصوّر أو نفوذ العلم في البواطن. فهو ظاهر بالقياس إليه تعالى ظهوراً بالمعنى الذي يقابله. أمّا الأوّل فلأنّ كلّ ممكن وإن خفي على بعض العالمين لم يخف على غيره وإن خفي على الكلّ فهو ظاهر في علمه تعالى وممكن الظهور في علم غيره فليس إذن بخفي مطلقا وهو تعالى الباطن الذي لا أبطن منه وكلّ باطن غيره فهو ظاهر بالقياس إليه. وأمّا الثاني فلأنّ كلّ عالم وإن جلّ قدره فلا إحاطة له ببعض المعلومات وهو قاصر عن بعضها، وبعضها غير ممكن له وهو تعالى الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر وكلّ ظاهر بالقياس إليه، وفي بعض النسخ وكلّ ظاهر غيره غير باطن وكلّ باطن غيره غير ظاهر، ومعنى القضيّتين أنّ كلّ ممكن إن كان ظاهراً منكشفاً لعقل أو حسّ لم يوصف مع ذلك بأنّه باطن كالشمس مثلاً وإن كان باطنا خفيّاً عن العقل والحسّ لم يوصف مع ذلك بأنه ظاهر، وهو تعالى الموصوف بأنّه الباطن الظاهر معاً. وفي هذه النسخة نظر. فإنّا إنّما أثبتنا كونه تعالى ظاهراً وباطنا معاً باعتبارين وفي بعض الممكنات ما هو كذلك كالزمان مثلاً فإنّ كلّ عاقل يعلم بالضرورة وجود

الزمان وإن خفيت حقيقته على جمهور الحكماء واضطربت عليه أقوال العلماء وكذلك العلم فليس إذن كلّ ظاهر غيره غير باطن ولا كلّ باطن غيره غير ظاهر. والله أعلم.

الحادي عشر: لم يخلق ما خلقه لتشديد سلطان. إلى قوله: منافر.

أقول: إنّه تعالى لا يفعل لغرض ومتى كان كذلك كان منزّها عن خصوصيّات هذه الأغراض. أمّا الأوّل فبرهانه أنّه لو فعل لغرض لكان وجود ذلك الغرض وعدمه بالنسبة إليه تعالى إمّا أن يكونا على سواء، أو ليس. والأوّل باطل وإلّا لكان حصول الغرض له ترجيحاً من غير مرجّح، والثاني باطل لأنّهما إذ لم يستويا كان حصول الغرض أولى به فحينئذ يكون حصول ذلك الغرض معتبراً في كماله فيكون بدونه ناقصاً تعالى الله عن ذلك.

لا يقال: ليست أولويّة الغرض بالنسبة إلى ذاته بل بالنسبة إلى العبد إذ غرضه الإحسان إلى الغير.

لأنّا نقول: غرض إحسانه إلى الغير وعدمه إن كانا بالنسبة إليه على سواء عاد حديث الرجحان بلا مرجّح، وإن كان أحدهما أولى به عاد حديث الكمال والنقصان. وإذا عرفت أنّه تعالى لا يفعل لغرض، وكلّ ما ذكره عليه السلام في هذا الفصل من تشديد سلطان وتقويته أو تخوّف عاقبة زمان أو استعانة على ندّ وشريك وضدّ أغراض علمت صدق قوله: إنّه لم يخلق شيئاً من خلقه لشيء من هذه الأمور. وهذا تنزيه من طريق نفي الغرض المطلق.

وأمّا تنزيهه تعالى عن خصوصيّات هذه الأغراض فلأنّ تشديد السلطان إنّما يحتاج إليه ذو النقصان في ملكه، ولمّا كان تعالى هو الغنيّ المطلق في كلّ شيء عن كلّ شيء صدق أنّ ذلك بغرض له ممّا خلق، وأمّا التخوّف عن عواقب الزمان فلأنّ التضرّر والانتفاع ولواحقهما من الخوف والرجاء ونحوهما إنّما هي من لواحق الممكنات القابلة للنقصان والكمال وما هو معرض التغيّر والزوال، ولمّا ثبت تنزيهه تعالى عن الانفعال عن شيء لم يتصوّر أن يكون أحد هذه الأمور غرضاً له، ولذلك الاستعانة على الند والضدّ والشريك فإنّ

الاستعانة هي طلب العون من الغير وذلك من لوازم الضعف والعجز والخوف وأنّه لا عجز فلا استعانة فلا ندّ ولا شريك ولا ضدّ، وكذلك نقول: لا ندّ ولا شريك ولا ضدّ فلا استعانة والغرض تنزيهه سبحانه عن صفات المخلوقين وخواصّ المحدثين.

وقوله: ولكن خلائق مربوبون وعباد داخرون .

أي بل خلائق خلقهم بمحض جوده وهو فيضان الخير عنه على كلّ قابل بقدر ما يقبله من غير بخل ولا منع وتعويق، وبذلك الاعتبار كان كلّ شيء وكلّ عبد ذليل وهو مالكه ومولاه:

وقوله: لم يحلل في الأشياء فيقال هو فيها كائن.

إشارةإلى وصفه بسلب كونه ذا محلّ. وللناس في تنزيهه تعالى عن المحلّ كلام طويل. والمعقول من الحلول عند الجمهور قيام موجود بموجود على سبيل التبعية له، وظاهر أنّ الحلول بهذا المعنى على الواجب الوجود محال لأنّ كونه تبعاً للغير يستلزم حاجته إليه وكلّ محتاج ممكن. قال أفضل المتأخّرين نصير الدين الطوسي ـ أبقاه الله ـ: والحق أنّ حلول الشيء في الشيء لا يتصوّر إلّا إذا كان الحال بحيث لا يتعيّن إلّا بتوسّط المحل وإذ لا يمكن أن يتعيّن واجب الوجود بغيره فإذن يستحيل حلوله في غيره.

إذا عرفت ذلك فنقول: لمّا كان الكون في المحلّ والنائي عنه والمباينة له أموراً إنّما يقال على ما يصحّ حلوله فيه ويحلّه وكان هو تعالى منزّهاً عن الحلول وجب أن يمتنع عليه إطلاق هذه الأمور. فإذ ليس هو بحالّ في الأشياء فليس هو بكائن فيها، وإذ ليس بكائن فيها فليس بنائي عنها ولا مباين لها.

وقوله: لم يؤده خلق ما ابتدأ ولا تدبير ما ذرأ.

الإعياء إنّما يقال لذي الأعضاء من الحيوان وإذ ليس تعالى بجسم ولا ذي آلة جسمانيّة لم يلحقه بسبب فعله إعياء، وإنّما قال: ما ابتدأ . ليكون

سلب الإعياء عنه أبلغ إذ ما ابتدأ من الأفعال يكون المشقّة فيه أتمّ وتدبيره يعود إلى تصريفه لجميع الذوات والصفات دائماً تصريفاً كلّيّاً وجزئيّاً على وفق حكمته وعنايته، ونحوه قوله تعالى: ﴿**أو لم يروا أنّ الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهنّ**﴾(١).

وقوله: ولا وقف به عجز عمّا خلق.

إشارة إلى كمال قدرته وأنّ العجز عليه محال. وقد سبق بيانه.

وقوله: ولا ولجت عليه شبهة فيما قضى وقدّر.

إشارة إلى كمال علمه ونفي الشبهة أن تعرض له. واعلم أنّ الشبهة إنّما تدخل على العقل في الأمور المعقولة الصرفة غير الضروريّة. وذلك أنّك علمت أنّ الوهم لا يصدق حكمه إلّا في المحسوسات فأمّا الأمور المعقولة الصرفة فحكمه فيها كاذب فالعقل حال استفصاله وجه الحقّ فيها يكون معارضاً بالأحكام الوهميّة فإذا كان المطلوب غامضاً فربّما كان في الأحكام الوهميّة ما يشبه بعض أسباب المطلوب فتتصوّره النفس بصورته وتعتقده مبدءاً فينتج الباطل في صورة المطلوب وليس به، ولمّا كان الباري تعالى منزّهاً عن القوى البدنيّة وكان علمه لذاته لم يجز أن تعرض لقضائه ولا قدره شبهة، أو يدخل عليه فيه شكّ لكونهما من عوارضها. وقد عرفت معنى القضاء والقدر فيما سبق.

وقوله: بلا قضاء متقن وعلم محكم.

أي بريء من فساد الشبهة والغلط.

وقوله: وأمر مبرم.

إشارة إلى قدره الذي هو تفصيل قضائه المحكم، وظاهر أنّ تفصيل المحكم لا يكون إلّا محكما.

---

(١) ٤٦ - ٣٢.

وقوله: المأمول مع النقم المرهوب مع النعم [المرجوّ من النعم خ].

أقول: منبع هذين الوصفين هو كمال ذاته وعموم فيضه وأنّه لا غرض له وإنّما الجود المطلق والهبة لكلّ ما يستحقّه، ولمّا كان العبد حال حلول نقمته به قد يستعدّ بالاستغفار والشكر لإفاضة الغفران ورفع النقمة فيفيضها عليه مع بقاء كثير من نعمه لديه كان تعالى مظنّة الأمل والفزع إليه في رفع ما ألقي فيه وإبقاء ما أبقى حتى أنّه تعالى هو المفيض لصورة الأمل، وإليه أشار بقوله تعالى: ﴿وإذا مسّكم الضرّ في البحر ضلّ من تدعون إلّا إيّاه﴾ وكذلك حال إفاضة نعمته لمّا كان العبد قد يستعدّ بالغفلة للإعراض عن شكرها كان تعالى في تلك الحال أهلاً أن يفيض عليه بوادر نقمته بسلبها فكان هو المأمول مع النقم المرهوب مع النعم فهو المستعان به عليه وهو الذي لا مفرّ منه إلّا إليه، ومن عداه مخلوق نقمته غير مجامع لأمل رحمته، وقيام نعمته معاند لشمول رهبته. فلا مأمول ولا مرهوب في كلا الحالين سواه. وبالله العصمة والتوفيق.

٦٣ ـ ومن كلام له عليه السلام
كان يقوله لأصحابه في بعض أيام صفين

مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ، اسْتَشْعِرُوا الخَشْيَةَ، وَتَجَلْبَبُوا السَّكِينَةَ، وَعَضُّوا عَلَى النَّوَاجِذِ، فَإِنَّهُ أَنْبَى لِلسُّيُوفِ عَنِ الْهَامِ، وَأَكْمِلُوا اللأْمَةَ، وَقَلْقِلُوا السُّيُوفَ فِي أَغْمَادِهَا قَبْلَ سَلِّهَا، وَالْحَظُوا الْخزَرَ، وَاطْعُنُوا الشَّزْرَ، وَنَافِحُوا بِالظُّبَا، وَصِلُوا السُّيُوفَ بِالْخُطَا، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ بِعَيْنِ اللهِ، وَمَعَ ابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَعَاوِدُوا الْكَرَّ وَاسْتَحْيُوا مِنَ الفَرِّ فَإِنَّهُ عَارٌ فِي الأَعْقَابِ، وَنَارٌ يَوْمَ الحِسَابِ، وَطِيبُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ نَفْساً وَامْشُوا إِلَى الْمَوْتِ مَشْياً سُجُحاً، وَعَلَيْكُمْ بِهَذَا السَّوادِ الأَعْظَمِ، وَالرِّوَاقِ الْمُطَنَّبِ، فَاضْرِبُوا ثَبَجَهُ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ كَامِنٌ فِي كِسْرِهِ، قَدْ قَدَّمَ لِلْوَثْبَةِ يَداً، وَأَخَّرَ لِلنُّكُوصِ رِجْلاً، فَصَمْداً صَمْداً حَتَّى يَنْجَلِيَ لَكُمْ عَمُودُ الْحَقِّ (وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ، وَاللهُ مَعَكُمْ، وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُم).

أقول: المشهور أنَّ هذا الكلام قاله عليه السلام لأصحابه في اليوم الّذي كان مساؤه ليلة الهرير، وروي أنه قال في أول اللقاء بصفّين وذلك في صفر سنة سبع وثلاثين.

استشعرت الشيء: اتّخذته شعاراً: وهو ما يلي الجسد من الثياب، والجلباب: الملحفة. والسكينة: الثبات والوقار. والنواجذ: أقاصي الأضراس. ونبا السيف: إذا رجع في الضربة ولم يعمل واللأمة بالهمزة الساكنة: الدرع، وبالممدودة مع تضعيف الميم جميع آلات الحرب والقلقلة: التحريك. والخزر بفتح الزاء: ضيق العين وصغرها، وكذلك تضييقها والنظر بمؤخّرها عند الغضب. والطعن الشزر بسكون الزاء: الضرب على غير استقامة بل يميناً وشمالاً. والظبى: جمع ظبّة: وهو طرف السيف والمنافحة: التناول بأطراف السيوف. والأعقاب: جمع عقب أو جمع عقب وهو العاقبة. وسجحاً: أي سهلاً. والسواد: العدد الكثير. والرواق: بيت كالفسطاط يعمل على عمود واحد. وثبجه: وسطه. والكسر: جانب الخباء. والنكوص: الرجوع. والصمد: القصد. ولن يتركم: أي ينقصكم.

واعلم أنَّ هذه الأوامر مشتملة على تعليم الحرب والمقاتلة وهي كيفية يستلزم الاستعداد بها إفاضة النصر لا محالة.

فأوّلها: الأمر باستشعار خشية الله كما يلزم الشعار الجسد. وهو استعارة كما سبق. وفايدة هذا الأمر الصبر على الحرب وامتثال جميع الأُمور الباقية. إذ خشية الله مستلزمة لامتثال أوامره ولذلك قدّمه.

الثاني: الأمر باتّخاذ السكينة جلباباً تنزيلاً للثياب الشامل للإنسان منزلة الملحفة في شمولها للبدن. والشمول هو وجه الاستعارة، وفايدة هذا الأمر طرد الفشل وإرهاب العدوّ فإنَّ الطيش والاضطراب يستلزمان الفشل وطمع العدوّ.

الثالث: الأمر بالعضّ على النواجذ وفايدته ما ذكر وهو أن ينبو السيف عن الهامة. وعلّته أنّ العضّ على الناجذ يستلزم تصلّب العضلات والأعصاب

المتّصلة بالدماغ فيقاوم ضربة السيف ويكون نكايته فيه أقلّ، والضمير في قوله: فإنّه يعود إلى الصدر الذي دلّ عليه عضّوا كقولك: من أحسن كان خيراً له. وقال بعض الشارحين: عضّ الناجذ كناية عن تسكين القلب وطرد الرعدة وليس المراد حقيقته. قلت: هذا وإن كان محتملاً لو قطع عن التعليل إلاّ أنه غير مراد هنا لأنه يضيع تعليله بكونه أنبا للسيوف عن الهامّ.

الرابع: الأمر بإكمال اللأمة، وإكمال الدرع البيضة والسواعد، ويحتمل أن يريد باللامة جميع آلات الحرب وما يحتاج إليه فيه وفايدته شدة التحصّن.

الخامس: الأمر بقلقلة السيوف في الأغماد، وفايدته سهولة جذبها حال الحاجة إليها فإنَّ طول مكثها في الأغماد يوجب صداها وصعوبة مخرجها حال الحاجة.

السادس: الأمر بلحظ الخزر، وذلك من هيئات الغضب فإنَّ الانسان إذا نظر من غضب عليه نظره خزراً، وفائدته أُمور:

أحدها: إحماء الطبع واستثارة الغضب.

والثاني: أنَّ النظر بكلّية العين إلى العدو أمارة الفشل ومن عوارض الطيش والخوف، وذلك يوجب طمع العدو.

الثالث: أنّ النظر بكلّيتها إليه يوجب له التفطّن والحذر وأخذ الأُهبة والتحرّز، والنظر خزراً استغفال له ومظنّة لأخذ عزّته.

السابع: الأمر بالطعن الشزر، وذلك أن الطعن يميناً وشمالاً يوسّع المجال على الطاعن ولأنّ أكثر المناوشة للخصم في الحرب يكون عن يمينه وشماله.

الثامن: الضرب بأطراف السيوف، وفائدته أنّ مخالطة العدوّ والقرب الكثير منه يشغل عن التمكّن من ضربه.

التاسع: الأمر بوصل السيوف بالخطا. وله فايدتان: إحديهما أنَّ السيف ربّما يكون قصيرا فلا ينال الغرض به فإذا انضاف إليه مدّ اليد والخطوات بلغ به المراد. وفيه قول الشاعر:

إذا قصرت أسيافنا كان وصلها خطانا إلى أعدائنا فنضارب

وقول الآخر:

نصل السيوف إذا قصرن بخطونا يوماً ونلحقها إذا لم تلحق

وقيل له عليه السلام: ما أقصر سيفك؟ فقال: أطوّله بخطوة. الثانية: أنّ الزحف في الحرب إلى العدوّ والتقدم إليه خطوات في حال المكافحة يكسر توهّمه الضعف في عدوّه ويلقي في قلبه الرعب ويداخله الرهبة، وإليه أشار حميد بن ثور الهذليّ:

ووصل الخطا بالسيف والسيف بالخطا إذا ظنّ أنّ المرء ذا السيف قاصر

ثمّ لما أراد تأكيد تلك الأوامر في قلوبهم وأن يزيدهم أوامر أُخرى أردف ذلك بأمرين:

أحدهما: أنَّ الله تعالى يراهم وينظر كيف يعملون، وذلك قوله: **واعلموا أنّكم بعين الله والباء هنا كهي في قولك: أنت منّي بمرأى ومسمع .**

الثاني: تذكيرهم بكونهم مع ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تنبيهاً لهم على فضيلته، وأنّ طاعته كطاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحربه كحربه كما هو المنقول عنه: حربك يا عليّ حربي. فيثبتوا على قتال عدوّهم كما ثبتوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

العاشر: الأمر بمعاودة الكرّ. وذلك عند التحرّف للقتال والانحياز إلى الفئة، وأن يستحيوا من الفرار. ثمّ نبّههم على قبحه بأمرين:

أحدهما: أنّه عار في الأعقاب: أي أنّه عار في عاقبة أمركم وسبّة باقية خلفكم، والعرب تستقبح الفرار كثيرا.

الثاني: كونه ناراً يوم الحساب: أي يوجب استحقاق النار، وهو من كبائر المعاصي، وجعله ناراً مجازاً تسمية له باسم غايته وهو تذكير لهم بوعيده تعالى **﴿ومن يولّهم يومئذٍ دبره إلّا متحرفاً لقتال أو متحيّزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنّم وبئس المصير﴾**.

الحادي عشر: قوله: وطيبوا عن أنفسكم نفساً، وهو تسهيل للموت

عليهم الذي هو غاية ما يلقونه من الشدايد في الحرب بالبشارة بما هو أعظم وأجلّ من الحياة الدنيا المطلوبة بترك القتال وهو ما أعدّ لهم من الثواب الباقي، وهذا كما يقول أحدنا للمنفق ماله مع حبّه له طب نفساً عمّا ذهب منك فإنّ الصدقة مضاعفة لك عند الله وتجدها خيراً وأعظم أجراً. ونفساً منصوب على التمييز، وأشاربها إلى النفس المدبّرة لهذا البدن، وبالأولى إلى الشخص الزايل بالقتل.

الثاني عشر: الأمر بالمشي إلى الموت سجحاً: أي مشياً سهلاً لا تكلّف فيه ولا تخشّع فإنّ المتكلّف سريع الفرار، وهو أمر لهم بالمشي إلى غاية ما يخافون من القتال ليوطّنوا نفوسهم عليه أو لينفروا بسرعة إلى الحرب إذ من العادة أن يستنفر الشجاع بمثل ذلك فيسارع إلى داعيه لما يتصوّره فيه من جميل الذكر وحسن الأُحدوثة، وروي سمحاً والمعني واحد.

وقوله: عليكم بهذا السواد الأعظم الى قوله: رجلاً.

أقول لمّا شحذهم بالأوامر المذكورة عيّن مقصدهم، وأشار بالسواد الأعظم إلى أهل الشام مجتمعين، وبالرواق المطنّب إلى مضرب معاوية، وكان معاوية إذن في مضرب عليه قبّة عالية بأطناب عظيمة وحوله من أهل الشام مائة الف كانوا تعاهدوا أن لا ينفرجوا عنه حتى يقتلوا. وعيّن لهم وسط الرواق وأغراهم به بقوله: إنّ الشيطان كامن في كسره. وأراد بالشيطان معاوية، وقيل عمرو بن العاص، وذلك أنّ الشيطان لمّا كان عبارة عن شخص يضلّ الناس عن سبيل الله، وكان معاوية في أصحابه كذلك عنده عليه السلام لا جرم أطلق عليه لفظ الشيطان، وقد سبقت الاشارة الى معنى الشيطان، ويحتمل ان يريد الشيطان، ولمّا كانت محالّ الفساد هي مظنّة إبليس، وكان المضرب قد ضرب على غير طاعة الله كان محلاً للشيطان فلذلك استعار له لفظ الجلوس في كسره.

وقوله: وقد قدّم للوثبة يداً وأخّر للنكوص رجلا.

كناية عن تردد معاوية وانتظاره لأمرهم إن جبنوا وثب، وإن شجعوا

نكص وهرب، أو عن الشيطان على سبيل استعارة الوثبة والنكوص واليد والرجل، ويكون تقديم يده للوثبة كناية عن تزيينه لأصحاب معاوية الحرب والمعصية وتأخيره الرجل للنكوص كناية عن تهيئته للفرار إذا التقى الجمعان كما حكى الله سبحانه عنه **﴿فلما ترائت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم﴾**[1] الآية.

فإن قلت: فما معنى نكوص الشيطان على رأي من فسّره بالقوة الواهمة ونحوها.

قلت: لمّا كانت وسوسته تعود إلى إلقائه إلى النفس صورة ما يحكم بحسنه لها فقط دون أمر آخر كما حكى الله تعالى عنه: **﴿وما كان لي عليكم من سلطان إلّا أن دعوتكم﴾**[2] الآية كان نكوصه يعود إلى إعراض الوهم عند عضّ الحرب ومشاهدة المكروه عن ذلك الحكم ورجوعه عنه، وهو معنى قوله: إنّي بريء منكم إنّي أرى ما لا ترون، وذلك أنَّ الوهم إذن يحكم بالهرب والاندفاع من المخوف بعد أن كان قد زيّن الدخول فيه فيكون إذن قوله إنّي أخاف الله والله شديد العقاب موافقة لحكم العقل فيما كان يراه من طاعة الله بترك المعصية بالحرب. وكلّ ذلك من تمام إغراء أصحابه بأهل الشام وتنبيههم على أنَّ باعثهم في الحرب ليس إلّا الشيطان وأنه لا غرض له إلّا فتنتهم ثمّ الرجوع والإعراض عنهم.

الثالث عشر: أمرهم بقصد عدوّهم مؤكّداً له بتكريره: أي اصمدوا لهم صمداً إلى غاية أن يظهر لكم نور الحقّ بالنصر، واستعار لفظ العمود للحق الظاهر عن الصبح للمشاركة بينهما في الوضوح والجلاء فالصبح للحسّ، والحق للعقل، ولفظ التجلّي ترشيح الاستعارة كنّى به عن ظهوره ووضوحه، والمعنى: إلى ان يتضح لكم أنَّ الحق معكم يظفركم بعدوّكم وقهره. إذ الطالب لغير حقّه سريع الانفعال قريب الفرار في المقاومة.

---

(١) ٨ ـ ٥٠.
(٢) ١٤ ـ ٢٦.

وقوله: ﴿وأنتم الأعلون﴾ الآية.

تسكين لنفوسهم وبشارة بالمطلوب بالحرب، وهو العلوّ والقهر كما بشّر الله تعالى به الصحابة في قتال المشركين وتثبيت لهم على المضيّ في طاعته فإنَّ حزب الله هم الغالبون.

وقوله: ولن يتركم أعمالكم.

تذكير لهم بجزاء الله لهم أعمالهم في الآخرة، وبعث لهم بذلك على لزوم العمل له. وبالله التوفيق.

٦٤ ـ ومن كلام له عليه السلام

في معنى الأنصار، قالوا: لما انتهت الى امير المؤمنين عليه السلام أنباء السقيفة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. قال عليه السلام: ما قالت الأنصار؟ قالوا: قالت: منا أمير ومنكم أمير، قال عليه السلام:

فهلاَّ ٱحْتَجَجْتُمْ عَلَيْهِمْ بِأنَّ رَسُول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وآلِهِ وَصَّى بِأنْ يُحْسَنَ إلى مُحْسِنِهِمْ، وَيُتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئِهِمْ؟! قالوا: وَما فِي هذا من الحجَّة عَليهم؟ فقالَ عَلَيْهِ السَّلام: لَوْ كَانَتِ الإِمَارَةُ فِيهِمْ لَمْ تَكُنِ الوَصِيَّةُ بِهِمْ!!

ثم قال عليه السلام: فَمَاذَا قَالَتْ قُرَيْشٌ؟ قالوا: احتجت بأنها شجرة الرسول صَلَّى الله عليه وَآلِهِ فقال عَليه السلام: اِحْتَجُوا بِالشَّجَرَةِ، وَأضَاعُوا الثَّمَرَةَ.

أقول: الأنباء الَّتي بلغته عليه السلام هي أخبار ما جرى بين الأنصار والمهاجرين من المشاجرة في أمر الإمامة وايقاعهم البيعة لأبي بكر، وخلاصة القصة أنّه لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة: وهي صفّة كانوا يجتمعون بها فخطبهم سعد بن عبادة، ومدحهم في خطبته وأغراهم بطلب الإمامة. وقال: إنَّ لكم سابقة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب. إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لبث في قومه بعض عشرة سنة يدعوهم إلى عبادة الرحمن فما آمن به من قومه إلاّ قليل، والله ماكانوا يقدرون أن يمنعوه ولا

يدفعوا عنه ضيماً حتى أراد الله بكم خير الفضيلة، وساق إليكم الكرامة، ورزقكم الايمان به والإقرار بدينه. فكنتم أشدّ الناس على من تخلّف عنه منكم، وأثقله على عدوّه من غيركم حتى استقاموا لأمره ودانت لأسيافكم العرب، وانجز الله لنبيّكم الوعد وتوفّاه وهو عنكم راضٍ. فشدّوا أيديكم لهذا الامر، فأنتم أحقّ الناس به، فأجابوه جميعاً أن وفّقت وأصبت لم نعدو أن نولّيك هذا الأمر. وأتى الخبر أبا بكر وعمر فجاءا مسرعين إلى السقيفة فتكلّم أبو بكر فقال للأنصار: ألم تعلموا أنّا معاشر المهاجرين أول الناس إسلاماً؟ ونحن عشيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنتم أنصار الدين ووزراء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإخواننا في كتاب الله، وأنتم المؤثرون على انفسهم وأحقّ الناس بالرضاء بقضاء الله والتسليم لما ساق الله إلى اخوانكم، وأن لا يكون انتقاض هذا الدين على ايديكم، وأنا أدعوكم إلى بيعة أبي عبيدة أو عمر فكلاهما قد رضيت لهذا الامر. فقال عمر وأبو عبيدة: ما ينبغي لأحد من الناس أن يكون فوقك أنت صاحب الغار، وثاني اثنين، وأمرك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالصلاة. فأنت أحقّ بهذا الأمر. فقالت الأنصار: نحن أنصار الدار والايمان لم يعبد الله علانية إلاّ عندنا وفي بلادنا، ولا عرف الايمان إلاّ من أسيافنا، ولا جمعت الصلاة إلاّ في مساجدنا. فنحن أولى بهذا الأمر. فإن أبيتم فمنّا أمير ومنكم أمير. فقال عمر: هيهات لا يجمع سيفان في غمد إنّ العرب لا ترضى أن تؤمّركم وبينها من غيركم. فقال الحباب بن المنذر: نحن والله أحقّ بهذا الأمر إنّه قد دان لهذا الأمر بأسيافنا من لم يكن يدين له وإن لم ترضوا اجليناكم عن بلادنا إنّا جذيلها المحنّك وعذيقها المرجّب إن شئتم لنعيدنّها جذعة. والله لا يردّعليَّ أحد ما أقول إلاّ حطمت أنفه بسيفي هذا. فقام بشر بن سعد الخزرجي وكان يحسد سعد بن عبادة أن يصل إليه هذا الأمر وكان سيداً في الخزرج وقال: إنّا لم نرد بجهادنا وإسلامنا إلاّ وجه ربّنا لا غرضاً من الدنيا، وإنّ محمداً رجل من قريش وقومه أحق بميراث أمره واتّقوا الله ولا تنازعوهم معشر الأنصار. فقام أبو بكر فقال: هذا عمر وأبو عبيدة بايعوا أيّهما شئتم فقالا: لا يتولى هذا الأمر غيرك وأنت أحقّ به ابسط يدك فبسط يده فبايعاه

وبايعه بشر بن سعد وبايعته الأوس كلهم، وحمل سعد بن عبادة وهو مريض فأدخل منزله، وقيل: إنَّه بقي ممتنعاً من البيعة حتى مات بحوران في طريق الشام.

ولنرجع إلى المتن فنقول: أما الخبر الذي رواه عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حجّة عليهم فهو صحيح أخرجه مسلم والبخاري في مسنديهما عن أنس قام أبو بكر والعباس بمجلس من مجالس الأنصار في مرض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهم يبكون فقالا: ما يبكيكم؟ فقالوا: ذكرنا مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فدخلا على الرسول فأخبراه بذلك فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم معصّباً على رأسه حاشية برد فصعد المنبر ولم يصعده بعد ذلك اليوم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أوصيكم بالأنصار فإنهم كرشي وعيبتي وقد قضوا الذي عليهم وبقي الذي لهم فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم. فأمَّا وجه احتجاجه بهذا الخبر فهو في صورة شرطية متّصلة يستثنى فيها نقيض تاليها. وتقريرها: لو كانت الإمامة حقا لهم لما كانت الوصية بهم لكنّها بهم فليست الإمامة لهم. بيان الملازمة أنَّ العرف قاض بأن الوصية والشفاعة ونحوها إنما تكون إلى الرئيس في حقّ المرؤوس من غير عكس، وأما بطلان التالي للخبر المذكور.

وأما قوله: احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة.

فأشار بالثمرة إمَّا إلى نفسه وأهل بيته فإنهم ثمرة الغصن المورق المثمر لتلك الشجرة، ولما استعير لفظ الشجرة لقريش استعار لفظ الثمرة لنفسه. وقد عرفت فرعيّته عن رسول الله(ص) وكونه ثمرة. وإضاعتهم لها إهمالهم له من هذا الأمر، ويحتمل أن يريد بالثمرة التي أضاعوها سنّة الله الموجبة في اعتقاده استحقاقه لهذا الأمر وظاهر كونها ثمرة الرسول(ص) وإهمالهم لها تركهم العمل بها في حقه، وهو كلام في قوة احتجاج له على قريش بمثل ما احتجوا به على الأنصار، وتقديره: أنهم إن كانوا أولى من الأنصار لكونهم شجرة رسول الله(ص) فنحن أولى لكوننا ثمرة، وللثمرة اختصاص بالمثمر من وجهين:

أحدهما: القرب ومزيّته ظاهرة.

والثاني: إنَّ الثمرة هي المطلوبة بالذات من الشجرة وغرسها فإن كانت الشجرة معتبرة فبالأولى اعتبار الثمرة، وإن لم يلتفت إلى الثمرة فبالأولى لا التفات إلى الشجرة. ويلزم من هذا الاحتجاج أحد أمرين: إما بقاء الأنصار على حجتهم لقيام هذه المعارضة، أو كونه عليه السلام أحقّ بهذا الأمر وهو المطلوب. والله أعلم بالصواب.

٦٥ ـ ومن كلام له عليه السلام
لما قلّد محمدابن ابي بكر مصر فملكت عليه فقتل

وَقَدْ أَرَدْتُ تَوْلِيَةَ مِصْرَ هَاشِمَ بْنَ عُتْبَةَ، وَلَوْ وَلَّيْتُهُ إِيَّاهَا لَمَا خَلَّى لَهُم الْعَرْصَةَ، وَلاَ أَنْهَزَهُمُ الْفُرْصَةَ، بِلاَ ذَمٍّ لِمُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ، فَلَقَدْ كَانَ إِلَيَّ حَبِيباً، وَكَانَ لِي رَبِيباً.

أقول: كان عليه السلام ولّى محمد ابن أبي بكر مصر فلمّا اضطرب الأمر عليه بعد صفّين وقوي أمر معاوية طمع في مصر. وقد كان عمرو بن العاص بايعه على أن يكون معه في قتال عليّ وتكون مصر له طعمة. فبعثه إليها بعد صفّين في ستة آلاف فارس وقد كان فيها جماعة عظيمة ممن يطلب بدم عثمان، وكانوا يزعمون أنَّ محمداً قتله فانضافوا إلى عمرو، وكان معاوية كتب إلى وجوه أهل مصر أمّا إلى شيعته فبالترغيب، وأما الى أعدائه فبالترهيب، وكتب محمد ابن أبي بكر إلى عليّ بالقصة يستمدّه بالمال والرجال فكتب إليه يعده بذلك. فجعل محمد يدعو أهل مصر لقتال عمرو فانتدب معه منهم أربعة آلاف رجل فوجّه منهم ألفين عند كنانة بن بشر لاستقبال عمرو، وبقي هو في ألفين فأبلىٰ كنانة في ذلك اليوم بلاءً حسناً وقتل من عسكر عمرو خلقاً كثيرا، ولم يزل يقاتل حتّى قتل هو ومن معه فلما قتل تفرّق الناس عن محمد، وأقبل

عمرو يطلب محمداً فهرب منه مختفياً فالتجأ إلى خربة إختبى فيها فدخل عمرو فسطاطه، وخرج معاوية بن خديج الكندي وكان من أمراء جيش عمرو في طلب محمد فظفر به وقد كاد يموت عطشاً فقدّمه فضرب عنقه ثم أخذ جثّته فحشاها في جوف حمار ميّت وأحرقه، وقد كان علي عليه السلام وجّه لنصرته مع مالك بن كعب إلى مصر نحواً من الفي رجل فصار بهم خمس ليال وورد الخبر إلى علي عليه السلام بقتله وأخذ مصر. فخرج عليه السلام عليه جزعاً ظهر أثره في وجهه ثم قال: رحم الله محمداً كان غلاماً حدثاً، وقد كنت أردت. الفصل.

والنهز: النهوض لتناول الشيء. والفرصة: النهضة، وهي ما أمكنك من نفسك. وإنما أراد تولية هاشم لقوّته على هذا الأمر وكثرة تجاربه، وهاشم هذا ابن عتبة ابن أبي وقّاص الذي كسر رباعية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم أُحد وكلم شفته، وكان هاشم من شيعة عليّ والمخلصين في ولائه شهد معه حرب صفّين وأبلى فيها بلاءً حسناً واستشهد بين يديه بها.

وقوله: لما خلّى لهم العرصة.

أي عرصة الحرب كما فرّ محمد، وظنّ أنه ينجو بفراره، ولو ثبت لثبت معه الناس وقتل كريماً.

وقوله: ولا أنهزهم الفرصة.

كنّى بالفرصة عن مصر: أي ولم يمكنهم من تناولها كما تمكّنوا مع محمد.

وقوله: بلا ذمّ لمحمد.

أي لست في مدحي لهاشم ذامّاً لمحمد، ونبّه على براءته من استحقاق الذمّ بوجهين:

الأول: أنه كان لي حبيباً. وظاهر أنّه عليه السلام لا يحبّ إلّا مرضيّاً لله ورسوله بريئاً من العيوب الفاضحة. وقد كان محمد (رضي الله عنه) من نسّاك قريش وعبّادها.

الثاني: أنه كان ربيباً له. وذلك مما يستلزم محبّته وعدم ذمّه فأما كونه

ربيباً فلأنَّ أم محمد هي اسماء بنت عميس وكانت تحت جعفر بن أبي طالب وهاجرت معه إلى الحبشة فولدت له عبد الله بن جعفر وقتل عنها يوم مؤتة فتزوَّجها أبو بكر فأولدها محمداً ثم لمَّامات عنها تزوجها علي عليه السلام فكان محمد ربيبه ونشأ على ولائه منذ صباه، وكان علي عليه السلام يحبّه ويكرمه ويقول: محمد ابني من ظهر أبي بكر. وبالله التوفيق.

٦٦ - ومن كلام له عليه السلام

كَمْ أُدارِيكُم كَما تُدارَى البِكَارُ العَمِدَةُ، وَالثِّيَابُ المُتَداعِيَةُ! كُلَّما حِيصَتْ مِنْ جَانِبٍ تَهَتَّكَتْ مِنْ آخَرَ؟ أَكُلَّمَا أَطَلَّ عَلَيْكُمْ مَنْسِرٌ مِنْ مَنَاسِرِ أَهْلِ الشَّامِ أَغْلَقَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُم بَابَهُ، وَآنْجَحَرَ آنْجِحَارَ الضَّبَّةِ فِي جُحْرِهَا، وَالضَّبُعِ فِي وِجَارِهَا؟! أَلذَّلِيلُ وَاللهِ مَنْ نَصَرْتُمُوهُ! وَمَنْ رُمِيَ بِكُمْ فَقَدْ رُمِيَ بِأَفْوَقَ نَاصِلٍ. وَإِنَّكُمْ، واللهِ، لَكَثِيرٌ فِي البَاحَاتِ قَلِيلٌ تَحْتَ الرَّايَاتِ، وَإِنِّي لَعَالِمٌ بِمَا يُصْلِحُكُمْ وَيُقِيمُ أَوَدَكُمْ وَلكِنِّي لا أرى إِصْلاحَكُمْ بِإِفْسَادِ نَفْسِي! أَضْرَعَ اللهُ خُدُودَكُمْ، وَأَتْعَسَ جُدُودَكُمْ، لَا تَعْرِفُونَ الحَقَّ كَمَعْرِفَتِكُمُ البَاطِلَ، وَلَا تُبْطِلُونَ البَاطِلَ كَإِبْطَالِكُمُ الحَقَّ.

أقول: البكار: جمع بكر وهو الفتى من الإبل. والعمدة: هي التي شدخ أسنمتها ثقل الحمل. والحوص: الخياطة. وتهتّكت: تخرّقت. وأطلّ: أشرق. والمنسر بكسر الميم وفتح السين، والعكس: القطعة من الجيش من المائة إلى المائتين. وقد سبق. وانجحر الضبّ: دخل جحره وهو في بيته. وبيت الضبع: وجاره. والأفوق الناصل: السهم لا فوق له ولا نصل. والباحة: ساحة الدار. والأود. الاعوجاج. وأضرع: أذلّ. وأتعس: أهلك.

وهذا الفصل يشتمل على توبيخ أصحابه لتقاعدهم عن النهوض معه إلى حرب أهل الشام، وذكر وجوه التوبيخ:

الأول: حاجتهم إلى المداراة الكثيرة. وليس ذلك من شيم الرجال

ذوي العقول بل من شأن البهايم ومن لا عقل له، ونبّههم في حاجتهم إلى المداراة بتشبيهين.

أحدهما: بالبكارة التي قد انهكها حملها. ووجه الشبه بينها وبينهم هو قلة صبرهم وشدة إشفاقهم وفرارهم من التكليف بالجهاد واستغاثتهم كما يشتدّ جرجرة البكر العمد، وفراره من معاودة الحمل.

الثاني: بالثياب المتداعية، وهي التي يتبع ما لم يتخرق منها ما انخرق في مثل حاله. ووجه الشبه ما ذكره، وهو قوله: كلما حيصت من جانب تهتّكت من آخر: أي كما أنَّ الثياب المتداعية كذلك. فكذلك أصحابه كلما أصلح حال بعضهم وجمعهم للحرب فسد بعض آخر عليه.

الثاني: شهادة حالهم عليهم بالجبن والخوف وهو قوله: كلما أطلَّ. إلى قوله: وجارها، وكنّى بإغلاق كلّ منهم بابه عند سماعهم بقرب بعض جيوش الشام منهم عن فرارهم من القتال وكراهية سماعهم للحرب، وشبّههم في ذلك الخوف والفرار بالضبّة والضبع حين ترى الصائد أو أمراً تخافه. وإنّما خصّ الإناث لأنها أولى بالمخافة من الذكران.

الثالث: وصفهم بالذلّة وقلّة الانتفاع بهم. فنبّه على وصف الذلّ بقوله: الذليل والله من نصرتموه. فإنه إنما يكون ذليلاً لكونهم كذلك، ويحتمل ان يشير بذلك إلى سوء آرائهم في التفرّق والاختلاف، ثمّ بالغ في ذلك بحصر الذلّ لكلّ منتصر بهم فيمن نصروه، ونبّه على قلّة الانتفاع بهم بقوله: ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل. استعار لهم من أوصاف السهم أرداها، وكنّى بذلك عن عدم فايدتهم ونكايتهم في العدوّ كما لا فائدة في الرمي بالسهم الموصوف.

الرابع: وصفهم بالكثرة في المجامع والأندية مع قلّتهم في الحرب وتحت الألوية. وذلك يعود الى الذم بالجبن ايضاً والعار به فإنَّ قلّة الاجتماع في الحرب والتفرّق عنه من لوازم الخوف، وكما أنَّ مقابل هذا الوصف وهو الاجتماع والكثرة في الحرب مع القلّة في غيره مدح كما قال أبو الطيّب:

ثقال إذا لاقوا خفاف إذا دعوا قليل إذا عدّوا كثير إذا شدّوا

فبالحريّ أن كان هذا الوصف ذمًّا كما قال عويف القوافي:

ألستم أقل الناس عند لوائهم   وأكثرهم عند الذبيحة والقدر

وقوله: وإنّي لعالم إلى قوله: أودكم.

أراد أنَّه لا يصلحهم إلاَّ السياسة بالقتل ونحوه كما فعل الحجّاج حين ارسل المهلّب إلى الخوارج. روي أنَّه نادى في الكوفة من تخلّف عن المهلّب بعد ثلاث فقد أحلّ دمه، وقتل جماعة فخرج الناس إلى المهلّب يهرعون، وكما يفعله كثير من الملوك. وقوله: ولكنّي لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسي: أي لمَّا لم يكن ليستحلّ من دماء أصحابه ما يستحلّ ملوك الدنيا من رعيّتهم إذا أرادوا إثبات ملكهم ولو بفساد دينهم لا جرم لم ير إصلاحهم بالقتل إذ كان إصلاحهم بذلك سبباً لفساد نفسه بلزوم آثامهم لها. ولما كان من الواجب في الحكمة أن يكون إصلاح الانسان للغير فرعاً على إصلاح نفسه أوَّلاً لم يتصوّر من مثله عليه السلام أن يفعل فعلاً يستلزم فساد نفسه وإن اشتمل على وجه من المصلحة.

فإن قلت: الجهاد بين يدي الامام العادل واجب وله أن يحملهم عليه. فلم لا يستجيز قتلهم؟

قلت: الجواب من وجهين:

أحدهما: أنه ليس كل واجب يجب في تركه القتل كالحجّ.

الثاني: لعلَّه عليه السلام لو شرع في عقوبتهم بالقتل على ترك الجهاد معه لتفرّقوا عنه إلى خصمه أو سلّموه إليه واتّفقوا على قتله. وكلّ هذه مفاسد أعظم من تقاعدهم عن دعوته لهم في بعض الأوقات.

وقوله: أضرع الله. إلى آخره.

دعا عليهم بالذلّ وهلاك الحظّ، ثم نبّههم على علّة استحقاقهم لدعائه وهي الجهل، ثم ما ينشأ عنه من ظلم أنفسهم، أمَّا الجهل فعدم معرفتهم للحق كمعرفتهم الباطل، وأراد به ما يلزمهم من أوامر الله، وأراد بمعرفتهم الباطل معرفتهم بأحوال الدنيا وباطلها والاشتغال به عن أوامر الله، ويحتمل

أن يشير به إلى ما يعرض لبعضهم من الشبه الباطلة في قتال أهل القبلة فيوجب لهم التوقّف والتخاذل عن الحرب، ويكون مكاثرته بين معرفتهم للباطل والحق تنبيهاً على قوّة جهلهم المركّب وهو أشدّ الجهل، وغايته توبيخهم بكونهم على قسمي الجهل. فالبسيط هو عدم معرفتهم للحق، والمركّب هو تصديقهم بالباطل. وأما الظلم فهو إبطالهم للحق وذلك إشارة إلى تعاميهم عن طاعة الله وتصاممهم عن سماع مناديه وإجابته، وعدم إبطالهم للباطل إشارة الى عدم انكارهم للمنكر من انفسهم وغيرهم. وبالله التوفيق.

٦٧ ـ وقال عليه السلام

في سحرة اليوم الذي ضرب فيه

مَلَكَتْنِي عَيْنِي وأنَا جَالِسٌ، فَسَنَحَ لي رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، مَاذَا لَقِيتُ مِنْ أُمَّتِكَ مِنَ الأَوَدِ وَاللَّدَدِ؟ فَقَالَ: «آدْعُ عَلَيْهِمْ» فَقُلْتُ: أَبْدَلَنِي الله بِهِمْ خَيْراً مِنْهُمْ، وَأَبْدَلَهُمْ بِي شَرّاً لَهُمْ مِنّي.

قال الشريف: يعني بالأود الاعوجاج، وباللدد الخصام وهذا من أفصح الكلام.

أقول: السحرة: السحر الأعلى، وأمّا كيفيّة قتله عليه السلام فمذكور في التواريخ.

وقوله: ملكتني عيني.

استعارة حسنة وتجوّز في التركيب أمّا الاستعارة فلفظ الملك للنوم، ووجه الاستعارة دخول النائم في غلبة النوم وقهره ومنعه له أن يتصرّف في نفسه كما يمنع الملك العبد من التصرّف في أمره، وأمّا التجوّز ففي العين وفي الإسناد إليها. أمّا الأول فأطلق لفظ العين على النوم لما بينها من الملابسة إذ إطباق الجفون من عوارضها، وأمّا الثاني فإسناد الملك إلى النوم المتجوّز فيه بلفظ العين. والواو في قوله: وأنا. للحال.

وقوله: فسنح إلى آخره.

أراد بالسنح حضور صورة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في لوح خياله كما علمت وشكايته منهم. وجواب الرسول له يستلزم أمرين: أحدهما أنه عليه السلام كان في غاية الكرب من تقصيرهم في إجابة ندائه ودعوته إلى الجهاد حتى انتهت الحال إلى قتله. الثاني عدم رضا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عنهم.

وقوله: أبدلهم بي شرّاً لهم منّي.

لا يستلزم أنَّ فيه شرّاً كما قدّمنا بيانه. وبالله التوفيق.

٦٨ - ومن خطبة له عليه السلام

في ذم أهل العراق

أَمَّا بَعْدُ يَا أَهْلَ العِرَاقِ فَإِنَّما أَنْتُمْ كَالْمَرْأَةِ الحَامِلِ! حَمَلَتْ فَلَمَّا أَتَمَّتْ أَمْلَصَتْ، وَمَاتَ قَيِّمُهَا، وَطَالَ تَأَيُّمُهَا، وَوَرِثَهَا أَبْعَدُهَا أمَا وَالله مَا أَتَيْتُكُمُ اخْتِيَاراً، وَلكِنْ جِئْتُ إِلَيْكُم سَوْقاً، وَلَكِنِّي بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: عَلِيٌّ يَكْذِبُ! قَاتَلَكُمُ الله، فَعَلَى مَنِ الكَذِبُ؟ أعَلَى الله؟ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ! أَمْ عَلَى نَبِيِّهِ؟ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَهُ، كَلاَّ وَالله، وَلكِنَّهَا لَهْجَةٌ غِبْتُمْ عَنْهَا وَلَمْ تَكُونُوا مِنْ أَهْلِهَا. وَيْلُمِّهِ؟ كَيْلاً بِغَيْرِ ثَمَنٍ! لَوْ كَانَ لَهُ وِعَاءٌ (وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ).

أقول: أملصت: أسقطت. والأيّم: التي لا بعل لها. واللهجة: اللسان والقول الفصيح.

وهذا الكلام صدر عنه بعد حرب صفّين، وفيه مقصودان:

الأول: توبيخهم على تركهم للقتال بعد أن شارفوا النصر على أهل الشام، وتخاذلهم إلى التحكيم. وأبرز هذا المقصود في تشبيههم بالمرأة الحامل، وذكر لها أوصافاً خمسة، وهي وجود الشبه بينها وبينهم فالحمل يشبه استعدادهم وتعبيتهم للحرب، والاتمام يشبه مشارفتهم للظفر، والإملاص يشبه رجوعهم عن عدوّهم بعد طمعهم في الظفر به وذلك رجوع غير طبيعي ولا معتاد للعقلاء كما أنَّ الإملاص أمر غير طبيعي للحامل ولا معتاد لها، ثمَّ موت القيّم بأمورها وهو زوجها وطول غربتها، وذلك يشبه عدم طاعتهم له الجاري مجرى موته عنهم وطول ضعفهم لذلك ودوام عجزهم وذلّتهم بعد رجوعهم

لتفرّقهم إلى خوارج وغيرهم فإنّ موت قيّم المرأة مستلزم لضعفها ودوام عجزها وذلّتها، ثم كونها قد استحق ميراثها البعيد عنها لعدم ولدها وزوجها وذلك يشبه من حالهم أخذ عدوّهم الذي هو أبعد الناس عنهم مالهم من البلاد، واستحقاقه ذلك بسبب تقصيرهم عن مقاومته. وبهذه الوجوه من الشبه أُشبهوا المرأة المذكورة وتمّ توبيخهم من هذه الجهة، ثم أخبرهم على التضجّر من حاله معهم بأنه لم يأتهم إيثاراً للمقام بينهم ولكن سوقاً قدرياً اضطره الى ذلك. وصدق إذ لم يكن خروجه من المدينة التي هي دار الهجرة ومفارقة منزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقبره إلى الكوفة إلاّ لقتال أهل البصرة، وحاجته إلى الاستنصار بأهل الكوفة عليهم إذ لم يكن جيش الحجاز وافياً بمقاتلتهم ثم اتصلت تلك الفتنة بفتنة أهل الشام فدامت حاجته الى المقام بينهم، وروي ولا جئت اليكم شوقاً (بالشين المعجمة).

والمقصود الثاني: توبيخهم على ما بلغه من تكذيبهم له، ومقابلته لهم على ذلك بردّ احكام أوهامهم الفاسدة في حقّه، وذمّهم بجهلهم وقصور أفهامهم عما يفيده من الحكمة: وهو قوله: ولقد بلغني أنّكم تقولون. يكذب صورة دعواهم المقولة وقد كان جماعة من منافقي أصحابه إذا أخبر عن أُمور ستكون، أو كانت ثمّ أخبر عنها وأسند ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتحادثون فيما بينهم بتكذيبه فيبلغه ذلك كإخباره عن قصة الخوارج وما يكون منهم، وعن ذي الثدية، وأنه سيقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين ونحو ذلك من الأُمور الغريبة التي تستنكرها طباع العوام ولا يعقل أسرارها إلاّ العالمون بل كانوا يكذّبونه بمحضره. وروي أنه لما قال: لو كسرت لي الوسادة لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم، وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم، وبين أهل الفرقان بفرقانهم، والله ما من آية نزلت في برٍّ أو بحرٍ أو سهلٍ أو جبلٍ ولا سماءٍ وَلا أرضٍ إلاّ وأنا أعلم فيمن نزلت وفي أيّ شيء أُنزلت. قال رجل من تحت المنبر: يالله وللدعوى الكاذبة. وكذلك لمّا قال: سلوني قبل أن تفقدوني أما والله لتشغرن الفتنة الغمياء برجلها ويطأ في خطامها يا لها فتنة شبّت نارها بالحطب الجزل مقبلة من شرق الأرض رافعة ذيلها داعية ويلها بدجلة أو

حولها ذاك إذا استدار الفلك وقلتم مات أو هلك بأيّ وادٍ سلك. فقال قوم من تحت منبره: لله أبوه ما أفصحه كاذباً. وكأنها إشارة إلى واقعة التتار. وقابل دعواهم بأمرين:

أحدهما: الدعاء عليهم بقتال الله لهم، وقد علمت أنَّ قتاله يعود إلى مقته وإبعادهم عن رحمته.

الثاني: الحجّة وتقريرها: أنَّ الذي أخبركم به من هذه الأُمور إنّما هو عن الله وعن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فلو كذبت فيه لكذبت إمَّا على الله وهو باطل لأنّي أوَّل من آمن به وأوَّل مؤمن به لا يكون أوَّل مكذّب له، أو على نبيّه وهو باطل لأنّي أوَّل من صدَّقه واتّبع ملته.

وقوله: كلاَّ والله.

ردّ لصدق دعواهم بعد الحجّة كأنه قال: فإذن دعواكم عليّ الكذب فيما أُخبركم به باطلة.

وقوله: ولكنّها لهجة غبتم عنها ولم تكونوا من أهلها.

يريد به بيان منشأ دعواهم الفاسدة لتكذيبه، وذلك كون ما يقوله ويخبر به من الأُمور المستقبلة ونحوها طوراً وراء عقولهم الضعيفة التي هي بمنزلة أوهام ساير الحيوان وليسوا لفهم أسرارها بأهل. وأشار باللهجة إلى تلك الأقوال وأسرارها وبغيبتهم عنها إلى غيبة عقولهم عن إدراكها ومعرفة إمكانها في حقّ مثله أو إلى غيبتهم عنها عند إلقاء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قوانينها الكلّية إليه وتعليمه لأبوابها وتفصيل ما فصَّل منها له. وظاهر أنّه لمَّا كانت عقول أُولئك وأمثالهم مقهورة تحت سلطان أوهامهم وكان الوهم مكذّباً ومنكراً لمثل هذه الأحكام لا جرم لم تنتهض عقولهم لتصديقه عليه السلام فيها ولم تجوّز اطّلاعه عليها بل تابعت أوهامهم في الحكم بتكذيبه. وحاله في ذلك مختصرة من حال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع منافقي قومه.

وقوله: ويل أُمّه.

فالويل في الأصل دعاء بالشرّ، أو خبرٌ به. وإضافته إلى الأُمّ دعاء عليها أن تصاب بأولادها، وقيل: إنّها تستعمل للرحمة، وقيل تستعمل للتعجّب

واستعظام الأمر.

وقوله: كيلاً بغير ثمن.

إشارة الى ما يفيضه عليهم من الأخلاق الكريمة والحكم البالغة التي لا يريد بها جزاء ولا ثمناً ثم لا يفقهونها ولا يهذّبون بها أنفسهم لكون نفوسهم غير مستعدة لقبولها فليس لها إذن من تلك الأنفس وعاء يقبلها. واستعار لفظ الكيل وكنّى به عن كثرة ما يلقيه إليهم منها وهو مصدر استغنى به عن ذكر فعله. فعلى هذا يحتمل أن يكون ويل أُمّه دعاء بالشرّ على من لم يفقه مقاله ولم يقتبس الحكمة منه، والضمير لإنسان ذلك الوقت وإن لم يجر له ذكر سابق مفرد يعود إليه لكنّه موجود في كل شخص منهم وكأنه قال: ويل لأمّهم، ويحتمل أن يكون ترحماًلهمفإنّ الجاهل مرحوم، ويحتمل أن يكون تعجّباً من قوّة جهلهم أو من كثرة كيله للحكم عليهم مع إعراضهم عنها.

وقوله: ولتعلمنّ نبأه بعد حين.

اقتباس لهذه الآية المفصحة عن مقصوده: أي ولتعلمنّ نبأ جهلكم وإعراضكم عمّا أمركم به وألقاه إليكم من الحكم والآراء الصالحة، وينكشف لهم ثمرة ذلك بعد حين. وأشار بالحين إمّا إلى مدّة الحياة الدنيا. وثمرة أفعالهم إذن الندامة والحسرة على ما فرّطوا في جنب الله حيث لا ينفع إلاّ الأعمال الصالحة وذلك حين تزول عنهم غواشي أبدانهم وتطرح نفوسهم جلابيبها بالموت، وإمّا إلى مدّة حياته هو: أي ستعلمون عاقبة فعلكم هذا بعد مفارقتي لكم. والعاقبة إذن ابتلاؤهم بمن بعده من بني أُميّة وغيرهم بالقتل والذلّ والصغار. وبالله العصمة والتوفيق.

٦٩ - ومن خطبة له عليه السلام

علّم فيها الناس الصلاة على النبي صلى الله عليه و آله

اللّٰهُمَّ دَاحِيَ الْمَدْحُوَّاتِ، وَدَاعِمَ الْمَسْمُوكَاتِ، وَجَابِلَ الْقُلُوبِ عَلَى فِطْرَتِهَا شَقِيِّهَا وَسَعِيدِهَا: إجْعَلْ شَرَائِفَ صَلَوَاتِكَ وَنَوَامِيَ بَرَكَاتِكَ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ: الْخَاتِمِ لِمَا سَبَقَ، وَالْفَاتِحِ لِمَا انْغَلَقَ، وَالْمُعْلِنِ الْحَقَّ

بِالحَقِّ، وَالدَّافِعِ جَيْشَاتِ الأَبَاطِيلِ، وَالدَّامِغِ صَوْلَاتِ الأَضَالِيلِ، كَمَا حُمِّلَ فَاضْطَلَعَ قَائِماً بِأَمْرِكَ، مُسْتَوْفِزاً فِي مَرْضَاتِكَ، غَيْرَ نَاكِلٍ عَنْ قُدُمٍ، وَلَا وَاهٍ فِي عَزْمٍ وَاعِياً لِوَحْيِكَ، حَافِظاً عَلَى عَهْدِكَ، مَاضِياً عَلَى نَفَاذِ أَمْرِكَ حَتَّى أَوْرَى قَبَسَ القَابِسِ، وَأَضَاءَ الطَّرِيقَ لِلْخَابِطِ، وَهُدِيَتْ بِهِ القُلُوبُ بَعْدَ خَوْضَاتِ الفِتَنِ، وَأَقَامَ مُوضِحَاتِ الأَعْلَامِ، وَنَيِّرَاتِ الأَحْكَامِ، فَهُوَ أَمِينُكَ المَأْمُونُ، وَخَازِنُ عِلْمِكَ المَخْزُونِ، وَشَهِيدُكَ يَوْمَ الدِّينِ، وَبَعِيثُكَ بِالْحَقِّ، وَرَسُولُكَ إلى الخَلْقِ، اللَّهُمَّ افْسَحْ لَهُ مَفْسَحاً فِي ظِلِّكَ، وَاجْزِهِ مُضَاعَفَاتِ الخَيْرِ مِنْ فَضْلِكَ، اللَّهُمَّ أَعْلِ عَلَى بِنَاءِ البَانِينَ بِنَاءَهُ، وَأَكْرِمْ لَدَيْكَ مَنْزِلَتَهُ، وَأَتْمِمْ لَهُ نُورَهُ وَاجْزِهِ مِنَ ابْتِعَاثِكَ لَهُ مَقْبُولَ الشَّهَادَةِ، وَمَرْضِيَّ المَقَالَةِ ذَا مَنْطِقٍ عَدْلٍ، وَخُطَّةٍ فَصْلٍ، أَللَّهُمَّ اجْمَعْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ فِي بَرْدِ العَيْشِ وَقَرَارِ النِّعْمَةِ، وَمُنَى الشَّهَوَاتِ، وَأَهْوَاءِ اللَّذَّاتِ، وَرَخَاءِ الدَّعَةِ، وَمُنْتَهَى الطُّمَأْنِينَةِ، وَتُحَفِ الكَرَامَةِ.

أقول: المدحوّات: المبسوطات. والمسموكات: المرفوعات ودعمها: حفظها بالدعامة. جبل: خلق. والفطرات: جمع فطرة وهي الخلقة. والدمغ: كسر عظم الدماغ، وجيشات: جمع جيشة من جاشت القدر إذا ارتفع غليانها، واضطلع بالأمر: قوي على حمله والقيام به من الضلاعة وهي القوّة. والاستيفاز: الاستعجال. والنكول: الرجوع. والقدم: التقدّم. والوهى: الضعف. ووعى الأمر: فقهه. والقبس: شعلة النار. وأورى: زكى واشتعل.

وقد اشتملت هذه الخطبة على ثلاثة فصول:

الاول: في صفات المدعوّ وتمجيده وهو الله سبحانه.

الثاني: في صفات المدعوّ له وهو النبي صلى الله عليه وآله وسلم

الثالث: في صفات أنواع المدعوّ به. وذلك هو الترتيب الطبيعي. فبدأ ممجّداً لله تعالى باعتبارات ثلاثة:

أحدهما: كونه داحي المدحوّات: أي باسط الأرضين السبع وظاهر كونها مدحوّات فإنَّ كل طبقة منها إذا اعتبرت كانت مبسوطة فأما صدق البسط على جملة الأرض مع أنَّها كرة وشهادة قوله: والأرض بعد ذلك دحيها. بذلك، وقوله: والأرض مددناها. فهو باعتبار طبقاتها. وقد يصدق عليها البسط باعتبار سطحها البارز من الماء الذي يتصرّف عليه الحيوان فإنّه في الأوهام سطح مبسوط وإن كان عند الاعتبار العقليّ محدّباً، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿**الذي جعل لكم الأرض فراشا**﴾ ﴿**والله جعل لكم الأرض بساطاً**﴾

الثاني: داعم المسموكات: أي حافظ السماوات أن تقع على الأرض.

فإن قلت: قد قال في الخطبة الأولى: بلا عمد تدعمها ثمّ جعلها هنا مدعومة فما وجه الجمع؟

قلت: لم ينف هناك إلاَّ كونها مدعومة بعمد وهذا لا ينافي كونها مدعومة بغير العمد، وقد بيّنا هناك أنَّ الدعامة التي تقوم بها السماوات قدرته تعالى.

الثالث: كونه جابل القلوب على فطراتها شقيّها وسعيدها: أي خالق النفوس على ما خلقها عليه من التهيّؤ والاستعداد لسلوك سبيلي الخير والشرّ واستحقاق الشقاوة والسعادة بحسب القضاء الإلهي كما قال تعالى: ﴿**ونفس وما سوَّاها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكَّاها وقد خاب من دسَّاها**﴾[1] وقوله: ﴿**وهديناه النجدين**﴾ أي ألهمناه معرفة سلوك طريقي الخير والشرّ. وأهل العرفان كثيرا ما يعبرون عن النفس بالقلب. وشقيّها. بدل من القلوب: أي خالق شقيّ القلوب وسعيدها على فطراتها المكتوبة في اللوح المحفوظ فمن أخذت العناية الإلهية بزمام عقله على وفق ما كتب له فأعدّته لقبول الهداية لسلوك سبيل الله فهو السعيد، ومن لحقته حبايل القضاء الإلهي فحطّته إلى مهاوي الهلكة فذلك هو الشقيّ البعيد. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿**فمنهم شقيّ وسعيد**﴾[2] الآية. وقوله: واجعل شرائف صلواتك

---

(١) ٩١ - ٨.
(٢) ١١ - ١٠٧.

ونوامي بركاتك على محمد عبدك ورسولك. بعض مطلوباته من هذا الدعاء. وشرايف صلواته ما عظم من رحمته وكمال جوده على النفوس المستعدّة لها، ونوامي بركاته ما زاد منها.

الفصل الثاني: ذكر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أحد وعشرين وصفاً على جهات استحقاق الرحمة من الله وزيادة البركة المدعوّ بها.

الأول: كونه عبداً لله وظاهر كون العبودية جهة لاستحقاق الرحمة.

الثاني: كونه رسولاً له، والرسالة نوع خاص من الاستعباد توجب مزيد الرحمة والشفقة.

الثالث: كونه خاتماً لما سبق من أنوار الوحي والرسالة بنوره وما جاء من الدين الحقّ. وظاهر كون ذلك جهة استعداد منه لقبول الرحمة ودرجات الكمال.

الرابع: كونه فاتحاً لما انغلق من سبيل الله قبله وطريق جنّته وحضرة قدسه باندراس الشرايع ففتح صلى الله عليه وآله وسلم تلك السبيل بشرعه وكيفيّة هدايته للخلق فيها.

الخامس: كونه قد أظهر الحقّ بالحقّ. والأول هو الدين وما يدعو اليه، والثاني فيه أقوال: فقيل: هو المعجزات إذ بسببها تمكّن من إظهار الدين، وقيل: الحرب والخصومة يقال فلان حاقّ فلاناً فحقّه: أي خاصمه فغلبه، وقيل: هو البيان: أي أظهر الدين بالبيان الواضح. وأقول: الأشبه أنّه أراد: أظهر الحق بعضه ببعض. وكلّ جزئيّ من الحقّ حقّ، وذلك أنّ الدين لم يظهر دفعة وإنما بني الإسلام على خمس ثمّ كثرت فروعه وهو بالأصل يظهر الفرع، وظاهر كون إظهاره للحق جهة لاستحقاقه الرحمة.

السادس: كونه دافعاً لجيشات الأباطيل: أي لثوران فتن المشركين وانبعاثهم لإطفاء أنوار الله، أو لفتنتهم السابقة التي كانت معتادة من الغارات وحروب بعضهم لبعض فإن كل ذلك أمور باطلة على غير قانون عدلي من الله، وذلك الدفع من جهات قبول الرحمة.

السابع : **كونه دامغاً لصولات الأضاليل ، وهو قريب من السادس ،** واستعار لفظ الدفع لهلاك الضلاّل بالكلية ببركة مقدمه(ص)، ووجه الاستعارة كون الدفع مهلكاً للإنسان فأشبه ما أهلك الباطل ومحاه من أفعال الرسول(ص). والضلال هنا الانحراف عن طريق الله اللازم عن الجهل بها، واستعار لفظ وصف الصولات له ملاحظة لشبه المنحرفين عن سبيل الله إلى الفساد في قوة انحرافهم وشدة فسادهم بالفحل الصائل.

الثامن : **كونه حمل الرسالة فقام بما كلّف به وقوي عليه ، وقائماً .** نصب على الحال ، وكذلك المنصوبات بعده وهي مستوفزاً ، **وغير ناكل،** وكذلك محل لا واهٍ ، وواعياً ، وحافظاً ، وماضياً . وفي قوله : كما حمّل . لطف : أي صلِّ عليه صلاة مناسبة مشابهة لتحميلك له الرسالة وقيامه بأمرها لأن الجزاء من الحكيم العدل يكون مناسباً للفعل المجزى ولأجل كونها جهة استحقاق طلب ما يناسبها .

التاسع : **كونه عجلاً في رضا الله بامتثال أوامره .**

العاشر : **كونه غير ناكل ما يتقدم فيه من طاعة الله .**

الحادي عشر : **كونه ماضي العزم في القيام بأمر الله غير وان فيه .**

الثاني عشر : **كونه واعياً لوحيه ، ضابطاً ، قوى النفس على قبوله .**

الثالث عشر : **كونه حافظاً لعهده المأخوذ عليه من تبليغ الرسالة وأداء** الأمانة ، وقد سبق بيان معنى العهد في الخطبة الأولى .

الرابع عشر : **كونه ماضياً على إنفاذ أمره في العالم وجذب الخلق إلى** سلوك سبيله .

الخامس عشر : **ما انتهى إليه من الغاية باجتهاده في إرضاء الله ، وهو** كونه أورى قبس القابس : أي اشتعل أنوار الدين وقدح زناد الأفكار حتى أظهر أنوار العلوم منها للمقتبسين ، واستعار لفظ القبس لنور العلم والحكمة ، ولفظ الوري لإظهار الرسول لتلك الأنوار في طريق الله ، وقد سبق وجه الاستعارة .

السادس عشر : كونه أضاء الطريق للخابط . فالطريق هي طريق الجنة والحضرة الإلهية ، وإضاءته لها بإظهار تلك الأنوار وبيانها بتعليم كيفية سلوكها والإرشاد إليها ، والخابط هو الجاهل الذي قصدت الحكمة الإلهية إرشاده حيث كان يخبط في ظلمات الجهل .

السابع عشر : كونه قد هديت به القلوب إلى موضحات الأعلام : أي الأدلة الواضحة على الحق . ونيّرات الأحكام هي المطالب الحقة الواضحة اللازمة من تلك الأدلة بعدما كانت القلوب فيه من خوضات الفتن والآثام اللازمة عما اجترحته من السيئات . وذلك أمر ظاهر .

الثامن عشر : كونه أمين الله : أي على وحيه ورسالته ، والمأمون تأكيد لأمانته . وقد عرفت معنى الأمانة .

التاسع عشر : كونه خازن علمه المخزون : أي علومه اللدنيّة الغيبيّة التي لا يتأهل لحملها كل البشر المشار إليها بقوله تعالى : ﴿ **عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلاّ من ارتضى من رسول** ﴾[1] .

العشرون : كونه شهيداً يوم الدين كقوله تعالى : ﴿ **فكيف إذا جئنا من كل أُمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً** ﴾[2] أي شاهداً يوم القيامة على أمته بما علم منهم من خير وشر .

فإن قلت : ما حقيقة هذه الشهادة وما فائدتها مع أن الله تعالى عالم الغيب والشهادة ؟

قلت : أما حقيقتها فتعود إلى اطلاعه صلى الله عليه وآله وسلم على أفعال أُمته ، وبيان ذلك أنك علمت فيما سلف أن للنفوس القدسية الاطلاع على الأمور الغائبة والانتقاش بها مع كونه في جلابيب في أبدانها فكيف بها إذا فارقت هذا العالم

---

(١) ١١ ـ ١٠٧ .

(٢) ٤ ـ ٣٥ .

والجسم المظلم فإنها إذن تكون مطلعة على جميع أفعال أممها، ومشاهدة لها من خير أو شر .

وأما فائدتها فقد علمت أن أكثر أحكام الناس وهمية ، والوهم منكر للإله على الوجه الذي هو إله فبالحري أن ينكر كونه عالماً بجزئيات أفعال عباده ودقائق خطرات أوهامهم ، وظاهر أن ذلك الإنكار يستتبع عدم المبالاة بفعل القبيح ، والانهماك في الأمور الباطلة التي نهى الله تعالى عنها فإذا ذكر لهم أن عليهم شهداء ورقباء وكتاباً لما يفعلون مع صدق كل ذلك بأحسن تأويل كان ذلك مما يعين العقل على كسر النفس الأمارة بالسوء ، وقهر الأوهام الكاذبة ، ويردع النفس عن متابعة الهوى ثمَّ لا بد لكل رسول من أُمناء على دينه وحفظة له هم شهداء أيضاً على من بعده إلى قيام الساعة ، وإذا كان معنى الشهادة يعود إلى اطلاع الشاهد على ما في ذمّة المشهود عليه وعلمه بحقيقته وفائدتها حفظ ما في ذمّة المشهود عليه وتخوفه إن جحده أو لم يوصله إلى مستحقه أن يشهد عليه الشاهد فيفضحه وينتزع منه على أقبح وجه ، وكان هذا المعنى والفائدة قائمين في شهادة الأنبياء عليهم السلام إذ بها تتحفظ أوامر الله وتكاليفه التي هي حقوقه الواجبة ، ويحصل الخوف للمقصرين فيها بذكر شهادة الرسل عليهم بالتقصير فيفتضحوا في محفل القيامة ويستوفى منهم جزاء ما كلِّفوا به فقصروا فيه بالعقاب الأليم لا جرم ظهر معنى كونهم شهداء الله على خلقه .

الحادي والعشرون : كونه مبعوثاً بالحق ، وهو الدين الثابت الباقي نفعه وثمرته في الآخرة ، ثم أعاد ذكر كونه رسول الله إلى خلقه . وإنما كرره لأنه الأصل في باقي الأوصاف ، وظاهر أنَّ كل هذه الأوصاف جهات استحقاق الرحمة والبركة وإفاضة الصلوات الإلهية على نفسه القدسية .

الفصل الثالث : في تفصيل المطلوب من هذا الدعاء وهو قوله : اللهم افسح . إلى آخره ، وطلب أُموراً :

أحدها : أن يفسح له مفسحاً في ظله : أي مكاناً متسعاً في حضرة

قدسه وظل وجوده ، ولفظ الظل مستعار للجود ، ووجه المشابهة راحة المستظل بالظل من حرّ الشمس فأشبهها راحة الملتجىء إلى جود الله المستظل به من حرارة جهنم وسعير عذابه ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ في ظل ممدود ﴾ .

الثاني : أن يجزيه مضاعفات الخير من فضله : أي يضاعف له الكمالات من نعمه ، وقد علمت أن مراتب استحقاق نعم الله غير متناهية .

الثالث : أن يعلي على بناء البانين بناءه ، ويحتمل أن يريد ببنائه ما شيّده من الدين فيكون أعلاه المطلوب هو إتمام دينه وإظهاره بعده على الأديان كلها ، ويحتمل أن يريد به ما شيّده من الملكات الخيرية واستحقه من مراتب الجنة وقصورها .

الرابع : أن يكرم لديه منزلته وهو إنزاله المنزل المبارك الموعود ، وقل رب أنزلني منزلاً مباركاً .

الخامس : أن يتم له نوره وهو إما النور الذي بعث به وإتمام انتشاره في قلوب العالمين ، وإما النور الذي في جوهر ذاته . وتمامه زيادة كماله .

السادس : أن يجزيه عن بعثته قبول شهادته ورضا مقالته ، ومقبول مفعول آخر . وذا منطق . نصب على الحال . وقبول شهادته . كناية عن تمام الرضى عنه إذ من كان مقبول الشهادة مرضيّ القول فلا بد وأن يكون بريئاً من جهات الرذائل المسخطة ، أو كناية عن كون معتقداته ومشاهداته من أعمال أمته وغيرها بريئة عن كدر الأغاليط وشوائب الأوهام ، وكذلك رضا أقواله في شفاعته وغيرها. وكونه ذا منطق عدل : أي لا جور فيه عن الحق ، وخطة فصل : أي مميّزة للحق فاصلة له من الباطل ، وكل هذه الاعتبارات وإن اختلفت مفهوماتها ترجع إلى مطلوب واحد وهو طلب زيادة كمالاته ﷺ وقربه من الله تعالى ، وقوله : اللهم اجمع . إلى آخر . سأل الله أن يجمع بينه وبين الرسول في أمور :

أحدها : برد العيش . والعرب تقول: عيش بارد إذا كان لا كلفة فيه

من حرب وخصومة . وهو في الآخرة يعود إلى ثمرات الجنة البريئة من كدر الأتعاب .

الثاني : قرار النعمة : أي مستقرها وهو الجنة وحضرة رب العالمين .

الثالث : منى الشهوات ، وهو ما تتمناه النفس من المشتهيات وتهواه من اللذات بنعيم الأبد .

الرابع : رخاء الدعة ومنتهى الطمأنينة : أي اتساع سكون النفس بلذة مفارقة الحق والأنس بالملأ الأعلى وأمنها من مزعجات الدنيا وراحتها من معافاة آفاتها .

الخامس : تحف الكرامة . وهي ثمرات الجنة وقطوفها الدانية وسائر ما أعده لتحف أوليائه الأبرار مما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

٧٠ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

قَالَهُ لِمَرْوَانَ بْنِ ٱلْحَكَمِ بِالْبَصْرَةِ

قالوا : أخذ مروان بن الحكم أسيراً ، يوم الجمل ، فاستشفع الحسن والحسين عليهما السلام إلى أمير المؤمنين عليه السلام فكلماه فيه ، فخلى سبيله ، فقالا له : يبايعك يا أمير المؤمنين ؟ فقال عليه السلام :

أَوَ لَمْ يُبَايِعْنِي قَبْلَ قَتْلِ عُثْمَانَ ؟! لَا حَاجَةَ لِي فِي بَيْعَتِهِ! إِنَّهَا كَفٌّ يَهُودِيَّةٌ ! لَوْ بَايَعَنِي بِكَفِّهِ لَغَدَرَ بِسَبَّتِهِ . أَمَا إِنَّ لَهُ إِمْرَةً كَلَعْقَةِ ٱلْكَلْبِ أَنْفَهُ ، وَهُوَ أَبُو ٱلْأَكْبُشِ ٱلْأَرْبَعَةِ ، وَسَتَلْقَى ٱلْأُمَّةُ مِنْهُ وَمِنْ وُلْدِهِ يَوْماً أَحْمَرَ .

أقول : السبة : الإست . والإمرة بالكسر : الولاية . وكبش القوم : رئيسهم .

ولما امتنع من بيعة مروان نبّه على سبب امتناعه من ذلك وهو أنه مظنة

الغدر وذلك قوله : إنها كفّ يهودية . إذ من شأن اليهود الخبث والمكر والغدر ، ثم فسر تلك الكناية بقوله : لو بايعني بيده لغدر بسبته ، وذكر السبّة إهانة له لأن الغدر من أقبح الرذائل فنسبته إلى السبّة أولى النسب . والعرب تسلك مثل ذلك في كلامها . قال المتوكل يوماً لأبي العيناء : إلى متى تمدح الناس وتذمهم . فقال : ما أحسنوا وأساؤوا ، ثم قال : يا أمير المؤمنين : إن لله تعالى رضى فمدح فقال : ﴿ **نعم العبد إنه أواب** ﴾ وسخط فذم فقال ﴿ **عتلّ بعد ذلك زنيم** ﴾ والزنيم ولد الزنا . ثم ذكر مما سيكون من أمر مروان ثلاثة أمور :

أحدها : أنه سيصير أميراً للمسلمين ونبه على قصر مدة إمارته بتشبيهها بلعقة الكلب أنفه ، ووجه الشبه هو القصر ، وكانت مدة إمرته أربعة أشهر وعشرا ، وروي ستّة أشهر ، وإنما خصه بلعقة الكلب لأنه في معرض الذم ، والبحث في أما كهو في قوله : أما أنه سيظهر عليكم .

الثاني : أنه سيكون أباً للأكبش الأربعة . وكان له أربعة ذكور لصلبه وهم عبد الملك وولي الخلافة ، وعبد العزيز وولي مصر ، وبشر وولي العراق ، ومحمد وولي الجزيرة ، ويحتمل أن يريد بالأربعة أولاد عبد الملك وهم الوليد وسليمان ويزيد وهشام كلّهم ولوا الخلافة ولم يلها أربعة إخوة إلاّ هم .

الثالث : ما يصدر منه ومن ذريته من الفساد في الأرض ، وما يلقى الناس منهم من القتل وانتهاك الحرمة . وكنى عن قتلهم للناس وشدائد ما يلقون منهم بالموت الأحمر . ومن لسان العرب وصف الأمر الشديد بالأحمر ، ولعله لكون الحمرة وصف الدم كنى به عن القتل ، وروي يوماً أحمر . وهو كناية عن مدة أمرهم ووصفه بالحمرة كناية عن شدته . وفساد بني أمية ودمارهم للإسلام وأهله مشهور ، وفي كتب التواريخ مسطور .

٧١ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

لَمَّا عَزَمُوا عَلَى بَيْعَةِ عُثْمَانَ

لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ ٱلنَّاسِ بِهَا مِنْ غَيْرِي ، وَوَٱللَّهِ لَأُسَلِّمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ ٱلْمُسْلِمِينَ ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلَّا عَلَيَّ خَاصَّةً ٱلْتِمَاساً لِأَجْرِ ذٰلِكَ وَفَضْلِهِ ، وَزُهْداً فِيمَا تَنَافَسْتُمُوهُ مِنْ زُخْرُفِهِ وَزِبْرِجِهِ .

أقول : الزخرف : الزينة ، ويقال : الذهب . والزبرج : النقش والزينة بالحلية أيضاً .

وقوله : لقد علمتم أني أحق بها .

يشير إلى ما علموه من وجه استحقاقه للخلافة وهو استجماعه للفضائل الداخلية والخارجية ، والضمير في بها للخلافة وهو إمّا أن يعود إلى ذكرها في فصل تقدم متصلاً بهذا الفصل أو لشهرتها ، وكون الحديث فيها قرينة معيّنة لها كما قال قبل : لقد تقمّصها .

وقوله : والله لأسلّمنّ ما سلمت أُمور المسلمين .

أي لأتركنّ المنافسة في هذا الأمر مهما سلمت أُمور المسلمين من الفتنة . وفيه إشارة إلى أنَّ غرضه عليه السلام من المنافسة في هذا الأمر هو صلاح حال المسلمين واستقامة أُمورهم وسلامتهم عن الفتن ، وقد كان لهم بمن سلف من الخلفاء قبله استقامة أمر وإن كانت لا تبلغ عنده كمال استقامتها لو ولي هو هذا الأمر فلذلك أقسم ليسلمنّ ذلك الأمر ولا ينازع فيه إذ لو نازع فيه لثارت الفتنة بين المسلمين وانشقت عصا الإسلام وذلك ضدّ مطلوب الشارع ، وإنما يتعيّن عليه النزاع والقتال عند خوف الفتنة وقيامها .

فإن قلت : السؤال من وجهين :

الأول : ما وجه منافسته في هذا الأمر مع أنه منصب يتعلّق بأُمور الدنيا وصلاحها مع ما اشتهر منه عليه السلام من الزهد فيها والإعراض عنها وذمّها ورفضها ؟

الثـاني : كيف سلّم هاهنا خوف الفتنة ، ولم يسلّم لمعاوية ولطلحة والزبير مع قيام الفتنة في حربهم .

قلت : الجـواب عن الأول : أن منصب رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليس منصباً دنياويّاً وإن كان متعلقاً بإصلاح أحوال الدنيا لكن لا لكونها دنيا . بل لأنها مضمار الآخرة ومزرعتها والغرض من إصلاحها إنما هو نظام أحوال الخلق في معاشهم ومعادهم فمنافسته عليه السلام في هذا الأمر على هذا الوجه من الأمور المندوب إليها إذا اعتقد أن غيره لا يغني غناه في القيام به فضلاً أن يقال : إنها لا تجوز .

وعن الثاني : أنّ الفرق بين الخلفاء الثلاثة وبين معاوية في إقامة حدود الله والعمل بمقتضى أوامره ونواهيه ظاهر .

وقوله : لوم يكن فيها جور إلاّ عليّ خاصّة .

تظلّم ممّن عدل بها عنه ، ونسبة لهم إلى الجور دون من استحقّها في أنظارهم . فأوصلوها إليه من سائر الخلفاء . وخاصّة نصب على الحال .

وقوله : إليها التماساً لأجر ذلك . إلى آخره .

التماساً مفعول له والعامل لاسلمنّ : أي ألتمس ثواب الله وفضله بتسليمي وصبري وكذلك قوله : وزهداً . مفعول له ، وفيه إيماء إلى أن مقصود غيره من طلب هذا الأمر والمنافسة فيه ليس إلاّ الدنيا وزخرفها . وبالله التوفيق .

٧٢ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

لَمَّا بَلَغَهُ ٱتِّهَامُ بَنِي أُمَيَّةَ لَهُ بِالْمُشَارَكَةِ فِي دَمِ عُثْمَانَ

أَوَ لَمْ يَنْهَ أُمَيَّةَ عِلْمُهَا بِي عَنْ قَرْفِي ؟ أَوَ مَا وَزَعَ ٱلْجُهَّالَ سَابِقَتِي عَنْ تُهْمَتِي ؟ وَلَمَا وَعَظَهُمُ ٱللَّهُ بِهِ أَبْلَغُ مِنْ لِسَانِي . أَنَا حَجِيجُ ٱلْمَارِقِينَ ، وَخَصِيمُ ٱلْمُرْتَابِينَ ، وَعَلَى كِتَابِ ٱللَّهِ تُعْرَضُ ٱلأَمْثَالُ ، وَبِمَا فِي ٱلصُّدُورِ تُجَازَى ٱلْعِبَادُ .

أقـول: قـرفني بكذا: أي اتّهمني بـه ونسبـه إليّ. ووزع: كفّ. وحجيجهم: محاجّهم. والخصيم: المخاصم.

وقوله: أو لم ينه. إلى أو ما وزع.

استفهـام من عدم انتهـائهم عن نسبته إلى دم عثمـان مع علمهم بحـاله وقوته في الدين وعصمته عن دم حرام فضلاً عن مثل دم عثمان استفهـاماً على سبيل الإنكار عليهم والتعجب منهم، ونسبة لهم إلى الجهل لجهلهم بمناسبة حاله وسابقته في الإسلام لبراءته عما قرفوه به.

وقوله: ولما وعظهم الله به أبلغ من لساني؟.

تعذير لنفسه في عدم ردعـه لهم عن الغيبة وأمثـالها: أي إذا كـان وعظ الله لهم مـع كونـه أبلغ من كلامي لا يـردعهم فكلامي بـطريق الأولى وزواجر كتاب الله كقوله: ﴿ **إن بعض الظن إثم** ﴾ وقوله: ﴿ **ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً** ﴾[1] الآية. وقـوله: ﴿ **والـذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً** ﴾[2] ونحوه من القـرآن كثيـر، وأراد بلسـانـه وعـظه مجـازاً، إطـلاقـاً لاسم السبب على المسبب.

وقوله: أنا حجيج المارقين.

أي الخـوارج أو كل من خـرج عن دين الله، وخصيم المرتـابين: أي الشـاكين في نسبـة هـذا الأمـر إليّ، وقيـل: المنـافقين الشـاكين في صحـة الدين.

وقوله: وعلى كتاب الله تعرض الأمثال. إلى آخره.

إشـارة إلى الحجة التي يحتجّ بها. ويخاصمهم، وتقريـرها: أن تعلّق هذا المنكر به إما من جهة أقواله، أو أفعاله، أو اعتقاداتـه وإرادته، والثـلاثة

---

(١) ٤٩ - ١٢.
(٢) ٣٣ - ٥٨.

باطلة فتعلّق هذا المنكر به ونسبته إليه باطلة . بيان الحصر أن هذه الجهات هي جهات صدور المنكر عن الإنسان . بيان بطلان الأول والثاني أنه إن كان قد حصل في أقواله وأفعاله ما يشبه الأمر بالقتل أو فعله فأوقع في نفوس الجهال شبهة القتل نحو ما روي منه لما سئل عن قتل عثمان : الله قتله وأنا معه ، وكتخلّفه في داره يوم قتل عن الخروج . فينبغي أن يعرض ذلك على كتاب الله تعالى فإنه عليه تعرض الأمثال والأشباه فإن دلّ على كون شيء من ذلك قتلاً فليحكم به وإلّا فلا . ولن يدلّ أبداً . فليس لهم أن يحكموا بالقتل من جهة قول أو فعل ، وأما بطلان الثالث فلأن علم ما في القلوب إلى الله وهو الجازي بما فيها من خير أو شر ، وليسوا مطّلعين على ما هناك حتى يحكموا بالقتل من جهتها فإذن حكمهم بتعلق هذا المنكر به باطل . وبالله التوفيق .

٧٣ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

رَحِمَ ٱللَّهُ ٱمْرَأً سَمِعَ حُكْماً فَوَعَى ، وَدُعِيَ إِلَى رَشَادٍ فَدَنَا ، وَأَخَذَ بِحُجْزَةِ هَادٍ فَنَجَا ، رَاقَبَ رَبَّهُ ، وَخَافَ ذَنْبَهُ ، قَدَّمَ خَالِصاً ، وَعَمِلَ صَالِحاً ، إِكْتَسَبَ مَذْخُوراً ، وَٱجْتَنَبَ مَحْذُوراً ، رَمَى غَرَضاً، وَأَحْرَزَ عِوَضاً ، كَابَرَ هَوَاهُ ، وَكَذَّبَ مُنَاهُ ، جَعَلَ ٱلصَّبْرَ مَطِيَّةَ نَجَاتِهِ ، وَٱلتَّقْوَى عُدَّةَ وَفَاتِهِ ، رَكِبَ ٱلطَّرِيقَةَ ٱلْغَرَّاءَ ، وَلَزِمَ ٱلْمَحَجَّةَ ٱلْبَيْضَاءَ ، إِغْتَنَمَ ٱلْمَهَلَ، وَبَادَرَ ٱلْأَجَلَ ، وَتَزَوَّدَ مِنَ ٱلْعَمَلِ .

أقول : الحجزة : معقد الإزار . والمراقبة : المحافظة . والغراء : البيضاء .

واعلم أن هذا الفصل يشتمل على استنزاله عليه السلام الرحمة لعبد استجمع ما ذكر من الأمور ، وهي عشرون وصفاً :

الأول : يسمع الحكم فيعيه ؛ والحكم الحكمة ، ودعاؤه لسامعها وواعيها يستلزم أمره بتعلّمها وتعليمها ، وهي أعمّ من العلمية والعملية .

ووعاها : أي فهمها كما ألقيت إليه .

الثاني : كونه إذا دعي إلى رشاد دنا من الداعي إليه وأجاب دعاءه . والرشاد يعود إلى ما يهديه ويرشده إلى طريق معاشه ومعاده من العلوم والأعمال التي وردت بها الشريعة .

الثالث : أن يأخذ بحجزة هاد فينجو به : أي يكون في سلوكه لسبيل الله مقتدياً بأستاذ مرشد عالم لتحصل به نجاته ، واستعار لفظ الحجزة لأثر الأستاذ وسنّته . ووجه المشابهة كون ذهن المقتدي لازماً لسنّة شيخه في مضائق طريق الله وظلماتها لينجو به كما يلزم السالك لطريق مظلم لم يسلكه قبل بحجزة آخر قد سلك تلك الطريق وصار دليلاً فيها ليهتدي به، وينجو من التيه في ظلماتها . وبين أهل السلوك خلاف أنه هل يضطر المريد إلى الشيخ في سلوكه ؟ أم لا . وأكثرهم يرى وجوبه . ويفهم من كلامه عليه السلام وجوب ذلك وبمثل شهادته يتبجّح الموجبون له إذ كان لسان العارفين ومنتهى طبقاتهم . وظاهر أن طريق المريد مع الشيخ أقرب إلى الهداية ، وبدونه أطول وأقرب إلى الضلال عنها . فلذلك قال عليه السلام : فنجا : أي أن النجاة معلقة به ، وقد ذكرنا ما احتج به الفريقان في كتاب مصباح العارفين .

الرابع : أن يراقب ربه .

واعلم أن المراقبة إحدى ثمرات الإيمان وهي رتبة عظيمة من رتب السالكين قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : اعبد الله كأنك تراه فإن لم تك تراه فإنه يراك قال تعالى : ﴿ **أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت** ﴾[1] وقال : ﴿ **إن الله كان عليكم رقيباً** ﴾[2] قال الإمام الغزالي : وحقيقتها أنها حالة للنفس بثمرها نوع من المعرفة ، وتثمر أعمالاً في الجوارح والقلب :

أما الحالة فهي مراعاة القلب للرقيب واشتغاله به ، وأما العلم المثمر

---

(1) ١٣ - ٣٣ .
(2) ٤ - ١ .

لها فهو العلم بأن الله تعالى مطّلع على الضمائر والسرائر قائم على كل نفس بما كسبت وأن سر القلوب مكشوف له كظاهر البشرة للخلق. بل هو أشد فهذه المعرفة إذا استولت على القلب ولم يبق فيها شبهة فلا بد أن تجذبه إلى مراعاة الرقيب . والموقنون بهذه المعرفة فمنهم الصديقون ومراقبتهم التعظيم والإجلال واستغراق القلب بملاحظة ذلك الجلال والانكسار تحت الهيبة والعظمة بحيث لا يبقى فيه متسع للالتفات إلى الغير أصلاً . وهي مراقبة مقصورة على القلب .

أما الجوارح فإنها تتعطّل عن التلفت إلى المباحات فضلاً عن المحظورات ، وإذا تحركت بالطاعة كانت كالمستعمل لها فلا تصلح لغيرها ولا تحتاج إلى تدبير في ضبطها على سنن السداد ، ومن نال هذه الرتبة فقد يغفل عن الخلق حتى لا يبصرهم ولا يسمع أقوالهم . ومثل هذا بمن يحضر في خدمة ملك عظيم فإن بعضهم قد لا يحس بما يجري في حضرة الملك من استغراقه بهيبته ، وبمن يشغله أمر مهم يفكر فيه .

وروي : أن يحيى بن زكريا عليه السلام مرّ بامرأة فدفعها على وجهها . فقيل له : لم فعلت ؟ فقال : ما ظننتها إلاّ جداراً .

الثانية : مراقبة الورعين من أصحاب اليمين وهم قوم غلب بعض اطلاع الله تعالى على قلوبهم ولكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال. بل بقيت قلوبهم على الاعتدال متسعة للتلفّت إلى الأقوال والأعمال إلاّ أنها مع مدارستها للعمل لا تخلو عن المراقبة . وقد غلب الحياء من الله على قلوبهم فلا يقدمون ولا يحجمون إلاّ عن تثبت فيمتنعون عن كل أمر فاضح في القيامة إذ يرون الله تعالى مشاهداً لأعمالهم في الدنيا كما يرونه في القيامة . ومن كان في هذه الدرجة فيحتاج أن يراقب جميع حركاته وسكناته ولحظاته وجميع اختياراته ويرصد كل خاطر يسنح له فإن كان إلهياً يعجّل مقتضاه وإن كان شيطانياً بادر إلى قمعه واستحيا من ربه ولام نفسه على اتباع هواه فيه ، وإن شك فيه توقف إلى أن يظهر له بنور الله سبحانه من أي جانب هو كما قال عليه السلام :

الهوى شريك العمى . ومن التوفيق التوقف عند الحيرة ولا يهمل شيئاً من أعماله وخواطره وإن قلّ ليسلم من مناقشة الحساب . فقد قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : الرجل ليسأل عن كحل عينيه وعن فتلة الطين بإصبعه وعن لمسه ثوب أخيه .

الخامس : أن يخاف ذنبه . واعلم أن الخوف ليس مما هو ذنب. بل من المعاقب على الذنب لكن لما كان الذنب سبباً موجباً لسخط المعاقب وعقابه نسب الخوف إليه . وقد سبق منّا بيان حقيقتي الخوف والرجاء .

السادس : أن يقدم خالصاً بأن تكون أحواله كلها خالصة لله من قول أو عمل ، وخاطره بريئة عن الالتفات إلى غيره فيها . وقد سبق معنى الإخلاص في الخطبة الأولى .

السابع : أن يعمل صالحاً . وصلاح العمل الإتيان به كما أُمر به وهو نوع مما تقدمه .

الثامن : أن يكتسب مذخوراً . وهو أمر بسائر ما أمرت الشريعة باكتسابه . ونبّه على وجوب السعي فيه بأنه يبقى ذخراً ليوم الفاقة إليه .

التاسع : أن يجتنب محذوراً. وهو أمر باجتناب ما نهت الشريعة عنه ، ونبّه على وجوب اجتنابه بكونه محذوراً يستلزم العقاب في الآخرة .

العاشر : أن يرمي غرضاً : أي يحذف أعراض الدنيا عن درجة الاعتبار ، وهو إشارة إلى الزهد والتخلي عن موانع الرحمة .

الحادي عشر : أن يحرز عوضاً : أي يذخر في جوهر نفسه ملكات الخير ويوجه سرّه إلى مطالعة أنوار كبرياء الله ويحرز ما يفاض عليه من الحسنات ويثبتها بتكريرها . فنعم العوض من متاع الدنيا وأعراضها الفانية .

الثاني عشر : أن يكابر هواه : أي يطوع نفسه الأمارة بالسوء بالأعمال الدينية ويراقبها في كل خاطر يلقيه إلى نفسه ويقابلها بكسره وقمعه .

الثالث عشر : أن يكذب مناه : أي يقابل ما يلفته إليه الشيطان من الأماني ويعده به بالتكذيب والقمع له بتجويز عدم نيلها . ويحسم مادّه ذلك بالمراقبة فإن الوساوس الشيطانية يتبع بعضها بعضاً ، ومن إشاراته عليه السلام إلى ذلك : إيّاكم والمنى فإنها بضائع النوكى : أي الحمقى .

الرابع عشر : أن يجعل الصبر مطية نجاته . والصبر هو مقاومة النفس لئلا تنقاد إلى قبائح اللذات . ولما علمت أن الانقياد في مسلكها إلى اللذات القبيحة هو سبب الهلاك في الآخرة علمت أن مقاومتها ودفعها عنها هو سبب النجاة هناك ، وقد استعار لفظ المطية للصبر ، ووجه المشابهة كون لزومه سبباً للنجاة كما أن ركوب المطية والهرب عليها سبب النجاة من العدو .

الخامس عشر : أن يجعل التقوى عدة وفاته . ولماكانت التقوى قد يراد بها الزهد، وقديراد بها الخوف من الله المستلزم للزهد كما علمت وكانت العدة هو ما استعد به الإنسان للقاء الحوادث ، وكان الموت أعظم حادث يسبق إلى الإنسان من أحوال الآخرة كانت التقوى عدة للموت . إذ كان المتقي مشغول السر بعظمة الله وهيبته عن كل حالة تلحقه فلا يكون للموت عنده كثير وقع ولا عظيم كرب ، وقد يراد بالتقوى مطلق الإيمان ، وبالوفاة ما بعدها مجازاً ، وظاهر كون الإيمان عدة واقية من عذاب الله .

السادس عشر : أن يرتكب الطريقة الغراء . وهو أن يسلك إلى الله تعالى الطريقة الواضحة المستقيمة وهي سريعة .

السابع عشر : وأن يلزم المحجة البيضاء . والفرق بين هذا الأمر والذي قبله أن الأول أمر بركوب الطريقة الغراء .

والثاني : أمر بلزومها وعدم مفارقتها وأنها وإن كانت واضحة إلاّ أنها طويلة كثيرة المخاوف وسالكها أبداً محارب للشيطان وهو في معرض أن يستزلّه عنها .

الثامن عشر : أن يغتنم المهل : أي أيام مهلته وهي حياته الدنيا واغتنامه العمل فيها قبل يوم الحساب .

التاسع عشر : أن يبادر الأجل : أي يسابقه إلى العمل قبل أن يسبقه فيقتطعه عنه .

العشرون : أن يتزود من العمل . وهو الأمر بما يتبادر إليه من اتخاذ العمل زاداً . وقد سبق وجه استعارة الزاد له . وقد راعى عليه السلام في كل مرتبتين من هذا الكلام السجع المتوازي ، وجعل الصدر ثلاثاً والآخر ثلاثاً، وعطف كل قرينة على مشاركتها في الحرف الأخير منها ، وحذف حرف العطف من الباقي ليتميّز ما يتناسب منها عن غيره . وكل ذلك بلاغة .

٧٤ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

إِنَّ بَنِي أُمَيَّةَ لَيُفَوِّقُونَنِي تُرَاثَ مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ تَفْوِيقاً ، لَأَنْفُضَنَّهُمْ نَفْضَ ٱللَّحَّامِ ٱلْوِذَامَ ٱلتَّرِبَةَ .

ويروى « ٱلتُّرَابَ ٱلْوَذِمَةَ » . وهو على القلب .

قال الشريف : وقوله عليه السلام : « لَيُفَوِّقُونَنِي » أي يعطونني من المال قليلاً كفواق الناقة : وهو الحلبة الواحدة من لبنها . وَٱلْوِذَامُ : جمع وذمة وهي الحزّة من الكرش أو الكبد تقع في التراب فتنفض .

أقول : استعار لفظ التفويق لعطيّتهم له المال قليلاً ، ووجه المشابهة هو قلة ما يعطونه منه مع كونه في دفعات كما يعطى الفصيل ضرع أمّه لتدر ، ثم يدفع عنها لتحلب ، ثم يعاد إليها لتدر . وتراث محمد إشارة إلى الفيء الحاصل ببركة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو التراث اللغوي المكتسب عن الميت بوجه ما ، ثم أقسم إن بقي لبني أمية ليحرمنّهم التقدم في الأمور ، واستعار لفظ النفض لإبعادهم عن ذلك ، وشبّه نفضه لهم بنفض القصّاب القطعة من الكبد ، أو الكرش من التراب إذا أصابته . وهذه الرواية هو الحق .

والثانية : سهو من الناقلين . وقد ورد عنه هذا الكلام بزيادة ونقصان في رواية أخرى وذلك أن سعيد بن العاص حيث كان أمير الكوفة من قبل عثمان بعث إليه بصلة فقال : والله لا يزال غلام من غلمان بني أمية يبعث إلينا ما أفاء الله على رسوله بمثل قوت الأرملة ، والله لئن بقيت لأنفضنّها نفض القصّاب الوذام التربة .

٧٥ـ ومن كلمات كان يدعو بها

اَللَّهُمَّ آغْفِرْ لِي مَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي ، فَإِنْ عُدْتُ فَعُدْ عَلَيَّ بِالْمَغْفِرَةِ ، اَللَّهُمَّ آغْفِرْ لِي مَا وَأَيْتُ مِنْ نَفْسِي ،وَلَمْ تَجِدْ لَهُ وَفَاءً عِنْدِي ، اَللَّهُمَّ آغْفِرْ لِي مَا تَقَرَّبْتُ بِهِ إِلَيْكَ بِلِسَانِي ثُمَّ خَالَفَهُ قَلْبِي ، اَللَّهُمَّ آغْفِرْ لِي رَمَزَاتِ الْأَلْحَاظِ ، وَسَقَطَاتِ الْأَلْفَاظِ ، وَشَهَوَاتِ الْجَنَانِ ، وَهَفَوَاتِ اللِّسَانِ .

أقول : الوأي : الوعد . والرمزات : جمع رمزة وهي الإشارة بالعين أو الحاجب أو الشفة . والسقط من الشيء : رديئه . والهفوة : الزلة .

وقد سأل الله سبحانه في جميع هذا الفصل المغفرة . ومغفرة الله للعبد تعود إلى ستره عليه أن يقع في مهاوي الهلكة في الآخرة أو يكشف مقابحه لأهل الدنيا فيها وكل ذلك يعود إلى توفيقه لأسباب السعادة وجذبه بها عن متابعة الشيطان في المعاصي قبل صدورها منه أو قبل صيرورتها ملكات في جوهر نفسه والمطلوب غفره أمور :

الأول : ما الله أعلم به منه مما هو عند الله معصية وسيئة في حقه وهو لا يعلمها فيفعلها ، ثم طلب تكرار مغفرة الله لما يعاوده ويتكرر منه كذلك . وإذا تصورت معنى المغفرة تصورت كيف تكرارها .

الثاني : ما وعد نفسه أن يفعله لله ثمَّ لم يوف به . وما هاهنا مصدرية . ولا شك أن مطال النفس بفعل الخير وعدم الوفاء به إنما يكون عن خاطر شيطاني يجب أن يستغفر الله له ويسأل ستره ببعث الدواعي الجاذبة عن متابعة الشيطان المحرك له .

الثالث : شوب النفس ما يتقرب به من الأعمال إلى الله بالرياء والسمعة ، ومخالفة نيّة القربة إليه بقصد غيره لها . ولا شك أن ذلك شرك خفي جاذب عن الترقي في درجات العلى ، ويحتاج إلى تدارك الله بالمغفرة والجذب عنه قبل تمكنه من النفس .

الرابع : الإشارة باللحظ . وهو الإيماء الخارج عن الحدود الشريفة كما يفعل عند التنبيه على شخص ليعاب أو ليضحك منه أو يظلم . وكل تلك عن خواطر شيطانية ينبغي أن يسأل الله تعالى رفع أسبابها وستر النفس عن التدنس بها .

الخامس : سقطات الألفاظ والرديء من القول . هو ما تجاوز حدود الله وخرج بها الإنسان عن مستقيم صراطه .

السادس : شهوات القلوب . فمن روى بالشين المعجمة فالمراد جذب القوة الشهوية للنفس : أي مشتهياتها ، ومن روى بالسين فسهوات القلب خواطره التي لا يشعر بتفصيلها إذا خالفت أوامر الله وقد تستتبع حركة بعض الجوارح إلى فعل خارج عن حدود الله أيضاً وذلك وإن كان لا يوجب أثراً في النفس ولا يؤخذ به إلّا أنه ربما يقوى بقوة أسبابه وكثرتها فيقطع العبد عن سلوك سبيل الله كما في حق المنهمكين في لذات الدنيا المتجردين لها فإن أحدهم ربما رام أن يصلي الفرض فيصلي الصلاة الواحدة مرتين أو مراراً ولا يستثبت عدد ركعاتها وسجداتها ، وغفر مثل ذلك بجذب العبد عن الأسباب الموجبه له .

السابع : هفوات اللسان : أي الزلل الحاصل من قبله . ومادته أيضاً خاطر شيطاني ، وغفره بتوفيقه لمقاومة هواه .

واعلم أن الشيعة لما أوجبوا عصمته عليه السلام عن المعاصي حملوا طلبه لمغفرة هذه الأمور على وجهين :

أحدهما : وهو الأدق أن طلبه لغفرانها إنما هو على تقدير وقوعها منه فكأنه قال : اللهم إن صدر عني شيء من هذه الأمور فاغفره لي ، وقد علمت

أنه لا يلزم من صدق الشرطية صدق كل واحد من جزئيها فلا يلزم من صدق كلامه صدور شيء منها حتى يحتاج إلى المغفرة .

الثاني : أنهم حملوا ذلك على تأديب الناس وتعليمهم كيفية الاستغفار من الذنوب أو على التواضع والاعتراف بالعبودية وأن البشر في مظنة التقصير والإساءة . وأما من لم يوجب عصمته فالأمر معه ظاهر . وبالله التوفيق .

٧٦ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

قَالَهُ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ ، لَمَّا عَزَمَ عَلَى الْمَسِيرِ إِلَى الْخَوَارِجِ ، فَقَالَ لَهُ : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ سِرْتَ فِي هٰذَا الْوَقْتِ خَشِيتُ أَنْ لَا تَظْفَرَ بِمُرَادِكَ مِنْ طَرِيقِ عِلْمِ النُّجُومِ »

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

أَتَزْعُمُ أَنَّكَ تَهْدِي إِلَى السَّاعَةِ الَّتِي مَنْ سَارَ فِيهَا صُرِفَ عَنْهُ السُّوءُ ؟ وَتُخَوِّفُ مِنَ السَّاعَةِ الَّتِي مَنْ سَارَ فِيهَا حَاقَ بِهِ الضُّرُّ ؟ . فَمَنْ صَدَّقَ بِهٰذَا ، فَقَدْ كَذَّبَ الْقُرْآنَ ، وَاسْتَغْنَى عَنِ الْإِعَانَةِ بِاللَّهِ فِي نَيْلِ الْمَحْبُوبِ ، وَدَفْعِ الْمَكْرُوهِ ، وَتَبْتَغِي فِي قَوْلِكَ لِلْعَامِلِ بِأَمْرِكَ أَنْ يُولِيَكَ الْحَمْدَ دُونَ رَبِّهِ ، لِأَنَّكَ ـ بِزَعْمِكَ أَنْتَ ـ هَدَيْتَهُ إِلَى السَّاعَةِ الَّتِي نَالَ فِيهَا النَّفْعَ وَأَمِنَ الضُّرَّ .

(ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ) :

أَيُّهَا النَّاسُ ! إِيَّاكُمْ وَتَعَلُّمَ النُّجُومِ ، إِلَّا مَا يُهْتَدَى بِهِ فِي بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ ، فَإِنَّهَا تَدْعُو إِلَى الْكَهَانَةِ ، وَالْمُنَجِّمُ كَالْكَاهِنِ ، وَالْكَاهِنُ كَالسَّاحِرِ ، وَالسَّاحِرُ كَالْكَافِرِ ، وَالْكَافِرُ فِي النَّارِ . سِيرُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ .

أقول : حاق به : أحاط . ويوليه كذا : يعطيه إيّاه ويجعله أولى به .

وروي أن المشير عليه بذلك كان عفيف بن قيس أخاً لأشعث بن قيس وكان يتعاطى علم النجوم .

واعلم أن الذي يلوح من سر نهي الحكمة النبوية عن تعلم النجوم أمران :

أحدهما : اشتغال متعلّمها بها ، واعتماد كثير من الخلق السامعين لأحكامها فيما يرجون ويخافون عليه فيما يسنده إلى الكواكب والأوقات ، والإشتغال بالفزع إليه وإلى ملاحظة الكواكب عن الفزع إلى الله والغفلة عن الرجوع إليه فيما يهم من الأحوال . وقد علمت أن ذلك يضاد مطلوب الشارع إذ كان غرضه ليس إلّا دوام التفات الخلق إلى الله وتذكرهم لمعبودهم بدوام حاجتهم إليه .

الثاني : أن الأحكام النجومية إخبارات عن أمور ستكون وهي تشبه الإطلاع على الأمور الغيبية . وأكثر الخلق من العوام والنساء والصبيان لا يتميّزون بينها وبين علم الغيب والإخبار به . فكان تعلم تلك الأحكام والحكم بها سبباً لضلال كثير من الخلق موهناً لاعتقاداتهم في المعجزات إذ الإخبار عن الكائنات منها ، وكذلك في عظمة بارئهم . ويسلكهم في عموم صدق قوله تعالى : ﴿ **قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلّا الله وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلّا هو** ﴾[1] .

وقوله : ﴿ **إن الله عنده علم الساعة وينزّل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت** ﴾[2] فالمنجم إذا حكم لنفسه بأنه يصيب كذا في وقت كذا فقد ادعى أن نفسه تعلم ما تكسب غداً وبأي أرض تموت . وذلك عين التكذيب للقرآن ، وكأن هذين الوجهين هما المقتضيان لتحريم الكهانة والسحر والعزائم ونحوها ، وأما مطابقة لسان الشريعة للعقل في تكذيب هذه الأحكام فبيانها أن أهل النظر أما متكلّمون فإما معتزلة أو أشعرية .

---

(1) ٦٥ـ ٢٧ ، ٥٩ ـ ٦ .
(2) ٣١ ـ ٣٤ .

أما المعتزلة فاعتمادهم في تكذيب المنجم على أحد أمرين :

أحدهما : أن الشريعة كذبته . وعندهم أن كل حكم شرعي فيشتمل على وجه عملي وإن لم يعلم عين ذلك الوجه .

والثاني : مناقشته في ضبطه لأسباب ما أُخبر عنه من كون أو فساد .

أما الأشعرية فهم وإن قالوا : إنه لا مؤثر له إلاّ الله وزعم بعضهم أنهم خلصوا بذلك من إسناد التأثيرات إلى الكواكب إلاّ أنه لا مانع على مذهبهم أن يجعل الله تعالى اتصال نجم بنجم أو حركته علامة على كون كاين أو فساده وذلك مما لا يبطل على منجم قاعدة . فيرجعون أيضاً إلى بيان عدم إحاطته بأسباب كون ما أخبر عنه . ومناقشته في ذلك .

وأما الحكماء فاعلم أنه قد ثبت في أصولهم أن كل كائن فاسد في هذا العالم فلا بدّ له من أسباب أربعة : فاعلي ، ومادي ، وصوري ، وغائي : أما السبب الفاعلي القريب فالحركات السماوية والذي هو أسبق منها فالمحرك لها إلى أن ينتهي إلى الجود الإلهي المعطي لكل قابل ما يستحقه ، وأما سببه المادي فهو القابل لصورته وتنتهي القوابل إلى القابل الأول وهو مادة العناصر المشتركة بينها، وأما الصوري فصورته التي تقبلها مادته ، وأما الغائي فهي التي لأجلها وجد . أما الحركات السماوية فإن من الكائنات ما يحتاج في كونه إلى دورة واحدة للفلك ، ومنها ما يحتاج إلى جملة من أدواره واتصالاته . وأما القوابل للكائنات فقد تقرر عندهم أيضاً أن قبولها لكل كاين معين مشروط باستعداد معين له وذلك الاستعداد يكون بحصول صورة سابقة عليه وهكذا قبل كل صورة صورة معدة لحصول الصورة بعدها. وكل صورة منها أيضاً تستند إلى الاتصالات والحركات الفلكية ، ولكل استعداد معيّن زمان معيّن وحركة معينة واتصال معيّن يخصه لا يفي بدركها القوة البشرية .

إذا عرفت ذلك فنقول : الأحكام النجومية إما أن تكون جزئية وإما كلية . أما الجزئية فأن يحكم مثلاً بأن هذا الإنسان يكون من حالة كذا وكذا ، وظاهر أن مثل هذا الحكم لا سبيل إلى معرفته إذ العلم به إنما هو من جهة

أسبابه. أما الفاعلية فأن يعلم أن الدورة المعينة والاتصال المعين سبب لملك هذا الرجل البلد المعين مثلاً وأنه لا سبب فاعلي لذلك إلّا هو.

والأول : باطل لجواز أن يكون السبب غير ذلك الاتصال أو هو مع غيره . أقصى ما في الباب أن يقال : إنما كانت هذه الدورة وهذا الاتصال سبباً لهذا الكائن لأنها كانت سبباً لمثله في الوقت الفلاني لكن هذا أيضاً باطل لأن كونها سبباً للكائن السابق لا يجب أن يكون لكونها مطلق دورة واتصال. بل لعله أن يكون لخصوصية كونه تلك المعينة التي لا تعود بعينها فيما بعد ، وحينئذ لا يمكن الاستدلال بحصولها على كون هذا الكائن لأن المؤثرات المختلفة لا يجب تشابه آثارها.

والثاني : أيضاً باطل لأن العقل يجزم بأنه لا اطلاع له على أنه لا يقتضي لذلك الكائن من الأسباب الفاعلة إلّا الاتصال المعيّن . كيف وقدثبت أن من الكائنات ما يفتقر إلى أكثر من اتصال واحد ودورة واحدة أو أقل ، وأما القابلية فأن يعلم أن المادة قد استعدت لقبول مثل هذا الكائن واستجمعت جميع شرائط قبوله الزمانية والمكانية والسماوية والأرضية . وظاهر أن الإحاطة بذلك مما لا تفي به القوة البشرية ، وأما الصورية والغائية فأن يعلم ما يقتضيه استعداد مادة ذلك المعين وقبولها من الصورة وما يستلزمه من الشكل والمقدار ، وأن يعلم ما غاية وجوده وما أعدته العناية له ، وظاهر أن الإحاطة بذلك غير ممكنة للإنسان .

وأما أحكامهم الكلية فكأن يقال كلما حصلت الدورة الفلانية كان كذا . والمنجم إنما يحكم بذلك الحكم من جزئيات من الدورات تشابهت آثارها فظنها متكررة ولذلك يعدلون إذا حقق القول عليهم إلى دعوى التجربة ، وقد علمت أن التجربة تعود إلى تكرر مشاهدات يضبطها الحسّ . والعقل يحصل منها حكماً كلياً كحكمه بأن كل نار محرقة فإنه لما أمكن العقل استبثات الإحراق بواسطة الحس أمكنه الجزم الكلي بذلك .

فأما التشكلات الفلكية والاتصالات الكوكبية المقتضية لكون ما يكون

فليس شيء منها يعود بعينه كما علمت وإن جاز أن يكون تشكلات وعودات متقاربة الأحوال ومتشابهة إلاّ أنه لا يمكن الإنسان ضبطها ولا الاطلاع على مقدار ما بينها من المشابهة والتفاوت ، وذلك أن حساب المنجم مبني على قسمة الزمان بالشهور والأيام والساعات والدرج والدقائق وأجزائها ، وتقسيم الحركة بإزائها ورفعهم بينها نسبة عددية وكل هذه أمور غير حقيقة وإنما تؤخذ على سبيل التقريب . أقصى ما في الباب أن التفاوت فيها لا يظهر في المدد المتقاربة لكنه يشبه أن يظهر في المدد المتباعدة ، ومع ظهور التفاوت في الأسباب كيف يمكن دعوى التجربة وحصول العلم الكلي الثابت الذي لا يتغيّر باستمرار أثرها على وتيرة واحدة .

ثم لو سلّمنا أنه لا يظهر تفاوت أصلاً إلاّ أن العلم يعود مثل الدورة لا يقتضي بمجرده العلم بعود، مثل الأثر السابق لتوقف العلم بذلك على عود أمثال الباقية للأثر السابق من الاستعداد وسائر أسبابه العلوية والسفليّة ، وعلى ضبطها فإن العلم التجربي إنما يحصل بعد حصرها ليعلم عودها وتكررها ، وكل ذلك مما لا سبيل للقوة البشرية إلى ضبطه فكيف يمكن دعوى التجربة . إذا عرفت ذلك فنقول :

قوله : أتزعم إلى قوله : الضر .

استثبات لما في العادة أن يدعيه الأحكاميون كما ادّعاه المنجم المشير بعدم المسير في ذلك الوقت .

وقوله : فمن صدقك [صدق خ] بهذا إلى قوله : الضرر .

إلزامات له على ما يعتقده عن نفرتها عن قبول أحكام المنجم والاعتقاد فيه .

أولها : أن من صدقه فقد كذب القرآن ، ووجه التكذيب ما ذكرناه .

الثاني : كون مصدقه يستغني عن الاستعانة بالله في نيل محبوبه ورفع مكروهه : أي يفزع إليه في كل أمر يهم به ويجعله عمدة له فيعرض عن

الفزع إلى الله كما سبق .

الثالث : أنه ينبغي للعامل أن يوليه الحمد دون ربه . وعلل هذا الإلزام بقياس ضمير من الشكل الأول . صورته : تزعم أنك تهدي إلى ساعة النفع والضرر ، وكل من زعم ذلك فقد أهّل نفسه لاستحقاق الحمد من مصدقه دون الله . فينتج أنه قد أهّل نفسه لاستحقاق الحمد من مصدقه دون الله . والكبرى من المخيّلات ، وقد يستعملها الخطيب للتنفير عن بعض الأمور التي يقصد النهي عنها .

وقوله : أيها الناس . إلى قوله : برّ أو بحر .

تحذير عن تعلّمها لما ذكرناه ، واستثنى من ذلك تعلّمها للاهتداء بها في السفر .

واعلم أن الذي ذكرناه ليس إلّا بيان أن الأصول التي ينبىء عليها الأحكاميون وما يخبرون به في المستقبل أصول غير موثوق بها فلا يجوز الاعتماد عليها في تلك الأحكام والجزم بها . وهذا لا ينافي كون تلك القواعد ممهدة بالتقريب كقسمة الزمان وحركة الفلك بالسنة والشهر واليوم مأخوذاً عنها حساب يبنى عليه مصالح دينية كمعرفة أوقات العبادات كالصوم والحج ونحوهما أو دنيوية كآجال المداينات وسائر المعاملات وكمعرفة الفصول الأربعة ليعمل في كل منها ما يليق به من الحراثة والسفر وأسباب المعاش ، وكذلك معرفة قوانين تقريبيّة من أوضاع الكواكب وحركاتها يهتدي بقصدها وعلى سمتها المسافرون في برّ أو بحر. فإن ذلك القدر منها غير محرم. بل لعله من الأمور المستحبة لخلو المصالح المذكورة فيه عن وجوه المفاسد التي تشتمل عليها الأحكام كما سبق . ولذلك امتن الله سبحانه على عباده بخلق الكواكب في قوله ﴿ **وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر** ﴾[1] وقوله : ﴿ **لتعلموا عدد السنين والحساب** ﴾[2] .

---

(1) ٦ - ٩٧.

(2) ١٠ - ٥.

وقوله : فإنها . إلى آخره .

تعليل للتحذير عن تعلمها وتنفير عنها بقياس آخر موصول يستنتج منه أن المنجم في النار . وعلى تقدير تفصيله فالنتيجة الأولى كون المنجّم كالساحر، وهي مع قوله : والساحر كالكافر . وهذه النتيجة مع قوله : والكافر في النار ينتج المطلوب ، وهو أن المنجم في النار ، والقياسان الأوّلان من قياس المساواة . وقد علمت أنه عسر الانحلال إلى الحدود المرتبة في القياس المنتج لأن موضوع الكبرى جزء من محمول الصغرى فليس الأوسط بمشترك فهو معدول عن وجهه إلى وقوع الشركة في بعض الأوسط . ولذلك يستحق أن يفرد باسم ويجعل لتحليله قانون يرجع إليه في أمثاله . وقد سبق مثله في الخطبة الأولى . وإذا حمل على القياس الصحيح كان تقديره المنجم يشبه الكاهن المشبه للساحر ومشبه الكاهن المشبه للساحر مشبه للساحر فينتج أن المنجم يشبه الساحر .

وهكذا في القياس الثاني المنجم يشبه الساحر المشبه للكافر ومشبه الساحر المشبه للكافر يشبه الكافر فالمنجم يشبه الكافر والكافر في النار فالمنجم كذلك وهو القياس الثالث ونتيجته . فأما بيان معنى الكاهن والساحر والإشارة إلى وجوه التشبيهات المذكورة :

فاعلم أنّا قد أشرنا في المقدمة إلى مكان وجود نفس تقوى على اطلاع ما سيكون وعلى التصرفات العجيبة في هذا العالم فتلك النفس إن كانت كاملة خيّرة مجذوبة من الله تعالى بدواعي السلوك إلى سبيله وما يقود إليه فهي نفوس الأنبياء والأولياء ذوي المعجزات والكرامات ، وإن كانت ناقصة شريرة منجذبة عن تلك الجهة وغير طالبة لتلك المرتبة . بل مقتصرة على رذائل الأخلاق وخسائس الأمور كالتكهّن ونحوه فهي نفوس الكهنة والسحرة .

واعلم أن أكثر ما تظهر قوة الكهانة ونحوها من قوى النفس في أوقات الأنبياء وقبل ظهورهم . وذلك أن الفلك إذا أخذ في التشكل بشكل يتم به في العالم حدث عظيم عرض من ابتداء ذلك الشكل وغايته أحداث في الأرض

شبيهة بما يريد أن يتم ولكنها تكون غير تامة فإذا استكمل ذلك الشكل في الفلك ، وتمّ وجد به في العالم ما يقتضيه في أسرع زمان لسرعة تبدل أشكال الفلك فتظهر تلك القوة التي يوجبها ذلك الشكل في شخص واحد أو شخصين أو أكثر على حسب ما تقتضيه العناية الإلهية ويستوعب ذلك الشخص تلك القوة على الكمال .

فأما من قرب من ذلك الشكل ولم يستوفه فإنه يكون ناقص القوة بحسب بعده من الشكل . ويظهر ذلك النقصان بظهور النبوة المقصودة من ذلك الشكل . فتبيّن قصور القوى المتقدمة على النبي والمتأخرة عنه ونقصانهما عن ذلك التمام .

فأما صفة الكاهن من أصحاب تلك القوى فإنّ صاحب قوة الكهانة إذا أحس بها من نفسه تحرك إليها بالإرادة ليكملها فيبرزها في أمور حسية ويثيرها في علامات تجري مجرى الفال والزجر وطرق الحصى ، وربما استعان بالكلام الذي فيه سجع وموازنة أو بحركة عنيفة من عدو حثيث كما حكي عن كاهن من الترك ، وكما نقل إليّ من شاهد كاهناً كان في زماننا وتوفي منذ عشرين سنة يكنى بأبي عمر وكان بناحية من ساحل البحر يقال لها قلهات ، وإنه كان إذا سئل عن أمر استعان بتحريك رأسه تحريكاً يقوى ويضعف بحسب الحاجة وأجاب عقيب ذلك ، وقيل إنه كان قد يستغني في بعض الإخبارات عن تلك الحركة . والغرض من ذلك اشتغال النفس عن المحسوسات فتداخل نفسه ويقوىٰ فيها ذلك الأثر ويهجس في نفسه عن تلك الحركة ما تقذفه على لسانه ، وربما صدق الكاهن ، وربما كذب .

وذلك أنه يتمّم نقصه بأمر مبائن لكماله غير داخل فيه فيعرض له الكذب ويكون غير موثوق به ، وربما تعمد الكذب خوفاً من كساد بضاعته فيستعمل الزرق ويخبر بما لا أثر له في نفسه ويضطر إلى التخمين . ودرجات هؤلاء متفاوتة بحسب قربهم من الأفق الإنساني وبعدهم منه وبقدر قبولهم للأثر العلوي . ويتميّزون عن الأنبياء بالكذب وما يدّعونه من المحالات فإن

اتفق أن يلزم أحدهم الصدق فإنه لا يتجاوز قدره في قوته ويبادر إلى التصديق بأول أمر يلوح من النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويعرف فضله كما روي عن طلحة وسوادابن قارب ونحوهما من الكهنة في زمان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .

إذا عرفت ذلك فنقول : أما قوله : فإنها تدعو إلى الكهانة .

أي أنها تدعو المنجّم في آخر أمره إلى أن يصيّر نفسه كالكاهن في دعوى الإخبار عما سيكون ، ثم أكد كونها داعية إلى التمكين بتشبيهه بالكاهن .

وأعلم أن الكاهن يتميّز عن المنجم بكون ما يخبر به من الأمور الكائنة إنما هو عن قوة نفسانية له ، وظاهر أن ذلك أدعى إلى فساد أذهان الخلق وإغوائهم لزيادة اعتقادهم فيه على المنجم ، وأما الساحر فيتميّز عن الكاهن بأن له قوة على التأثير في أمر خارج عن بدنه آثاراً خارجة عن الشريعة مؤذية للخلق كالتفريق بين الزوجين ونحوه وتلك زيادة شرّ آخر على الكاهن أدعى إلى فساد أذهان الناس وزيادة اعتقادهم فيه وانفعالهم عنه خوفاً ورغبةً ، وأما الكافر فيتميّز عن الساحر بالبعد الأكبر عن الله تعالى وعن دينه وإن شاركه في أصل الانحراف عن سبيل الله . وحينئذ صار الضلال والفساد في الأرض مشتركاً بين الأربعة إلّا أنه مقول عليهم بالأشد والأضعف فالكاهن أقوى في ذلك من المنجم ، والساحر أقوى من الكاهن ، والكافر أقوى من الساحر ، ولذلك التفاوت جعل عليه السلام الكاهن أصلاً في التشبيه للمنجم لزيادة فساده عليه ثم ألحقه به ، وجعل الساحر أصلاً للكاهن ، والكافر أصلاً للساحر . لأن التشبيه يستدعي كون المشبه به أقوى في الوصف الذي فيه التشبيه وأحق به .

وقد لاح من ذلك أن وجه الشبه في الكل هو ما يشتركون فيه من العدول والانحراف عن طريق الله بالتنجيم والكهانة والسحر والكفر وما يلزم من ذلك من صدّ كثير من الخلق عن سبيل الله وإن اختلفت جهات هذا العدول بالشدة والضعف كما بيّناه .

ولما فرغ عليه السلام من تنفير أصحابه عن تعلّم النجوم وقبول أحكامها وغسل أذهانهم من ذلك بالتخويف المذكور أمرهم بالمسير إلى الحرب . وروي : أنه سار في تلك الساعة إلى الخوارج ، وكان منه ما علمت من الظفر بهم وقتلهم حتى لم يفلت منهم غير تسعة أنفار ، ولم يهلك من رجاله غير ثمانية أنفار كما سبق بيانه ، وذلك يستلزم خطأ ذلك المنجم وتكذيبه في مقاله . وبالله التوفيق .

٧٧ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

بَعْدَ حَرْبِ ٱلْجَمَلِ فِي ذَمِّ ٱلنِّسَاءِ

مَعَاشِرَ ٱلنَّاسِ ! إِنَّ ٱلنِّسَاءَ نَوَاقِصُ ٱلإِيمَانِ ، نَوَاقِصُ ٱلْحُظُوظِ ، نَوَاقِصُ ٱلْعُقُولِ .

فَأَمَّا نُقْصَانُ إِيمَانِهِنَّ : فَقُعُودُهُنَّ عَنِ ٱلصَّلاَةِ وَٱلصِّيَامِ فِي أَيَّامِ حَيْضِهِنَّ . وَأَمَّا نُقْصَانُ عُقُولِهِنَّ : فَشَهَادَةُ ٱمْرَأَتَيْنِ كَشَهَادَةِ ٱلرَّجُلِ ٱلْوَاحِدِ . وَأَمَّا نُقْصَانُ حُظُوظِهِنَّ : فَمَوَارِيثُهُنَّ عَلَى ٱلأَنْصَافِ مِنْ مَوَارِيثِ ٱلرِّجَالِ . فَٱتَّقُوا شِرَارَ ٱلنِّسَاءِ ، وَكُونُوا مِنْ خِيَارِهِنَّ عَلَى حَذَرٍ ، وَلاَ تُطِيعُوهُنَّ فِي ٱلْمَعْرُوفِ ، حَتَّى لاَ يَطْمَعْنَ فِي ٱلْمُنْكَرِ .

أقول : لما كانت واقعة الجمل وما اشتملت عليه من هلاك جمع عظيم من المسلمين منسوباً إلى رأي امرأة أراد أن ينبّه على وجوه نقصان النساء وأسبابه فذكر نقصانهنّ من وجوه ثلاثة :

أحدها : كونهنّ نواقص الإيمان ، وأشار إلى جهة النقص فيه بقعود إحديهنّ عن الصلاة والصوم أيام الحيض ، ولما كان الصوم والصلاة من كمال الإيمان ومتممات الرياضة كان قعودهنّ عن الإرتياض بالصوم والصلاة في تلك الأيام نقصاناً لإيمانهن ، وإنما رفعت الشريعة التكليف عنهنّ بالعبادتين المذكورتين لكونهنّ في حال مستقذرة لا يتأهّل صاحبها للوقوف بين

يدي الملك الجبّار ، ويعقل للصوم وجه آخر وهو أنه يزيد الحائض إلى ضعفها ضعفاً بخروج الدم . وأسرار الشريعة أدق وأجل أن يطلع عليها عقول سائر الخلق .

الثاني : كونهنّ نواقص حظ ، وأشار إلى جهة نقصانه بأن ميراثهنّ على النصف من ميراث الرجال كما قال تعالى : ﴿ **يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين** ﴾[1] والذي يلوح من سر ذلك كثرة المؤونة على الرجل وهو أهل التصرف وكون المرأة من شأنها أن تكون مكفولة محتاجة إلى قيّم هو لها كالخادم .

الثالث : كونهنّ نواقص عقول . ولذلك سبب من داخل وهو نقصان استعداد أمزجتهنّ ، وقصورهنّ عن قبول تصرف العقل كما يقبله مزاج الرجل كما نبّه تعالى عليه بقوله : ﴿ **فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضلّ إحديهما فتذكر إحديهما الأخرى** ﴾[2] فإنه نبّه على ضعف القوة الذاكرة فيهنّ ، ولذلك جعل شهادة امرأتين بشهادة رجل واحد ، وله أيضاً سبب عارض من خارج وهو قلة معاشرتهنّ لأهل العقل والتصرفات وقلّة رياضتهنّ لقواهنّ الحيوانية بلزوم القوانين العقلية في تدبير أمر المعاش، والمعاد ولذلك كانت أحكام القوى الحيوانية فيهنّ أغلب على أحكام عقولهنّ فكانت المرأة أرق وأبكى وأحسد وألجّ وأبغى وأجزع وأوقح وأكذب وأمكر وأقبل للمكر وأذكر لمحقرات الأمور ولكونها بهذه الصفة اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون عليها حاكم ومدبّر تعيش بتدبيره وهو الرجل فقال تعالى : ﴿ **الرجال قوّامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم** ﴾[3]، ولشدة قبولها للمكر وقلة طاعتها للعقل مع كونها مشتركة وداعية إلى نفسها اقتضت أيضاً أن يسنّ في حقها التستر والتخدّر .

---

(١) ٤ - ١٢ .
(٢) ٢ - ٢٨٢ .
(٣) ٤ - ٣٨ .

وقوله : فاتقوا شرار النساء وكونوا من خيارهنّ على حذر .

لما نبه على جهة نقصانهنّ ، وقد علمت أن النقصان يستلزم الشر لا جرم نفر عنهنّ فأمر أولاً بالخشية من شرارهنّ ، وهو يستلزم الأمر بالهرب منهنّ وعدم مقاربتهنّ فأما خيارهنّ فإنه أمر بالكون منهنّ على حذر . ويفهم من ذلك أنه لا بد من مقاربتهن ، وكان الإنسان إنما يختار مقاربة الخيرة منهنّ فينبغي أن يكون معها على تحرّز وتثبت في سياستها وسياسة نفسه معها إذ لم تكن الخيرة منهنّ خيرة إلّا بالقياس إلى الشريرة ثم نهى عن طاعتهنّ بالمعروف كيلا يطمعن في المنكر ، وأشار به إلى طاعتهنّ فيما يشرن به ويأمرن مطلقاً وإن كان معروفاً صواباً ، وفيما يطلبنه من زيادة المعروف والإحسان إليهنّ وإكرامهنّ بالزينة، ونحوها فإنّ طاعة أمرائهنّ فيما يشيرون من معروف تدعوهنّ إلى الشور بما لا ينبغي ، والتسلّط على الأمر به فإن فعل فليفعل لأنه معروف لا لأنه مقتضى رأيهنّ . وزيادة إكرامهنّ من مقويات دواعي الشهوة والشر فيهنّ حتى ينتهي بهنّ الطمع إلى الاقتراح وطلب الخروج إلى المواضع التي يرى فيها زينتهنّ ونحو ذلك إذ العقل مغلوب فيهنّ بدواعي الشهوات. وفي المثل المشهور : لا تعط عبدك كراعاً فيأخذ ذراعاً .

وروي: أن رسول الله ﷺ كان يخطب يوم عيد فالتفت إلى صفوف النساء فقال : معاشر النساء تصدّقن فإني رأيتكنّ أكثر أهل النار عدداً . فقالت واحدة منهنّ : ولم يا رسول الله ؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم : لأنكنّ تكثرن اللعن ، وتكفرن العشير ، وتمكث إحديكنّ شطر عمرها لا تصوم ولا تصلي .

٧٨ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ! أَلزَّهَادَةُ : قِصَرُ ٱلْأَمَلِ ، وَٱلشُّكْرُ عِنْدَ ٱلنِّعَمِ ، وَٱلْوَرَعُ عِنْدَ ٱلْمَحَارِمِ . فَإِنْ عَزَبَ ذٰلِكَ عَنْكُمْ ، فَلَا يَغْلِبِ ٱلْحَرَامُ صَبْرَكُمْ ، وَلَا تَنْسَوْا عِنْدَ ٱلنِّعَمِ شُكْرَكُمْ ، فَقَدْ أَعْذَرَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ بِحُجَجٍ مُسْفِرَةٍ ، ظَاهِرَةٍ ، وَكُتُبٍ بَارِزَةِ ٱلْعُذْرِ ، وَاضِحَةٍ .

أقول : عزب : ذهب وبعد . وأعذر : أظهر عذره . ومسفرة : مشرقة .

واعلم أن قوله : أيها الناس . إلى قوله : عند المحارم . تفسير للزهد ، وقد رسمه بثلاثة لوازم له :

الأول : قصور الأمل . ولما علمت فيما سلف أن الزهد هو إعراض النفس عن متاع الدنيا وطيباتها وقطع الالتفات إلى ما سوى الله تعالى ظهر أن ذلك الإعراض مستلزم لقصر الأمل في الدنيا إذ كان الأمل إنما يتوجه نحو مأمول ، والمتلفت إلى الله من الدنيا كيف يتصور طول أمله لشيء منها .

الثاني : الشكر على النعمة . وذلك أن العبد بقدر التفاته عن أعراض الدنيا تكون محبته لله وإقباله عليه واعترافه الحق بآلائِهِ، وذلك أن الشكر حال للقلب يثمرها العلم بالمشكور وهو في حق الله أن يعلم أنه لا منعم سواه ، وأن كل منعم يقال في العرف فهو واسطة مسخرة من نعمته . وتلك الحال تثمر العمل بالجوارح .

الثالث : الورع وهو لزوم الأعمال الجميلة والوقوف على حدود عن التورط في محارمه وهو ملكة تحت العفة ، وقد علمت أن الوقوف على التورط في المحارم ولزوم الأعمال الجميلة لازمة للالتفات عن محاب الدنيا ولذاتها المنهي عن الميل إليها . وهذا التفسير منه عليه السلام مستلزم للأمر به .

وقوله : بعد ذلك : فإن عزب عنكم . إلى آخره يحتمل معنيين :

أحدهما : وهو الظاهر أنه إن بعد عليكم وشق استجماع هذه الأمور الثلاثة فالزموا منها الورع والشكر . وكأنه رخص لهم في طول الأمل ، وذلك أنه قد يتصور طوله فيما ينبغي من عمارة الأرض لغرض الآخرة ، ولأن قصر الأمل لا يصدر إلّا عن غلبة الخوف من الله تعالى على القلب والإعراض بالكلية عن الدنيا وذلك في غاية الصعوبة. فلذلك نبه على لزوم الشكر والورع ورخص في طول الأمل ، وفسر الورع بالصبر إذ كان لازماً للورع ، وهما تحت ملكة العفة ، ثم شجعهم بذكر الغلب عن مقاومة الهوى ،ونبّههم

بذكر النسيان على لزوم التذكر .

الثاني : يحتمل أن يكون لما فسّر الزهد باللوازم الثلاثة في معرض الأمر بلزومها قال بعدها : فإن صعب عليكم لزوم الشكر والثناء لله ولزوم الأعمال الجميلة فاعدلوا إلى أمور أسهل منها . فرخص لهم في طول الأمل لما ذكرناه ، ثم في التذكر لنعم الله بحيث لا ينسى بالكلية ويلتفت عنها عوضاً عن دوام الحمد والثناء ، ثم في الصبر عند المحارم وعند الانقهار لغلبة دواعي الشيطان عوضاً من لزوم الأعمال الجميلة عندها فإن الصبر عند شرب الخمر مثلاً عند حضورها أهون على الطبع من الصوم عن سائر المباحات حينئذ ولزوم سائر الأعمال الجميلة .

وقوله : فقد أعذر. إلى آخره .

تأكيد لما سبق من أمره بالزهد ، وجذب إليه . وأشار بالحجج إلى الرسل لقوله تعالى : ﴿ **رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل** ﴾[1]، ولفظ الحجج مستعار ، ووجه المشابهة أنه لما كان ظهور الرسل قاطعاً ألسنة حال الظالمين لأنفسهم في محفل القيامة عن أن يقولوا : ﴿ **ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتّبع آياتك من قبل أن نذلّ ونخزى** ﴾ [2] أشبه الحجة القاطعة فاستعير لفظها له ، وبإسفارها وظهورها إلى إشراق أنوار الدين عن نفوسهم الكاملة على نفوس الناقصين وهو استعارة أيضاً ، وأشار ببروز عذر الكتب إلى ظهورها أعذاراً لله إلى خلقه بتخويفهم وترغيبهم وإرشادهم إلى طريق النجاة ، وإسناد الأعذار إلى الله تعالى استعارة من الأقوال المخصوصة التي يبديها الإنسان عذراً لأفعال الله وأقواله التي عرّف خلقه فيها صلاحهم وأشعرهم فيها بلزوم العقاب لهم لو لم يلتفتوا إليها . وبالله التوفيق .

---

(١) ٤ - ١٦٣ .

(٢) ٢١ - ١٣٤ .

٧٩ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

فِي صِفَةِ ٱلدُّنْيَا

مَا أَصِفُ مِنْ دَارٍ أَوَّلُهَا عَنَاءٌ ، وَآخِرُهَا فَنَاءٌ ، فِي حَلاَلِهَا حِسَابٌ ، وَفِي حَرَامِهَا عِقَابٌ ، مَنِ ٱسْتَغْنَى فِيهَا فُتِنَ ، وَمَنِ ٱفْتَقَرَ فِيهَا حَزِنَ ، وَمَنْ سَاعَاهَا فَاتَتْهُ ، وَمَنْ قَعَدَ عَنْهَا وَاتَتْهُ، وَمَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصَّرَتْهُ ، وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتْهُ .

قال الشريف : أقول: وإذا تأمّل المتأمل قوله عليه السلام : « مَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصَّرتْهُ » ، وجد تحته من المعنى العجيب ، والغرض البعيد ، ما لا تبلغ غايته ، ولا يدرك غوره ، ولا سيما إذا قرن إليه قوله : « وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتْهُ » . فإنه يجد الفرق ، بين « أبصر بها » و«أبصر إليها» ، واضحاً نيراً ، وعجيباً باهراً .

أقول : العناء : التعب ؛ وقد ذكر للدنيا في معرض ذمها والتنفير عنها أوصافاً عشرة :

الأول : كون أولها عناء . وهو إشارة إلى أن الإنسان من لدن ولادته في تعب وشقاء ، ويكفي في الإشارة إلى متاعب الإنسان فيها ما ذكره الحكيم برزويه في صدر كتاب كليلة ودمنة في معرض تطويع نفسه بالصبر على عيش النساك : أو ليست الدنيا كلها أذى وبلاء ؟ أو ليس الإنسان يتقلّب في ذلك من حين يكون جنينا إلى أن يستوفي أيامه ؟ فإنّا قد وجدنا في كتب الطب أن الماء الذي يقدر منه الولد السوي إذا وقع في رحم المرأة اختلط بمائها ودمها وغلظ ثمَّ الريح تمحص ذلك الماء والدم حتى تتركه كالرائب الغليظ ثم تقسمه في أعضائه لآناء أيامه فإن كان ذكراً فوجهه قبل ظهر أمّه ، وإن كان أنثى فوجهها قبل بطن أمّها ، وذقنه على ركبتيه ويداه على جنبيه مقبض في المشيمة كأنه مصرور ، ويتنفس من متنفس شاق ، وليس منه عضو إلاّ كأنه مقموط ، فوقه حرّ البطن وتحته ما تحته ، وهو منوط بمعاء من سرته إلى سرة أمه منها يمص ويعيش من طعام أمّه وشرابها فهو بهذه الحالة في الغم

والظلمات والضيق حتى إذا كان يوم ولادته سلّط الله الريح على بطن أمه، وقوى عليه التحريك فتصوب رأسه قبل المخرج فيجد من ضيق المخرج وعصره ما يجده صاحب الرهق [الرمق خ] فإذا وقع على الأرض فأصابته ريح أو مسته يد وجد من ذلك من الألم ما لم يجده من سلخ جلده ثم هو في ألوان من العذاب إن جاع فليس له استطعام ، وإن عطش فليس له استقاء ، أو وجع فليس له استغاثة مع ما يلقى من الرفع والوضع واللفّ والحل والدّهن والمرخ ، إذا أنيم على ظهره لم يستطع تقلباً . فلا يزال في أصناف هذا العذاب ما دام رضيعاً . فإذا أفلت من ذلك أخذ بعذاب الأدب فأذيق منه ألواناً ، وفي الحمية والأدواء والأوجاع والأسقام . فإذا أدرك فهم المال والأهل والولد والشره والحرص ومخاطرة الطلب والسعي . وكل هذا يتقلّب معه فيها أعداؤه الأربعة : المرة والبلغم والدم والريح ، والسمّ المميت والحيات اللادغة مع خوف السباع والناس وخوف البرد والحر ثم ألوان عذاب الهرم لمن بلغه .

الثاني : كون آخرها فناء . هو تنفير عنها بذكر غايتها وهو الموت وما يستصحبه من فراق الأهل والأحبة ، والإشراف على أهوانه العظيمة المعضلة .

الثالث : كونها في حلالها حساب . وهو إشارة إلى ما يظهر في صحيفة الإنسان يوم القيامة من الآثار المكتوبة عليه بما خاض فيه من مباحات الدنيا ، وتوسع فيه من المآكل والمشارب والمناكح والمراكب ، وما يظهر في لوح نفسه من محبة ذلك فيعوقه عن اللحوق بالمجردين عنها الذين لم يتصرفوا فيها تصرف الملاك فلم يكتب عليه في شيء منها ما يحاسبون عليه . وإليه إشارة سيد المرسلين صلّى الله عليه وآله وسلم : إن الفقراء ليدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام ، وإن فقراء أمتي ليدخلون الجنة سعياً ، وعبد الرحمٰن يدخلها حبواً . وما ذاك إلّا لكثرة حساب الأغنياء بتعويقهم بثقل ما حملوا من محبة الدنيا وقيناتها عن اللحوق بدرجة المخفّين منها . وقد عرفت كيفية الحساب .

الرابع : كونها في حرامها عقـاب . وهو تنفيـر عما يـوجب العقاب من الآثام بذكره.

الخامس : كونها من استغنى فيها فتن : أي كانت محبته لما اقتنى فيها سبباً لفتنته وضلاله عن سبيل الله كما قـال تعالى : ﴿ **إنمـا أموالكم وأولادكم فتنة** ﴾[1].

السادس : كونها من افتقر فيها حزن . وظاهر أن الفقيـر الطالب للدنيـا غير الواجد لها في غاية المحنة والحزن على ما يفوته منها ، وخاصة مـا يفوتـه بعد حصوله له .

السابع : من ساعاهـا فاتتـه . وأقوى أسبـاب هذا الفـوات أن تحصيلها أكثر ما يكون بمنازعة أهلها عليها ومجاذبتهم إيّاها ، وقد علمت ثوران الشهوة والغضب والحـرص عند المجـاذبة للشيء وقـوة منع الإنسـان لـه . وتجـاذب الخلق للشيء وعـزته عنـدهم سبب لتفويت بعضهم لـه على بعض وفيه تنبيـه على وجوب ترك الحرص عليها والإعـراض عنها . إذ كـان فواتهـا اللازم عن شدة السعي في فضلها مكروهاً للسامعين .

الثامن : كونها من قعد عنها واتته. وهـو أيضاً جـذب إلى القعود عنهـا وتركها وإن كـان الغرض مـواتاتهـا كما يفعله أهـل الزهـد الظاهـري المشوب بالرياء ، وقد علمت أن الزهد الـظاهري مـطلوب أيضاً للشـارع إذ كان وسيلة إلى الزهد الحقيقي كما قال الـرسول صلى الله عليه وآله وسلم : الـرياء قنـطرة الإخلاص . وقـد راعى في القرائن السجع المتوازي .

التـاسع : من أبصـر بها بصـرته : أي من جعلهـا سبب هدايتـه وبصره استفاد منها البصر والهداية ، وذلك أنك علمت أن مقصود الحكمة الإلهية من خلق هـذا البـدن ومـا فيه من الآلات والمنـافـع إنمـا هـو استكمـال نفسـه بـاستخـلاص العلوم الكليـة وفضـائـل الأخـلاق من تصفـح جزئيـات الـدنيـا

---

(1) ٨ ـ ٢٨ .

ومقايسات بعضها إلى بعض كالاستدلال بحوادثها وعجائب مخلوقات الله فيها على وجوده وحكمته وجوده ، وتحصيل الهداية بها إلى أسرار ملكه فكانت سبباً مادياً لذلك فلأجله صدق أنها تبصر من أبصر بها .

العاشر : ومن أبصر إليها أعمته : أي من مدّ إليها بصر بصيرته ، وتطلع إليها بعين قلبه محبة وعشقاً أعمت عين بصيرته عن إدراك أنوار الله والاهتداء لكيفية سلوك سبيله . وإليه الإشارة بالنهي في قوله تعالى : ﴿ **ولا تمدنّ عينيك إلى ما متّعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه** ﴾[1] وقد ظهر الفرق بين قوله : من أبصر بها ، ومن أبصر إليها ، ومدح السيد لهذا الفصل مدح في موضعه .

٨٠ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

وَهِيَ مِنَ ٱلْخُطَبِ ٱلْعَجِيبَةِ ، وَتُسَمَّى : ٱلْغَرَّاءَ

اعلم أن في هذه الخطبة فصولاً :

الفصل الأول قوله :

أَلْحَمْدُ للَّهِ ٱلَّذِي عَلَا بِحَوْلِهِ ، وَدَنَا بِطَوْلِهِ ، مَانِحِ كُلِّ غَنِيمَةٍ وَفَضْلٍ ، وَكَاشِفِ كُلِّ عَظِيمَةٍ وَأَزْلٍ . أَحْمَدُهُ عَلَى عَوَاطِفِ كَرَمِهِ ، وَسَوَابِغِ نِعَمِهِ ، وَأُومِنُ بِهِ أَوَّلاً بَادِياً ، وَأَسْتَهْدِيهِ قَرِيباً هَادِياً ، وَأَسْتَعِينُهُ قَادِراً قَاهِراً ، وَأَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ كَافِياً نَاصِراً .

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، أَرْسَلَهُ لإِنْفَاذِ أَمْرِهِ ، وَإِنْهَاءِ عُذْرِهِ ، وَتَقْدِيمِ نُذُرِهِ .

أقول : الحول : القوة . الطول : الفضل . والمنحة : العطية . والأزل : الشدة . والنذر : النذارة .

---

(١) ٢٠ ـ ١٣١ .

وقد أثنى على الله تعالى في هذا الفصل باعتبارات أربعة من نعوت جلاله :

الأول : كونه علياً، وإذ ليس المراد به العلو المكاني لتقدسه تعالى عن الجسمية كما سبق فالمراد العلو المعقول له باعتبار كونه مبدأ كل موجود ومرجعه فهو العلي المطلق الذي لا أعلى منه في وجود وكمال رتبة وشرف كما سبق بيانه ، ولما عرفت أن معنى الدنو إلى كل موجود صدر عن قدرته وقوته لا جرم جعل للحوقه له مبدءاً هو حوله .

الثاني : كونه دانياً بطوله. ولما عرفت أن معنى الدنو والقرب في حقه تعالى ليس مكانياً أيضاً كان اعتباراً تحدثه عقولنا له من قرب إفاضة نعمه على قوابلها وقربه من أبصار البصائر في صورة نعمة نعمة منها ولذلك جعل طوله مبدءاً لدنوه.

الثالث : كونه مانح كل غنيمة وفضل .

الرابع : كونه كاشف كل عظيمة وأزل . هما إشارة إلى كل نعمة صدرت عنه على قابلها فمبدؤها جوده ورحمته سواء كانت وجودية كالصحة والمال والعقل وغيرها أو عدمية كدفع البأساء والضراء، وإليه الإشارة بقوله : **﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ثم إذا كشف الضر عنكم ﴾**[1] الآية . وقوله : **﴿ أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ﴾**[2].

وقوله : أحمده . إلى قوله : نعمه .

تنبيه للسامعين على مبدأ استحقاقه لاعتبار الحمد ، وهو كرمه . قال بعض الفضلاء : الكريم هو الذي إذا قدر عفا ، وإذا وعد وفا ، وإذا أعطى زاد على منتهى الرجاء ولم يبال كم أعطى ولا لمن أعطى ، وإن رفع إلى غيره

---

(١) ١٦ ـ ٥٥.

(٢) ٢٧ ـ ٦٢.

حاجة لا يرضى ، وإذا جفي عاتب وما استقصى ، ولا يضيع من لاذ به والتجأ ويغنيه عن الوسائل والشفعاء . فمن اجتمعت له هذه الاعتبارات حقيقة من غير تكلّف فهو الكريم المطلق . وليس ذلك إلّا الله تعالى. قلت : والأجمع الأمنع في رسم هذا الاعتبار يعود إلى فيضان الخير عنه من غير بخل ومنع وتعويق على كل من يقدر أن يقبله بقدر ما يقبله . وعواطف كرمه هي نعمه وآثاره الخيرية التي تعود على عباده مرة بعد أخرى ، وسوابغ نعمه السابغة التي لا قصور فيها عن قبول قابلها .

وقوله : وأُومن به أولاً بادياً .

نصب أوّلاً بادياً على الحال ، وأشار بهذين الوصفين إلى الجهة التي هي مبدأ الإيمان إذ كان منه باعتبار كونه أولاً هو مبدءاً لجميع الموجودات ، وكونه بادياً هو كونه ظاهراً في العقل في جميع آثاره . فباعتبار ظهوره مع كونه مبدءاً لكل موجود وأولاً له يجب الإيمان به والتصديق بإلهيّته .

وقوله : وأستهديه قريباً هادياً .

فاستهداؤه طلب الهداية منه ، وقربه هو دنوه بجوده من قابل فضله ، وهدايته هبته الشعور لكل ذي إدراك بما هو أليق به ليطلبه دون ما ليس أليق به . وظاهر أنه باعتبار هذين الوصفين مبدأ لطلب الهداية منه .

وقوله : وأستعينه قاهراً قادراً .

استعانته طلب المؤونة منه على ما ينبغي من طاعته وسلوك سبيله ، والقاهر هو الذي لا يجري في ملكه بخلاف حكمه نفس ؛ بل كل موجود مسخّر تحت حكمه وقدرته وحقير في قبضته ، والقادر هو الذي إذا شاء فعل وإذا لم يشأ لم يفعل وإن لم يلزم أنه لا يشأ فلا يفعل كما سبق بيانه . وظاهر أنه باعتبار هذين الوصفين مبدأ للاستعانة .

وقوله : وأتوكل عليه كافياً ناصراً .

التوكل كما علمت يعود إلى اعتماد الإنسان فيما يرجو أو يخاف على

غيره ، والكافي اعتبار كونه معطياً لكل قابل من خلقه ما يكفي استحقاقه من منفعة ودفع مضرة ، والناصر هو اعتبار إعطائه النصر لعباده على أعدائهم بإفاضة هدايته وقوته . وظاهر أنه تعالى باعتبار هذين الوصفين مبدأ لتوكل عباده عليه وإلقاء مقاليد أمورهم إليه .

وقوله : وأشهد . إلى آخره .

تقرير للرسالة وتعيين لأغراضها وذكر منها ثلاثة :

أحدها: إنفاذ أمره. والضمائر الثلاثة لله. وإنفاذ أمره إجراؤه لأحكامه على قلوب الخلق ليقرّوا بالعبودية له .

الثاني : إنهاء عذره في أقواله وأفعاله . وقد سبق بيان وجه استعارة العذر .

الثالث : تقديم نذره وهو التخويفات الواردة على ألسنة الرسل عليهم السلام إلى الخلق قبل لقائه الجاذبة لهم إلى لزوم طاعته . وظاهر كون الثلاثة أعراضاً للبعثة .

الفصل الثاني : قوله :

أُوصِيكُمْ عِبَادَ ٱللَّهِ بِتَقْوَى ٱللَّهِ ٱلَّذِي ضَرَبَ لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ، وَوَقَّتَ لَكُمُ الآجَالَ ، وَأَلْبَسَكُمُ ٱلرِّيَاشَ، وَأَرْفَغَ لَكُمُ: ٱلْمَعَاشَ، وَأَحَاطَكُمْ بِالْإِحْصَاءِ ، وَأَرْصَدَ لَكُمُ ٱلْجَزَاءَ ، وَآثَرَكُمْ بِالنِّعَمِ ٱلسَّوَابِغِ ، وَٱلرِّفَدِ ٱلرَّوَافِغِ ، وَأَنْذَرَكُمْ بِالْحُجَجِ ٱلْبَوَالِغِ ، وَأَحْصَاكُمْ عَدَداً ، وَوَظَّفَ لَكُمْ مُدَداً ، فِي قَرَارِ خِبْرَةٍ ، وَدَارِ عِبْرَةٍ أَنْتُمْ مُخْتَبَرُونَ فِيهَا ، وَمُحَاسَبُونَ عَلَيْهَا .

أقول : الرياش : اللباس الفاخر . وقيل : الغنى بالمال . وأرصد : أعدّ . والرفد : جمع رفدة وهي العطية . والروافغ : الواسعة الطيبة .

هذا الفصل مشتمل على الوصية بتقوى الله وخشيته والانجذاب إليه باعتبار أمور : الأول : ضرب الأمثال . والأمثال التي ضربها الله لعباده في

القرآن كثيرة منها : قوله تعالى : **﴿ كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم ﴾** إلى قوله **﴿ يرجعون ﴾**(١) والإشارة بهذا المثل إلى من كان قد طلب المعجزات من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. فلما ظهرت لهم لم يقبلوها ورجعوا إلى ظلمة جهلهم فهم صمّ عن سماع دواعي الله بآذان قلوبهم ، بكم عن مناجاة الله بأسرارهم ، عمي عن مشاهدة أنوار الله بإبصار بصائرهم فهم لا يرجعون عن تماديهم في غيّهم وكفرهم .

ومنها : قوله : **﴿ أو كصيب من السماء ﴾** إلى قوله : **﴿ قاموا ﴾** وهو مثل شبّه فيه القرآن بالمطر نزل من السماء ، وشبّه ما في القرآن من الوعد والوعيد بما في المطر من الرعد والبرق ، وشبّه تباعد المنافقين عن الإصغاء إلى القرآن وتغافلهم عن سماع الوعظ بمن يجعل أصابعه في آذانه خوف الصواعق ، وقوله : يكاد البرق . إلى آخره. إشارة إلى من كان يرق قلبه بسماع الوعظ البالغ إذا قرعه ويميل إلى التوبة ويتجلى عن قلبه بعض الظلمة فإذا رجعوا إلى قرنائهم أشاروا عليهم بالعود إلى دنياهم وبذلوا لهم الجهد في النصيحة وخوفوهم بالعجز فتضعف قصودهم ، وتظلم عليهم شبهات الباطل فتغطي ما كان ظهر لهم من نور الحق . وكذلك باقي أمثال الله في كتابه الكريم .

الثاني : قوله : ووقّت لكم الآجال : أي كتبها بقلم القضاء الإلهي في اللوح المحفوظ كل إلى أجل مسمى ثم يرجع إليه فيحاسبه بإعلانه وإسراره . فبالحري أن يتقيه ويعمل للقائه .

الثالث : كونه قد ألبسهم الرياش . وهو إظهار للمنّة عليهم كما قال : **﴿ يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشا ولباس التقوى ﴾**(٢) الآية . ليذكروا أنواع نعمه فيستحيوا من مجاهرته بالمعصية .

---

(١) ٢ - ١٦ .
(٢) ٧ - ٢٥ .

الرابع : كونه قد أرفغ لهم المعاش : أي أطاب معايشهم في الدنيا كما قال تعالى ﴿ **ورزقكم من الطيبات** ﴾ ، وهو كالثالث .

الخامس : إحاطته بهم إحصاءاً كقوله تعالى : ﴿ **لقد أحصيهم وعدّهم عداً** ﴾ أي أحاط بهم علمه . وإحصاءاً منصوب على المصدر من غير لفظ فعله ، أو على التمييز . وظاهر أن علم العصاة بأنه لا يشذّ أحد منهم عن إحاطة علمه جاذب لهم إلى تقواه .

السادس : كونه قد أرصد لهم الجزاء . كقوله : ﴿ **من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ومن جاء بالسيّئة فكبّت وجوههم في النار هل تجزون إلاّ ما كنتم تعملون** ﴾[1] .

السابع : إيثارهم بالنعم السوابغ والرفد الروافغ . كقوله تعالى : ﴿ **وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة** ﴾[2] .

الثامن : إنذارهم بالحجج البوالغ . وهي رسله ومواعظه وسائر ما جذب به عباده إلى سلوك سبيله ، وهو حجة على عصاة أمره أن يقولوا يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين .

التاسع : إحصاؤه لعددهم كقوله تعالى : ﴿ **وأحصى كل شيء عددا** ﴾ .

العاشر : توظيفه لهم المدد ، وهو كتوقيته لهم الآجال ، وإنما كرر وصف الإحصاء والعدّ وهذين الوصفين أيضاً لأن الوهم كثيراً ما ينكر إحاطته تعالى بالجزئيات مع عدم تناهيها فيكون ذلك مشبّهاً على النفس توقيت الآجال لكل شخص شخص، ويقدح في أمر المعاد والعقوبات اللازمة لكل آحاد الخلق بحسب كل ذرة من الأعمال الطالحة فكررهما طرداً للوهم وكسراً لحكمه ، ولأن ذكر توقيت الآجال من أشد الجواذب عن الدنيا إلى الله .

---

(1) ٢٧ـ ٩١ .
(٢) ٣١ـ ٩١ .

وقوله : في قرار خبرة ودار عبرة : أي محل اختبار الله خلقه ومحل عبرتهم : أي انتقال أذهانهم فيما تجري فيها من آيات العبرة وآثار القدرة . والاستدلال بها على وحدانية مبدعها كما سبقت الإشارة إلى معنى الاختيار والاعتبار وكذلك قوله : فأنتم فيها مختبرون وعليها محاسبون قد سبقت الاشارة إليه في قوله : ألا وإن الدنيا دار لا يسلم منها إلاّ فيها . وفي هذين القرينتين مع السجع المتوازي نوع من التجنيس بين خبرة وعبرة . والاختلاف بالحرف الأول .

الفصل الثالث قوله :

فَإِنَّ ٱلدُّنْيَا رَنِقٌ مَشْرَبُهَا ، رَدِغٌ مَشْرَعُهَا ، يُونِقُ مَنْظَرُهَا ، وَيُوبِقُ مَخْبَرُها : غُرُورٌ حَائِلٌ وَضَوْءٌ آفِلٌ ، وَظِلٌّ زَائِلٌ ، وَسِنَادٌ مَائِلٌ ، حَتَّى إِذَا أَنِسَ نَافِرُهَا ، وَٱطْمَأَنَّ نَاكِرُهَا ، قَمَصَتْ بِأَرْجُلِهَا ، وَقَنَصَتْ بِأَحْبُلِهَا ، وَأَقْصَدَتْ بِأَسْهُمِهَا ، وَأَعْلَقَتِ ٱلْمَرْءَ أَوْهَاقَ ٱلْمَنِيَّةِ ، قَائِدَةً لَهُ إِلَى ضَنْكِ ٱلْمَضْجَعِ ، وَوَحْشَةِ ٱلْمَرْجِعِ ، وَمُعَايَنَةِ ٱلْمَحَلِّ ، وَثَوَابِ ٱلْعَمَلِ ، وَكَذَٰلِكَ ٱلْخَلَفُ يَعْقُبُ ٱلسَّلَفَ ، لَا تُقْلِعُ ٱلْمَنِيَّةُ ٱخْتِرَاماً ، وَلَا يَرْعَوِي ٱلْبَاقُونَ ٱجْتِرَاما ، يَحْتَذُونَ مِثَالاً ، وَيَمْضُونَ أَرْسَالاً ، إِلَى غَايَةِ ٱلْإِنْتِهَاءِ ، وَصَيُّورِ ٱلْفَنَاءِ .

قوله : الرنق : الكدر. والردغ : الوحل والتراب المختلط بالماء . ويونق : يعجب . ويوبق : يهلك . وغرور : خدعة مستغفلة للأذهان . والحائل : المنتقلة المحتولة . وقمصت الدابة : رفعت يديها وطرحتهما وعجنت برجليها . وقنصت : صادت . وأقصدت : أصابت القصد . والأوهاق : جمع وهق بالفتح وهو الحبل . والضنك : الضيق . وأقلع عن الشيء : امتنع منه. والاخترام : الموت دون المدة الطبيعية . وارعوى : كفّ ورجع. وحذا حذو فلان : فعل فعله . وأرسال : جمع رسل بالفتح وهو القطيع من الغنم يتبع القطيع . وصيّور الأمر : ما يرجع إليه منه .

ومدار هذا الفصل على التنفير عن الدنيا بذكر معائبها وما يؤول إليه ، وذكر لها أوصافاً :

الأول : كونها رنق مشربها . وهو كناية عن كدر لذاتها بشوائب المصائب من الهموم والأحزان والأعراض والأمراض .

الثاني : كونها ردغ مشرعها . ومشرعها محل الشروع في تناولها والورود في استعمالها ، وكونه ردغاً وصف للطريق المحسوس استعير له . ووجه المشابهة كون طريق الإنسان في استعمال الدنيا والتصرف فيها ذات مزالق ومزال أقدام تهوى به إلى جهنم لا يثبت فيها إلاّ قدم عقل قد جهد في ضبط قواه وقهر سطوة شياطينه. كما أن الطريق ذات الوحل كذلك، وهو من لطائف إشاراته عليه السلام .

الثالث : كونها يونق منظرها ، ويوبق مخبرها . وهو إشارة إلى إعجابها لذوي الغفلة بزينتها الحاضرة مع هلاكهم باختبارها وذوقهم لحلاوتها وغرض الإلتذاذ بها .

الرابع : كونها غروراً حائلاً . يروى بفتح الغين وضمها . ومعنى الأول ذات غرور : أي تغرّ الخلق بزخارفها فيتوهمون بقاءها ثم تنتقل عنهم وتحوّل ، ومن روى بالضم جعلها نفسها غروراً : والغرور يطلق على ما يغتر به حقيقة عرفيّة .

الخامس :كونها ضوءاً آفلا استعار لفظ الضوء لما يظهر منها من الحسن في عيون الغافلين يقال على فلان ضوء : أي له منظر حسن ، أو لما ظهر لهم من وجوه مسالكها فاهتدوا به إلى تحصيلها ومداخلها ومخارجها . وعلى التقديرين فهوضوءاً آفل لا يدوم . ولفظ الأفول أيضاً مستعار .

السادس : وظل زائل . استعار لفظ الظل لما يأوي إليه الإنسان من نعيمها فيستظل به من حرارة بؤسها . وظاهر كونه زائلاً .

السابع : كونه سناداً مائلاً . استعارة أيضاً للفظ السناد فيما يعتمد الغافلون عليه من قيناتها وخيراتها التي لا أصل لها، ولا ثبات بل هي كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ، وذكر الميل ترشيح للاستعارة .

الثامن : كونها تغرّ الناس بضوئها وظلها وبهجة منظرها إلى غاية أن يستأنس بها من كان بعقله نافراً عنها ويطمئن إليها من كان بمقتضى فطرته منكراً لها حتى إذا كان ذلك منه طوعاً لها فعلت به أفعال العدو الخدوع ، ونسب إليها من الأفعال أموراً :

أحدها : قمصها بالأرجل . واستعار لفظ القمص لامتناعها على الإنسان حين حضور أجله كأنها تدفعه برجليها مولية عنه كما تفعل الدابة ، ورشح بذكر الأجل . وإنما جمع لاعتبار اليدين مع الرجلين ، وذكره بلفظ الرجلين لأن القمص إليها أنسب .

الثاني : قنصها له بأحبلها . وهو كناية عن تمكن حبائل محبتها . والهيئات الرديئة المكتسبة منها في عنق نفسه كناية بالمستعار .

الثالث : كونها أقصدت له بأسهمها . واستعار لفظ الاسهم للأمراض وأسباب الموت ، وإقصادها كناية عن إصابتها بالمستعار لأوصاف الرامي تنزيلاً للدنيا منزلته .

الرابع : كونها أعلقته حبال المنية . وحبالها استعارة لما تجذب به إلى الموت من سائر أسبابه أيضاً ، وكذلك لفظ القائد استعارة كنى بها عن انسياق المريض في حبال مرضه الحاصل فيها إلى الأمور المذكورة من ضنك المضطجع، وهو القبر ووحشة المرجع ، وهو إشارة إلى ما تجده النفوس الجاهلة عند رجوعها من وحشة فراق ما كان محبوباً لها في الدنيا ، وما كانت الفتنة من مال وأهل وولد . وهي استعارات لأوصاف الصائد تنزيلاً للدنيا منزلته ومعاينة المحل : أي مشاهدة الآخرة التي هي محل الجزاء . وثواب العمل : أي جزاؤه من خير أو شر .

وقوله : وكذلك الخلف . إلى آخره .

أي على الأحوال المذكورة للدنيا مضى الخلق يتبع خلفهم من سلف منهم لا المنية تقصر عن اخترام نفوسهم ولا الباقون منهم يرجعون عما هم عليه من ارتكاب الجرائم فيها والغرور بها. بل يقتدون بأمثالهم الماضين في

ذلك ويمضون عليه اتباعاً إلى غاية مسيرهم بمطايا الأبدان ومصير أمرهم وهو الفناء والعرض على الملك الديّان . وقد راعى أيضاً مع السجع التجنيس في قوله : يونق ويوبق ، ونافرها وناكرها ، وقمصت وقنصت ، والاختلاف بحرف الوسط . وبالله التوفيق .

الفصل الرابع : في الإشارة إلى ما يلحق الناس بعد الموت من أحوال القيامة تذكيراً لهم قوله :

حَتَّى إِذَا تَصَرَّمَتِ ٱلْأُمُورُ ، وَتَقَضَّتِ ٱلدُّهُورُ ، وَأَزِفَ ٱلنُّشُورُ أَخْرَجَهُمْ مِنْ ضَرَائِحِ ٱلْقُبُورِ ، وَأَوْكَارِ ٱلطُّيُورِ ، وَأَوْجِرَةِ ٱلسِّبَاعِ ، وَمَطَارِحِ ٱلْمَهَالِكِ ، سِرَاعاً إِلَى أَمْرِهِ ، مُهْطِعِينَ إِلَى مَعَادِهِ ، رَعِيلاً صُمُوتاً ، قِيَاماً ، صُفُوفاً ، يَنْفُذُهُمُ ٱلْبَصَرُ ، وَيُسْمِعُهُمُ ٱلدَّاعِي ، عَلَيْهِمْ لَبُوسُ ٱلْإِسْتِكَانَةِ ، وَضَرَعُ ٱلْإِسْتِسْلَامِ وَالذِّلَّةِ . قَدْ ضَلَّتِ ٱلْحِيَلُ ، وَٱنْقَطَعَ ٱلْأَمَلُ ، وَهَوَتِ ٱلْأَفْئِدَةُ كَاظِمَةً ، وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ مُهَيْنِمَةً ، وَأَلْجَمَ ٱلْعَرَقُ ، وَعَظُمَ ٱلشَّفَقُ ، وَأُرْعِدَتِ ٱلْأَسْمَاعُ لِزَبْرَةِ ٱلدَّاعِي إِلَى فَصْلِ ٱلْخِطَابِ ، وَمُقَايَضَةِ ٱلْجَزَاءِ ، وَنَكَالِ ٱلْعِقَابِ ، وَنَوَالِ ٱلثَّوَابِ .

أقول : تصرّمت: تقضّت . وأزف : دنا . والضرائح : جمع ضريح . وهو الشق في وسط القبر . وأوكار الطيور : أعشاشها . وأوجرة : جمع وجار وهو بيت السبع . مهطعين : مقبلين . ورعيلاً : مجتمعين . اللبوس : ما يلبس . والضرع : الخضوع والانكسار . وكاظمة : ساكنة . والهينمة : صوت خفي . وألجم العرق : بلغ الفم فصار كاللجام . والشفق : الإشفاق وهو الخوف . والزبرة : الانتهار. والمقايضة : المعاوضة . والنكال : تنويع العقوبة .

واعلم أنه قد تطابقت ألسنة الأنبياء والرسل عليهم السلام على القول بالمعاد الجسماني ، ونطق به الكتاب العزيز كقوله تعالى : ﴿ **يوم يخرجون من**

الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ﴾[1] الآية . ونحوه، واتفق المسلمون على القول به .

وأما الحكماء فالمشهور من مذهبهم منع المعاد الجسماني بناء على أن المعدوم لا يعاد بعينه لامتناع عود أسبابه بأعيانها من الوقت والدورة الفلكية المعينة وغيرهما. وربما قال بعض حكماء الإسلام بجواز عود المثل، وربما قلّد بعضهم ظاهر الشريعة في أمر المعاد الجسماني وإثبات السعادة والشقاوة البدنية مع الروحانية ، وقال الرئيس أبو علي ابن سينا في كتاب الشفاء ما هذه إلا حكاية ألفاظه :

« يجب أن يعلم أن المعاد منه ما هو المقبول من الشرع ولا سبيل إلى إثباته إلّا من طريق الشريعة وتصديق خبر النبوة وهو الذي للبدن عند البعث وخيرات البدن وشروره معلومة لا تحتاج أن تعلم . وقد بسطت الشريعة الحقة التي أتانا بها سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وآله وسلم حال السعادة والشقاوة اللتين بحسب البدن ، ومنه ما هو مدرك بالعقل والقياس البرهاني ، وقد صدقته النبوة وهو السعادة، والشقاوة البالغتان الثابتتان بالمقاييس اللتان للأنفس، وإن كانت الأوهام منّا تقصر عن تصورها الآن لما توضح من العلل ، والحكماء الإلهيون رغبتهم في إصابة هذه السعادة أعظم من رغبتهم في إصابة السعادة البدنية . بل كأنهم لا يلتفتون إلى تلك وإن أعطوها ولا يستعظمونها في جنبة هذه السعادة التي هي مقاربة الحق الأول ».

واعلم أن الذي ذكره عليه السلام هنا صريح في إثبات المعاد الجسماني ولواحقه .

فقوله : أخرجهم من ضرائح القبور وأوكار الطيور وأوجرة السباع ومطارح المهالك .

إشارة إلى جمعه لأجزاء أبدان الناس بعد تشذّبها وتفرقها فيخرج من

(1) ٧٠ - ٤٣ .

كان قبر من ضريح قبره ومن كان أكيل طير أو سبع أو مقتولاً في مطرح الهلاك من معركة الحرب أو غيرها أخرجه من ذلك المكان وجمع أجزاءه وألّف بينها .

فإن قلت : إذا أكل إنسان إنساناً واغتذى به فصارت أجزاء بدنه أجزاء بدن آكله فكيف يمكن إعادتهما لأن تلك الأجزاء في أي بدن منهما أُعيدت لزم نقصان الآخر وبطلانه .

قلت : مذهب محققي المتكلمين أن في كل بدن واحد أجزاء أصلية باقية من أول العمر إلى آخره لا تتغيّر ولا تتبدل ، وأجزاء فضلية فإذا أُعيدا يوم القيامة فما كان أصلياً من الأجزاء لبدن المأكول فهو فضلي لبدن الآكل فيردّ إليه من غير أن ينقص من الأجزاء الأصلية للآكل شيء ولا عبرة بالفاضلة ، وباقي الفصل غني عن البيان ، وقال بعض الفضلاء: إنه ربما احتملت هذه الألفاظ أن يسلّط عليها من التأويل ما يناسب مذهب القائلين بالمعاد الروحاني .

فقوله : حتى إذا تصرمت الأمور .

أي أحوال كل واحد من الخلق في الدنيا .

وقوله : وتقضّت الدهور .

أي انقضت مدة كل شخص منهم .

وقوله : وأزف النشور .

أي دنا انتشار كل واحد في عالم الآخرة من قبور الأبدان .

وقوله : أخرجهم من ضرائح القبور .

استعار لفظة القبور للأبدان وضرائحها ترشيح للاستعارة . ووجه المشابهة أن النفس تكون منغمسة في ظلمة البدن وكدر الحواس متوحشة عن عالمها كما أن المقبور متوهم لظلمة القبر ووحشته، منقطع عن الأهل والمال . وضمير المخرج يعود إلى الله في صدر الخطبة .

وقوله : وأوكار الطيور .

فاعلم أن العارفين وأهل الحكمة كثيراً ما يستعيرون لفظ الطير وأوصافه للنفس الناطقة، وللملائكة كما أشار إليه سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم في قوله : حتى إذا حمل الميت على نعشه رفرفت روحه فوق النعش ، ويقول : يا أهلي ويا ولدي لا تلعبنّ بكم الدنيا كما لعبت بي . والرفرفة إنما تكون لذي الجناح من الطير ، وكما جاء في التنزيل الإلهي في وصف الملائكة ﴿ أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع ﴾ وكما أشار إليه أبو علي في قصيدة أولها :

هبطت إليك من المكان الأرفع   ورقاء ذات تعزز وتمنع

وأشار بالورقاء إلى النفس الناطقة ، وكما أشار إليه في رسالته المسماة برسالة الطير بقوله : برزت طائفة تقنص فنصبوا الحبال ورتّبوا الشرك وهيأوا الطعم ، وتواروا في الحشيش وأنا في سربة طير . ونحوه . ووجه المشابهة في هذه الاستعارة ما تشترك فيه النفس والطير من سرعة التصرف والانتقال فالنفس بانتقال عقلي ، والطير بانتقال حسي وإذا استعير لفظ الطير للنفس فبالحري أن يستعار لفظ الوكر للبدن لما بينهما من المشاركة وهو كونهما مسكناً لا تسهل مفارقته .

وقوله : وأوجرة السباع .

إستعارة للأبدان أيضاً. والسباع إشارة إلى النفوس المطيعة لقواها الغضبية التي شأنها محبة الغلبة والانتقام كما أن السبع كذلك .

وقوله : ومطارح المهالك .

إشارة إلى الأبدان أيضاً فإنها مطارح مهالك الغافلين الذين اتبعوا الشهوات أعني أبدانهم.

وقوله : سراعاً إلى أمره .

نصب على الحال بقوله : أخرجهم ، وكذلك ما بعده من المنصوبات . وأمره هو حكم قضائه الأزلي عليهم بالرجوع إليه ، وعودهم

إلى مبدئهم وسرعتهم إليه إشارة إلى قرب وصولهم وهو في آن انقطاع علاقة النفس مع البدن وهو على غاية من السرعة .

وقوله : مهطعين إلى معاده .

إشارة إلى إقبال النفوس بوجوهها على محل عودها وما أعدّ لها فيه من خير وشر .

وقوله : رعيلاً .

إشارة إلى اجتماعهم في حكم الله وقبضته ومحل الاستحقاق لثوابه وعقابه .

وقوله : صموتا .

إذ لا ألسنة لهم إذن ينطقون بها ، ويحتمل أن يكون الصمت كناية عن خضوعهم وانقيادهم في ذلّ الحاجة وهيبة الجلال .

وقوله : قياماً صفوفاً .

فقيامهم استعارة لاستشعار النفوس هيبة الله لعظمته ، وقيامها بتصور كماله على مساق العبودية وذلّ الإمكان ، وصفوفاً استعارة لانتظامهم إذن في سلك علمه تعالى إذ الكل بالنسبة إلى علمه على سواء كما يستوي الصف المحسوس ، ويحتمل أن يكون الصف استعارة لترتبهم في القرب إلى الله تعالى متنازلين متصاعدين .

وقوله : ينفذهم البصر .

إشارة إلى علمه تعالى بهم .

وقوله : ويسمعهم الداعي .

فالداعي هو حكم القضاء عليهم بالعود ، وإسماعهم : عموم ذلك الحكم لهم بحيث لا يمكن أن يخرج عنه منهم أحد .

وقوله : عليهم لبوس الاستكانة وضرع الاستسلام والذلة .

إشارة إلى حالهم التي يخرجون من الأجداث عليها من ذلّ الإمكان ورق الحاجة والخوف في قبضة الله وهو كقوله تعالى : ﴿ **يوم يدع الداع إلى شيء نكر خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث** ﴾[1] .

وقوله : قد ضلّت الحيل .

أي حيل الدنيا . فلا حيلة لهم في الخلاص مما هم فيه كما كانوا يخلصون بحيل الدنيا من بعض شرورها ، وانقطع الأمل : أي أملهم فيها لامتناع عودهم إليها وانقطاع طمعهم في ذلك .

وقوله : وهوت الأفئدة كاظمة .

أي سقطت النفوس في حضيض الذل والفاقة إلى رضا الله وعفوه ، ولفظ الكظم مستعار كما سبق .

وقوله : وخشعت الأصوات . هو كقول الله : ﴿ **وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلّا همساً** ﴾ وهو إشارة إلى سؤالهم بلسان حالهم عفو الله ورحمته على وجه الذلة والضعف ورقّ العبودية في ملاحظة جلال الله .

وقوله : وألجم العرق وعظم الشفق .

استعار لفظ العرق وكنى به عن غاية ما تجده النفس من كرب ألم الفراق وهيبة الله وعدم الأنس بعد الموت إذ غاية الخائف التاعب أن يعرق ويشفق من نزول العقاب به . ونسبة الإلجام إلى العرق نسبة مجازيّة .

وقوله : وأُرعدت الأسماع لزبرة الداعي .

إشارة إلى ما تجده النفس عند تيقنها المفارقة . واستعار لفظ الزبرة لقهر حكم القضاء للأنفس على مرادها قهراً لا يتمكن معه من الجواب بالامتناع ، وفصل الخطاب هو إمضاء أحكام الله على نفوس عباده عند الرجوع إليه بتوفيه مالها ، واستيفاء ما عليها . ومقايضة الجزاء : معاوضتها

---

(١) ٥٤ ـ ٦ .

بما أتت به . إما من الملكات الرديئة فبنكال العقاب ، وإما من الملكات الفاضلة فبنوال الثواب ، وهبة كل بقدر استعداده وقبوله . واعلم أن العدول إلى المجازات والاستعارات عن حقائق الألفاظ وإلى التأويل عن الظواهر إنما يجوز خصوصاً في كلام الله ، وكلام رسوله وأوليائه إذا عضده دليل عقلي يمنع من إجراء الكلام على ظاهره . ولما اعترف القوم بجواز المعاد الجسماني تقليداً للشريعة ولم يقم دليل عقلي يمنع منه لم يمكننا الجزم إذن بصحة هذه التأويلات وأمثالها . وبالله التوفيق والعصمة .

الفصل الخامس : في تنبيه الخلق على أوصاف حالهم المنافية لما هم عليه من التجبّر والإعراض عما خلقوا لأجله لعلهم يتذكرون بقوله :

عِبَادٌ مَخْلُوقُونَ ٱقْتِدَاراً ، وَمَرْبُوبُونَ ٱقْتِسَاراً ، وَمَقْبُوضُونَ ٱحْتِضَاراً ، وَمُضَمَّنُونَ أَجْدَاثاً ، وَكَائِنُونَ رُفَاتاً ، وَمَبْعُوثُونَ أَفْرَاداً ، وَمَدِينُونَ جَزَاءً ، وَمُمَيَّزُونَ حِسَاباً ، قَدْ أُمْهِلُوا فِي طَلَبِ ٱلْمَخْرَجِ ، وَهُدُوا سَبِيلَ ٱلْمَنْهَجِ ، وَعُمِّرُوا مَهَلَ ٱلْمُسْتَعْتَبِ ، وَكُشِفَتْ عَنْهُمْ سُدَفُ ٱلرِّيَبِ ، وَخُلُّوا لِمِضْمَارِ ٱلْجِيَادِ ، وَرَوِيَّةِ ٱلْإِرْتِيَادِ ، وَأَنَاةِ ٱلْمُقْتَبِسِ ٱلْمُرْتَادِ ، فِي مُدَّةِ ٱلْأَجَلِ وَمُضْطَرَبِ ٱلْمَهَلِ .

أقول : القسر : القهر والجبر . والأجداث : القبور واحده جدث . والرفات : الفتات من العظم ونحوه . ومدينون . مجزيّون . والمستعتب : المسترضى . والسدف : جمع سدفة وهي ظلمة الليل . والريب الشبه والشكوك . والارتياد : الطلب . وذكر من تلك الأوصاف ثلاثة عشر وصفاً :

الأول : كونهم مخلوقون اقتداراً : أي خلقهم ليس لذواتهم بل بقدرة قادر مستقلةً عن مشاركة الغير وذلك مناف لعصيانهم له .

الثاني : كونهم مربوبون اقتساراً ؛ أي ليس ملك مالكهم لهم عن اختيار منهم حتى يكون لهم الخيرة في معصيته وطاعته .

الثالث : كونهم مقبوضون احتضاراً : أي مستحضرون بالموت

مقبوضون به إلى حضرة جلال الله .

الرابع : كونهم من شأنهم أن يضمنوا الأجداث .

الخامس : من شأنهم أن يصيروا رفاتاً .

السادس : من شأنهم أن يبعثوا أفراداً كما قال تعالى : ﴿ **وكلّهم آتيه يوم القيامة فرداً** ﴾(١) أي مجرداً عن استصحاب غيره معه من أهل ومال .

السابع : أنهم مدينون جزاءاً ومن شأنهم ذلك . والجزاء مصدر نصب بغير فعله .

الثامن : أن من شأنهم أن يميّزوا حساباً : أي يحصون عدداً كقوله تعالى : ﴿ **لقد أحصاهم وعدّهم عدّا** ﴾(٢) وحساباً أيضاً مصدر نصب عن غير فعله .

التاسع : كونهم قد أُمهلوا في طلب المخرج : أي إنما أُمهلوا في الدنيا لطلب خلاصهم وخروجهم من ظلمات الجهل وورطات المعاصي إلى نور الحق ومتسع الجود .

العاشر : كونهم قد هدوا سبيل المنهج : أي أُلهموا بأصل فطرتهم ، ودلّوا بالأعلام الواضحة من الأنبياء والشرائع على الطريق إلى حضرة قدس الله والجنة .

الحادي عشر : كونهم قد عمّروا مهل المستعتب. لما كان من يطلب استعتابه ويقصد رجوعه عن غيّه يمهل ويدارى طويلاً كانت مهلة الله سبحانه لخلقه مدة أعمارهم ليرجعوا إلى طاعته ويعملوا صالحاً تشبه ذلك فنزلت منزلته . ومهل نصب على المصدر لأن التعمير إمهال .

الثاني عشر : كونهم قد كشفت عنهم سدف الريب : أي أزال عن

---

(١) ١٩ ـ ٩٥.

(٢) ١٩ ـ ٩١

أبصار بصائرهم ظلم الشكوك والشبهات والجهالات بما وهبه لهم من العقول وايّدهم من بعثة الرسل .

الثالث عشر : كونهم قد خلّوا لمضمار الجياد : أي تركوا في الدنيا ليضمروا أنفسهم بأزواد التقوى ، ولما استعار لفظ المضمار رشح بذكر الجياد . إذ شرف المضمار أن تحل به جياد الخيل . وفيه تنبيه لهم على أن يكونوا من جياد مضمارهم . وقد سبق وجه الاستعارة ، ومعنى التضمير في قوله : ألا وإن اليوم المضمار وغدا السباق . وكذلك خلوا لروية الارتياد : أي ليتفكروا في طلب ما يتخلّصون به إلى الله تعالى من سائر طاعاته ، وكذلك ليتأنوا أناة المقتبس للأنوار الإلهية الطالب للاستنارة بها في مدة آجالهم ومحل اضطرابهم في مهلتهم وتحصيلهم لما ينبغي لهم من الكمالات . ومن ملك من عبيده هذه الحالات وأفاض عليهم ضروب هذه الإنعامات فكيف يليق بأحدهم أن يجاهره بالعصيان أو يتجاسر أن يقابله بالكفران إن الإنسان لكفور مبين .

الفصل السادس : في التنبيه على فضل موعظته وتذكيره ومدحها بالبلاغة والتعريض بعدم القلوب الحاملة لها ، ثم الحث على التقوى بقوله :

فَيَا لَهَا أَمْثَالاً صَائِبَةً ، وَمَوَاعِظَ شَافِيَةً ، لَوْ صَادَفَتْ قُلُوباً زَاكِيَةً ، وَأَسْمَاعاً وَاعِيَةً ، وَآرَاءً عَازِمَةً ، وَأَلْبَاباً حَازِمَةً ! فَاتَّقُوا اللَّهَ تَقِيَّةَ مَنْ سَمِعَ فَخَشَعَ ، وَاقْتَرَفَ فَاعْتَرَفَ ، وَوَجِلَ فَعَمِلَ ، وَحَاذَرَ فَبَادَرَ ، وَأَيْقَنَ فَأَحْسَنَ ، وَعُبِّرَ فَاعْتَبَرَ ، وَحُذِّرَ فَازْدَجَرَ ، وَأَجَابَ فَأَنَابَ ، وَرَجَعَ فَتَابَ ، وَاقْتَدَى فَاحْتَذَى ، وَأُرِيَ فَرَأَى ، فَأَسْرَعَ طَالِباً ، وَنَجَا هَارِباً ، فَأَفَادَ ذَخِيرَةً ، وَأَطَابَ سَرِيرَةً ، وَعَمَرَ مَعَاداً ، وَاسْتَظْهَرَ زَاداً ، لِيَوْمِ رَحِيلِهِ ، وَوَجْهِ سَبِيلِهِ ، وَحَالِ حَاجَتِهِ ، وَمَوْطِنِ فَاقَتِهِ ، وَقَدَّمَ أَمَامَه لِدَارِ مُقَامِهِ . فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ جِهَةَ مَا خَلَقَكُمْ لَهُ ، وَاحْذَرُوا مِنْهُ كُنْهَ مَا حَذَّرَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ ، وَاسْتَحِقُّوا مِنْهُ مَا أَعَدَّ لَكُمْ بِالتَّنَجُّزِ لِصِدْقِ مِيعَادِهِ ، وَالْحَذَرِ مِنْ هَوْلِ مَعَادِهِ .

فقوله : فيا لها أمثالاً صائبة ومواعظ شافية . أمثالاً ومواعظ نصب على التمييز . وصواب الأمثلة : مطابقتها للمثل به . وشفاء الموعظة : تأثيرها في القلوب إزالة مرض الجهل والرذائل الخلقية ورجوع المتعظ بها منيباً إلى ربه .

وقوله : لو صادفت قلوباً زاكية وأسماعاً واعية وآراء عازمة وألباباً حازمة .

فزكاء القلوب : استعدادها لقبول الهداية وقربها من ذلك . ووعي الأسماع : فهم القلوب عنها ، وإنما وصفها بالوعي لأنها أيضاً قابلة لقشور المعاني مؤدية لها إلى قوة الحسّ ثم الخيال ، وعزم الآراء : توجيه الهمة إلى ما ينبغي والثبات على ذلك . وحزامة الألباب : جودة رأي العقول فيما يختاره . وظاهر أن هذه الثلاثة هي أسباب نفع الموعظة .

وقوله : فاتقوا الله . إلى قوله : مقامه .

أمر بتقوى الله تقية كتقوى من استجمع جميع هذه الأوصاف .

أحدهما : تقية من سمع فخشع : أي تقية من استعد قلبه لسماع الموعظة فخشع عنها لله .

الثاني : تقية من اقترف فاعترف : أي اكتسب الذنوب فاعترف بها وأناب إلى الله .

الثالث : تقيّة من وجل : أي خاف ربه . فأقلقه خوفه فعمل : أي فالتجأ إلى الأعمال الصالحة لينجو بها .

الرابع : تقية من حاذر : أي عقاب ربه . فبادر إلى إطاعته .

الخامس : تقية من أيقن : أي بالموت ولقاء ربه فأحسن : أي فأحسن عمله وأخلص له .

السادس : تقية من عبّر : أي رمي بالعبر وذكر بها . فاعتبر : أي

فجعلها سلّماً يعبر فيها ذهنه إلى العلم بما ينبغي له .

السابع : وحذر : أي من سخط الله وعقابه . فازدجر : أي فرجع عن معصيته .

الثامن : تقية من أجاب : أي أجاب داعي الله . فأناب : أي رجع إليه بسره وامتثل أمره .

التاسع : تقية من راجع فكره وعقله فتاب : أي فاستعان به على شياطينه وقهر نفسه الأمارة بالسوء فتاب من متابعتها .

العاشر : تقيّة من اقتدى : أي بأنبياء الله وأوليائه وهديهم الذي أتوا به . فاحتذى : أي حذا حذوهم في جميع أحوالهم فطلب قصدهم وفعل فعلهم .

الحادي عشر : تقية من أُري : أي أُري الخلق فأظهرت بعين بصيرته طريق الله وسبيله فرأى : أي فعرفها وأسرع طالباً لما يسلك له وينتهي إليه ونجا فيها هارباً من ظلمات جهله وثمراته **فأفاد ذخيرة**: أي فاستفاد سلوكه لها وطاعته لربه في ذلك ذخيرة لمعاده ، وأطاب بسلوكها سريرته عن نجاسات الدنيا وعمر بما يكتسبه في سلوكها من الكمالات المستعدة معاده . واستظهر به زاداً ليوم رحيله من دنياه واستعد به لوجه سبيله التي هو سالكها، ومسافر فيها ولحال حاجته ولموطن فاقته . فإن كل مرتبة من الكمالات حصلت للإنسان فهي تعده لرتبة أعلى منها لو لم يحصّلها لظهرت له حاجته في الآخرة إلى أقل منها حيث لا يجد إليها سبيلاً . وكذلك قوله : قدّم : أي ما استظهر به زادا أمامه : أي تلقاء وجهه التي هو مستقبلها ومنته إليها لدار مقامه : أي الآخرة .

وقوله : فاتقوا الله عباد الله جهة ما خلقكم له .

أي باعتبار ما خلقكم له . ولما كان ما خلقهم له إنما هو عرفانه والوصول إليه كان المعنى : اجعلوا تقواكم الله نظراً إلى تلك الجهة والاعتبار

لا للرياء والسمعة . وجهة منصوب على الظرف ، ويحتمل أن يكون مفعولا به لفعل مقدر : أي واقصدوا بتقويكم جهة ما خلقكم .

وقوله : واحذروا منه كنه ما حذّركم من نفسه .

أي اسلكوا في حذركم منه حقيقة تحذيره لكم من نفسه بما توعد به . وذلك الحذر إنما يحصل بالبحث عن حقيقة المحذور منه . والسالكون إلى الله في تصور ذلك على مراتب متفاوتة .

وقوله : واستحقوا منه ما أعدّ لكم بالتنجز لصدق ميعاده . استحقاق ما وعد به الله تعالى من جزيل الثواب إنما يحصل بالاستعداد له فهو أمر بالاستعداد له والاستعداد يحتاج إلى أسباب فذكرها عليه السلام في أمرين :

أحدهما : التنجز لصدق ميعاده . والتنجز طلب إنجاز الوعد وقضائه ، وذلك إنما هو بالإقبال على طاعته كما قال تعالى : ﴿ **وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنّات تجري من تحتها الأنهار** ﴾[1] الآية ، ونحوها .

والثاني : الحذر من أهوال معاده . وذلك باجتناب مناهيه والارتداع بزواجره ونواهيه منها .

قوله : جعل لكم أسماعاً . اعلم أن في هذا الفصل فصلين :

الفصل الأول : في تذكير عباد الله بضروب نعمته عليهم ، والتنبيه على الغاية منها ، ثم التذكّر بحال الماضين من الخلق والتنبيه على الاعتبار بهم . وهو في معرض الامتنان وذلك قوله عليه السلام :

جَعَلَ لَكُمْ أَسْمَاعاً لِتَعِيَ مَا عَنَاهَا ، وَأَبْصَاراً لِتَجْلُوَ عَنْ عَشَاهَا ، وَأَشْلاَءً جَامِعَةً لِأَعْضَائِهَا ، مُلاَئِمَةً لِأَحْنَائِهَا : فِي تَرْكِيبِ صُوَرِهَا ، وَمُدَدِ عُمُرِهَا ، بِأَبْدَانٍ قَائِمَةٍ بِأَرْفَاقِهَا ، وَقُلُوبٍ رَائِدَةٍ لِأَرْزَاقِهَا ، فِي مُجَلِّلاَتِ نِعَمِهِ ، وَمُوْجِبَاتِ مِنَنِهِ ، وَحَوَاجِزِ عَافِيَةٍ ، وَقَدَّرَ لَكُمْ أَعْمَاراً سَتَرَهَا عَنْكُمْ ، وَخَلَّفَ

---

(١) ٩ - ٧٢ .

لَكُمْ عِبَراً ، مِنْ آثَارِ ٱلْمَاضِينَ قَبْلَكُمْ ، مِنْ مُسْتَمْتَعِ خَلاَقِهِمْ ، وَمُسْتَفْسَحِ خَنَاقِهِمْ ، أَرْهَقَتْهُمُ ٱلْمَنَايَا دُونَ ٱلآمَالِ ، وَشَذَّ بِهِمْ عَنْهَا تَخَرُّمُ ٱلآجَالِ ، لَمْ يَمْهَدُوا فِي سَلاَمَةِ ٱلأَبْدَانِ ، وَلَمْ يَعْتَبِرُوا فِي أُنُفِ ٱلأَوَانِ ، فَهَلْ يَنْتَظِرُ أَهْلُ بَضَاضَةِ ٱلشَّبَابِ إِلاَّ حَوَانِيَ ٱلْهَرَمِ ؟ وَأَهْلُ غَضَارَةِ ٱلصِّحَّةِ إِلاَّ نَوَازِلَ ٱلسَّقَمِ ، وَأَهْلُ مُدَّةِ ٱلْبَقَاءِ إِلاَّ آوِنَةَ ٱلْفَنَاءِ ، مَعَ قُرْبِ ٱلزِّيَالِ ، وَأُزُوفِ ٱلإِنْتِقَالِ ، وَعَلَزِ ٱلْقَلَقِ ، وَأَلَمِ ٱلْمَضَضِ ، وَغُصَصِ ٱلْجَرَضِ ، وَتَلَفُّتِ ٱلإِسْتِغَاثَةِ بِنُصْرَةِ ٱلْحَفَدَةِ ، وَٱلأَقْرِبَاءِ وَٱلأَعِزَّةِ ، وَٱلْقُرَنَاءِ . فَهَلْ دَفَعَتِ ٱلأَقَارِبُ ؟ أَوْ نَفَعَتِ ٱلنَّوَاحِبُ ؟ وَقَدْ غُودِرَ فِي مَحَلَّةِ ٱلأَمْوَاتِ رَهِيناً ، وَفِي ضِيقِ ٱلْمَضْجَعِ وَحِيداً ، قَدْ هَتَكَتِ ٱلْهَوَامُّ جِلْدَتَهُ ، وَأَبْلَتِ ٱلنَّوَاهِكُ جِدَّتَهُ ، وَعَفَّتِ ٱلْعَوَاصِفُ آثَارَهُ ، وَمَحَا ٱلْحَدَثَانُ مَعَالِمَهُ ، وَصَارَتِ ٱلأَجْسَادُ شَحِبَةً بَعْدَ بَضَّتِهَا ، وَٱلْعِظَامُ نَخِرَةً بَعْدَ قُوَّتِهَا ، وٱلأَرْوَاحُ مُرْتَهَنَةً بِثِقَلِ أَعْبَائِهَا ، مُوقِنَةً بِغَيْبِ أَنْبَائِهَا ، لاَ تُسْتَزَادُ مِنْ صَالِحِ عَمَلِهَا ، وَلاَ تُسْتَعْتَبُ مِنْ سَيِّءِ زَلَلِهَا .

أَوَ لَسْتُمْ أَبْنَاءَ ٱلْقَوْمِ وَٱلآبَاءَ ، وَإِخْوَانَهُمْ وَٱلأَقْرِبَاءَ ، تَحْتَذُونَ أَمْثِلَتَهُمْ ، وَتَرْكَبُونَ قِدَّتَهُمْ ، وَتَطَأُونَ جَادَّتَهُمْ ؟! فَٱلْقُلُوبُ قَاسِيَةٌ عَنْ حَظِّهَا ، لاَهِيَةٌ عَنْ رُشْدِهَا ، سَالِكَةٌ فِي غَيْرِ مِضْمَارِهَا ، كَأَنَّ ٱلْمَعْنِيَّ سِوَاهَا ، وَكَأَنَّ ٱلرُّشْدَ فِي إِحْرَازِ دُنْيَاهَا .

أقول : عناها : أهمّها : والعشى : ظلمة تعرض للعين بالليل . والأشلاء : جمع شلو وهو العضو وهو أيضاً القطعة من اللحم ، وكنّى به عن الجسد . والحنو : الجانب . والأرفاق : المنافع ، ويروى بأرماقها . والرمق : بقية الروح : والخلاق : النصيب. الخناق : بالكسر حبل يخنق به. والإرهاق: الإعجال . والتشذّب : التفرق . ومهد الأمر . مخففاً ومشدّداً : أي هيأه . وأُنف الأوان : أوله . والبضاضة : امتلاء البدن وقوته . والهرم : الكبر . وغضارة العيش طيبه . وآونة : جمع أوان كأزمنة جمع زمان والزيال : المزايلة . وأزف : قرب . والعلزة : كالرعدة تأخذ المريض .

والجـرض : أن يبتلع ريقه على همّ وحـزن . والحفدة : الأعـوان . وغودر : ترك . وأنهكه : أخلقه وأبلاه . والمعالم : الآثار. والشحب : البعير الهالـك الناحل . والنخرة : البالية. والأعباء : الأثقـال . والقدة بكسـر القاف والـدال المهملة : الطريقة، وروي بضم القاف والذال المعجمة ، والأول أصح .

ولنرجع إلى المعنى.

فقوله : جعل لكم . إلى قوله : بأرفاقها.

تـذكير بنعمـة الله تعالى بخلق الأبـدان ، وما تشتمـل عليه من المنـافع ففائدة الأسماع أن تعي ما خلقت لأجله ، وفائدة الأبصار أن يدرك بها الإنسان عجائب مصنوعات الله تعالى فيحصـل له منهـا عبرة . ولفظ العشـا يحتمل أن يكون مستعاراً لظلمة الجهل العارض لإبصار القلوب حتى يكون التقدير لتجلو عشـا قلوبها ، وحينئـذ فإدراك البصـر المحصّل عبـرة يحصل للقلب بـه جلاء لذلك العشا فصحّ إذن إسناد الجلاء إلى الأبصار ، ويحتمل أن يكون مستعاراً لعدم إدراكها ما تحصل منه العبرة إذ كانت فائـدتها ذلـك فإذا لم يحصـل منها ذلـك الإدراك كانت كمبصـر أصابـه العشا ، ووجـه المشابهـة عدم الفـائدة . ونسبة الجلاء إليها بوجود الإدراك المفيد عبـرة عنها وهـو استعارة أيضاً. وعن ليست بـزائـدة لأن الجـلاء يستـدعي مجلواً ومجلوّاً عنـه فـذكـر عليه السلام المجلوّ وأقامه مقام المجلوّ عنه فكأنه قال : لتجلو عن قواها عشاها .

وأما فائدة البدن وأعضائه فقد أشرنـا إليه قبـل مفصلاً ، وقـوله : قـائمة بـأرفاقهـا : أي أن كل بـدن قائم في الـوجود بحسب مـا عنى له من ضـروب المنافع .

وقوله : وقلوب رائدة . إلى قوله : سترها عنكم . إظهار لمنة الله تعالى على عباده بخلقه لهم وهدايته لنفـوسهم لارتياد أرزاقهم التي بهـا قوام حيـاتها الـدنيـا وتمكنهـا من إصلاح معـادهـا ثمَّ بـاعتبـار كـونهم في محللات نعمـه وسـوابغهـا . فمنهـا : ستـره عليهم قبـائـح أعمـالهم أن تـظهـر ، وهـواجس خواطرهم بعضهم لبعض بحيث لو اطّلع كل على ماله في ضميـر صاحبـه من

الغل والحسد وتمنّي زوال نعمته لأفنى بعضهم بعضا وخرب نظام وجودهم . وموجبات مننه : نعمه التي يستوجب أن يمنّ بها . ومن روى بفتح الجيم فالمراد بالمنن إذن النعم وموجبات ما سقط منها وأُفيض على العباد . وحواجز عافيته : ما منع منها عوامل الأمراض والمضار المندفعة بها ، وإنما ذكر ستر كمية الأعمار في معرض المنّة لأنه من النعم العظيمة على العبد إذ كان اطلاع الإنسان على كمية عمره مما يوجب اشتغال خاطره بخوفه من الموت من عمارة الأرض ويبطل بسببه نظام هذا العالم .

وقوله : وخلّف لكم عبرا .

وجه من منن الله تعالى على عباده فإن إبقائه أحوال الماضين وما خلّفوه عبرة للاحقين سبب عظيم لجذبهم عن دار الغرور ومهاوي الهلاك إلى سعادة الأبد . ومستمتع خلاقهم : ما استمتعوا به مما كان نصيباً لكل منهم في مدة بقائه من متاع الدنيا . ومستفسح خناقهم : محل الفسحة لأعناقهم من ضيق حبائل الموت وأغلال الجحيم ، وذلك المستفسح هو مدة حياتهم أيضاً ثم أردف ذلك بوصف حال الماضين في غرورهم ، وذكر إعجال الموت لهم عن بلوغ آمالهم وتشذيبه لهم باخترامهم عنها ونبه به على وجوب تقصير الأمل والاستعداد للموت ، وكذلك نبّههم بقوله : لم يمهدوا . إلى قوله : ألا وإن على تقصير الماضين في إصلاح معادهم حيث أمكنهم ذلك في سلامة أبدانهم وأوّل زمانهم ليحصل لهم بذلك التذكر نفرة عن حال السابقين وانزعاج عن الغرور إلى الاستعداد بالتقوى والأعمال الصالحة ، ثم استفهمهم عما ينتظر الشباب بشبابهم غير حواني الهرم ، وأهل الصحة بصحتهم غير الأسقام والمعمّرون بطول أعمارهم غير الفناء استفهاماً على سبيل الإنكار لما ينتظرونه غير هذه الأمور وتقريعاً على ذلك الانتظار وتنفيراً عنه بذكر غاياته التي حصره فيها .

واعلم أن ذلك ليس انتظاراً حقيقياً لكن لما كان المنتظر لأمر والمترقب له تاركاً في أحواله لما يعنيه من الاشتغال إلى غاية أن يصل إليه ما ينتظره .

وكانت غاية الشباب آن يحني ظهورهم الهرم . وغاية الصحيح أن يسقم ، وغاية المعمر أن يفنى أشبه تركهم للعمل وعبادة الله إلى غاياتهم المذكورة الانتظار لها . فاستعير له لفظ الانتظار . ثم كنّى عن شدة حال المفارق في سكرات الموت بأوصاف تعرض له حينئذ كالرعدة والغلق والغمّ والخوف والغصص بالريق والتلفّت للاستغاثة بالأعوان والأقرباء والأعزّة . ثم نبه بقوله : فهل دفعت الأقارب أو نفعت النواحب : أي البواكي . على أن ما يقع عند نزول الموت من تلك الأحوال لا ينفع في دفعه قريبٌ ولا حبيب على طريق الاستفهام والإنكار .

وقوله : قد غودر .

الجملة في محل النصب على الحال والعامل نفعت : أي لم ينفعه البكاء حال ما غودر في محل الأموات بالأوصاف الكريهة تنفيراً عن أحواله وجذباً إلى الخلاص من أهوالها بالعمل لله والإخلاص له . ورهيناً : أي مقيماً أو مرتهناً بذنوبه وموثوقاً بها . ونصبه على الحال ، وكذلك وحيداً ، وموضع قوله : قد هتكت ، وباقي الأفعال المعطوفة عليه . والهوام : الديدان المتولدة من جيفة أو غيرها .

وقوله : والأرواح مرتهنة بثقل أعبائها .

إشارة إلى اشتغال النفوس وانحطاطها إلى الجنبة السافلة بثقل ما حملته من الأوزار واكتسبته من الهيئات الرديئة . وما يتحقق غيبه من الأنباء هناك هو الأخبار عن الأحوال اللاحقة بها بعد الموت من خير وشر فإنها يتيقّن غيبتها عن أهل الدنيا ، أو أنباء ما خلّفته من اللواحق الدنيوية فإنها تتيقن بعد الموت غيبتها وانقطاعها عنها. والأول أولى .

وقوله : لا تستزاد من صالح عملها ولا تستعتب من سيىء زللها .

أي لا يطلب منها زيادة من العمل الصالح ولا يقال من سيىء زللها ويرضى عنها كقوله تعالى : ﴿ وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين ﴾[1] وذلك

---

(١) ٤١ - ٢٣ .

لعدم آلة العمل وامتناع الرجوع إليه وعدم تمكنها من نزع ما صار في عنقها من أطواق الهيئات البدنية كما قال تعالى : **﴿ قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت كلاّ إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾**(1).

وقوله : أولستم آباء القوم والأبناء وإخوانهم والأقرباء.

أي أوليس فيكم من هو أب لأحد أولئك أو ابن له أو أخوه أو قريبه ، وهو تنبيه للسامعين على وجه العبرة فإنه لما شرح حال الماضين في الموت وما بعده نبههم على أنهم أمثالهم في كل تلك الأحوال ليرجعوا إلى تقوى الله الذي هو سبب النجاة من تلك الأهوال .

وقوله : تحتذون أمثلتهم .

أي تقتدون بهم في أفعالهم وتسلكون مسالكهم في غرورهم ونحوه كما قال تعالى حكاية : **﴿ إنّا وجدنا آباءنا على أمة وإنّا على آثارهم مقتدون ﴾**(2).

وقوله : فالقلوب قاسية عن حظها .

أي لا استعداد لها تقبل به حظها الذي ينبغي لها طلبه لاهية عن رشدها غافلة عن طلب هدايتها سالكة في غير مضمارها . المضمار هاهنا : هو الشريعة وأوامر الله ، وسلوكها لغيره : ارتكابها لمناهي الله ، ورياضتها : هي الأعمال الصالحة التي هي طريق الجحيم .

وقوله : كأن المعني سواها وكأن الرشد في إحراز دنياها.

مبالغة في ذكر إعراض القلوب وغفلتها عن المواعظ وإنهماكها في تحصيل الدنيا إلى غاية أن أشبهت من لم يكن معيناً بالخطاب بها ، أو أن

---

(1) ٢٣ ـ ١٠٢.
(2) ٤٣ ـ ٢٢.

الرشد الذي جذبت إليه إنما هو تحصيل الدنيا وجمعها الذي جذبت عنه وحذّرت منه .

الفصل الثاني : في التذكير بأمر الصراط والتحذير من أهواله ، والحث على التقوى وذلك قوله :

وَٱعْلَمُوا أَنَّ مَجَازَكُمْ عَلَى ٱلصِّرَاطِ ، وَمَزَالِقِ دَحْضِهِ ، وَأَهَاوِيلِ زَلَلِهِ ، وَتَارَاتِ أَهْوَالِهِ ، فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ تَقِيَّةَ ذِي لُبٍّ شَغَلَ ٱلتَّفَكُّرُ قَلْبَهُ ، وَأَنْصَبَ ٱلْخَوفُ بَدَنَهُ ، وَأَسْهَرَ ٱلتَّهَجُّدُ غِرَارَ نَوْمِهِ ، وَأَظْمَأَ ٱلرَّجَاءُ هَوَاجِرَ يَوْمِهِ ، وَظَلَفَ ٱلزُّهْدُ شَهَوَاتِهِ ، وَأَرْجَفَ ٱلذِّكْرُ بِلِسَانِهِ ، وَقَدَّمَ ٱلْخَوفَ لِإِبَّانِهِ ، وَتَنَكَّبَ ٱلْمَخَالِجَ عَنْ وَضَحِ ٱلسَّبِيلِ ، وَسَلَكَ أَقْصَدَ ٱلْمَسَالِكِ إِلَى ٱلنَّهْجِ ٱلْمَطْلُوبِ ، وَلَمْ تَفْتِلْهُ فَاتِلَاتُ ٱلْغُرُورِ ، وَلَمْ تَعْمَ عَلَيْهِ مُشْتَبِهَاتُ ٱلْأُمُورِ . ظَافِراً بِفَرْحَةِ ٱلْبُشْرَى ، وَرَاحَةِ ٱلنُّعْمَى فِي أَنْعَمِ نَوْمِهِ ، وَآمَنِ يَوْمِهِ ، قَدْ عَبَرَ مَعْبَرَ ٱلْعَاجِلَةِ حَمِيداً ، وَقَدَّمَ ذَاتَ ٱلآجِلَةِ سَعِيداً ، وَبَادَرَ مِنْ وَجَلٍ ، وَأَكْمَشَ فِي مَهَلٍ ، وَرَغِبَ فِي طَلَبٍ ، وَذَهَبَ عَنْ هَرَبٍ ، وَرَاقَبَ فِي يَوْمِهِ غَدَهُ ، وَنَظَرَ قُدُماً أَمَامَهُ ، فَكَفَى بِٱلْجَنَّةِ ثَوَاباً وَنَوَالاً ، وَكَفَى بِالنَّارِ عِقَاباً وَوَبَالاً ، وَكَفَى بِاللَّهِ مُنْتَقِماً وَنَصِيراً ، وَكَفَى بِٱلْكِتَابِ حَجِيجاً وَخَصِيماً .

أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى ٱللَّهِ ٱلَّذِي أَعْذَرَ بِمَا أَنْذَرَ ، وَٱحْتَجَّ بِمَا نَهَجَ ، وَحَذَّرَكُمْ عَدُوّاً نَفَذَ فِي ٱلصُّدُورِ خَفِيّاً ، وَنَفَثَ فِي ٱلآذَانِ نَجِيّاً ، فَأَضَلَّ وَأَرْدَى ، وَوَعَدَ فَمَنَّى ، وَزَيَّنَ سَيِّئَاتِ ٱلْجَرَائِمِ ، وَهَوَّنَ مُوبِقَاتِ ٱلْعَظَائِمِ ، حَتَّى إِذَا ٱسْتَدْرَجَ قَرِينَتَهُ ، وَٱسْتَغْلَقَ رَهِينَتَهُ ، أَنْكَرَ مَا زَيَّنَ ، وَٱسْتَعْظَمَ مَا هَوَّنَ ، وَحَذَّرَ مَا أَمَّنَ .

أقول : المزلق : الموضع الذي لا تثبت عليه قدم . والدحض : الزلق : والتهجد : العبادة بالليل . والغرار : النوم القليل ، وأرجف : أسرع والمخالج : الأمور المشغلة الجاذبة ، وأكمش : أمضى عزمه ومضى قدماً لم يعرج .

واعلم أن الصراط الموعود به في القرآن الكريم حق يجب الإيمان به وإن اختلف الناس في حقيقته ، وظاهر الشريعة والذي عليه جمهور المسلمين، ومن أثبت المعاد الجسماني يقتضي أنه جسم في غاية الدقة والحدة ممدود على جهنم وهو طريق إلى الجنة يجوزه من أخلص لله . ومن عصاه سلك عن جنبتيه أحد أبواب جهنم .

وأما الحكماء فقالوا بحقيته . وما يقال في حقه : إنه كالشعر في الدقة فهو ظلم بل نسبة الشعرة إليه كنسبتها إلى الخط الهندسي الفاصل بين الظل والشمس الذي ليس من أحدهما فهو كذلك الخط الذي لا عرض له أصلاً ، وحقيقته هو الوسط الحقيقي بين الأخلاق المتضادة كالسخاوة بين التبذير والبخل ، والشجاعة بين التهور والجبن ، والاقتصاد بين الإسراف والتقتير ، والتواضع بين التكبّر والمهانة، والعفة بين الشهوة والخمود ، والعدالة بين الظلم والانظلام. فالأوساط بين هذه الأطراف المتضادة هي الأخلاق المحمودة ، ولكل واحد منها طرفا تفريط وإفراط هما مذمومان ، وكل واحد منها هو غاية البعد بين طرفيه وليس من طرف الزيادة ولا من طرف النقصان .

قالوا : وتحقيق ذلك أن كمال الإنسان في التشبّه بالملائكة وهم منفكون عن هذه الأوصاف المتضادة وليس في إمكان الإنسان الانفكاك عنها بالكلية فغايته التباعد عنها إلى الوسط تباعداً يشبه الانفكاك عنها. فالسخي كأنه لا بخيل ولا مبذر . فالصراط المستقيم هو الوسط الحق الذي لا ميل له إلى أحد الجانبين ولا عرض له وهو أدق من الشعر . ولذلك قال تعالى : ﴿ **ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل** ﴾[1] .

وروي عن الصادق عليه السلام وقد سئل عن قوله تعالى : ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ قال : يقول : أرشدنا للزوم الطريق المؤدي إلى محبتك والمبلّغ دينك والمانع من أن نتبع أهواءنا فنعطب أو نأخذ بآرائنا فنهلك . وعن الحسن

---

(١) ٤ ـ ١٢٨.

العسكري عليه السلام الصراط صراطان : صراط في الدنيا ، وصراط في الاخرة .

فأما الصراط المستقيم في الدنيا فهو ما قصر عن الغلو وارتفع عن التقصير واستقام فلم يعدل إلى شيء من الباطل ، والصراط الآخر هو طريق المؤمنين إلى الجنة لا يعدلون عن الجنة إلى النار ولا إلى غير النار سوى الجنة . والناس في ذلك متفاوتون فمن استقام على هذا الصراط وتعوّد سلوكه مرّ على صراط الآخرة مستوياً ودخل الجنة آمناً .

إذا عرفت ذلك فنقول : مزالق الصراط كناية عن المواضع التي هي مظان انحراف الإنسان عن الوسط بين الأطراف المذمومة ، وتلك المواضع هي مظان الشهوات والميول الطبيعية ، وأهاويل زلله هي ما يستلزمه العبور إلى أحد طرفي الإفراط والتفريط من العذاب العظيم في الآخرة . وتارات أهواله تكرار ذلك تارة بعد أُخرى .

وقوله : فاتقوا الله . عود إلى الأمر بتقوى الله تقية من استجمع أوصاف الإيمان :

أحدها : تقية من شغل التفكر قلبه : أي في أمر معاده عن محبة الدنيا وباطلها .

الثاني : وأنصب الخوف بدنه : أي أتعبه وأنحله خوف الله تعالى وما أعد للعصاة من الأهوال .

الثالث : وأسهرت العبادة غرار نومه : أي لم تترك له نوماً .

الرابع : واظمأ الرجاء هواجر يومه : أي اظمأه رجاء ما أعد الله لأوليائه الأبرار عوضاً من طيبات هذه الدار . وظمأه في هواجر يومه كناية عن كثرة صيامه في أشد أوقاته حرارة ، وإنما جعل الهواجر مفعولاً إقامة للظرف مقام المظروف ، وهو من وجوه المجاز .

الخامس : وظلف الزهد شهواته . استعار لفظ الإطفاء للزهد وهو من أوصاف الماء ونسبته إلى النار نسبة الزهد إلى الشهوات فلاحظ الشبه بين

الشهوات والنار في تأثيرهما المؤذي ، وبين الزهد والماء لما يستلزمانه من كون الإعراض عن الدنيا يستتبع قهر الشهوات ودفع مضارّها كما يفعله الماء بالنار .

السادس : وأسرع [أرجف خ] الذكر إلى لسانه : أي لتعوّده إياه وإدمانه فيه .

السابع : وقدّم الخوف لأمانه [لإبانه خ] : أي خوف ربه . فعمل مخلصاً له ليأمن عذابه .

الثامن : وتنكب المخالج : أي عدل عن الأمور المشغلة إلى واضح سبيل الله .

التاسع : وسلك أقصد المسالك : أي أولاها بالقصد إلى النهج الواضح والطريق المطلوب لله من خلقه ، وهو سبيله المستقيم فإن للناس في سلوك سبيل الله مذاهب كثيرة ولكن أحبّها إليه أولاها بالقصد إلى طريقه الموصل إليه .

العاشر : ولم تفتله فاتلات الغرور : أي لم تهلكه غفلاته في لذات الدنيا عن ربه إذ لم يغفل عن طاعته .

الحادي عشر : ولم تعم عليه مشتبهات الأمور : أي لم تظلم في وجهه شبهة على حق فيسدّ عليه وجه تخليصه .

الثاني عشر : ظافراً بفرحة البشرى : أي بشرى الملائكة يومئذ : بشريكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار .

الثالث عشر : وراحة النعمى ، والراحة في مشاق الدنيا ومتاعبها بنعمى الآخرة . ونعيم الله في الآخرة الجنة .

الرابع عشر : في أنعم نومه : أي في أطيب راحته ، وأطلق لفظ النوم على الراحة في الجنة مجازاً إطلاقاً لاسم الملزوم على لازمه .

الخامس عشر : وآمن يومه : أي آمن أوقاته ، وأطلق لفظ اليوم على

مطلق الوقت مجازاً إطلاقاً لاسم الجزء على الكل .

السادس عشر : قد عبر معبر العاجلة : أي الدنيا . حميداً : أي محمود الطريقة .

السابع عشر : وقدم ذات الآجلة سعيداً : أي عمله للآخرة فحصل على السعادة الأبدية ، وحميداً وسعيداً حالان .

الثامن عشر : وبادر من وجل : أي إلى الأعمال الصالحة من وجل خوف الله .

التاسع عشر : وأسرع في مهل . أي إلى طاعة ربه أيام مهلته ، وهي حياته الدنيا .

العشرون : ورغب في طلب : أي كان طلبه لله عن رغبته له .

الحادي والعشرون : وذهب عن هرب : أي كان ذهابه عما يبعد عن الله عن هرب من خوف الله . وفي كل قرينتين من هذه العشرة السجع المتوازي .

الثاني والعشرون : وراقب في يومه غده : أي توقّع في أيام حياته هجوم آخرته .

الثالث والعشرون : ونظر قدماً أمامه : أي لم يلتفت في نظره عن قصد الله إلى غيره . ثم نبّه بقوله : فكفى بالجنة ثواباً ونوالاً . على وجوب السعي لها دون غيرها ، ثم تكون النار وبالاً وعقاباً على وجوب الهرب منها دون غيرها ، وكفى بالله منتقماً ونصيراً على وجوب الاقتصار على خشيته والاستعانة به ، وبقوله : وكفى بالكتاب حجيجاً : أي محتجاً وخصيماً على وجوب الانفعال عنه وملاحظة شهادته في الآخرة على من لم يتبعه . ونسب الاحتجاج والخصام إلى الكتاب مجازاً ، والمنصوبات بكفى على التمييز .

وقوله : أوصيكم بتقوى الله .

عود إلى الحث على تقوى الله باعتبار أمور ثلاثة :

أحدها : إعذاره إلى الخلق بما أنذرهم به من العقوبات .

الثاني : احتجاجه عليهم بما أوضحه بالدلائل والبيّنات .

الثالث : تحذيره لهم إبليس وعداوته ، وقد سبق معناه في الخطبة الأولى . وذكر له أوصافاً هي كونه نفذ في الصدور خفيّاً . والإشارة به إلى النفس الأمارة بالسوء ، وتجوّز بلفظ الصدور في القلوب إطلاقاً لاسم المكان على المتمكن ، وكونه نفث في الآذان نجيّاً . وهو إشارة إلى ما تلقيه شياطين الإنس بعضهم إلى بعض من زخرف القول وغروره . وقد سبق ذلك في الخطبة الأولى ، وكونه أضل : أي جذب عن طريق الحق وأردى : أي فأرداهم في قرار الجحيم ، ووعد ومنّى : أي ببلوغ الآمال الكاذبة ، وزيّن سيئات الجرائم : أي قبائح المعاصي ، وهوّن موبقات العظائم : أي ما يهلك من عظيم الذنوب . وتهوينه لها بمثل تمنّيه التوبة ومساعدة العقل له بقوله : ﴿ **إن الله غفور رحيم** ﴾ وبمثل الاقتداء بالغير الذي هو أولى بالعفة مثلاً أو أكثر قدراً في الدنيا ، وسائر أوصاف الوساوس كما عرفت حقيقتها .

وقوله : حتى إذا استدرج قرينته واستغلق رهينته .

فقرينته هي النفس الناطقة باعتبار موافقته وهي رهينته باعتبار إحاطة الذنوب بها من قبله كما يستغلق الرهن بما عليه من المال ولفظ الرهينة مستعار . واستدراجه لها تزيينه حالاً بعد حال وتعويدها بطاعته .

وقوله : أنكر ما زيّن . إلى آخره .

إشارة إلى غايته من وسوسته وعود من النفس الأمارة بالسوء إلى موافقتها لحكم العقل في قبح ما كانت أمرت به ، واستعظام خطره ومساعدتها على التحذير منه بالامتناع من تحسينه بعد أن كانت تحثّ عليه وتزيّنه وتؤمن منه . وذلك إما عند التوبة وقهر العقل لها أو عند معاينة المكروهات الجزئية من العقوبات والآلام إما في الدنيا أو بعد المفارقة والحصول في عذاب الجحيم بسبب الانهماك فيما كانت زيّنته من الباطل ، وذلك أن النفس إذا فارقت البدن حملت معها القوة المتوهّمة فتدرك ما يلحقها من جزئيات العقوبات

كعذاب القبر وما يتنوع منه كما سبقت الإشارة إليه ، وقد يتصور ذلك من شياطين الإنس في تزيينهم الجرائم ، وأما من الشيطان الظاهر فظاهر .

ومنها في صفة خلق الإنسان ، وفي هذا الفصل فصلان .

الفصل الأول قوله :

أَمْ هٰذَا ٱلَّذِي أَنْشَأَهُ فِي ظُلُمَاتِ ٱلْأَرْحَامِ ، وَشُغُفِ ٱلْأَسْتَارِ ، نُطْفَةً دِهَاقاً ، وَعَلَقَةً مُحَاقاً ، وَجَنِيناً ، وَرَاضِعاً ، وَوَلِيداً ، وَيَافِعاً ، ثُمَّ مَنَحَهُ قَلْباً حَافِظاً ، وَلِسَاناً لَافِظاً ، وَبَصَراً لَاحِظاً ، لِيَفْهَمَ مُعْتَبِراً ، وَيُقَصِّرَ مُزْدَجِراً ، حَتَّى إِذَا قَامَ ٱعْتِدَالُهُ ، وَٱسْتَوَى مِثَالُهُ ، نَفَرَ مُسْتَكْبِراً ، وَخَبَطَ سَادِراً ، مَاتِحاً فِي غَرْبِ هَوَاهُ ، كَادِحاً سَعْياً لِدُنْيَاهُ ، فِي لَذَّاتِ طَرَبِهِ ، وَبَدَوَاتِ أَرَبِهِ ، لَا يَحْتَسِبُ رَزِيَّةً ، وَلَا يَخْشَعُ تَقِيَّةً ، فَمَاتَ فِي فِتْنَتِهِ غَرِيراً ، وَعَاشَ فِي هَفْوَتِهِ يَسِيراً ، لَمْ يُفِدْ عِوَضاً ، وَلَمْ يَقْضِ مُفْتَرَضاً ، دَهَمَتْهُ فَجَعَاتُ ٱلْمَنِيَّةِ فِي غُبَّرِ جِمَاحِهِ ، وَسَنَنِ مِرَاحِهِ ، فَظَلَّ سَادِراً ، وَبَاتَ سَاهِراً ، فِي غَمَرَاتِ ٱلْآلَامِ ، وَطَوَارِقِ ٱلْأَوْجَاعِ وَٱلْأَسْقَامِ ، بَيْنَ أَخٍ شَقِيقٍ ، وَوَالِدٍ شَفِيقٍ ، وَدَاعِيَةٍ بِٱلْوَيْلِ جَزَعاً ، وَلَادِمَةٍ لِلصَّدْرِ قَلَقاً ، وَٱلْمَرْءُ فِي سَكْرَةٍ مُلْهِيَةٍ ، وَغَمْرَةٍ كَارِثَةٍ ، وَأَنَّةٍ مُوجِعَةٍ ، وَجَذْبَةٍ مُكْرِبَةٍ ، وَسَوْقَةٍ مُتْعِبَةٍ .

ثُمَّ أُدْرِجَ فِي أَكْفَانِهِ مُبْلِساً ، وَجُذِبَ مُنْقَاداً سَلِساً ، ثُمَّ أُلْقِيَ عَلَى ٱلْأَعْوَادِ ، رَجِيعَ وَصَبٍ ، وَنِضْوَ سَقَمٍ ، تَحْمِلُهُ حَفَدَةُ ٱلْوِلْدَانِ ، وَحَشَدَةُ ٱلْإِخْوَانِ ، إِلَى دَارِ غُرْبَتِهِ ، وَمُنْقَطَعِ زَوْرَتِهِ . حَتَّى إِذَا ٱنْصَرَفَ ٱلْمُشَيِّعُ ، وَرَجَعَ ٱلْمُتَفَجِّعُ ، أُقْعِدَ فِي حُفْرَتِهِ ، نَجِيّاً ، لِبَهْتَةِ ٱلسُّؤَالِ ، وَعَثْرَةِ ٱلْإِمْتِحَانِ .

وَأَعْظَمُ مَا هُنَالِكَ بَلِيَّةً نُزُولُ ٱلْحَمِيمِ ، وَتَصْلِيَةُ ٱلْجَحِيمِ ، وَفَوْرَاتُ ٱلسَّعِيرِ ، وَسَوْرَاتُ ٱلزَّفِيرِ ، لَا فَتْرَةٌ مُرِيحَةٌ ، وَلَا دَعَةٌ مُزِيحَةٌ ، وَلَا قُوَّةٌ

حَاجِزَةٌ ، وَلاَ مَوْتَةٌ نَاجِزَةٌ ، وَلاَ سِنَةٌ مُسْلِيَةٌ ، بَيْنَ أَطْوَارِ ٱلْمَوْتَاتِ ، وَعَذَابِ ٱلسَّاعَاتِ!! إِنَّا بِٱللَّهِ عَائِذُونَ .

أقول : اعلم أن مدار هذا الفصل على وصف حال الإنسان من مبدأ عمره بالنقصان وبيان نعم الله بترديده في أطوار الخلقة ، وتبكيته بمقابلة نعمه بالكفر والغفلة في متابعة الشيطان ، وتذكيره بما يكون غايته من حياة الدنيا وهو الموت، وما يتبعه من أحوال الميت بين أهله وأقاربه ، وحالهم معه وما يكون بعد الموت من العذاب في القبر والسؤال والحساب وسائر ما ينفّر طبعه منه ، ويوجب له الالتفات إلى إصلاح معاده وتذكير مبدئه لعله يتذكر أو يخشى .

والشغف بالغين المعجمة : جمع شغاف بالفتح وهو غلاف القلب والدفاق : المفرغة . والمحاق : الناقصة . واليافع : الغلام المرتفع . والسادر : اللاهي الذي لا يهتم بشيء . والماتح : الجاذب للدلو من البئر . والبدوات : الخطرات التي تبدو : أي تظهر للخاطر . ودهمه بالكسر : أي غشيه . وغبر شيء : بقيته . وجماحه : سعيه في ركوب هواه . والسادر ثانياً : المتحيّر. واللدم : ضرب الصدر . وكارثة : موجبة لشدة الغم . والإبلاس : اليأس . والرجيع : من الإبل المردّد في الأسفار . والنضو : الذي قد هزلته . وحفدة الولدان : أعوانهم . والحشدة بفتح الحاء والشين : المجتمعون. والتفجّع : التوجع .

وفي تفصيل هذا الفصل نكت :

الأولى : أم للاستفهام . وهو استفهام في معرض التقريع للإنسان وأمره باعتبار حال نفسه ، ودلالة خلقته على جزئيات نعم الله عليه مع كفرانه لها . وكان أم معادلة لهمزة الاستفهام قبلها ، والتقدير أليس فيما أظهره الله لكم من عجائب مصنوعاته عبرة ؟ أم هذا الإنسان وتقلّبه في أطوار خلقته ، وحالاته إلى يوم نشوره ؟ كقوله تعالى : **﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾** وفي بعض النسخ : أو هذا . والمعنى واحد .

اعلم أنَّ في ملاحظة خلقه الإنسان وما جمع فيها من لطائف الأسرار عبرة تامة حتى كان عالماً مختصراً كما أومأنا إليه قبل ، وسيأتي .

الثانية : قيل أول أحوال تكون الإنسان زبديّة المنيّ ، وانتفاخ يظهر فيه فينمو به ، وأوّل ما يتكون فيه وعاء الروح بفعل الملك المصور ثم تحدث ريح من قبل الطبيعة فتثقب ثقباً أمام فوهات العروق بحيث إذا تخلّقت محسوسة صارت عروقاً ثم يبسط النطفة في أقطارها وتحدث في الغشاء ثقباً موازية لثقب العروق التي في الرحم ينفتح عند الحيض ، ويحصل لجميعها مجاري في الغشاء المذكور يؤدي إلى مجرى واحد نافذ إلى عمق النطفة مؤدياً إلى باطنه الدم في عرقين أو عرق والنفس في عرقين فإذا تخلّقت هذه المجاري امتصّت النطفة حينئذ الغذاء من فوهات تلك العروق ، ونفذ في الصفاق دم يستحيل عن قريب إلى جوهر المنيّ وحدث لها خطوط لها مبادىء دموية ، ونقطة أُولى هي القلب ثم لا تزال الدموية تزداد في النطفة حتى تصير علقة وتكون مثل الرغوة في الأكثر لستة أيام ، وابتداء الخطوط الحمر والنقطة بعد ثلاثة أيام أُخرى ثمَّ بعد ستة أيام وهو الخامس عشر من حين العلوق تنفذ الدموية في الجميع فتصير علقة ، وبعد ذلك بإثني عشر يوماً تصير لحماً وتتميّز قطعة لحم المضغة وتميّز الأعضاء الرئيسة ، وتمتد رطوبة النخاع ثم بعد تسعة أيام ينفصل الرأس عن المنكبين والأطراف عن الضلوع والبطن تميّزاً يحسّ به في بعضهم ويخفى في بعض حتى يحس به بعد أربعة أيام أُخرى تمام الأربعين فيصير جنيناً ، وقد يتم ذلك في ثلاثين يوماً وقد يتم في خمس وأربعين يوماً وقيل : العدل في ذلك خمسة وثلاثون يوماً فيتحرك في سبعين يوماً ، ويولد في مائتين وعشرة أيام وذلك سبعة أشهر ، وإذا كان الأكثر لخمسة وأربعين يوماً فتحرّك في تسعين يوماً ، ويولد في مائتين وسبعين يوماً ، وذلك تسعة أشهر فهذه إشارة إلى تنقّله في ظلمات الرحم بتدبير الملك المقتدر وواسطة الملك المصوّر ، ولو كشف الغطاء لرأينا هذا التخطيط والتصوير يظهر عليه شيئاً فشيئاً مع أنّا لا نرى المصور ولا آلته . فسبحان المقتدر على ما يشاء .

الثالثة : إنما وصف العلقة بالمحاق لأنها لم تفض عليها بعد صورة شخص الإنسان فهي بعد منمحقة .

الرابعة : الولد ما دام يرضع فهو رضيع ، وبعده وليد ، فإذا ارتفع قيل : يافع . فإذا طرّ شاربه فهو غلام ، فإذا أدرك فهو رجلٌ ، وللرجولية ثلاثة حدود : الشباب وهو إلى تمام النمو ، وبعده الكهولة ، وبعدها الشيخوخة .

الخامسة : ذكر الحفظ للقلب واللفظ للسان واللحظ للبصر بيان لفوائدها ، ثم ذكر غاية تلك الفوائد ومقصودها ، وهو أن يفهم الإنسان معتبراً أي يستنبط من شواهد آلاء الله دلائل وحدانيته وسائر نعوت جلاله ويعبر فيها إلى استكمال الفضائل النفسانية ويقصر مزدجراً : أي يكفّ عما لا ينبغي من موبقات الأيام وعن الخوض فيما لا يعنيه مزدجراً عنها .

السادسة : قوله حتى إذا قام اعتداله واستوى مثاله نفر مستكبراً إلى آخر الأوصاف . ربما يعترض فيقال : إنَّ كثيراً من الناس لا يكون بهذه الصفة وحينئذ لا تصدق عليهم هذه الأحكام . فجوابه : أن إشارته عليه السلام إلى الإنسان المطلق الذي هو في قوة البعض لا الإنسان العام ، وذلك أنّ الأوصاف المذكورة إذا صدقت على المطلق فقد صدقت على بعض الناس ، وذلك البعض هم العصاة المرادون بهذه الأوصاف ، والتوبيخ بها لهم ، وفيه تنبيه للباقين على وجوب دوام شكر الله والبقاء على امتثال أوامره ونواهيه .

السابعة : ماتحاً في غرب هواه . لما استعار لفظ الغرب لهواه الذي يملأ به صحائف أعماله من المآثم كما يملأ ذو الغرب غربه من الماء رشح تلك الاستعارة بذكر المتح .

الثامنة : المنصوبات العشرون : نطفة وعلقة وجنينا وراضعاً ووليداً ويافعاً ومعتبراً ومزدجراً ومستكبراً وسادراً وماتحاً وكادحاً وغريراً ومبلساً ومنقاداً وسلساً ورجيع وصب ونضو سقم ونجياً . كلها أحوال ، والعامل في كل حال

ما يليه من الأفعال وسعياً إما مفعول بـه والعامـل كادحـا او مصدر استغنى عن ذكـر فعله ، ويسيراً صفـة ظرف محـذوف أُقيمت مقامـه : أي زمانـاً يسيـراً ، وروي أسيراً فعلى هذا يكون حالاً ، وجزعاً وقلقاً وتقيّة مفعـول له ، واستعـار أسيراً للعاصي على الرواية الثانية ، ووجـه المشابهـة أن صاحب الـزلّة يقـوده هواه إلى هوانه كما يقاد الأسير إلى ما يكره .

التاسعة : لم يفد عوضاً : أي لم يستفد في الدنيا عوضاً مما يفوته منها في الآخـرة ، والعـوض الـذي ضيّعـه هـو الكمـالات التي خلق ليستفيـدهـا وفرضت عليه من الطاعات ولم يقضها من العلوم والأخلاق .

العاشرة : الواو في المرء للحـال والعامـل لادمة . والأنّـة الموجعـة أي لقلوب الواجدين عليه والجذبة المكربة : أي جذب الملائكة للروح كمـا قال تعـالى : ﴿ **ولو تـرى إذ الظالمـون في غمرات المـوت والملائكـة بـاسـطوا أيـديهم أخرجـوا أنفسكم** ﴾[1] الآية ، وروي عن رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم قـال : إن المؤمن إذا احتضر أتته الملائكة بحـريرة فيهـا مسك وضبـائر الـريحان فينسـل روحه كما تسلّ الشعرة من العجين ويقال : أيتها النفس المـطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية إلى روح الله وكرامته فإذا خرجت روحه وضعت على ذلك المسك والريحان وطويـت عليه الحريرة وبعث بها إلى علّيين ، وإنَّ الكافر إذا احتضر أمر الله الملائكة بمسح فيه جمرة فنزع روحـه انتزاعـاً شديـداً ويقال : أيتها النفس الخبيثة ارجعي ساخطة مسخوطاً عليك إلى هوان الله وعذابه فـإذا خرجت روحه وضعت على تلك الجمرة وكان لها نشيش ، ويطوى عليها ذلك المسح ، ويذهب بها إلى سجّين .

واعلم أن تلك الجذبة تعود إلى ما يجـده الميت حال النـزع وهو عبـارة عن ألم ينزل بنفس الروح يستغـرق جميع أجـزائه المنتشـرة في أعماق البـدن

---

(١) ٦ - ٩٣.

وليس هو كسائر ما تجده الروح المختصّ ببعض الأعضاء كعضو شاكته شوكة ونحوه لاختصاص ذلك بموضع واحد فألم النزع يهجم على نفس الروح ويستغرق جميع أجزائه وهو المجذوب من كل عرق وعصب وجزء من الأجزاء ومن أصل كل شعرة وبشرة . ولا تسألنّ عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه ، وقد يمثّل ذلك بشجرة شوك كانت داخل البدن ثمَّ جذبت منه فهي الجذبة المكربة ، ولما كان موت كل عضو من البدن عقيب الأمراض التي ربما طالت تدريجاً فتلك هي السوقة المتعبة .

الحادي عشر : قوله : رجيع وصب ونضو سقم استعار له وصفي الجمل فالرجيع باعتبار كونه قد ردّد في أطوار المرض وتواتر عليه كما يردد الجمل في السفر مرة بعد أخرى ، ولفظ النضو باعتبار نحوله من الأسقام كما ينحل الأسفار الجمل .

الثانية عشر : قوله : أُقعد في حفرته نجيّاً لبهتة السؤال إلى آخره .

أقول : القول بعذاب القبر وسؤال منكر ونكير حق روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال لعمر : يا ابن الخطاب كيف بك إذا أنت متّ فانطلق بك قومك فقاسوا لك ثلاثة أذرع في ذراع وشبر ثم رجعوا إليك فغسلوك وكفّنوك ثم احتملوك حتى يضعوك فيه ثم يهيلوا عليك التراب فيدفنوك فإذا انصرفوا عنك أتاك فتّانا القبر منكر ونكير أصواتهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف يجرّان أشعارهما ويحيثان القبر بأنيابهما فيلبلانك ويزلزلانك فيقولان لك : من ربك ؟ ومن نبيك ؟ وما دينك ؟ كيف بك عند ذاك يا عمر . فقال عمر : فيكون معي عقلي الآن ؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم : نعم قال : فإذن أكفيهما . وفي وصفهما عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنهما ملكان أسودان أزرقان أحدهما منكر والآخر نكير .

واعلم أنَّ الإيمان بما جاء من ذلك على ثلاثة مراتب :

أحدها : وهو الأظهر الأسلم أن يصدّق بأنها موجودة وأن هناك ملكين

على الصورة المحكية ، وحيات وعقارب تلدغ الميت ، وإن كنّا لا نشاهدها إذ لا تصلح هذه العين لمشاهدة الأمور الملكوتية ، وكل ما يتعلق بالآخرة فهو من عالم الملكوت كما كان الصحابة يؤمنون بنزول جبرائيل ، وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يشاهده وإن لم يكونوا يشاهدونه ، وكما أن جبرائيل لا يشبه الناس فكذلك منكر ونكير وفعلهما والحيّات والعقارب في القبر ليس من جنس حيّات عالمنا . فتدرك بمعنى آخر .

المقام الثاني : أن يتذكر ما قد يراه النائم من صورة شخص هائل يضربه أو يقتله أو حية تلدغه وقد يتألم بذلك حتى تراه في نومه يصيح ويعرق جبينه وينزعج من مكانه كل ذلك يدرك من نفسه ويشاهده ويتأذّى به كما يتأذى اليقظان وأنت ترى ظاهره ساكناً ولا ترى حوله شخصاً ولا حيّة ، والحية موجودة في حقه متخيّلة له ولا فرق بين أن يتخيّل عدواً أو حية أو يشاهده .

المقام الثالث : أن تعلم أنَّ منكراً ونكيراً وسائر أحوال القبر غايته الإيلام والمؤلم في حقه ليس هو الشخص المشاهد ولا الحية . بل ما حصل فيه من العذاب فالنفس العاصية إذا فارقت البدن حملت القوة المتخيّلة معها ولم يتجرّد عن البدن منزهة عن الهيئات البدنية والأخلاق الرديئة المهلكة من الكبر والرياء والحسد والحقد والحرص وغيرها ، وهي عند الموت عالمة بمفارقة البدن متوهمة لنفسها الإنسان الذي مات وعلى صورته كما كان في الرؤيا يتخيّل ويتوهم بدنها مقبورة ويتخيّل الآلام الواصلة إليها عن كل خلق رديء على سبيل العقوبة الحسية لها كما قررته الشريعة الصادقة ، وانغرس في الأذهان عنها على صورة شخص منكر هائل الصورة يعنفه في السؤال ويبهته بسوء منظره وهول أصواته ويمتحنه فيتلجلج لسانه فيضربه ويعذبه ، وعلى مثال تنين يلدغه ، وإن كانت النفس سعيدة تخيّلت اللذات الحاصلة لها من كل خلق حسن وعمل صالح قدمته في صورة ملائمة فوق ما كانت تعتقده مما كان وصف لها من صور أشخاص بهية يدخل عليهم ويتلقاهم بالبشارة كمبشر وبشير وسائر الملائكة الذين يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم ومن فسحة القبر والروح والريحان وسائر ما وعد فيه . فهذا عذاب

القبر وثوابه وإليه الإشارة بقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار .

فإن قلت : لم جعل أول داخل على الإنسان في قبره سواء كان سعيداً أو شقياً ملكين ولم يكن ثلاثة أو واحد مثلاً .

قلت : قال بعض العلماء : إنه لما كانت السعادة والشقاوةالحاصلتين للنفس إنما يحصل من جهة قوتين نظرية وعملية بهما جعل ما يكتسب عن كل واحدة منهما ملكاً . فإن كان المكتسب جهلاً مركباً ورذائل أخلاق فمنكر ونكير وإن كان علماً ومكارم فمبشر وبشير . والله أعلم بأسرار شريعته .

واعلم أنك متى تصورت معنى ثواب القبر وعذابه في المقامات تصورت معنى ثواب الجنة وعذاب النار .

الثالث عشر: قوله لا فترة مزيحة ولا قوة حاجزة يجري مجرى آيات الوعيد الناطقة بالتخليد ، وهي مخصوصة بالكفّار الذين لا مسكة لنفوسهم بعالم الملكوت ونحوه قوله تعالى : ﴿ **إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون** ﴾[1] وأما أنه ليس لهم قوة حاجزة فلأن القوة الحاجزة بينهم وبين العذاب مفقودة في حقهم وهي المسكة بالله تعالى ومحبة الالتفات إلى عالم الغيب والملإ الأعلى ، وأما عدم الموتة الناجزة فلأن الإنسان غير قابل للفناء مرة أخرى كما علم ذلك في موضعه، وأما سلب السنة عنهم إشارة إلى شدة آلامهم ، وما يلقونه من أليم العذاب لما أن الألم الشديد يستلزم عدم النوم فلا سلوة إذن بين حالات سكرات العذاب ، وإطلاق لفظ الموتات مجاز في شدة العذاب إطلاقاً لذى الغاية على ما يصلح غاية له وقد لاحظ في أكثر هذا الفصل السجع المتوازي وبالله التوفيق .

الفصل الثاني قوله :

عِبَادَ ٱللَّهِ ! أَيْنَ ٱلَّذِينَ عُمِّرُوا فَنَعِمُوا ، وَعُلِّمُوا فَفَهِمُوا ، وَأُنْظِرُوا فَلَهُوا ،

---

(١) ٤٣ ـ ٧٤.

وَسَلِمُوا فَنَسُوا ؟! أُمْهِلُوا طَوِيلاً ، وَمُنِحُوا جَمِيلاً ، وَحُذِّرُوا أَلِيماً ، وَوُعِدُوا جَسِيماً ، إِحْذَرُوا ٱلذُّنُوبَ ٱلْمُورِّطَةَ ، وَٱلْعُيُوبَ ٱلْمُسْخِطَةَ .

أُولِي ٱلْأَبْصَارِ وَٱلْأَسْمَاعِ ، وَٱلْعَافِيَةِ وَٱلْمَتَاعِ ! هَلْ مِنْ مَنَاصٍ أَوْ خَلَاصٍ ، أَوْ مَعَاذٍ أَوْ مَلَاذٍ ، أَوْ فِرَارٍ أَوْ مَحَارٍ ؟ أَمْ لَا ؟ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ؟ أَمْ أَيْنَ تُصْرَفُونَ ؟ أَمْ بِمَاذَا تَغْتَرُّونَ ؟ وَإِنَّمَا حَظُّ أَحَدِكُمْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ، ذَاتِ ٱلطُّولِ وَٱلْعَرْضِ ، قَيْدُ قَدِّهِ ، مُتَعَفِّراً عَلَى خَدِّهِ . أَلْآنَ ، عِبَادَ ٱللَّهِ ، وَٱلْخَنَاقُ مُهْمَلٌ ، وَٱلرُّوحُ مُرْسَلٌ ، فِي فَيْنَةِ ٱلْإِرْشَادِ ، وَرَاحَةِ ٱلْأَجْسَادِ ، وَبَاحَةِ ٱلِاحْتِشَادِ ، وَمَهَلِ ٱلْبَقِيَّةِ ، وَأُنُفِ ٱلْمَشِيَّةِ ، وَإِنْظَارِ ٱلتَّوْبَةِ ، وَٱنْفِسَاحِ ٱلْحَوْبَةِ ، قَبْلَ ٱلضَّنْكِ وَٱلْمَضِيقِ ، وَٱلرَّوْعِ وَٱلزُّهُوقِ ، وَقَبْلَ قُدُومِ ٱلْغَائِبِ ٱلْمُنْتَظَرِ ، وَأَخْذَةِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْمُقْتَدِرِ .

أقول : ورّطته في الأمر : خلصته فيه . والمناص : الملجأ . والمحار : المرجع . وأفك : صرف . وقيد قده : مقدار قامته . والمعفر : المترب . والعفر : التراب . والفينة : الحين. وأنف الشيء : أوله . والحوبة : الحاجة والمسكنة . والضنك : الضيق . وفي هذا الفصل فوائد :

الأولى : التنبيه والتقريع على كفران جملة من نعم الله ، فمنها أن عمّرهم فنعموا ، وعلمهم ففهموا ، وأنظرهم وسلّمهم من الآفات وأمهلهم طويلاً ، ومنحهم الجميل ، وحذّرهم أليم العذاب ، ووعدهم وعداً حسناً . ومن كفرانهم لتلك النعمة أن اشتغلوا بلذات الدنيا عن أوامره ولهوا عن الالتفات إليه ونسوا ما ذكرهم به ودعاهم إليه .

الثانية : التحذير من الذنوب المورطة في موارد الهلكة وأنواع العذاب ثم من العيوب المسخطة لله وهي اكتساب رذائل الأخلاق .

الثالثة : تنبيه أولي الأبصار والأسماع والعافية والمتاع في الدنيا على أنه لا مناص : أي من أمر الله ، ولا خلاص : أي من عذابه لمن حصل فيه ، وكذلك لا معاذ ولا ملاذ منه لمن استعدّ له . ولا فرار : أي من حكمه ، ولا

مرجع : أي بعد الموت . وإنما خصّ أولي الأبصار والأسماع والعافية لكونهم أهل التكاليف التامة ، والعقول داخلة في إشارته إما بالأبصار والأسماع مجازاً أو في العافية ، وإنما خصّ أولي المتاع لأن أهل الاستمتاع بالدنيا هم المجذوبون عنها من جهة اشتغالهم بمتاعها عن سلوك سبيل الله ، وهل استفهام عن الأمور المذكورةعلى سبيل الإنكار لها ثم استفهمهم عن وقت صرفهم ، وعن مكان ذلك على سبيل التقريع لهم ، ثم عما يعتذرون به بعد لقاء الله في ترك أوامره على سبيل الإنكار للأعذار أيضاً . وأم معادلة لهل الاستفهامية .

الرابعة : التذكير بأمر القبر وتعفير الخد فيه مما هو منفور عنه طبعاً وفيه تنبيه على وجوب الانتهاء عن الاستكثار من قينات الدنيا وجناتها لوجوب مفارقتها وأنه لا نصيب للمجد في تحصيلها منها إلّا مقدار قامته وهو كناية عن قبره .

الخامسة : التنبيه على وقت العمل والأحوال التي يمكنهم فيها . وكنّى بالآن عن زمان الحياة الدنيا ، وبالخناق عما تؤخذ به أعناق النفوس إلى بارئها وهو الموت كناية بالمستعار ، ووجه المشابهة كون كل واحد منهما مكرهاً يقاد به إلى مكروه ورشح الاستعارة بذكر الإهمال ، وكنى به عن مدة الإمهال في الحياة الدنيا وكذلك أراد بإرسال الروح إهمالها ، ويكون ذلك الإرسال في فينة الارتياد : أي في زمان ارتياد النفوس وطلبها لما تستعد به من الكمال للقاء الله . وروي الإرشاد : أي إرشاد النفوس إلى سبيل الله وجهة السعادة الأبدية وكذلك مهل البقية : أي بقية الأعمار .

السادسة : قوله: وأُنف المشية : أي أول الإرادات للنفوس ، وذلك أنه ينبغي أن يكون أول زمان الإنسان وأوائل ميول قلبه إلى طاعة الله والانقياد لأوامره ليكون ما يرد على لوح نفسه من الكمالات المسعدة في الأخرة وارداً على لوح صاف عن كدر الباطل وأنه متى عكس ذلك فجعل أوائل ميوله وإرادته لمعاصي الله تسوّد وجه نفسه بملكات السوء فلم يكد يقبل بعد ذلك

الاستضاءة بنور الحق فكان من الأخسرين أعمالاً .

السابعة : إنظار التوبة إمهال الله العصاة لأجلها ولما كان غرض العناية الإلهية سوق كل ناقص إلى كماله حسن أن يعبر عن بقاء العاصي بأنه إنظار للتوبة .

الثامنة : وانفساح الحوبة اتساع زمان العمل للحاجة في الآخرة . والإضافة يكفي فيها أدنى ملابسة وذلك أن كل حاجة فرضها الإنسان في الدنيا فقد لا تكون في محل الضرورة ، والضيق الكلي منها ، وإن كانت في محل الضرورة لكنها في مظنة أن يرجي زوالها بخلاف الحاجة والضرورة في الآخرة إلى صالح الأعمال فإنها لا يمكن زوالها بعد المفارقة ولا متسع للعمل إلّا في الدنيا وكان أهلها منها في أشد ضرورة وأضيق حال وأقبح صورة ، وأشار بالضنك والضيق إلى انحصار الإنسان في أغلال الهيئات البدنية وسجن جهنم ، وبالروع والزهوق إلى الفزع الأكبر من أهوال الموت وما بعده .

التاسعة : الغائب المنتظر كناية عن الموت ، وقدومه : هجومه ، ولما استعار له لفظ الغائب مراعاة لشبهه بمسافر ينتظر رشح تلك الاستعارة بلفظ القدوم .

العاشرة : أخذة العزيز المقتدرٌ جذب الأرواح بحكم قدرة الله العزيز الذي لا يلحقه إذلال قاهر ، المقتدر الذي لا امتناع له لقدرة قادر . وبالله التوفيق .

٨١ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

فِي ذِكْرِ عَمْرو بْنِ الْعَاصِ

عَجَباً لِابْنِ ٱلنَّابِغَةِ ، يَزْعُمُ لأَهْلِ ٱلشَّامِ ، أَنَّ فِيَّ دُعَابَةً ، وَأَنِّي ٱمْرُؤٌ تِلْعَابَةٌ، أُعَافِسُ ، وَأُمَارِسُ . لَقَدْ قَالَ بَاطِلًا ، وَنَطَقَ آثِماً . أَمَا وَشَرُّ ٱلْقَوْلِ ٱلْكَذِبُ ، إِنَّهُ لَيَقُولُ فَيَكْذِبُ ، وَيَعِدُ فَيُخْلِفُ ، وَيَسْأَلُ فَيُلْحِفُ ، وَيُسْأَلُ فَيَبْخَلُ ، وَيَخُونُ ٱلْعَهْدَ ، وَيَقْطَعُ ٱلْإِلَّ . فَإِذَا كَانَ عِنْدَ ٱلْحَرْبِ ، فَأَيُّ زَاجِرٍ

وَآمِرٍ هُوَ؟؟!! مَا لَمْ تَأْخُذِ ٱلسُّيُوفُ مَآخِذَهَا ، فَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ ، كَانَ أَكْبَرُ مَكِيدَتِهِ أَنْ يَمْنَحَ ٱلْقِرْمَ سُبَّتَهُ .

أَمَا وَٱللَّهِ إِنِّي لَيَمْنَعُنِي مِنَ ٱللَّعِبِ ذِكْرُ ٱلْمَوْتِ ، وَإِنَّهُ لَيَمْنَعُهُ مِنْ قَوْلِ ٱلْحَقِّ نِسْيَانُ ٱلآخِرَةِ ، إِنَّهُ لَمْ يُبَايِعْ مُعَاوِيَةَ حَتَّى شَرَطَ لَهُ أَنْ يُؤْتِيَهُ أَتِيَّةً ، وَيَرْضَخَ لَهُ عَلَى تَرْكِ ٱلدِّينِ رَضِيخَةً .

أقول : نبغ الشيء : ظهر وسميت أم عمرو النابغة لشهرتها بالفجور وتظاهرها به . والدعابة : المزاح . والتلعابة : كثير اللعب والتاء للمبالغة . والمعافسة : المداعبة . والممارسة : المعالجة بالمصارعة والقرص ونحوه . والإلّ : القرابة . وسبّته : سوءته . والأتيّة : العطية والوزن واحد وكذلك الرضيخة .

واعلم أن في هذا الفصل ثلاثة فصول :

الأول : ذكر دعوىٰ عمرو في حقه عليه‌السلام من كونه لعاباً مزاحاً يكثر المعالجة بالمصارعة وذكر هذه الدعوى مصدرة بالتعجب من صدورها في حقه مختومة بالكذب لمدعيها، والرد لمقاله وذلك قوله : عجباً إلى قوله : ونطق آثماً وباطلاً وصف للمصدر ، وآثماً حال وإنما كني عنه بأمه لأن من عادة العرب النسبة إلى الأم إذا كانت مشهورة بشرف أو خسة ونحوها .

واعلم أنه عليه‌السلام قد كان يصدر عنه المزاح بالقدر المعتدل الذي لا يخرج به إلى حدّ رذيلة الإفراط فيه فمن ذلك ما روي أنه كان جالساً يوماً على ربوة من الأرض ، وكان أبو هريرة جالساً معه وأخذ منه لفتة وحذفه بنواة فالتفت إليه أبو هريرة فتبسم عليه‌السلام فقال أبو هريرة : هذا الذي أخّرك عن الناس ، وقد علمت أن ذلك من توابع حسن الخلق ولين الجانب فهو إذن فضيلة وليس برذيلة والمدّعى لعمرو إنما هو عبوره في ذلك إلى حد الإفراط الذي يصدق عليه أنه لعب وهزل ، وروي أنه كان يقول لأهل الشام :

إنّا إنما أخّرنا علياً لأن فيه هزلاً لا جدّ معه ونحوه ما كان يقوله أبوه

العاص لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنه لساحر ومن أشبه أباه فما ظلم وتكذيبه عليه السلام لعمرو إنما هو فيما ادّعاه من الخروج إلى اللعب وأما أصل المزاح فلم ينكره وكيف وقد كان يصدر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما روي أنه قال يوماً لعجوز : إن العجائز لا يدخلنَ الجنة فبكت فتبسم وقال إن الله يجعلهنّ شواب ثم يدخلهنّ الجنة وأهل الجنة شباب جرد مرد وإن الحسن والحسين عليهما السلام . سيدي شباب أهل الجنة. وكان يقول : أمزح ولا أقول إلاّ حقاً .

الثاني : قوله : أما وشر القول إلى قوله سبّته ويشتمل على ذكر ما اجتمع في هذا المدعي من الرذائل التي توجب فسقه وسقوط دعواه لقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيّنوا** ﴾[1] الآية. وذكر من تلك الرذائل خمساً .

الأولى : الكذب وظاهر كونه شر القول وأنه مفسدة مطلقة في الدين والدنيا أما الدين فللمنقول والمعقول أما المنقول فقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الكذب رأس النفاق ، وأما المعقول فلأن الوجدان شاهد بأن الكذب مما يسوّد لوح النفس ويمنعه أن ينتقش بصور الحق والصدق ويفسد المنامات والإلهامات ، وأما الدنيا فلأنه سبب عظيم لخراب البلاد وقتل النفوس وسفك الدماء وأنواع الظلم ولذلك اتفق أهل العالم من أرباب الملل وغيرهم على تحريمه وادعى المعتزلة قبحه بالضرورة وهو رذيلة مقابلة للصدق داخلة تحت رذيلة الفجور .

الثانية : الخلف في الوعد .

الثالثة : الغدر في العهد وخيانته وهما رذيلتان مقابلتان للوفاء داخلتان تحت رذيلة الفجور أيضاً والغدر يستلزم رذيلة الخبث وهو طرف الإفراط من فضيلة الذكاء وهما يستلزمان الكذب أيضاً .

الرابعة : قطع الرحم وهي رذيلة الإفراط من فضيلة صلة الرحم وحقيقتها عدم مشاركة ذوي اللحمة في الخيرات الدنيوية وهي رذيلة تحت

---

(١) ٤٩ - ٦.

الظلم مستلزمة للبخل .

الخامسة : رذيلة الجبن وهي طرف التفريط من فضيلة الشجاعة ونبه عليها بقوله : فإذا كان عند الحرب فأي زاجر وآمر هو إلى قوله : سبّته ، وفيه تنبيه على دناءة همته ومهانة نفسه إذ لو كان عليّ الهمة شهم النفس لا يفرّ من قراع الأقران إلى التخلّص من الموت بأقبح فعل يكون من كشف سوءته وبقاء ذلك سبّة في عقبه على مرور الدهور . والدناءة والمهانة رذيلتان تحت الجبن .

وقوله : فأي زاجر وآمر .

هو استفهام على سبيل التعجب والمبالغة في أمره ونهيه وذكره في معرض الذم هنا وإن كان من الممادح لغرض أن يردفه برذيلته ليكون ذلك خارجاً مخرج الاستهزاء فيكون أبلغ وقعاً في النفوس وأشد عاراً عليه إذ كان الأمر والنهي في الحرب إنما يحسن ممن يشتهر بالشجاعة والإقدام لا ممن يأمر وينهى فإذا اشتد القتال فرّ فرار الحمار من السبع واجتهد في البقاء، ولو بأقبح مذمة فإن عدم الأمر والنهي والخمول بمثل هذا أليق وأولى من وجودها وكأن أبا الطيب حكى صورة حاله إذ قال .

وإذا ما خلا الجبان بأرض طلب الطعن وحده والنزالا

وأما صورة هذه الرذيلة منه فروي أن علياً عليه السلام حمل عليه في بعض أيام صفين فلما تصور أنه قاتله ألقى نفسه عن فرسه وكشف سوءته مواجهاً له عليه السلام فلما رأى ذلك منه غضّ بصره عنه وانصرف عمرو مكشوف العورة ونجا بذلك فصار مثلاً لمن يدفع عن نفسه مكروهاً بارتكاب المذلّة والعار ، وفيه يقول أبو فراس .

ولا خير في دفع الأذىٰ بمذلة كما ردّها يوماً بسوءته عمرو

وروي مثل ذلك لبسر بن أرطاة معه فإنه عليه السلام حمل على بسر فسقط بسر على قفاه ورفع رجليه فانكشفت عورته فصرف عليه السلام وجهه عنه فلما قام

سقطت البيضة عن رأسه فصاح أصحابه يا أمير المؤمنين إنه بسر بن أرطاة فقال : ذروه ـ لعنه الله ـ فلقد كان معاوية أولى بذلك منه . فضحك معاوية وقال : لا عليك يا بسر ارفع طرفك ولا تستحي فلك بعمرو أُسوة ، وقد أراكَ الله منه وأراه منك . فصاح فتى من أهل الكوفة : ويلكم يا أهل الشام أما تستحيون لقد علمكم عمرو كشف الأستار ثم أنشد :

أفي كل يوم فارس ذو كريهة ... له عورة وسط العجاجة بادية

يكفّ لها عنه عليٌّ سنانه ... ويضحك منها في الخلاء معاوية

بدت أمس من عمرو فقنع رأسه ... وعورة بسر مثلها حذو حاذية

فقولا لعمرو وابن أرطاة ابصرا ... نشدتكما لا تلقيا الليث ثانية

ولا تحمدا إلاّ الحيا وخصاكما ... هما كانتا والله للنفس واقية

ولولا هما لم تنجوا من سنانه ... وتلك بما فيها عن العود ناهية

وكان بسر ممن يضحك من عمرو فصار ضحكة له أيضاً .

الثالث : بيان وجه فساد مدعى عمرو في حقه وهو مستند المنع وذكر وجهين :

أحدهما : يرجع إليه وهو أنه عليه السلام دائم الذكر للموت والتفكر في أحوال المعاد والوجدان شاهد بأن المستكثر من إخطار الموت عليه يكون أبداً قصير الأمل وجلاً من الله مترصداً لهجوم الموت عليه مشغولاً بذلك عن الالتفات إلى حظ الشهوات من اللعب ونحوه فكيف يتصور اللعب ممن هذه حاله .

الثاني : يرجع إلى حال عمرو وهو أنه ممن نسي الآخرة ، وظاهر أن نسيانها مستلزم للكذب وسائر وجوه خداع أبناء الدنيا من المكر والحيلة وما لا ينبغي من مناهي الله ، ومن كانت هذه حاله كيف يوثق بقوله ، ثم نبه بقوله : ولم يبايع معاوية. إلى آخره على بعض لوازم نسيان الآخرة ، وهو أخذه لبيعته وقتاله مع الإمام الحق الذي يخرج به عن ربقة الدين عوضاً وثمناً . وتلك العطية هي مصر كما سبقت الإشارة إليه . وبالله العصمة والتوفيق .

٨٢ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا ٱللَّهُ ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، ٱلأَوَّلُ لَا شَيْءَ قَبْلَهُ ، وَٱلآخِرُ لَا غَايَةَ لَهُ ، لَا تَقَعُ ٱلأَوْهَامُ لَهُ عَلَى صِفَةٍ ، وَلَا تَعْقِدُ ٱلْقُلُوبُ مِنْهُ عَلَى كَيْفِيَّةٍ ، وَلَا تَنَالُهُ ٱلتَّجْزِئَةُ وَٱلتَّبْعِيضُ ، وَلَا تُحِيطُ بِهِ ٱلأَبْصَارُ وَٱلْقُلُوبُ .

أقول : هذا الفصل يشتمل على إثبات ثماني صفات من صفات الجلال :

الأولى : الوحدانية مؤكدة بنفي الشركاء وذلك قوله : لا شريك له . وقد أشرنا إلى معقد البرهان العقلي على الوحدانية، ولما لم تكن هذه المسألة مما يتوقف إثبات النبوة عليها جاز الاستدلال فيها بالسمع كقوله تعالى : ﴿ **لو كان فيهما آلهة إلاّ الله لفسدتا** ﴾[1] وقوله : ﴿ **وإلهكم إله واحدٌ لا إله إلاّ هو** ﴾.

الثانية : إثبات كونه أوّلاً غير مسبوق بالغير .

الثالثة : إثبات كونه آخراً غير منته وجوده إلى غاية يقف عندها . وقد سبق البحث عنهما مستقصى ونفي قبلية شيء له والغاية عنه تأكيدان .

الرابعة : من السلوب أنه لا تلحقه الأوهام فيقع منه على صفة . وقد علمت فيما سبق أن الأوهام لا يصدق حكمها إلاّ فيما كان محسوساً أو متعلقاً بمحسوس فأما الأمور المجردة من علائق المادة والوضع فالوهم ينكر وجودها أصلاً فضلاً عن أن يصدّق في إثبات صفة لها، وإنما الحاكم بإثبات صفة له العقل الصرف ، وقد علمت أن ما يثبته منها ليست حقيقة خارجية. بل أموراً اعتبارية محدثها عقولنا عند مقايسته إلى الغير ، ولا يفهم من هذا أنه أثبت له صفة بل معناه أن الأوهام لا يصدق حكمها في وصفه تعالى .

---

(١) ٢١ ـ ٢٢.

الخامسة : كونه تعالى لا يعقل له كيفية يكون عليها ؛ وبيان ذلك ببيان معنى الكيفية فنقول : إنّها عبارة عن هيئة قارة في المحل لا يوجب اعتبار وجودها قسمة ولا نسبة ، ولما بيّنا أنه تعالى ليس له صفة تزيد على ذاته ، وهي محلّ لها استحال أن يعقد القلوب منه على كيفية .

السادسة : كونه تعالى لا تناله التجزئة والتبعيض، وهو إشارة إلى نفي الكمية عنه إذ كانت التجزئة والتبعيض من لواحقها، وقد علمت أن الكم من لواحق الجسم والباري تعالى ليس بجسم وليس بكم فليس بقابل للتبعيض والتجزئة ولأن كل قابل لهما منفعل من غيره والمنفعل عن الغير ممكن على ما مرّ .

السابعة : كونه تعالى لا تحيط به الأبصار وهو كقوله تعالى : ﴿ **لا تدركه الأبصار** ﴾ وهذه المسألة مما اختلف فيها علماء الإسلام وقد سبق فيها الكلام. وخلاصته : أن المدرك بحاسة البصر بالذات إنما هو الألوان والأضواء وبالعرض المتلوّن والمضيء ولما كان اللون والضوء من خواص الجسم وكان تعالى منزهاً عن الجسمية ولواحقها وجب كونه منزهاً عن الإدراك بحاسة البصر .

الثامنة : كونه تعالى لا تحيط به القلوب ، والمراد أن العقول البشرية قاصرة عن الإحاطة بكنه ذاته المقدسة وقد سبق تقرير ذلك . وبالله التوفيق .

منها : فَاتَّعِظُوا ، عِبَادَ ٱللّٰهِ ، بِٱلْعِبَرِ ٱلنَّوَافِعِ ، وَٱعْتَبِرُوا بِٱلآيِ ٱلسَّوَاطِعِ ، وَازْدَجِرُوا بِالنُّذُرِ ٱلْبَوَالِغِ ، وَٱنْتَفِعُوا بِالذِّكْرِ وَٱلْمَوَاعِظِ . فَكَأَنْ قَدْ عَلِقَتْكُمْ مَخَالِبُ ٱلْمَنِيَّةِ ، وَٱنْقَطَعَتْ مِنْكُمْ عَلاَئِقُ ٱلأُمْنِيَّةِ ، وَدَهَمَتْكُمْ مُفْظِعَاتُ ٱلْأُمُورِ ، وَٱلسِّيَاقَةُ إِلَى ٱلْوِرْدِ ٱلْمَوْرُودِ ، وَكُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ، سَائِقٌ يَسُوقُهَا إِلَى مَحْشَرِهَا ، وَشَاهِدٌ يَشْهَدُ عَلَيْهَا بِعَمَلِهَا .

أقول : الآي : جمع آية . والساطع : المرتفع . والنذر : جمع نذير . ومفظعات الأمور : شدائدها . والورد : المورد . وفي هذا الفصل فوائد :

الأولى : الأمر بالاتعاظ بالعبر النوافع ، واسم العبرة حقيقة في الاعتبار ، وقد يطلق مجازاً فيما يعتبر به ، ويحتمل أن يراد هاهنا إطلاقاً لاسم الحال على المحل وللاتعاظ سبب وحقيقة وثمرة وأما سببه فالنظر في آثار الماضين وتدبر قصصهم وتصريف قضاء الله وقدرته لأحوالهم وهو الاعتبار ، وأما حقيقته فالخوف الحاصل في نفس المعتبر من اعتباره وتأثره عن أن يلحقه ما لحقهم إذ هو مثلهم وأولى بما لحقهم ، وأما ثمرته فالانزجار عن مناهي الله وإجابة داعيه والانقياد لسلوك سبيله .

الثانية : الأمر بالاعتبار بالآي السواطع وهو إرداف للأمر بالاتعاظ بالأمر بسببه وأراد بالآي آيات آثار الله وعجائب مصنوعاته أو آيات القرآن المعذرة والمنذرة ، واستعار لها لفظ السطوع ، ووجه المشابهة ظهور إشراق أنوار الحق منها على مرايا قلوب عباد الله كإشراق نور الصبح وسطوعه وهو استعارة لفظ المحسوس للمعقول واعتباره بها انتقال ذهنه فيها في مقام النظر والاستدلال كما سلف بيانه .

الثالثة : الأمر بالازدجار بالنذر البوالغ وهو أمر بفائدة الاتعاظ والنذر هي زواجر الله ووعيداته البالغة حدّ الكمال في التخويف والزجر عند اعتبارها .

الرابعة : الأمر بالانتفاع بالذكر والمواعظ . وهو أمر بتحصيل ثمرة الذكر والموعظة عنهما ، وختم هذا الأمر بذكر الانتفاع ترغيباً وجذباً للنفوس إلى الذكر وقبول المواعظ .

الخامسة : التخويف والتذكير بالموت وما يتبعه ليبادروا إلى امتثال أوامره السابقة فقوله : فكأن قد علقتكم مخالب المنية. استعار لفظ المخالب للمنية استعارة بالكناية ورشح بذكر العلوق ملاحظاً في ذلك تشبيه المنية بالسبع الذي يهجم ويتوقع إفراسه وكأن مخففة من كأنَّ واسمها ضمير الشأن ، ويحتمل أن يكون أن الناصبة للفعل دخلت عليها كاف التشبيه .

وقوله : وانقطعت عنكم علائق الأُمنية .

إشارة إلى ما ينقطع عن الميت بانقطاع أمله من مال وجاه وسائر ما كان

يتعلق به آماله من علائق الدنيا ومتاعها .

وقوله : **ودهمتكم مفظعات الأمور .**

إشارة إلى ما يهجم على الميت من سكرات الموت وما يتبعها من عذاب القبر وأهوال الآخرة .

وقوله : والسياقة إلى الورد المورود .

فالسياقة هي السوقة المتعبة التي سلف ذكرها ، والورد المورود هو المحشر .

وقوله : وكل نفس معها سائق وشهيد .

اقتباس للآية : ﴿ **وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد** ﴾ فالسائق الذي يسوقها إلى المحشر هو حكم القضاء الإلهي وأسباب الموت القريبة الحاكمة على النفس برجوعها إلى معادها فإن كانت من أهل الشقاوة فيا لها من سوقة متعبة وجزية مزعجة .﴿ **وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم** ﴾ الآيات ، وإن كانت من أهل السعادة ساقها سائق رؤوف سوقاً لطيفاً ﴿ **ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون** ﴾ ﴿ **وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين** ﴾ وأما الشاهد عليها [بعملها] فقد سبقت الإشارة إليه . وبالله التوفيق .

وَمِنْهَا فِي صِفَةِ الْجَنَّةِ :

دَرَجَاتٌ مُتَفَاضِلاَتٌ ، وَمَنَازِلٌ مُتَفَاوِتَاتٌ ، لاَ يَنْقَطِعُ نَعِيمُهَا ، وَلاَ يَظْعَنُ مُقِيمُهَا ، وَلاَ يَهْرَمُ خَالِدُهَا وَلاَ يَبْأَسُ سَاكِنُهَا .

أقول : اعلم أن ألذّ ثمار الجنة هي المعارف الإلهية بالنظر إلى وجه الله ذي الجلال والإكرام . والسعداء في الوصول إلى نيل هذه الثمرة على مراتب متفاوتة ودرجات متفاضلة .

فالأولى : مرتبة من أوتي الكمال في حدس القوة النظرية حتى استغنى عن معلم بشري رأساً وأوتي مع ذلك ثبات قوته المتفكرة واستقامة وهمه منقاداً تحت قلم العقل فلا يلتفت إلى العالم المحسوس بما فيه حتى يشاهد العالم المعقول بما فيه من الأحوال ويستثبتها في اليقظة فيصير العالم وما يجري فيه متمثلاً في نفسه فيكون لقوته النفسانية أن يؤثر في عالم الطبيعة حتى ينتهي إلى درجة النفوس السماوية ، وتلك هي النفوس القدسية أولات المعارج وهم السابقون السابقون أولئك المقربون ، وهم أفضل النوع البشري ، وأحقه بأعلى درجات السعادة في الجنة .

المرتبة الثانية : مرتبة من له الأمران الأولّان دون الثالث أعني التأثير في عالم الطبيعة ، وهذه مرتبة أصحاب اليمين وتحتها مراتب .

فأحدها : مرتبة من له استعداد طبيعي لاستكمال قوته النظرية دون العملية .

الثانية : من اكتسب ذلك الاستكمال في قوته النظرية اكتساباً تكليفياً دون تهيؤ طبيعي ولا حصة له في أمر القوة العملية .

الثالثة : مرتبة من ليس له تهيؤ طبيعي ولا اكتساب تكليفي في قوته النظرية وله ذلك التهيؤ في القوة العمليّة .

الرابعة : مرتبة من له تكلف في إصلاح الأخلاق واكتساب الملكات الفاضلة دون تهيؤ طبيعي لذلك .

إذا عرفت ذلك فاعلم أن للمقربين البالغين في الملكات الشريفة لذات عظيمة في الجنة قد فازوا بنعيم الأبد والسرور الدائم في حضرة جلال رب العالمين في مقعد صدق عند مليك مقتدر غير مخرجين عن لذاتهم لهم فيها ما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين، وهم فيها خالدون كما قال عليه السلام : لا يظعن مقيمها . جرد عن عوارض الأبدان وشوائب المواد مرد عن مزاحمة القوى المتغالبة المتجاذبة المؤدية إلى الهرم والموت مكحلين بالأنوار الساطعة

ينظرون إلى ربهم بوجوههم المفارقة .

وأما أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين ولهم لذات دون الوصول إلى مرتبة السابقين ، وقد يخالط لذات هؤلاء شوب من لذات المقربين كما أُشير إليها في التزيل الإلّهي في وصف شراب الأبرار ﴿ **ومزاجه من تسنيم عيناً يشرب بها المقربون** ﴾ ولكل من المراتب كمال يخصه ودرجات من السعادة في الجنة تخصّه كما قال : ﴿ **لهم درجات عند الله** ﴾ وقال : ﴿ **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أُوتوا العلم درجات** ﴾ وقال : ﴿ **لهم غرف مبنيّة من فوقها غرف تجري من تحتها الأنهار** ﴾ .

وإذا عرفت ذلك فلنرجع إلى المتن فنقول : أما قوله : لا ينقطع نعيمها فلقوله تعالى : ﴿ **وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلّا ما شاء ربك عطاءً غير مجذوذ** ﴾ وقوله : ﴿ **إنَّ هذا لرزقنا ما له من نفاد** ﴾ ولأن الكمال الذي حصل للإنسان فاستحق به سعادة في الجنة ملكات ثابتة في جوهره لا تزول ولا تتغيّر ومهما دام الاستحقاق القابل لجود الله ونعمته وجب دوام ذلك الجود وفيض تلك النعمة إذ هو الجواد المطلق الذي لا بخل من جهته ولا منع .

وأما قوله : ولا يظعن مقيماً فلقوله تعالى : ﴿ **لهم جنات النعيم خالدين فيها أبداً** ﴾ وقوله : ﴿ **إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا خالدين فيها لا يبغون عنها حولا** ﴾ ولأنَّ النعيم الأبدي مطلوب بالذات غير ممنوع منه فلا يكون مهروباً عنه بالذات .

وأما قوله : ولا يهرم خالدها ولا ييأس ساكنها : أي لا يصيبه بؤس فلأن الهرم مستلزم للتعب والنصب وكذلك البؤس عن الضعف، وهذه اللوازم منفية عن أهل الجنة لقوله تعالى : ﴿ **وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنّا الحزن إنّ ربنا لغفور شكور الذي أحلّنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب** ﴾ وبانتفاء هذه اللوازم ينتفي عنهم ملزومها وهو الهرم . وبالله التوفيق .

٨٣ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

وفيها فصول : الأول : قوله :

قَدْ عَلِمَ ٱلسَّرَائِرَ ، وَخَبَرَ ٱلضَّمَائِرَ ، لَهُ ٱلْإِحَاطَةُ بِكُلِّ شَيْءٍ . وَٱلْغَلَبَةُ لِكُلِّ شَيْءٍ ، وَٱلْقُوَّةُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ .

وهذا الفصل يشتمل على بعض أوصاف الحق سبحانه :

الأول : كونه عالماً بالسرائر وهو كقوله تعالى : ﴿ **يعلم سرّكم ونجواكم** ﴾ .

الثاني : كونه خبيراً بالضمائر . وهو قريب من المرادف للعالم بالسرائر فإن الخبير هو الذي لا يعزب عنه الأخبار الباطنة ولا تضطرب نفس ولا تسكن إلّا ويكون عنده خبرها وذلك بعينه هو العالم مضافاً إلى السرائر والخفايا الباطنة وإن كان مطلق العلم أعمّ .

الثالث : كونه محيطاً بكل شيء . وهو إشارة إلى علمه بكلّيات الأشياء وجزئياتها ، وعليه اتفاق جمهور المتكلمين والحكماء : أما المتكلمون فظاهر ، وأما المحققون من الحكماء فملخّص كلامهم إجمالاً في كيفية علمه تعالى أنه يعلم ذاته بذاته ويتّحد هناك المدرك والمدرك والإدراك ولا يتعدّد إلّا بحسب الاعتبارات العقلية التي تحدثها العقول البشرية .

وأما معلولاته القريبة منه فيكون بأعيان ذواتها ويتحد هناك المدرك والإدراك ولا يتعددان إلّا باعتبار عقلي ويغايرهما المدرك ، وأما معلولاته البعيدة كالماديات والمعدومات التي من شأنها إمكان أن توجد في وقت أو يتعلق بموجود فيكون بارتسام صورها المعقولة من المعلولات القريبة التي هي المدركات لها أولاً وبالذات وكذلك إلى أن ينتهي إلى إدراك المحسوسات بارتسامها في آلات مدركاتها . قالوا : وذلك لأن الموجود في الحاضر حاضر والمدرك للحاضر مدرك لما يحضر معه فإذن لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في

السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر لكون ذوات معلولاته القريبة مرتسمة بجميع الصور وهي التي يعبر عنها تارة بالكتاب المبين وتارة باللوح المحفوظ وتسمى عندهم عقولاً فعالة .

الرابع : كونه تعالى غالباً لكل شيء .

الخامس : كونه قوياً على كل شيء ، وهما إشارتان إلى وصف قدرته تعالى بالتمام على كل مقدور فإن القوة عليها والغلبة لها من تمام القدرة ويفهم من الغالب زيادة على القوى ويعود إلى معنى القاهر . وقد سبق بيانه ، وأما بيان صدق هاتين القضيتين فببيان أنه تعالى مبدأ كل موجود وأن كل ممكن مفتقر في سلسلة الحاجة إليه ، وقد فرغ من ذلك في الكتب الكلامية .

الفصل الثاني قوله :

فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَامِلُ مِنْكُمْ فِي أَيَّامِ مَهَلِهِ . قَبْلَ إِرْهَاقِ أَجَلِهِ ، وَفِي فَرَاغِهِ ، قَبْلَ أَوَانِ شُغُلِهِ ، وَفِي مُتَنَفَّسِهِ ، قَبْلَ أَنْ يُؤْخَذَ بِكَظَمِهِ ، وَلْيُمَهِّدْ لِنَفْسِهِ وَقُدُومِهِ ، وَلْيَتَزَوَّدْ مِنْ دَارِ ظَعْنِهِ لِدَارِ إِقَامَتِهِ . فَٱللَّهَ ٱللَّهَ ، أَيُّهَا ٱلنَّاسُ فِيمَا ٱسْتَحْفَظَكُمْ مِنْ كِتَابِهِ ، وَٱسْتَوْدَعَكُمْ مِنْ حُقُوقِهِ ، فَإِنَّ ٱللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً ، وَلَمْ يَتْرُكْكُمْ سُدىً ، وَلَمْ يَدَعْكُمْ فِي جَهَالَةٍ وَلاَ عَمىً . قَدْ سَمَّى آثَارَكُمْ ، وَعَلَّمَ أَعْمَالَكُمْ ، وَكَتَبَ آجَالَكُمْ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْكُمُ ٱلْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ ، وَعَمَّرَ فِيكُمْ نَبِيَّهُ أَزْمَاناً ، حَتَّى أَكْمَلَ لَهُ وَلَكُمْ ـ فِيمَا أَنْزَلَ مِنْ كِتَابِهِ ـ دِينَهُ ٱلَّذِي رَضِيَ لِنَفْسِهِ ، وَأَنْهَى إِلَيْكُمْ ، عَلَى لِسَانِهِ ، مَحَابَّهُ مِنَ ٱلْأَعْمَالِ ، وَمَكَارِهَهُ ، وَنَوَاهِيَهُ ، وَأَوَامِرَهُ . فَأَلْقَى إِلَيْكُمُ ٱلْمَعْذِرَةَ ، وَٱتَّخَذَ عَلَيْكُمُ ٱلْحُجَّةَ ، وَقَدَّمَ إِلَيْكُمْ بِٱلْوَعِيدِ ، وَأَنْذَرَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ .

فَٱسْتَدْرِكُوا بَقِيَّةَ أَيَّامِكُمْ ، وَٱصْبِرُوا لَهَا أَنْفُسَكُمْ ، فَإِنَّهَا قَلِيلٌ فِي كَثِيرِ ٱلْأَيَّامِ ٱلَّتِي تَكُونُ مِنْكُمْ فِيهَا ٱلْغَفْلَةُ، وَٱلتَّشَاغُلُ عَنِ ٱلْمَوْعِظَةِ ، وَلاَ تُرَخِّصُوا لِأَنْفُسِكُمْ ، فَتَذْهَبَ بِكُمُ ٱلرُّخَصُ فِيهَا مَذَاهِبَ ٱلظَّلَمَةِ ، وَلاَ تُدَاهِنُوا ، فَيَهْجُمَ

بِكُمُ ٱلْإِدْهَانُ عَلَى ٱلْمُصِيبَةِ .

عِبَادَ ٱللَّهِ ! إِنَّ أَنْصَحَ ٱلنَّاسِ لِنَفْسِهِ ، أَطْوَعُهُمْ لِرَبِّهِ ، وَإِنَّ أَغَشَّهُمْ لِنَفْسِهِ ، أَعْصَاهُمْ لِرَبِّهِ ، وَٱلْمَغْبُونُ مَنْ غَبَنَ نَفْسَهُ ، وَٱلْمَغْبُوطُ مَنْ سَلِمَ لَهُ دِينُهُ ، وَٱلسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ ، وَٱلشَّقِيُّ مَنِ ٱنْخَدَعَ لِهَوَاهُ .

وَٱعْلَمُوا : أَنَّ يَسِيرَ ٱلرِّيَاءِ شِرْكٌ ، وَمُجَالَسَةَ أَهْلِ ٱلْهَوَى مَنْسَأَةٌ لِلْإِيمَانِ ، وَمَحْضَرَةٌ لِلشَّيْطَانِ . جَانِبُوا ٱلْكَذِبَ فَإِنَّهُ مُجَانِبٌ لِلْإِيمَانِ . اَلصَّادِقُ : عَلَى شُرَفِ مَنْجَاةٍ وَكَرَامَةٍ ، وَٱلْكَاذِبُ : عَلَى شَفَا مَهْوَاةٍ وَمَهَانَةٍ ، وَلَا تَحَاسَدُوا ، فَإِنَّ ٱلْحَسَدَ يَأْكُلُ ٱلْإِيمَانَ ، كَمَا تَأْكُلُ ٱلنَّارُ ٱلْحَطَبَ ، وَلَا تَبَاغَضُوا ، فَإِنَّهَا ٱلْحَالِقَةُ ، وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱلْأَمَلَ يُسْهِي ٱلْعَقْلَ ، وَيُنْسِي ٱلذِّكْرَ فَأَكْذِبُوا ٱلْأَمَلَ فَإِنَّهُ غُرُورٌ ، وَصَاحِبُهُ مَغْرُورٌ .

أقول : الفصل إلى آخره شروع في الموعظة والمشورة، ولمّا قدم الإشعار بأن الله تعالى عالم بما في الصدور غالب على كل مقدور أمرهم بعده بالعمل وأراد الأعمال الصالحة المطلوبة بالتكاليف الشرعية وأن يجعلوها مهاداً لثبات أقدامهم على الصراط المستقيم المأمور بسلوكه، ثم تلطف بالجذب إلى العمل بتذكيرهم بأنهم في أيام مهلة وفراغ ومتنفس خناق يمكنهم فيه العمل وأن الذي يعملونه من الصالحات هو زاد لهم في سفرهم إلى الله وإلى دار إقامتهم وأن وراء هذه المهلة إدراك أجل بعده شغل بأهوال الآخرة وأخذ بالكظم ، وكنى به عن عدم التمكن من العمل إذ لم تكن الآخرة دار عمل ثم أيّه بالناس وحذّرهم ربهم أن يخالفوا فيما أمرهم بحفظه وهو كتابه ، وعنى بحفظه تدبر ما فيه والمحافظة على العمل بأوامره ونواهيه وهي حقوقه التي استودعهم إياها. ثم علل ذلك بتنبيههم على أن الله تعالى لم يخلقهم عبثاً خالياً عن وجه الحكمة .

بل خلقهم ليستكملوا الفضائل النفسانية بواسطة الآلات البدنية ولم يجعلهم في وجودهم مهملين بل ضبط آثارهم وأعمالهم وكتب آجالهم في

كتابه المبين وألواحه المحفوظة إلى يوم الدين ونظم وجودهم برسول كريم عمّره فيهم وكتاب أوضح لهم فيه السبيل التي لسلوكها خلقهم وأكمل لهم ولنبيّه دينهم الذي ارتضى لهم وما أهلهم له من الكمالات المسعدة في الآخرة كما قال تعالى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً** ﴾[1] وبلّغهم على لسانه ما أحب لهم من الخيرات الباقية وكرهه لهم عن الشرور المشقية في الآخرة كما اشتملت عليه أوامره ونواهيه ، وأبان لهم فيه الأعذار وأوضح فيه الحجج وشحنه بالوعيد والنذر بين يدي عذاب شديد ، واستعار لفظ اليدين للعذاب وكنّى ببين يديه عن الوقت المتقدم على عذاب الآخرة المشارف له .

ووجه المشابهة أن الإنذار بالمخوف يكون من ذي سطوة بأس شديد فكأنه نزّل العذاب الشديد بمنزلة المعذب فاستعار له يدين وجعل الإنذار والتخويف منه متقدماً له بين يديه وذلك من الجواذب اللطيفة ، ثم عاد إلى أمرهم باستدراك بقية أوقاتهم في الدنيا وأن يصبّروا لها أنفسهم : أي يلزموا أنفسهم فيها الصبر على الأعمال الصالحة ، وفي لفظ الاستدراك إشعار بتقديم تفريط منهم في جنب الله ولذلك قال : فإنها قليل في كثير الأيام التي تكون منكم فيها الغفلة والتشاغل عن الموعظة . وإنما قال : لها . لأن كل وقت يستحق أن يوقع فيه ما ينبغي من الأفعال فصدق عليها أن ذلك الفعل لها .

قوله : ولا ترخصوا لأنفسكم . إلى قوله : المعصية [المصيبة خ] .

أقول : ليس المقصود بالرخصة هنا الرخصة الشرعية . بل ما يتساهل الإنسان فيه مع نفسه من تنويع المآكل والمشارب والمناكح والخروج فيها إلى ما لا ينبغي في نفس الأمر ويتأوّل له تأويلاً وحيلة يخيّل أنها جائزة في الشريعة ويروج بها اتباعه لهواه ،ونحوه الاجتماع في السماع لغير أهله ،وحضور

---

(١) ٥ ـ ٥.

مجالس الفساق ، ومعاشر الظالمين . والضابط الكلي في هذا الباب هو توسع الإنسان في الأمور المباحة واستيفاؤه حده فإنه من فعل ذلك شارف المكروه ثم ربما لحظ أنه لا عقاب في فعله فقادته شهوته إلى فعله فاستوفى حدّه فشارف المحظور ، وذلك أن العقل إذا أطاع النفس الأمارة بالسوء فيما تأمر به مرة ومرة لم يبق له نفار عما تقوده إليه لوقوع الأُنس به . وظاهر أن ارتكاب بعض مأموراتها يجرّ إلى ارتكاب بعض فيؤدي ذلك إلى تجاوز الحدود الشرعية وعبورها إلى الوقوع في حبائل الشيطان والتهوّر في المحظورات التي هي مهاوي الهلاك ، ولذلك ما ورد في الخبر :

من رتع حول الحمى أوشك أن يقع فيه وقد شبّه العارفون القلب بالحصن والشيطان بعدوٍ يريد أن يدخله ولم يمكن دفع ذلك العدو والتحفّظ منه إلّا بضبط أبواب ذلك الحصن التي منها الدخول إليه وحراستها وهي أبواب كثيرة كسائر المحرمات ومساهلة النفس في التوسع في المباحات والدخول في الأمور المشتبهة من أعظم تلك الأبواب ودخول الشيطان منه أسهل وهو عليه أقدر ولذلك قال عليه السلام : فتذهب بكم الرخص فيها مذاهب الظلمة ،ولا تداهنوا فيهجم بكم الإدهان على المعصية [المصيبة خ] . ومذاهب الظلمة مسالكها وطرقها العادلة من العدول .

وروي : أن أبليس ظهر ليحيى بن زكريا عليه السلام فرأى عليه معاليق كل شيء فقال له : يا إبليس ما هذه المعاليق ؟ قال : هذه هي الشهوات التي أُصيب بهنّ قلوب بني آدم فقال : هل بي فيها شيء ؟ قال : نعم ربما شبعت فشغلناك عن الصلاة، وعن الذكر قال : هل غير ذلك ؟ قال : لا قال : لله عليّ أن لا أملأ بطني من طعام أبداً فقال إبليس : لله عليّ أن لا أنصح مسلماً أبداً . ولا تداهنوا : أي لا تسالموا الظلمة وتساهلوا معهم في السكوت عما ترونه من منكراتهم فيهجم بكم الإدهان على المعصية : أي إذا آنستم بمشاهدة المعاصي وألفتم تكرارها كنتم بذلك عصاة وربما ساقكم ذلك إلى فعل المنكر ومشاركتهم فيه .

وقوله : عباد الله . إلى آخره إخبارات في معنى الأوامر والنواهي وأوامر ونواهي صريحة مشتملة على جواذب إلى طاعة الله ولزوم دينه .

فالأول : قوله : إن أنصح الناس لنفسه أطوعهم لربه ، وبيانه أنه لما كان غرض الناصح إنما هو جلب الخير والمنفعة إلى المنصوح ، وكان أجل خير ومنفعة هو السعادة الباقية الأبدية ومشاهدة الحضرة الربوبية ، وكانت تلك السعادة إنما تنال بطاعة الله تعالى فكل من كانت طاعته لله أتمّ فكان هو أنصح الناس لنفسه بمبالغته في طاعته .

الثاني : قوله : وإن أغشهم لنفسه أعصاهم لربه. وهو ظاهر مما قررناه فإنه لما كانت غاية الغش إنما هو جلب الشر والمضرة إلى المغشوش ، وكان أعظم شر وضرر يلحق العبد هو الشقاوة الأبدية في قرار الجحيم ، وكانت تلك إنما يحصل الإنسان عليها بمعصية الله تعالى فكل من كانت معصيته أتمّ كانت شقاوته أتمّ فكان هو أغش الناس لنفسه بمبالغته في معصيته . وحاصل القضية الأولى الأمر بالطاعة أتمّ ما يمكن والثانية النهي عن المعصية أتمّ ما يمكن . ورغب في الطاعات بذكر نصيحة النفس لما أن النصيحة محبوبة ونفّر عن المعصية بذكر غشها .

الثالث : قوله : والمغبون من غبن نفسه . والمراد من غبنها بالمعصية المستلزمة لدخول النار فكأن الإنسان بمتابعة شيطانه خادع لنفسه ، وقد بخسها ما تستحقه من ثواب الله ، ولما كانت السعادة الأُخروية أعظم ما يتنافس فيه لا جرم كان أعظم مغبون من لم يفز بها فلذلك حصر المغبون فيه على طريق المبالغة وهو خبر في معنى النهي عن المعصية ، ونفر عنها بذكر غبن النفس .

الرابع : قوله : والمغبوط من سلم له دينه ، والغبطة أن يتمنى الإنسان مثل ما لغيره من حال أو مال مع قطع النظر عن تمني زوال تلك الحال عمّن هي له ، وبهذا القيد يتميّز عن الحسد ، والقضية ظاهرة مما قبلها فإنه لما كان من سلم دينه فائزاً بالسعادة الكبرى الباقية مع كونها أجل ما يغبط به

ويتنافس فيه لا جرم كان هو أعظم مغبوط ولذلك حصر المغبوط فيه مبالغة، ورغب في المحافظة على الدين بكون من سلم له مغبوطاً .

الخامس : قوله : والسعيد من وعظ بغيره ، وقد صارت هذه القضية في معنى المثل : أي السعيد في الآخرة من اعتبر حال غيره فشاهد بعين بصيرته مصير الظالمين فخاف عاقبتهم فعدل عن طريقهم وتذكر حال المتقين فمال إلى جادتهم وسلك مسالكهم ورغب في الاتعاظ بالغير بذكر استلزامه للسعادة .

السادس : وكذلك الشقي في الآخرة من انخدع لهواه وغروره ونفّر عن اتباع الهوى بذكر الخداع والغرور .

السابع : التنبيه على أن يسير الرياء شرك . وقد سبق منّا بيان أن الرياء في العبادة وإن قلّ التفات مع الله إلى غيره وإدخال له بالقصد بالعمل والطاعة وذلك في الحقيقة شرك خفي اتفقت عليه أرباب القلوب .

الثامن : قوله : ومجالسة أهل الهوىٰ منسأة للإيمان ، ومحضرة للشيطان . أراد بأهل الهوى الفساق المنقادين لدواعي الشيطان إلى الشهوات الخارجة عن حدود الله ، ونفّر عن مجالستهم بأنها محل للأمرين :

أحدهما : نسيان الإيمان وهو ظاهر فإن أهل الهوى أبداً مشغولون بذكر ما هم فيه من لعب ولهو خائضون في أصناف الباطل وأنواعه فمجالستهم عن رغبةٍ مظنة الغفلة عن ذكر الله والانجذاب إلى ما هم عليه عن الأعمال الصالحة وتلك أركان الإيمان وقواعده، وقد علمت أن كثرة الغفلات عن الشيء تؤول إلى نسيانه وانمحائه عن لوح الخيال والذكر ، وربما يتجوّز في مطلق الغفلة عن أوقات العبادة والذكر بالنسيان تسمية للشيء باسم ما يؤول إليه .

الثاني : كونها محلاً لحضور الشيطان ، وقد علمت معنى الشيطان وأن كل محل عصي الله فيه فهو محضر للشيطان وموطن له .

التاسع : الأمر بمجانبة الكذب ونفر عنه بقوله : **فإنه مجانب للإيمان** ، وهو حديث نبوي ، ومعنى المجانبة كون كل منهما في جانب فإن كانت الأعمال الصالحة داخلة في مسمى الإيمان فالصدق من جملتها ومضاد الصدق مضاد للإيمان وأحد الضدين مجانب للآخر. فالكذب مجانب للإيمان، وإن لم يكن كذلك قلنا: إن الكذب أعظم الرذائل الموبقة والإيمان أعظم الفضائل المنقذة، وبين الفضائل والرذائل منافاة ذاتية فالكذب مناف للإيمان ومجانب له، ويحتمل أن يكون معنى مجانبته له كونه غير لائق أن يجامعه في محل واحد وغير مناسب له، وبالجملة كونه ليس منه في شيء، وقد بيّنا ما يشتمل عليه الكذب من المضار المهلكة.

ثم أردف ذلك بالترغيب في الصدق بكون **الصادق على شرف منجاة** : أي مشارف لنجاة وكرامة أو لمحلّهما وهو الجنة إذ الصدق باب من أبوابها. ثم بالتنفير عن الكذب بكون **الكاذب على شرف مهواة ومهانة** : أي هوى وهوان أو محلهما وهو حضيض الجحيم الذي هو محل الهوان إذ الكذب باب من أبوابها، ومن انتهى إلى الباب فقد شارف الدخول ، وعن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : إيّاكم والكذب فإنه يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً ، وعليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليتحرى الصدق حتى يكتب عند الله مصداقاً، وقال صلى الله عليه وآله وسلم : الكذب رأس النفاق. وهو ظاهر فإن مدار النفاق على المصانعة بالقول الغير المطابق لما في نفس الأمر وهو حقيقة الكذب .

العاشر : النهي عن الحسد ، وقد اتفق أرباب القلوب على أنه من أعظم أبواب الشيطان التي يدخل بها على القلب وهو أحد العوارض الرديئة للنفس ويتولد من اجتماع البخل والشرية في النفس ، وأعني بالشرير من تلتذّ طباعه بمضار تقع بالناس ويكره ما يوافقهم، وإن كانوا ممن لا يرونه ولم يسيؤوا إليه ، وقد علمت أن من هذه صفته مستحقّ للمقت من الله عز وجل،

وذلك أنه مضاد لإرادته إذ هو تعالى المتفضل على المزيد للخير المطلق للكل . وقد رسم الحسد بأنه اغتمام الإنسان بخير يناله غيره من حيث لا مضرة منه عليه ، وقد يوجد الحسد ممن له نفع ما من المحسود ، ويسمى الحسد البالغ .

وأما تعليله وجوب تركه بأنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب :

فاعلم أن العلماء قد اتفقوا على أن الحسد مضر بالنفس والجسد : أما بالنفس فلأنه يذهلها ويغرق فكرها بالاهتمام بأمر المحسود حتى لا يفرغ للتصرف فيما يعود نفعه عليها . بل وينسى ما حصلت عليه من الملكات الخيرية التي هي الحسنات المنقوشة في جوهرها ويضمحل على طول تعوّد الحسد واشتغال الفكر فيه وطول الحزن والهم لأن نعم الله على عباده أكثر من أن تحصى فإذا كان الحسد بها دام فانقطع وقت الحاسد به عن تحصيل الحسنات . وأما بالجسد فلأنه يعرض له عند حدوث هذه الأعراض للنفس طول السهر وسوء الاغتذاء ويعقب ذلك رداءة اللون وسوء السجية وفساد المزاج .

إذا عرفت ذلك فنقول : إنه قد استعار هاهنا لفظ الأكل لكون الحسد ماحياً لما في النفس من الخواطر الخيرية التي هي الحسنات ومانعاً من صيرورتها ملكات وذلك بسبب استغراقها في حال المحسود واشتغالها به ، وشبّه ذلك بأكل النار الحطب . ووجه الشبه ما يشترك فيه الحسد والنار من إفناء الحسنات والحطب واستهلاكهما .

الحادي عشر : النهي عن التباغض وتعليله ذلك بأنها الحالقة ، واعلم أنه لما كان أمر العالم لا ينتظم إلاّ بالتعاون والتضافر ، وكان التعاون إنما يتم بالألفة وكان أقوى أسباب الألفة هو المودة والمؤاخاة بين الخلق كانت المودة من المطالب المهمة للشارع ، ولذلك آخى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، بين أصحابه لتخلص محبتهم وتصفو أُلفتهم ويصدق بينهم التعاون والتضافر والاتحاد في الدين ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم : المرء كبير بأخيه ولا خير في صحبة من لا يرى لك من

الحق مثل ما ترى له . فلذلك كان التباغض بينهم منهياً عنه مكروهاً في الشريعة لما يستلزمه من التقاطع بينهم وعدم تعاونهم وتضافرهم ، وبسبب ذلك تتخطف كلاً منهم أيدي حاسديه وتتحكم فيه أهواء أعاديه فلم تسلم له نعمة ولا تصفو له مدة. بل يكون بذلك بواره واضمحلال النوع وهلاكه ، ولذلك قال عليه السلام : فإنها الحالقة .

وأصل هذا اللفظ مستعار مما يحلق الشعر كالموسىٰ ونحوها للدواهي وأسباب الشر ثم صار مثلاً وقد وقع هاهنا موقعه من الاستعارة ، ووجه المشابهة أن الموسىٰ مثلاً كما أنها سبب لحلق الشعر واستئصاله كذلك التباغض سبب لاستئصال الخلق بعضهم بعضاً .

الثاني عشر : التنبيه على مضار الأمل للدنيا تنفيراً عنه والأمر بتكذيبه المستلزم للنهي عنه فأما مضاره :

فأحدها : أنه يوجب سهو العقل : أي عما هو الأولى بالإنسان في معاشه ومعاده وهو ظاهر فإن الآمل أبداً مشغول الفكر بما يأمله ويرجوه وفي كيفية تحصيله وكيفية العمل به بعد حصوله وشغله بذلك يستلزم إعراضه عن غيره إذ ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه .

الثانية: أنه ينسي الذكر : أي ذكر الله تعالى بعد الموت من أحوال الآخرة ، وذلك باستغراقه فيما يأمله من أحوال الدنيا كما مرّ .

الثالثة : أنه غرور وصاحبه مغرور ، وروي بفتح الغين من غرور وضمها ، ووجه الفتح أن الأمل ليس هو نفس الغفلة عن الذكر وغيره بل مستلزم لها فلذلك صدقت نسبة الغرور إليه ، ووجه الضم أنه مجاز من باب إطلاق اسم اللازم على ملزومه ، وأما تكذيبه فبذكر الموت ودوام إخطاره بالبال وملاحظة المرجع والمعاد، وإنما سمي ردّ الأمل تكذيباً له لأن النفس حال توقعها للمأمول تكون حاكمة حكماً وهمياً ببلوغه ونيله فإذا رجعت إلى صرف العقل وملاحظة الموت وجواز الانقطاع به عن بلوغ ما رجته كان تجويزها ذلك مكذباً لما جزم به الوهم من الأحكام وراداً له. وبالله التوفيق.

٨٤ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

وفيها فصول:

الفصل الأول: في صفات المتّقين وهو قوله:

عِبَادَ اللَّهِ! إِنَّ مِنْ أَحَبِّ عِبَادِ اللَّهِ إِلَيْهِ، عَبْداً أَعَانَهُ اللَّهُ عَلَى نَفْسِهِ، فَاسْتَشْعَرَ الْحُزْنَ، وَتَجَلْبَبَ الْخَوْفَ، فَزَهَرَ مِصْبَاحُ الْهُدَى فِي قَلْبِهِ، وَأَعَدَّ الْقِرَى لِيَوْمِهِ النَّازِلِ بِهِ، فَقَرَّبَ عَلَى نَفْسِهِ الْبَعِيدَ، وَهَوَّنَ الشَّدِيدَ: نَظَرَ فَأَبْصَرَ، وَذَكَرَ فَاسْتَكْثَرَ، وَارْتَوَى مِنْ عَذْبٍ فُرَاتٍ، سَهُلَتْ لَهُ مَوَارِدُهُ، فَشَرِبَ نَهَلاً، وَسَلَكَ سَبِيلاً جَدَداً، قَدْ خَلَعَ سَرَابِيلَ الشَّهَوَاتِ، وَتَخَلَّى مِنَ الْهُمُومِ، إِلَّا هَمّاً وَاحِداً انْفَرَدَ بِهِ، فَخَرَجَ مِنْ صِفَةِ الْعَمَى، وَمُشَارَكَةِ أَهْلِ الْهَوَى، وَصَارَ مِنْ مَفَاتِيحِ أَبْوَابِ الْهُدَى، وَمَغَالِيقِ أَبْوَابِ الرَّدَى، قَدْ أَبْصَرَ طَرِيقَهُ، وَسَلَكَ سَبِيلَهُ، وَعَرَفَ مَنَارَهُ، وَقَطَعَ غِمَارَهُ، إِسْتَمْسَكَ مِنَ الْعُرَى بِأَوْثَقِهَا، وَمِنَ الْحِبَالِ بِأَمْتَنِهَا، فَهُوَ مِنَ الْيَقِينِ عَلَى مِثْلِ ضَوْءِ الشَّمْسِ. قَدْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ فِي أَرْفَعِ الْأُمُورِ، مِنْ إِصْدَارِ كُلِّ وَارِدٍ عَلَيْهِ، وَتَصْيِيرِ كُلِّ فَرْعٍ إِلَى أَصْلِهِ، مِصْبَاحُ ظُلُمَاتٍ، كَشَّافُ عَشَاوَاتٍ، مِفْتَاحُ مُبْهَمَاتٍ، دَفَّاعُ مُعْضِلَاتٍ، دَلِيلُ فَلَوَاتٍ، يَقُولُ فَيُفْهِمُ، وَيَسْكُتُ فَيَسْلَمُ، قَدْ أَخْلَصَ للهِ فَاسْتَخْلَصَهُ، فَهُوَ مِنْ مَعَادِنِ دِينِهِ، وَأَوْتَادِ أَرْضِهِ، قَدْ أَلْزَمَ نَفْسَهُ الْعَدْلَ، فَكَانَ أَوَّلُ عَدْلِهِ، نَفْيَ الْهَوَى عَنْ نَفْسِهِ، يَصِفُ الْحَقَّ وَيَعْمَلُ بِهِ، لَا يَدَعُ لِلْخَيْرِ غَايَةً إِلَّا أَمَّهَا، وَلَا مَظِنَّةً إِلَّا قَصَدَهَا، قَدْ أَمْكَنَ الْكِتَابَ مِنْ زِمَامِهِ، فَهُوَ قَائِدُهُ وَإِمَامُهُ، يَحُلُّ حَيْثُ حَلَّ ثَقَلُهُ، وَيَنْزِلُ حَيْثُ كَانَ مَنْزِلُهُ.

أقول: القرى: الضيافة: والفرات: صادق العذوبة. والنهل: الشرب في أول الورد. والجدد: الأرض المستوية. والسرابيل: القمصان. والمنار: الأعلام. والغمار: جمع غمرة وهي الزحمة من كثرة الناس والماء ونحوه. والعشوات: جمع عشوة وهي ركوب الأمر على جهل

به . والغشوة بالغين المعجمة : هي الغطاء . والمبهمة : الأمر الملتبس والمعضلات : الشدائد .

وذكر من صفاتهم التي هي سبب محبة الله لهم أربعين وصفاً ، وقد علمت أن محبة الله تعالى تعود إلى إفاضة الكمالات النفسانية على نفس العبد بحسب قربه بالاستعداد لها إلى جوده فمن كان استعداده أتمّ كان استحقاقه أوفى فكانت محبة الله له أكمل .

فالأول من تلك الأوصاف : كونه أعانه الله على نفسه : أي أفاضه قوة على استعداد يقوي به عقله على قهر نفسه الأمارة بالسوء .

الثاني : أن يستشعر الحزن : أي يتخذه شعاراً له . وأراد الحزن على ما فرط في جنب الله واكتسب من الإثم فإنه من جملة ما أعدته المعونة الإلهية لاستشعاره ليستعد به لكمال أعلى .

الثالث : أن يتجلبب الخوف وهو اتخاذه جلباباً . استعار لفظ الجلباب وهو الملحفة للخوف من الله والخشية من عقابه ، ووجه المشابهة ما يشتركان فيه من كون كل منهما متلبساً به ، وهو أيضاً معونة من الله للعبد على تحصيل السعادة .

الرابع : زهرة مصباح الهدى في قلبه ، وهو إشارة إلى شروق نور المعارف الإلهية على مرآة سره ، وهو ثمرة الاستعداد بالحزن والخوف ولذلك عطفه بالفاء ، واستعار لفظ المصباح لنور المعرفة لما يشتركان فيه من كون كل منهما سبباً للهدى ، وهو استعارة لفظ المحسوس للمعقول .

الخامس : كونه أعد القرى ليومه النازل به . استعار لفظ القرى للأعمال الصالحة وأراد باليوم النازل به يوم القيامة واستلزمت الاستعارة تشبيهه لذلك اليوم بالضيف أو بيوم القرى للضيف المتوقع نزوله ، ووجه المشابهة أن القرى كما يبيّض به وجه القاري عند ضيفه ويخلص به من ذمه، ويكسبه المحمدة والثناء منه كذلك الأعمال الصالحة في ذلك اليوم تكون سبباً لخلاص العبد من أهواله وتكسبه رضاء الحق سبحانه والثواب الجزيل منه .

السادس : وقرّب على نفسه البعيد . يحتمل وجهين :

أحدهما : أن يشير بالبعيد إلى رحمة الله فإنها بعيدة من غير مستحقها ، والمستحق لقبولها قريبة ممن حسن عمله وكمل قبوله فالعبد إذا راض بالأعمال الصالحة نفسه وأعدّها قرى يومه كانت رحمة الله على غاية من القرب منه كما قال تعالى : ﴿ **إن رحمة الله قريب من المحسنين** ﴾ .

الثاني : يحتمل أن يريد بالبعيد أمله الطويل في الدنيا وبتقريبه له على نفسه تقصيره له بذكر الموت دون بلوغه كما سبق .

السابع :كونه قد هوّن الشديد . ويحتمل أيضاً معنيين :

أحدهما : أن يريد بالشديد أمر الآخرة وعذاب الجحيم وتهوينه لها بالأعمال الصالحة واستشراف أنوار الحق وظاهر كونها مهونة لشديد عذاب الله .

الثاني : أن يريد بالشدائد شدائد الدنيا من الفقر والاهتمام بالمصائب التي تنزل به من الظلم وفقد الأحبة والأقرباء ونحو ذلك وتهوينه لذلك تسهيله على خاطره واستحقاره في جنب ما يتصوره من الفرحة بلقاء الله وما أعدّ له من الثواب الجزيل في الآخرة كما قال تعالى : ﴿ **وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنّا لله وإنّا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** ﴾[1] .

الثامن : كونه نظر : أي تفكر في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء فأبصر : أي فشاهد الحق سبحانه في عجائب مصنوعاته بعين بصيرته .

التاسع : وذكر فاستكثر : أي ذكر ربه ومعاده فاستكثر من ذكره حتى صار الذكر ملكة له ويجلّي المذكور في أطوار ذكره لمرآة سره . والاستكثار

---

(١) ٢ ـ ١٥٢.

من الذكر باب عظيم من أبواب الجنة .

العاشر : كونه ارتوى من عذب فرات . شبّه العلوم والكمالات النفسانية التي تفاض على العارف بالماء الزلال فاستعار له لفظ العذوبة ، ورشح تلك الاستعارة بذكر الارتواء ، وقد سبق وجه هذه الاستعارة مراراً .

يا: كونه سهلت له موارده . الفائزون لقصب السبق في طرائق الله لا ينفكون عن تأييد إلهي بخاصية مزاجية لهم بها سرعة الاستعداد لقبول الكمالات الموصلة إليه .

إذا عرفت ذلك فنقول : موارد تلك الكمالات من العلوم والأخلاق هي معادنها ومواطنها المنتزعة منها وهي النفوس الكاملة التي يهتدى بها وتؤخذ عنها أنوار الله كالأنبياء ، وتصدق تلك الموارد أيضاً على بدائع صنع الله الذي يردها ذهن العبد وتكسب بهما الملكات الفاضلة وسهولة تلك الموارد لهم هو سرعة قبولهم لأخذ الكمالات عنها بسهولة بأذهان صافية هيّأتها العناية الإلّهية لقبولها ويسر بها لذلك .

يب: فشرب نهلاً : أي أخذ تلك الكمالات سابقاً إليها كثيراً من أبناء نوعه ومتقدماً فيها لسهولة موردها عليه ، وهي ألفاظ مستعارة لأخذه لها وسبقه إليها ملاحظة لشبهه بشرب السوابق من الإبل إلى الماء .

يج: كونه قد سلك سبيلاً جددا : أي سبيل الله الواضح المستقيم العدل بين طرفي التفريط والإفراط .

يد: كونه قد خلع سرابيل الشهوات . أكثر الأوصاف السابقة أشار فيها إلى تحصيل العلم والاستعداد له ، وأشار بهذا الوصف إلى طرف الزهد ، واستعار لفظ السرابيل للشهوات ، ووجه المشابهة تلبّس صاحبها بها كما يتلبّس بالقميص ، ورشح بلفظ الخلع ، وكنّى به عن طرحه لاتّباع الشهوة والتفاته عنها فيما يخرج به عن حد العدل .

يه: وتخلى من الهموم إلاّ هماً واحداً : أي من هموم الدنيا وعلائق

أحوالها وطرح كل مقصود عن قصده إلّا همّا واحداً انفرد به ، وهو الوصول إلى مراحل عزة الله وتوجيه سرّه إلى مطالعة أنوار كبريائه واستشراقها وهو تمام الزهد الحقيقي وظاهر كونه منفرداً عن غيره من أبناء نوعه .

يو: فخرج عن صفة العمى: أي عمى الجهل بما حصل عليه من فضيلة العلم والحكمة وعن مشاركة أهل الهوى في إفراطهم وفجورهم إذ هو على حاق الوسط من فضيلة العفة .

يز: فصار من مفاتيح أبواب الهدى : فأبواب الهدى هو طرقه وسبله المعدة لقبوله من واهبه وقد وقف عليها العارفون ودخلوا منها إلى حضرة جلال الله فوقفوا على مراحلها ومنازلها ومخاوفها فصاروا مفاتيح لما انغلق منها على أذهان الناقصين ، ومصابيح فيها لنفوس الجاهلين ، ولفظ المفتاح مستعار للعارف ، ووجه المشابهة ظاهر .

يح: ومغاليق أبواب الردى . فأبواب الردى هي أطراف التفريط والإفراط والمسالك التي يخرج فيها عن حدود الله المردي سلوكها في قرار الجحيم . والعارف لما سد أبواب المنكرات التي يسلكها الجاهلون ولزم طريق العدل لا جرم أشبه المغلاق الذي يكون سبباً لسد الطريق أن يسلك فاستعير لفظه له ، وفي القرينتين مطابقة فالمغاليق بإزاء المفاتيح والردى بإزاء الهدى .

يط: قد أبصر : أي بنور بصيرته طريقه : أي المأمور بسلوكها والمجذوب بالعناية الإلهية إليها وهي صراط الله المستقيم .

ك: وسلك سبيله : أي لما أبصر السبيل سلكها إذ كان السلوك هو المقصود الأول .

كا: وقد عرف مناره ، لما كان السالك إلى الله قد لا يستقيم به طريق الحق اتفاقاً وذلك كسلوك من لم تستكمل قوته النظرية بالعلوم وقد يكون سلوكه بعد استكماله بها . فالسالك كذلك قد عرف بالبرهان مناره: أي أعلامه المقصودة في طريقه التي هي سبب هدايته وهي القوانين الكلية

العملية ، ويحتمل أن يريد بالمنار ما يقصده بسلوكه وهو حضرة جلال الله وملائكته المقربون .

كب: قد قطع غماره ، وأشار بالغمار إلى ما كان مغموراً فيه من مشاق الدنيا، وهمومها والتألم بسبب فقدها ومجاذبة أهلها لها فإنَّ العارف بمعزل عن ذلك والتألم بسببه .

كج: واستمسك من العرى بأوثقها ومن الحبال بأمتنها . أراد بأوثق العرى وأمتن الحبال سبيل الله وأوامره استعارةً ووجه المشابهة أن العروة كما تكون سبباً لنجاة من تمسك بها ، وكذلك الحبل ، وكان أجودها ما ثبت وتمتن ولم ينفصم كذلك طريق الله المؤدي إليه يكون لزومه والتمسك بأوامره سبباً للنجاة من أهوال الآخرة وهي عروة لا انفصام لها وأوامرها حبال لا انقطاع لها ، وإليها الإشارة بقوله تعالى : ﴿ **فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها** ﴾[1] .

كد: فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس : أي فكان بتمسكه بأوامر الله ونواهيه ومجاهدته في سبيله قد استشرق أتم أنوار اليقين فصار شاهداً بعين بصيرته عالم الملكوت رائياً بها الجنة والنار عين اليقين كما يرى بصره الظاهر نور الشمس في الوضوح والجلاء.

كه: قد نصب نفسه لله سبحانه في أرفع الأمور من إصدار كل وارد عليه وتصيير كل فرع إلى أصله : أي لما كمل في ذاته نصب نفسه لأرفع الأمور من هداية الخلق وإفادتهم لقوانين طريق الله فصار كالمصباح يقتبس منه أنوار العلم فهو لكونه متلبّساً بها [ملياً بها خ] قائم بإصدار الأجوبة عن كل ما ورد عليه من الأسئلة التي استبهم أمرها على الأذهان ، وافٍ برد كل فرع من فروع العلم إلى أصله المنشعب عنه .

كو: كونه مصباح ظلمات : أي يهتدي به التائهون في ظلمات الجهل

---

(١) ٢ - ٢٥٧ .

إلى الحق . ولفظ المصباح مستعار له كما سبق .

كز: كونه كشاف عشوات : أي موضح لما أُشكل أمره وركب فيه الجهل من الأحكام الملتبسة مميز وجه الحق منها ، ومن روى بالغين المعجمة فالمراد كشّاف أغطية الجهالات عن إبصار البصائر .

كح : وكذلك كونه مفتاح مبهمات : أي فاتح لما انغلق على أذهان الخلق واستبهم وجه الحق فيه من الأحكام .

كط: كونه دفّاع معضلات : أي يدفع كل حيرة في معضلة من معضلات الشرع صعب على الطالبين تميّز وجه الحق فيه ويجيبهم ببيانه عن التردي في مهاوي الجهل .

ل: وكذلك كونه دليل فلوات . واستعار لفظ الفلوات لموارد السلوك وهي الأمور المعقولة ، ووجه المشابهة أن الفلوات كما لا يهتدي لسالكها إلاّ الأدلاّء الذين اعتادوا سلوكها وضبطوا مراحلها ومنازلها حتى كان من لا قائد له منهم لا بدّ وأن يتيه فيها ويكون جهله بطرقها سبباً لهلاكه كذلك الأمور المتصورة المعقولة لا يهتدي لطريق الحق فيها إلاّ من أخذت العناية الإلهية بضبعيه فألقت بزمام عقله إلى أُستاذ مرشد يهديه سبيل الحق منها ومن لم يكن كذلك حتى حاد عن طريق الحق فيها خبط في ظلمات الجهل خبط عشواء ، وسلكت به شياطينه أبواب جهنم ، والعارفون هم أدّلاء هذا الطريق والواقفون على أخطارها ومنازل السلامة فيها بعيون بصائرهم .

لا: كونه يقول فيفهم ، وذلك لمشاهدته عين الحق من غير شبهة تعتريه فيما يقول ولا اختلاف عبارة عن جهل بالمقول .

لب: كونه يسكت فيسلم : أي من خطر القول . ولما كانت فائدة القول الإفهام والإفادة ، وفائدة السكوت السلامة من آفات اللسان وكان كلامه في معرض المدح لا جرم ذكرهما مع فائدتهما . والمقصود أنّ العارف يستعمل كلاًّ من القول والسكوت في موضعه عند الحاجة إليه فقط .

لج: كونه قد أخلص لله فاستخلصه . وقد عرفت أن الإخلاص لله هو النظر إليه مع حذف كل خاطر سواه عن درجة الاعتبار ، واستخلاص الحق للعبد هو اختصاصه من بين أبناء نوعه بالرضى عنه ، وإفاضة أنواع الكمال عليه وإدناؤه إلى حضرة قدسه وانفراده بمناجاته . وظاهر أن إخلاصه سبب استخلاصه كما قال تعالى : ﴿ **واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً وناديناه من جانب الطور الأيمن وقرّبناه نجيّاً** ﴾[1]

لد: فهو من معادن دينه . استعار لفظ المعدن له ، ووجه المشابهة اشتراكهما في كون كل منهما أصلاً تنتزع منه الجواهر : من المعادن أنواع الجواهر المحسوسة ، ومن نفس العارف جواهر العلوم والأخلاق وسائر ما اشتمل عليه دين الله .

له: كونه من أوتاد أرضه استعار له لفظ الوتد ، ووجه المشابهة كون كل منهما سبباً لحفظ ما يحفظ به فبالوتد يحفظ الموتود ، وبالعارف يحفظ نظام الأرض واستقامة أمور هذا العالم ، وقد سبق مثله في الخطبة الأولى : ووتّد بالصخور ميدان أرضه .

لو: كونه لزم نفسه العدل فكان أدلّ عدله نفي الهوى عن نفسه . لما كان العدل ملكة تنشأ من الملكات الثلاث : وهي الحكمة والعفة والشجاعة ، وكان العارفون قد راضوا أنفسهم بالعبادة وغيرها حتى حصلوا على هذه الملكات الخلقيّة لا جرم كان بسعيه في حصولها قد ألزم نفسه العدل ، ولما كان العدل في القوة الشهوية وهو أن يصير عفيفاً لا خامد الشهوة، ولا فاجراً أصعب من العدل على سائر القوى لكثرة موارد الشهوة وميلها بالإنسان إلى طرف الإفراط، ولذلك كان أكثر المناهي الواردة في الشريعة هي موارد الشهوة لا جرم كان مقتضى المدح أن يبدأ بذكر نفي الهوى عن نفسه ، ولأن السالك أول ما يبدأ في تكميل القوة العلمية بإصلاح القوة الشهوية فيقف عند حدود

---

(١) ١٩ - ٥٢.

الله ولا يتجاوزها في مأكول أو منكوح أو كسب ونحوه .

لز: كونه يصف الحق ويعمل به : أي يتبع قول الحق بعمله فإن الخلف في القول عند الخلق قبيح ومع الله أقبح ولذلك عاتب الله المؤمنين: **﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾**[1]، وكانوا قالوا : لنفعلنّ في سبيل الله ما فيه رضاه . فلما كان يوم أحد لم يثبتوا . وأكد عتابه بشدة مقته لخلفهم وعدم مطابقة أقوالهم لأفعالهم .

لح: كونه لا يدع للخير غاية إلاّ أَمَّها . لما فرغ من جزئيات أوصاف العارف شرع فيها إجمالاً فذكر أنه طالب لكل غاية خيرية : أي لا يقنع ببعض الحق ويقف عنده بل يتناهى فيه ويستقصي غاياته .

لط: وكذلك هو قاصد لكل مظنة له: ومظنته كل محل أمكنه أن ينتزعه منه ويستفيده كالأولياء ومجالس الذكر وغيرها .

م: كونه قد أمكن الكتاب من زمامه فهو قائده . إلى آخره. فتمكينه الكتاب كناية عن انقياده لما اشتمل عليه من الأوامر والنواهي ، واستعار لفظ الزمام لعقله ووجه المشابهة ما يشتركان فيه كون كل منهما آلة للانقياد ، وهي استعارة لفظ المحسوس للمعقول ، وكذلك استعار لفظ القائد للكتاب لكونه جاذباً بزمام عقله إلى جهة واحدة مانعاً عن الانحراف عنها وكذلك لفظ الإمام لكونه مقتدياً به ، وقوله : يحل حيث حل ثقله وينزل . استعار وصفي الحلول والنزول اللّذين هما من صفات المسافر ، وكنى بحلوله حيث حلّ عن لزوم أثره والعمل بمقتضاه ومتابعته له في طريق سفره إلى الله بحيث لا ينفك عنه وجوداً وعدماً ، وبالله التوفيق .

الفصل الثاني : قوله :

وَآخَرُ قَدْ تَسَمَّى عَالِماً وَلَيْسَ بِهِ ، فَاقْتَبَسَ جَهَائِلَ مِنْ جُهَّالٍ ، وَأَضَالِيلَ

---

(١) ٦١ ـ ٢ .

مِنْ ضُلَّالٍ ، وَنَصَبَ لِلنَّاسِ شَرَكاً مِنْ حَبَائِلِ غُرُورٍ ، وَقَوْلِ زُورٍ ، قَدْ حَمَلَ ٱلْكِتَابَ عَلَى آرَائِهِ ، وَعَطَفَ ٱلْحَقَّ عَلَى أَهْوَائِهِ ، يُؤَمِّنُ مِنَ ٱلْعَظَائِمِ ، وَيُهَوِّنُ كَبِيرَ ٱلْجَرَائِمِ ، يَقُولُ «أَقِفُ عِنْدَ ٱلشُّبُهَاتِ» ، وَفِيهَا وَقَعَ ، «وَأَعْتَزِلُ ٱلْبِدَعَ» ، وَبَيْنَهَا ٱضْطَجَعَ : فَالصُّورَةُ صُورَةُ إِنْسَانٍ ، وَٱلْقَلْبُ قَلْبُ حَيَوَانٍ ، لَا يَعْرِفُ بَابَ ٱلْهُدَى فَيَتَّبِعَهُ ، وَلَا بَابَ ٱلْعَمَى فَيَصُدَّ عَنْهُ ، فَذَلِكَ مَيِّتُ ٱلْأَحْيَاءِ .

أقول : وهذا الفصل من صفات بعض الفساق في مقابلة الموصوف السابق ، وخصص من تسمى عالماً وليس بعالم بالذكر في معرض الذم لأنه أشد فتنة ، وأقوى فساداً للدين لتعدي فتنته من نفسه إلى غيره . وذكر له أوصافاً :

الأول : كونه قد تسمى عالماً وليس بعالم . طلباً للرئاسة وتحصيل الدنيا وهذا الصنف من الناس كثير والعلماء فيهم مغمورون.

الثاني : كونه قد اقتبس جهائل من جهّال وأضاليل من ضلال . والجهائل : جمع جهالة ، وأراد الجهل المركب ؛ وهو الاعتقاد الغير المطابق لما في نفس الأمر ، وهذا الوصف أحد أسباب الأول . ونسبة الاقتباس إلى الجهل نسبة مجازية لما أن الجهل يشبه العلم في كونه مستفاداً على وجه التعلم والتعليم ، والأضاليل من لوازم الجهالات وهو الانحراف عن سواء السبيل .

وإنما قال من جهّال وضلال ليكون إثبات الجهل والضلال له آكد فإن تلقّفهما عن الجهال الضلال واعتقادهما أثبت وأرسخ في النفس من سائر الجهالات .

الثالث : كونه نصب للناس أشراكاً من حبال غرور وقول زور . استعار لفظ الأشراك والحبال لما يغرّ علماء السوء به الناس من الأقوال الباطلة والأفعال المزخرفة ، ووجه المشابهة ما يشترك فيه الشرك من الحبال وغيره وسائر ما يجذب به الخلق من أقوالهم وأفعالهم في كونها محصّلة للغرض

فالشرك للصيد وغرور هؤلاء لقلوب الخلق ، ورشح تلك الاستعارة بذكر النصب .

الرابع : قد حمل الكتاب على آرائه للجاهل في تفسير كتاب الله تعالى مذاهب عجيبة ويكفيك منها ما تعتقده المجسمة من ظواهره المشعرة بتجسيم الصانع جلّت قدرته وتفسيرهم للكتاب على ما اعتقدوه من باطلهم .

الخامس : وعطف الحق على أهوائه من فسّر ألفاظ القرآن على حسب عقيدته الفاسدة ورأيه الباطل فقد عطف الحق على هواه : أي جعل كل هوى له حقاً يتبع بتأويل ما: ﴿ **ولو اتبع الحق أهوائهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن** ﴾.

السادس : كونه يؤمن من العظائم ويهوّن كبير الجرائم : أي يسهّل على الناس أمر الآخرة في موضع يحتاجون فيه إلى ذكر وعيد الله وتذكيرهم بأليم عقابه كما يخطىء الجاهلون ويعرضون عن أوامر الله تعالى ونواهيه فإذا حضروا مجالس جهال الواعظين والزهاد توسلوا إلى استجلاب قلوبهم وتشييد مناصبهم باجتماعهم عليهم بأن ذكروا لهم مواعيد الله كقوله : ﴿ **إن الله يغفر الذنوب جميعاً** ﴾ ونحوه فيهوّن عليهم بذلك عظيم الوعيد وأهوال الآخرة، وتصغّر عندهم جرائمهم التي ارتكبوها في جنب ما تصوروه من الوعد الكريم ويساعدهم ميل طباعهم إلى المشتهيات الخارجة عن حدود الله فيعاودوا ما اقترفوه ولا كذلك العالم إذ من شأنه أن يستعمل كلّاً من آيات الوعد والوعيد في موضعها ليبقى السامعون بين خوف ورجاء فلا ينهمكوا في اللذات الفانية اتّكالاً على الوعد ولا يقنطوا من رحمة الله نظراً إلى الوعيد .

السابع : يقول : أقف عند الشبهات أي إذا انتهيت إلى أمر فيه شبهة لا أقدم عليه وفيها وقع وذلك لجهله بمواقع الشبهة وغيرها .

الثامن: يقول أعتزل البدع : أي ما يبتدع من الأمور المخالفة لقوانين الشريعة وبينها اضطجع كنّي باضطجاعه بين البدع عن تورطه فيها كناية بالمستعار ، وذلك أيضاً لجهله بأصول الشريعة ، وكيفية تفريعها .

التاسع : فالصورة صورة الإنسان والقلب قلب حيوان أراد بالحيوان غير

الإنسان كما هو مختص في العرف. وأطلق قلبه أنه قلب حيوان كالحمار ونحوه. لما بينهما من المناسبة وهو عدم صلاحيتها لقبول المعارف والعلوم مع ميلهما إلى الشهوات.

العاشر : كونه لا يعرف باب الهدى فيتّبعه ولا باب الردى فيصدّ عنه : أي لا يعرف بجهله قانون الهداية إلى طرق الحق فيسلكه ولا وجه دخوله في الباطل فيعرض عنه ، وذلك أن الجاهل الجهل المركب لما حاد عن سبيل الله وجزم بما اعتقده من الباطل امتنع مع ذلك الجزم أن يعرف باب الهدى ومبدأ الدخول إليه فامتنع منه اتباعه، ولما اعتقد أن ما جزم به من الباطل هو الحق امتنع أن يعرف مبدأ دخوله في الجهل وهو باب العمى فامتنع منه أن يصد عنه ثم حكم عليه السلام عن تلك الأوصاف أنه ميت الأحياء. أما كونه ميتاً فلأن الحياة الحقيقية التي تطلب لكل عاقل والتي وردت الشرائع والكتب الإلهية بالأمر بتحصيلها هي حياة النفس باستكمال الفضائل التي هي سبب السعادة الباقية ، وقد علمت أن الجهل المركب هو الموت المضاد لتلك الحياة فالجاهل بالحقيقة ميت . وأما أنه ميّت الأحياء فلأنه في صورة الحي .

الفصل الثالث : قوله :

فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ؟ وَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ؟ وَٱلْأَعْلَامُ قَائِمَةٌ ، وَٱلْآيَاتُ وَاضِحَةٌ ، وَٱلْمَنَارُ مَنْصُوبَةٌ ! فَأَيْنَ يُتَاهُ بِكُمْ ؟ بَلْ كَيْفَ تَعْمَهُونَ ؟ وَبَيْنَكُمْ عِتْرَةُ نَبِيِّكُمْ ، وَهُمْ أَزِمَّةُ ٱلْحَقِّ ، وَأَعْلَامُ ٱلدِّينِ ، وَأَلْسِنَةُ ٱلصِّدْقِ ! فَأَنْزِلُوهُمْ بِأَحْسَنِ مَنَازِلِ ٱلْقُرْآنِ ، وَرِدُوهُمْ وُرُودَ ٱلْهِيمِ ٱلْعِطَاشِ .

أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ! خُذُوهَا عَنْ خَاتَمِ ٱلنَّبِيِّينَ ، صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : «إِنَّهُ : يَمُوتُ مَنْ مَاتَ مِنَّا وَلَيْسَ بِمَيِّتٍ ، وَيَبْلَى مَنْ بَلِيَ مِنَّا ، وَلَيْسَ بِبَالٍ ، فَلَا تَقُولُوا بِمَا لَا تَعْرِفُونَ ، فَإِنَّ أَكْثَرَ ٱلْحَقِّ فِيمَا تُنْكِرُونَ ، وَٱعْذِرُوا مَنْ لَا حُجَّةَ لَكُمْ عَلَيْهِ ، وَأَنَا هُوَ ، أَلَمْ أَعْمَلْ فِيكُمْ بِالثَّقَلِ ٱلْأَكْبَرِ ؟ وَأَتْرُكْ فِيكُمُ ٱلثَّقَلَ ٱلْأَصْغَرَ ؟ وَرَكَزْتُ فِيكُمْ رَايَةَ ٱلْإِيمَانِ ، وَوَقَفْتُكُمْ عَلَى حُدُودِ ٱلْحَلَالِ وَٱلْحَرَامِ ، وَأَلْبَسْتُكُمُ ٱلْعَافِيَةَ مِنْ عَدْلِي ،وَفَرَشْتُكُمُ ٱلْمَعْرُوفَ مِنْ قَوْلِي وَفِعْلِي،

وَأَرَيْتُكُمْ كَرَائِمَ ٱلْأَخْلَاقِ مِنْ نَفْسِي . فَلَا تَسْتَعْمِلُوا ٱلرَّأْيَ فِيمَا لَا يُدْرِكُ قَعْرَهُ ٱلْبَصَرُ ، وَلَا تَتَغَلْغَلُ إِلَيْهِ ٱلْفِكَرُ .

أقول : تؤفكون : تصرفون . والتيه : الضلال . والعمه : الحيرة والتردد . وعترة الرجل : أقاربه من ولده وولد ولده وأداني بني عمه . والهيم : الإبل العطاش .

واعلم أنه لما قدم المتقين بصفاتهم والفاسقين بصفاتهم كان في ذكرهما تنبيه على وصفي طريقي الحق والباطل ولوازمهما فلذلك أعقبهما بالتنبيه على كونهم في ضلال وتيه ، وعمى عن الحق ثم بالتخويف والتبكيت والتذكير بكتاب الله وعترة رسوله ليلزموا سمتهم ويسلكوا بهم طريق أهل التقوى ويفيؤوا عن ضلالهم إلى اقتباس أنوار الحق من أهله .

فقوله : فأين تذهبون . إلى قوله : منصوبة .

سؤال عما يذهبون إليه وعن وقت صرفهم عن ذلك الغي سؤالاً على سبيل الإنكار لما هم عليه من الطريق الجائرة ، والواو في قوله : والأعلام . للحال . وإشارة بالأعلام إلى أئمة الدين ، ووضوحها ظهورها بينهم . وكذلك المنار ، ونصبها قيام الأئمة بينهم ووجودهم فيهم ، ثم أردف ما أنكره من ذهابهم وتعجب منه بتفسيره فقال : فأين يتاه بكم وكيف تعمهون ، ونبّه به إلى أن الذهاب الذي سألهم عنه هو تيه في الضلال وحيرة الجهل والتردد في الغي ، وتبيّن منه أن قوله : وأنّى تؤفكون : أي متى تصرفون عن تيهكم وذهابكم في الضلالة .

وقوله : وبينكم عترة نبيكم .

الواو للحال أيضاً فالعامل تعمهون ، أو يتاه بكم ، وكذلك الواو في قوله : وهم أزمة الحقّ : والمعنى كيف يجوز أن تتيهوا في ظلمات الجهل مع أن فيكم عترة نبيكم ، وأراد بعترته أهل بيته عليهم السلام وإليه الإشارة بقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : وخلّفت فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا كتاب الله وعترتي

أهل بيتي لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض . واستعار لهم لفظ الأزمة ، ووجه المشابهة كونهم قادة للخلق إلى طريق الحق كما يقود الزمام الناقة إلى الطريق ، وكذلك استعار لهم لفظ الألسنة ، ووجه المشابهة كونهم تراجمة الوحي الصادق كما أن اللسان ترجمان النفس ، ويحتمل أن يريد بكونهم ألسنة الصدق أنهم لا يقولون إلّا صدقاً .

وقوله : فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن .

فاعلم أن للقرآن منازل :

الأولى القلب . وهو فيه بمنزلتين : إحداهما منزلة الإكرام والتعظيم ، والثانية منزلة التصور فقط من دون تعظيم . الثالثة : منزلته في الوجود اللساني بالتلاوة .

الرابعة : منزلته في الدفاتر والكتب ، وأحسن منازله هي الأولى . فالمراد إذن الوصية بإكرامهم ومحبتهم وتعظيمهم كما يكرم القرآن بالمحبة والتعظيم .

وقوله : وردوهم ورود الهيم العطاش .

إرشاد لهم إلى اقتباس العلوم والأخلاق منهم إذ كانوا معادنها . ولما كانت العلماء والأئمة تشبه بالينابيع ، والعلم يشبه بالماء العذب ، وعادمه بالعطشان حسن منه أن يأمرهم بورودهم وأن يشبه الورود المطلوب منهم بورود الإبل العطاش .

وقوله : أيها الناس . إلى قوله : ببال .

لما كان عليه السلام في معرض ذكر الفائدة فكأنه قد تقدّم فلذلك أحسن إبراز الضمير في قوله : خذوها . وإن لم يسبق لها ذكر ، وإشارة النبي بهذه الكلمة تقرير لقوله تعالى : ﴿ **ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين** ﴾[1]. ولما اتفقت عليه كلمة العلماء،

---

(١) ٣ - ١٦٣.

ونطقت به البراهين العقلية أن أولياء الله لا يموتون ولا يبلون وإن بليت أجسادهم .

قال بعض الخائضين فيما لا يعنيه قوله : ويبلى من بلي منّا نص جلي على أن أجساد الأولياء تبلى وذلك يخالف ما يعتقده الناس من أن أجسادهم باقية إلى يوم القيامة بحالها .

قلت : الاعتقاد المذكور لبعض الناس إنما نشأ من قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في قتلى بدر زمّلوهم بكلومهم ودمائهم فإنهم يحشرون يوم القيامة، وأوداجهم تشخب دماً وقوله تعالى : ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء** ﴾ الآية وليس ولا واحد منهما بدال على أن الأجساد لا تموت ولا تبلى أما الخبر فليس مقتضاه أنها تبقى صحيحة تشخب دماً إلى يوم القيامة . بل ذلك مما يشهد ببطلانه الحس بل يحمل على أنها كما تعاد يوم القيامة تعاد مجروحة تشخب جراحها دماً كهيئتها يوم موتها .

وأما الآية فالذي أجمع عليه علماء المفسرين أن الحياة المذكورة فيها هي حياة النفوس وهو ظاهر في سبب نزولها عن ابن عباس ـ رضوان الله عليه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لما أُصيب إخوانكم بأُحد جعل الله أرواحهم في أجواف طيور خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب معلّقة في ظل العرش فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا : من يبلغ إخواننا عنّا أنّا في الجنة نرزق لئلا يزهد في الجهاد ولا ينكلوا عند الحرب فقال الله عزّ وجلّ : أنا أبلغهم عنكم فنزلت : ﴿ **ولا تحسبنّ الذين قتلوا** ﴾ الآية. فإذن لا منافاة بين كلامه عليه السلام وما ورد في القرآن والخبر ومقصوده بهذه الكلمة تقرير فضيلتهم وأنهم أولياء باقون عند ربهم في ظل كرامته .

وقوله : فلا تقولوا بما لا تعرفون .

تنبيه على الرجوع إلى العترة العارفين بما ينبغي أن يقال وقوله : فإن أكثر الحق فيما تنكرون تأكيد للأمر بالتثبّت في الأقوال والنهي عن التسرع

إليها ، والجاهل قد ينكر الحق إذا خالف طبعه أو نبا عنه فهمه أو سبق اعتقاد ضده إليه بشبهة أو تقليدفنبّه على أن أكثر الحق فيما ينكرونه لئلّا يتسرعوا إلى القول من غير علم ، ولذلك ذكر هذه القضية مرتّبة بفاء التعليل .

وقوله : وأعذروا من لا حجة لكم عليه وهو أنا .

طلب عليه السلام العذر منهم فيما يلحقهم من عذاب الله بسبب تقصيرهم فإن الضرر اللاحق لهم قد أنذروا به وتوعّدوا فلو قصر هو عليه السلام في تذكيرهم بتلك الوعيدات أو الإنذارات مع كون ذلك مأخوذاً عليه من الله تعالى فكانت حجتهم عليه قائمة ولما كان له عذر لكنه بلغ وحذر وقد أعذر من أنذر وإنما ذكرهم بسلب الحجة عنهم في ذلك ليتذكروا خطأهم ولعلهم يرجعون .

وقوله : ألم أعمل فيكم إلى قوله : من نفسي .

تفصيل لما جاءهم به من الجواذب إلى الله فأعذر إليهم بها، وأتى بلفظ الاستفهام على سبيل التقريع والتبكيت والثقل الأكبر كتاب الله . وأشار بكونه أكبر إلى أنه الأصل المتبع المقتدى به ، والثقل الأصغر الأئمة من ولده عليهم السلام ، وكنى براية الإيمان عن سنّته المتبعة وطريقه الواضحة في العمل بكتاب الله وسنّة رسوله كناية بالمستعار ، ووجه المشابهة كونه طريقة يهتدى بها إلى سلوك سبيل الله كما يهتدى بالأعلام والرايات أمام الجيش وغيره ، ولفظ الركز ترشيح للاستعارة كنى به عن إيضاحها لهم وتوقيفه على حدود الحلال والحرام تعريفهم إيّاها وأراد بالعافية السلامة عن الأذى الحاصل من أيدي الظالمين ، واستعار لفظ اللباس لها ، ووجه الاستعارة أن العافية تشمل المعافى كالقميص ، وكذلك استعار لفظ الفرش للمعروف لكونه إذا وطيت قواعده يستراح به كالفراش .

وقوله : وأريتكم كرائم الأخلاق من نفسي : أي أوضحتها لكم وشاهدتموها مني متكررة .

وقوله : فلا تستعملوا الرأي إلى آخره .

نهي لهم عن الاشتغال بالخوض في صفات الله والبحث عن ذاته على غير قانون وأستاذ مرشد. بل بحسب الرأي والتخمين فإن تلك الدقائق لما كانت لا ساحل لها ولا غاية يقف الفكر عندها وإن تغلغل في أعماقها، وكانت مع ذلك في غاية العسر والدقة وكثرة الاشتباه كان تداولهم للاشتغال بها مؤدياً إلى الخبط وافتراق المذاهب وتشتّت الكلمة والاشتغال بذلك عن الانتظام في سلك الدين والاتحاد فيه كما عليه من ينتسب إلى العلم بعده وكل ذلك منه مطلوب الشارع، فإن الألفة والاتحاد في الدين من أعظم مطلوباته ويحتمل أن يريد مطلق دقائق العلم وتفريع الفقه على غير قانون من إمام هدى. بل الرأي عن أدنى وهم .

مِنْهَا: حَتَّى يَظُنَّ الظَّانُّ أَنَّ ٱلدُّنْيَا مَعْقُولَةٌ عَلَى بَنِي أُمَيَّةَ ، تَمْنَحُهُمْ دَرَّهَا ، وَتُورِدُهُمْ صَفْوَهَا ، وَلَا يُرْفَعُ عَنْ هٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ سَوْطُهَا ، وَلَا سَيْفُهَا ، وَكَذَبَ ٱلظَّانُّ لِذَلِكَ ، بَلْ هِيَ مُجَّةٌ مِنْ لَذِيذِ ٱلْعَيْشِ ، يَتَطَعَّمُونَهَا بُرْهَةً ، ثُمَّ يَلْفِظُونَهَا جُمْلَةً .

أقول : معقولة : محبوسة . والمجة : الفعلة من مجّ الشراب إذا قذفه من فيه . والبرهة : المدة من الزمان فيها طول . ولفظ كذا: ألقاه من فيه .

وهذا الكلام من فصل يذكر فيه حال بني أمية وطول مدتهم وبلاء الخلق بهم فقوله : يظن الظان . إلى قوله : سيفها . غاية من غايات طول عناء الناس معهم واستعار للدنيا أوصافاً .

أحدها : كونها معقولة ، ووجه الاستعارة ملاحظة شبهها بالناقة في كونها محبوسة في أيديهم كما تحبس الناقة بالعقال .

الثاني : كونها ذات درّ تمنحهم إياه ، ووجه الاستعارة أيضاً تشبيهها بالناقة في كون ما فيها من فوائدها وخيرها مهيئة لهم ومصبوبة عليهم كما تبذل الناقة درّها حالبها .

الثالث : كونها توردهم صفوها ، ونسبة الإيراد إليها مجاز ، وتجوّز

بالسوط والسيف فيما فيه الأمة معهم من العذاب والقتل ونحوه استعمالاً للفظ السبب في المسبب وقوله : وكذب الظان لذلك . إلى آخره ردّ لما عساه يظن من ذلك بتحقير ما حصلوا عليه من الأمر ولذتهم به وتحقير مدته ، واستعار لذلك لفظ المحبة ، وكنى بكونها مطعومة لهم عن تلذّذهم بها مدة إمرتهم ، وبكونها ملفوظة عن زوال الآخرة عنهم ، وأكد ذلك الزوال بقوله : جملة : أي بكلّيتها وهي كناية بالمستعار تشبيهاً لها باللقمة التي لا يمكن إساغتها ، وبالله التوفيق .

٨٥ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّ ٱللَّه لَمْ يَقْصِمْ جَبَّارِي دَهْرٍ قَطُّ ، إِلَّا بَعْدَ تَمْيِلٍ وَرَخَاءٍ ، وَلَمْ يَجْبُرْ عَظْمَ أَحَدٍ مِنَ ٱلْأُمَمِ ، إِلَّا بَعْدَ أَزْلٍ وَبَلَاءٍ ، وَفِي دُونِ مَا ٱسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ عَتْبٍ ، وَمَا ٱسْتَدْبَرْتُمْ مِنْ خَطْبٍ ، مُعْتَبَرٌ ، وَمَا كُلُّ ذِي قَلْبٍ بِلَبِيبٍ ، وَلَا كُلُّ ذِي سَمْعٍ بِسَمِيعٍ ، وَلَا كُلُّ نَاظِرٍ بِبَصِيرٍ . فَيَا عَجَبِي ـ وَمَا لِي لَا أَعْجَبُ ـ مِنْ خَطَإِ هٰذِهِ ٱلْفِرَقِ عَلَى ٱخْتِلَافِ حُجَجِهَا فِي دِينِهَا ، لَا يَقْتَصُّونَ أَثَرَ نَبِيٍّ ، وَلَا يَقْتَدُونَ بِعَمَلِ وَصِيٍّ ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِغَيْبٍ ، وَلَا يَعِفُّونَ عَنْ عَيْبٍ ! يَعْمَلُونَ فِي ٱلشُّبُهَاتِ ، وَيَسِيرُونَ فِي ٱلشَّهَوَاتِ ، ٱلْمَعْرُوفُ عِنْدَهُمْ مَا عَرَفُوا ، وَٱلْمُنْكَرُ عِنْدَهُمْ مَا أَنْكَرُوا ، مَفْزَعُهُمْ فِي ٱلْمُعْضِلَاتِ إِلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَتَعْوِيلُهُمْ فِي ٱلْمُهِمَّاتِ عَلَى آرَائِهِمْ كَأَنَّ كُلَّ ٱمْرِىءٍ مِنْهُمْ إِمَامُ نَفْسِهِ : قَدْ أَخَذَ مِنْهَا فِيمَا يَرَى بِعُرًى ثِقَاتٍ ، وَأَسْبَابٍ مُحْكَمَاتٍ .

أقول: القصم بالقاف : الكسر . والأزل بفتح الهمزة : الضيق والشدة . واقتص أثره : تبعه.

ومقصود هذا الفصل توبيخ الأمة على اختلاف آرائهم في الدين واستبداد كل منهم بمذهب بحسب رأيه في المسائل الفقهية ونحوها مع وجوده عليه السلام بينهم ، وإعراضهم عن مراجعته مع علمهم بقيامه بذلك .

فقوله : أما بعد . إلى قوله : ببصير .

صدر الخطبة وكأنه عليه السلام فهم ممن خرجت هذه الخطبة بسببه أنهم إنما يستبدون بآرائهم من دون مراجعة عن كبر منهم على التعلم والاستفادة ومحبة الراحة من تحمل كلفة التحري في الدين والتحرّز من الغلط فيه ومشقة الطلب فلذلك خوّفهم من حال الجبابرة وأن تصيبهم بترك قواعد الدين إلى آرائهم المتفرقة فيستعدّوا للهلاك بقوله : إنّه لم يقصم جباري دهر إلّا بعد إمهالهم فإنهم إذا أمهلوا وانغمسوا فيما هم فيه من الرخاء والترف أعرضوا عن الآخرة ونسوا ذكر الله تعالى فاستعدوا بتركهم لقوانين الدين التي بها نظام العالم للهلاك ونحوه قوله تعالى : ﴿ **وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليهم القول فدمرناها تدميراً** ﴾[1]، وكذلك قوله : ولم يجبر عظم أحد من الأمم إلّا بعد أزل وبلاء ، كنى بجبران العظم عن قوتهم بعد الضعف كناية بالمستعار ، وصدق هذه القضية ظاهر فإن أحداً من الأمم المتبعين لأنبيائهم أو لملوكهم في إظهار دين أو طلب ملك لن يصلوا إلى مطلوبهم إلّا بعد قوتهم وتضاعفهم وتظاهر بعضهم ببعض ومعاناة بلاء أثر بلاء بحيث يستعدون بذلك للفزع إلى الله تعالى فيهيىء قلوبهم لقبول الألفة ويعدها باجتماع عزائمها لقبول صورة النصر ، وفيه تنبيه على وجوب الاتحاد في الدين وعدم تشتّت الآراء فيه فإن ذلك يدعو إلى التحزّب والتفرق ويدخل عليهم الوهن والضعف وكل ذلك ضد مطلوب الشارع كما سبق ، ويحتمل أن يكنّي بقوله :

لم يقصم جباري دهر . عن جباري وقته كمعاوية وأصحابه ، وبقوله : لم يجبر عظم أحد من الأمم إلّا بعد أزل وبلاء عن أصحابه فنبههم بالكلمة الأولى على أن أولئك الجبارين وإن طالت مدتهم وقويت شوكتهم فإنما ذلك إملاء من الله لهم ليستعدوا به للهلاك ، وبالكلمة الثانية على أنكم وإن ضعفتم وابتليتم فذاك عادة الله فيمن يريد أن ينصره ثم عقب ذلك بتوبيخهم على الاختلاف وتشعّب الآراء والمذاهب في الدين لما أن ذلك يؤدي إلى

---

(١) ١٧ - ١٧.

طول محنتهم وضعفهم عن مقاومة عدوهم .

وقوله : وفي دون ما استقبلتم من عتب : أي من عتابي لكم واستدبرتم من خطب: أي من الأهوال التي كنتم ترونها من المشركين في مبدأ الإسلام حيث كنتم قليلين وأمرتم أن يثبت الواحد منكم لعشرة منهم ثم أيدكم الله بنصره بالتأليف بين قلوبكم وجبر عظمكم بمن أسلم ودخل في دينكم، وذلك أي معتبر وفيه أي اعتبار فإنكم لو لم تتحدوا في الدين وتقاسوا مرارة ذلك النصير واختلفت آراؤكم في ذلك الوقت كاختلافها الآن ، وكنتم إذن على غاية من الكثرة لم تغن عنكم كثرتكم شيئاً فكأنه قال : فيجب من ذلك الاعتبار أن لا تفترقوا في الرأي وأن تتحدوا في الدين وتراجعوا أعلمكم بأصوله وفروعه .

وقوله : فما كل ذي قلب بلبيب . إلى قوله : ببصير .

أراد بذي القلب الإنسان ، وظاهر أن الإنسان قد يخلو عن اللب وأراد باللب العقل والذكاء واستعماله فيما ينبغي على الوجه الذي ينبغي ، وبالجملة فاللبيب من ينتفع بعقله فيما خلق لأجله وكذلك السميع والبصير هما اللذان يستعملان سمعهما وبصرهما في استفادة العبرة وإصلاح أمر المعاد ونحوه قوله تعالى : ﴿ **ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها** ﴾[1]. وقوله : ﴿ **فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور** ﴾[2]. وفائدة هذه الكلمات تحريك النفوس إلى الاعتبار كيلا يعدّ التارك له غير لبيب ولا سميع ولا بصير .

وقوله : يا عجبا . إلى آخره .

أردف تعجبه بما يصلح جواب سؤال مقدر عما يتعجب منه فكأنه فهم من تقدير ذلك السؤال تعجّب السائل من تعجبه المستلزم لتبرمه وتضجره حتى

---

(١) ٧ - ١٩٤ .
(٢) ٢٢ - ٤٥ .

كأن السائل قال : وممّ تتعجب وعلام هذا التبرم والأسف فقال : ما لي لا أعجب من خطإ هذه الفرق . ثم شرع في تفصيل الخطايا والمذام التي كان اجتماعها فيهم سبباً لتعجبه منهم فأشار إلى تركهم لما ينبغي وقدم على الكل ذكر اختلاف حججهم في دينهم، وذلك هو الأصل الذي نشأت عنه أكثر هذه الرذائل فأما تركهم لما ينبغي ففي صور :

أحدها : تركهم لاقتصاص أثر نبيهم فإنهم لو اقتصّوا أثره لما اختلفوا إذ لا اختلاف فيما جاء به كما سبق بيانه لكنهم اختلفوا فلم يقتصوا أثر نبيهم .

الثانية : تركهم الاقتداء بعمل الوصي وهو إشارة إلى نفسه وهذه أقطع لأعذارهم فإن الاختلاف في الدين قد يعرض عن ضرورة وهي عدم إصابة الكل للحق مع عدم الشارع الذي يرجع إليه في التوقيف على أسرار الشريعة فأما إذا كان الموقف موجوداً بينهم كمثله عليه السلام امتنع أن يقعوا في تلك الضرورة فيعتذروا بها في الاختلاف .

الثالثة : تركهم الإيمان بالغيب : أي التصديق به والطمأنينة في اعتقاده . وللمفسرين في تفسير الغيب أقوال :

أحدها: عن ابن عباس : هو ما جاء به من عندالله .

الثاني : عن عطاء : هو الله سبحانه .

الثالث : عن الحسن : هو الدار الآخرة والثواب والعقاب والحساب .

الرابع : قيل : يؤمنون بظهر الغيب كقوله تعالى : ﴿ **يخشون ربهم بالغيب** ﴾ فالمعنى قوله عليه السلام : أي لا يحفظون شرائط الإيمان في عقيب بعضهم على بعض .

الخامس : عن ابن عيسى : الغيب ما غاب عن الحواس مما يعلم بالدليل .

السادس : عن الأخفش يؤمنون بما غاب عن أفهامهم من متشابهات القرآن .

الرابعة : تركهم العفة عن عيب وهو إشارة إلى الغيبة وظاهر أنها فجور وعبور إلى طرف الإفراط من فضيلة العفة . وأما فعلهم لما لا ينبغي فأمور :

أحدها : أنهم يعملون في الشبهات : أي لا يتوقفون فيما أشبه عليهم أمره ولا يبحثون عن وجه الحق فيه بل يعملون فيه بما قادهم إليه الهوى .

الثاني : كونهم يسيرون في الشهوات لما لحظ مشابهة ميل قلوبهم إلى شهواتها الدنيوية وانهماكها فيها قاطعة مراحل الأوقات بالتلذذ لسلوك السائر في الطريق ونحوها استعار لذلك السلوك لفظ السير .

الثالث : كون المعروف فيهم ما عرفوا والمنكر ما أنكروا : أي أن المعروف والمنكر تابعان لإرادتهم وميولهم الطبيعية فما أنكرته طباعهم كان هو المنكر بينهم وإن كان معروفاً في الشريعة وما اقتضته طباعهم ومالت إليه كان هو المعروف بينهم وإن كان منكراً في الدين ، والواجب أن تكون إرادتهم وميولهم تابعة لرواسم الشريعة في اتباع ما كان فيها معروفاً وإنكار ما كان فيها منكراً .

الرابع : كون مفزعهم في المعضلات إلى أنفسهم وتعويلهم في المبهمات إلى آرائهم وهو كناية عن كون أحكامهم في كل ما يرد عليهم من مشكلات الدين ويستبهم من أحكامه تابعة لأهوائهم لا يجرونها على قانون شرعي يعرف حتى أشبهت نفوسهم الأمارة بالسوء التي هي منبع الأهواء المخالفة للشريعة الأئمة التي يرجع إليهم في استفادة الأحكام فكل منهم يأخذ عن نفسه : أي يتمسك فيما يراه ويحكم به بآراء كأنها عنده عرى وثيقة : أي لا يضل من تمسك بها، وأسباب محكمات : أي نصوص جليّة وظواهر واضحة لا اشتباه فيها ، وقد عرفت معنى الحكم ، ولفظ العرى مستعار ، وقد سبق وجه الاستعارة . وبالله العصمة والتوفيق .

٨٦ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

أَرْسَلَهُ عَلَى حِينَ فَتْرَةٍ مِنَ ٱلرُّسُلِ ، وَطُولِ هَجْعَةٍ مِنَ ٱلْأُمَمِ ، وَٱعْتِزَامٍ

مِنَ ٱلْفِتَنِ ، وَٱنْتِشَارٍ مِنَ ٱلْأُمُورِ ، وَتَلَظٍّ مِنَ ٱلْحُرُوبِ ، وَٱلدُّنْيَا كَاسِفَةُ ٱلنُّورِ ، ظَاهِرَةُ ٱلْغُرُورِ ، عَلَى حِينِ ٱصْفِرَارٍ مِنْ وَرَقِهَا ، وَيَاسٍ مِنْ ثَمَرِهَا ، وَٱغْوِرَارٍ مِنْ مَائِهَا ، قَدْ دَرَسَتْ مَنَارُ ٱلْهُدَى ، وَظَهَرَتْ أَعْلَامُ ٱلرَّدَى ، فَهِيَ مُتَجَهِّمَةٌ لِأَهْلِهَا ، عَابِسَةٌ فِي وَجْهِ طَالِبِهَا ، ثَمَرُهَا ٱلْفِتْنَةُ ، وَطَعَامُهَا ٱلْجِيفَةُ ، وَشِعَارُهَا ٱلْخَوْفُ ، وَدِثَارُهَا ٱلسَّيْفُ .

فَٱعْتَبِرُوا، عِبَادَ ٱللهِ ! وَٱذْكُرُوا تِيكَ ٱلَّتِي آبَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ بِهَا مُرْتَهَنُونَ ، وَعَلَيْهَا مُحَاسَبُونَ . وَلَعَمْرِي مَا تَقَادَمَتْ بِكُمْ وَلَا بِهِمُ ٱلْعُهُودُ ، وَلَا خَلَتْ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمُ ٱلْأَحْقَابُ ، وَٱلْقُرُونُ ، وَمَا أَنْتُمُ ٱلْيَوْمَ مِنْ يَوْمٍ كُنْتُمْ فِي أَصْلَابِهِمْ بِبَعِيدٍ ، وَٱللهِ مَا أَسْمَعَهُمُ ٱلرَّسُولُ شَيْئاً ، إِلَّا وَهَا أَنَا ذَا ٱلْيَوْمَ مُسْمِعُكُمُوهُ ، وَمَا أَسْمَاعُكُمُ ٱلْيَوْمَ بِدُونِ أَسْمَاعِهِمْ بِٱلْأَمْسِ ، وَلَا شُقَّتْ لَهُمُ ٱلْأَبْصَارُ ، وَلَا جُعِلَتْ لَهُمُ ٱلْأَفْئِدَةُ ، فِي ذٰلِكَ ٱلْآوَانِ ، إِلَّا وَقَدْ أُعْطِيتُمْ مِثْلَهَا فِي هٰذَا ٱلزَّمَانِ .

وَٱللهِ مَا بَصُرْتُمْ بَعْدَهُمْ شَيْئاً جَهِلُوهُ ، وَلَا أُصْفِيتُمْ بِهِ وَحُرِمُوهُ ، وَلَقَدْ نَزَلَتْ بِكُمُ ٱلْبَلِيَّةُ جَائِلاً خِطَامُهَا ، رِخْواً بِطَانُهَا ، فَلَا يَغُرَّنَّكُمْ مَا أَصْبَحَ فِيهِ أَهْلُ ٱلْغُرُورِ ، فَإِنَّمَا هُوَ ظِلٌّ مَمْدُودٌ إِلَى أَجَلٍ مَعْدُودٍ .

أقول : الفترة : ما بين زماني الرسالة . والهجعة : النومة. والاعتزام : العزم ، وروي : اعترام الفتن بالراء المهملة : أي كثرتها، وروي : اعتراض من اعترض الفرس الطريق إذا مشى عرضاً من غير قصد . وتلظت الحرب : تلهّبت. والتجهّم : العبوس . والأحقاب : جمع حقب بضم الحاء والقاف وهو الدهر . والبطان : حزام البعير للقتب.

وصورة هذا الفصل تذكيرهم بنعمة الله تعالى التي نفت ما كانوا فيه من بؤس وهي بعثة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وما استلزمته من الخيرات ليعتبروا فيشكروا ويخلصوا التوجه إلى الله تعالى فأشار أولاً إلى النعمة المذكورة ثم أردفها بالأحوال المذمومة التي تبدلت بتلك النعمة الجسيمة ، وعدّ منها أموراً :

أحدها : الفترة من الرسل وظاهر أن خلوّ الزمان عن رسول فيه يستلزم وجود الشرور ووقوع الهرج والمرج ، وتلك أحوال مذمومة يلحق ذلك الزمان بها من الذم بمقدار ما يلحق زمان وجود الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من المدح .

الثاني : طول الهجعة من الأمم، وكنّى بالهجعة عن الغفلة في أمر المعاد وسائر المصالح التي ينبغي .

الثالث : الاعتزام من الفتن أما على الرواية الأولى فنسبة العزم إلى الفتن مجاز كنّى به عن وقوعها بين الخلق المشبه لقصدها إياهم ، وعلى الرواية الثانية : أي على كثرة من الفتن ، وعلى الرواية الثالثة فالمعنى أن الفتن لما كانت غير واقعة على قانون شرعي ولا نظام مصلحي ولذلك سميت فتنة لا جرم أشبهت المعترض في الطريق من الحيوان الماشي على غير استقامة ، ولذلك استعير لها لفظ الاعتراض .

الرابع : وعلى انتشار من الأمور : أي تفرّق أمور الخلق وأحوالهم وجريان أفعالهم على غير قانون عدلي .

الخامس : التلظّي من الحروب . وقد سبق تشبيه الحرب بالنار فلذلك أسند إليها التلظّي على سبيل الاستعارة ، وكنّى بها عن هيجانها ووجودها بينهم زمان الفترة .

السادس : والدنيا كاسفة ، والواو للحال : أي كاسف نورها ، ونور الدنيا كناية عن وجود الأنبياء وما يأتون به من الشرائع وما ينتج عنهم من الأولياء والعلماء كناية بالمستعار ، ووجه المشابهة ما يستلزم النور ووجود الأنبياء والشرائع من الاهتداء بهما ، ورشح تلك الاستعارة بذكر الكسوف ، وعبّر به عن عدم ذلك النور منها ملاحظة لشبهها بالشمس .

السابع : ظاهرة الغرور : أي كل قد اغترّ بها وانهمك في مشتهياتها وخدعته بخوادعها .

الثامن : كونه أرسل على حين اصفرار من ورقها، وإياس من ثمرها واغورار من مائها . استعار لفظ الثمرة والورق لمتاعها وزينتها، ولفظ الاصفرار لتغيّر تلك الزينة عن العرب في ذلك الوقت وعدم طلاوة عيشهم

إذن وخشونة مطاعمهم كما يذهب حسن الشجرة باصفرار ورقها فلا يتلذذ بالنظر إليها وعنى بالإياس من ثمرها انقطاع آمال العرب إذن من الملك والدولة وما يستلزمه من الحصول على طيبات الدنيا ، وكذلك استعار لفظ الماء لمواد متاع الدنيا وطرق لذّاتها ولفظ الاغورارلعدم تلك المواد من ضعف التجارات والمكاسب وعدم التمليك للأمصار وكل ذلك لعدم النظام العدلي بينهم وكلّها استعارات بالكناية ووجه الاستعارة الأولى أن الورق كما أنه زينة للشجرة وبه كماله كذلك لذات الدنيا وحياة الدنيا وزينتها ، ووجه الثانية أن الثمر كما أنه مقصود الشجرة غالباً وغايتها كذلك متاع الدنيا والانتفاع به هو مقصودها المطلوب منها لأكثر الخلق ، ووجه الثالثة أن الماء كما أنه مادة الشجر وبه حياتها وقيامها في الوجود كذلك مولود تلك اللذات هي المكاسب والتجارات والصناعات ، وقد كانت العرب خالية من ذلك ، ووجوه باقي الاستعارات ظاهرة .

التاسع : دروس أعلام الهدى. وكنى بأعلام الهدى عن أئمة الدين ، وكتبه التي بها يهتدى لسلوك سبيل الله وبدروسها عن موت أولئك وعدمهم كناية بالمستعار كما سبق .

العاشر : ظهور أعلام الردى . وهم أئمة الضلال الداعين إلى النار .

الحادي عشر : كون الدنيا متجهمة لأهلها عابسةً في وجوه طلابها ، وكنى بذلك عن عدم صفائها فإنّ طيب العيش في الدنيا إنما يكون مع وجود نظام العدل والتصفية بين أهلها وعدم التظالم وذلك في زمان الفترة مفقود بين العرب ، وهو كناية بالمستعار ، ووجه المشابهة ما يلزمه المستعار عنه وله من عدم تحصيل المطلوب معهما.

الثاني عشر : كون ثمرها الفتنة : أي غاية سعيهم فيها على خبط في ظلمات جهلهم إنما هو الفتنة : أي الضلال عن سبيل الله والتيه في ظلمات الباطل . وغاية كل شيء هو مقصوده فتشبه الثمرة التي هي مقصود الشجرة فلذلك استعير لها لفظها .

الثالث عشر : وطعامها الجيفة ، يحتمل أن يكون لفظ الجيفة هنا مستعاراً لطعام الدنيا ولذاتها ، ووجه المشابهة أنه لما كانت الجيفة عبارة عما

أنتن وتغيّرت رائحته من جثة حيوان ونحوها فخبث مأكله ونفر الطبع عنه كذلك طعام الدنيا ولذاتها في زمان الفترة أكثر ما يكون من النهب والغارة والسرقة ونحوهما مما يخبث تناوله شرعاً وينفر العقل منه وتأباه كرائم الأخلاق فأشبه ما يحصل من متاعها إذن الجيفة في خبثها وسوء مطعمها، وإن كان أحد الخبيثين عقلياً والآخر حسياً فاستعير لفظها له ، ويحتمل أن يكنى بالجيفة عما كانوا يأكلون في الجاهلية من الحيوان غير مذكى وهو ما حرّمه القرآن الكريم من ذلك في قوله : ﴿ **حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة** ﴾ . أي المضروبة بالخشب حتى تموت ويبقى الدم فيها فيكون أطيب كما زعم المجوس ، والمتردية : أي التي تردت من علو فماتت . فإن كل ذلك إذا مات فكثيراً ما يتعفّن ويؤكل فيصدق أن طعامهم كان الجيفة .

الرابع عشر : كون شعارها الخوف .

الخامس عشر : كون دثارها السيف. استعار لفظ الشعار للخوف والدثار للسيف ، ووجه الاستعارة الأولى أن الخوف وإن كان من العوارض القلبيّة إلاّ أنه كثيراً ما يستتبع اضطراب البدن وانفعاله بالرعدة فيكون شاملاً له شمول ما يتّخذه الإنسان شعاراً . ووجه الثانية أن الدثار والسيف يشتركان في مباشرة المدثر والمضروب من فوقهما . وقوله : فاعتبروا عباد الله شروع في المقصود . فقوله : واذكروا تلك. إشارة إلى وجه العبرة من قبائح الأعمال : أي تلك الأعمال التي كانت عليها آباؤكم وإخوانكم زمان الفترة وزمان دعوة الرسول لكم ، وقوله : فهم بها مرتهنون : أي محبوسون في سلاسل الهيئات البدنية وأغلال ما اكتسبوا منها ، ومحاسبون عليها . وقوله : ولعمري . إلى قوله : ببعيد . إلحاق بهم بآبائهم في تشبيه زمانهم بزمانهم وتقارب ما بين الزمانين وتشبيه أحوالهم بحالهم في أمور :

أحدها : أن أُولئك كانوا آباءكم وليس زمان الابن وحاله ببعيد من حال

---

(١) ٥ـ٣ .

أبيه فيما يأتي ويذر .

الثاني : أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لم يسمعهم شيئاً إلّا وأسمعتكم إيّاه فلا فرق بينكم وبينهم من هذه الجهة .

الثالث : أنه لا تفاوت بين إسماعكم وإسماعهم .

الرابع : أن سائر الآلات البدنية التي كانت لأولئك فاكتسبوا بها كمالاً ولم تكتسبوا حاصلة لكم أيضاً .

الخامس : أنكم لم تعلموا شيئاً كان آباؤكم جهلوه حتى يكون ذلك سبباً للفرق بينكم وبينهم .

السادس : ولا أُصفيتم من الدنيا بشيء لم يكن لآبائكم مثله ، وغرضه من إلحاقهم بآبائهم في هذه الأحوال أمران :

أحدهما : التنفير عن حال من سبق من العاصين بمخالفة أوامر الله تعالى .

الثاني : الجذب والترغيب في حال من سبق ممن أطاع الله والرسول فإنه إذا حصلت المشابهة بينهم وبين السابقين والمتشابهان يتحدان في اللوازم كان من تشبه بسابق في عصيانه لزمه ما لزمه من أليم العقاب ، ومن تشبّه به في طاعته وانقياده لله لزمه ما لزمه من الوصول إلى جزيل الثواب .

وقوله : ولقد نزلت بكم البلية .

يشبه أن يكون إنذاراً بابتلاء الخلق بدولة بني أُمية وملوكها ، وقوله : جائلاً خطامها . كناية بالمستعار عن خطرها وصعوبة حال من يركن إليها فإنها لما كانت دولة خارجة عن نظام الشريعة جارية على وفق الأوهام كان الراكن إليهم على خطر في دينه ونفسه كما أن من ركن إلى الناقة التي جال خطامها ، أي لم يثبت في وجهها وارتخى حزامها فركبها كان على خطر أن تصرعه فيهلك ، ثم أردف ذلك بالنهي عن الاغترار بما أصبح فيه أهل الغفلة

من متاع الدنيا وطيباتها ونفّر عنه باستعارة لفظ الظل لـه ، ووجه المشـابهة مـا يشتركان فيه من كونه ممدوداً ينتهي عند أجل ويزول به . وبالله التوفيق .

٨٧ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

أَلْحَمْدُ للّٰهِ ٱلْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ ، وَٱلْخَالِقِ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّـةٍ ، ٱلَّذِي لَمْ يَزَلْ قَائِماً دَائِماً ، إِذْ لَا سَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ ، وَلَا حُجُبٌ ذَاتُ أَرْتَـاجٍ ، وَلَا لَيْلٌ دَاجٍ ، وَلَا بَحْرٌ سَاجٍ ، وَلَا جَبَلٌ ذُو فِجَاجٍ ، وَلَا فَجٌّ ذُو ٱعْوِجَاجٍ ، وَلَا أَرْضٌ ذَاتُ مِهَـادٍ ، وَلَا خَلْقٌ ذُو ٱعْتِمَادٍ ، ذٰلِـكَ مُبْتَدِعُ ٱلْخَلْقِ ، وَوَارِثُـهُ ، وَإِلٰـهُ ٱلْخَلْقِ ، وَرَازِقُهُ ، وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ دَائِبَانِ فِي مَرْضَـاتِهِ : يُبْلِيَـانِ كُلَّ جَـدِيدٍ ، وَيُقَـرِّبَانِ كُـلَّ بَعِيـدٍ ، قَسَمَ أَرْزَاقَهُمْ ، وَأَحْصَى آثَـارَهُمْ ، وَأَعْمَـالَهُمْ ، وَعَـدَدَ أَنْفَاسِهِمْ ، وَخَائِنَةَ أَعْيُنِهِمْ ، وَمَا تُخْفِي صُـدُورُهُمْ مِنَ ٱلضَّمِيرِ ، وَمُسْتَقَـرَّهُمْ ، وَمُسْتَوْدَعَهُمْ مِنَ ٱلْأَرْحَامِ وَٱلظُّهُورِ ، إِلَى أَنْ تَتَنَاهَى بِهِمُ ٱلْغَايَاتُ .

هُـوَ ٱلَّذِي ٱشْتَـدَّتْ نِقْمَتُهُ عَلَى أَعْـدَائِـهِ ، فِي سَعَـةِ رَحْمَتِـهِ ، وَٱتَّسَعَتْ رَحْمَتُهُ لِأَوْلِيَائِهِ فِي شِدَّةِ نِقْمَتِهِ ، قَاهِرُ مَنْ عَازَّهُ ، وَمُدَمِّرُ مَنْ شَـاقَّهُ ، وَمُـذِلُّ مَنْ نَـاوَأَهُ ، وَغَالِبُ مَنْ عَـادَاهُ ، وَمَنْ تَوَكَّـلَ عَلَيْهِ كَفَـاهُ ، وَمَنْ سَأَلَـهُ أَعْطَاهُ ، وَمَنْ أَقْرَضَهُ قَضَاهُ ، وَمَنْ شَكَرَهُ جَزَاهُ .

عِبَـادَ ٱللّٰهِ ! زِنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْـلَ أَنْ تُـوزَنُـوا ، وَحَـاسِبُـوهَـا مِنْ قَبْـلِ أَنْ تُحَاسَبُوا ، وَتَنَفَّسُوا قَبْلَ ضِيقِ ٱلْخِنَاقِ ، وَٱنْقَادُوا قَبْـلَ عُنْفِ ٱلسِّيَاقِ ، وَٱعْلَمُـوا أَنَّهُ مَنْ لَمْ يُعِنْ عَلَى نَفْسِهِ ، حَتَّى يَكُونَ لَهُ مِنْهَا وَاعِظٌ وَزَاجِرٌ ، لَمْ يَكُنْ لَـهُ مِنْ غَيْرِهَا زَاجِرٌ ، وَلَا وَاعِظٌ .

أقـول : الأرتـاج : الأغـلاق . والسـاجي : السـاكن. والفجـاج : الاتساع . والفج : الواسع ، ودائبان : مجدان في سيرهما . وعـازه : غالبـه والمناواة : المعاداة .

وقد صدر هذا الفصل باعتبارات إضافية للحق سبحانه في معرض تمجيده :

فالأول : كونه تعالى معروفاً من غير رؤية ، وقد سبق معنى معرفته تعالى ومراتبها وبيان كونه منزهاً عن الرؤية بحاسة البصر .

الثاني : كونه تعالى خالقاً من غير روية ، وقد سبق أيضاً بيانه في قوله في الخطبة الأولى : بلا روية أجالها .

الثالث : كونه لم يزل دائماً . وذلك لكون وجوب وجوده مستلزماً لاستحالة عدمه أزلاً وأبداً .

الرابع : كونه قائماً .يجوز أن يريد به معنى الدائم الباقي ، ويجوز أن يريد به القائم بأمور العالم ، وللمفسرين فيه على هذا الوجه أقوال :

الأول : عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ كونه عالماً بالخلق أينما كانوا وضابطاً لأحوالهم .

الثاني : قيامه توكيله الحفظة عليهم وهو المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ **أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت** ﴾.

الثالث : القائم على الشيء هو الحافظ له والمدبر لأمره .

الرابع : هو المجازي بالأعمال .

الخامس : هو القاهر لعباده المقتدر عليهم ، وقوله : إذ لا سماء. إلى قوله : ذو اعتماد إشارة إلى جهة اعتبار أزلية قيامه بذاته وسبقه لكل ممكن ودوامه تقريراً لقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : كان الله ولا شيء . فأما الحجب ذات الأرتاج فيحتمل أن يريد بها السماوات على ظاهر الشريعة وأنه تعالى في السماء فأشبهت الحجب له فأطلق له لفظها عليها ، وكونها ذات أرتاج كناية عن عدم التمكن من فتحها، والدخول فيها كناية بالمستعار ، وقال بعض الفضلاء : أراد بها الهيئات البدنية ومحبة الدنيا والظلمات الحاصلة للنفس الحاجبة لها عن مشاهدة أنوار جلال الله حتى كأنها أقفال عليها كما قال

تعالى : ﴿ **أم على قلوب أقفالها** ﴾ وقوله : ولا خلق ذو اعتماد : أي ذو قوة وبطش .

السادس : كونه مبتدع الخلق : أي مخترعه على غير مثال سبق .

السابع : كونه وارثه : أي كما أنه مبدأه فهو مآله ومرجعه ، وذلك إشارة إلى كونه دائماً قائماً لم يزل ولا يزال .

الثامن : كونه إله الخلق وهو اعتبار يلحقه بالقياس إلى ايجاده لهم واستعباده إياهم .

التاسع : كونه رازقهم وهو اعتبار له بالقياس إلى إفاضة سائر نعمه عليهم .

أحدها: كون الشمس والقمر دائبين في مرضاته : أي على وفق إرادته للخير المطلق والنظام الكلي ، وذكرهما في معرض تمجيده لكونهما من أعظم آيات ملكه ، وقوله : يبليان كل جديد . نسب الإبلاء إليهما لكون حركاتهما من الأسباب لحدوث الحوادث في هذا العالم وتغيّراته ، وكذلك قوله : ويقرّبان كل بعيد ، وفيه جذب إلى ذكر المعاد والعمل له فكونهما يبليان كل جديد منبه على عدم الثقة والاعتماد على ما يروق ويعجب من حسن الأبدان وجدتها ، وكذلك ما يحدث ويتجدد من قينات الدنيا ولذاتها لوجوب دخولها فيما يبلى ، وكونهما يقربان البعيد تنبيه مع ذلك على الحذر مما يستبعده أهل الغفلة من الموت والفناء في صحة أبدانهم وسلامتهم في حياتهم الدنيا .

العاشر : كونه تعالى قسم أرزاقهم كقوله : ﴿ **نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا** ﴾[1] أي وهب لكل من الخلق ما كتب له في اللوح المحفوظ .

الحادي عشر : كونه أحصى آثارهم . إلى قوله : من الأرحام

(1) ٤٣ - ٣١ .

والـظهـور : أي أحصى كـل ذلـك منهم بقلم القضـاء الإلهي في الألـواح المحفوظة وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ **والله يعلم أعمالكم** ﴾ وقوله : ﴿ **وما من غائبة في السمـاء والأرض إلّا في كتاب مبين** ﴾[1] وقـوله : ﴿ **يعلم خـائنة الأعين وما تخفي الصدور** ﴾[2]، وقوله : ﴿ **ومـا من دابة في الأرض إلّا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين** ﴾[3] وقوله : إلى أن تتنـاهى بهم الغايـات : أي يعلم كل أحـوالهم من حين ابتدائهم إلى أن يقف كل عند غايته المكتوبة له من خير أو شر .

الثـاني عشر : هـو الذي اشتـدت نقمته على أعـدائه في سعـة رحمتـه واتسعت رحمته لأوليائه في شدة نقمته وأشار إلى كمال ذاته بـالنسبة إلى ملوك الدنيا مثلاً فإن أحدهم في حالة غضبه على عـدوه لا يتسع لـرحمته ولا رحمـة غيره ، وكذلك في حال رحمتـه لأوليائـه لا يجتمع معهـا غضبه عليهم ، ولمـا ثبت أنه تعالى هو الغني المطلق المنزه عن صفات المخلوقين، وأنـه المعطي لكل قابل ما يستحقه من غير تـوقف في وجوده على أمـر من ذاته وكـان أعداء الله مستعدون ببعدهم عنه لقبول سخطه وشدة نقمته في الآخرة لا جـرم أولاهـم ذلك وإن كانوا في الدنيا في سعة رحمته وشمول نعمته ، وكذلك أولياؤه لما استعدوا لقبول رحمته وشمول نعمته أفاضها عليهم فهم في حضـرة قدسـه على غـاية من البهجـة والسعادة وضـروب الكرامـة وإن كانـوا بأجسـادهم في ضـروب من العذاب وشقـاوة الفقر والضنـك في الدنيـا ، وذلك لا يملكـه إلّا حليم لا يشغله غضب عن رحمتـه ، عدل حكيم لا تمنعـه رحمتـه عن إنـزال عقوبته سبحانه ليس إلّا هو .

الثالث عشر : قاهر من عازه . إنه تعالى قاهـر باعتبـار أنه قـاصم ظهور الجبابرة من أعـدائه فيقهـرهم بالمـوت والإذلال كفرعـون إذ قـال : أنـا ربكم الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى وهو الذي يلحق هذا الاعتبار مطلقاً إذ

---

(١) ٢٧ ـ ٧٧ .
(٢) ٤٠ ـ ٢٠ .
(٣) ١١ ـ ٧ .

كل موجود فهو مسخر تحت قدرته وقهره عاجز في قبضته .

الرابع عشر: ومدمر من شاقه .

الخامس عشر : ومذل من ناوأه .

السادس عشر : وغالب من عاداه . فمشاقة الله اتباع غير سبيله من بعده ما يتبيّن للمنحرف الهدى ، ومناوأته الإعراض عن أوامره واتباع الشهوات وإذلاله تعالى حينئذ هو إفاضته لصورة الحاجة إلى غيره .

السابع عشر : كافي من توكل عليه .

الثامن عشر : ومعطى من سأله .

التاسع عشر : وقاضي من أقرضه .

العشرون : ومجازي من شكره . وهذه الاعتبارات تعود إلى حرف واحد وهو أن العبد إذا استعد بحسن التوكل والسؤال والصدقة والشكر لنعم الله وجب في جود الله وحكمته إفاضة كفايته فيما توكل عليه فيه فكفايته من الكمالات إفاضة تمامها عليه ، ومن رفع النقصانات دفعها عنه ثم إعطاؤه ما سأل إذا استعد لقبوله ثم أداؤه عن قرضه أضعافه ثم جزاؤه على شكر زيادة إنعامه، وأطلق لفظ القرض لما يعطى الفقير مجازاكما قال تعالى : **﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً ﴾**(١) أي بريئاً من جهات الرياء والسمعة خالصاً لوجه الله فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ، ووجه المناسبة كون الفقراء أهل الله وعياله فكان المعطي هو الله تعالى .

وقوله : عباد الله . إلى آخره .

شروع في الشور والموعظة فقوله : زنوا أنفسكم من قبل أن توزنوا . زنة النفوس في الدنيا اعتبار أعمالها وضبطها بميزان العدل : أي مراعاة استقامتها على حاق الوسط من طرفي الإفراط والتفريط اللذين هما ككفتي

---

(١) ٢ - ٢٤٦ .

الميزان مهما رجحت إحداهما فالنقصان لازم والخسران قائم . وأما الميزان الأخروي فأما على رأي المتكلمين وظاهر الشريعة فظاهر وأما على رأي محققي السالكين من الصوفية فما أشار إليه الإمام الغزالي ـ رضي الله عنه ـ كاف في بيانه قال : إن تعلّق النفس بالجسد كالحجاب لها عن حقائق الأمور وبالموت ينكشف الغطاء كما قال تعالى : ﴿ **فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد** ﴾[1] ومما ينكشف له تأثير أعماله فيما يقربه إلى الله تعالى ويبعّده عنه ، ومقادير تلك الآثار وأن بعضها أشدّ تأثيراً من بعض ، وفي قدرة الله تعالى أن يجري شيئاً يعرف الخلق به في لحظة واحدة مقادير الأعمال بالإضافة إلى تأثيراتها في التقريب والإبعاد فحدّ الميزان ما به يتميّز الزيادة والنقصان ، وإن اختلف مثاله في العالم المحسوس فمنه الميزان المعروف ومنه القبّان والأُصطرلاب. لحركات الفلك ، والمسطرة لمقادير الخطوط ، والعروض لمقادير حركات الأصوات فهذه كلها أمثلة للميزان الحقيقي ، وهو ما يعرف به الزيادة والنقصان وهو موجود فيها بأسرها ، وصورته تكون للحس عند التشكيك وللخيال بالتمثيل .

وقوله : وحاسبوها قبل أن تحاسبوا .

محاسبة النفس ضبط الإنسان على نفسه أعمالها الخيرية والشرية ليزكيها بما ينبغي لها ويعاقبها على فعل ما لا ينبغي ، وهي باب عظيم من أبواب المرابطة في سبيل الله فإن للعارفين في سلوك سبيل الله ومرابطتهم مع أنفسهم مقامات خمسة :

الأولى : المشارطة ثم المراقبة ثم المحاسبة ثم المعاتبة ثم المجاهدة والمعاقبة . وضربوا لذلك مثالاً فقالوا : ينبغي أن يكون حال الإنسان مع نفسه كحاله مع شريكه إذا سلم إليه مالاً ليتجّر به فالعقل هو التاجر في طريق الآخرة ، ومطلبه وربحه تزكية النفس إذ بذلك فلاحها كما قال تعالى : ﴿ **قد أفلح من زكيها وقد خاب من دسيها** ﴾[2]، وإنما علاجها بالأعمال الصالحة

---

(١) ٥٠ ـ ٢١ .
(٢)٩١ ـ ٩ .

فالعقل يستعين بالنفس في هذه التجارة إذا يستسخرها فيما يزكيها كما يستعين التاجر بشريكه ، وكما أن الشريك يصير خصماً منازعاً يجاذبه في الربح فيحتاج أن يشارطه أولاً ، ويراقبه ثانياً ، ويحاسبه ثالثاً ، ويعاتبه أو يعاقبه رابعاً فكذلك العقل يحتاج إلى مشارطة النفس أولاً فيوظف عليها الوظائف ، ويأمرها بسلوك طريق الحق ، ويرشدها إليها ، ويحرم عليها سلوك غيرها كما يشترط التاجر على شريكه .

الثانية : أن لا يغفل عن مراقبتها لحظة فلحظة عند خوضها في الأعمال ويلاحظها بالعين الكالئة وإلى مقام المراقبة الإشارة بقوله تعالى : ﴿ **والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم بشهاداتهم قائمون** ﴾[1] وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : اعبد الله كأنك تراه ، وقد سبق بيان حقيقة المراقبة ، ولا بد منها فإن الإنسان لو غفل عن نفسه وأهملها لم ير منها إلاّ الخيانة وتضييع رأس المال كالعبد الخائن إذا انفرد بمال سيده .

الثالثة : ثم بعد الفراغ من العمل ينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط فإن هذه تجارة ربحها الفردوس الأعلى فتدقيق الحساب في هذا أهم من التدقيق في أرباح الدنيا لحقارتها بالنسبة إلى نعيم الآخرة . فلا ينبغي أن يهمل من مناقشتها في ذرة من حركاتها وسكناتها وخطراتها ولحظاتها. فإن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها يمكن أن يشتري بها كنزاً من كنوز الآخرة لا يتناهى . قالوا : وينبغي للإنسان أن يخلو عقيب فريضة كل صبح مع نفسه بالوصية ويقول : أي نفس ليس لي بضاعة إلاّ العمر ومهما فنى فقد فنى رأس مالي ، ووقع اليأس من التجارة وطلب الربح ، وهذا يوم جديد قد أمهلني الله فيه، وهو صاحب البضاعة وربها ولو توفاني لقلت : رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت : فاحسبي أنك رددت فإياك وتضييع هذا اليوم والغفلة فيه . واعلمي أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة ، وقد ورد في الخبر أنه يفتح للعبد في كل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة

---

(١) ٧٠ ـ ٣٢.

فيفتح لها فيها خزانة فيراها مملوءة نوراً من حسناته التي عملها في تلك الساعة فينال من الفرح والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار ما لو قسّم على أهل النار لأغناهم عن الإحساس بآلامها .

ويفتح له خزانة أخرى فيراها سوداء مظلمة يفوح نتنها ويغشاهم ظلامها وهي الساعة التي عصى الله تعالى فيها فيناله من الهول والفزع ما لو قسم على أهل الجنة لنغّص عليهم نعيمها ، ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس فيها ما يسره وما يسؤه ، وهي الساعة التي نام فيها أو غفل في شيء من مباحات الدنيا فيتحسر على خلوّها ويناله من الغبن الفاحش ما ينال من قدر على ربح كثير. ثم ضيّعه ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ **يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن** ﴾[1] وقال بعضهم : هب أن المسيء قد عفي عنه أليس فاته ثواب المحسنين . وهو إشارة إلى الغبن والحسرة يومئذ ، ثم يستأنف وصيته لأعضائه السبعة : وهي العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل ، ويسلّمها إليها فإنها رعايا خادمة لها في التجارة وبها يتمّ أعمال هذه التجارة ، وأن لجهنم سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم .

وإنما تتعين تلك الأبواب لمن عصى الله تعالى بهذه الأعضاء ، ويوصي كل عضو بما ينبغي له وينهاه عما لا ينبغي له ، ويرجعه في تفصيل تلك الأوامر والنواهي إلى مراسم الشريعة ثم يشترط عليها إن خالفت ذلك عاقبها بالمنع من شهواتها ، وهذه الوصية قد تكون بعد العمل وقد تكون قبله للتحذير كما قال تعالى : ﴿ **فاعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه** ﴾[2] .

الرابعة : المجاهدة والمعاقبة ، وهو بعد المحاسبة إذا رأى نفسه قد تاقت معصية فينبغي أن يعاقبها بالصبر عن أمثالها ويضيّق عليها في مواردها، وما يقود إليها من الأمور المباحة، وإن رآها توانت وكسلت عن شيء من

---

(١) ٦٤ ـ ٩.
(٢) ٢ ـ ٢٣٦.

الفضائل وورد من الأوراد فينبغي أن يؤدّبها بتثقيل الأوراد عليها ويلزمها فنوناً من الطاعات جبراً لما فات . روي : أنّ ابن عمر أخّر صلاة المغرب حتى طلع كوكبان فأعتق رقبتين .

الخامسة : توبيخ النفس ومعاتبتها ، وقد علمت أن لك نفساً أمارة بالسوء ميّالة إلى الشر ، وقد أُمرت بتقويمها وقودها [عودهاج] بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها وبمنعها عن شهواتها ولذاتها المألوفة فإن أهملتها شردت وجمحت ولم تظفر بها بعد ذلك ، وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة واللائمة. كانت نفسك هي النفس اللوّامة ، وسبيل المعاتبة أن تذكّر النفس عيوبها وما هي عليه من الجهل ، والحمق وما بين يديها من مغافصة الموت وما تؤول إليه من الجنة والنار وما عليه اتفاق كلمة أولياء الله الذين هم بتسليمها سادات الخلق، ورؤساء العالم من وجوب سلوك سبيل الله ومفارقة معاصيه ، وتذكيرها بآيات الله وأحوال الصالحين من عباده . فهذه محاسبات النفس ومرابطاتها ؛ وأما حسابها الأُخروي فقد سبقت الإشارة إليه .

وقوله : وتنفّسوا من قبل ضيق الخناق .

استعار لفظ النفس لتحصيل الراحة والبهجة في الجنة بالأعمال الصالحة في الدنيا المستلزمة لها كما يستلزم النفس راحة القلب من الكرب ، واستعار لفظ الخناق من الحبل المخصوص للموت ، ووجه المشابهة ما يستلزمه ضيق الخناق والموت من عدم التمكن والتصرف والعمل : أي انتهزوا الفرصة للعمل قبل تعذُّره بزوال وقته وضيقه .

وقوله : وانقادوا قبل عنف السياق .

أي انقادوا لأوامر الله إلى طاعته قبل السوق العنيف وهو سوق ملك الموت بالجذبة المكربة كما سبق .

وقوله : واعلموا أنه من لم يعن على نفسه . إلى آخره .

أي من لم يعنه الله على نفسه . وإعانته له هو إعداد العناية الإلهية

لنفسه الناطقة أن تقبل السوانح الخيرية ، وتأييدها بها على النفس الأمارة بالسوءلتقوى بتلك السوانح على قهرها وعلى الانزجار عن متابعتها والانجذاب إلى ما تدعوها إليه من الشهوات فإنه متى لم يكن لها ذلك الاستعداد والقبول لم ينفعها وعظ غيرها ولم يقبله إذ لا قبول بدون استعداد للمقبول . وفي ذلك تنبيه على وجوب الاستعانة بالله في أحوال النفس ودفع الشيطان عنها . وبالله التوفيق .

٨٨ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

تُعرف بخطبة الأشباح، وهي من جلائل خطبه، وكان سائلٌ سأله أن يصف الله حتى كأنه يراه عياناً فغضب لذلك، وقال الخطبة . روى مسعدة ابن صدقة عن الصادق جعفر بن محمد عليه السلام أنه قال : خطب أمير المؤمنين عليه السلام هذه الخطبة على منبر الكوفة ، وذلك أن رجلاً أتاه فقال له : يا أمير المؤمنين صف لنا ربنا لنزداد له حباً وبه معرفة فغضب ونادى : الصلاة جامعة . فاجتمع الناس حتى غصّ المسجد بأهله فصعد المنبر وهو مغضب متغيّر اللون فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم خطبها .

واعلم أن في الخطبة فصولاً :

الفصل الأول قوله :

أَلْحَمْدُ للّهِ ٱلَّذِي لاَ يَفِرُهُ ٱلْمَنْعُ وَٱلْجُمُودُ ، وَلاَ يُكْدِيهِ ٱلإِعْطَاءُ وَٱلْجُودُ : إذْ كُلُّ مُعْطٍ مُنْتَقَصٌ سِوَاهُ ، وَكُلُّ مَانِعٍ مَذْمُومٌ مَا خَلاَهُ ، وَهُوَ ٱلْمَنَّانُ بِفَوَائِدِ ٱلنِّعَمِ ، وَعَوَائِدِ ٱلْمَزِيدِ وَٱلْقِسَمِ ، عِيَالُهُ ٱلْخَلْقُ : ضَمِنَ أَرْزَاقَهُمْ ، وَقَدَّرَ أَقْوَاتَهُمْ ، وَنَهَجَ سَبِيلَ ٱلرَّاغِبِينَ إِلَيْهِ ، وَٱلطَّالِبِينَ مَا لَدَيْهِ ، وَلَيْسَ بِمَا سُئِلَ بِأَجْوَدَ مِنْهُ بِمَا لَمْ يُسْأَلْ ، أَلأَوَّلُ ٱلَّذِي لَمْ يَكُنْ لَهُ قَبْلٌ ، فَيَكُونَ شَيْءٌ قَبْلَهُ ؛ وَالآخِرُ ٱلَّذِي لَيْسَ لَهُ بَعْدٌ ، فَيَكُونَ شَيْءٌ بَعْدَهُ ، وَٱلرَّادِعُ أَنَاسِيَّ ٱلأَبْصَارِ عَنْ أَنْ تَنَالَهُ ، أَوْ تُدْرِكَهُ ، مَا ٱخْتَلَفَ عَلَيْهِ دَهْرٌ فَيَخْتَلِفَ مِنْهُ ٱلْحَالُ ، وَلاَ كَانَ فِي مَكَانٍ فَيَجُوزَ عَلَيْهِ ٱلإِنْتِقَالُ ، وَلَوْ وَهَبَ مَا تَنَفَّسَتْ عَنْهُ مَعَادِنُ ٱلْجِبَالِ ،

وَضَحِكَتْ عَنْهُ أَصْدَافُ الْبِحَارِ ، مِنْ فِلِزِّ اللُّجَيْنِ وَالْعِقْيَانِ ، وَنُثَارَةِ الدُّرِّ وَحَصِيدِ الْمَرْجَانِ ، مَا أَثَّرَ ذٰلِكَ فِي جُودِهِ ، وَلاَ أَنْفَدَ سَعَةَ مَا عِنْدَهُ ، وَلَكَانَ عِنْدَهُ مِنْ ذَخَائِرِ الْإِنْعَامِ ، مَا لاَ تُنْفِدُهُ مَطَالِبُ الْأَنَامِ ، لِأَنَّهُ الْجَوَادُ الَّذِي لاَ يَغِيضُهُ سُؤَالُ السَّائِلِينَ ، وَلاَ يُبْخِلُهُ إِلْحَاحُ الْمُلِحِّينَ .

أقول : الأشباح : الأشخاص . ويفره : يزيد ماله وفوراً ويتمّمه ويكديه : ينقص خيره . وتنفست عنه : انفرجت . والفلز : ما ينقيه الكير مما يذاب من جواهر الأرض . والعقيان : الذهب الخالص . والمرجان : صغار اللؤلؤ . وألحّ في سؤاله : إذا أدام عليه .

وقد شرع في وصف الله سبحانه باعتبارات له إلى آثاره :

الأوّل : أنّه لا يتزيد بما حرمه ومنعه من فضله .

الثاني : ولا ينقصه عطاؤه وجوده . ثم رد حكم الوهم عليه سبحانه بدخوله في عموم المنتقصين بالعطايا بقوله : إذ كلّ معطٍ منتقص سواه ، وكذلك قدّسه عن الدخول في زمرة المذمومين بمنعهم ما في أيديهم عن طالبه بقوله : وكلّ مانع مذموم ما خلاه فكانت هاتان القضيّتان مؤكّدتين للأوليين ، وبرهانهما أنّ التزيّد بالمنع والتنقص بالإعطاء إنما يطلق في حق من ينتفع ويتضرّر بالزيادة والنقصان والانتفاع والتضرر على الله محال فالتزيد والتنقص عليه محال ، ولأنّهما يقضيان عليه بالحاجة والإمكان ، ولأن مقدوراته غير متناهية ، ونبّه بقوله : إذ على جهة الفرق بينه وبين خلقه ، وإنّما انتقص المعطي من خلقه لحاجته إلى ما يعطيه وانتفاعه به ، وإنّما استحقّ المانع منهم الذم دونه سبحانه لكون ما يصدر عنه من منع وإعطاء مضبوطاً [منوطاً خ] بنظام الحكمة والعدل دون غيره من المانعين فإنّ غالب منعهم يكون عن شحّ مطاع وهوى متّبع . واعلم أن صدق الكليّة في المنتقصين بالعطاء ظاهر .

وأما في المذمومين بالمنع فتحقيقها أن كل مانع للمال فهو إنما يمنعه خوف الفقر ونحوه ، وظاهر أن الخائف من الفقر في الدنيا محب لها وهو

بمعزل عن عباد الله المتوكلين عليه الزاهدين في متاع الدنيا وقيناتها ، وإذا كان العبد مأموراً بأن يكون من هؤلاء وفي زمرتهم فبالحري أن يكون مستحقاً للذم على ما يمنعه من ماله فيكون حجاباً لوجهه عن النظر إلى وجه الله الكريم فصدق الكلية إذن ظاهر . وفي أدعية زين العابدين عليه السلام : يا من لا يزيده كثرة العطاء إلّا كرماً وجوداً . وفيه سرّ لطيف فإنه لما كان جوده سبحانه غير متوقف إلّا على وجود الاستحقاق ، وكانت كل نعمة صدرت عنه معدة لمحلها ومهيئةً له لقبول نعمة أُخرى كانت كثرة عطائه مستلزمة لكثرة الإعداد المستلزمة لزيادة الجود .

الثالث : أنه المنّان بفوائد النعم ، والمنة تذكير المنعم للمنعم عليه بنعمته والتطاول عليه بها كقوله تعالى : ﴿ **يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم** ﴾[1] في غير موضع من كتابه وهي صفة مدح للحق سبحانه وإن كانت صفة ذم لخلقه ، والسبب الفارق كون كل منعم سواه فيحتمل أن يتوقع لنعمته جزاء ويستفيد كمالاً يعود إليه مما أفاده وأيسره توقع الذكر ويقبح ممن يقابل بنعمته ويتوقع لها جزاء أن يمنّ بها لما يستلزمه المنّ من التطاول والكبر ، وتوقع الجزاء والحاجة إليه مع التطاول والكبر مما لا يجتمعان في العرف .

إذ التطاول والكبر إنما يليقان بالغني عن ثمرة ما تطاول به ولأن التطاول مما يتأذّى به المنعم عليه فيبطل بذلك استعداد نفس المنعم لقبول رحمة الله وجزائه ولذلك ورد النهي عن المنّة في قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى** ﴾[2] فجعلهماسبباً لبطلان الصدقة : أي عدم استحقاق ثوابها ، وفوائد النعم : ما أفاد منها . وعوائد المزيد والقسم : معتادهما .

---

(١) ٢ - ٤٤ .
(٢) ٢ - ٢٦٦ .

الرابع : كون الخلائق عياله ضمن أرزاقهم وقدّر أقواتهم ، واستعار لفظ العيال للخلق بالنسبة إلى ربهم ، ووجه المشابهة أن عيال الرجل هو من جمعهم ليقيتهم ويصلح حالهم كذلك الخلق إنما خلقهم وجمعهم تحت عنايته ليصلح أحوالهم في معاشهم ومعادهم ، وكذلك استعار لفظ الضمان لما وجب في الحكمة الإلهية من وجود ما لا بد منه في تدبير إصلاح حالهم من الأقوات والأرزاق ، وتقدير أقواتهم إعطاء كلٍّ ما كتب له في اللوح المحفوظ من زائد وناقص .

الخامس : كونه نهج سبيل الراغبين إليه والطالبين ما لديه ، وذكر أولاً ما يصلح حالهم في الدنيا وهو ضمان الأرزاق وتقدير الأقوات. ثم أردفه بما هو سبب صلاح حالهم في الآخرة من نهج السبيل وإيضاحه وأشار به إلى إيضاح الشريعة لطريق السالكين الراغبين في النظر إلى وجهه الكريم والطالبين لما عنده من النعيم المقيم .

السادس : كونه ليس بما سئل بأجود منه بما لم يسأل ، ويستلزم بيان هذا الوصف إشارة لطيفة وهو أن فيضان ما صدر عنه سبحانه له اعتباران :

أحدهما : بالنظر إلى جوده وهو من تلك الجهة غير مختلف في جميع الموجودات. بل نسبتها إليه على سواء بذلك الاعتبار . فلا يقال : هو بكذا أجود منه بكذا . وإلّا لاستلزم ذلك أن يكون ببعض الأشياء أبخل أو إليها أحوج فيلزمه النقصان تعالى الله عن ذلك .

والثاني : بالنظر إلى الممكن نفسه والاختلاف الواقع في القرب والبعد إلى جوده إنما هو من تلك الجهة فكل ممكن كان أتمّ استعداداً وأقبل للوجود وأقلّ شرطاً ومعانداً كان أقرب إلى جوده . إذا عرفت ذلك فاعلم أن السائل وإن حصل له ما سأل من الله تعالى دون ما لم يسأل فليس منعه ما لم يسأله لعزته عند الله وليس بينه وبين ما سئل بالنسبة إلى جود الله تعالى فرق وتفاوت. بل إنما خصّ بما سئل لوجوب وجوده له عند تمام قبوله له بسؤاله دون ما لم يسأله ولو سئل ما لم يسأله واستحق وجوده لما كان في

الجود الإلهي بخل به ولا منع في حقه وإن عظم خطره وجل قدره ولم يكن له أثر نقصان في خزائن ملكه ، وعموم جوده . وإلى هذا أشار علي بن موسى الرضا عليه السلام وقد سئل عن الجواد فقال : لسؤالك وجهان إن أردت المخلوق فالذي يؤدي ما افترض الله عليه والبخيل الذي يمنع ما افترض الله عليه ، وإن أردت الخالق فهو الجواد إن أعطى وإن منع لأنه إن أعطى أعطى من له وإن منع منع من ليس له .

فقوله : له. وليس له ، إشارتان إلى أن الجود الإلهي إنما يهب . ويتوقف في هبته على وجود المستحق . وقد نزهه عليه السلام بهذا الوصف عن ضنّة الخلق إذ كان من شأنهم أن يكونوا بما سألوا أجود منهم بما لم يسألوا لكونه أسهل عليهم ومن شأن السائل أن لا يسألهم ما هو أعزّ عندهم ولذلك كانوا بما سئلوا أجود .

السابع : الأول الذي لم يكن له قبل فيكون شيء قبله .

الثامن : والآخر الذي ليس له بعد فيكون شيء بعده ، وقد أشرنا إلى هذين الوصفين فيما سلف ونزيدهما بياناً فنقول : الأولية والآخرية اعتباران إضافيان تحدثهما العقول لذاته المقدسة وذلك أنك إذا لاحظت ترتيب الوجود في سلسلة الحاجة إليه سبحانه وجدته تعالى بالإضافة إليها أول إذ كان انتهاؤها في أول سلسلة الحاجة إلى غناه المطلق فهو أول بالعليّة والذات والشرف وإذ ليس بذي مكان فالتقدم بالمكان منفيّ عنه والزمان متأخر عنه . إذ هو من لواحق الحركة المتأخرة عن الجسم المتأخر عن علته فلم يلحقه القبلية الزمانية فضلاً أن تسبق عليه فلم يكن شيء قبله مطلقاً لا من الزمانيات ولا من غيرها ، وإذا اعتبرته بالنظر إلى ترتيب السلوك ولاحظت مراتب السالكين المسافرين في منازل عرفانه وجدته آخراً إذ هو آخر ما ترتقي إليه درجات العارفين ، ومعرفته هي الدرجة القصوى والمنزل الآخر .

ولأن كل موجود سواه فهو ممكن العدم فله من ذاته أن لا يستحق وجوداً فضلاً أن يستحق الآخرية والبعديّة المطلقة ، وهو تعالى الواجب لذاته فهو

المستحق لبعدية الوجود وآخريته لذاته وبالقياس إلى كل موجود فإذن هو الأول المطلق الذي لا شيء قبله والآخر المطلق الذي لا شيء بعده .

التاسع : الرادع أناسي الأبصار عن أن تناله أو تدركه، وقد سبق أن القوة الباصرة إنما تتعلق بذي وضع وجهة والباري تعالى منزه عنهما فيستحيل أن يدرك بحاسة البصر وردعه لها قهرها بذلّ النقصان عن قبول إدراكه .

العاشر : كونه لم يختلف عليه دهر فيختلف عليه الحال . لما كان الزمان مبدءاً للتغيّرات واختلاف الأحوال ، وكان ذاته سبحانه منزه عن لحوق الزمان كانت مبرأة عن تغيّر الأحوال الجارية على الزمانيات واختلافها .

الحادي عشر : ولا كان في مكان فيجوز عليه الانتقال . لما كان من شأن ذي المكان جواز أن ينتقل من مكانه ، وكان سبحانه منزهاً عن المكان وإلّا لزمه النقصان اللازم للإمكان لا جرم لم يجز عليه الانتقال .

الثاني عشر : كونه لو وهب ما تنفّست عنه معادن الجبال وضحكت عنه أصداف البحار من فلزّ اللجين والعقيان إلى قوله : مطالب الأنام . إنما عدّد هذه الأشياء في معرض المدح له تعالى لكونها أعظم ما يقتدر عليه الإنسان ويقتنيه وأجلّ ما يتنافس فيه أبناء الدنيا تنبيهاً على كمال قدرته، وعدم تناهي مقدوراته إذ سبق أنه إنما يتأثر بهبة مثل ذلك جود المحتاجين الذين يتعاقب عليهم الانتفاع والتضرر ، واستعار لفظ الضحك للأصداف ، ووجه الشبه انفتاح الصدفتين وإسفارهما عن اللؤلؤ الشبيه في بدوّه بأسنان الإنسان حال ضحكه وعن لحمة تشبه اللسان في رقة طرفه ولطافته . ومن صادف الصدفة عند فتحها وجدها كالإنسان يضحك ، وكذلك استعار لفظ الحصيد لصغار اللؤلؤ ملاحظة لشبهه بما يحصد من الحنطة وغيرها ، واعلم أن الصدف وإن كان حيواناً ذو حسّ وحركة إلّا أن له شبهاً بالنبات ولحوقاً به من جهة أنه ذو عرق في الأرض يتغذى به .

وقد أجمل ما يخرج من معادن البر والبحر لتمييز السامعين بينهما ، وقوله : لأنه الجواد الذي لا يغيضه سؤال السائلين ولا يبخله إلحاح

الملحين . إنما كان هذا علة لعدم تأثر جوده بهبة ما يعظم قدره ونقصان خزائنه بإخراجه منها لأن الجواد الذي شأنه ما ذكر إنما كان كذلك لكونه ليس من شأنه أن يلحقه النفع والضرر والنقص. بل نعمه غير متناهية ، واستعار لفظ الغيض لنعمه ملاحظة لشبهها بالماء الذي له مادة تامة لا ينقص بالنزح ، ومن روى : بغضبه . فلأن الغضب من لواحق المزاج ، والباري تعالى منزه عنه فيتنزه عن لواحقه ، وكذلك البخل رذيلة مكتسبة من البدن والمزاج تبعث إليها الحاجة والنقصان فمن لا يتزيد ولا ينتقص فلا يؤثر في ملكه أن يهب الدنيا لمن سألها .

الفصل الثاني : قوله :

فَٱنْظُرْ أَيُّهَا ٱلسَّائِلُ ! فَمَا دَلَّكَ ٱلْقُرآنُ عَلَيْهِ مِنْ صِفَتِهِ فَٱئْتَمَّ بِهِ ، وَٱسْتَضِيءْ بِنُورِ هِدَايَتِهِ ، وَمَا كَلَّفَكَ ٱلشَّيْطَانُ عِلْمَهُ ، مِمَّا لَيْسَ فِي ٱلْكِتَابِ عَلَيْكَ فَرْضُهُ ، وَلاَ فِي سُنَّةِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَأَئِمَّةِ ٱلْهُدَى ، أَثَرُهُ ، فَكِلْ عِلْمَهُ إِلَى ٱللَّهِ سُبْحَانَهُ ، فَإِنَّ ذٰلِكَ مُنْتَهَى حَقِّ ٱللَّهِ عَلَيْكَ ، وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلرَّاسِخِينَ فِي ٱلْعِلْمِ ، هُمُ ٱلَّذِينَ أَغْنَاهُمْ عَنِ ٱقْتِحَامِ ٱلسُّدَدِ ٱلْمَضْرُوبَةِ ، دُونَ ٱلْغُيُوبِ ، ٱلْإِقْرَارُ بِجُمْلَةِ مَا جَهِلُوا تَفْسِيرَهُ مِنَ ٱلْغَيْبِ ٱلْمَحْجُوبِ ، فَمَدَحَ ٱللَّهُ ٱعْتِرَافَهُمْ بِٱلْعَجْزِ عَنْ تَنَاوُلِ مَا لَمْ يُحِيطُوا بِهِ عِلْماً ، وَسَمَّى تَرْكَهُمُ ٱلتَّعَمُّقَ فِيمَا لَمْ يُكَلِّفْهُمُ ٱلْبَحْثَ عَنْ كُنْهِهِ ، رُسُوخاً ، فَٱقْتَصِرْ عَلَى ذٰلِكَ ، وَلاَ تُقَدِّرْ عَظَمَةَ ٱللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَى قَدْرِ عَقْلِكَ ، فَتَكُونَ مِنَ ٱلْهَالِكِينَ .

هُوَ ٱلْقَادِرُ ٱلَّذِي إِذَا ٱرْتَمَتِ ٱلْأَوْهَامُ لِتُدْرِكَ مُنْقَطَعَ قُدْرَتِهِ ، وَحَاوَلَ ٱلْفِكْرُ ٱلْمُبَرَّأُ مِنْ خَطَرَاتِ ٱلْوَسَاوِسِ ، أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ فِي عَمِيقَاتِ غُيُوبِ مَلَكُوتِهِ ، وَتَوَلَّهَتِ ٱلْقُلُوبُ إِلَيْهِ ، لِتَجْرِيَ فِي كَيْفِيَّةِ صِفَاتِهِ ، وَغَمُضَتْ مَدَاخِلُ ٱلْعُقُولِ ، فِي حَيْثُ لاَ تَبْلُغُهُ ٱلصِّفَاتُ ، لِتَنَاوُلِ عِلْمِ ذَاتِهِ ، رَدَعَهَا ، وَهِيَ تَجُوبُ مَهَاوِيَ سُدَفِ ٱلْغُيُوبِ ، مُتَخَلِّصَةً إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ ، فَرَجَعَتْ إِذْ جُبِهَتْ ، مُعْتَرِفَةً بِأَنَّهُ لاَ يُنَالُ ، بِجَوْرِ ٱلاِعْتِسَافِ ، كُنْهُ مَعْرِفَتِهِ ، وَلاَ تَخْطُرُ بِبَالِ أُولِي ٱلرَّوِيَّاتِ

المستحق لبعدية الوجود وآخريته لذاته وبالقياس إلى كل موجود فإذن هو الأول المطلق الذي لا شيء قبله والآخر المطلق الذي لا شيء بعده .

التاسع : الرادع أُناسي الأبصار عن أن تناله أو تدركه، وقد سبق أن القوة الباصرة إنما تتعلق بذي وضع وجهة والباري تعالى منزه عنهما فيستحيل أن يدرك بحاسة البصر وردعه لها قهرها بذلّ النقصان عن قبول إدراكه .

العاشر : كونه لم يختلف عليه دهر فيختلف عليه الحال . لما كان الزمان مبدءاً للتغيّرات واختلاف الأحوال ، وكان ذاته سبحانه منزه عن لحوق الزمان كانت مبرأة عن تغيّر الأحوال الجارية على الزمانيات واختلافها.

الحادي عشر : ولا كان في مكان فيجوز عليه الانتقال . لما كان من شأن ذي المكان جواز أن ينتقل من مكانه ، وكان سبحانه منزهاً عن المكان وإلّا لزمه النقصان اللازم للإمكان لا جرم لم يجز عليه الانتقال .

الثاني عشر : كونه لو وهب ما تنفّست عنه معادن الجبال وضحكت عنه أصداف البحار من فلزّ اللجين والعقيان إلى قوله : مطالب الأنام . إنما عدّد هذه الأشياء في معرض المدح له تعالى لكونها أعظم ما يقتدر عليه الإنسان ويقتنيه وأجلّ ما يتنافس فيه أبناء الدنيا تنبيهاً على كمال قدرته، وعدم تناهي مقدوراته إذ سبق أنه إنما يتأثر بهبة مثل ذلك جود المحتاجين الذين يتعاقب عليهم الانتفاع والتضرر ، واستعار لفظ الضحك للأصداف ، ووجه الشبه انفتاح الصدفتين وإسفارهما عن اللؤلؤ الشبيه في بدوّه بأسنان الإنسان حال ضحكه وعن لحمة تشبه اللسان في رقة طرفه ولطافته . ومن صادف الصدفة عند فتحها وجدها كالإنسان يضحك ، وكذلك استعار لفظ الحصيد لصغار اللؤلؤ ملاحظة لشبهه بما يحصد من الحنطة وغيرها ، واعلم أن الصدف وإن كان حيواناً ذو حسّ وحركة إلّا أن له شبهاً بالنبات ولحوقاً به من جهة أنه ذو عرق في الأرض يتغذى به .

وقد أجمل ما يخرج من معادن البر والبحر لتمييز السامعين بينهما ، وقوله : لأنه الجواد الذي لا يغيضه سؤال السائلين ولا يبخله إلحاح

الملحين . إنما كان هذا علة لعدم تأثر جوده بهبة ما يعظم قدره ونقصان خزائنه بإخراجه منها لأن الجواد الذي شأنه ما ذكر إنما كان كذلك لكونه ليس من شأنه أن يلحقه النفع والضرر والنقص. بل نعمه غير متناهية ، واستعار لفظ الغيض لنعمه ملاحظة لشبهها بالماء الذي له مادة تامة لا ينقص بالنزح ، ومن روى : بغضبه . فلأن الغضب من لواحق المزاج ، والباري تعالى منزه عنه فيتنزه عن لواحقه ، وكذلك البخل رذيلة مكتسبة من البدن والمزاج تبعث إليها الحاجة والنقصان فمن لا يتزيد ولا ينتقص فلا يؤثر في ملكه أن يهب الدنيا لمن سألها .

الفصل الثاني : قوله :

فَانْظُرْ أَيُّهَا السَّائِلُ ! فَمَا دَلَّكَ الْقُرْآنُ عَلَيْهِ مِنْ صِفَتِهِ فَائْتَمَّ بِهِ ، وَاسْتَضِيءْ بِنُورِ هِدَايَتِهِ ، وَمَا كَلَّفَكَ الشَّيْطَانُ عِلْمَهُ ، مِمَّا لَيْسَ فِي الْكِتَابِ عَلَيْكَ فَرْضُهُ ، وَلَا فِي سُنَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَأَئِمَّةِ الْهُدَى ، أَثَرُهُ ، فَكِلْ عِلْمَهُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مُنْتَهَى حَقِّ اللَّهِ عَلَيْكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ ، هُمُ الَّذِينَ أَغْنَاهُمْ عَنِ اقْتِحَامِ السُّدَدِ الْمَضْرُوبَةِ ، دُونَ الْغُيُوبِ ، الْإِقْرَارُ بِجُمْلَةِ مَا جَهِلُوا تَفْسِيرَهُ مِنَ الْغَيْبِ الْمَحْجُوبِ ، فَمَدَحَ اللَّهُ اعْتِرَافَهُمْ بِالْعَجْزِ عَنْ تَنَاوُلِ مَا لَمْ يُحِيطُوا بِهِ عِلْماً ، وَسَمَّى تَرْكَهُمُ التَّعَمُّقَ فِيمَا لَمْ يُكَلِّفْهُمُ الْبَحْثَ عَنْ كُنْهِهِ ، رُسُوخاً ، فَاقْتَصِرْ عَلَى ذَلِكَ ، وَلَا تُقَدِّرْ عَظَمَةَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَى قَدْرِ عَقْلِكَ ، فَتَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ .

هُوَ الْقَادِرُ الَّذِي إِذَا ارْتَمَتِ الْأَوْهَامُ لِتُدْرِكَ مُنْقَطَعَ قُدْرَتِهِ ، وَحَاوَلَ الْفِكْرُ الْمُبَرَّأُ مِنْ خَطَرَاتِ الْوَسَاوِسِ ، أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ فِي عَمِيقَاتِ غُيُوبِ مَلَكُوتِهِ ، وَتَوَلَّهَتِ الْقُلُوبُ إِلَيْهِ ، لِتَجْرِيَ فِي كَيْفِيَّةِ صِفَاتِهِ ، وَغَمُضَتْ مَدَاخِلُ الْعُقُولِ ، فِي حَيْثُ لَا تَبْلُغُهُ الصِّفَاتُ ، لِتَنَاوُلِ عِلْمِ ذَاتِهِ ، رَدَعَهَا ، وَهِيَ تَجُوبُ مَهَاوِيَ سُدَفِ الْغُيُوبِ ، مُتَخَلِّصَةً إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ ، فَرَجَعَتْ إِذْ جُبِهَتْ ، مُعْتَرِفَةً بِأَنَّهُ لَا يُنَالُ ، بِجَوْرِ الِاعْتِسَافِ ، كُنْهُ مَعْرِفَتِهِ ، وَلَا تَخْطُرُ بِبَالِ أُولِي الرَّوِيَّاتِ

خَاطِرَةٌ مِنْ تَقْدِيرِ جَلاَلِ عِزَّتِهِ ، ٱلَّذِي ٱبْتَدَعَ ٱلْخَلْقَ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ ٱمْتَثَلَهُ ، وَلاَ مِقْدَارٍ ٱحْتَذَى عَلَيْهِ، مِنْ خَالِقٍ مَعْهُودٍ كَانَ قَبْلَهُ ، وَأَرَانَا مِنْ مَلَكُوتِ قُدْرَتِهِ ، وَعَجَائِبِ مَا نَطَقَتْ بِهِ آثَارُ حِكْمَتِهِ ، وَٱعْتِرَافِ ٱلْحَاجَةِ مِنَ ٱلْخَلْقِ إِلَى أَنْ يُقِيمَهَا بِمَسَاكِ قُوَّتِهِ ، مَا دَلَّنَا بِٱضْطِرَارِ قِيَامِ ٱلْحُجَّةِ لَهُ عَلَى مَعْرِفَتِهِ ، وَظَهَرَتْ فِي ٱلْبَدَائِعِ ٱلَّتِي أَحْدَثَهَا آثَارُ صَنْعَتِهِ ، وَأَعْلاَمُ حِكْمَتِهِ ، فَصَارَ كُلُّ مَا خَلَقَ حُجَّةً لَهُ وَدَلِيلاً عَلَيْهِ ، وَإِنْ كَانَ خَلْقاً صَامِتاً فَحُجَّتُهُ بِالتَّدْبِيرِ نَاطِقَةٌ ، وَدَلاَلَتُهُ عَلَى ٱلْمُبْدِعِ قَائِمَةٌ .

وَأَشْهَدُ أَنَّ مَنْ شَبَّهَكَ بِتَبَايُنِ أَعْضَاءِ خَلْقِكَ ، وَتَلاَحُمِ حِقَاقِ مَفَاصِلِهِمُ ٱلْمُحْتَجِبَةِ لِتَدْبِيرِ حِكْمَتِكَ ، لَمْ يَعْقِدْ غَيْبَ ضَمِيرِهِ عَلَى مَعْرِفَتِكَ ، وَلَمْ يُبَاشِرْ قَلْبَهُ ٱلْيَقِينُ بِأَنَّهُ لاَ نِدَّ لَكَ ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ تَبَرُّأَ ٱلتَّابِعِينَ مِنَ ٱلْمَتْبُوعِينَ إِذْ يَقُولُونَ : ﴿ تَٱللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ .

كَذَبَ ٱلْعَادِلُونَ بِكَ إِذْ شَبَّهُوكَ بِأَصْنَامِهِمْ ، وَنَحَلُوكَ حِلْيَةَ ٱلْمَخْلُوقِينَ بِأَوْهَامِهِمْ ، وَجَزَّءُوكَ تَجْزِئَةَ ٱلْمُجَسَّمَاتِ بِخَوَاطِرِهِمْ ، وَقَدَّرُوكَ عَلَى ٱلْخِلْقَةِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ ٱلْقُوَى بِقَرَائِحِ عُقُولِهِمْ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مَنْ سَاوَاكَ بِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِكَ ، فَقَدْ عَدَلَ بِكَ ، وَٱلْعَادِلُ بِكَ كَافِرٌ بِمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ مُحْكَمَاتُ آيَاتِكَ ، وَنَطَقَتْ عَنْهُ شَوَاهِدُ حُجَجِ بَيِّنَاتِكَ . وَأَنَّكَ أَنْتَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَمْ تَتَنَاهَ فِي ٱلْعُقُولِ ، فَتَكُونَ فِي مَهَبِّ فِكْرِهَا مُكَيَّفاً ، وَلاَ فِي رَوِيَّاتِ خَوَاطِرِهَا ، فَتَكُونَ مَحْدُوداً مُصَرَّفاً .

أقول : الاقتحام : الدخول في الأمر بشدة دفعة . والسدد : جمع سدة وهي الأبواب والحجب وجاب البلاد : أي قطعها . والسدف . جمع سدفة وهي الظلمة : والجبه : الرد . واحتذى عليه : أي سلك مسلكه . والحقاق : جمع حق وهو أطراف عظام المفاصل ، والعادل : الجاعل لله عديلاً . والقريحة: قوة الفكر .

وصدر هذا الفصل تأديب الخلق في وصفهم لله سبحانه وتعليمهم كيفية

السلوك في مدحه والثناء عليه بما هو أهله ، وإن كان الخطاب للسائل إذ هو السبب في هذه الخطبة ، وذلك على طريقة قولهم : إيّاك أعني واسمعي يا جارة . فأرشده في ذلك إلى كتاب الله ، وأمره أن يجعله إماماً يقتدي به ويستضيء بأنواره في سلوك سبيل الله وكيفية وصفه فإن أولى ما وصف به تعالى هو ما وصف به نفسه ، وأمره بأن يكل علم ما لم يجده مفروضاً عليه علمه في كتاب الله أو في سنّة رسوله ، وآثار أئمة الهدى القائمين مقامه في إيضاح الدين وحفظه إلى علم الله تعالى ، وهو المراد بالتفويض وذلك أن أئمة الهدى أعلم بوجوه نسبته تعالى إلى خلقه ، وبما يناسب تلك الاعتبارات من الألفاظ ويفيدها فيطلق عليه . ونفّر عن طلب ذلك والبحث عنه بإشارته إلى أنه تكليف الشيطان وظاهر أن طلب ما وراء حدود الشريعة التي نهيت عن تجاوزها إنما هو بسبب وسوسة الشيطان وحرص الطبع على ما يمنع منه .

ثم اعلم أن ذلك هو منتهى حق الله عليه ومطلوبه منه ، ولما كان مطلوب الشارع حين وضع الشريعة وتقرير قواعدها هو جمع قلوب العالم على قانون واحد واتحادهم فيه بحيث لا يفترقوا في اعتقاد أمرٍ ما لئلا يكون ذلك الافتراق سبباً لضعف الدين وعدم تعاونهم على تشييده كما سبق بيانه لا جرم وجب في الحكمة أن يحرم حينئذٍ عليهم الخوض فيما وراء ذلك لتثبت قواعد الدين في قلوبهم وترسخ ولا يخرج بهم البحث عن ماوراءها إلى اطراحها وفساد اعتقاد كثير من الخلق لها ولغيرها مما وراءها إذ لم يكن فيهم من يستعد لقبول ما وراء تلك الظواهر إلاّ الفرد النادر وإن كنّا نعلم أنه كان صلى الله عليه وآله وسلم إذا علم من أحد استعداداً لقبول شيء من أسرار الشريعة ووثق به أن يحمله ألقاه إليه كعلي عليه السلام دون أبي هريرة وأمثاله ، ثم وصف بعد ذلك الراسخين في العلم الممدوحين في القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ **لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أُنزل إليك** ﴾[1] الآية . وقوله : ﴿ **والراسخون في العلم يقولون آمنا** ﴾[2]، وفسّر

---

(١) ٤ ـ ١٦٠ .   (٢) ٣ ـ ٥ .

معنى الرسوخ فقال : هم الذين أغناهم الله عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب الإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب . فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً ، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلّفهم البحث عن كنهه رسوخاً ، ومما : إشارة إلى السدد المضروبة وحجب الغيوب . فلنشر إلى ما كشف عنه بعض العلماء الصوفية هاهنا وأشار إليه الخبر عن سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم: إن لله تعالى سبعين حجاباً من نور وظلمة لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل من أدرك بصره. ولما ثبت أن الله تعالى متجلي لذاته بذاته فالحجاب لا بد وأن يكون بالنسبة إلى محجوب فأقسام المحجوبين ثلاثة :

منهم من حجب بمجرد ظلمة . ومنهم من حجب بمجرّد نور ، ومنهم من حجب بنور مقرون بظلمة ، وتحت كل قسم من هؤلاء أقسام كثيرة لا تحصى فيكفينا الإشارة إلى أصولها فنقول :

القسم الأول : المحجوبون بمجرد الظلمة وهؤلاء هم الملحدة الذين لا يؤمنون بالله وهم صنفان :

فصنف منهم طلبوا للعالم سبباً فأحالوه على الطبع وقد علمت أن الطبع صفة جسمانية مظلمة خالية عن المعرفة والإدراك .

وصنف منهم لم يتفرغوا لذلك ولم يتنبّهوا لطلب السبب. بل اشتغلوا بأنفسهم وعاشوا عيش البهائم فكانوا محجوبين بكدورات نفوسهم وشهواتهم المظلمة ولا ظلمة أشد من الهوى، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ **أفرأيت من اتخذ إلهه هواه** ﴾[1]. وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : الهوى أبغضُ إله عُبد على وجه الأرض . وتحت هؤلاء فرق كثيرة لا حاجة إلى ذكرها .

القسم الثاني : المحجوبون بنور مقرون بظلمة وهم ثلاثة أصناف :

(١) ٤٥ ـ ٢٢.

فصنف منهم منشأ ظلمته الحس ، وصنف منهم منشأها الخيال ، وصنف منهم منشأها مقايسات عقلية فاسدة . فالأولون أيضاً طوائف .

الأولى : عبدة الأوثان فإنهم علموا على سبيل الجملة أن لهم ربّاً وأوجبوا إيثاره على أنفسهم واعتقدوا أنه أعزّ وأنفس من كل شيء ، ولكنهم حجبوا بظلمة الحس عن أن يتجاوزوا العالم المحسوس في إثبات ربهم فاتخذوا من أنفس الجواهر كالفضة والذهب والياقوت أشخاصاً مصورة بأحسن صورة وجعلوها آلهة فهؤلاء محجوبون بنور العز والجلال من صفات الله لكنهم وضعوها في الأجسام المحسوسة فصارت حجبهم أنواراً مكدرة بظلمة الحس إذ الحس ظلمة بالإضافة إلى عالم المعقولات .

الثانية : طائفة ترقوا عن رتبة الأحجار فكانوا أدخل من عبدة الأوثان في ملاحظة الأنوار كما يحكى عن قوم من أقاصي الترك ليس لهم ملة ولكن يعتقدون أن لهم رباً هو أجمل الأشياء فإذا رأوا إنساناً في غاية الجمال أو فرساً أو شجراً عبدوه ، وقالوا : هو ربنا فهؤلاء محجوبون بنور الجمال مع ظلمة الحس أيضاً .

الرابعة : طائفة ترقّوا عن هؤلاء وقالوا : ينبغي أن يكون الرب نورانياً في صورته ذا سلطان في نفسه مهيباً لا يطاق القرب منه ، ولم يترقوا عن درجة المحسوس فعبدوا النار إذ وجدوها بهذه الصفات فهؤلاء محجوبون بنور السلطنة والبهاء وكل ذلك من أنوار الله مع ظلمات حسهم .

الخامسة : طائفة ترقوا عن ذلك فرأوا أن النار تطفأ وتقهر فلا تصلح للإلهية فقالوا : بل ما يكون بهذه الصفات ولكن نكون نحن تحت تصرفه ويكون مع ذلك موصوفاً بالعلو . وكان المشهور بينهم علم النجوم وإضافة التأثيرات إليها فعبدوا النجوم فمنهم عبدة المشتري ومنهم عبدة الشعرى وغيرهم فهؤلاء محجوبون مع ظلمة الحس بنور الاستعلاء والإشراف وهي من أنوار الله تعالى .

السادسة : طائفة ترقوا عن هؤلاء فقالوا : وإن وجب أن يكون الرب

بالصفات المذكورة إلّا أنه ينبغي أن يكون أكبر الكواكب فعبدوا الشمس فهؤلاء محجوبون مع ظلمة الحس بنور الكبرياء والعظمة مع بقية الأنوار .

السابعة : طائفة ترقوا عن ذلك فقالوا : إن الشمس لا تنفرد بالنور بل لغيرها أنوار والإله لا يجوز أن يكون له شريك في نورانيته فعبدوا النور المطلق على كل نور ، وزعموا أنه إله العالم والخيرات كلها منسوبة إليه ثم رأوا في العالم شروراً فلم يستحسنوا إضافتها إلى ربهم تنزيهاً له فجعلوا بينه وبين الظلمة منازعة وأحالوا العالم إلى النور والظلمة وهؤلاء الثنوية .

الصنف الثاني : المحجوبون ببعض الأنوار مقرونة بظلمة الخيال وهم الذين جاوزوا الحس وأثبتوا وراء المحسوس أمراً لكنهم لم يهتدوا إلى مجاوزة الخيال فعبدوا موجوداً قاعداً على العرش وأخسّهم رتبة المجسمة ثم أصناف الكرامية وأرفعهم درجة من نفى الجسمية، وجميع عوارضها إلّا الجهة فخصصوه بجهة فوق ، وهؤلاء لم يثبتوا موجوداً غير محسوس ولا متخيّل حتى ينزهوه عن الجهة .

الصنف الثالث : المحجوبون بأنوار الإلهية مقرونة بمقايسات عقليّة فاسدة مظلمة فعبدوا إلهاً سميعاً بصيراً متكلّماً عالماً قادراً منزّهاً عن الجهات لكن فهموا هذه الصفات على حسب مناسبة صفاتهم ، وربما صرّح بعضهم فقال : كلامه صوت مثل كلامنا . وربّما ترقّى بعضهم فقال : لا بل هو كحديث أنفسنا ولا صوت ولا حرف . ولذلك إذا حقق القول عليهم رجعوا إلى التشبيه في المعنى وإن أنكروه لفظاً إذ لم يدركوا كيفية إطلاق هذه الألفاظ في حق الله . فهؤلاء محجوبون بجمل من الأنوار مع ظلمات المقايسات العقلية .

القسم الثالث : المحجوبون بمحض الأنوار ، وهم أصناف لا تحصى أيضاً لكن نذكر منهم ثلاثة أصناف :

الأول : الذين عرفوا معاني هذه الصفات وفرّقوا بين إطلاق أسمائها على الله تعالى وبين إطلاقها على البشر فتحاشوا من تعريفه بهذه الصفات وعرفوه بالإضافة إلى المخلوقات فقالوا : ربنا رب السماوات والأرض لن

نـدعو من دونـه إلهاً وهـو الرب المنـزه عن هذا المفهـوم الظاهـر وهو محـرك السماوات ومدبّرها.

الصنف الثاني : الذين عـرفوا أن في السمـاوات مـلائكـة كثيـرة ، وأن محرك كل سماء منها موجود آخر يسمى ملكاً ، وأن هذه السماوات في ضمن فلك يتحـرك الجميع بحـركته في اليـوم والليلة مرة واحـدة والرب تعـالى هـو المحرّك للفلك الأقصى منها المشتمل عليها .

الصنف الثالث : الذين ترقّوا عن هؤلاء وقـالوا : إنّ تحـريك الأجسـام الفلكية من الملائكة يكون خدمة لرب العالمين وعبادة له ، ويكون الرب تعالى هو المحرك للكل بطريق الأمر . فهؤلاء كلهم محجوبون بأنـوار محضة وقفت بهم عمـا وراءهـا . ووراء هؤلاء صنف رابـع تجلّى لهم أن هـذا المـطاع مـوصـوف بصفـة الـوحـدة المـطلقـة والكمـال البـالـغ وكشفت عنهم حجب المقـايسات والاعتبـارات إلى الغير وهم الـواصلون . فمنهم من أحـرق ذلـك التجلي في تلك الأنوار جميع ما أدركه بصره بالكلية وبقي ملاحظاً لرتبة الحق فيها فانمحقت فيه المبصرات دون المبصر .

ومنهم من تجاوز هؤلاء وهم خواص الخواص فأحرقتهم سبحات وجهـه وغشيهم سلطان الجـلال فـانمحقـوا وتـلاشـوا في أنفسهم فلم يبق لهم إليهـا التفـات وملاحـظة لفنـائهم عن أنفسهم ولم يبق إلاّ الـواحـد الحق وهؤلاء هم الواصلون. كما سبقت الإشارة إليه ، وينتهي الكل إلى حجاب الإمكان الذي يهلك فيه كل موجود ولا يبقى إلاّ وجه الله ذي الجلال والإكرام .

إذا عـرفت، ذلك فنقـول : السدد المضـروبـة وحجب الغيب التي أشـار إليها هي درجات الانتقالات في مفهومـات صفـات الله تعـالى ومراتب عـرفانـه ومعرفة ملائكته ومراتبهم وكمالاتهم وسائر حجب الأنوار التي حجب بها أهـل القسم الثالث ، والراسخون الذين أشـار إليهم هم في ظاهـر كلامـه الواقفـون في المرتبة الأولى وهم الـذين اقتصروا في صفـات الله وملائكتـه وعالم غيبـه على مـا وقفتهم الشريعـة عليـه على سبيـل الجملة كمـا أوصـل إلى أفهـامهم

الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وعقلوا في وصفه تعالى بصفات الكمال ونعوت الجلال أنه ليس على حدّ وصف البشر بها ورسخ في أذهانهم ما تصوروه إجمالاً لو فصل لكان مطابقاً .

ومن أعدته العناية الإلهية لقبول التفصيل وصل إليه . وبقي هاهنا بحث لطيف وهو أنه لما كان التكليف في نفس الأمر إنما هو على قدر العقول وتفاوت مراتبها ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم بعثت لأكلّم الناس على قدر عقولهم . كان كل عقل قوي على رفع حجاب من حجب الغيب وقصر عما وراءه واعترف به وبالعجز عنه فذلك تكليفه وهو من الراسخين فعلى هذا الرسوخ ليس مرتبة واحدة هي تقليد ظواهر الشريعة واعتقاد حقيّتها فقط . بل تقليدها مرتبة أولى من مراتب الرسوخ وما وراءها مراتب غير متناهية بحسب مراتب السلوك وقوة السالكين على رفع حجب الأنوار التي أشرنا إليها وكلامه عليه السلام لا ينافي ما قلناه . بل يصدق إذا نزّل عليه فإن قوله : وسمى ترك التعمق فيما لم يكلّفهم البحث عن كنهه رسوخاً صادق أيضاً على من قطع جملة من منازل السلوك وعجز عما وراءها فوقف ذهنه عن التعمق فيه والبحث إذ لا يكلّف بما لا تفي به قوته .

وقوله : فاقتصر على ذلك : أي على ما نطق به الكتاب العزيز ودلّت عليه السنّة النبوية وأرشدت إليه أئمة الهدى .

وقوله : ولا تقدر عظمة الله تعالى على قدر عقلك فتكون من الهالكين .

فالمقدر لعظمة الله بقدر عقله هو المعتقد أن عقله قدّره وأحاط به علماً وهو تصغير لعظمة الله بحسب عقله الضعيف وعظمة الله تعالى أعظم وأجلّ من أن يضبطها عقل بشري ، وإنما ينشأ ذلك الحكم لمن حصل له هو الوهم الحاكم بمثليّة الله تعالى لمدركاته من الأجسام والجسمانيات ، وذلك في الحقيقة كفر لاعتقاد غير الصانع صانعاً وضلال عن طريق معرفة الله وهو مستلزم للهلاك في تيه الجهل .

واعلم أن في إحالته عليه السلام لطالب المعرفة على الكتاب والسنة، وبيان الأئمة دلالة على أن مقصوده ليس أن يقتصر على ظاهر الشريعة فقط بل يتبع أنوار القرآن والسنة وآثار أئمة الهدى ، وقد ورد في القرآن الكريم والسنّة وكلام الأئمة من الإشارات والتنبيهات على منازل السلوك ووجوب الانتقال في درجاتها ما لا يحصى كثرة ونبّهوا على كل مقام أهله وأخفوه من غير أهله إذ كانوا أطباء النفوس، وكما أن الطبيب يرى أن بعض الأدوية لبعض المرضى ترياق وشفاء وذلك الدواء لشخص آخر سمّ وهلاك كذلك كتاب الله والموضحون لمقاصده من الأنبياء والأولياء يرون أن بعض الأسرار الإلهية شفاء لبعض الصدور فيلقونها إليهم ، وربما كانت تلك الأسرار بأعيانها لغير أهلها سبباً لضلالهم وكفرهم إذا أُلقيت إليهم . فإذن مقصوده عليه السلام قصر كل عقل على ما هو الأولى به وما يحتمله ، والجمع العظيم المخاطبون هم أصحاب الظاهر الذين يجب قصرهم عليه . والله أعلم .

وقوله : هو القادر الذي إذا ارتمت . إلى آخره .

إشارة إلى اعتبارات أُخر جمالية في وصفه تعالى نبه على أن غاية استقصاء العقول وتعمّقها وغوص فطنها طالبة لتفصيل صفات كماله ونعوت جلاله أن تقف خاسئة وترجع حسيرة معترفة بالعجز والقصور ، فقوله : إذا ارتمت إلى قوله : ردعها شرطية متصلة في قوة شرطيات متعددة المقدمات وتاليها واحد .

فالمقدم الأول قوله : إذا ارتمت الأوهام لتدرك منقطع قدرته وارتماؤها استرسالها مجدة في المطالعة والتفتيش ومنقطع قدرته منتهاها .

والمقدم الثاني قوله : وحاول الفكر المبرأ من خطرات وساوس الشيطان وشوائب الأوهام أن يقع عليه ليكيّف ذاته ويستثبتها بكل ما ينبغي لها من الكمالات في عميقات غيوب ملكوته : أي في أسرار عالم الغيب العميقة .

والمقدم الثالث قوله : وتولهت القلوب : أي اشتد شوقها إليه لتجري

في كيفية صفاته .

والمقدم الرابع قوله : وغمضت مداخل العقول : أي وقت مواقع دخولها بحيث لا تبلغه الصفات : أي انتهت العقول إلى حد أنها لا تعتبر مع ملاحظة ذات الحق صفة له بل يحذف كل خاطر وكل اعتبار من صفة وغيرها من ملاحظة قدسه لينال علم ذاته بالكنه .

وقوله : ردعها . هو تالي هذه الشرطيات ، وردعها هو ردّها خاسئة حسيرة ، وسبب ذلك في كل من هذه المدركات هو خلقها قاصرة عن إدراك ما يطلبه من هذه المطالب العظيمة : فالأوهام لقصورها عن إدراك ما ليس بمحسوس ولا متعلقاً بالمحسوس ، وردع الفكر أن يقع عليه وتولّه القلوب أن تجري في كيفية صفاته فتحدها وتحصرها لخلقها قاصرة عن الإحاطة بما لا نهاية له إذ كانت صفات الكمال، ونعوت الجلال كذلك ، وردع العقول أن تحيط بكنه ذاته لخلقها قاصرة عن إدراك كنه ما ليس بذي حد وتركيب . فكان مستند ذلك الردع هو قدرته فلذلك قدم على الشرطية اعتبار كونه قادراً فقال : هو القادر الذي من شأنه كذا .

وقوله : وهي تجوب مهاوي سدف الغيوب متخلصة إليه سبحانه .

الجملة في موضع الحال والعامل ردعها ، واستعار لفظ السدف لظلمات الجهل بكل معنى غيبي من صفات جلاله وطبقات حجبه : أي ردعها عن تلك المطالب حال ما هي قاطعة لمهاوي تلك الظلمات ، ووجه الاستعارة ما يشتركان فيه من عدم الاهتداء فيها . ومتخلصة حال أيضاً والعامل إما تجوب أو ردعها . وتخلصها إليه توجهها بكليتها في طلب إدراكه .

وقوله : فرجعت إذ جبهت . إلى قوله : عزته .

معترفة حال والعامل رجعت ، وجور الاعتساف شدة جولانها في تلك المنازل وظاهر أن جور الاعتساف غير نافع في تحصيل ما لا يمكن ، وأولو الرويات أصحاب الفكر : أي رجعت معترفة بأمرين :

أحدهما : أنه لا ينال كنه معرفته .

والثاني : أن الفكر لا يقدر جلال عزته : أي لا يحيط بكماله خبراً . وظاهر أن صدق هذه الأحكام للنفس موقوف على ارتماء أفكارها في طلب هذه المعارف وعجزها عنها .

وقوله : الذي ابتدع الخلق على غير مثال . إلى قوله : قبله .

إشارة إلى أن الصنائع البشرية إنما تحصل بعد أن يرتسم في الخيال صورة المصنوع بل وكل فعل لا يصدر إلاّ عن تصور وضعه وكيفيته أولاً ، وتلك التصورات تارة تحصل عن أمثلة للمصنوع . بل ومقادير له خارجية يشاهدها الصانع ويحذو حذوها ، وتارة تحصل بمحض الإلهام والاختراع كما يفاض على أذهان كثير من الأذكياء صورة شكل لم يسبق إلى تصوره فيتصوره ويبرز صورته إلى الخارج ، وكيفية صنع الله للعالم وجزئياته منزّهة عن الوقوع على أحد هذين الوجهين :

أما الأول : فلأنّا بيّنا أنه لا قبل له فلا قبل لمصنوعاته فلا مثال امتثله : أي عمل مثله ، ولا مقدار احتذى حذوه .

وأما الثاني : وإن سمي الفاعل على وفقه مخترعاً لكن التحقيق يشهد بأنه إنما فعل على وفق ما حصل في ذهنه من الشكل والهيئة وهما مستفادان من الصانع الأول جلّت عظمته فكان في الحقيقة فاعلاً على غير مثال سابق محتذياً لمقدار غيره ، وعلم الأول سبحانه ليس على النحو المذكور من حصول صورة مساوية للمعلوم في ذاته كما تحققته من قبل فإذن فعله بمحض الإبداع والاختراع على أبعد ما يكون عن حد ومثال .

وقوله : وأرانا من ملكوت قدرته . إلى قوله : معرفته .

ملكوت قدرته ملكها وإنما نسبه إلى القدرة لأن اعتبارها مبدأ الوجود كله فهي مبدأ المالكية ، وآثار حكمته ما صدر عنها من الأفعال والأحكام وانقياد كل ناقص إلى كماله ، واستعار لفظ النطق للسان حال آثاره تعالى

المفصحة عن كمال الحكمة المعجبة بتمام النظام وحسن الترتيب ، ووجه المشابهة ما اشترك فيه النطق وحال مصنوعاته من ذلك الإفصاح والبيان ، واعتراف عطف على عجائب ، وإلى أن متعلق بالحاجة ، وما في قوله : وما دلّنا هي المفعول الثاني لأرانا : أي وأرانا من اعتراف الخلق لحاجتهم إلى أن يقيمهم في الوجود بمساك قدرته التي تمسك السماوات والأرض أن تزولا ما دلنا باضطرار قيام الحجة له على معرفته ، وقوله : على معرفته متعلق بدلنا : أي ما دلّنا على معرفته فلزمت قيام الحجة له بالضرورة .

وقوله : وظهرت في البدائع . إلى قوله : قائمة .

استعار لفظ الأعلام لما يدلّ على حكمة الصانع في فعله من الإتقان والإحكام .

واعلم أن كل ما ظهرت فيه آثار حكمة الله فهو ناطق بربوبيته وكمال أُلوهيته فبعض ناطق بلسان حاله ومقاله كالإنسان ، وبعض بلسان حاله فقط إذ لا عقل له ولا لسان كالجماد والنبات ، والضمير المضاف إليه في قوله : فحجته يحتمل عوده إلى الله ، ويحتمل أن يعود إلى الخلق الصامت . وقد علمت أن السالكين في سماع هذا النطق من آثار الله ومشاهدته في مصنوعاته على درجات ومنازل متفاوتة كما أشرنا إليه غير مرة .

وقوله : وأشهد أنّ من شبهك . إلى قوله : برب العالمين .

التفات إلى خطاب الله تعالى على طريق قوله : ﴿ **مالك يوم الدين إياك نعبد** ﴾ والمشبه به في الحقيقة هو الخلق وإنما جعل المشبه به هو تبائن أعضائهم وتلاحم حقاق مفاصلهم لأنه في معرض ذم المشبهة والتنبيه على وجوه أغلاطهم وتباين الأعضاء وتلاحمها من لوازم المشبه به، وهما مستلزمان للتركيب واجتماع المفردات المستلزم لظهور الحاجة إلى المركب والجامع ويمتنع على محل يظهر حاجته أن يتشبّه به الصانع المطلق البريء عن الحاجة بوجه ما فقدّمهما لجريانهما مجرى الأوسط في لزوم التركيب للمشبّه به فيظهر تنزيه الإله عن التشبه به، وإن كان التقدير من شبّهك بخلقك في

أعضائهم المتباينة المتلاحمة .

والذي يقال من وجه الحكمة في احتجاب المفاصل هو أنها لو خلقت ظاهرة عريّة عن الأغشية ليبست رباطاتها وقست فيتعذّر تصرف الحيوان بها كما هو الآن، وأنها كانت معرضة للآفات المفسدة لها وغير ذلك من خفي تدبيره ولطيف حكمته وقد شهد عليه السلام على المشبه لله بخلقه بأمرين :

أحدهما : أنه لم يعرفه .

والثاني : أنه لم يتيقّن تنزيهه عن المثل . والقرآن والبرهان مصدقان لشهادته في الموضعين :

أما القرآن فما نبه عليه بقوله :وكأنه لم يسمع تبرؤ التابعين من المتبوعين إذ يقولون الآية ، ووجه الاستدلال على المطلوب الأول أن المشبهة وعبدة الأصنام ينكشف لهم في الآخرة أنهم كانوا ضالين في تشبيه أصنامهم برب العالمين فيترتب دليل هكذا :

المشبهة ضالون من جهة تشبيههم الله بخلقه وكل من كان كذلك فليس بعارف بالله والمقدمة الأولى ثابتة بمنطوق الآية .

وأما الثانية : فلأنه لو كان المشبه له عارفاً به مع تشبيهه له بخلقه لما كان في ضلال مبين من تلك الجهة لكنه في ضلال مبين من تلك الجهة فإذن هو ليس بعارف له . وأما البرهان فلأن الله سبحانه لما تقدس عن أن يشبه خلقاً في شيء كان المشبه له بخلقة والمكيّف له بكيفيّة يحويها وهمه غير عارف به. بل متصور لأمر آخر هو في الحقيقة غير الإله ، وأما صدقه في القضية الثانية فلأن المشبه لله ضالّ من جهة ما هو مشبه له وكل من كان كذلك فليس بمنزّه له عن الندّ والمثل ، وصدق الأولى ظاهر من الآية .

وأما الثانية فلأنه لو كان منزهاً له عن الند بكونه مشبهاً له لما كان ضالاً من تلك الجهة لكنه ضالّ منها فليس بمنزه له عنه . وأما البرهان العقلي فلأن الند والمثل هو الشبيه وكلامنا في المشبه وفي الآية تنفير عن مذهب التشبيه

بذكر تبرؤ التابعين ممن اتبعوه وشبهوا به خالقهم ، وندامتهم على تفريطهم في ذلك ، وحسرتهم على الرجعى لتدارك الأعمال والاعتقادات الصالحة ، واعترافهم بأنهم كانوا بتشبيههم في ضلال مبين .

وقوله : كذب العادلون. إلى قوله : عقولهم .

تكذيب للعادلين به وأشار إلى تفصيل جهات كونهم عادلين ، وإلى سبب ذلك وهو الوهم ، وقد علمت أن منشأ التشبيه هو الوهم إذ كان حكمه لا يترفع [يرتفع خ] عن المحسوسات، وما يتعلق بها فإن حكمه في المجردات بحكم قدرها محسوسة ذات أحجام وألحقها أحكام المحسوس، ولذلك لم يترفع المشبهة لله عن تشبيهه بالأصنام ، وأشخاص الأجسام كصورة الإنسان وأعضائه، وكذلك غير عبدة الأوثان من سائر فرق المشبهة حتى كانت غاية تنزيه من نزهه منهم أن توهمه في جهة فوق، وقد علمت أن الجهة والكون من عوارض الأجسام المخلوقة فكانوا عن آخرهم قد تحلّوه حلية المخلوقين وصفاتهم بأوهامهم الفاسدة .

فمنهم من أثبت له أعضاء من يد وساق وعين ، ووجه وسائر ما ورد في القرآن الكريم والسنّة النبوية حملاً على ظاهرها ، ومنهم من تجاسر على وصف هيئته فقال : إنه مجوف الأعلى مصمت الأسفل ، وأنه قطط الشعر إلى غير ذلك من هذياناتهم وكفرهم ـ تعالى الله عما يقول الظالمون علوّاً كبيراً ـ وتجزئته بخواطرهم تجزءة المجسمات وهي إثباتهم الأعضاء المذكورة وذلك عن تقديرهم له على الخلقة المختلفة القوى بقرائح عقولهم الجامدة متابعة لأوهامهم الفاسدة وتقليد من سلف من آبائهم فإن الأعضاء إنما تتولد وتكمل بواسطة قوى طبيعية ونباتية وحيوانية وغيرها ، وهي قوى مختلفة بحقائقها ومتضادة في أفعالها محتاجة إلى الجامع والمركب مؤذنة بالإمكان الذي تنزه قدس الصانع أن يتطرق إليه بوجه .

وقوله : وأشهد أن من ساواك بشيء من خلقك . إلى قوله : بيّناتك .

شهادة ثانية على من شبهه وجعل له مثلاً بالكفر وإشارة إلى برهانها

بقياس من الشكل الأول أسند بيان كبراه إلى كتاب الله ونصوص آياته المحكمة، وبيّناته: الأنبياء. وشواهد حججهم: هي تلك الآيات: أي حججهم الشاهدة هي كقوله تعالى: ﴿ **قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا** ﴾[1] وقوله: ﴿ **أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهةً أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون** ﴾[2]، والإشراك كفر ونحو ذلك.

وأما المقدمة الأولى فلأن الشبيه هو المثل والعديل وقد علمت أن البرهان العقلي مما يشهد بصدق هذه الشهادة فإن المشبه لله بخلقه مع براءته عن شبهيّة الغير إذا اعتقد أن ذلك الذي يشير إليه بوهمه هو صانع العالم فقد اعتقد غير الصانع صانعاً وذلك عين الكفر والضلال.

وقوله: وإنّك أنت الله الذي لم تتناه في العقول. إلى قوله: مصرفاً.

شهادة ثالثة هي خلاصة الشهادتين الأوليين بتنزيهه عن تناهيه في العقول البشرية وأفكارها: أي إحاطتها بحقيقته وماله من صفات الكمال ونعوت الجلال بحيث لا يكون وراء ما أدركته شيء آخر وتنبيه في هذه الشهادة على ما يلزم ذلك التناهي من كونه ذا كيفية تكيّفها له القوى المتخيّلة لتستثبته بها العقول، ومهاب الفكر جهاتها. فيلزم من ذلك كونه محدوداً إذا كانت الحقائق إنما تدرك بكهنها من حدودها.

وقوله: ومصرفاً: أي محكوماً في ذاته بالتجزئة والتحليل والتركيب إذ كان من شأن المحدود ذلك، ولما كانت هذه اللوازم باطلة لبراءته عن الكيفية والأجزاء والتركيب كان ملزومها وهو التناهي في العقول باطلاً.

الفصل الثالث:

وَمِنْهَا: قَدَّرَ مَا خَلَقَ فَأَلْطَفَ تَقْدِيرَهُ، وَدَبَّرَهُ فَأَحْكَمَ تَدْبِيرَهُ،

---

(١) ٤١ - ٨.

(٢) ٦ - ١٩.

وَوَجَّهَهُ لِوِجْهَتِهِ ، فَلَمْ يَتَعَدَّ حُدُودَ مَنْزِلَتِهِ ، وَلَمْ يُقَصِّرْ دُونَ ٱلِانْتِهَاءِ إِلَى غَايَتِهِ ، وَلَمْ يَسْتَصْعِبْ إِذْ أُمِرَ بِٱلْمَضِيِّ عَلَى إِرَادَتِهِ ، وَكَيْفَ وَإِنَّمَا صَدَرَتِ ٱلْأُمُورُ عَنْ مَشِيئَتِهِ ؟ ٱلْمُنْشِئُ أَصْنَافَ ٱلْأَشْيَاءِ بِلَا رَوِيَّةِ فِكْرٍ آلَ إِلَيْهَا ، وَلَا قَرِيحَةِ غَرِيزَةٍ أَضْمَرَ عَلَيْهَا ، وَلَا تَجْرِبَةٍ أَفَادَهَا مِنْ حَوَادِثِ ٱلدُّهُورِ ، وَلَا شَرِيكٍ أَعَانَهُ عَلَى ٱبْتِدَاعِ عَجَائِبِ ٱلْأُمُورِ ، فَتَمَّ خَلْقُهُ ، وَأَذْعَنَ لِطَاعَتِهِ ، وَأَجَابَ إِلَى دَعْوَتِهِ ، وَلَمْ يَعْتَرِضْ دُونَهُ رَيْثُ ٱلْمُبْطِئِ ، وَلَا أَنَاةُ ٱلْمُتَلَكِّئِ ، فَأَقَامَ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ أَوَدَهَا ، وَنَهَجَ حُدُودَهَا ، وَلَاءَمَ بِقُدْرَتِهِ بَيْنَ مُتَضَادِّهَا ، وَوَصَلَ أَسْبَابَ قَرَائِنِهَا ، وَفَرَّقَهَا أَجْنَاساً مُخْتَلِفَاتٍ ، فِي ٱلْحُدُودِ ، وَٱلْأَقْدَارِ ، وَٱلْغَرَائِزِ ، وَٱلْهَيْئَاتِ ، بَدَايَا خَلَائِقَ أَحْكَمَ صُنْعَهَا ، وَفَطَرَهَا عَلَى مَا أَرَادَ وَٱبْتَدَعَهَا .

أقول : آل: رجع. وأذعن : خضع وذلّ . والريث: البطء وكذلك الأناة . والتلكؤ : التباطؤ عن الأمر والتوقف فيه . والأود : الاعوجاج ، وبدايا : جمع بدية وهي الخلقة العجيبة .

فقوله : قدر ما خلق فأحكم تقديره . إشارة إلى أن كل مصنوع قدره في الوجود فعلى وفق حكمته بحيث لو زاد على ذلك المقدار أو نقص منه لاختلّت مصلحة ذلك المقدر وتغيّرت منفعته .

وقوله : ودبره فألطف تدبيره إيجاده على وفق المصلحة ولطفه في ذلك تصرفه في جميع الذوات والصفات تصرفات كلية وجزئية من غير شعور غيره بذلك .

وقوله : ووجهه لوجهته . إلى قوله : إلى غايته: أي ألهم كلّا ويسره لما خلق له ولما كتب له في اللوح فلم يتجاوز مرسوم تلك المنزلة المعلومة له : أي لم يعبرها ولم يقصر دونها وإلّا لزم التغيّر في علمه سبحانه وإنه محال .

وقوله : ولم يستصعب إذ أمر بالمضي على إرادته : أي لما أمر المخلوق بالتوجه إلى وجهة على وفق إرادة الله وساقت الحكمة الإلهية كلاً

إلى غـايته لم يمكن تخلّفـه واستصعابـه عن ذلك الأمـر ، وأمره لـه إشارة إلى توجيه أسبابه بحسب القضاء الإلهي عليه بذلك .

وقـولـه : وكيف وإنمـا صـدرت الأمـور عن مشيئتـه : أي وكيـف يستصعب . ثم أشار إلى علّة عدم استصعابه وسرعة طوعه وانقياده بذكـر علته وهو استناد جميع الآثار إلى مشيئتـه . إذ كل أثـر فهو واجب عن مؤثـره والكل منتـه في سلسلة الحـاجـة إلى إرادتـه واجب عنها وقـد علم ذلـك في العلم الإلهي .

وقوله : المنشيء أصناف الأشياء . إلى قوله : عجائب الأمور .

قد سبق في الخطبة الأولى بيان أن الـروية والفكـر والتجربـة مما يلحق الإنسـان ويخصه وأن البـاريء سبحانـه منزّه عن شيء منهـا في كيفية إبـداعـه لخلقه ، وأما الشريك فمنـزّه عنه ببـرهان الـوحدانيـة كما سبقت الإشـارة إليه أيضاً . وقريحة الغريزة قوة الفكر للعقل .

وقوله : فأتمّ [فتمّ خ] خلقه وأذعن لطاعته وأجاب إلى دعوته .

تمام مخلوقاته من جهة جوده بإفادتها ما ينبغي لها فإن عرض لشيء منها فوت كمال فلعدم استعداده وقبوله لذلك وإذعانه ذلّته في رق الحاجة والإمكان وتصريف القدرة وإجابته إلى دعوته كونه في الوجود عن قوله : كنْ .

وقوله : ولم يعترض دونه ريث المبطيء ولا أناة المتلكيء .

تنزيه لفعله تعـالى وأمره أن يعـرض في طاعـة الأشياء لـه شيء من هذه الكيفيات إذ كل شيء في قهره وعلى غاية من السرعة إلى إجابة أمره ولما كان تعالى إنما أمـره إذا أراد شيئاً أن يقـول له كن فيكـون ، وفي قولـه كنْ هبة مـا ينبغي لذلك المأمور ومـا يعدّه لإجـابة أمـره بالكـون في الوجـود، ويجب عنه فكيف يمكن أن يعرض له في إجابة الأمـر بطء أو تلكؤ . بـل يكون كلمـح البصر كما قال تعالى : **﴿ ومـا أمرنـا إلاّ كلمح بـالبصر ﴾** ويحتمـل أن يكون ذلك تنزيهاً له تعالى أن يعرض له من جهة ما هو فاعل شيء من هذه الكيفيات

فإن البطء والأناة والتلكؤ من عوارض الحركة التي هي من عوارض الجسم ، واعتراضها فيمن يفعل بالآلة وتشتد حركته وتضعف ، وقد علمت تنزيه الله تعالى عن جميع ذلك .

وقوله : فأقام من الأشياء أودها . إلى قوله : والهيئات .

إقامته لأودها رفعه لاعوجاج كل شيء بإعداده لما ينبغي له وإفاضة كماله ، ونهجه لجددها أو لحدودها على الروايتين هو إيضاحه لكل شيء وجهته وغايته التي تيسرها له ، وملائمته بين متضادّها كجمعه العناصر الأربعة على تضادّ كيفيّاتها في مزاج واحد، وقد سبق بيانه ، ووصله لأسباب قرائنها إشارة إلى أن الموجودات لا تنفك عن أشياء تقترن بها من هيئة أو شكل أو غريزة ونحوها واقتران الشيئين لا محالة مستلزم لاقتران أسبابهما واتصالهما لاستحالة قيام الموجود بدون أسبابه ، وذلك الوصل مستند إلى كمال قدرته إذ هو مسبّب الأسباب .

وقال بعض الشارحين : أراد بالقرائن النفوس . وعلى هذا يحتمل أن يكون معنى وصله لأسبابها هدايتها إلى عبادته وما هو الأولى بها في معاشها ومعادها وسوقها إلى ذلك إذ المفهوم من قول القائل : وصل الملك أسباب فلان . إذا علّقه عليه ووصله إلى برّه وإنعامه . والأول أظهر .

وقوله : وفرّقها أجناساً مختلفات في الحدود والأقدار والغرائز والهيئات .

لا يريد بالأجناس والحدود ما اصطلح عليه قوم في عرفهم. بل ما اختلف بالأمور المذكورة كلها أو بعضها فهو مختلف الجنس لغة ، وحدّ الشيء منتهاه وما يحيط به ، والأقدار المقادير والأشكال أيضاً ، والغرائز القوى النفسانية والأخلاق والهيئات والصفات . وإن حملنا الحدود على ما هو المتعارف كان حسناً فإن حكمة الخالق سبحانه اقتضت تميّز بعض الموجودات عن غيرها بحدودها وحقائقها وبعضها بأشكالها وهيئاتها ومقاديرها وغرائزها وأخلاقها كما يقتضيه نظام الوجود وأحكام الصنع وحكم الإرادة

الإلهية .

وقوله : بدايا خلائق أحكم صنعها وفطرها على ما أراد وابتدعها .

أي هي بدايا : أي عجائب مخلوقات أحكم صنعها على وفق إرادته وبالله التوفيق .

منها في صفة السماء :

وَنَظَمَ بِلاَ تَعْلِيقٍ رَهَوَاتِ فُرَجِهَا ، وَلاَحَمَ صُدُوعَ آنْفِرَاجِهَا ، وَوَشَّجَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَزْوَاجِهَا ، وَذَلَّلَ لِلْهَابِطِينَ بِأَمْرِهِ، وَآلصَّاعِدِينَ بِأَعْمَالِ خَلْقِهِ ، حُزُونَةَ مِعْرَاجِهَا . نَادَاهَا بَعْدَ إِذْ هِيَ دُخَانٌ ، فَآلْتَحَمَتْ عُرَى أَشْرَاجِهَا ، وَفَتَقَ بَعْدَ الِارْتِتَاقِ صَوَامِتَ أَبْوَابِهَا . وَأَقَامَ رَصَداً مِنَ آلشُّهُبِ آلثَّوَاقِبِ عَلَى نِقَابِهَا ، وَأَمْسَكَهَا مِنْ أَنْ تَمُورَ فِي خَرْقِ آلْهَوَاءِ بِأَيْدِهِ ، وَأَمَرَهَا أَنْ تَقِفَ مُسْتَسْلِمَةً لأَمْرِهِ ، وَجَعَلَ شَمْسَهَا آيَةً مُبْصِرَةً لِنَهَارِهَا ، وَقَمَرَهَا آيَةً مَمْحُوَّةً مِنْ لَيْلِهَا ، فَأَجْرَاهُمَا فِي مَنَاقِلِ مَجْرَاهُمَا ، وَقَدَّرَ سَيْرَهُمَا فِي مَدَارِجِ دَرَجِهِمَا ، لِيُمَيِّزَ بَيْنَ آللَّيْلِ وَآلنهَارِ بِهِمَا ، وَلِيُعْلَمَ عَدَدُ آلسِّنِينَ وَآلْحِسَابُ بِمَقَادِيرِهِمَا ، ثُمَّ عَلَّقَ فِي جَوِّهَا فَلَكَهَا ، وَنَاطَ بِهَا زِينَتَهَا: مِنْ خَفِيَّاتِ دَرَارِيِّهَا ، وَمَصَابِيحِ كَوَاكِبِهَا ، وَرَمَى مُسْتَرِقِي آلسَّمْعِ بِثَوَاقِبِ شُهُبِهَا ، وَأَجْرَاهَا عَلَى إِذْلاَلِ تَسْخِيرِهَا مِنْ ثَبَاتِ ثَابِتِهَا، وَمَسِيرِ سَائِرِهَا ، وَهُبُوطِهَا وَصُعُودِهَا ، وَنُحُوسِهَا وَسُعُودِهَا .

أقول : الرهوات : جمع رهوة وهي الفرجة المتسعة . وأيده : قوته ، وبائدة : هالكة . ومار : تحرك . وناط : علق. والصدوع: الشقوق. ووشّج بالتشديد : أي شبّك . والحزونة : الصعوبة . والأشراج : جمع شرج بالفتح وهى عرى العيبة التي تخاط بها وتنقل ويطلق أيضاً على حروفها التي تخاط . والارتقاق: الالتصاق. والنقاب : جمع نقب بفتح النون وهو الطريق في الجبل . والدراري : الكواكب المضيئة .

وهذا الفصل يشتمل على كيفية خلق السماء فقوله : ونظم بلا تعليق .

إلى قوله : انفراجها يقتضي بظاهره أن السماء كانت ذات فرج وصدوع ، وهذا على رأي المتكلمين ظاهر فإنّ الأجسام لما كانت عندهم مركبة من الأجزاء التي لا تتجزأ كانت قبل تأليفها ذات فرج وصدوع ، وأما على رأي غيرهم فقالوا : يحتمل أمرين :

أحدهما : أنه لما كانت السماوات مركبة من أجزاء وكانت بين أجزاء كل مركب مباينة لولا المركب والمؤلف استعار عليه السلام لفظ الرهوات والفرج لما يتصور من المباينة بين أجزاء السماء عند قطع النظر عن صانعها ومركبها سبحانه ، ونظامه لرهوات فرجها إفاضته لصورها على قوابلها حتى تمّت مركباً منتظماً متلاحم الصدوع والفرج .

والثاني : يحتمل أن يشير بالفرج إلى ما بين أطباق السماوات من التباين ، ونظمه لرهواتها وملاحمة صدوعها خلقها أكراً متماسة لا خلاء بينها ، ونبّه على كمال قدرة الله تعالى بقوله : بلا تعليق . فإنّ الأوهام حاكمة بأن السماء واقفة في خلاء كما يقف الحجر في الهواء وذلك منشأ حيرتها وتعجّبها فحركها بذلك القول إلى التعجب والاستعظام .

وقوله : ووشّج بينها وبين أزواجها . أراد بأزواجها نفوسها التي هي الملائكة السماوية بمعنى قرائنها وكل قرين زوج : أي ربط ما بينها وبين نفوسها بقبول كل جرم سماوي لنفسه التي لا يقبلها غيره .

وقوله : وذلل للهابطين بأمره . إلى قوله : انفراجها .

قد سبقت الإشارة إلى أن الملائكة ليست أجساماً كسائر الحيوان فإذن ليس هبوطها وصعودها الهبوط والصعود المحسوسين وإلّا لكان الباريء - جلّ قدسه عن أوهام المتوهّمين - في جهة إليه يصعد وعنه ينزل فإذن هو استعارة لفظ النزول من الجهة المحسوسة إلى أسفل لنزول العقول من سماء الجود الإلهي إلى أراضي المواد القابلة للإفاضات العالية ، وبذلك المعنى يكون هبوط الملائكة عبارة عن إيصالها إلى كل ما دونها كماله متوسطةً بينه وبين مبدعه وموجده، وهم المرسلون من الملائكة بالوحي وغيره وكذلك

الصاعدون بأعمال الخلق هم الملائكة أيضا .

وأما معنى الصعود بها فيعود إلى كونها منقوشة في ذوات الصاعدين بها ، وقد لاح فيما سبق أن علمه تعالى بمعلولاته البعيدة كالزمانيّات والمعدومات التي من شأنها أن توجد في وقت وتتعلق بزمان يكون بارتسام صورها المعقولة في تلك الألواح ، وهو أيضاً مستعار كلفظ الهبوط للمعنى الذي ذكرناه من أراضي النفوس إلى الألواح المحفوظة . فأما الانفراج الذي ذلّل حزونته لهم وسهل عليهم سلوكه فيعود إلى عدم حجبها ومنعها لنفوذ علوم الملائكة بأعمال الخلائق، وما يجري في هذا العالم، وكما أن الجسم المتصدّع لا يمنع نفوذ جسم آخر فيه من حيث هو متصدّع والوصول إلى ما وراءه كذلك السماء لا تحجب علوم الملائكة أن تتعلّق بما في هذا العالم من الموجودات فجرت مجرى المنفرج من الأجسام فأطلق عليه لفظ الانفراج وتذليله لحزونة ذلك الانفراج لهم هو كونها غير مانعة بوجهٍ ما لجريان علوم الملائكة المقرّبين في هذا العالم .

وقوله : وناداها بعد إذ هي دخان فالتحمت عرى أشراجها وافتتق بعد الارتتاق صوامت أبوابها .

فيه احتمالان :

الأول : أنك قد علمت مما سبق ما معنى كون السماء من دخان. فأما نداؤه لها فإشارة إلى أمره لها بالإتيان والكون في قوله تعالى : ﴿ **فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين** ﴾[1]. وأما التحامها فاعتبار تركيبها بانضمام جزئها الصوري إلى جزئها القابل كما يلتحم طرفا العيبة بتشريج عراها ، وافتتاق صوامت أبوابها بعد ذلك الارتتاق هو جعلها أسباباً لنزول رحمته ومدبرات تنزل بواسطة حركاتها على هذا العالم أنواع رحمة الله فكانت حركاتها تشبه الأبواب إذ هي أبواب رحمته ، ومفاتيح جوده .

---

(١) ٤١ - ١٠.

الثاني : أن العرب تقول لكل ما علاك : فهو سماؤك . فعلى هذا يحتمل أن يكون المراد بالسماء ما هو أعمّ من السماء المعهودة ، ويكون قوله : وناداها إشارة إلى سماء السحاب وكونها دخاناً هو كونها بخاراً قبل الانعقاد يشبه الدخان فاستعير له لفظه والتحام عرى أشراجها إشارة إلى التحام تلك الأجزاء البخارية، وانعقادها سحاباً وافتتاق صوامت أبوابها هو إنزال المطر منها كما قال تعالى : ﴿ **ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر** ﴾[٢].

وقوله : وأقام رصداً من الشهب الثواقب على نقابها .

له معنيان : **أحدهما** : أن يكون استعار لفظ النقاب لكونها بحيث لا يمنع تعلق العلوم بما وراءها من الأجسام والمجردات ، وقد سبق معنى الشهب وإقامتها رصداً .

الثاني : أن يكون استعار لفظ الرصد لهذه الشهب المحسوسة ورشح بذكر النقاب إذ شأن الرصد والحرسة حفظ الفرج والأبواب، ويكون سر ذلك ووجه الحكمة فيه أن العرب كانت تعتقد أن الشياطين تصعد إلى السماء فتسترق الغيب من الملائكة ثم تلقيه إلى الكهنة والسحرة ونحوهم فلما آن دور الستر والنهي عن التكهّن ونحوه لما بيّنا فيه من فساد أذهان الخلق، وصرف قلوبهم عن غرض الشريعة ألقى الوحي إليهم أن هذه الشهب التي تنقضّ إنما جعلت رجوماً للشياطين مسترقي السمع كل من استمع منهم رمي بشهاب منها وحجبت السماوات عنهم فلا يصلون إليها لينغرس في أذهان الخلق انقطاع مادة الكهانة ونحوها فنسبوا اعتقادهم فيه فيكون ذلك كسراً لأوهامهم التي بيّنا أنها شياطين النفوس وقمعاً لها . وبالله التوفيق .

وقوله : وأمسكها من أن تمور في خرق الهواء بأيده وأمرها أن تقف مستسلمة لأمره .

أي حفظها من أن تحركها الريح المخترعة فيها مجيئاً وذهاباً وحكمت

---

(٢) ٥٤ ـ ١١.

الحكمة الإلهية عليها بالاستقرار انقيادا لقهـره ، والأمر الأول إشـارة إلى حكم القضاء ، والأمر الثاني إشارة إلى اعتبار القدرة .

وقوله : وجعل شمسها آية مبصرة لنهارها وقمرها آية ممحوة من ليلها .

كقوله تعالى : ﴿ **وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحـونا آيـة الليل وجعلنـا آية النهار مبصرة** ﴾[1] وكونهما آيتين : أي لدلالتهما على كمال قدرته ، ونقل عن أئمة التفسير في إبصار آية النهار ومحو آية الليل وجوه :

أحدها : أن إبصار آية النهار هو بقاء الشمس بحالهـا وتمام ضيـائها في كل حال ، ومحو آية الليل هو اختلاف أحوال القمر في إشراقه ومحاقـه بحيث لا يبقى ليلتين على حالة واحدة بل كل ليلة في منزل بزيادة أو نقصان .

الثـاني : ما نقـل أن ابن الكواء سـأل عليـاً عليه السلام عن اللطخـة التي في وجه القمر فقال : ذلك محو آية الليل .

الثـالث : عن ابن كثير : أن الآيتين همـا ظلمـة الليـل وضيـاء النهـار، والتقدير وجعلنا الليل والنهـار ذوي آيتين فقولـه : فمحونـا آية الليـل : أي لم نجعـل للقمر نـوراً من ذاته بـل من ضوء الشمس ، وإبصـار آيـة النهـار كـون الشمس مضيئة بذاتها ومن هنا لابتداء الغاية أو لبيان الجنس متعلق بممحوة أو بجعل ، وقيل : أراد من آيات ليلها .

وقـوله : فـأجراهمـا في منـاقـل مجـراهمـا وقـدّر سيـرهمـا في مـدارج درجهما .

التي قدّر سيرهما فينا هي بـروجهما ومنـازلهما . ولنشـر إلى مفهومـات الـدرج والبروج والمنـازل وهو أن النـاس قسمـوا دور الفلك الـذي تسيـر منـه الكواكب باثنى عشر قسماً وسموا كل قسم برجاً وقسّموا كل برج قسماً وسمـوا كل قسم درجة وسمّوا تلك البروج أسماء :

---

(١) ١٧ - ١٣ .

الحمل، الثور، الجوزاء، السرطان، الأسد، السنبلة، الميزان، العقرب، القوس، الجدي، الدلو، الحوت.

والشمس تسير كل برج منها في شهر واحد ، والقمر يسير كل برج منها في أزيد من يومين وأنقص من ثلاثة أيام ، وأما منازل القمر فثمانية وعشرون وأسماؤها :

الشرطين، البطين، الثريا، الدبران، الهقعة، الهنعة، الذراع، النثرة، الطرفة، الجبهة، الزبرة، الصرفة، العوا، السماك، الغفر، الزبانا، الأكليل، القلب، الشولة، النعائم، البلدة، سعد الذابح، سعد بلع، سعد السعود، سعد الأخبية، الفرغ المقدم، الفرغ المؤخرّ، الرشاء .

والقمر يكون كل يوم في منزل منها: ﴿ **وكل في فلك يسبحون ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾.

وقوله : ليميّز بين الليل والنهار . إلى قوله : بمقاديرهما .

أي بمقادير سيرهما ، وقد سبق بيانه في الخطبة الأولى .

وقوله : ثم علّق في جوّها فلكها .

لما أشار أولاً إلى تركيبها أشار إلى إقرارها في أحيازها وهو المشار إليه بتعليق فلكها في جوّها .

فإن قلت : فقد قال أولاً : بلا تعليق ثم قال هاهنا: وعلّق . فما وجه الجمع ؟

قلت : التعليق أمر إضافي يصدق سلبه وإثباته باعتبارين : فالمراد بالأول أنها غير معلّقة بجسم آخر فوقها . وبالثاني أنه علّقها في جوّها بقدرته . ولا منافاة ، وأراد بالفلك اسم الجنس وهو أجسامها المستديرة التي يصدق عليها هذا الاسم .

وقوله : وناط بها زينتها من خفيّات دراريها ومصابيح كواكبها .

كقوله تعالى : ﴿ **وزيّنا السماء الدنيا بمصابيح** ﴾[1] ورمى مسترقي السمع بثواقب شهبها كقوله تعالى : ﴿ **فأتبعه شهاب ثاقب** ﴾ وقد تقدم بيانه ، وإنما أعاد ذكر الشهب لأنه ذكر أولاً أنه أقامها رصداً وذكر هنا أنه جعلها رصداً له : أي لرقي مسترقي السمع بها .

وقوله : وأجراها على إذلال تسخيرها .

كقوله تعالى : ﴿ **والشمس والقمر والنجوم مسخرّات بأمره** ﴾[2] والذلة : ذلّة الإمكان والحاجة إلى الإيجاد والتدبير . وأما الثابت والسائر منها فالسائر : هي الكواكب السبعة : زحل والمشتري والمريخ والشمس والزهرة وعطارد والقمر . ويسمى الشمس والقمر بالنيّرين والخمسة الباقية بالمتحيّرة لأن لكل واحد منها استقامة ثم وقوفاً ثم رجوعاً ثم وقوفاً ثانياً ثم عوداً إلى الاستقامة ، وليس للنيّرين غير الاستقامة . وباقي الكواكب التي على السماء غير هذه السبعة تسمى بالثوابت وفلكها الثامن وكل واحد من السبعة يتحرك حركة مخصوصة يخالف حركة الآخر .

فأما صعودها وهبوطها : فصعودها طلبها لشرفها وشرف الشمس في الدرجة التاسعة عشر من الحمل ، وشرف القمر في الدرجة الثالثة من الثور ، وشرف زحل في الحادية والعشرين من الميزان وشرف المشتري في الخامسة عشر من السرطان ، وشرف المريخ في الثامنة والعشرين من الجدي ، وشرف الزهرة في السابعة والعشرين من الحوت ، وشرف عطارد في الخامسة والعشرين من السنبلة ، وشرف الرأس في الثالثة من الجوزاء ، وشرف الذنب في الثالثة من القوس ، وبرج الشرف كلّه شرف إلّا أن تلك الدرجات قوية . فما دامت الكواكب متوجهة إلى قوة الشرف فهو في الازدياد والصعود فإذا جاز صار في الانتقاص والهبوط. وهبوط كل كوكب يقابل شرفه وصعوده .

---

(١) ٤١ - ١١ .

(٢) ١٦ - ١٢ .

وأما نحوسها وسعودها فقالوا : زحل، والمريخ نحسان أكبرهما زحل ، والمشتري والزهرة سعدان أكبرهما المشتري ، وعطارد سعد مع السعود ونحس مع النحوس ، والنيران سعدان من التثليث والتسديس نحسان من المقابلة والتربيع والمقاربة ، والرأس سعد ، والذنب والكبد نحسان ، ومعنى سعودها ونحوسها كون اتصالاتها أسباباً لصلاح حال شيء من الأشياء من أحوال هذا العالم . وبالله التوفيق.

ومنها في صفة الملائكة :

ثُمَّ خَلَقَ ، سُبْحَانَهُ ، لإِسْكَانِ سَمٰوَاتِهِ ، وَعِمَارَةِ ٱلصَّفِيحِ ٱلْأَعْلَى مِنْ مَلَكُوتِهِ ، خَلْقاً بَدِيعاً مِنْ مَلاَئِكَتِهِ مَلأَ بِهِمْ فُرُوجَ فِجَاجِهَا ، وَحَشَا بِهِمْ فُتُوقَ أَجْوَائِهَا ، وَبَيْنَ فَجَوَاتِ تِلْكَ ٱلْفُرُوجِ ، زَجَلُ ٱلْمُسَبِّحِينَ مِنْهُمْ فِي حَظَائِرِ ٱلْقُدْسِ ، وَسُتُرَاتِ ٱلْحُجُبِ ، وَسُرَادِقَاتِ ٱلْمَجْدِ ، وَوَرَاءَ ذٰلِكَ ٱلرَّجِيجِ ، ٱلَّذِي تَسْتَكُّ مِنْهُ ٱلْأَسْمَاعُ ، سُبُحَاتُ نُورٍ تَرْدَعُ ٱلْأَبْصَارَ عَنْ بُلُوغِهَا ، فَتَقِفُ خَاسِئَةً عَلَى حُدُودِهَا ، أَنْشَأَهُمْ عَلَى صُوَرٍ مُخْتَلِفَاتٍ ، وَأَقْدَارٍ مُتَفَاوِتَاتٍ ، أُولِي أَجْنِحَةٍ تُسَبِّحُ جَلاَلَ عِزَّتِهِ ، لاَ يَنْتَحِلُونَ مَا ظَهَرَ فِي ٱلْخَلْقِ مِنْ صَنْعَتِهِ ، وَلاَ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ يَخْلُقُونَ شَيْئاً مِمَّا ٱنْفَرَدَ بِهِ ، بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿ **لاَ يَسْبِقُونَهُ بِٱلْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ** ﴾ جَعَلَهُمْ فِيمَا هُنَالِكَ أَهْلَ ٱلْأَمَانَةِ عَلَى وَحْيِهِ ، وَحَمَّلَهُمْ إِلَى ٱلْمُرْسَلِينَ وَدَائِعَ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ، وَعَصَمَهُمْ مِنْ رَيْبِ ٱلشُّبُهَاتِ ، فَمَا مِنْهُمْ زَائِغٌ عَنْ سَبِيلِ مَرْضَاتِهِ ، وَأَمَدَّهُمْ بِفَوَائِدِ ٱلْمَعُونَةِ ، وَأَشْعَرَ قُلُوبَهُمْ تَوَاضُعَ إِخْبَاتِ ٱلسَّكِينَةِ ، وَفَتَحَ لَهُمْ أَبْوَاباً ذُلُلاً إِلَى تَمَاجِيدِهِ ، وَنَصَبَ لَهُمْ مَنَاراً وَاضِحَةً عَلَى أَعْلاَمِ تَوْحِيدِهِ ، لَمْ تُثْقِلْهُمْ مُوصِرَاتُ ٱلآثَامِ ، وَلَمْ تَرْتَحِلْهُمْ عُقَبُ ٱللَّيَالِي وَٱلْأَيَّامِ ، وَلَمْ تَرْمِ ٱلشُّكُوكُ بِنَوَازِعِهَا عَزِيمَةَ إِيمَانِهِمْ ، وَلَمْ تَعْتَرِكِ ٱلظُّنُونُ عَلَى مَعَاقِدِ يَقِينِهِمْ ، وَلاَ قَدَحَتْ قَادِحَةُ ٱلْإِحَنِ فِيمَا بَيْنَهُمْ ، وَلاَ سَلَبَتْهُمُ ٱلْحَيْرَةُ مَا لاَقَ مِنْ مَعْرِفَتِهِ بِضَمَائِرِهِمْ ، وَمَا سَكَنَ مِنْ عَظَمَتِهِ وَهَيْبَةِ جَلاَلَتِهِ ، فِي أَثْنَاءِ صُدُورِهِمْ ، وَلَمْ تَطْمَعْ فِيهِمُ ٱلْوَسَاوِسُ فَتَقْتَرِعَ بِرَيْنِهَا عَلَى

فِكْرِهِمْ : مِنْهُمْ مَنْ هُوَ فِي خَلْقِ ٱلْغَمَامِ ٱلدُّلَّحِ ، وَفِي عِظَمِ ٱلْجِبَالِ ٱلشُّمَّخِ ، وَفِي فَتْرَةِ ٱلظَّلَامِ ٱلْأَبْهَمِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ خَرَقَتْ أَقْدَامُهُمْ تُخُومَ ٱلْأَرْضِ ٱلسُّفْلَى ، فَهِيَ كَرَايَاتٍ بِيضٍ ، قَدْ نَفَذَتْ فِي مَخَارِقِ ٱلْهَوَاءِ ، وَتَحْتَهَا رِيحٌ هَفَّافَةٌ ، تَحْبِسُهَا عَلَى حَيْثُ ٱنْتَهَتْ مِنَ ٱلْحُدُودِ ٱلْمُتَنَاهِيَةِ ، قَدِ ٱسْتَفْرَغَتْهُمْ أَشْغَالُ عِبَادَتِهِ ، وَوَصَلَتْ حَقَائِقُ ٱلْإِيمَانِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَعْرِفَتِهِ ، وَقَطَعَهُمُ ٱلْإِيقَانُ بِهِ إِلَى ٱلْوَلَهِ إِلَيْهِ ، وَلَمْ تُجَاوِزْ رَغَبَاتُهُمْ مَا عِنْدَهُ إِلَى مَا عِنْدَ غَيْرِهِ ، قَدْ ذَاقُوا حَلَاوَةَ مَعْرِفَتِهِ ، وَشَرِبُوا بِٱلْكَأْسِ ٱلرَّوِيَّةِ مِنْ مَحَبَّتِهِ ، وَتَمَكَّنَتْ مِنْ سُوَيْدَاءِ قُلُوبِهِمْ وَشِيجَةُ خِيفَتِهِ ، فَحَنَوْا بِطُولِ ٱلطَّاعَةِ ٱعْتِدَالَ ظُهُورِهِمْ ، وَلَمْ يُنْفِدْ طُولُ ٱلرَّغْبَةِ إِلَيْهِ مَادَّةَ تَضَرُّعِهِمْ ، وَلَا أَطْلَقَ عَنْهُمْ عَظِيمُ ٱلزُّلْفَةِ رِبَقَ خُشُوعِهِمْ ، وَلَمْ يَتَوَلَّهُمُ ٱلْإِعْجَابُ فَيَسْتَكْثِرُوا مَا سَلَفَ مِنْهُمْ ، وَلَا تَرَكَتْ لَهُمُ ٱسْتِكَانَةُ ٱلْإِجْلَالِ نَصِيباً فِي تَعْظِيمِ حَسَنَاتِهِمْ ، وَلَمْ تَجْرِ ٱلْفَتَرَاتُ فِيهِمْ عَلَى طُولِ دُؤُوبِهِمْ ، وَلَمْ تَغِضْ رَغَبَاتُهُمْ ، فَيُخَالِفُوا عَنْ رَجَاءِ رَبِّهِمْ ، وَلَمْ تَجِفَّ لِطُولِ ٱلْمُنَاجَاةِ أَسَلَاتُ أَلْسِنَتِهِمْ ، وَلَا مَلَكَتْهُمُ ٱلْأَشْغَالُ فَتَنْقَطِعَ بِهَمْسِ ٱلْجُؤَارِ إِلَيْهِ أَصْوَاتُهُمْ ، وَلَمْ تَخْتَلِفْ فِي مَقَاوِمِ ٱلطَّاعَةِ مَنَاكِبُهُمْ ، وَلَمْ يَثْنُوا إِلَى رَاحَةِ ٱلتَّقْصِيرِ فِي أَمْرِهِ رِقَابَهُمْ ، وَلَا تَعْدُو عَلَى عَزِيمَةِ جِدِّهِمْ بَلَادَةُ ٱلْغَفَلَاتِ ، وَلَا تَنْتَضِلُ فِي هِمَمِهِمْ خَدَائِعُ ٱلشَّهَوَاتِ ، قَدِ ٱتَّخَذُوا ذَا ٱلْعَرْشِ ذَخِيرَةً لِيَوْمِ فَاقَتِهِمْ ، وَيَمَّمُوهُ عِنْدَ ٱنْقِطَاعِ ٱلْخَلْقِ إِلَى ٱلْمَخْلُوقِينَ بِرَغْبَتِهِمْ ، لَا يَقْطَعُونَ أَمَدَ غَايَةِ عِبَادَتِهِ ، وَلَا يَرْجِعُ بِهِمُ ٱلِاسْتِهْتَارُ بِلُزُومِ طَاعَتِهِ ، إِلَّا إِلَى مَوَادَّ مِنْ قُلُوبِهِمْ غَيْرِ مُنْقَطِعَةٍ مِنْ رَجَائِهِ وَمَخَافَتِهِ ، لَمْ تَنْقَطِعْ أَسْبَابُ ٱلشَّفَقَةِ مِنْهُمْ ، فَيَنُوا فِي جِدِّهِمْ ، وَلَمْ تَأْسِرْهُمُ ٱلْأَطْمَاعُ ، فَيُؤْثِرُوا وَشِيكَ ٱلسَّعْيِ عَلَى ٱجْتِهَادِهِمْ ، وَلَمْ يَسْتَعْظِمُوا مَا مَضَى مِنْ أَعْمَالِهِمْ ، وَلَوِ ٱسْتَعْظَمُوا ذٰلِكَ لَنَسَخَ ٱلرَّجَاءُ مِنْهُمْ شَفَقَاتُ وَجَلِهِمْ ، وَلَمْ يَخْتَلِفُوا فِي رَبِّهِمْ بِٱسْتِحْوَاذِ ٱلشَّيْطَانِ عَلَيْهِمْ ، وَلَمْ يُفَرِّقْهُمْ سُوءُ ٱلتَّقَاطُعِ ، وَلَا تَوَلَّاهُمْ غِلُّ ٱلتَّحَاسُدِ ، وَلَا شَعَّبَتْهُمْ مَصَارِفُ ٱلرِّيَبِ ، وَلَا ٱقْتَسَمَتْهُمْ أَخْيَافُ ٱلْهِمَمِ ، فَهُمْ أُسَرَاءُ إِيمَانٍ ، لَمْ

يَفُكُّهُمْ مِنْ رِبْقَتِهِ ، زَيْغٌ ، وَلاَ عُدُولٌ ، وَلاَ وَنىً ، وَلاَ فُتُورٌ . وَلَيْسَ فِي أَطْبَاقِ آلسَّمٰوَاتِ مَوْضِعُ إِهَابٍ إِلاَّ وَعَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ ، أَوْ سَاعٍ حَافِدٌ ، يَزْدَادُونَ عَلَى طُولِ آلطَّاعَةِ بِرَبِّهِمْ عِلْماً ، وَتَزْدَادُ عِزَّةُ رَبِّهِمْ فِي قُلُوبِهِمْ عِظَماً .

أقول : الصفيح : السطح . والفجاج : الطريق الواسع . والجوّ : المكان المتسع العالي . والفجوة : الفرجة . والزجل : الأصوات . والسرادق : الستر الذي يمد فوق البيت . والرجيج : الزلزلة والاضطراب . وتستك الأسماع : تصمّ . وخاسئة : متحيّرة والإخبات : التذلل والإستكانة . وذللاً : سهلة . والموصرات : المثقلات . والعقب : جمع عقبة وهي المدة من التعاقب : والنوازغ بالغين المعجمة : المفسدة . وبالمهملة القسيّ . والإحن : جمع إحنة وهي الحقد . ولاق : التصق . وأثناء : جمع ثني وهي تضاعيف الشيء . والرين : الغلبة والتغطية . والدلح : جمع دالحة وهي الثقال . والشمخ : العالية . وقترة الظلام : سواده والأبهم : الذي لا يهتدى فيه . والتخوم جمع تخم بفتح التاء وهي منتهى الأرض وحدودها . والريح الهفافة : الساكنة الطيبة . والوشيجة : عروق الشجرة . والربق : جمع ربقة وهي الحلقة من الحبل ، والدؤوب : الجد في العمل . والأسلة : طرف اللسان . والجؤار : رفع الصوت بالدعاء ونحوه . والهمس : الخفي من الصوت . والانتضال : الرمي بالسهم . واستهتر بالأمر : أعجبه وتظاهر به . وشيك السعي : مرتبته . والنسخ : الإزالة والاستحواذ على الشيء : الإحاطة والغلبة عليه . وأخياف الهمم . مختلفاتها واحدة أخيف . والحفد : السرعة .

واعلم أن هذا الفصل يشتمل على وصف الملائكة الذين هم أشرف الموجودات الممكنة بكمال العبودية لله إذ كان في معرض تمجيده ووصف عظمته ، وقد سبق ذكر أنواع الملائكة وإسكانهم أطباق السماوات ، وبيّنا مقاصده بقدر الإمكان . ولنشر هاهنا إلى ما يختص بهذا الموضع من المباحث :

الأول : ثم خلق سبحانه إلى قوله : من الملائكة يحتمل أن يشير

بالصفيح الأعلى إلى الفلك التاسع وهو العرش لكونه أعظم الأجرام وأعلاها وسكانه الملائكة المدبرون له ، ويحتمل أن يريد به محل عبادة الملائكة من حضرة جلال رب العالمين، وعالم الملكوت ومقعدهم الصدق من معرفته فإن خلقهم إنما كان لعمارة ذلك المحل وهو البيت المعمور بجلال الله وعبادتهم له ، ولما كانوا من أشرف الموجودات كانوا هم الخلق البديع التام المعجب .

الثاني : ملأ بهم فروج فجاجها وحشا بهم فتوق أجوائها . استعار لفظ الفروج والفجاج والفتوق لما يتصوّر بين أجزاء الفلك من التباين لولا الملائكة الذين هم أرواح الأفلاك وبهم قام وجودها وبقاء جواهرها محفوظة بهم . ووجه المشابهة ظاهر ، ورشح تلك الاستعارة بذكر الملء والحشو ، وأما فجاجها وفروجها فإشارة إلى ما يعقل بين أجزائها وأجوائها المنتظمة على التباين لولا الناظم لها بوجود الملائكة فيكون حشو تلك الفرج بالملائكة كناية عن نظامها بوجودها وجعلها مدبرة لها .

الثالث : وبين فجوات تلك الفروج . إلى قوله : المجد . استعار لفظ الزجل لكمال عبادتهم كما أن كمال الرجل في رفع صوته بالتضرع والتسبيح والتهليل وكذلك لفظ الحظائر لمنازل الملائكة من عالم الغيب ومقامات عبادتهم ، وظاهر كونها حظائر القدس لطهارتها وبراءتها عن نجاسات الجهل والنفس الأمارة بالسوء ، وكذلك استعار لفظ سترات الحجب والسرادقات لما نبّهنا عليه من حجب النور التي حجبت بها عن الأذهان أو لتجردهم عن المواد والأوضاع المحسوسة ، ووجه المشابهة كونهم محتجبين بذلك عن رؤية الأبصار والأوهام . وظاهر كون تلك الحجب سرادقات المجد لكمال ذواتهم وشرفهم بها على من دون تلك الحجب .

الرابع : ووراء ذلك الرجيج الذي تستك . إلى قوله : حدودها . استعار لفظ الرجيج لعبادات الملائكة كما استعار لفظ الزجل ورشح استعارة الرجيج بقوله : تستك منه الأسماع وكنى به عن كمال عبادتهم ، ويحتمل أن

يشير بذلك الزجل والرجيج إلى ما يسمعه الأنبياء من أصوات الملائكة كما علمت كيفيته في سماع الوحي وبيّناه في المقدمة، وأشار بسبحات النور التي وراء ذلك الرجيج إلى جلال وجه الله وعظمته وتنزيهه أن تصل إليه أبصار البصائر، ونبّه بكون ذلك وراء رجيجهم إلى أن معارفهم لا تتعلق به كما هو؛ بل وراء علومهم وعباداتهم أطوار أخرى من جلاله تقصر معارفهم عنها وتردع أبصار البصائر عن إدراكها فترجع حسيرة متحيّرة واقفة عند حدودها وغاياتها من الإدراك .

الخامس : أنشأهم على صور مختلفات . إلى قوله : عزته . اختلاف صورهم كناية عن اختلافهم بالحقائق وتفاوت أقدارهم تفاوت مراتبهم في الكمال والقرب منه ولفظ الأجنحة مستعار لقواهم التي بها حصلوا على المعارف الإلهية وتفاوتها بالزيادة والنقصان كما قال تعالى : ﴿ **أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع** ﴾[1]. كناية عن تفاوت إدراكهم لجلال الله وعلومهم بما ينبغي له ولذلك جعل الأجنحة هي التي تسبح جلال عزته فإن علمهم بجلاله منزّه عما لا ينبغي لكرم وجهه ولا يناسب جلال عزته .

السادس : لا ينتحلون إلى قوله : يعملون : أي لا ينسون بعض مصنوعاته إلى قدرهم وإن كانوا وسائط فيها ولا يدّعون أنهم يقدرون على شيء منها إلّا بإقداره لهم؛ بل غايتهم أنهم وسائط في إفاضة الجود على مستحقه وما لم يجعلهم وسائط فيه. بل انفرد بذاته في إبداعه فلا يدعون القدرة عليه أصلاً وذلك لكمال معارفهم بأقدارهم ونسبتهم إلى بارئهم وقد أكرمهم الله تعالى بالتقديس عن النفوس الأمارة بالسوء التي هي مبدأ مخالفة أمره والخروج عن طاعته .

السابع : جعلهم فيما هنالك. إلى قوله : ونهيه : أي في مقاماتهم من حضرة قدسه . وقد سبقت الإشارة إلى كل ذلك في الخطبة الأولى .

---

(١) ٣٥ - ١.

الثامن : وعصمهم . إلى قوله : مرضاته . منشأ الشكوك والشبهات والزيغ عن سبيل الله هو معارضة النفس الأمارة للعقل وجذبها له إلى طرق الباطل والملائكة مبرؤون عنها فكانوا معصومين ممنوعين مما تقود إليه وتأمر به من الزيغ والانحراف عن قصد الله . وإمدادهم بفوائد المعونة زيادتهم في كمالاتهم على غيرهم ودوام ذلك بدوام وجوده .

التاسع : وأشعر قلوبهم تواضع إخبات السكينة استعار لفظ التواضع والاستكانة لحالهم من الاعتراف بذل الحاجة والإمكان إلى جوده والانقهار تحت عظمته : أي جعل ذلك الاعتراف شعاراً لازماً لذواتهم ، أو من الشعور وهو الإدراك .

العاشر : وفتح لهم أبواباً ذُلُلاً إلى تماجيده . الأبواب الذلّل وجوه معارفهم الإلهية التي بها يمجّدونه حق تمجيده وهي أبوابهم ووسائلهم إلى تنزيهه وتعظيمه وظاهر كونها سهلة إذ حصولها لهم ليس اكتساباً عن طرق توعرت بتراكم الشكوك والشبهات ومنازعات الأوهام والخيالات كما عليه علومنا .

الحادي عشر : ونصب لهم مناراً واضحة على أعلام توحيده . قيل : استعار المنار الواضحة للوسائط من الملائكة المقربين بينهم وبين الحق سبحانه إذ أخباره عن الملائكة السماوية ، ولفظ الأعلام لصور المعقولات في ذواتهم المستلزمة لتوحيده وتنزيهه عن الكثرة، ووجه المشابهة أن المنار والأعلام كما تكون وسائط في حصول العلم بالمطلوب كذلك الملائكة المقربون والمعارف الحاصلة بواسطتهم تكون وسائط في الوصول إلى المطلوب الأول محرك الكل عزّ سلطانه .

الثاني عشر : لم تثقلهم موصرات الآثام . لما لم تكن النفوس الأمارة بالسوء موجودة لهم استلزم عدمها نفي آثارها عنهم من الآثام والشرور .

الثالث عشر : ولم ترتحلهم عقب الليالي والأيام : أي لم يستلزم تعاقب الزمان رحيلهم عن الوجود وذاك لتجردهم وبراءة المجردات عن لحوق

الزمان والتغيّرات الحادثة بسببه .

الرابع عشر : ولم ترم الشكوك بنوازغها عزيمة إيمانهم ولم تعترك الظنون على معاقد يقينهم . عزيمة إيمانهم ما لزم ذواتهم من التصديق بمبدعهم وما ينبغي له ، ومعاقد يقينهم اعتقاداتهم اليقينية، واعتراك الشكوك والظنون منشأة الأوهام والخيالات وعلوم الملائكة المجردين مبرأة عنها ، ولفظ الرمي مستعار لانبعاث النفوس الأمارة بالسوء وإلقائها الخواطر الفاسدة إلى النفس المطمئنة ، ومن روى النوازع بالعين المهملة فهو ترشيح للاستعارة وكذلك استعار لفظ الاعتراك لاختلاط الظنون والأوهام على القلوب وجولانها في النفوس . ووجه المشابهة ظاهرة .

الخامس عشر : ولا قدحت قادحة الإحن فيما بينهم : أي لم تثر بينهم الأحقاد شيئاً من الشرور كما تثير النار قادحاً لبراءتهم عن قوى الغضب والشهوة .

السادس عشر : ولا سلبتهم الحيرة ما لاق من معرفته بضمائرهم إلى قوله : صدورهم . لما كانت الحيرة تردّد العقل في أي الأمرين أولى بالطلب والاختيار وكان منشأ ذلك هو معارضات الوهم والخيال للعقل فحيث لا وهم ولا خيال فلا حيرة تخالط معارفهم وتزيل هيبة عظمته من صدورهم ، والهيبة كناية عن استشعار عظمته ، ولفظ الصدور مستعار لذواتهم .

السابع عشر : ولم تطمع فيهم الوساوس فتقترع برينها على فكرهم . وقد مرّ تفسير الوسوسة ، وفاعل الطمع هاهنا إما مضمر على تقدير حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه : أي أهل الوساوس وهم الشياطين ، أو يكون الفاعل هو الوساوس وإسناد الطمع إليه مجازاً كقوله تعالى : ﴿ **وأخرجت الأرض أثقالها** ﴾[1] ورينها غلبة الشكوك اللازمة عنها على وجوه عقولهم وأبصار ذواتهم التي بها ينظرون إلى وجه ربهم وانتفاؤها عنهم

---

(١) ٩٩ - ٢.

لانتفاء أسبابها وهي النفوس الأمارة .

الثامن عشر : منهم من هو في خلق الغمام إلى قوله : الأبهم . هذا التقسيم يعود إلى جنس الملائكة فأما الأوصاف السابقة فكانت خاصة بسكان السماوات منهم وقد وردت في الشريعة أن في الغمام ملائكة تسبح الله وتقدسه وكذلك في الجبال والأماكن المظلمة وهم من الملائكة الأرضية ، وقد علمت ما قيل فيها في الخطبة الأولى .

التاسع عشر : ومنهم من خرقت أقدامهم تخوم الأرض السفلى إلى قوله : المتناهية . يشبه أن يكون هذا القسم من الملائكة السماوية أيضاً واستعار لفظ الأقدام لعلومهم المحيطة بأقطار الأرض السفلى ونهاياتها ، ووجه المشابهة كون العلوم قاطعة للمعلوم وسارية فيه واصلة إلى نهايته كما أن الأقدام تقطع الطريق وتصل إلى الغاية منها وشبّهها بالرايات البيض النافذة في مخارق الهواء من وجهين :

أحدهما : في البياض فإن البياض لما استلزم الصفاء عن الكدر والسواد، كذلك علومهم صافية من كدورات الباطل وظلمات الشبه .

الثاني : في نفوذها في أجزاء المعلوم كما تنفذ الرايات في الهواء ، وأشار بالريح التي تحبس الأقدام على حيث انتهت من الحدود إلى حكمة الله التي أعطت كلاماً يستحقه وقصرت كل موجود على حده ، وبهفوفها إلى لطف تصرفها وجريانها في المصنوعات .

العشرون : قد استفرغتهم أشغال عبادته إلى قوله : وشيجة خيفته : أي لم يجعل لهم فراغاً لغيرها ، وقد علمت أن تحريك الملائكة السماوية لأجرام الأفلاك الجارية لها مجرى الأبدان بحركة إرادية وشوقية للتشبّه بالملائكة المتوسطة بينها وبين الحق سبحانه في كمال عبادتهم له وتلك الحركات الدائمة الواجبة مستفرغة لهم عن الاشتغال بغيرها كما قال : ﴿ **يسبّحون الليل والنهار ولا يفترون** ﴾ وحقائق الإيمان تصديقهم الحق بوجوده عن شاهد وجودهم وظاهر كونه سبباً لإرادة معرفته التامة والدوام

عليها، وإبراز ما في قوتهم من الكمال بها إلى الفعل فإن التصديق بوجود الشيء الواجب تحصيله أقوى الأسباب الباعثة على طلبه .

فصار الإيمان والتصديق الحق اليقين بوجوده وسيلة جامعة بينه وبين معرفته والاستكمال بها وقاطعاً لهم إلى الوله إليه والعشق له وثبات الرغبات على ما عنده دون غيره ، ولما استعار لفظ الذوق لتعقّلاتهم ولفظ الشرب بما تمكن في ذواتهم في عشقه وكمال محبته رشّح الاستعارة الأولى بذكر الحلاوة وكنى بها عن كمال ما يجدونه من اللذة بمعرفته كما يلتذّ ذائق الحلاوة بها .

والثانية : بذكر الكأس الروية إذ من كمال الشرب أن يكون بكأس روية : أي من شأنها أن تروي، وكنى بها عن كمال معرفتهم بالنسبة إلى غيرهم وكذلك رشح استعارة لفظ القلوب بذكر سويدائها إذ كان من كمال تمكن العوارض القلبية كالمحبة والخوف أن يبلغ إلى سويدائه ، وأشار بوشيجة خيفته إلى العلاقة المتمكنة من ذواتهم لخيفته، وهي كمال علمهم بعظمته ، ولفظ الخيفة مستعار كما سبق لانقهارهم في ذلّ الإمكان عند اعتبار عزّه وقهره .

الحادي والعشرون : فحنوا بطول الطاعة اعتدال ظهورهم . تجوز بانحناء الظهور في كمال خضوعهم في عبادتهم وهو إطلاق لاسم المسبب على السبب .

الثاني والعشرون : ولم ينفذ طول الرغبة إليه مادة تضرعهم . لما كان من شأن أحد إذا رغب في أمر إلى بعض الملوك وفزع فيه إليه بالتضرع والخدمة أن ينقطع تضرعه بانقطاع مادته . ومادته إما دواعي نفسه إلى الطلب وميولها وانقطاعها باستيلاء الملال على نفسه وضعفها عن تحمّل المشقة ، أو مطلوبه وتصوّره لإمكان تناوله وانقطاعه إما بإياسه منه أو بإعطائه إيّاه، وكانت مادة تضرعهم وعبادتهم له تعالى على التقديرين بريئة عن القواطع ، أما من ذواتهم فلأن الكلال والملال من عوارض المركبات العنصرية ، وأما مطلوبهم فلأنه كمال معرفة الله بعد تصوّرهم لعظمة ذلك المطلوب . وعلمت أن

درجات الوصول إليه غير متناهية لا جرم سلب عنهم في معرض مدحهم انقطاع مادة تضرعهم ليستلزم ذلك سبب انقطاع تضرعهم وعبادتهم له .

الثالث والعشرون : ولا أطلق عنهم عظيم الزلفة ربق خشوعهم لما كان من قرب من السلطان مثلاً من شأنه أن يقوي نفسه ويخفّف هيبته منه، وكان ذلك لتناهي ملك ملوك الدنيا وكونه مكتسباً لها وتصوّر المتقرب إليهم مثليّة لهم وإمكان وصوله إلى ما وصلوا إليه . وكان سلطان الله لا يتناهى عظمة وعزّة وعرفاناً لم يتصوّر من العارف المتقرب إليه أن يخفف هيبته أو ينقص خشوعه وعبادته بل كلما ازدادت معرفته به ازدادت عظمته في نفسه إذ كان يقدر في سلوكه عظمة الله بقدر عرفانه به فكلما غيّر منزلاً من منازل المعرفة علم عظمة خالقه فكمل عقد يقينه بذلك وعلم نقصان ذاته فكمل خشوعه وصدق خضوعه، واستعار لفظ الربق لما حصلوا فيه من الخشوع .

الرابع والعشرون : ولم يتولهم الإعجاب إلى قوله : حسناتهم : أي لم يستول عليهم ، والإعجاب : هو استعظام الإنسان نفسه عما يتصوّر أنه فضيلة له ، ومنشأ ذلك الحكم هو النفس الأمارة فيتوهم الإنسان أن تلك الفضيلة حصلت له عن استحقاق وجب له بسعيه وكده مع قطع النظر عن واهب النعم ومفيضها ، والملائكة السماوية مبرّؤون عن الأوهام وأحكامها غرقى في الوله إليه، ودوام مطالعة آلائه والاستكانة تحت جلال عزّته فلا يستكثرون ما سلف منهم من عبادة ولا يستعظمون ما صدر عنهم من خير .

الخامس والعشرون : ولم تجر الفترات فيهم على طول دؤوبهم ، قد ثبت أن الملائكة السماوية دائمة التحريك لأجرامها حركة لا يتخلّلها سكون ولا يكلّها ويفترها إعياء وتعب ، ولبيان ذلك بالبرهان أصول ممهدة في مواضعها ، وأما بالقرآن فلقوله تعالى﴿ **يسبحون الليل والنهار لا يفترون** ﴾[1] وقد سبق .

---

(١) ٢١ ـ ٢٠ .

السادس والعشرون : ولم تغض رغباتهم فيخالفوا عن رجاء ربهم . المخالفة عن الشيء العدول عنه ، وقد سبق أن رغبات الملائكة السماوية وأشواقها إلى كمالاتها دائمة ثابتة فكانت لذلك دائمة الرجاء لها من واهبها ، ولفظ الغيض مستعار كما سبق .

السابع والعشرون : ولم تجفّ لطول المناجاة أسلات ألسنتهم . طول مناجاتهم يعود إلى توجيه وجوههم دائماً إليه ، واستعار لفظ الألسنة ورشح بذكر الأسلات ملاحظة للتشبيه بأحدنا في مناجاته ، وكنّى بعدم جفاف ألسنتهم عن عدم فتورهم وعدم لحوق الكلال والإعياء لهم وظاهر أنه لا ألسنة لحمانيّة لهم فلا جفاف .

الثامن والعشرون : ولا ملكتهم إلى قوله : أصواتهم : أي لم تضعفهم العبادة فتنقطع أصواتهم فتضعف فتخفى بالضرع إليه . وهو تنزيه لهم عن الأحوال البشرية والعوارض البدنية من الضعف والإعياء وكلال الأعضاء عند كثرة الأشغال وقوتها، وقد مرّ أن الملائكة السماوية لا يجوز عليها شيء من تلك العوارض ، واستعار لفظ الأصوات كما استعار لفظ الألسنة .

التاسع والعشرون : ولم يختلف في مقادم الطاعة مناكبهم إلى قوله : رقابهم . استعار لفظ المقادم من ريش الطائر، وهي عشر في كل جناح لما سبق وجوبه من طاعة الله، وكان أهم عباداته كمعرفته في التوجه إليه ، ولفظ المناكب وهي أربع ريشات بعد المقادم في كل جناح لذواتهم ، ووجه المشابهة أن المناكب تالية للمقادم وعلى نظامها وترتيبها لا يخالف صفّها ونسقها كذلك الملائكة لا تختلف ذواتهم، وأجرامهم في نسق ما أهمّ من عبادة ربهم ومعرفته. بل صافّون لا يخالف بعضهم بعضاً في استقامة طريقهم إليه ولا يخرجون عن نظام ترتيبه لهم في التوجه إليه كما أشار إليه في الخطبة الأولى : وصافون لا يتزايلون ، وكذلك استعار لفظ الرقاب ولفظ الثني : أي لم يلتفتوا إلى الراحة من تعب العبادة فيقصروا في أوامره ، والمقصود نفي الأحوال البشرية عنهم من التعب والراحة لكونهما من توابع هذه الأبدان .

الثلاثون : ولا تعدو إلى قوله : الشهوات . قد عرفت معنى الغفلة فيما سبق . والبلادة هي طرف التفريط من فضيلة الذكاء وكلاهما من عوارض هذا البدن وبواسطته . وكذلك الشهوات والملائكة السماوية بريئة عنها فلم يجز أن يطرأ على قصودهم لما توجهوا له غفلة ولا بلادة حتى يكون ذلك سبباً لإعراضهم عن التوجه فيه، ولم يجز أن ترمي الشهوات هممهم بسهام خدائعها ، ولفظ الانتضال مستعار لنوادر جواذب الشهوة على النفس الناطقة مع كونها مؤدية لها ومردية في قرار الجحيم .

الحادي والثلاثون : قد اتّخذوا إلى قوله : برغبتهم. أشار بيوم فاقتهم إلى حال حاجتهم في الاستكمال إلى جوده وإن كان ذلك دائماً فهو ذخرهم الذي إليه يرجعون، وكذلك الإشارة بقوله : عند انقطاع الخلق إلى المخلوقين. إلى حال الحاجة أيضاً فإنه إنما يكون ذخيرة لهم لرجوعهم إليه فيما يحتاجون، وإنما يتحقق قصدهم له برغبتهم حال الحاجة إليه .

الثاني والثلاثون : لا يقطعون إلى قوله : ومخافته . لما كانت غاية عبادته هو الوصول إلى كمال معرفته وكانت درجات المعارف الإلهية غير متناهية لم يكن قطعهم لتلك الغاية ممكناً ، ولما كانوا غرقى في محبته عالمين بكمال عظمته وأن ما يرجونه من تمام جوده أشرف المطالب وأربح المكاسب ، وما يخشى من انقطاع جوده ونزول حرمانه أعظم المهالك والمعاطب لا جرم دام رجاؤهم له وخضوعهم في رقّ الحاجة إليه والفزع من حرمانه وكان ذلك الرجاء والخوف هو مادة استهتارهم بلزوم طاعته التي يرجعون إليها من قلوبهم فلم ينقطع استهتارهم بلزومها .

الثالث والثلاثون : لم تنقطع أسباب الشفقة عنهم فيتوانى جدهم . الشفقة : الاسم من الإشفاق : أي لم تنقطع أسباب خوفهم له وأسبابه حاجتهم إلى القيام في الوجود إلى الاستكمال بجوده فإن الحاجة الضرورية إلى الغير في مطلوب يستلزم الخوف منه في عدم قضائه، ويوجب الإقبال على الاستعداد بجوده بلزوم طاعته . وحاجتهم إليه دائمة فجدّهم في عبادته دائم فالتواني فيه مفقود .

الرابع والثلاثون : ولم يأسرهم إلى قوله : اجتهادهم ، سلب لبعض أوصاف البشر عنهم فإن كثيراً من العابدين قد يصرفهم عن الاجتهاد في طاعة الله سببٌ ما يظهر لهم من كمالات الدنيا وزينتها فيؤثرون ما قرب من السعي في تحصيله على ما يستبعدونه من تحصيل السعادة الأُخروية الباقية ، وقد عرفت أن ذلك من جواذب الشهوات والغفلة عما وراء هذه الدار والملائكة مبرؤون عن الشهوات، وما يلزمها من أسر الأطماع الكاذبة لهم ، ولفظ الأسر استعارة لقود الأطماع إلى ما يطمع فيه .

الخامس والثلاثون : ولم يستعظموا ما مضى من أعمالهم إلى قوله : رجلهم . معنى هذه الشرطية أنهم لو استعظموا ذلك لكان رجاؤهم لثواب عبادتهم عظيماً فكان لقوته ماحياً لإشفاقهم وخوفهم منه، وهذا كما أن الإنسان إذا عمل لبعض الملوك عملاً يستعظمه فإنه يرى في نفسه استحقاق أتمّ جزاء له ، ويجد التطاول به والدالة عليه فيهوّن ذلك ما يجده من خوفه ، وكلما ازداد استعظامه لخدمته ازداد اعتقاده في قربه من الملك قوة وبمقدار ذلك ينقص خوفه وتقلّ هيبته لكن الملائكة خائفون أبداً كما قال تعالى : ﴿ **يخافون ربهم من فوقهم والملائكة من خيفته**﴾ فينتج أنهم لا يستعظمون سالف عبادتهم .

السادس والثلاثون : ولم يختلفوا في ربهم باستحواذ الشيطان عليهم : أي في إثباته واستحقاقه كمال العبادة وذلك لعدم سلطان عليهم وهو سلب لبعض أحوال البشر، وكذلك قوله : ولم يفرّقهم إلى قوله : أخياف الهمم . تنزيه لهم عن أمور من عوارض البشرية :

أحدها : سوء التقاطع وهو كتقاطع المتعادين وتباينهم الناشىء عن الغضب والشهوة .

الثاني : غلّ الحسد ، وقد علمت أن الحسد رذيلة نفسانية تنبعث عن البخل والشره ومنبعهما النفس الأمارة .

الثالث : تشعب مصارف الريب لهم والريب الشكوك والشبه ومصارفها

هي الأمور الباطلة التي تنصرف أذهانهم إليها عن الشبه أو تلك الشبهة والشكوك أنفسها وتشعّبها لهم اقتسامها بحيث يذهب كل واحد من شبهة إلى باطل ، وقد علمت أن منشأ الشكوك والشبهات هو الوهم والخيال ، ولما كانوا مبرئين عن النفوس الأمارة وجب تنزيههم عن هذه الأمور الثلاثة .

الرابع : لما كان معبودهم واحداً وهو غاية مطلوبهم كانت هممهم فيه واحدة فلم يلتفتوا إلى شيء آخر ولم يفترقوا فيها .

السابع والثلاثون : فهم أُسراء الإيمان . إلى قوله : ولا فتور. استعار لفظ الأسر ورشح بذكر الربقة ونزّههم عن أن يجذبهم عن الإيمان أحد الأمور الأربعة ، وقد سبق وجه تنزيههم عنها .

الثامن والثلاثون : وليس في أطباق السماوات إلى قوله : عظماً . المراد أن السماوات مملوءة بالملائكة فبين ساجد لوجه ربه وبين ساعي مجد في أمره . واعلم أن في السماء ملائكة مباشرة لتحريكها وملائكة أعلى رتبة من أولئك هم الآمرون لهم بالتحريك فيشبه أن تكون الإشارة بالساجدين منهم إلى الآمرين ، والسجود كناية عن كمال عبادتهم كناية بالمستعار وتكون الإشارة بالساعين المسرعين إلى المتولين للتحريك. فأما زيادتهم بطول الطاعة علماً بربهم. فلما ثبت أن حركاتهم إنما هي شوقيّة للتشبه بملائكة أعلى رتبة منهم في كمالهم بالمعارف الإلهية وظهور ما في ذواتهم بالقوة إلى الفعل . وزيادة عزّة ربهم عندهم عظماً بحسب زيادتهم ومعرفتهم له تابعة لها كما نبّهنا عليه قبل . وبالله التوفيق .

ومنها في صفة الأرض ودحوها على الماء :

كَبَسَ ٱلْأَرْضَ عَلَى مَوْرِ أَمْوَاجٍ مُسْتَفْحِلَةٍ ، وَلُجَجِ بِحَارٍ زَاخِرَةٍ ، تَلْتَطِمُ أَوَاذِيُّ أَمْوَاجِهَا ، وَتَصْطَفِقُ مُتَقَاذِفَاتُ أَثْبَاجِهَا ، وَتَرْغُو زَبَداً كَٱلْفُحُولِ عِنْدَ هِيَاجِهَا ، فَخَضَعَ جِمَاحُ ٱلْمَاءِ ٱلْمُتَلَاطِمِ لِثِقَلِ حَمْلِهَا ، وَسَكَنَ هَيْجُ ٱرْتِمَائِهِ إِذْ وَطِئَتْهُ بِكَلْكَلِهَا ، وَذَلَّ مُسْتَخْذِياً إِذْ تَمَعَّكَتْ عَلَيْهِ بِكَوَاهِلِهَا ، فَأَصْبَحَ ، بَعْدَ

آصْطِخَابِ أَمْوَاجِهِ ، سَاجِياً مَقْهُوراً ، وَفِي حَكَمَةِ ٱلذُّلِّ مُنْقَاداً أَسِيراً ، وَسَكَنَتِ ٱلْأَرْضُ مَدْحُوَّةً فِي لُجَّةِ تَيَّارِهِ ، وَرَدَّتْ مِنْ نَخْوَةِ بَأْوِهِ وَٱعْتِلَائِهِ ، وَشُمُوخِ أَنْفِهِ ، وَسُمُوِّ غُلَوَائِهِ ، وَكَعَمَتْهُ عَلَى كِظَّةِ جِرْيَتِهِ ، فَهَمَدَ بَعْدَ نَزَقَاتِهِ ، وَلَبِدَ بَعْدَ زَيَفَانِ وَثَبَاتِهِ ، فَلَمَّا سَكَنَ هِيَاجُ ٱلْمَاءِ مِنْ تَحْتِ أَكْنَافِهَا ، وَحَمْلِ شَوَاهِقِ ٱلْجِبَالِ ٱلشُّمَّخِ ٱلْبُذَّخِ عَلَى أَكْتَافِهَا ، فَجَرَ يَنَابِيعَ ٱلْعُيُونِ مِنْ عَرَانِينِ أُنُوفِهَا ، وَفَرَّقَهَا فِي سُهُوبِ بِيدِهَا وَأَخَادِيدِهَا ، وَعَدَلَ حَرَكَاتِهَا بِالرَّاسِيَاتِ مِنْ جَلَامِيدِهَا ، وَذَوَاتِ ٱلشَّنَاخِيبِ ٱلشُّمِّ مِنْ صَيَاخِيدِهَا ، فَسَكَنَتْ مِنَ ٱلْمَيَدَانِ لِرُسُوبِ ٱلْجِبَالِ فِي قِطَعِ أَدِيمِهَا ، وَتَغَلْغُلِهَا مُتَسَرِّبَةً فِي جَوْبَاتِ خَيَاشِيمِهَا ، وَرُكُوبِهَا أَعْنَاقَ سُهُولِ ٱلْأَرَضِينَ وَجَرَاثِيمِهَا ، وَفَسَحَ بَيْنَ ٱلْجَوِّ وَبَيْنَهَا ، وَأَعَدَّ ٱلْهَوَاءَ مُتَنَسَّماً لِسَاكِنِهَا ، وَأَخْرَجَ إِلَيْهَا أَهْلَهَا عَلَى تَمَامِ مَرَافِقِهَا ، ثُمَّ لَمْ يَدَعْ جُرُزَ ٱلْأَرْضِ ، ٱلَّتِي تَقْصُرُ مِيَاهُ ٱلْعُيُونِ عَنْ رَوَابِيهَا ، وَلَا تَجِدُ جَدَاوِلُ ٱلْأَنْهَارِ ذَرِيعَةً إِلَى بُلُوغِهَا حَتَّى أَنْشَأَ لَهَا نَاشِئَةَ سَحَابٍ تُحْيِي مَوَاتَهَا ، وَتَسْتَخْرِجُ نَبَاتَهَا ، أَلَّفَ غَمَامَهَا بَعْدَ ٱفْتِرَاقِ لُمَعِهِ ، وَتَبَايُنِ قُزَعِهِ ، حَتَّى إِذَا تَمَخَّضَتْ لُجَّةُ ٱلْمُزْنِ فِيهِ ، وَٱلْتَمَعَ بَرْقُهُ فِي كُفَفِهِ ، وَلَمْ يَنَمْ وَمِيضُهُ فِي كَنَهْوَرِ رَبَابِهِ ، وَمُتَرَاكِمِ سَحَابِهِ ، أَرْسَلَهُ سَحّاً مُتَدَارِكاً ، قَدْ أَسَفَّ هَيْدَبُهُ ، تَمْرِيهِ ٱلْجَنُوبُ دِرَرَ أَهَاضِيبِهِ ، وَدُفَعَ شَآبِيبِهِ ، فَلَمَّا أَلْقَتِ ٱلسَّحَابُ بَرْكَ بَوَانِيهَا ، وَبَعَاعَ مَا ٱسْتَقَلَّتْ بِهِ ، مِنَ ٱلْعِبْءِ ٱلْمَحْمُولِ عَلَيْهَا ، أَخْرَجَ بِهِ مِنْ هَوَامِدِ ٱلْأَرْضِ ٱلنَّبَاتَ ، وَمِنْ زُعْرِ ٱلْجِبَالِ ٱلْأَعْشَابَ ، فَهِيَ تَبْهَجُ بِزِينَةِ رِيَاضِهَا ، وَتَزْدَهِي بِمَا أُلْبِسَتْهُ مِنْ رَيْطِ أَزَاهِيرِهَا ، وَحِلْيَةِ مَا سُمِطَتْ بِهِ مِنْ نَاضِرِ أَنْوَارِهَا ، وَجَعَلَ ذٰلِكَ بَلَاغاً لِلْأَنَامِ ، وَرِزْقاً لِلْأَنْعَامِ ، وَخَرَقَ ٱلْفِجَاجَ فِي آفَاقِهَا ، وَأَقَامَ ٱلْمَنَارَ لِلسَّالِكِينَ عَلَى جَوَادِّ طُرُقِهَا .

فَلَمَّا مَهَدَ أَرْضَهُ ، وَأَنْفَذَ أَمْرَهُ ٱخْتَارَ آدَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خِيرَةً مِنْ خَلْقِهِ ، وَجَعَلَهُ أَوَّلَ جِبِلَّتِهِ ، وَأَسْكَنَهُ جَنَّتَهُ ، وَأَرْغَدَ فِيهَا أُكُلَهُ ، وَأَوْعَزَ إِلَيْهِ فِيمَا نَهَاهُ

عَنْهُ ، وَأَعْلَمَهُ أَنَّ فِي ٱلْإِقْدَامِ عَلَيْهِ ٱلتَّعَرُّضَ لِمَعْصِيَتِهِ، وَٱلْمُخَاطَرَةَ بِمَنْزِلَتِهِ ، فَأَقْدَمَ عَلَى مَا نَهَاهُ عَنْهُ ـ مُوَافَاةً لِسَابِقِ عِلْمِهِ ـ فَأَهْبَطَهُ بَعْدَ ٱلتَّوْبَةِ، لِيَعْمُرَ أَرْضَهُ بِنَسْلِهِ ، وَلِيُقِيمَ ٱلْحُجَّةَ بِهِ عَلى عِبَادِهِ ، وَلَمْ يُخْلِهِمْ بَعْدَ أَنْ قَبَضَهُ، مِمَّا يُؤَكِّدُ عَلَيْهِمْ حُجَّةَ رُبُوبِيَّتِهِ ، وَيَصِلُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَعْرِفَتِهِ ، بَلْ تَعَاهَدَهُمْ بِٱلْحُجَجِ عَلَى أَلْسُنِ ٱلْخِيَرَةِ مِنْ أَنْبِيَائِهِ ، وَمُتَحَمِّلِي وَدَائِعِ رِسَالاَتِهِ ، قَرْناً فَقَرْناً ، حَتَّى تَمَّتْ بِنَبِيِّنَا مُحَمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حُجَّتُهُ ، وَبَلَغَ ٱلْمَقْطَعَ عُذْرُهُ وَنُذُرُهُ .

وَقَدَّرَ ٱلْأَرْزَاقَ فَكَثَّرَهَا وَقَلَّلَهَا ، وَقَسَّمَهَا عَلَى ٱلضِّيقِ وَٱلسَّعَةِ ، فَعَدَلَ فِيهَا لِيَبْتَلِيَ مَنْ أَرَادَ بِمَيْسُورِهَا وَمَعْسُورِهَا ، وَلِيَخْتَبِرَ بِذٰلِكَ ٱلشُّكْرَ وَٱلصَّبْرَ مِنْ غَنِيِّهَا وَفَقِيرِهَا ، ثُمَّ قَرَنَ بِسَعَتِهَا عَقَابِيلَ فَاقَتِهَا ، وَبِسَلاَمَتِهَا طَوَارِقَ آفَاتِهَا ، وَبِفُرَجِ أَفْرَاحِهَا غُصَصَ أَتْرَاحِهَا ، وَخَلَقَ ٱلآجَالَ فَأَطَالَهَا وَقَصَّرَهَا . وَقَدَّمَهَا وَأَخَّرَهَا . وَوَصَلَ بِٱلْمَوْتِ أَسْبَابَهَا . وَجَعَلَهُ خَالِجاً لِأَشْطَانِهَا ، وَقَاطِعاً لِمَرَائِرِ أَقْرَانِهَا . عَالِمُ ٱلسِّرِّ مِنْ ضَمَائِرِ ٱلْمُضْمِرِينَ ، وَنَجْوَى ٱلْمُتَخَافِتِينَ ، وَخَوَاطِرِ رَجْمِ ٱلظُّنُونِ ، وَعُقَدِ عَزِيمَاتِ ٱلْيَقِينِ ، وَمَسَارِقِ إِيمَاضِ ٱلْجُفُونِ ، وَمَا ضَمِنَتْهُ أَكْنَانُ ٱلْقُلُوبِ ، وَغَيَابَاتُ ٱلْغُيُوبِ ، وَمَا أَصْغَتْ لِاسْتِرَاقِهِ مَصَائِخُ ٱلْأَسْمَاعِ ، وَمَصَائِفِ ٱلذَّرِّ ، وَمَشَاتِي ٱلْهَوَامِّ ، وَرَجْعِ ٱلْحَنِينِ مِنَ ٱلْمُولَهَاتِ ، وَهَمْسِ ٱلْأَقْدَامِ ، وَمُنْفَسَحِ ٱلثَّمَرَةِ مِنْ وَلاَئِجِ غُلُفِ ٱلْأَكْمَامِ ، وَمُنْقَمَعِ ٱلْوُحُوشِ مِنْ غِيرَانِ ٱلْجِبَالِ وَأَوْدِيَتِهَا ، وَمُخْتَبَإِ ٱلْبَعُوضِ بَيْنَ سُوقِ ٱلْأَشْجَارِ وَأَلْحِيَتِهَا ، وَمَغْرَزِ ٱلْأَوْرَاقِ مِنَ ٱلْأَفْنَانِ ، وَمَحَطِّ ٱلْأَمْشَاجِ مِنْ مَسَارِبِ ٱلْأَصْلاَبِ ، وَنَاشِئَةِ ٱلْغُيُومِ وَمُتَلاَحِمِهَا ، وَدُرُورِ قَطْرِ ٱلسَّحَابِ فِي مُتَرَاكِمِهَا ، وَمَا تَسْفِي ٱلْأَعَاصِيرُ بِذُيُولِهَا ، وَتَعْفُو ٱلْأَمْطَارُ بِسُيُولِهَا ، وَعَوْمِ نَبَاتِ ٱلْأَرْضِ فِي كُثْبَانِ ٱلرِّمَالِ ، وَمُسْتَقَرِّ ذَوَاتِ ٱلْأَجْنِحَةِ بِذُرَى شَنَاخِيبِ ٱلْجِبَالِ ، وَتَغْرِيدِ ذَوَاتِ ٱلْمَنْطِقِ فِي دَيَاجِيرِ ٱلْأَوْكَارِ ، وَمَا أَوْعَبَتْهُ ٱلْأَصْدَافُ ، وَحَضَنَتْ عَلَيْهِ

أَمْوَاجُ ٱلْبِحَارِ ، وَمَا غَشِيَتْهُ سُدْفَةُ لَيْلٍ ، أَوْ ذَرَّ عَلَيْهِ شَارِقُ نَهَارٍ ، وَمَا ٱعْتَقَبَتْ عَلَيْهِ أَطْبَاقُ ٱلدَّيَاجِيرِ ، وَسُبُحَاتُ ٱلنُّورِ ، وَأَثَرِ كُلِّ خَطْوَةٍ ، وَحِسِّ كُلِّ حَرَكَةٍ ، وَرَجْعِ كُلِّ كَلِمَةٍ ، وَتَحْرِيكِ كُلِّ شَفَةٍ ، وَمُسْتَقَرِّ كُلِّ نَسَمَةٍ ، وَمِثْقَالِ كُلِّ ذَرَّةٍ ، وَهَمَاهِمِ كُلِّ نَفْسٍ هَامَّةٍ ، وَمَا عَلَيْهَا مِنْ ثَمَرِ شَجَرَةٍ ، أَوْ سَاقِطِ وَرَقَةٍ ، أَوْ قَرَارَةِ نُطْفَةٍ ، أَوْ نُقَاعَةِ دَمٍ ، وَمُضْغَةٍ ، أَوْ نَاشِئَةِ خَلْقٍ وَسُلاَلَةٍ ، لَمْ تَلْحَقْهُ فِي ذٰلِكَ كُلْفَةٌ ، وَلاَ ٱعْتَرَضَتْهُ فِي حِفْظِ مَا ٱبْتَدَعَهُ مِنْ خَلْقِهِ عَارِضَةٌ ، وَلاَ ٱعْتَوَرَتْهُ فِي تَنْفِيذِ ٱلْأُمُورِ وَتَدَابِيرِ ٱلْمَخْلُوقِينَ مَلاَلَةٌ ، وَلاَ فَتْرَةٌ ، بَلْ نَفَذَ فِيهِمْ عِلْمُهُ ، وَأَحْصَاهُمْ عَدُّهُ ، وَوَسِعَهُمْ عَدْلُهُ ، وَغَمَرَهُمْ فَضْلُهُ ، مَعَ تَقْصِيرِهِمْ عَنْ كُنْهِ مَا هُوَ أَهْلُهُ .

أَللَّهُمَّ أَنْتَ أَهْلُ ٱلْوَصْفِ ٱلْجَمِيلِ ، وَٱلتَّعْدَادِ ٱلْكَثِيرِ ، إِنْ تُؤَمَّلْ فَخَيْرُ مُؤَمَّلٍ ، وَإِنْ تُرْجَ فَأَكْرَمُ مَرْجُوٍّ .

أَللَّهُمَّ وَقَدْ بَسَطْتَ لِي فِيمَا لاَ أَمْدَحُ بِهِ غَيْرَكَ ، وَلاَ أُثْنِي بِهِ عَلَى أَحَدٍ سِوَاكَ ، وَلاَ أُوَجِّهُهُ إِلَى مَعَادِنِ ٱلْخَيْبَةِ وَمَوَاضِعِ ٱلرِّيبَةِ ، وَعَدَلْتَ بِلِسَانِي عَنْ مَدَائِحِ ٱلآدَمِيِّينَ ، وَٱلثَّنَاءِ عَلَى ٱلْمَرْبُوبِينَ ٱلْمَخْلُوقِينَ .

أَللَّهُمَّ وَلِكُلِّ مُثْنٍ عَلَى مَنْ أَثْنَى عَلَيْهِ مَثُوبَةٌ مِنْ جَزَاءٍ ، أَوْ عَارِفَةٌ مِنْ عَطَاءٍ ، وَقَدْ رَجَوْتُكَ دَلِيلاً عَلَى ذَخَائِرِ ٱلرَّحْمَةِ وَكُنُوزِ ٱلْمَغْفِرَةِ .

أَللَّهُمَّ وَهٰذَا مَقَامُ مَنْ أَفْرَدَكَ بِالتَّوْحِيدِ ٱلَّذِي هُوَ لَكَ ، وَلَمْ يَرَ مُسْتَحِقّاً لِهٰذِهِ ٱلْمَحَامِدِ وَٱلْمَمَادِحِ غيرك ، وَبِي فَاقَةٌ إِلَيْكَ لاَ يجبر مَسْكَنَتَهَا إِلَّا فَضْلُكَ ، وَلاَ يَنْعَشُ مِنْ خَلَّتِهَا إِلَّا مَنُّكَ وَجُودُكَ ، فَهَبْ لَنَا فِي هٰذَا ٱلْمَقَامِ رِضَاكَ ، وَأَغْنِنَا عَنْ مَدِّ ٱلْأَيْدِي إِلَى سِوَاكَ ؛ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

أقول : كبسها : أغاصها في الماء بقوة . والمور : التردد في الحركة . ومستفحلة : صائلة : والتلاطم : الترادّ . والأواذي : جمع آذي وهو ما عظم

من موج البحر . والاصطفاق : الترادّ أيضاً . والأثباج : جمع ثبج وهو معظمها وعواليها . وهيج الفرس : إذا غلب صاحبه ولم يملكه . والارتماء : التقاذف والتراد . والكلكل : الصدر . والمستخذي: الخاضع . والتمعّك : التمرغ . واصطخاب أمواجه : غلبتها وأصواتها . والساجي : الساكن والحكمة : ما أحاط من اللجام بحنك الدابة. والدحو : البسط . والتيار : الموج . والنخوة : الكبر والترفع. والبأو : الفخر . وشمخ بأنفه : تكبّر. والغلواء : تجاوز الحد . وكعمته : سددت فاه . والكظة : شدة البطنة. وهمد : سكن وخمد . والنزق : الخفة والطيش . ولبد : لصق بالأرض ساكناً . والزيفان : التبختر . والبذّخ: العالية . والعرنين : أعلى الأنف عند ملتقى الحاجبين . والسهوب : جمع سهب وهو الفلاة الواسعة . والبيد : جمع بيداء وهي الفلاة أيضاً . والأخدود : الشق في الأرض . والجلاميد : الصخور . والشناخيب : رؤوس الجبال. والشم : العالية . والصيخود : الصخرة الصلبة . وأديمها : سطحها . وتغلغله : دخوله في أعماقها . والتسرب : الدخول في السرب. والجوبة : الفرجة في الأرض . وجراثيم الأرض : أعاليها وما اجتمع منها . وأرض جرز : لا نبات بها لانقطاع الماء عنها . والروابي : عوالي الأرض . والقزع : قطع السحاب الرقيقة الواحدة قزعة . والكفة بالضم : ما استطال من السحاب وما استدار . وبالكسر : الوميض واللمعان . والكنهور : العظيم من السحاب . والرباب : الغمام الأبيض . والسحّ : الصب. وأسف : دنا من الأرض لثقله . وهيدبه : ما تهدّب منه إلى الأرض أي تدلى . وتمريه : تستخرج ما فيه من الماء .والدرر جمع درّة بالكسر وهي كثرة اللبن وسيلانه . والأهاضيب : جمع هضاب وهو جمع هضب، وهو جلبات القطر بعد القطر . والشآبيب : جمع شؤبوب وهو الرشقة القوية من المطر . والبرك : الصدر . والبواني : ما يلي الصدر من الأضلاع . وبعاع السحاب : ثقله بالمطر . والعبء : الثقل . وجبلة زعراء : لا نبت بها . وتزد هي : تتكبّر. والريط : جمع ريطة وهي الأزاهير المنيرة . وسمطت : زينت بالسمط وهو العقد ، ومن روى شمطت بالشين المعجمة

أراد خلطت . والجبلة : الخلقة . وأوعز إليه بكذا : تقدم إليه به . والعقابيل : بقايا المرض . والترح : الحزن . والفاقة : الفقر . والخلج : الجذب والانتزاع . والأشطان : جمع شطن وهي الحبال . والمرائر : أيضاً الحبال اللطيفة الفتل . والتخافت : المسارة . والرجم بالظن : القول عنه . والغيابة : ظلمة قعر البئر . ومصائخ الأسماع : خروقها . والإصاخة : التسمع . والولائج : المداخل . والأكمام : جمع كمّ بالكسر وهو غلاف الطلع . والمنقمع : محل الانقماع وهو الارتداع . ولحاء الشجرة : قشرها . والأفنان : الأغصان . والأمشاج : النطفة المختلطة بالدم ، وتعفو : تمحو. وشناخيب الجبال : رؤوسها . وذراها : أعاليها . والتغريد : ترديد صوت الطائر . والدياجير : جمع ديجور وهو الظلام . والسدفة : الظلمة . وذرّ الشارق : طلع . ورجع الكلمة : جوابها . والنقاعة : نقرة يجتمع فيها الدم . واعتورته : أحاطت به . والعارفة : المعروف . والخلّة . الفقر . وأنعشه : أنهضه من عثرته .

واعلم أن هذا الفصل يشتمل على فصول :

الفصل الأول : في تمجيد الله تعالى باعتبار خلقه للأرض في الماء وجملة من أحوالها وهو إلى قوله : جواد طرقها ، وفيه أبحاث :

البحث الأول : في الاستعارات والتشبيهات وأبحاث لفظية .

الأول : استعارة لفظ الكبس لخلقه لها غائصاً معظمها في الماء كما يغوص بعض الزقّ المنفوخ ونحوه بالاعتماد عليه .

الثاني : استعارة لفظ الاستفحال للموج ، ووجه المشابهة ما اشترك فيه الموج والفحل من الاضطراب والهيجان والصولة .

الثالث : تشبيهه بالفحول أيضاً ووجه الشبه ما يظهر على رؤوس الموج عند اضطرابه وغليانه من رغوة الزبد كما يظهر من فم الفحل عند هياجه .

الرابع : استعار لفظ الجماح لحركة الماء على غير نسق واضطراب لا

يملك معه تصريفه كما يجمح الفرس .

الخامس : استعار أوصاف الناقة من الكلكل والكاهل للأرض ورشح تلك الاستعارة بالوطىء والتمعّك . وإنما خصّ الصدر والكاهل لقوتهما وكنّى بالمجموع عن إلحاقها بالناقة .

السادس : استعار للماء لفظ الاستخذاء والقهر ولفظ الحكمة والانقياد والأسر وكنّى بها عن إلحاقه بحيوان صائل قهر كالفرس وأضاف الحكمة إلى الذلّ إضافة للسبب إلى المسبب .

السابع : استعار لفظ النخوة ، والبأو ، وشموخ الأنف ، والغلواء ، والنزق ، والزيفان ، والوثبات للماء في هيجانه واضطرابه ملاحظة لشبهه بالإنسان المتجبّر التيّاه في حركاته المؤذنة بتكبّره وزهوه .

الثامن : استعار لفظ الأكتاف للأرض ، ووجه المشابهة كون الأرض محلاً لحمل ما يثقل من الجبال كما أن كتف الإنسان وغيره محل لحمل الأثقال .

التاسع : استعار لفظ العرنين والأنف لأعالى رؤوس الجبال كناية عن إلحاقها بالإنسان .

العاشر : كنّى بالتغلغل والتسرب عما يتوهمّ من نفوذ الجبال في الأرض وغوصها فيها ، واستعار لفظ الخياشيم لتلك الأسراب الموهومة . ولما جعل للجبال أُنوفاً جعل تلك الأسراب المتوهم قيام الجبال فيها خياشيم .

الحادي عشر : استعار لفظ الركوب للجبال والأعناق للأرض كناية عن إلحاقهما بالقاهر والمقهور .

الثاني عشر : استعار لفظ الوجدان والذريعة للجداول كناية عن إلحاقها بالإنسان عديم الوسيلة إلى مطلوبه .

الثالث عشر : الضميران في تغلغلها وركوبها والضمير في خياشيمها

يعود إلى الأرض وباقي الضمائر ظاهر .

الرابع عشر : تجوّز في إسناد لفظ الإحياء والاستخراج إلى السحاب إذ المخرج هو الله تعالى .

الخامس عشر : كنّى بعدم النوم عن عدم إخفاء وميض البرق في السحاب كناية بالمستعار .

السادس عشر : استعار لفظ الهدب لقطرات المطر المتصلة يتلو بعضها بعضاً ملاحظة لشبهها بالخيوط المتدلية [المستدلية خ] .

السابع عشر : استعار لفظ الدرر والأهاضيب وهي الجلباب للغمام كناية عن إلحاقها بالناقة .

الثامن عشر : أسند المري إلى الجنوب مجازاً أو لأن لها سببيةً ما في نزول الغيث وإنما خصّ الجنوب لأنها في أكثر البلاد حارة رطبة أما الحرارة فلأنها تأتي من الجهة المتسخنة بمقاربة الشمس ، وأما الرطوبة فلأن البخار أكثرها جنوبية والشمس تفعل فيها بقوة ويتبخّر عنها أبخرة تخالط الريح وإذا كان كذلك كان الجنوب أولى بالذكر من وجهين :

أحدهما : أنها أكثر استصحاباً للأبخرة فلذلك كان السحاب أكثر انعقاداً معها ومصاحبة لها .

الثاني : أنها لحرارتها تفتح المسام ، ولرطوبتها ترخي فكان درور المطر عنها أكثر .

التاسع عشر : استعار لفظ البرك والبواني للسحاب وأسند إليه الإلقاء كناية عن إلحاقه بالجمل الذي أثقله الحمل فرمى بصدره إلى الأرض .

العشرون : نسب الابتهاج والازدهاء واللبس إلى الأرض ذات الأزاهير مجازاً ملاحظة لشبهها بالمرأة المتبجّحة بما عليها من فاخر الملبوس وجميل الثياب .

البحث الثاني : أن مقتضى الكلام أن الله خلق الماء قبل الأرض ثم دحاها فيه وسكن بها مستفحل أمواجه ، وهذا مما شهد به البرهان العقلي فإن الماء لما كان حاوياً لأكثر الأرض كان سطحه الباطن المماس لسطحه الظاهر مكاناً لها وظاهر أن للمكان تقدماً باعتبار ما على المتمكن فيه، وإن كان اللفظ يعطي تقدم خلق الماء على خلق الأرض تقدماً زمانياً كما هو المقبول عند السامعين .

البحث الثالث : أنّه أُشير إلى كونها مدحوة في القرآن الكريم أيضاً: ﴿ **والأرض بعد ذلك دحيها** ﴾ مع أن الأرض كرة كما ثبت بيانه في علم الهيئة . فلا بدّ من التأويل وقد نبّهنا إليه في قوله : اللهم داحي المدحوات ، وقد ورد في الخبر : أن الأرض دحيت من تحت الكعبة . قال بعض العارفين : الإشارة بالكعبة إلى كعبة وجود واجب الوجود التي هي مقصد وجوه المخلصين التي جعلت هذه الكعبة في عالم الشهادة مثالاً لها ودحوها من تحتها عبارة عن وجودها عن ذلك المبدأ .

البحث الرابع : الإشارة إلى خلق الجبال فيها وكونها سبباً لسكونها . وللناس في تكوين ما تكون من الجبال فيها وجوه :

أحدها : أنه قد يكون عن بخار زالت مياهها .

الثاني : قد يكون عن زلزلة فصلت قطعة على ناحية فارتفعت .

الثالث : قد تكون عن رياح جمعت بهبوبها تراباً فتراكم وعلا.

الرابع : قد تكون لعمارات تراكمت فتخرّبت . فأما كونها أسباباً لسكون الأرض فقد سبقت الإشارة إليه في الخطبة الأولى ، واعلم أن البرهان مطابق على الشهادة بسكونها كما أُشير إليه في مظانه .

البحث الخامس : في تفجير ينابيع العيون في الجبال وغيرها ، وقد أشار العلماء إلى أسبابه فقالوا : إنّ الأدخنة والأبخرة ما يحتبس منها تحت الأرض وفي ثقب وفرج فيها هواء تبرد الأبخرة والهواء فيصير ماء فما له قوة

ومدد يتفجّر عيوناً، ويجري على الولاء لعدم مدخل الهواء بين الخارج وما يتصل به ويتبعه ، وما لا مدد له من العيون يركد ، وما له مدد إلّا أن أجزاءه مبددة والأرض واهية لا تحتاج إلى مقاومة يتحصل منه القنوات ، وماء البئر أيضاً من قبيل ماله مدد لكنه لم يجد سبيلاً إلى أحد الجوانب لعدم رخاوة أرضه فخالف القنوات.

وإنما خصّ الجبال بتفجّر العيون منها لأن العيون أكثر ما تفجّر من الجبال والأماكن المرتفعة وذلك لشدة احتقان الأبخرة تحتها بالنسبة إلى سائر الأماكن الهابطة الرخوة فإن الأرض إذا كانت رخوة نفضت البخار عنها فلا يكاد يجتمع منه قدر ما يعتد به ولأن هذا التخصيص أدّل على حكمة الصانع وعنايته بالخلق . وهو في معرض تمجيده وتعديد آلائه .

البحث السادس : أنه أعدّ الهواء لساكنها ، واعلم أنه سبحانه كما جعل الهواء عنصراً لأبدان الحيوان وأرواحه البدنية كذلك جعله مدداً يصل إلى الأرواح ويكون علة لصلاحها وبقائها بالتعديل، وذلك التعديل يكون بفعلين :

أحدهما : التزويج .

والثاني : التنقية. أما التزويج فهو تعديل مزاج الروح الحار إذا أفرط بالاحتقان في الأكثر فإن الهواء الذي يحيط بنا أبرد بكثير من ذلك المزاج فإذا وصل إليه باستنشاق الرئة ومن مسام منافس النبض وصدمه وخالطه منعه عن الاستحالة إلى النارية الاحتقانية المؤدية إلى سوء مزاج يزول به عن الاستعداد لقبول التأثير النفساني الذي هو سبب الحياة ، وأما التنقيه فهي باستصحابه عند ردّ النفس لما سلّمته إليه القوة المميّزة من البخار الدخاني الذي نسبته إلى الروح نسبة الخلط الفضلي إلى البدن. فكما أن التعديل هو بورود الهواء على الروح عند الاستنشاق فالتنقية بصدوره عنه عند ردّ النفس، وذلك أن الهواء المستنشق إنما يحتاج إليه في تعديله أول وروده لكونه بارداً بالفعل فإذا استحال إلى كيفية الروح بالتسخّن لطول مكثه بطلت فائدته فاستغنى عنه

واحتيج إلى هواء جديد يدخل ويقوم مقامه فدعت الضرورة إلى إخراجه لإخلاء المكان لمعاقبه وليندفع معه فضول جوهر الروح . فهذا معنى قوله عليه‌السلام : وأعدّ الهواء متنسماً لساكنها . واعتبار إعداده لمنفعة الحيوان أعمّ مما ذكرنا فإنه أيضاً معدّ لسائر الأمزجة المعدنية والنباتية والحيوانية التي يحتاج الإنسان في بقائه إليها وكونه عنصراً لها ومعتبراً في بقائها . وعند ملاحظة هذه المنافع عن الهواء يظهر أثر نعمة الله به .

البحث السابع : في إخراجه تعالى أهل الأرض إليها بعد تمام مرافقها كما قال تعالى : ﴿ **والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين** ﴾[1]. والإشارة بأهلها المخرجين إليها إلى الحيوان مطلقاً .

واعلم أن أول ارتفاقهم بها أن جعلها قراراً لهم صالحاً للسكنى عليها كما قال تعالى : ﴿ **الذي جعل لكم الأرض فراشاً** ﴾ ولكونها فراشاً شرائط :

أحدها : أن تكون ساكنة ليصح الاستقرار عليها والتصرف فيها بحسب الاختيار وموافقة المصلحة دون كونها متحركة .

الثاني : أن تكون خارجة من الماء وذلك أن الإنسان وغيره من الحيوان البري لا يمكنه أن يعيش في الماء فاقتضت عناية الحق سبحانه بالحيوان أن أبرز بعضها من الماء ليعيش فيه ويتصرف عليه .

الثالث : أن لا تكون في غاية الصلابة كالحجر وإلاّ لكان النوم والمشي عليها مؤلماً، وأيضاً لم يكن لينبت فيها أنواع النبات والأشجار ، وأيضاً لكانت تسخن في الصيف كثيراً وتبرد كثيراً في الشتاء فما كانت تصلح لسكنى الحيوان ، وأيضاً كان يتعذر حفرها وتركيب بعضها ببعض .

الرابع : أن لا تكون في غاية الرخاوة كالماء وغيره من المائعات التي يغوص فيه الإنسان.

---

(١) ١٥ ـ ١٩ .

الخامس : أنه سبحانه لم يخلقها في غاية الشفافية واللطافة فإنها إن كانت مع ذلك جسماً سيّالاً كالهواء لم يتمكن من الاستقرار عليه، وإن كان جسماً ثابتاً صيقلاً براقاً احترق الحيوان وما عليها بسبب انعكاس أشعة الشمس عليها كما يحترق القطن إذا قرب من المرايا المحاذية للشمس والبلّور لكنه خلقها غبراء ليستقر النور على وجهها فيحصل فيها نوع من السخونة ، وخلقها كثيفة لئلا تنعكس الأشعة منها على ما فيها فتحرقه فصارت معتدلة في الحر والبرد تصلح أن تكون فراشاً ومسكناً للحيوان .

المنفعة الثانية : خلق الجبال فيها وتفجيرها بالماء كما سبقت الإشارة إليه .

المنفعة الثالثة : ما يتولد فيها من المعادن والنبات والحيوان وفي أنواع كل من هذه الموجودات واختلاف أصنافه وألوانه وروائحه وطعومه ولينه وصلابته وملاسته وخشونته ما لا يحصى من المنافع التي يحتاج إليها الإنسان في بقائه وصلاح حاله .

المنفعة الرابعة : كونها أصلاً لبدن الإنسان ، وذلك أن الماء لرقته ورطوبته لا يحفظ الشكل والتصوير فإذا خلط بالتراب حصل له قوام واستمساك وحصل قبول الأشكال والتخطيط كما قال تعالى : ﴿ **إني خالق بشراً من طين** ﴾ .

المنفعة الخامسة: قبولها للحياة بعد الموت كما قال تعالى : ﴿ **وآية لهم الأرض الميتة أحييناها** ﴾ .

البحث الثامن : في تمجيده تعالى باعتبار إنشائه للسحاب والبرق ، والنظر في وجه الحكمة فيه وفي أصله وفي حياة الأرض به : أما وجه الحكمة في إنشائه فكونه مادة لما ينبت في الأرض الجرز مما هو قوام بدن الحيوان وغذاء له كما أشار إليه عليه السلام بقوله : ثم لم يدع جرز الأرض التي تقصر مياه العيون والأنهار عنها ولا تجد جداول الأرض ذريعة إلى بلوغها إلى قوله : وجعل ذلك بلاغاً للأنام ورزقاً للأنعام . ونحوه قوله تعالى : ﴿ **أو لم يروا أنّا**

نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون ﴾(١).

البحث التاسع : في تمجيده باعتبار تخريقه للفجاج في آفاقها : أي الطرق الواسعة في نواحيها كما قال تعالى : ﴿ **وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلّهم يهتدون** ﴾(٢) ثم باعتبار إقامته المنار للسالكين فيها . والإشارة بالمنار إما إلى النجوم كما قال تعالى : ﴿ **وعلامات وبالنجم هم يهتدون** ﴾ أو إلى الجبال .

الفصل الثاني : في تمجيده تعالى باعتبار خلقه لآدم واختياره له وإتمام نعمته عليه ، ومقابلته بالعصيان ومقابلة عصيانه بقبول توبته وإهباطه إلى الأرض ، وإكرام ذريته بعده ببعثه الأنبياء منهم وإليهم ، وقسمته بينهم معيشتهم وآجالهم بالقلة والكثرة وابتلائه لهم بذلك ، وهو من قوله : فلما مهّد أرضه وأنفذ أمره . إلى قوله : وقاطعاً لمرائر أقرانها .

واعلم أن الكلام في قصة آدم عليه السلام قد سبق في الخطبة الأولى مستوفى فلا نعيده غير أن في هذا الكلام فوائد :

الفائدة الأولى : معنى قوله : مهّد أرضه : أي جعلها مهاداً كقوله تعالى : ﴿ **ألم نجعل الأرض مهاداً** ﴾ أو جعلها مهداً كقوله تعالى : ﴿ **جعل لكم الأرض مهداً** ﴾ وعلى التقدير الأول أراد أنه لما خلقها بحيث يسهل على العباد أن يتصرفوا فيها بالقعود والقيام والزراعة وسائر جهات المنفعة وأنفذ أمره في خلق آدم خلقه بعد ذلك ، وعلى التقدير الثاني يكون لفظ المهد استعارة لها ملاحظة لتشبيهها بمهد الصبي في كونه محل الراحة والنوم .

الفائدة الثانية : قوله : وأنفذ أمره : أي في إيجاد مخلوقاته وتمامها فحكم على العالم بالتمام باختيار نوع الإنسان الذي هو تمام دائرة الوجود فقال له كنْ فكان.

---

(١) ٣٢ - ٢٧ .
(٢) ٢١ - ٣٢ .

الفائدة الثالثة : قوله : خيرة من خلقه نصب على الحال ويحتمل النصب على المصدر والشاهد على كونه خيرة الله من خلقه قوله تعالى : ﴿ **إن الله اصطفى آدم** ﴾ وقوله : ﴿ **ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممّن خلقنا تفضيلا** ﴾[1] وبيان هذا التكريم من وجهين :

أحدهما : قال أبو يزيد البسطامي : إن أنواع كرامات الله تعالى في حق البشر غير متناهية كما قال تعالى : ﴿ **وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها** ﴾ هذا على سبيل الإجمال أما التفصيل فمن وجوه :

الأول : أنه سبحانه يمطر كل ساعة على المتوكلين مطر الكفاية كما قال تعالى : ﴿ **ومن يتوكل على الله فهو حسبه** ﴾.

الثاني : أنه يمطر كل ساعة على المطيعين مطر المودة كما قال تعالى : ﴿ **سيجعل لهم الرحمٰن ودّاً** ﴾[2].

الثالث : أن يمطر على المجتهدين مطر الهداية كما قال تعالى : ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا** ﴾[3].

الرابع : أنه يمطر على الشاكرين مطر الزيادة كما قال : ﴿ **لئن شكرتم لأزيدنكم** ﴾.

الخامس : أنه يمطر على المتذكرين مطر البصيرة كما قال تعالى : ﴿ **إن الذين اتقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان فإذا هم مبصرون** ﴾[4].

الثاني : أن التكريم لآدم عليه السلام وذريته إما بأحوال داخلة في الإنسان أو خارجة عنه والداخلة فيها إما بدنية أو غيرها : أما البدنية التي أُكرم بها فأمور :

---

(١) ١٧ - ٧٢.
(٢) ١٩ - ٩٦.
(٣) ٢٩ - ٦٩.
(٤) ٤٠ - ٦٦.

الأول : الصورة الحسنة كما قال تعالى : ﴿ **وصوّركم فأحسن صوركم** ﴾ .

الثاني : حسن القامة والتعديل كما قال تعالى : ﴿ **لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم** ﴾ وذلك أن الشيء كلما كان أكثر علواً وارتفاعاً كان أشرف في نوعه فإن أحسن الأشجار أعلاها امتداداً .

الثالث : أنه أكرمه بتمكينه من القيام والقعود والاستلقاء والانبطاح والاضطجاع وذلك أنه تعالى : ركب الخلق على أصناف أربعة :

أحدها : ما يشبه القائمين كالأشجار .

وثانيها : ما يشبه الراكعين كالبهائم .

وثالثها : ما يشبه الساجدين كالحشرات التي تدب على وجوهها وبطونها ، ومنها ما يشبه القاعدين كالجبال ثم إنه سبحانه خلق الإنسان قادراً على جميع هذه الهيئات ، ومكنه من ذكره على جميع هذه الأحوال كما قال تعالى : ﴿ **الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم** ﴾[1]. وأما الأحوال التي أكرم بها غير بدنية فأمور :

أحدها : الروح التي هي محل العلم بأشرف الموجودات ومبدئها وهو الله تعالى كما قال : ﴿ **ونفخ فيه من روحه** ﴾ وشرّفه بإضافة روحه إليه ، وبهذا التشريف تميّز عن سائر الموجودات في هذا العالم .

الثاني : العقل وشرفه من وجوه :

الأول : روي أن الله تعالى أوحى إلى داوُد عليه السلام إذا رأيت عاقلاً فكن له خادماً .

الثاني : قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : أول ما خلق الله العقل فقال له : أقبل فأقبل ثم قال له : أدبر فأدبر فقال : وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً أكرم عليّ

---

(١) ٣ - ١٨٨ .

منك ، بك آخذ وبك أعطي وبك أثيب وبك أعاقب . واعلم أن للعقل بداية ونهاية وكلاهما يسمّيان عقلاً :

أما الأول : فهو القوة المهيئة للعلوم الكلية الضرورية كما للطفل، وهو المشار إليه بقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

والثاني : العقل المستفاد وهو المشار إليه بقوله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي عليه السلام : إذا تقرّب الناس إلى خالقهم بأبواب البر فتقرب أنت إليه بعقلك تسبقهم بالدرجات والزلفى عند الناس في الدنيا وعند الله في الآخرة .

الثالث : العلم والحكمة التي هي ثمرة العقل كما قال تعالى : ﴿ **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات** ﴾[1] وقال : ﴿ **يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلاّ أولو الألباب** ﴾[2]، وسماه حياة ونوراً فقال : ﴿ **أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس** ﴾[3]. وأما التكرمة الخارجة عنه فأمور :

أحدها : أنه خلق ما سواه منفعة له فقال : ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً** ﴾ وقال : ﴿ **وسخّر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً** ﴾[4]. ففرش الأرض وجعل السماء سقفاً محفوظاً وجعل ما أخرج من الأرض رزقاً له وما أرسله من السحاب من ماء مادة لذلك كما قال تعالى : ﴿ **وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخّر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخّر لكم الأنهار** ﴾[5]. وأكرمه بخلق الشمس والقمر والنجوم كما قال : ﴿ **وسخّر لكم الشمس والقمر دائبين وسخّر لكم الليل والنهار** ﴾ وقوله : ﴿ **وجعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر** ﴾

---

(١) ٥٨ ـ ١٢.
(٢) ٢ ـ ٢٧٢.
(٣) ٦ ـ ١٢٢.
(٤) ١٨ ـ ٧.
(٥) ١٥ ـ ٣٧.

وقال: ﴿ **ولتعلموا عدد السنين والحساب** ﴾[1]، وأكرمه بخلق الأنعام فجعل منها غذاءه وملبوسه وراحته وجماله وزينته فقال: ﴿ **والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون** ﴾ إلى قوله: ﴿ **والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون** ﴾[2].

الثاني: روي عن أمير المؤمنين عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿ **ولقد كرمنا بني آدم** ﴾ أنه قال: بالدعوة إلى الجنة كما قال: ﴿ **والله يدعو إلى دار السلام** ﴾.

الثالث: أنه أكرمهم بتخيّر قلوبهم لمعرفته وألسنتهم لشهادته وأبدانهم لخدمته فشرفهم بتكليفه وبعثة الأنبياء إليهم من أنفسهم كما قال تعالى: ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم** ﴾[3]. ثم جعل آدم والأنبياء من ذريته أكرم عباده لديه فحباهم بالنبوة والرسالة كما قال تعالى: ﴿ **إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ذريّة بعضها من بعض** ﴾[4]. ثم فضّل أُولي العزم منهم فقال: ﴿ **واصبر كما صبر أُولو العزم من الرسل** ﴾ ثم فضّل بعضهم على بعض وهو الخليل والكليم والروح والحبيب فقال: ﴿ **تلك الرسل فضّلنا بعضهم على بعض منهم من كلّم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى بن مريم البيّنات وأيّدناه بروح القدس** ﴾[5]. ثم فضل محمداً صلى الله عليه وآله وسلم على الكل فقال: ﴿ **وكان فضل الله عليك عظيماً** ﴾[6]، وجعله غاية طينتهم وخاتمة كمالهم فقال: ﴿ **ولكن رسول الله وخاتم النبيين** ﴾[7].

---

(١) ١٧ ـ ١٢.
(٢) ١٦ ـ ٨.
(٣) ٩ ـ ١٢٩.
(٤) ٣ ـ ٣٠.
(٥) ٢ ـ ٢٥٤.
(٦) ١٢ ـ ١٤.
(٧) ٣٣ ـ ٤٠.

الفائدة الرابعة : قوله : وجعله أوّل جبلّته إشارة إلى أن آدم أول شخص تكون في الوجود من نوع الإنسان ، وقوله : والمخاطرة بمنزلته : أي عند الله وكونه مستحقاً للقرب منه ، وقوله : موافاةً لسابق علمه إشارة إلى أن وقوعه في الوجود بقدر عن ضابط القلم والقضاء الإلهي السابق .

الفائدة الخامسة : قوله : فأهبطه بعد التوبة . من قال : إن المراد بآدم هو نوع النفوس البشرية، وقد ثبت أنه حادث أو أنه هو الشخص الأول منها قال : إن التوبة قبل الإهباط هي التوبة بالقوة المعلومة لله من عصاة أولاد آدم التائبين إليه قبل إهباط نفوسهم من درجات عرفانه ، وإلفات وجوههم إلى عمارة الأرض ، والاشتغال بالحرث والنسل ، والأنبياء عليهم السلام يرجعون عن المباحات إلى ما هو الأولى والأهمّ من عبادة الله ومطالعة أنوار كبريائه ويعدّون ما رجعوا عنه ذنوباً ، ورجوعهم عنه توبة كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم :

إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة . وليس ذلك المستغفر منه إلّا اشتغال ذهنه بتدبير أمور الأرض وعمارتها واشتغاله بذلك عن الخلوة بالله واستشراق أنوار قدسه .

الفائدة السادسة : قوله : وليقيم الحجة به على عباده الذين بعث آدم حجة عليهم أما أولاده الموجودون في زمانه والمنقول أنه مات عن أربعين ولد ، أو من بلغته سنّته منهم بعد وفاته والمنقول أن الله تعالى أنزل من الأحكام تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وحروف المعجم في إحدى وعشرين ورقة ، وهو أول كتاب كان في الدنيا أجرى الله عليه الألسنة كلها .

الفائدة السابعة : قوله : ولم يخلهم بعد أن قبضه مما يؤكد عليهم حجة ربوبيته : أي أن حجة ربوبيته قائمة عليهم في كيفية تخليقه لهم، وخلق ما يستدلّون عليه به من صنعه كما قال تعالى : ﴿ **سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنه الحق** ﴾[1] الآية . وغيره من الآيات .

---

(1) ٤١ ـ ٥٣ .

وإنما يكون بعثه الأنبياء مؤكدة لتلك الحجج مذكرة للغافلين عنها بها ومنبهة على وجودها وموصلة بينهم وبين معرفته بما جاءت به من الكتب المنزلة والسنن الشرعية ، وقوله : بلغ المقطع عذره ونذره : أي إعذاره إلى الخلق وإنذاره لهم بلغ الغاية . ومقطع كل شيء غايته .

الفائدة الثامنة : تقدير الله أرزاقهم تقسيمه لها وإعطاء كل مخلوق ما كتب له في اللوح المحفوظ منها من قليل وكثير وضيّق وواسع ومتيسّر ومتعسر ومعاقبة الأضداد عليهم من تنغيص سعة الغنى بلواحق الفقر والفاقة كما قال : وبينما الإنسان في ملكه أصبح محتاجاً إلى الفلس . وكذلك إلحاقه السلامة في النعم بطوارق الآفات من غرق أو حرق أو غصب ظالم وغلب غاشم وكذلك وسعة الأرزاق وفرج أفراحها وتكديرها بغصص أحزانها وأتراحها ثم خلقه الآجال متفاوتة بالطول والقصر والتقدم والتأخّر .

الفائدة التاسعة : تقديره للموت متصلاً بأسبابها، ولما كان الأجل عبارة عن وقت ضرورةالموت وكانت أسباب حلول تلك الآفات هي بعض الأمراض أو القتل مثلاً لا جرم صدق أن الموت الذي هو عبارة عن مفارقة الأرواح لأجسادها متصلاً بتلك الأسباب ، واستعار لفظ الخلج وهو الجذب للموت ، ورشح بذكر الأشطان ، ووجه المشابهة ما يستلزمه الموت من قرب الأجل. كما يستلزمه الجاذب من قرب المجذوب إليه فقدّر الموت جاذباً للأجل بالحبال. كما يجذب بها الإنسان ما يريد . وأما كونه قاطعاً لمرائر أقرانها فاستعار أيضاً لفظ المرائر لأسباب العلاقة بين اقتران الآجال وهم المتقاربون في الزمان الواحد الذي يتصل بهم الأجل وتلك الأسباب كالصداقة والأُخوة وسائر أسباب العلاقة بين الناس ، وظاهر كون الموت قاطعاً لتلك المرائر .

الفائدة العاشرة : أنه عليه السلام جعل قسمة الله تعالى للأرزاق وتقديرها بالكثرة والقلة والضيق والسعة صورة ابتلاء من الله للشكر من الأغنياء والصبر من الفقراء وقد أشرنا في قوله : ألا إن الدنيا دار لا يسلم منها إلاّ فيها . إلى أن المراد بالابتلاء من الله معاملته تعالى لعباده معاملة المبتلين المختبرين لأنه

سبحانه عالم الخفيّات والسرائر فلا يتصور في حقه الاختبار حقيقة ؛ إلاّ أنا نزيده هاهنا بياناً فنقول : إن العبد إذا تمكن في خاطره أن ما يفعله الله من إفاضة نعمه عليه أو حرمانه لها ابتلاء لشكره أو صبره فشكر أو صبر حصل من شكره أو صبره على ابتلائه ملكات فاضلة في نفسه يستعد بها لمزيد الكمال، وتمام النعمة كما قال تعالى : ﴿ **لئن شكرتم لأزيدنكم** ﴾ وقال : ﴿ **وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنّا لله وإنّا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** ﴾[1]. وأما التحقيق في أمثال هذه القسمة من ضيق رزق أو سعة أو طول أجل أو قصره أو معاقبته شدة لرخاء وحزناً لفرح فهو أن لكل واحد من هذه الأمور أسباب قد تخفى على من تعرض له ولا بد من انتهائها إلى قضاء الله فما عد منها خيراً فهو داخل في الإرادة الكلية للخير المطلق بالذات وما عدّ منها شراً فداخل في القضاء الإلهي بالعرض كما علم ذلك في مظانه ، وبالله التوفيق.

الفصل الثالث : في تمجيده سبحانه باعتبار كونه عالماً بالأشياء وعدّ من جزئياتها جملة هي من قوله : عالم السر من ضمائر المضمرين إلى قوله : أو ناشئة خلق وسلالة . ولنشر إلى ما عساه يشكل من ألفاظه :

الأول : خواطر رجم الظنون . لما كان الخاطر الظني للإنسان يتعلق بمظنون لا محالة بعد أن لم يكن أشبه تعلّقه به الرجم وهو الرمي بالحجر ونحوه فاستعير لفظه له، وإنما خصّ الظن بذلك دون العلم لما أن كثيراً ما يظنّ ما لا يجوز ظناً غير مطابق كما يظن ببعض الناس ما يقبح منه ويصل إليه بسببه أذى وإن لم يكن صدقاً فكان أشبه الأشياء برميه بالحجر المستلزم لأذاه .

الثاني : عقد عزيمات اليقين ما انعقد في النفس من العزم عن يقين .

---

(١) ٢ - ١٥٢.

الثالث : ومسارق إيماض الجفون : لما أشبه شعاع البصر البرق في وميضه واختفائه عند فتح الجفون وطبقها استعار لفظ الوميض لبروزه ولفظ المسارق لمخارجه .

الرابع : استعار لفظ الأكنان للقلوب بالنسبة إلى ما أخفته من الأسرار ، ولفظ الغيابات للغيوب ، ووجه المشابهة كون القلوب حافظة كالبيوت ، وكون الظلمات مانعة من إدراك المبصرات كما تمنع الغيوب إدراك ما فيها .

الخامس : مصائف الذر ومشاتي الهوام : بيوتها وإشرابها الصيفية والشتوية من بطن الأرض الواقية لها حرّ الصيف وبرد الشتاء . ورجع الحنين من المولهة : ترديد صوت الثكلى في بكائها وحنينها إلى من فقدته .

السادس : ولائج غلف الأكمام . إنما حسنت الإضافة هنا لأن كل كمّ غلاف ولا ينعكس فجاز تخصيص العام بالإضافة إلى بعض جزئياته .

السابع : محطّ الأمشاج : محل نزول النطف من الأصلاب ، ومساربها ، وهي الأوعية التي يتسرب فيها المني والأخلاط التي تتولد عنها .

الثامن : وما تسفي الأعاصير بذيولها : أي ما تثيره وتذروه من التراب ، واستعار لفظ الذيول لما أخذ الأرض منها .

التاسع : استعار لفظ العوم لدخول عروق النبات في نواحي الأرض لملاحظة شبهها بالماء ، وروي : بنات الأرض بتقديم الباء . وهي الهوام التي تنشأ في الرمل وتغوص فيه وتسير كالحلكة ، وهي دويبة كالعظاءة دون الشبر صفراء ملساء تستعملها العرب للسمنة وكنوع من الحيات وغيرها .

العاشر : وتغريد ذوات المنطق استعار لفظ المنطق للطير ، ووجه المشابهة أن مدلول تغريدها معلوم لله فأشبه النطق المفيد من الإنسان .

الحادي عشر : ما أوعبته الأصداف كاللؤلؤ والمرجان وما حضنت عليه أمواج البحار من لؤلؤ وحيوان وغيرهما ، ولفظ الحضن مستعار للأمواج

ملاحظة لشبهها بالحواضن في انطباقها على البيض والفراخ .

الثاني عشر : سبحات النور ما تنزّه منه عن كدر الظلمة ، ولفظ النور مستعار لمعارف جلال الله ، والضمير في قوله : عليها . يرجع إلى الأرض ، وقرارة النطفة : مستقرها من الأرحام ، ولفظ النقاعة استعارة لمحل دم الحيض ، والمضغة الولد في بعض أطوار خلقته كما عرّفناه قبل ، وناشئة الخلق : ما نشأ من مخلوقاته .

الثالث عشر : لم يلحقه في ذلك كلفة . إلى قوله : ولا فترة. الكلفة : كون الفعل مستلزماً لفاعله نوع مشقة وتلك المشقة إمّا لضعف قوة الفاعل أو ضعف آلته أو قصور علمه عن تصوّر ما يفعل ، والباريء تعالى منزّه عن هذه الأمور لاستلزامها الحاجة ، وكذلك العارضة من عوارض موانع العلوم ونفوذها يستلزم وجود المقام والمثل وقد تنزّه قدس الحق عنهما، وأما الملالة فالمفهوم انصراف النفس عن الفعل بسبب تحلّل الأرواح الدماغية وضعفها عن العمل أو لعارض آخر لها ، وقد علمت أنها من لواحق الأجسام وكذلك الفترة . والباريء منزه عنهما .

الرابع عشر :قوله: بل نفذ فيهم علمه. إلى قوله: وغمرهم فضله. أثبت كل واحدة من هذه القرائن الأربع مقابلة للأربع التي نفاها : فنفاذ علمه فيهم مقابل لما نفاه من لحوق الكلفة في علمه بهم ، وإحصاؤهم بعده مقابل للأعراض العارضة في حفظ خلقه ، ووسع عدله لهم مقابل لنفي اعتوار الملالة في تنفيذ أموره وتدبير مخلوقاته إذ كان معنى عدله فيهم وضعه لكل موجود في مرتبته وهبته له ما يستحقه من زيادة ونقصان مضبوطاً بنظام الحكمة واعتراض الملالة سبب لاختلاف نظام الفعل ، وقوله : وغمرهم فضله مقابل لنفي الفترة فإن فتور الفاعل عن الفعل مانع له عن تتمة فعله وتمام وجوده ، وقوله : مع تقصيرهم عن كنه ما هو أهله تنبيه على حقارة عبادتهم في جنب عظمته واستحقاقه لما هو أهله ليدوم شكرهم وثناؤهم ولا يستكبروا شيئاً من طاعتهم ، وبالله التوفيق.

الفصل الرابع : في تمجيده خطاباً لـه ودعاء وطلبـاً لجزاء مـا سبق من ثنائه وتعديد أوصافه الجميلة وهو رضاه عنه وإغناؤه من غيره . وفيه إشارات :

الأولى : قوله : أنت أهل الوصف الجميل والتعداد الكثير . إشارة إلى أنه تعالى بحسب استحقاقه الوصف بأشرف طرفي النقيض كان أهل الـوصف الجميل وباعتبار تعدد ثنائه وحمده بالنظر إلى كل جزئي من جزئيات نعمه هـو أهل التعداد الكثير .

الثانية : وقـد بسطت لي فيمـا لا أمدح بـه غيرك ولا أثني بـه على أحد سـواك إشارة إلى إذنـه له في شكـره والثناء عليـه بـالأوصـاف الجميلة التي لا يستحقّها حقيقة إلّا هو ولا ينبغي أن تطلق إلّا له . ومعنى هذه الإذن إمـا إلهام حسن شكر المنعم ومدحه وإذ لا منعم في الحقيقة إلّا هو فلا يستحق التمجيد المطلق إلّا هو . ومخاطبته له بإيجاب الشكر كقـوله تعـالى : ﴿ **واشكروا الله إن كنتم إيّاه تعبدون** ﴾ وبالتسبيح في قـوله تعـالى : ﴿ **ومن آناء الليـل فسبّح وأطراف النهار لعلك ترضى** ﴾ وقولـه : ﴿ **وسبّحوه بكـرة وأصيلا** ﴾ واستعـار لفظ المعادن للخلق ، ووجه المشابهة أن معدن الشيء كما أنه مظنة المطلوب منهـا كـذلـك الخلق أربـاب النعم الفـانيـة مـظانّ خيبـة طـالبهـا من أيـديهم وحرمانها ، وكذلـك مواضـع الريبـة أي الشكّ في منعهم وعطائهم لهـا ولذلـك فسـره بقولـه : وعدلت بلسـاني من مدائـح الآدميّين والثناء على المـربـوبين المخلوقين .

الثالثة : قـوله : دليـلاً نصب على الحال أو المفعـول ، والمراد بـرجائـه دليلاً على ذخائر الرحمة رجاؤه أن يسوقه بهدايته إلى وجوه الاستعدادات إلى رحمته ويستر عليه بتهيئه للالتفات إليه عن كل خاطر سواه فإن كل خاطر سـوى الحق سبحانه ذنب في حق مثله عليه السلام ، ولفظ الذخيرة والكنوز مستعاران لجوده .

الرابعة : قوله : هذا مقام من أفردك بالتـوحيد . إشـارة إلى مقامـه بين يديه بهذا الذكر والتوحيد في خطبته ، وهو توطئة لذكر مطلوبه واستنزال رحمة

الله ثم قال : ولي فاقة إليك فذكر وجه استحقاقه لجوده أولاً وقصر سدّ تلك الفاقة على فضله إذ لم تكن فاقة في أمر دنيوي يمكن المخلوقين الإتيان به ثم أردفه بذكر مطلوبه وهو رضا الله وإغناؤه عمّن سواه وظاهر أن حصولها مستلزم لما رجاه الله دليلاً عليه من ذخائر رحمته ، وكنوز مغفرته . وبالله العصمة والتوفيق .

٨٩ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

لمَّا أُريدَ على البَيْعة بعد قتل عثمانَ

دَعُونِي وَٱلْتَمِسُوا غَيْرِي ، فَإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْراً لَهُ وُجُوهٌ وَأَلْوَانٌ ، لاَ تَقُومُ لَهُ ٱلْقُلُوبُ ، وَلاَ تَثْبُتُ عَلَيْهِ ٱلْعُقُولُ ، وَإِنَّ ٱلآفَاقَ قَدْ أَغَامَتْ ، وَٱلْمَحَجَّةَ قَدْ تَنَكَّرَتْ ، وَٱعْلَمُوا إِنِّي إِنْ أَجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ ، وَلَمْ أُصْغِ إِلَى قَوْلِ ٱلْقَائِلِ ، وَعَتْبِ ٱلْعَاتِبِ ، وَإِنْ تَرَكْتُمُونِي فَأَنَا كَأَحَدِكُمْ ، وَلَعَلِّي أَسْمَعُكُمْ وَأَطْوَعُكُمْ لِمَنْ وَلَّيْتُمُوهُ أَمْرَكُمْ ، وَأَنَا لَكُمْ وَزِيراً خَيْرٌ لَكُمْ مِنِّي أَمِيراً .

أقول : حاصل هذا الفصل أنه لا بد لكل مطلوب على أمر من تعزّز فيه وتمنّع . والحكمة في ذلك أن الطالب له يكون بذلك أرغب فيما يطلب فإن الطبع حريص على ما منع سريع النفرة عما سورع إلى إجابته فيه فأراد عليه السلام التمنع عليهم لتقوى رغبتهم إليه فإنه لم يصل إليه هذا الأمر إلاّ بعد اضطراب في الدين في قتل عثمان والجرأة على الدم فاحتاج في تقويم الخلق وردّهم إلى قواعد الحق إلى أن يزداوا فيه رغبة بهذا الكلام ومثله فقال : دعوني والتمسوا غيري . ألا ترى أنه نبههم بعد هذا التمنع على أن هاهنا أموراً صعبة مختلفة يريد أن ينكرها عليهم ويقاوم ببعضهم فيها بعضاً ويحملهم على الصلاح ، وجعل استقباله لتلك الأمور الصعبة علّة لاستقالته من هذا الأمر فقال : فإنّا مستقبلون أمراً له وجوهٌ وألوان لا تقوم له القلوب : أي لا تصبر ولا تثبت عليه العقول . بل تنكره وتأباه لمخالفته الشريعة ومضادته لنظام العالم، وذلك الأمر هو ما كان يعلمه من اختلاف الناس عليه بضروب من

التأويلات الفاسدة والشبهات الباطلة كتهمة معاوية وأهل البصرة له بدم عثمان وكتأويل الخوارج عليه في الرضا بالتحكيم ونحو ذلك ، وهو المكنى عنه بالوجوه والألوان كناية بالمستعار .

وقوله : وإنّ الآفاق قد أغامت والمحجة قد تنكرت .

استعار لفظ الغيم لما غشى آفاق البلاد وأقطار القلوب المتغيّرة العازمة على الفساد من ظلمات الظلم والجهل ، ووجه المشابهة ما تستلزمه هذه الظلمات من توقع نزول الشرور منها كما يتوقع نزول المطر والصواعق من الغيم ، وأشار بالمحجة إلى واضح طريق الشريعة ، وتنكرها جهل الناس بها وعدم سلوكهم لها .

وقوله : واعلموا إلى قوله : عتب العاتب .

لما تمنع عليهم وعلم صدق رغبتهم فيه شرع في تقرير ما يريد أن يفعله تقريراً إجمالياً عليهم مع تمنعٍ دُوين الأول فأعلمهم أنه على تقدير إجابتهم إلى هذا الأمر لا يركب بهم إلّا ما يعلم من أمر الشريعة ولا يصغي إلى قول قائل خالف أمر الله لمقتضى هواه ، ولا عتب عاتب عليه في أنه يفضله أو لم يرضه بما يخالف ما يعلم من الشريعة إذ القائل والعاتب في ذلك مفتر على الله وعاتب عليه، ولقد وفى عليه السلام بما وعدهم به من ذلك كما سنذكره في قصة أخيه عقيل. لما استماحه صاعاً من برّ أو شعير فحمى له حديدة وقرّبها منه فأنَّ عقيل فقال له : ثكلتك الثواكل أتإنّ من حديدة أحماها إنسان للعبه ولا تإنّ من نار أجّجها جبّارٌ لغضبه . ولفظ الركوب مستعار لاستوائه على ما يعلم .

وقوله : وإن تركتموني إلى آخره .

أي كنت كأحدكم في الطاعة لأميركم بل لعلي أكون أطوعكم له : أي لقوة علمه بوجوب طاعته الإمام، وإنما قال لعلي لأنه على تقدير أن يولّوا أحداً يخالف أمر الله لا يكون أطوعهم له. بل أعصاهم واحتمال توليتهم لمن

هو كذلك قائم فاحتمال طاعته وعدم طاعته له قائم فحسن إيراد لعل ، والواو في قوله : وأنا . للحال ، ووزيراً وأميراً حالان ، والعامل ما تعلّق بهما الجار والمجرور ، وأراد الوزير اللغوي وهو المعين والظهير الحامل لوزر من يظاهره وثقله ، وظاهر أنه عليه السلام كان وزيراً للمسلمين وعضداً لهم ، والخيريّة هيهنا تعود إلى سهولة الحال عليهم في أمر الدنيا فإنه إذا كان أميراً لهم حملهم على ما تكره طباعهم من المصابرة في الحروب والتسوية في العطايا ومنعهم ما يطلبون مما فيه للشريعة أدنى منع ، ولا كذلك إذا كان وزيراً لهم فإن حظ الوزير ليس إلّا الشور والرأي الصالح ، والمعاضدة في الحروب. وقد يخالف في رأيه حيث لا يتمكن من إلزام العمل به. وإنما كان هذا لتمنّع دوين الأول لأن قوله : إن أجبتكم فيه إطماع لهم بالإجابة . وبالله التوفيق .

٩٠ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

أَمَّا بَعْدُ : أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ، فَأَنَا فَقَأْتُ عَيْنَ ٱلْفِتْنَةِ ، وَلَمْ تَكُنْ لِيَجْرُؤَ عَلَيْهَا أَحَدٌ غَيْرِي ، بَعْدَ أَنْ مَاجَ غَيْهَبُهَا ، وَٱشْتَدَّ كَلَبُهَا ، فَاسْأَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي ، فَوَٱلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلسَّاعَةِ ، وَلَا عَنْ فِئَةٍ تَهْدِي مَائَةً وَتُضِلُّ مَائَةً إِلَّا أَنْبَأْتُكُمْ بِنَاعِقِهَا، وَقَائِدِهَا وَسَائِقِهَا ، وَمُنَاخِ رِكَابِهَا، وَمَحَطِّ رِحَالِهَا ، وَمَنْ يُقْتَلُ مِنْ أَهْلِهَا قَتْلاً ، وَيَمُوتُ مِنْهُمْ مَوْتاً ، وَلَوْ قَدْ فَقَدْتُمُونِي وَنَزَلَتْ بِكُمْ كَرَائِهُ ٱلْأُمُورِ ، وَحَوَازِبُ ٱلْخُطُوبِ ، لَأَطْرَقَ كَثِيرٌ مِنَ ٱلسَّائِلِينَ وَفَشِلَ كَثِيرٌ مِنَ ٱلْمَسْؤُولِينَ ، وَذٰلِكَ إِذَا قَلَّصَتْ حَرْبُكُمْ ، وَشَمَّرَتْ عَنْ سَاقٍ ، وَضَاقَتِ ٱلدُّنْيَا عَلَيْكُمْ ضِيقاً تَسْتَطِيلُونَ مَعَهُ أَيَّامَ ٱلْبَلَاءِ عَلَيْكُمْ ، حَتَّى يَفْتَحَ ٱللَّهُ لِبَقِيَّةِ ٱلْأَبْرَارِ مِنْكُمْ .

إِنَّ ٱلْفِتَنَ إِذَا أَقْبَلَتْ شَبَّهَتْ ، وَإِذَا أَدْبَرَتْ نَبَّهَتْ ، يُنْكَرْنَ مُقْبِلَاتٍ ، وَيُعْرَفْنَ مُدْبِرَاتٍ ، يَحُمْنَ حَوْلَ ٱلرِّيَاحِ ، يُصِبْنَ بَلَداً وَيُخْطِئْنَ بَلَداً . أَلَا إِنَّ أَخْوَفَ ٱلْفِتَنِ عِنْدِي عَلَيْكُمْ فِتْنَةُ بَنِي أُمَيَّةَ ، فَإِنَّهَا فِتْنَةٌ عَمْيَاءُ مُظْلِمَةٌ : عَمَّتْ خُطَّتُهَا وَخَصَّتْ بَلِيَّتُهَا ، وَأَصَابَ ٱلْبَلَاءُ مَنْ أَبْصَرَ فِيهَا ، وَأَخْطَأَ ٱلْبَلَاءُ مَنْ عَمِيَ

عَنْهَا . وأَيْمُ ٱللَّهِ لَتجِدُنَّ بَنِي أُمَيَّةَ لَكُمْ أَرْبَابَ سُوءٍ بَعْدِي كَالنَّابِ ٱلضَّرُوسِ : تَعْذِمُ بِفِيهَا ، وَتَخْبِطُ بِيَدِهَا ، وَتَزْبِنُ بِرِجْلِهَا ، وَتَمْنَعُ دَرَّهَا . لَا يَزَالُونَ بِكُمْ حَتَّى لَا يَتْرُكُوا مِنْكُمْ إِلَّا نَافِعاً لَهُمْ ، أَوْ غَيْرَ ضَائِرٍ بِهِمْ ، وَلَا يَزَالُ بَلَاؤُهُمْ حَتَّى لَا يَكُونَ ٱنْتِصَارُ أَحَدِكُمْ مِنْهُمْ إِلَّا كَٱنْتِصَارِ ٱلْعَبْدِ مِنْ رَبِّهِ ، وَٱلصَّاحِبِ مِنْ مُسْتَصْحِبِهِ .

تَرِدُ عَلَيْكُمْ فِتْنَتُهُمْ شَوْهَاءَ مَخْشِيَّةً ، وَقِطَعاً جَاهِلِيَّةً ، لَيْسَ فِيهَا مَنَارُ هُدىً ، وَلَا عَلَمٌ يُرَى ، نَحْنُ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ مِنْهَا بِمَنْجَاةٍ ، وَلَسْنَا فِيهَا بِدُعَاةٍ ، ثُمَّ يُفَرِّجُهَا ٱللَّهُ عَنْكُمْ كَتَفْرِيجِ ٱلْأَدِيمِ : بِمَنْ يَسُومُهُمْ خَسْفاً ، وَيَسُوقُهُمْ عُنْفاً ، وَيَسْقِيهِمْ بِكَأْسٍ مُصَبَّرَةٍ ، لَا يُعْطِيهِمْ إِلَّا ٱلسَّيْفَ ، وَلَا يُحْلِسُهُمْ إِلَّا ٱلْخَوْفَ ، فَعِنْدَ ذٰلِكَ تَوَدُّ قُرَيْشٌ ، بِالدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، لَوْ يَرَوْنَنِي مَقَاماً وَاحِداً وَلَوْ قَدْرَ جَزْرِ جَزُورٍ ، لِأَقْبَلَ مِنْهُمْ مَا أَطْلُبُ ٱلْيَوْمَ بَعْضَهُ فَلَا يُعْطُونَنِي .

أقول : فقأت عينه : عيّرتها. وماج : اضطرب . والغيهب : الظلمة ؛ والكلب : الشر والكلب : داء معروف . والفئة : الطائفة . وناعقها : الداعي لها . والمناخ بالضم : محل البروك . وحوازب الخطوب : ما حزب منها : أي أصاب . والتقلص : التقبض . وشبّهت : اشتبهت وأوقعت الشبهة . وحام الطائر : دار. والخطة . الحال والأمر . والناب : الناقة المسنّة . والضروس : التي تعضّ حالبها. والعذم : العض وهو الكدم أيضاً . والزبن : الدفع. وشوها : جمع شوهاء وهي قبيحة المنظر. وسامه خسفاً : أولاه ذلاً . والعنف : شدة السوق. وتحلسهم : أي تلبسهم الحلس وهو الكساء تحت بردعة البعير . والجزر : القطع ومنه سميت الجزور لما ينحر من الإبل .

ومقصود هذا الفصل التنبيه على فضيلته وشرف وقته به ، وعلى رذيلة بني أُمية بذكر فتنتهم وما يكون منهم ليشتد النفار عنهم وتقوى الرغبة إليه من وجهين :

أحدهما : بإخباره عما سيكون .

والثاني : بذكر الشرور من غيره. فقوله : فأنا فقأت عين الفتنة . إشارة إلى فتنة أهل البصرة وغيرها ، واستعار لها لفظ العين، وإنما خصّ العين لأنها أشرف عضو في الوجه ، وبها تصرف الشخص وحركته ، ورشح الاستعارة بذكر الفقاء وكنى به عن زوال فتنتهم بسيفه ، وقوله : ولم يكن ليجترىء عليها أحد غيري : أي إن الناس كانوا لا يتجاسرون على قتال أهل القبلة ويخافون من ذلك الحرج والإثم، ولا يعلمون كيفية قتالهم هل يتّبعون مدبرهم وهل يجهزون على جريحهم وهل تسبى ذراريهم وتقسم أموالهم إذا بغوا أم لا. حتى أقدم عليه السلام على فتنتهم ففقأ عينها فسكنت بعد هياجها ، ومبدأ ذلك حرب عائشة ، وقد صرّح عليه السلام بذلك في ألفاظ أخرى فقال :

أما بعد فأنا فقأت عين الفتنة شرقيّها وغربيّها ومنافقها ومارقها لم يكن ليجتري عليها غيري ولو لم أكن لما قوتل أصحاب الجمل ولا صفين ولا أصحاب النهر ، ويحتمل أن يكون المراد فقأت عين أهل الفتنة فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه ويكون فقاؤه لعيونهم كناية عن قتلهم .

وروي أن من المتوقفين عن الحرب الأحنف بن قيس وجماعه معه ، وكنى بتموّج غيهبها عن انتشار ظلمات الشبهة عن تلك الفتن في أذهان الناس فجهلوا أن خلاف طلحة وخروج عائشة كان حقاً أو باطلاً فكان ذلك سبباً لاضطرابهم وقتالهم وقتلهم ، وكذلك كنى باشتداد كلبها عن شدة ما وقع منها من الشرور ، وكلب أهلها وحرصهم على القتل والقتال كناية بالمستعار في الموضعين .

وقوله : فاسألوني. إلى قوله : ومن يموت منهم موتاً .

تعرض للأسئلة عما سيكون ولم يكن ليجترىء على ذلك أحد غيره من بين سائر الصحابة والتابعين . ولو ادّعى غير ذلك لكذبه العيان وفضحه الامتحان، وروي أن قتادة دخل الكوفة فالتفت عليه الناس فقال : سلوني عما شئتم . وكان أبو حنيفة حاضراً وهو إذن غلام حدث السن فقال : سلوه عن

نملة سليمان أكانت ذكراً أم أنثى . فسألوه فانقطع فقال أبوحنيفة : كانت أُنثى . فقيل له : بم عرفت ذلك فقال : من كتاب الله ، وهو قوله : ﴿ **قالت نملة** ﴾ ولو كان ذكراً لقال : قال نملة وذلك أن النملة تقع على الذكر والأُنثى كالحمامة والشاة ، وإنما يميّز بينهما بعلامة التأنيث فانظر إلى هذا المعجب بنفسه كيف انقطع عن سؤال يمكن الفطن أن يجيب عنه بأدنى سعي فكيف به إذا سئل عن الأمور المستقبلة التي لا يتنزّلها من عالم الغيب إلّا من أيّد بقوة إلهيّة تكشف لنور بصيرته معها حجب الأسرار ، وقد بيّنا فيما سبق وجه تمكنه من الإخبار عما سيكون وكيفية ذلك ، وأراد بالساعة القيامة ، واستعار أوصاف الإبل ورعاتها وأصحابها من الناعق والقائد والسائق والمناخ والركاب والرحال للفئة المهدية والضالة ومن يهديهم ويضلّهم ملاحظة لشبههم بالإبل في الاجتماع والانقياد لقائد وداعي ، والضمير في أهلها يعود إلى الفئة .

وقوله : ولو قد فقدتموني . إلى قوله : المسؤولين .

كرائه الأمور ما يكرهون منها وحوازب الخطوب ما يصيبهم من الأمور العظيمة المهمة وإطراق السائلين لحيرتهم في عواقب تلك الخطوب وما يكون منها وكيفية الخلاص وفشل كثير من المسؤولين : أي جبنوا عن ردّ الجواب لجهلهم بعواقبها وما يسألون عنه منها .

وقوله : ذلك .

إشارة في إطراق السائلين وفشل المسؤولين .

وقوله : إذا قلصت حربكم تفسير لكرائه الأمور النازلة بهم ، واستعار لفظ التقليص والتشمير عن ساق الحرب ووجه الاستعارة تشبيهها بالمجد في الأمر الساعي فيه ، وكما أنه إذا أراد أن يتوجه قلّص ثيابه وشمّرها عن ساقه لئلا تعوقه وتهيّأ واجمع عليه كذلك الحرب في كونها مجتمعة عن النزول بهم واللحوق لهم ، والواو في قوله : وضاقت للعطف على شمّرت ، وموضع تستطيلون النصب على الحال .

وقوله : حتى يفتح الله لبقية الأبرار منكم .

أي الذين يسلمون بني أُمية في دينهم وأعمارهم ويفتح الله لهم بهلاكهم وزوال دولتهم .

وقوله : إنّ الفتن إذا أقبلت تشبّهت [شبّهت خ].

أي تكون في مبدئها متشبهة بالحق في أذهان الخلق وإذا أدبرت نبّهت لأذهان الخلق على كونها فتنة بعد وقوع الهرج والمرج بين الناس واضطراب أمورهم بسببها وأكثر ما يكون ذلك عند إدبارها كالفساد في الدول مثلاً الذي يعرف به عامة الخلق كونها فتنة وضلالاً عن سبيل الله أكثر ما يكون في آخرها فيكون مؤذناً بزوالها وعلامة مبشّرة .

وقوله : ينكرن مقبلات ويعرفنَ مدبرات .

تفسير له : أي لا يعرف في مبدأ الحال كونها فتنة وتشتبه بكونها حقاً ودعاء هدى فإذا استعقبت عرفت أنها عن الحق بمعزل وأن دعاتها كانوا دعاة ضلالة .

وقوله : ويحمنَ حوم [حول خ] الرياح .

استعار لها لفظ الحوم ملاحظة لشبهها في دورانها الموحوم ووقوعها عن قضاء الله من دعاة الضلال في بلد دون بلد بالطائر والريح ، ولذلك شبهها بحومها وكذلك لفظ الخطأ .

وقوله : ألا إن أخوف الفتن عندي إلى آخر .

شروع في تعيين ما يريد أن يخبر به وهو بعض ما تعرّض للسؤال عنه ، وإنما كانت هذه الفتن أخوف الفتن لشدتها على الإسلام وأهله وكثرة بلوى أهل الدين فيها بالقتل وأنواع الأذى ويكفي في عظم تلك الفتنة هتكهم حرمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقتل الحسين عليه السلام وذريّته ، وهتك حرمة الإسلام بهدم الكعبة وحرقها ، وقتل ابن الزبير وسبّ علي عليه السلام ثمانين سنة ، وما انتشر من البلاء وعمّ بتوليتهم للحجّاج دماء المسلمين إلى غير ذلك من منكراتهم

المسطورة في التواريخ وأشار بكونها فتنة عمياء إلى ذلك ، واستعار لفظ العمى لها لجريانها على غير قانون حق كالأعمى المتصرف في حركاته في غير جادة ، أو لكونها لا يسلك فيها سبيل الحق كما لا يهتدى بالعين العمياء وكذلك لفظ المظلمة وقوله : عمّت خطتها لكونها ولاية عامة ، وخصّت بليّتها : أي بأهل التقوى وشيعة علي عليه السلام ، ومن بقي من الصحابة والتابعين الذين هم أعيان الإسلام .

وقوله : أصاب البلاء من أبصر فيها وأخطأ من عمي عنها : أي من اهتدى لكونها فتنة كان فيها في بلاء من نفسه ومنهم، أما من نفسه فالحزن الطويل من مشاهدة المنكر ، وأما منهم فلأن المتقي العالم بكونهم أئمة ضلال منحرف عنهم وغير داخل في تصرفهم الباطل ، وكان من شأنهم تتبّع من هذا حاله بالأذى والقتل فكان البلاء به أخصّ ، وأما من لم يهتد لكونها فتنة. بل كان في عمى الجهل عنها فهو منقاد لدعوتهم الباطلة منساق تحت رايات ضلالهم جار على وفق أوامرهم فكان سالماً من بلائهم ثم أردف ذلك بالقسم البار ليجدنّهم الناس أرباب سؤلهم وشبّههم في أفعالهم المضرة لهم بالناب الضروس لحالبها .

وأشار إلى وجه الشبهة بأوصاف : فكدمها وعضها وخبطها بيدها وزبها برجلها ومنعها درّها إشارة إلى جميع حركاتها المؤذية الرديئة وهي تشبه حركاتهم في الخلق بالأذى والقتل ومنع الوفد والاستحقاق من بيت المال ثم أردف ذلك بذكر غايتين لحركاتهم الشرية وبلائهم للناس :

إحداهما: أنهم لا يتركون من الأذى والقتل إلاّ أحد رجلين. إما نافع لهم سالك مسلكهم أو من لا يضرهم بإنكار منكر عليهم . ولا يخافون على دولتهم من سائر العوام والسوقة .

الثانية : أنه لا يكون انتصارهم منهم إلاّ مثل انتصار العبد من سيده والصاحب ممن استصحبه : أي كما لا يمكن العبد أن ينتصر من سيده والتابع المستصحب الذي من شأنه الضعف وعدم الاستقلال بنفسه، ممن يستصحبه

كذلك لا يمكن بقيّة هؤلاء أن ينتصروا من بني أمية أصلاً ، ويحتمل أن يريد هناك ما يشبه الانتصار من الغيبة ونحوها كما قال عليه السلام في موضع آخر : ويكون نصرة أحدكم كنصرة العبد من سيده إذا شهد أطاعه ، وإذا غاب اغتابه .

ثم أردف ذلك بذكر فتنتهم وأنها مشتملة على فتن فوق واحدة تأتي شآبيب وقطعاً كقطع الليل المظلم ، ومن روى فتنهم بلفظ الجمع فأراد جزئيات شرورهم في دولتهم ، واستعار لفظ الشوهاء لقبحها عقلاً وشرعاً ، ووجه المشابهة كونها منفوراً عنها كما أن قبيحة المنظر كذلك، وكذلك استعار لفظ القطع لورودها عليهم دفعات كقطع الخيل المقبلة في الغارة والحرب .

وأشار بكونها جاهلية إلى كونها على غير قانون عدلي كما أن حركات أهل الجاهلية كانت كذلك ، ولذلك قال : ليس فيها منار هدى ولا علم يرى : أي ليس فيها إمام عدل ، ولا قانون حق يقتدى به .

وقوله : نحن أهل البيت منها بمنجاة ولسنا فيها بدعاة .

أي إنّا ناجون من آثامها والدخول فيها والدعوة إلى مثلها ، وليس المراد أنّا سالمون من أذاهم غير داعين فيها إلى الحق بشهادة دعوة الحسين عليه السلام إلى نفسه وقتله وأولاده وهتك ذريّته ، ويحتمل أن يريد أنّا بمنجاة من آثامها ولسنا فيها بدعاة مطلقاً والحسين عليه السلام لم يكن داعياً منبعثاً من نفسه للدعوة ، وإنما كان مدعواً إلى القيام من أهل الكوفة ومجيباً لهم .

وقوله : ثم يفرّجها [يفرج خ] الله كتفريج الأديم : إلى قوله : إلاّ الخوف .

إشارة إلى زوال دولتهم بظهور بني العباس عليهم وقلعهم واستئصالهم وتتبعهم لآثارهم وحصول الفرج منهم لبقيّة الأبرار من عباد الله المقصودين بأذاهم كما يفرج الجلد : أي يشق عما فيه ، ولقد أولاهم بنوالعباس من الذل والهوان ، وأذاقوهم كأس العذاب طعوماً مختلفة ، وأروهم عيان الموت

ألواناً شتى كما هو مذكور في كتب التاريخ ، ولفظ الكأس والتصبير والعطية مستعار ، وكذلك لفظ التحليس . ووجه المشابهة جعلهم الخوف شعاراً لهم كما أن حلس البعير كذلك .

وقوله : حتى تودّ قريش ، إلى آخره .

إشارة إلى غاية هذه الفرقة المتقلّبة من قريش على هذا الأمر أي أن حالهم في التراذل والضعف عن محاربتهم ينتهي إلى أن يحبّوا رؤيته مقاماً واحداً مع أنه أبغض الخلق إليهم ليقبل منهم حينئذ ما يطلب اليوم بغضه من نصرتهم له واتباعهم لأمره وانقيادهم لهداه ويمنعونه إيّاه ، وكنى عن قصر ذلك المقام المتمنّي له بمقدار زمان جزر الجزور ، وصدقه عليه السلام في هذا الخبر ظاهر فإنّ أرباب السير نقلوا أن مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية قال يوم الزاب حين شاهد عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس : ماراً به في صفّ خراسان: نوددت أن علي بن أبي طالب تحت هذه الرايات بدلاً من هذا الفتى . والقصة مشهورة . وبالله التوفيق .

٩١ - ومن خطبة له (عليه السلام)

فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَا يَبْلُغُهُ بُعْدُ ٱلْهِمَمِ ، وَلَا يَنَالُهُ حَدْسُ ٱلْفِطَنِ ، ٱلْأَوَّلُ ٱلَّذِي لَا غَايَةَ لَهُ فَيَنْتَهِي ، وَلَا آخِرَ لَهُ فَيَنْقَضِي .

أقول : تبارك : قيل : مشتق من البروك المستلزم للمقام في موضع واحد والثبات فيه ، وقيل : من البركة وهو الزيادة ، وبالاعتبار الأول يكون إشارة إلى عظمته باعتبار دوام بقائه واستحقاقه قدم الوجود لذاته وبقاء وجوده لا عن استفتاح ولا إلى انقطاع ، وبالاعتبار الثاني إشارة إلى فضله وإحسانه ولطفه وهدايته ووجوه الثناء عليه .

وقوله : الذي لا يبلغه بعد الهمم ولا يناله حدس الفطن .

كقوله في صدر الخطبة الأولى الذي لا يدركه بعد الهمم ولا يناله غوص الفطن إلاّ أنه أبدل الغوص هنا بالحدس : والحدس في اللغة الظن ،

وفي اصطلاح العلماء لما كان الفكر عبارة عن حركة الذهن منتقلاً من المطالب إلى المبادىء ثم منها إلى المطالب كان الحدس عبارة عن جودة هذه الحركة إلى اقتناص الحد الأوسط من غير طلب وتجشّم كلفة ، وهو مقول بحسب التشكيك ، وهو بجميع اعتباراته وبأعلى رتبته قاصر عن تناول ذات الحق تعالى كما سبق .

وقوله : الأول إلى آخره .

وقد مر تفسير أوليته وآخريته غير مرة . وبالله التوفيق .

فَاسْتَوْدَعَهُمْ فِي أَفْضَلِ مُسْتَوْدَعٍ ، وَأَقَرَّهُمْ فِي خَيْرِ مُسْتَقَرٍّ ، تَنَاسَخَتْهُمْ كَرَائِمُ ٱلْأَصْلَابِ إِلَى مُطَهَّرَاتِ ٱلْأَرْحَامِ . كُلَّمَا مَضَى مِنْهُمْ سَلَفٌ ، قَامَ مِنْهُمْ بِدِينِ ٱللَّهِ خَلَفٌ .

حَتَّى أَفْضَتْ كَرَامَةُ ٱللَّهِ سُبْحَانَهُ إِلَى مُحَمَّدٍ، صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، فَأَخْرَجَهُ مِنْ أَفْضَلِ ٱلْمَعَادِنِ مَنْبِتاً ، وَأَعَزِّ ٱلْأُرُومَاتِ مَغْرِساً ، مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ٱلَّتِي صَدَعَ مِنْهَا أَنْبِيَاءَهُ ، وَٱنْتَخَبَ مِنْهَا أُمَنَاءَهُ ، عِتْرَتُهُ خَيْرُ ٱلْعِتَرِ ، وَأُسْرَتُهُ خَيْرُ ٱلْأُسَرِ ، وَشَجَرَتُهُ خَيْرُ ٱلشَّجَرِ ، نَبَتَتْ فِي حَرَمٍ ، وَبَسَقَتْ فِي كَرَمٍ ، لَهَا فُرُوعٌ طِوَالٌ ، وَثَمَرَةٌ لَا تُنَالُ ، فَهُوَ إِمَامُ مَنِ ٱتَّقَى ، وَبَصِيرَةُ مَنِ ٱهْتَدَى ، سِرَاجٌ لَمَعَ ضَوْؤُهُ ، وَشِهَابٌ سَطَعَ نُورُهُ ، وَزَنْدٌ بَرَقَ لَمْعُهُ ، سِيرَتُهُ ٱلْقَصْدُ ، وَسُنَّتُهُ ٱلرُّشْدُ ، وَكَلَامُهُ ٱلْفَصْلُ ، وَحُكْمُهُ ٱلْعَدْلُ ، أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ ٱلرُّسُلِ ، وَهَفْوَةٍ عَنِ ٱلْعَمَلِ ، وَغَبَاوَةٍ مِنَ ٱلْأُمَمِ .

إِعْمَلُوا ، رَحِمَكُمُ ٱللَّهُ ، عَلَى أَعْلَامٍ بَيِّنَةٍ ، فَالطَّرِيقُ نَهْجٌ يَدْعُو إِلَى دَارِ ٱلسَّلَامِ ، وَأَنْتُمْ فِي دَارِ مُسْتَعْتَبٍ عَلَى مَهَلٍ وَفَرَاغٍ ، وَٱلصُّحُفُ مَنْشُورَةٌ ، وَٱلْأَقْلَامُ جَارِيَةٌ ، وَٱلْأَبْدَانُ صَحِيحَةٌ ، وَٱلْأَلْسُنُ مُطْلَقَةٌ ، وَٱلتَّوْبَةُ مَسْمُوعَةٌ ، وَٱلْأَعْمَالُ مَقْبُولَةٌ .

أقول : النسخ : النقل . وأفضت : انتهت . والأرومة : الأصل .

والصدع : الشق . وعترة الرجل : نسله ورهطه الأدنون . واسرته : قومه . وبسقت: طالت ، والزند : العود الأعلى يقدح به . ونهج: واضح .

وقوله. واستودعهم. إلى قوله: خلف.

إشارة إلى الأنبياء عليهم السلام القائمين بدين الله . واعلم أن دين الله واحد بعثت جميع الأنبياء لتسليك الخلق إياه وله أصل وفروع فأصله الطريق إلى معرفته ، والاستكمال بها، وجماع مكارم الأخلاق ، ونظام أمر الخلق في معاشهم ومعادهم وهذه الأمور هي المراد من الشرع وهو أصل لا يخالف فيه نبي نبيّاً . فأما الاختلافات الواقعة في الشرائع فهي أمور جزئية بحسب مصالح جزئية تتعلق بوقت الرسول المعيّن وحال الخلق المرسل إليهم يوقع عليها ذلك الأصل ، وتكون كالمشخصات له والعوارض التي تختلف بها الطبيعة الواحدة النوعية . وأفضل مستودع استودعهم فيه حظائر قدسه ومنازل ملائكته وهو خير مستقر أقرّهم فيه ومحل كرامته في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، وتناسخ الأصلاب لهم إلى مطهرات الأرحام نقلهم إليها نطفاً ، وكرائم الأصلاب : ما كرم منها وحق لأصلاب سمحت بمثلهم أن توصف بالكرم . ومطهرات الأرحام : ما طهر منها وحق لما استعد منها لإنتاج مثل هذه الأمزجة وقبولها أن تكون طاهرة من كدر الفساد . والشيعة يطهّرون أصول الأنبياء من طرف الآباء والأُمهات عن الشرك ونحوه قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : نقلنا من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الزكية . ويحتمل أن يريد بأفضل مستودع وخير مستقر في مبدئهم أصلاب الآباء وأرحام الأمهات ويكون قوله : تناسختهم تفسيراً له وبياناً .

وقوله : كلما مضى منهم سلف قام بدين الله منهم خلف.

إشارة إلى ضرورة وجود الأنبياء عند الحاجة إليهم على التعاقب ، وقد سبقت الإشارة إليه .

وقوله : حتى أفضت كرامة الله إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم . إلى قوله : أُمناءه .

إشارة إلى غاية سلسلة الأنبياء(ع) وكنى بكرامة الله عن النبوة واستعار لفظ

المعدن والمنبت والمغرس لطينة النبوة وهي مادته القريبة التي استعدت لقبول مثله، ووجه الاستعارة أن تلك المادة منشأ لمثله كما أن الأرض معدن الجواهر ومغرس الشجر الطيّب، **وظاهر أن أصلاً سمح بمثله أفضل المعادن وأعزّ الأصول**، وقيل: أراد بذلك مكة ـ شرّفها الله تعالى ـ وقيل: بيته وقبيلته ثم ميّزه بما هو أخصّ وأشرف فقال: من الشجرة التي صدع منها أنبياءه فاستعار لفظ الشجرة لصنف الأنبياء، وكما أن الشجرة أشرف من طينتها كذلك صنف الأنبياء أشرف من قوابل صورهم، ووجه الاستعارة هو ما كنى بالانصداع عنه من تفرّع أشخاص الأنبياء عن صنفهم كما يتفرّع أغصان الشجرة منها وأمناءه: أي على رسالته.

وقوله: عترته خير العتر وأُسرته خير الأسر.

بدأ بالعترة لما عرفت أنها أخص، وأقرب من الأُسرة، ومصداق أفضلية عترته قوله صلى الله عليه وآله وسلم: سادة أهل المحشر سادة أهل الدنيا أنا وعلي وحسن وحسين وحمزة وجعفر. ووجه أفضليّة أُسرته قوله صلى الله عليه وآله وسلم: إن الله اصطفى من العرب معداً، واصطفى من معد بني النضر بن كنانة، واصطفى هاشماً من بني النضر، واصطفاني من بني هاشم. وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: قال لي جبرائيل: يا محمد قد طفت الأرض شرقاً وغرباً فلم أجد فيها أكرم منك ولا بيتاً أكرم من بني هاشم. وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: الناس تبع لقريش برّهم لبرّهم وفاجرهم لفاجرهم.

وقوله: وشجرته خير الشجر.

قيل: أراد بالشجر في الموضعين إبراهيم عليه السلام، وقيل: أراد هاشماً وولده بقرينة قوله: نبتت في حرم وأراد مكة، ورشح تلك الاستعارة بوصف الإنبات والبسق، وكنى بالكرم الذي فيه عن زكاء أصله وما استلزم من الفضل، وكنى بالفروع عن أهله صلى الله عليه وآله وسلم وذريته وسائر النجباء من بني هاشم، وبوصفهم بالطول عن بلوغهم في الشرف والفضل الغاية البعيدة، وهو ترشيح للاستعارة وكذلك الثمر، وكنى به عن العلوم والأخلاق المتفرعة عنه وعن

أئمة أمته ، وبكونها لا تنال عن شرفها وغموض أسرارها : أي أنها لشرفها وعلوها لا يمكن أن يطاول فيها ، أو لغموض أسرارها لا تصل الأذهان إليها .

وقوله : فهو إمام من اتقى . إلى قوله : لمعة .

استعار لفظ البصيرة والسراج والشهاب ، والزند له صلى الله عليه وآله وسلم ، ووجه الاستعارة كونه سبب هداية الخلق كما أن هذه الأمور الثلاثة كذلك ورشح استعارة السراج بلمعان الضوء والشهاب بسطوع النور والزند ببروق اللمع ، ويحتمل أن يكون وجه استعارة الزند هو كونه مثيراً لأنوار العلم والهداية .

وقوله : سيرته القصد .

أي طريقته العدل والاستواء على الصراط المستقيم وعدم الانحراف إلى أحد طرفي الإفراط والتفريط ، وسنّته الرشد : أي سلوك طريق الله عن هدايته ، وكلامه الفصل : أي الفاصل بين الحق والباطل كقوله تعالى : ﴿ **إنه لقول فصل** ﴾وحكمه العدل الواسط بين رذيلتي الظلم والانظلام .

وقوله : أرسله على حين فترة من الرسل وهفوة من العمل .

أي زلّة عنه وغباوة من الأمم : أي جهل منهم وعدم فطنة لما ينبغي ، وقد سبق بيان الفترة .

وقوله : اعملوا رحمكم الله على أعلام بيّنة .

استعار لفظ الأعلام لأئمة الدين وما بأيديهم من مصابيح الهدى ، وكنى بكونها بيّنة عن وجودها وظهورها بين الخلق .

وقوله : والطريق نهج يدعو إلى دار السلام .

فالطريق : الشريعة . ونهجه : وضوحها في زمانه عليه السلام وقرب العهد بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم وظاهر كون الشريعة داعية إلى الجنة . وإسناد الدعوة إلى الطريق مجاز إذ الداعي قيّم الطريق وواضعها .

وقوله : وأنتم في دار مستعتب .

أي دار الدنيا التي يمكن أن يستعتبوا فيعتبوا : أي يطلبوا رضا الله بطاعته فرضي عنكم ، وعلى مهل : أي إمهال وإنظار وفراغ من عوائق الموت وما بعده .

وقوله : والصحف منشورة . إلى آخره .

الواوات السبع للحال ، والمراد صحائف الأعمال وأقلام الحفظة على الخلق أعمالهم . وفائدة التذكير بهذه الأمور التنبيه على وجوب العمل معها وتذكر أضدادها مما لا يمكن معه العمل ولا ينفع الندم من الموت وطي الصحف وجفاف الأقلام وفساد الأبدان وخرس الألسنة وعدم سماع التوبة كما قال تعالى : ﴿ **فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون** ﴾(١) وبالله التوفيق .

٩٢ - ومن خطبة له (عليه السلام)

بَعَثَهُ وَٱلنَّاسُ ضُلَّالٌ فِي حَيْرَةٍ ، وَخَابِطُونَ فِي فِتْنَةٍ ، قَدِ ٱسْتَهْوَتْهُمُ ٱلْأَهْوَاءُ ، وَٱسْتَزَلَّتْهُمُ ٱلْكِبْرِيَاءُ ، وَٱسْتَخَفَّتْهُمُ ٱلْجَاهِلِيَّةُ ٱلْجَهْلَاءُ ، حَيَارَى فِي زِلْزَالٍ مِنَ ٱلْأَمْرِ ، وَبَلَاءٍ مِنَ ٱلْجَهْلِ ، فَبَالَغَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي ٱلنَّصِيحَةِ ، وَمَضَى عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ ، وَدَعَا إِلَى ٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ .

أقول : الفصل لتقرير فضيلة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، والواو في والناس للحال : أي في حال ما هم ضالّون عن سبيل الله في حيرة من أمرهم ماذا يتبعون . وخابطون في فتنة : أي كانت حركاتهم على غير نظام في ضلال البدع ، ومن روى حاطبون فهو استعارة ، وجهها كونهم يجمعون في ضلالهم وفتنتهم ما اتفق من أقوال وأفعال كما يجمع الحاطب ، ومنه المثل : حاطب ليل. لمن جمع الغثّ والسمين ، والحق والباطل في أقواله .

وقوله : قد استهوتهم الأهواء .

أي جذبتهم الآراء الباطلة إلى مهاوي الهلاك أو إلى نفسها ، واستزلّتهم

---

(١) ٣٠ - ٥٧ .

الكبرياء : أي قادتهم إلى الزلل والخطل عن طريق العدل واقتفاء آثار الأنبياء في التواضع ونحوه ، واستخفّتهم الجاهلية الجهلاء فطارت بهم إلى ما لا ينبغي من الغارات والفساد في الأرض فكانوا ذوي خفة وطيش ، ولفظ الجهلاء تأكيد للأول كما يقال : ليل أليل ووتد واتد .

وقوله : حيارى في زلزال من الأمر وبلاء من الجهل .

أي لا يهتدون لجهلهم إلى مصالحهم فهو منشأ اضطراب أمورهم وبلائهم بالغارات وسبي بعضهم بعضاً وقتلهم .

وقوله : فبالغ إلى آخره .

مضيّه على الطريقة سلوكه لسبيل الله من غير انحراف ، ودعوته إلى الحكمة والموعظة هي دعوته إلى سبيل الله بهما امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة** ﴾[1] فالدعوة بالحكمة الدعوة بالبرهان ، وبالموعظة الدعوة بالخطابة ، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في المقدمات . والله ولي التوفيق .

٩٣ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

أَلْحَمْدُ للَّهِ ٱلْأَوَّلِ فَلاَ شَيْءَ قَبْلَهُ ، وَٱلآخِرِ فَلاَ شَيْءَ بَعْدَهُ ، وَٱلظَّاهِرِ فَلاَ شَيْءَ فَوْقَهُ ، وَٱلْبَاطِنِ فَلاَ شَيْءَ دُونَهُ .

أقول : أثنى على الله سبحانه باعتبارات أربعة :

الأولية والآخرية والظاهرية والباطنية ، وأكد كل واحد منها بكماله فكمال الأولية بسلب قبليّة شيء عنه ، وكمال الآخرية بسلب بعديّة كل شيء له ، والظاهرية بسلب فوقيّة شيء له ، والباطنية بسلب شيء دونه . والمراد بالظاهر هنا العالي فلذلك حسن تأكيده بسلب فوقية الغير له ، وبالباطن الذي بطن خفيّات الأمور علماً ، وهو بهذا الاعتبار أقرب الأشياء إليها فلذلك حسن

---

(1) ١٦ ـ ١٢٦ .

تأكيده بسلب ما هو دونه : أي ما هو أقرب إليها منه وحصلت حينئذ المقابلة بين الداني والعالي ، ويحتمل أن يريد بالظاهر البيّن، ويكون معنى قوله : فلا شيء فوقه : أي لا شيء يوازي وجوده ويحجبه عن معرفة خلقه به . وبالباطن الخفي ومعنى فلا شيء دونه : أي في الخفاء ، وقد سبق بيان هذه الاعتبارات الأربعة غير مرة . وبالله التوفيق .

مِنْهَا فِي ذِكْرِ ٱلرَّسُولِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ :

مُسْتَقَرُّهُ خَيْرُ مُسْتَقَرٍّ، وَمَنْبِتُهُ أَشْرَفُ مَنْبِتٍ ، فِي مَعَادِنِ ٱلْكَرَامَةِ ، وَمَمَاهِدِ ٱلسَّلاَمَةِ ، قَدْ صُرِفَتْ نَحْوَهُ أَفْئِدَةُ ٱلْأَبْرَارِ ، وَثُنِيَتْ إِلَيْهِ أَزِمَّةُ ٱلْأَبْصَارِ ، دَفَنَ بِهِ ٱلضَّغَائِنَ ، وَأَطْفَأَ بِهِ ٱلثَّوَائِرَ ، أَلَّفَ بِهِ إِخْوَاناً ، وَفَرَّقَ بِهِ أَقْرَاناً ، أَعَزَّ بِهِ ٱلذِّلَّةَ ، وَأَذَلَّ بِهِ ٱلْعِزَّةَ ، كَلاَمُهُ بَيَانٌ وَصَمْتُهُ لِسَانٌ .

أقول : المماهد : جمع ممهد ، والميم زائدة . وثنيت إليه : أي صرفت . والضغائن : الأحقاد . والنوائر : جمع نائرة ، وهي العداوة والمخاصمة. والأقران : الأخوان المقترنون .

وأشار بمستقره إلى مكة وكونها مستقر لكونها أُم القرى ومقصد خلق الله ومحل كعبته ، ويحتمل أن يريد محلّه من جود الله وعنايته وظاهر كونه خير مستقر ، واستعار لفظ المنبت والمعدن ، وقد مرّ بيان وجه استعارتهما ، ومماهد السلامة محال التوطئة لها ، وهي كناية عن مكة والمدينة وما حولها فإنها محل لعبادة الله والخلوة به التي هي مهاد السلامة من عذابه .

وإنما كانت كذلك لكونها دار القشف خالية عن المشتهيات والقينات الدنيوية ، ويحتمل أن يريد بمماهد السلامة ما تقلّب فيه ونشأ عليه من مكارم الأخلاق الممهدة للسلامة من سخط الله ، وفي قوله : وقد صرفت نحوه أفئدة الأبرار . تنبيه على أن الصارف هو لطف الله وعنايته بهم بإلفات قلوبهم إلى محبته والاستضاءة بأنوار هداه ، ولما استعار لفظ الأزمة للأبصار ملاحظة لشبهها بمقاود الإبل رشح تلك الاستعارة بذكر الثني وكنى بذلك عن التفات

الخلق إليه بأبصار بصائرهم وتلقي الرحمة الإلهية منه ثم استعار لفظ الدفن لإخفاء الأحقاد به بعد أن كانت ظاهرة مجاهراً بها . ولفظ الإطفاء لإزالة العداوات بين العرب بالتأليف بين قلوبهم كما قال تعالى في إظهار المنّة على عباده ﴿ **واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته إخواناً** ﴾(١)، والأقران المفرّق لهم هم المتألفون على الشرك .

وقوله : أعزّ به الذلة .

أي ذلّة الإسلام وأهله . وأذلّ به العزّة : أي عزّة الشرك وأهله ، وبين كل قرينتين من هذه الستّ مقابلة ومطابقة فقابل بالتفريق التأليف وبالذلة الإعزاز وبالعزة الإذلال .

وقوله : وكلامه بيان .

أي لما انغلق من أحكام كتاب الله كقوله تعالى : ﴿ **ليبيّن للناس ما نزل إليهم** ﴾ .

وقوله : وصمته لسان .

استعار لفظ اللسان لسكوته ، ووجه المشابهة أن سكوته صلى الله عليه وآله وسلم مستلزم للبيان من وجهين :

أحدهما : أنه يسكت عما لا ينبغي من القول فيعلّم الناس السكوت عن الخوض فيما لا يعنيهم .

الثاني : أن الصحابة كانوا إذا فعلوا فعلاً على سابق عادتهم فسكت عنهم ولم ينكره عليهم علموا بذلك أنه على حكم الإباحة . فكان سكوته عنهم في ذلك بياناً له وأشبه سكوته عنه باللسان المعرب من الأحكام . وبالله التوفيق .

---

(١) ٣-٩٨ .

٩٤ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

وَلَئِنْ أَمْهَلَ ٱلظَّالِمَ فَلَنْ يَفُوتَ أَخْذُهُ ، وَهُوَ لَهُ بِالْمِرْصَادِ عَلَى مَجَازِ طَرِيقِهِ ، وَبِمَوْضِعِ ٱلشَّجَى مِنْ مَسَاغِ رِيقِهِ . أَمَا وَٱلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيَظْهَرَنَّ هٰؤُلَاءِ ٱلْقَوْمُ عَلَيْكُمْ ، لَيْسَ لِأَنَّهُمْ أَوْلَى بِالْحَقِّ مِنْكُمْ ، وَلٰكِنْ لِإِسْرَاعِهِمْ إِلَى بَاطِلِ صَاحِبِهِمْ وَإِبْطَائِكُمْ عَنْ حَقِّي . وَلَقَدْ أَصْبَحَتِ ٱلْأُمَمُ تَخَافُ ظُلْمَ رُعَاتِهَا ، وَأَصْبَحْتُ أَخَافُ ظُلْمَ رَعِيَّتِي : إِسْتَنْفَرْتُكُمْ لِلْجِهَادِ فَلَمْ تَنْفِرُوا ، وَأَسْمَعْتُكُمْ فَلَمْ تَسْمَعُوا ، وَدَعَوْتُكُمْ سِرّاً وَجَهْراً فَلَمْ تَسْتَجِيبُوا ، وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَلَمْ تَقْبَلُوا أَشُهُودٌ كَغُيَّابٍ ، وَعَبِيدٌ كَأَرْبَابٍ ؟؟!! أَتْلُوا عَلَيْكُمُ ٱلْحِكَمَ فَتَنْفِرُونَ مِنْهَا ، وَأَعِظُكُمْ بِالْمَوْعِظَةِ ٱلْبَالِغَةِ فَتَتَفَرَّقُونَ عَنْهَا ، وَأَحُثُّكُمْ عَلَى جِهَادِ أَهْلِ ٱلْبَغْيِ فَمَا آتِي عَلَى آخِرِ ٱلْقَوْلِ حَتَّى أَرَاكُمْ مُتَفَرِّقِينَ أَيَادِي سَبَأ، تَرْجِعُونَ إِلَى مَجَالِسِكُمْ ، وَتَتَخَادَعُونَ عَنْ مَوَاعِظِكُمْ ، أُقَوِّمُكُمْ غُدْوَةً وَتَرْجِعُونَ إِلَيَّ عَشِيَّةً كَظَهْرِ ٱلْحَيَّةِ ، عَجِزَ ٱلْمُقَوِّمُ، وَأَعْضَلَ ٱلْمُقَوَّمُ .

أَيُّهَا ٱلشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ ، ٱلْغَائِبَةُ عُقُولُهُمْ ، ٱلْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ ، ٱلْمُبْتَلَى بِهِمْ أُمَرَاؤُهُمْ ! صَاحِبُكُمْ يُطِيعُ ٱللَّهَ وَأَنْتُمْ تَعْصُونَهُ ، وَصَاحِبُ أَهْلِ ٱلشَّامِ يَعْصِي ٱللَّهَ وَهُمْ يُطِيعُونَهُ ؟! لَوَدِدْتُ وَٱللَّهِ أَنَّ مُعَاوِيَةَ صَارَفَنِي بِكُمْ صَرْفَ ٱلدِّينَارِ بِالدِّرْهَمِ ، فَأَخَذَ مِنِّي عَشَرَةً مِنْكُمْ وَأَعْطَانِي رَجُلاً مِنْهُمْ .

يَا أَهْلَ ٱلْكُوفَةِ ، مُنِيتُ مِنْكُمْ بِثَلَاثٍ وَٱثْنَتَيْنِ : صُمٌّ ذَوُو أَسْمَاعٍ ، وَبُكْمٌ ذَوُو كَلَامٍ ، وَعُمْيٌ ذَوُو أَبْصَارٍ ، لَا أَحْرَارُ صِدْقٍ عِنْدَ ٱللِّقَاءِ ، وَلَا إِخْوَانُ ثِقَةٍ عِنْدَ ٱلْبَلَاءِ .

يَا أَشْبَاهَ ٱلْإِبِلِ غَابَ عَنْهَا رُعَاتُهَا ، كُلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ ، تَفَرَّقَتْ مِنْ جَانِبٍ آخَرَ . وَٱللَّهِ لَكَأَنِّي بِكُمْ فِيمَا إِخَالُ أَنْ لَوْ حَمِسَ ٱلْوَغَى وَحَمِيَ ٱلضِّرَابُ وَقَدِ ٱنْفَرَجْتُمْ عَنِ ٱبْنِ أَبِي طَالِبٍ ٱنْفِرَاجَ ٱلْمَرْأَةِ عَنْ قُبُلِهَا . وَإِنِّي لَعَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ

رَبِّي ، وَمِنْهَاجٍ مِنْ نَبِيِّي . وَإِنِّي لَعَلَى ٱلطَّرِيقِ ٱلْوَاضِحِ أَلْقُطُهُ لَقْطاً . أُنْظُرُوا أَهْلَ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ فَٱلْزَمُوا سَمْتَهُمْ ، وَٱتَّبِعُوا أَثَرَهُمْ فَلَنْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ هُدىً ، وَلَنْ يُعِيدُوكُمْ فِي رَدىً ، فَإِنْ لَبَدُوا فَٱلْبُدُوا ، وَإِنْ نَهَضُوا فَٱنْهَضُوا ، وَلَا تَسْبِقُوهُمْ فَتَضِلُّوا ، وَلَا تَتَأَخَّرُوا عَنْهُمْ فَتَهْلِكُوا .

لَقَدْ رَأَيْتُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَمَا أَرَى أَحَداً مِنْكُمْ يُشْبِهُهُمْ ، لَقَدْ كَانُوا يُصْبِحُونَ شُعْثاً غُبْراً ، وَقَدْ بَاتُوا سُجَّداً وَقِيَاماً ، يُرَاوِحُونَ بَيْنَ جِبَاهِهِمْ وَخُدُودِهِمْ ، وَيَقِفُونَ عَلَى مِثْلِ ٱلْجَمْرِ مِنْ ذِكْرِ مَعَادِهِمْ ، كَأَنَّ بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ رُكَبَ ٱلْمِعْزَى ، مِنْ طُولِ سُجُودِهِمْ ! إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ هَمَلَتْ أَعْيُنُهُمْ حَتَّى تَبُلَّ جُيُوبَهُمْ ، وَمَادُوا كَمَا يَمِيدُ ٱلشَّجَرُ يَوْمَ ٱلرِّيحِ ٱلْعَاصِفِ ، خَوْفاً مِنَ ٱلْعِقَابِ ، وَرَجَاءَ ٱلثَّوَابِ .

أقول : المرصاد : الطريق يرصد بها، والرصد الراقب . والشجى : الغصص بلقمة وغيرها . والحث : السوق الشديد . وأعضل : أشكل. والحية : القوس . ومني : ابتلي . وتربت : أصابت التراب دون الخير . وأخال : أحسب . والوغى : الحرب وأصله من الأصوات . وحمس : اشتد . والسمت : الطريقة. ولبد الطائر : لصق بالأرض.

فقوله : ولئن أمهل الله الظالم . إلى قوله : ريقه.

في معرض التهديد لأهل الشام . بأخذ الله لهم وعدم قوتهم . وأنه لهم بالرصد على جميع حركاتهم وعلى مجاز طريقهم التي هم سالكوها ضلالاً وعلى موضع الشجى من مساغ ريقهم وهو الحلق ، وفي ذكر الشجى وكون الله بالرصد تنبيه على أن الله تعالى في مظنة أن يرمي الظالم بعقوباته عند اطلاعه على ظلمه كما قال تعالى : ﴿ **أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين أو يأخذهم على تخوف** ﴾[1]. ثم أردف ذلك بالقسم البار ليظهرنّ

(١) ١٦ ـ ٤٨.

أصحاب معاوية عليهم تنفيراً لهم إلى مقاومتهم .

ثم نفى ما عساه يتوهمه أنه علّة غلبهم لهم كيلا يتخاذلون بسبب ذلك وهو قوله : ليس لأنهم أولى بالحق منكم ، وأردفه بتعيين السبب الحق في ذلك، وهو قوله : لكن لإسراعهم إلى باطل صاحبهم : أي أمره بالباطل وإبطائكم عن حقي إذ كانت النصرة باجتماع الكلمة وطاعة الإمام لا باعتقاد حقّية إمرته مع التخاذل عنه ، ثم أردف ذلك بتوبيخهم وتنفيرهم عمّا هم عليه من مخالفة أمره بقوله :

ولقد أصبحت الأمم . إلى قوله : رعيتي . لأن شأن الرعية الخوف من سلطانها فإذا كان حاله مع رعيّته بالعكس كانت اللائمة عليهم بعصيانه دون حجة لهم عليه .

وأما التنفير فيذكر أنهم في محل ظلم نفسه ولقد أشفق عليه السلام منهم في مواطن كثيرة كيوم التحكيم إذ قالوا له : إن لم ترض فعلنا بك كما فعلنا بعثمان . ونحو ذلك ، ثم أردف وجوه تقصيرهم ببيان ما فعل في حقهم من الأيادي الجميلة والهداية إلى وجوه المصالح من استنفارهم لجهاد عدوّهم وحفظ بلادهم وإسماعهم الدعوة إلى مصالحهم سراً وجهراً ونصيحته لهم بالوجوه الصائبة من الرأي وهو كقوله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام : ﴿ **قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يزدهم دعائي إلاّ فراراً وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا** ﴾ إلى قوله : ﴿ **أسراراً** ﴾[1] .

ثم شبههم بالغياب مع شهادتهم وبالأرباب مع كونهم عبيداً ، ووجه الشبه أن الفائدة في شاهد الموعظة دون الغائب عنها هي سماعها ، والانتفاع بها فإذا ليسوا كذلك فهم كالغياب عنها في عدم الانتفاع بها .

وأما الثانية فلأنهم رعيّة من شأنهم التعبّد لأوامر أُمرائهم ثم إنهم

---

(١) ٧١ ـ ٥.

لتعزّزهم وشموخهم كبراً وعدم طاعتهم كالأرباب الذين من شأنهم أن يأمروا ولا يأتمروا ثم وبّخهم بنفارهم عما يتلو عليهم من الحكم وتفرّقهم عن مواعظه البالغة . وأهل البغي إشارة إلى أهل الشام . وأيادي سبأ: مثل يضرب في شدة التفرق وضربه لتفرّقهم عن مجالس الذكر وهما لفظان جعلا اسماً واحداً كمعدي كرب ، سبأ قبيلة من أولاد سبأ بن يشحب بن يعرب ابن قحطان ، وأصل المثل أن هذه القبيلة كانت بمأرب فلما آن وقت انفتاح سدّ مأرب ورأت طريقة الكاهنة ذلك الأمر وعرفته ألقته إلى عمرو بن عامر الملقب بمزيقيا فباع أمواله بمأرب وارتحل إلى مكة فأصابت هؤلاء الحمى ، وكانوا لا يعرفونها ففزعوا إلى الكاهنة فأخبرتهم بما سيقع ، وقالت إنه مفرّق بيننا فاستشاروها في أمرهم فقالت: من كان منكم ذا همّ بعيد ، وحمل شديد ، ومراد حديد فليلحق بقصر عمّان المشيد . فكانت أزد عمّان ، ثم قالت : ومن كان منكم ذا جلد وقسر ، وصبر على أزمات الدهر فعليه بالإدراك من بطن نمر. فكانت خزاعة، ثم قالت: ومن كان منكم يريد الراسيات في الوحل المطعمات في المحل فليلحق بيثرب ذات النخل فكانت الأوس والخزرج، ثم قالت : ومن كان منكم يريد الخمر والخمير ،والملك والتأمير، ويلبس الديباج والحرير فليلحق ببصرى وغوير ، وهما من أرض الشام فكان الذين يسكنونها آل جفنية من غسان ، ثم قالت : ومن كان منكم يريد الثياب الرقاق، والخيل العتاق وكنوز الأرزاق والدم المهراق فليلحق بأرض العراق فكانت آل جذيمة الأبرش ، ومن كان بالحيرة وآل محرّق . فضربت العرب بتفرّقهم في البلاد هذا المثل وسار فيمن يتفرّق بعد اجتماع .

ثم لما كانت المخادعة هي الاستغفال عن المصلحة قال : يتخادعون : أي أنهم إذا رجعوا من مجلس وعظه أخذ كل منهم يستغفل صاحبه عن تذكر الموعظة ويشغله بغير ذلك من الأحاديث وإن لم يكن عن قصد خداع. بل تقع منهم صور المخادعة، وتقويمه لهم بالغدوة إصلاح أخلاقهم بالحكم والمواعظ ورجوعهم إليه عشية كظهر الحية : أي معوّجين كظهر القوس وهو

تشبيه للمعقول من اعوجاجهم وانحرافهم عن جميل الأخلاق بالمحسوس .

وقوله : عجز المقوّم .

إشارة إلى نفسه واعتراف بعجزه عن تقويمهم وأعضل المقوّم : أي أشكل أمرهم وأعيته أدواؤهم علاجاً ، ثم عاد إلى ندائهم وتنبيههم بذكر معائبهم لينفر عقولهم عنها فوصفهم بشهادة الأبدان مع غيبة العقول ثم باختلاف الأهواء. ثم بكونهم ممّن ابتلى بهم أمراؤهم ثم نبّههم على رذيلتهم من مخالفة أمره مع كونه مطيعاً لله ، وما عليه خصومهم من فضيلة طاعة إمامهم مع كونه عاصياً لله ، وجعل ذلك مقايسة بينهم ليظهر الفرق فتدركهم الغيرة. ثم أردفه بتحقيرهم وتفضيل عدوّهم عليهم في البأس والنجدة واستقامة الحال فأقسم أنه ليودّ أن يصارفه معاوية بهم صرف الدينار بالدرهم وذلك قوله : رجلاً منهم .

ثم أردف ذلك ببيان ما ابتلي به منهم ، وأشار إلى خمس خصال ، وإنما قال بثلاث واثنتين لتناسب الثلاث وكون الثنتين من نوع آخر فالثلاث : الصمم مع كونهم ذوي أسماع والبكم مع كونهم ذوي كلام والعمي مع كونهم ذوي أبصار ، وجمعه لهذه الثلاثة مع أضدادها هو سبب التعجب منهم والتوبيخ لهم وأراد بها عدم انتفاعهم في مصالحهم الدينية ونظام أمور دولتهم بآلة السمع واللسان والعين. فإن من لم يفده سمعه وبصره عبرة ومن لم يكن كلامه فيما لا يعنيه كان كفاقد هذه الآلات في عدم الانتفاع بها. بل كان فاقدها أحسن حالاً منه لأن وجودها إذا لم يفد منفعة أكسب مضرة قد أمنها عادمها ، وأما الثنتان فكونهم لا أحرار صدق عند اللقاء : أي أنهم عند اللقاء لا تصدق حريتهم ولا تبقى نجدتهم من مخالطة الجبن والتخاذل والفرار إذ الحرّ هو الخالص من شوب الرذائل والمطاعن، ثم كونهم غير إخوان ثقة عند البلاء : أي ليسوا ممّن يوثق باخوتهم في الابتلاء بالنوازل ، ثم عاد إلى الدعاء عليهم على وجه التضجّر منهم وتشبيههم بالنعم فقوله : تربت أيديكم دعاء بعدم إصابة الخير .

وقوله : يا أشباه الإبل غاب عنها رعاتها كلما جمعت من جانب تفرقت من جانب .

ذكر للتشبيه والمشبّه به ، ووجه الشبه أردفه بذكر رذيلة يظنها منهم بأماراتها وهي تفرّقهم عنه على تقديره اشتباك الحرب ، وشبه انفراجهم عنه بانفراج المرأة عن قبلها ليرجعوا إلى الأنفة . وتسليم المرأة لقبلها وانفراجها عنه إما وقت الولادة أو وقت الطعان ثم عاد إلى ذكر فضيلته ليستثبت قلوبهم ، ويتألّفها والبيّنة التي هو عليها من ربه آيات الله وبراهينه الواضحة على وجوده والثقة بما هو عليه من سلوك سبيله وهو كقوله تعالى : ﴿ **قل إني على بيّنة من ربي** ﴾ والمنهاج من نبيّه طريقه وسنّته، والطريق الواضح الذي هو عليه سبيل الله وشريعة دينه ، والتقاطه له لقطاً تتبعه وتميّزه على طريق الضلال بالسلوك له ثم أردف فضيلته بالأمر باعتبار أهل البيت ولزوم سمتهم واقتفاء أثرهم ، وأشار إلى جهة وجوب اتباعهم بكونهم يسلكون بهم سبيل الهدى لا يخرجون عنه ولا يردونهم إلى ردى الجاهلية والضلال القديم ، وفيه إيماء إلى أنّ اتباع غيرهم يرد إلى ذلك وقوله : فإن لبدوا : أي إن سكنوا وأحبّوا لزوم البيوت على طلب أمر الخلافة والقيام فيه فتابعوهم في ذلك، فإن سكونهم قد يكون لمصلحة يغيب علمها عن غيرهم وإن نهضوا في ذلك فانهضوا معهم .

ثم نهاهم عن أن يسبقوا فيضلوا : أي إلى أمرٍ لم يتقدموكم فيه فإن متقدم الدليل شأنه الضلال عن القصد وأن لا يتأخروا عنهم فيهلكوا : أي لا يتأخروا عن متابعتهم في أوامرهم وأفعالهم بالمخالفة لهم فيكونوا من الهالكين في تيه الجهل وعذاب الآخرة . والإمامية تخصّ ذلك بالإثني عشر من أهل البيت عليهم السلام .

وقوله : ولقد رأيت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى آخره .

مدح لخواص الصحابة وذكر مكانهم من خشية الله ودينه ترغيباً في مثل تلك الفضائل، وحرّك بقوله : فما أرى أحداً يشبههم . ما عساه يدرك السامعين من الغيرة على تلك الفضائل أن يختصّوا بها دونهم وذكر من

مماد حهم أوصافاً :

أحدها : الشعث والاغبرار وهو إشارة إلى قشفهم وتركهم زينة الدنيا ولذاتها .

الثاني : بياتهم سجداً وقياماً ، وأشار به إلى إحيائهم الليل بالصلاة وهو كقوله تعالى : ﴿ **والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً** ﴾ .

الثالث : مراوحتهم بين جباههم وخدودهم ، وقد كان أحدهم إذا تعبت جبهته من طول السجود راوح بينها وبين خدّيه .

الرابع : وقوفهم على مثل الجمر من ذكر معادهم وأشار به إلى قلقهم ووجدهم من ذكر المعاد وأهوال يوم القيامة كما يقلق الواقف على الجمر مما يجده من حرارته .

الخامس : كأنّ بين أعينهم ركب المعزى من طول سجودهم ، ووجه المشابهة أن محالّ سجودهم من جباههم كانت قد اسودّت وماتت جلودها وقست كما أن ركب المعزى كذلك .

السادس : أنهم كانوا إذا ذكر الله هملت أعينهم حتى تبلّ جيوبهم ، ومن روى جباههم فذلك في حال سجودهم ممكن . ومادوا كما تميد الشجر بالريح العاصف خوفاً من عقاب ربهم ورجاء لثوابه فتارة يكون ميدانهم وقلقهم عن خوف الله ، وتارة يكون عن ارتياح واشتياق إلى ما عنده من عظيم ثوابه وهو كقوله تعالى : ﴿ **الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم** ﴾ وبالله التوفيق .

٩٥ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

وَٱللَّهِ لَا يَزَالُونَ حَتَّى لَا يَدَعُوا لِلَّهِ مُحَرَّماً إِلَّا ٱسْتَحَلُّوهُ ، وَلَا عَقْداً إِلَّا حَلُّوهُ ، وَحَتَّى لَا يَبْقَى بَيْتُ مَدَرٍ ، وَلَا وَبَرٍ ، إِلَّا دَخَلَهُ ظُلْمُهُمْ ، وَنَبَا بِهِ سُوءُ رَعْيِهِمْ ، وَحَتَّى يَقُومَ ٱلْبَاكِيَانِ يَبْكِيَانِ ، بَاكٍ يَبْكِي لِدِينِهِ ، وَبَاكٍ يَبْكِي لِدُنْيَاهُ ،

وَحَتَّى تَكُونَ نُصْرَةُ أَحَدِكُمْ مِنْ أَحَدِهِمْ كَنُصْرَةِ ٱلْعَبْدِ مِنْ سَيِّدِهِ : إِذَا شَهِدَ أَطَاعَهُ ، وَإِذَا غَابَ ٱغْتَابَهُ ، وَحَتَّى يَكُونَ أَعْظَمُكُمْ فِيهَا عَنَاءً أَحْسَنَكُمْ بِٱللَّهِ ظَنّاً ، فَإِنْ أَتَاكُمُ ٱللَّهُ بِعَافِيَةٍ فَٱقْبَلُوا ، وَإِنِ ٱبْتُلِيتُمْ فَٱصْبِرُوا ، فَإِنَّ ٱلْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ .

أقول : نبا به المنزل: إذا لم يوافقه . والعناء . التعب .

والإشارة في هذا الفصل إلى بني أُمية فأقسم لا يزالون ظالمين فحذف الخبر للعلم به وذكر لظلمهم غايات :

إحداها : أنهم لا يدعون محرماً إلّا استحلّوه، وأعظم كبائر المحرمات الظلم وقتل النفس وحالهم فيهما مشهور فما ظنّك بغيرهما ، ومعنى قوله : استحلّوه : استعملوه كاستعمال الحلال في عدم التحرّج والتأثّم به .

الثانية : أن لا يدعو عقداً إلّا حلّوه : أي من عقود الإسلام التي نظم بها أمر العالم من قوانين الشرع وضوابطه، وحلّه كناية عن خرم تلك القواعد بمخالفتها .

الثالثة : أنه لا يبقى بيت مدر ولا وبر إلّا دخله ظلمهم ، وهو كناية عن عموم عداوتهم وبغيهم على جميع الخلق من البدو والحضر ، وقوله : ونبا به سوء رعيهم : أي أوجب سوء رعيهم لأهله نبوءهم عنه .

الرابعة : أن يقوم الباكيان باكٍ يبكي لدينه ، وباكٍ يبكي لدنياه .

الخامسة : وحتى تكون نصرة أحدكم من أحدهم كنصرة العبد من سيده ، ذكر المشبّه والمشبّه به ثم أشار إلى وجه الشبه بقوله : إذا شهد أطاعه وإذا غاب اغتابه .

السادسة : وحتى يكون أعظمكم فيها عناءً أحسنكم بالله ظناً ، وإنما كان كذلك لأنّ من حسن الظن بالله كان أشد الناس بعداً منهم وتوكلاً عليه فيكونون عليه أشد كلباً وله أقوى طلباً فكان منهم أكثر تعباً ، ثم أردف ذلك

بـأمر من أتتـه العافيـة أن يقبلها ، ويشكـر الله عليها نعمـة ، وأراد العافيـة من الابتلاء بشرورهم لبعض الناس أو بقائم عدل مخلص من بلائهم ، ويـأمر من ابتلى بهم بـالصبر على مـا ابتلى به ووعـده على ذلـك بحسن العـاقبة لازمـاً للتقوى والصبر كما قال تعالى : ﴿ **واصبر إنّ العاقبة للمتقين** ﴾ .

فهرست أهمّ مطالب ما في هذا الجزء

العنوان الصفحة

